سمير الزين

صوت السماء
حكايات
عن الحرب والحب

الجزء الأول

صوت السماء

حكاياتٌ عن الحرب والحبِّ

الجزء الأوَّل

صوت السماء

حكاياتٌ عن الحرب والحبِّ

الجزء الأوَّل

سمير الزبن

رواية

الكتاب: صوت السماء، حكايات عن الحرب والحب، (الجزء الأوّل)
المؤلّف: سمير الزبن
التصنيف: رواية
التدقيق اللغوي: هبه سراج الدين
تصميم الغلاف: باسم صبّاغ
إخراج/تنسيق الكتاب: نغم عرنوق
الطبعة الأولى: تشرين الأوّل/أكتوبر 2025
الترقيم الدولي: 978-91-89925-45-8
المقاس: 14.5 × 21.5
عدد الصفحات: 666

info@lamassu-p.com
www.lamassu-p.com



المحتويات
الجزء الأوَّل

إلى أمِّي آمنة..
معلِّمي الأوَّل في الحياة

«عندما تفقد السفينة الاتجاه الصحيح، تصبح كلُّ الرياح غير مواتية»

قولٌ للملَّاحين العرب القدماء

«إنَّ الإنسان الذي يجد وطنه حلوًا ليس سوى مبتدئٍ رخوٍ، والذي يعدُّ كلَّ أرضٍ بالنسبة له كبلده هو قويٌّ بالفعل، لكنَّ الكامل وحده هو من يكون العالم كلُّه بالنسبة له بلدًا غريبًا. إنَّ اليافع يركِّز حبَّه على بقعةٍ واحدةٍ من العالم، والشخص القويُّ ينشر حبَّه على الأمكنة كلِّها، أمَّا الرجل الكامل فقد أطفأ شعلة حبِّه».

أوج دي سان ـ فيكتور

أيُّ تشابهٍ بين شخصيَّات وأحداث هذه الرواية وبين شخصيَّاتٍ وأحداثٍ في الواقع محض مصادفةٍ غير مقصودةٍ، وأحداث هذه الرواية وشخصيَّاتها من نسج الخيال المحض.

القذائف

أقسَم أبناء وبنات وأحفاد أحمد خليل وآمنة خليل في كلِّ أماكن وجودهم في قارَّات العالم الخمس اليمين، على أنَّهم سمعوا الحوار الصاخب بين والديهم/ جدَّيهم المتوفَّين منذ سنين. في ذلك اليوم، وصل صراخ الموتى إلى الجميع، وقد خيَّم على المخيَّم وكسر صمت الليل الذي ساد في سمائه لبعض الوقت في تلك الليلة القاسية، دُهِشَ الجميع ممَّا سمعوا، لم يشاهد أحدٌ منهم طَيفَي الميِّتَين، لكنَّهم سمعوا صوت الصراخ المدوِّي الذي ملأ العالم بكلِّ وضوحٍ في ليل منتصف كانون الأوَّل الصحو والبارد الذي خيَّم على أهل المخيَّم رعبًا لم يعرفوه من قبل، رعبٌ لا أحد يريد أن يعرف ما بعده.

دمَّرت قذيفة مدفع الهاون التي سقطت على المقبرة الجديدة في مخيَّم اليرموك القبرين المتجاورين للزوجين أحمد وآمنة، ونثرت عظامَيهِمَا مع شاهدتي القبرين ورخامهما إلى مسافاتٍ بعيدةٍ خارج المقبرة. ذهبت جهود سنواتٍ من الاعتناء بالقبرين أدراج الرياح، كانت قذيفةٌ واحدةٌ كافية لنبش القبرين وبعثرة عظام الميِّتَين الراقدين فيهما. اعتنى الأبناء بقبرَي والديهما اللذين توفِّيا في زمنٍ متقاربٍ، ودُفِنَا إلى جانب بعضهما تقديرًا لجهودهما في تربيتهما لهم، رغم كلِّ الصعاب التي اعترضت حياتهما طوال أكثر من خمسين عامًا من رحلة اللجوء من بلدتهم على سفح جبل الكرمل المطلِّ على البحر في فلسطين إلى دمشق. حتَّى أنَّ الحفيد أحمد الذي بقيَ في المخيَّم، لأنَّه لم يجد مكانًا يذهب إليه، فقرَّر الصمود هناك، قال إنَّه وجد

عظام جدَّيه وأجزاءً من شاهدتي قبريهما خارج المقبرة بمسافة أكثر من خمسين متراً، فهو لن يخطئ الشاهدتين اللتين وجد جزءًا من أحرف اسميهما على القطع المتناثرة، لأنَّه أشرف على صناعتهما وحفر اسمي جدَّيه عليهما وشهد التركيب بنفسه.

حرَّرت القذيفة التي نثرت فتات عظامهما مع حجارة القبرين روحيهما اللتين حلَّقتا في سماء المخيَّم ليلًا لتحتلَّا مكان صوت طائرة الميغ الحربيَّة، التي قصفت المخيَّم نهارًا وأصابت صواريخها جامع عبد القادر الحسيني، الذي كان يؤوي لاجئين هاربين من الاشتباكات المسلَّحة في الأحياء المحيطة بالمخيَّم، وقد حوَّل الصاروخ الذي أطلقته الطائرة، والذي أصاب مدخل الجامع أجساد اللاجئين من النساء والرجال والأطفال الواقفين أمام باب الجامع إلى أشلاء، التصق بعضٌ منها على جدار الجامع الخارجيِّ، تسبَّبت إزالتها بالكثير من الألم لطواقم الإسعاف والمتطوِّعين الذين هرعوا لإخلاء الجثث والجرحى. كما أصاب صاروخٌ آخر قذفته الطائرة ذاتها الباحة الخلفيَّة لمدرسة الجرمق الابتدائيَّة، ما أدَّى إلى اندلاق أحشاء المنازل المطلَّة على المدرسة، وأحال الانفجار الهائل كلَّ المنازل المحيطة إلى فوضًى عارمةٍ.

ليست صواريخ الطائرات ما تسبَّب في نبش القبرين وتحرير روحي الجدَّين اللتين خرجتا فزعتين من رقادهما، إنَّما قذيفة مدفع هاون من عيار 120مم أُطلِقَت من ثكنة الجيش المعروفة لأهالي المخيَّم باسم ثكنة «سفيان الثوري». أخذت الثكنة اسمها من الجامع المقابل لها، والواقعة على حدود المخيَّم من جهة الزاهرة، والكائنة مقابل بنايات القاعة العالية، وهي أبنيةٌ متجاورةٌ عدَّةٌ مؤلَّفةٌ من خمسة عشر طابقًا، التي عدَّها سكَّان المخيَّم عند بنائها نهاية السبعينيَّات من القرن الماضي ناطحات سحابٍ لارتفاعها الهائل بالنسبة لأبنية المخيَّم المتواضعة. تفصل هذه الأبنية المخيَّم عن أحياء مدينة دمشق من جهة الشمال، ويقابلها على الجهة الثانية أبنية الزاهرة مسبقة الصنع ذات الطوابق الأربعة التي تكمل حدود المخيَّم

الشماليَّة، وقد اعتاد جنود الجيش المتمركزين في الثكنة قصف المخيَّم والأحياء المحيطة به خلال أكثر من عامٍ سابقٍ على قصف الطائرة للمخيَّم.

دار حوارٌ وصدامٌ وخوفٌ وفزعٌ بين الروحين الفزعتين، أنصت جميع أفراد العائلة إليه في ظلِّ الرعب والقلق الذي أصاب الجميع من قصف طائرة الميغ للمخيَّم في اليوم السادس عشر من الشهر الثاني عشر من العام الثاني من عمر الدوَّامة السوريَّة التي استخدم فيها الكثير من الأسلحة. جاء صوت الجدَّين قلقًا وخائفًا على مصير الأبناء والأحفاد، لكنَّه قويٌّ وصاخبٌ، غطَّى على كلِّ ما عداه بالنسبة للأبناء والأحفاد الواقعين تحت ذهول صدمة قصف الطائرات لمخيَّمهم الآمن، والمحتارين بقرارهم، هل يبقون في المخيَّم، أم يذهبون إلى متاهة لجوءٍ جديدٍ؟! استمرَّ الحوار الصاخب والمتوتِّر حتَّى شروق شمس النهار التالي بعد ليلٍ طويلٍ، بعدها صمتت الروحان ولم يُسمَعَا بعد ذلك، وغادرتا سماء المخيَّم نحو المجهول، وتركتا الدهشة والحيرة وراءهما لدى جميع الأبناء والأحفاد الذين أصغوا للحوار، وبعدها لم تظهر لهما أيُّ علامةٍ من علامات الوجود، ولم يسمع أحدٌ صوت أيٍّ منهما من جديدٍ.

أقسم الجميع أنَّ الصراخ وصل إلى كلِّ مكانٍ كان لهما فيه ابنٌ أو ابنةٌ أو حفيدٌ أو حفيدةٌ، من المخيَّم إلى صحنايا إذ استيقظت الابنة الكبرى بيان فزعةً من نومها، لأنَّها سمعت صراخ والديها في الحلم، وعندما استيقظت استمرَّت في سماع صراخهما، فغرقت في بكاءٍ طويلٍ. إلى السعودية حيث يروي الحفيد فاضل أنَّه قام فزعًا من صراخ الروحين، توقَّع أنَّه يحلمٌ، غسل وجهه بالماء البارد، لكنَّ الأصوات بقيت تصرخ في سماء المخيَّم، عندما انتبه أنَّ والده في الصالة يستمع إلى صوتٍ آتٍ من السماء. وفي سويسرا استيقظت الحفيدة سمر على صراخ الجدَّين، ظنَّت أنَّها تحلم أيضًا وهي تسمع صوتهما، أصابتها الدهشة، أيقظت زوجها صالح النائم بجوارها، سألته هل تسمع شيئًا، أجابها: أسمع صراخ عجوزين يتشاجران في مكانٍ

بعيدٍ، عاد إلى النوم وهو في حالة استغرابٍ. وتكرَّر سماع الصراخ في كلِّ مكانٍ فيه أبناء أو أحفاد، مصر، الإمارات، السعوديَّة، ألمانيا، أميركا، كندا، حتَّى ماليزيا... أمَّا في المخيَّم فكلُّ الأبناء والبنات والأحفاد خرجوا إلى أماكن مكشوفةٍ، نظروا إلى السماء ليروا وجه الجدَّين اللذين يصرخان بقوَّةٍ في ليل المخيَّم المظلم، لكنَّهم لم يروا سوى سواد الليل، كان الحوار صاخبًا بقوَّة انفجار القذائف التي استمرَّت في السقوط على المخيَّم حتَّى الصباح.

حوار الأموات

ـ خذوا أولادكم وغادروا، لا وقت للتفكير. انجوا بأولادكم. لا شيء أثمن من الروح، والأشياء الأخرى تعوض.

قال صوت أحمد خليل القادم من سماءٍ باردةٍ وشديدةٍ الظلمة.

ـ لا تتركوا المكان، لن تستطيعوا النجاة إن تركتم أماكنكم مرَّةً أخرى، هربكم لعنةٌ أخرى سترافقكم العمر كلَّه.

قال صوت آمنة خليل القادم من ذات المكان المظلم في سماء المخيَّم.

ـ أنت امرأةٌ بلا قلبٍ، كيف تقولين هذا، وأنت تعرفين أنَّ المكان أصبح مرتعًا للقتل. ألا ترين عيون الأطفال الخائفة، لو استمعت إلى كلامك قبل ستين عامًا، لكنت خسرت كلَّ أولادي هناك.

قال أحمد ردًا على زوجته.

ـ أنا بلا قلب أم أنت، كيف هان عليك تركنا نخرج في عتمة الليل قبل ستين عامًا والبلد في حربٍ مشتعلةٍ، أنا وخمسة أطفالٍ وأمُّك العاجزة، لقد متنا مئة مرَّةٍ، لم تكن معنا حتَّى تعرف أيَّ طرقٍ للموت سلكنا لنهرب من الموت. ولتعرف لماذا عشَّش الخوف في قلبي طوال سنوات اللجوء. ندمت على مغادرة بلدتي على سفح جبل الكرمل، ندمت لأنِّي سمعت كلامك وغادرت، هناك من ظلُّوا وعاشوا مع اليهود أحسن ألف مرَّةٍ من حياة الغربة التي عشناها. قضينا عمرنا في قهرٍ لا ينتهي.

ردَّت آمنة على زوجها.

ـ أنت ظلمتني منذ ذلك اليوم الذي قلت لك فيه: احملي أولادك واهربي بهم. لقد خفت عليك وخفت عليهم، لم أخف على نفسي، لم أستطع

ترككم تحت وطأة القصف العنيف للبلدة، كان عليَّ حمايتكم من الموت. أنتم عائلتي ومن حقِّي الخوف عليكم وأن أعمل لتخرجوا إلى مكانٍ آمنٍ. كانت المذابح في كلِّ مكانٍ، والخروج ممرٌّ إجباريٌّ، لم أختره، خوفي هو الذي اختاره من أجل سلامة أطفال لم يتجاوز كبيرهم الثانية عشرة من عمره. كانت سلامتكم أهمَّ شيءٍ في تلك اللحظة. أنت تعرفين أنَّني لست جبانًا ولم أتراجع أو أتخاذل، وخرجت مع آخر خمسة رجالٍ غادروا البلدة بعد أن فقدت عيني اليسرى في معارك البلدة.

ـ هل تعتقد أنَّ صمودك في البلدة كان أكثر بطولةً من طريق الفرار الذي اجتزناه؟! إذا كنت تعتقد ذلك، فأنت مخطئٌ، كان البقاء في البلدة أهون عليَّ وأقلُّ بطولةً وخطرًا على الأولاد من رحلة الجحيم التي دفعتني إليها. نعم، لم أسامحك على قرارك، كان البقاء في البلدة والموت فيها أهون ألف مرَّةٍ من طريق الرعب مع خمسة أولادٍ وامرأةٍ عاجزةٍ، لقد متُّ في الطريق الطويل إلى نابلس ألف مرَّةٍ بدل أن أموتها مرَّةً واحدةً في البلد. عندما قلت لك: يا رجل اتركنا نبقى بالبلد واللي كاتبه الله بصير، كنت أعرف ما أقول، وكنت مستعدَّةً للبقاء في البلد مهما كان الثمن. لكنَّ الشيء الذي لم أكن أعرفه، هو جحيم الطريق الذي سرناه أنا والأولاد وأمُّك في تلك الليلة التي طالت أكثر من دهرٍ. لو كنت أعرف ما ينتظرنا لعصيت كلامك وبقيت في البلد مهما كان الثمن، حتَّى لو قتلتني. بقي رعب الرحلة في الليل الطويل إلى حيفا ومنها لنابلس يفزعني في ليالي اللجوء طوال حياتي، وبقي يُفزِعُ الأولاد لسنواتٍ طويلةٍ. صحيحٌ أنا لا أعرف أيَّ وضعٍ كنت فيه بعد أن تركناك في البلد، ولكنِّي متأكِّدةٌ أنَّ ما عانيته في البلدة هو نقطةٌ في بحر معاناتنا التي لم تنتهِ في تلك الأيَّام، جرجرت خوفي ورائي حتَّى مماتي.

ـ لا تبالغي. أنت تحملين عليَّ منذ تلك الليلة، وكأنِّي وحدي المسؤول عن نكبة فلسطين، لم أُقصِّر بحقِّكم وأنا في البلد، ولم أُقصِّر بحقِّكم في سنوات اللجوء الطويلة، لقد حملت نصف أحجار دمشق على ظهري

لأجنِّبكم ذلَّ العيش في اللجوء الطويل. أنتم عائلتي وكان عليَّ أن أخرجكم من جحيم الموت بأيِّ ثمنٍ. كان الخطر يأتي من كلِّ مكانٍ، ولم أحتمل فكرة خسارة أيًّا منكم، بذلت ما بوسعي من أجل حمايتكم وسلامتكم، وأنت طوال السنوات الستين الماضية تلومينني وتُحمِّلينني مسؤوليَّة الخروج من البلاد، خرجت كلُّ العباد، مئات الآلاف خرجوا في ذلك العام المشؤوم، وأنت تحمِّلينني وحدي مسؤوليَّة ما جرى، من أنا حتَّى أوقف الزحف اليهوديَّ؟! لقد عملت كلَّ ما في وسعي للدفاع عن البلد، اليهود كانوا أقوى منَّا، انتهت ذخائرنا، ماذا كنت تتوقَّعين منِّي؟! لقد خسرنا الحرب، ولأنَّنا خسرنا الحرب خسرنا بلدنا. هل كنت تريدين أن أخسر كلَّ شيءٍ، بلدي وعائلتي؟!

ـ لا أحمِّلك مسؤوليَّة نكبة فلسطين، أحمِّلك مسؤوليَّة نكبتنا العائليَّة، لم تُخرجنا من البلدة لتحمينا، رميتنا في فم الموت وقلت لنا، اعثروا على طريقكم. كانت فكرة صمودك في البلد بديلًا عن حمايتنا، تحمي بلدًا وتترك عائلتك في فم الموت. لا أعرف كيف فكَّرت؟! لكنِّي متأكِّدةٌ أنَّك حاولت تغطية قرارك الجبان في إخراجنا من البلد ببطولة الصمود في وجه اليهود. كان عليك أن تخرجنا إلى مكانٍ آمنٍ، وأن تعود لخوض حربك. ما كان عليك أن تجعل حياتنا ثمنًا لبطولة ادعيتها، وأنكرت علينا حقَّنا في الطريق الآمن. نعم، أنت سبب مأساتنا، لولا قرارك الجبان بإخراجنا من البلدة لما واجهنا ما تعرَّضنا له، ولما قضينا حياتنا في ذلِّ اللجوء الذي يدفع أبناؤنا ثمنه اليوم، وبعد كلِّ هذه السنوات. قلت لك في تلك اللحظات وقذائف اليهود تسقط على البلد، لا أريد الخروج دعنا نبقى هنا، مهما كان الثمن، أنت تعرف أنِّي كنت جادَّة فيما قلت، أكثر من كلِّ الذين بقوا في البلد وحولها وعاشوا مع اليهود. طوال عمرك تهرب من تَحمُّل المسؤوليَّة، تلقيها على عاتقي وتهرب بحجج واهيةٍ. عندما جئت إلى نابلس وشاهدت وضعنا البائس في حوارة. لم تنتظر لترتِّب لنا وضعًا ما، هربت مرَّةً أخرى إلى البلد لتجلب المال المخبَّأ في المنزل، وعندما وصلت حقل القمح الناضج، أخذت تحصده وتخبِّئه في

المغارة، لقد قضيت ليلك تحصد القمح بيديك العاريتين، أيُّ جنونٍ كنت تقوم به في تلك الليلة؟! ولماذا حصدت سنابل القمح وأنت لا تملك الوقت؟! ولمن حصدتها؟! ماذا دهاك؟! لقد أضعت الوقت، وكدت تنسى لماذا عدت إلى البلد، وفي الصباح عندما تسلَّلت إلى بيتنا لتأتِ بالمال المخبَّأ، لم تجد من يُخفي لك المال في حذائك سوى عبدو، ذلك الواشي، الذي أخبر اليهود عنك، فعدت بعد أيَّام بلا مالٍ وبلا حذاءٍ وبقمح مخبَّأٍ في مغارة البلدة تأكله الفئران.

ـ أنتِ تكرهين كلَّ فعلٍ قمت به، سواءً كان الفعل كبيرًا أم صغيرًا، طوال حياتك لم تحمليني على محمل الجدِّ، نعم، ذهبت لجلب المال وعدت من دونه ومن دون حذائي، كنت طوال الطريق أبكي على نفسي وأضحك عليها، أضحك من شدَّة الألم، وأبكي من استنفاذ قدرتي على التحمُّل. ندمت على أنِّي خبأت المال في حذائي عند عبدو الواشي. لكنِّي لم أندم على حصادي قمحي في تلك الليلة، نعم حصدت القمح بيدي العاريتين، لم أقدر على احتمال فكرة أن يأتي آخر ويحصد ما زرعت، لقد كان حقلي، وكان عليَّ أن أحصده، حتَّى لو أكلت الفئران قمحه. لم أكن سعيدًا بالحصاد يومًا كما كنت سعيدًا في تلك الليلة المقمرة، وأنا وحدي أحصد القمح، ولا صوت يعكِّر السكون سوى صوت صراصير الحقل ونباح كلابٍ بعيدةٍ، لم أشعر يومًا أنَّ هذه الأرض أرضي بتلك القوَّة، إلَّا وأنا أقتلع سنابل القمح بيدي، كنت أحصدها وأبكي، أنظر إلى السماء، وأقول: يا الله هذا القمح لي، هذه الأرض لي. لم أستطع التوقُّف عن اقتلاع السنابل والصراخ، هذه الأرض لي.. هذه الأرض لي. رغم ما قلتيه لم أندم على ما فعلت، ولو عادت بي الأيَّام لعدت لحصاد قمحي بيدي العاريتين. لم أكن لأقتنع أنِّي خسرت أرضي، ولن أقتنع أنِّي خسرتها، هي أرضي كانت وستبقى، وحزم السنابل المقتلعة في ضوء القمر هي لي ولأولادي ولأحفادي. قرَّرت الخروج من البلد صحيح، لكنِّي لم أفكِّر يومًا أنَّنا لن نعود إلى بيتنا مرَّةً

أخرى، ولن أتفقَّد بقايا السنابل التي حصدتها بيدي في مغارة البلدة. ولست نادمًا على قرار الخروج. أنت تلومينني على نحوٍ دائم على خروجنا وكأنِّي خرجت وحدي من البلد.

ـ لا يعوِّض الكلام الجميل مسيرة الذلِّ الطويلة التي عشناها في لجوءٍ طويلٍ، أنا لم أسامحك على قرار الخروج، لكنِّي لم أضعك يومًا في موقفٍ يؤذيك، رغم أنَّ كلَّ حياة اللجوء أذًى بأذى. لم تذهب يومًا إلى الإعاشة لتأتِ بحصَّتنا من الطحين، رأيت رجالًا يبكون من المذلَّة هناك، كانت دموع الرجال تزيد من قهري ومن دموعي، لم أشاهد رجالًا يبكون مثلما كانوا يبكون أمام مركز الإعاشة، حفرت دموع القهر والذلِّ في وجوههم وقلوبهم عميقًا وهي تنهمر فجأةً على خدودهم، قبل محاولتهم إخفائها، لم نكن نحن النساء أحسن حالًا، بكيت كلَّما ذهبت إلى ذلِّ الإعاشة. لم أستطع تخيُّلك في ذلك المكان تبكي بين الرجال، كان عليَّ تجنيبك هذا الذلَّ الذي ابتلعته وحدي طوال سنواتٍ. إذا لم تشاهد هذا لا يعني أنَّ الذي لم تشاهده لم يحدث. رغم حنقي عليك طوال السنوات لم أسمح لأيِّ شيءٍ خدش صورتك أمام أولادك، كان عليَّ المحافظة على صورتك الصارمة، من أجلي ومن أجلك ومن أجل أولادك ومستقبلهم، كنت دائمًا في أعينهم الرجل الذي لا يُقهَر، بطلٌ من أبطال الصمود الأخير في بلاد ضاعتٍ وضاع أهلها، أبٌ صارمٌ لدرجة أنَّه لم يأخذ ولدًا في حضنه يومًا ليلعب معه، صنعت لك مهابةً كبيرةً، احتجتها من أجل تربية أولادنا، لولا ظلَّك الثقيل على المنزل الذي اخترعته لك، لكان الأولاد فقدوا مستقبلهم وضاعوا. كان عليَّ أن أصنع منهم شيئًا آخر مختلفًا عنِّي وعنك، صحيحٌ أنَّ هناك من لم ينجح في بناء مستقبله، لكن تربيتي لم تذهب سدًى، لقد صنعت منهم رجالًا محترمين ونساءً محترماتٍ، وأنت أدرى بقسوة الظروف التي مررنا بها، أنت تجاهلتها ورميت عبأها عليَّ وتحمَّلته من أجل أولادي. كنت مضطرَّةً لصناعة حياتنا من لا شيء، أصنع الأمل لأولاد تنقلوا لسنواتٍ بين الجامع والخيمة، قبل أن

نحصل على قطعة الأرض من الوكالة. كان عليَّ أن أجعل الأولاد يتفوَّقون على أنفسهم وعلى الآخرين من أجل مستقبلٍ أفضل وعيشٍ محترمٍ. قمت أنا بكلِّ ذلك وأنت تهرب وراء آلامك الجسديَّة وآلامك الروحيَّة، وتعبُ من جرحٍ في قلبك وقلب البلاد لم يندمل، لم أربِّ ملائكةً، ولكنِّي لم أربِّ شياطين أيضًا، الأولاد نجاحي الوحيد في حياتي، لذلك دعهم لا يكرِّرون في بلاد اللجوء ما فعلناه بأنفسنا وببلادنا، لا تدفعهم إلى متاهةٍ أخرى.

ـ حملت كلَّ هذا في قلبك طوال تلك السنوات، لتفضحيني الآن أمام أولادي وأحفادي، وتحطِّمي الصورة التي صنعتها أنتِ لي. أنتِ تعرفين أنِّي خضعت لرغباتك، صحيح كان تواطؤًا ولم يكن اتفاقًا معلنًا، أنتِ تعرفين أنَّها لم تكن رغبتي، لم أرغب في أن أُصوَّر رجلًا مصنوعًا من الصخر، كما هي صورتي عند أولادي، هذه الصورة قاسيةٌ عليَّ، وقيَّدتني طوال حياتي. لم أكن رجلًا صلبًا، ولم أحبَّ صورتي على هذا الشاكلة، أنت رغبت في أن أكون صلبًا، فكنت كما تريدين، من أجلك ومن أجل الأولاد. طوال عمري وأنا أقدِّر لك ما فعلته بحياتنا، لولاك لضعنا أنا والأولاد، كنت أثق بك أكثر من ثقتي بنفسي، لذلك تركت كلَّ الأمور لك وكنت كما تشائين، كطفلٍ مطيعٍ. أنتِ الوحيدة التي تعرفين أنَّ وراء الرجل الصخرة التي صورتها للأولاد رجلًا هشًّا. لم يشاهد أولادنا دموعي ولا مرَّةً في حياتي، لكنَّك تعرفين حرقة البكاء التي كانت تصيبني. أنا رجلٌ من لحمٍ ودمٍ، رغم كلِّ محاولاتك لتجنيبي مذلَّات اللجوء، كانت المذلَّات تقتلني، هل تعتقدين أنَّ ذهابك إلى الإعاشة لجلب الطحين كان أقلَّ إذلالًا لي من ذهابي أنا إلى هناك والبكاء مثل الرجال الذين بكوا إذلالهم؟! لقد كان الذلُّ الذي تعيشينه في تلك اللحظات يذبحني، أشعر نفسي عاريًا. لم أرغب يومًا أن تذهبي إلى هناك، كان أهون عليَّ أن أحمل دمشق على ظهري وأصعد بها قاسيون من ذهابك إلى دور الذلِّ في الإعاشة. أنت من أصرَّ، ذهبت إلى هناك من ورائي في المرَّات الأولى، وبعدها سكتُّ، عليك أن تعرفي أن ذُلَّك ذلِّي، وعارَك عارِي. لم أهرب، شئت

أنت أن أهرب، فهربت.. صحيحٌ أنَّني لم ألاعب أطفالي وهم صغارٌ، وأنت تعرفين السبب، خفت أن ينفروا من عيني المقلوعة، فكان عليَّ أن أبتعد. أنتِ الوحيدة التي تعرفين كم أحببتهم، وكم كنت رجلًا صاحب قلبٍ ضعيفٍ، لا سيَّما عندما يتعلَّق الأمر بعائلتي. لا تحمِّليني فوق طاقتي، أنت تحكَّمتي بحياتنا طوال الوقت، وأنا كنت راضيًا بذلك. استطعت أن تخفِّفي من رحلة العذاب التي خضناها، وكان هذا نجاحك، لكنَّ الجزء الثاني غير صحيح، لم أكن أنا سبب هذا العذاب. كان عذابًا فُرِضَ علينا. الآن لا أريدك أن تؤثِّري على حياة أولادك وأحفادك في هذه المحنة الجديدة، اتركيهم يقرِّرون حياتهم، كلُّنا بشرٌ ومن حقِّ البشر أن يهربوا من الموت ويحموا حياتهم، وأولادنا ليسوا استثناءً، إذا كنَّا عشنا حياةً صعبةً، فهذا لم يكن خياري ولا خيارك، ولا يجعلنا نختلف عن البشر، فنحن نخاف مثلما يخافون. اتركيهم يختارون المصير الذي يريدون، اتركيهم يختارون الحياة.

ـ أنت لم تفهمني يومًا، عشت معك حياةً غريبةً طوال الوقت، ليس لأنَّنا لجأنا، طوت حياة اللجوء حياتنا السابقة، لا تعتقد للحظةٍ أنَّ حياتي قبل اللجوء كانت سعيدةً. كانت نارًا أهون من نار اللجوء التي كوتنا وكوت أرواحنا ومستقبلنا. لم أكن سعيدةً يومًا في حياتي معك، وأنا أقولها لك اليوم، لم يأخذ أحدٌ رأيي في زواجي منك، لم يسألوني، في تلك اللحظة التي قرَّروا فيها منحي لك بديلةً مع أختك. أنتَ تعرف أنَّهم باعوني لكم، كما بيعت أختك لنا، لقد كانت صفقةً رابحةً لكم أنتم الرجال، وكنت أنا وأختك الخاسرتين. في تلك اللحظة التي حكمت حياتي كلَّها، تمنَّيت ألَّا يكون الموت قد خطف أبي، لو بقي حيًّا لما كان هذا الزواج، أنت تعرف هذا جيِّدًا. لقد سحق موت أبي حياتي، أخواتي الأكبر منِّي دخلوا المدارس وتعلَّموا، عندما جاء دوري في الذهاب إلى المدرسة رحل أبي، ومُنِعتُ من الذهاب إلى المدرسة ودخل الرعب حياتنا، رحل أبي ورحلت معه حياةٌ كاملةٌ. كان علينا الخضوع لرغبات أخي داوود المريضة، أجبر أخواتي على ترك المدرسة، بقي

يفتعل المشكلات مع أخي يوسف حتَّى رحل إلى مصر، بقينا نحن البنات تحت رحمة شخصٍ معدوم الضمير. أعرف أنِّي أتكلَّم على أخي، وأنت سوف تقول إنَّ هذا لا يجوز. ولكن سأقول ما عندي، سكتُّ دهرًا ولن أصمت اليوم. ليس هناك من يحمينا، لقد تركنا موت أبي في مهبِّ الريح. ولأنَّك كنت تطمع بي، وداوود يطمع بأختك سارة، فقد عرف من أين يأتي لكم. إذا كنت تعرف أنَّك تستطيع حمايتي، وأنَّك لن تؤذيني وهذا جيِّدٌ بالنسبة لي. كيف هانت عليكم أختكم، وأنتم تعرفون من يكون أخي؟! كيف استطعتم أن ترموا ملاكًا مثل سارة بين أنياب وحشٍ اسمه داوود؟! لو لم تكونوا تعرفون أيَّ رجلٍ هو، لفهمت! ولو لم يكن ابن عمِّكم، لقلت إنَّكم خُدِعتُم! لكنَّكم تعرفونه جيِّدًا، وإذا كنت أنا مكسبكم، كيف تدفعون ثمني حياة أختكم المسكينة. إذا سامحتكم عن آلامي، لن أسامحكم عن آلام سارة، كنتم ترون وتسمعون آلامها، ولم تفعلوا شيئًا، كانت أرخص من دجاجةٍ في قنِ بيتكم. كانت الوحيدة التي خفَّفت عنِّي سنوات الألم، قبل اللجوء وبعده، لو لم تلحقنا في اللجوء إلى دمشق، لقتلتني الغربة مبكرًا. أنت لا تعلم، أنِّني بعد وفاتك، أوصيت أن أدفن فوق سارة التي ماتت بقهركم وبقهر أخي، لم أرغب في أن أدفن فوقك، لم أكن أعرف أنَّه لا يجوز أن أدفن فوقك. كنَّا ضحيَّتين لأنانيَّتكم أنتم الرجال، صبرنا على ما لا تطيقه الجبال. كنَّا متروكتين في مهبِّ الريح. جعلتني مأساتنا ومعاناتنا أنا وسارة، أعاهد نفسي، أنَّ مصير بناتي لن يكون مثل مصيرنا، سيتعلَّمنَ حتَّى النهاية، ولن يتزوَّجن طفلاتٍ مهما كان الثمن، حتَّى لو كانت حياتي، فأنا لم أعِ نفسي إلَّا وأنا امرأةٌ في بيتكم تنجب الأولاد، لم أكن أكملت طفولتي بعد، عندما خطفتوها منِّي. ولا أذكر من طفولتي سوى سحر شاشةٍ كبيرةٍ عليها صور بشرٍ بالأسود والأبيض يتحرَّكون ويتحدَّثون مثلنا، اصطحبني إليها أخي يوسف مرَّةً في حيفا، وعرفت وقتها أنَّها «السينما»، واختفى أخي يوسف من حياتي أيضًا، كما اختفى الكثير من الأشياء الجميلة. بعدها لا في البلاد

ولا في الغربة، كان هناك ما يستحقُّ الذكر، سوى واجبات الحياة المملَّة والقاسية. سواءٌ كانت حياتنا سهلةً أو صعبةً، لم أشعر بالسعادة مرَّةً أخرى، إلَّا وأنا في بيت الله في الحج، وهي المرة الوحيدة التي ابتعدت فيها عنك وعن أولادي.

في بيت الله الحرام، تأمَّلت حياتي بعد ستين عامًا من حياة الشقاء، وبعد أربعين عامًا في غربةٍ لم تنتهِ. للكعبة هيبتها وحضورها الجليل، هناك شيءٌ ما داخلي تغيَّر منذ وضعت قدمي على أرض مكة، امتلكني المكان غيَّبني عن العالم، نسيت كلَّ التفاصيل الحياتيَّة التي كانت تشغلني، طغى عليَّ الحضور السماويُّ، كأنِّي أطير في عالمٍ لم أعرفه من قبل. شعرت أنَّ قلبي غيَّر دقاته، وأنَّ المكان مكاني، جعلني على مسافةٍ قريبةٍ من الرحمن الرحيم الذي يبتسم لي في بيته طوال الوقت، شعرت بسعادةٍ لم أشعر بها من قبل، سعادةٌ جعلت الدموع تفرُّ من عيني طوال الوقت وأنا أبتسم، دموع السعادة تسيل لتوحِّدني مع خالقٍ كان رحيمًا بي طوال سنوات العذاب. في كلِّ الأزمات شعرت أنَّ الله يقف معي، وكنت في تلك اللحظات أشكره على النعم التي منحني إيَّاها وعلى تجنيبي كوارث لم يستطع آخرون الفرار منها. في مدينة الله سامحت كلَّ من أساء إليَّ، وسامحتك على كلِّ ما فعلته بي، شعرت قلبي أبيض وأنِّي خُلِقتُ من جديدٍ. فهمت وقتها أنَّ ما مررت به من رحلة العذاب هو حياتي، لولاها لما كنت ما أنا عليه. الشخص الوحيد الذي لم أستطع مسامحته هو داوود، لقد ظلمني أكثر من قدرتي على مسامحته حتَّى في بيت الله. حاولت كثيرًا فعل ذلك، لكنِّي لم أستطيع، كلَّما تذكرته في بيت الله كان قلبي الأبيض ينقبض، ولم يحضر في ذاكرتي، إلَّا وآلام سارة ومسار عذابها الطويل تحضر معه. تمنَّيت أن أستطيع مسامحته في الكعبة، شيءٌ أقوى منِّي منعني، لم أعرف سرَّ ذلك، رغبت بشدَّةٍ في مسامحته، يبدو أنَّ الله لا يريد ذلك في بيته. في بيت الله وبين ملايين البشر القادمين من كلِّ مكانٍ شعرت أنِّي غسلت حياتي كلَّها من التعب والمتاعب

ومشكلات البشر، شعرت أنِّي وُلِدتُ من جديد، وأنَّني شخصٌ آخر بقلبٍ آخر. عندما انتهيت من الحجِّ شعرت أنَّني لست وحدي من تغيَّر، بل العالم كلُّه تغيَّر. بعد أن عدت إلى حياتنا، عرفت ألَّا شيء تغيَّر وأنَّ الصغائر بين البشر هي الحياة، عدت لأجدكم كما كنتم لا شيء تغيَّر فيكم، وبعد أيَّام عدت واحدةً منكم، بعد أن شعرت نفسي أعيش في عالمٍ آخر، كان عليَّ التعامل مع أمزجتكم وتفاهاتكم وحماقاتكم. كان عليَّ العودة إلى الحياة الحقيقيَّة مرَّةً أخرى، وعادت كلُّ الإساءات التي سامحت من فعلها بي لتلوِّث قلبي المولود من جديد. أكذب إن قلت حياتي معك كانت شقاءً طوال الوقت، أكذب إن قلت أنِّي كنت سعيدةً، أكثر ما أتعبني في حياتي معك، شعوري أنَّ الحياة التي عشتها، ليست حياتي.

ـ إنَّك تجرحينني وتهينينني أكثر، لم تفعلي هذا طوال سبعين عامًا قضيناها معًا، لماذا تفعلين ذلك الآن؟! الذي يسمعك اليوم يقول، أنَّني لم أكن سوى جلادٍ في حياتنا معًا. أعرف معاناتك من الظلم، وأعرف أنَّ حياتنا لم تكن مثاليَّة، لم أعرف أنَّك كنت تعيشين غريبةً عن حياتك وحياتنا. لست صاحب القرار في كلِّ شيءٍ. لقد فعلت كلَّ ما أستطيع فعله. لم يكن زواجي منك صفقةً بالنسبة لي، واعترف أنَّ البدل كان شيئًا في غاية السوء، ليس لأنَّ أختي سارة عانت ما عانت مع أخيك، بل، هو سيِّئٌ حتَّى لو كان الزوجان مثاليَّين. ما أقوله الآن لم أدركه في ذلك الوقت، زواج البدل كان عرفًا عند الجميع، وما فعلناه، فعله كثيرون، لم نقصد استغلال أوضاعكم بعد وفاة أبيك، كلُّ ما في الأمر أنِّي أردتك بقوَّةٍ، ولم أكن قادرًا على احتمال أن تكوني لرجلٍ آخر. نعم، كنَّا نعرف أخلاق أخيك، وكان أبي يعتقد أنَّه إذا زوَّجه من سارة التي كنَّا نعرف أنَّه يريدها بقوَّةٍ أيضًا، قد تتغيَّر أخلاقه، لقد كان ابن أخيه، وكان يعامله مثل ابنه، لقد ظلم ابنته بابنه. لم أُرِد أن تتزوج سارة من أخيك، كنت أعرف أنَّها ستُظلَم في هذه الصفقة، نعم كانت صفقةً، لم أكن أستطيع تغيير أيِّ شيءٍ، لقد قرَّر أبي وانتهى الأمر، لم أكن قادرًا على الوقوف

في وجهه، والأهمُّ أنَّني لم أرَ في تلك اللحظة سوى زواجي منك، وكنت سعيدًا لهذا. وعندما انتبهنا إلى ما فعلناه بسارة، لم نكن قادرين على فعل شيءٍ، لم نكن نستطيع تحمُّل سمعة أنَّ أختنا مطلَّقةٌ من ابن عمها، كان أبي سيموت جرَّاء ذلك، وسيلحقنا عار الفضيحة في البلد. وأنت تتهمينني أنِّي تركت سارة ولم أفعل لها شيئًا، وأنت تعرفين أنَّ هذا غير صحيحٍ. منذ السنوات الأولى للجوئنا وازدياد إساءته لها ولأولاده، وأنا أقول لها وأرجوها أن تترك أخيك وأنا على استعداد لاستقبالها هي وأولادها وتحمُّل مسؤوليَّتهم إلى الأبد، لكنَّها لم تقبل، خافت على أولادها منه، وأنت تعرفين جيِّدًا، أنَّني لم أضرب شخصًا ضربًا مبرحًا في حياتي سوى أخيك على سفالته معها. كنت عاجزًا أمام تعلُّقها بأولادها، وكانت عاجزةً على اتخاذ قرارٍ بتركه، لأنَّها عرفت أنَّ أذاه لا حدود له. بقيت سارة حتَّى وفاتها حرقةً في قلبي. أنت لم ترِ في كلِّ مسارات عذاباتنا سوى عذاباتك، وكأنِّي كنت سعيدًا في هذه الحياة. نعم، حاولت أن أتكيَّف مع الواقع الجديد، لم أبكِ على الأطلال، وهذا لا يعني أنِّي لم أعانِ الأمرَّين، لأنِّي خسرت كلَّ شيءٍ في فلسطين. بقيت أحلم بالعودة، وعندما حصدت حزم القمح، اقتلعتها بيدي لأنِّي لم أشكُّ للحظة أنَّنا لن نعود، تمنَّيت أن أموت وأنا نائم على السنابل التي حصدتها وخبَّأتها في تلك المغارة. لم تكن إرادة الله برحيلي قد أزفت بعد، ولذلك كان عليَّ أن أمشي مسيرة العذاب الطويلة، التي طالت أكثر من احتمالي. كانت الأرض كلَّ حياتي، أنت تعرفين هذا، اقتلعت حجارة أرض العزيزيَّة بيدي العاريتين، أمضيت خمس سنوات من العمل الشاقِّ في اقتلاع صخورها، لتتحوَّل إلى أرضٍ صالحةٍ للزراعة، وصارت تاج أراضي البلدة، كانت هذه الأرض قطعةً من قلبي، وعندما غادرتها، تركت جزءًا من قلبي هناك. كان يمكنني عيش حياتي وأنا أندب حظِّي وأحتلَّ حانات دمشق وأشرب خمرها كلَّه، لأنِّي خسرت كلَّ شيءٍ، ولا شيء أحيا من أجله. هل كان عليَّ الهرب من عذابات اللجوء إلى خيالات الخمر؟ أنت تعرفين أنَّ

الكثيرين فعلوا هذا حزنًا على البلاد التي ضاعت، لم يكونوا كاذبين، ما جرى لنا لا يحتمله عقلٌ، وحوّلنا كلّنا إلى مجانين. لم أوجه اللوم لهم، وأعطيت الكثيرين منهم المال، ليبقوا في غيابهم عن الوعي، حتّى لا يموتوا من قسوة حياتهم. معك ومع خمسة أولاد لم يكن هذا خياري. كان عليَّ التغلُّب على جرحي العميق وصناعة حياتي من جديدٍ. لم أنتظر، كان عليَّ البحث عن عملٍ، أيَّ عملٍ، وأنت تعرفين أنِّي فلاحٌ، لا أجيد سوى الزراعة، التي لا مكان للعمل فيها في دمشق، لذلك كان عليَّ أن أغيِّر حياتي كلَّها، وليس مهنتي فقط، حتَّى ملابسي غيَّرتها، عملت مساعد معماريٍّ، لأتعلَّم مهنةً جديدةً، وأنا في الخامسة والثلاثين من عمري، حملت الحجارة ليلًا، لأنَّ ما كنت أتقاضاه أجرًا وأنا عامل مساعد لم يكفِ أيَّ شيءٍ، لم أستطع الحياة في الجامع وحياتنا منشورةٌ أمام الآخرين، تفصل قطعة قماشٍ باليةٍ بيننا وبين الجيران، كان عليَّ العمل ليلًا نهارًا حتَّى نخرج من ذلك المكان. أنت تعرفين أنِّي وصلت إلى دمشق لا أملك قرشًا واحدًا، لولا ليراتٌ قليلةٌ خبَّأتها أنت لزمنٍ أغبر، وكنَّا قد أصبحنا في قلبه، لكنت متُّ قهرًا. كاد قلبي يتوقَّف عشرات المرَّات وأنا أسأل عن عملٍ، أيُّ عملٍ، لم يكن لي ترف الاختيار، المصادفة وحدها جعلتني أعمل في البناء، لو وجدت عملًا آخرًا لكنت صاحب مهنةٍ أخرى، لم أترك مكانًا في دمشق لم اسأل فيه عن عملٍ، كانوا يعرفون من لهجتي أنِّي فلسطينيٌّ، وكان البعض يعتذر ويحاول إعطائي بعض المال بعد أن يروا عيني المقلوعة، وهذا ما مزَّقني، رفضتها بحدَّةٍ، صرخت: «أنا لست شحاذًا»، أتوه في شوارع دمشق، أبكي بكلِّ حرقةٍ، وأتمنَّى لو أنِّي متُّ قبل أن تطأ قدميَّ دمشق. من فضل الله عليَّ، أنَّ هذه الفترة لم تطل، وسرعان ما حالفني الحظُّ في إيجاد أبي أحمد البنَّاء، الذي كان طيِّبًا معي طوال الفترة التي عملت فيها معه. أصرَّ أن يمنحني دينًا لأخرج عائلتي من الجامع من دون أن أطلبه منه. لقد عملت معه لثلاث سنواتٍ، وعندما قضى بمرضٍ غامضٍ، لم أترك عائلته تحتاج أحدًا، لقد رزقني الله بحسنة بيت

أبي أحمد، الذي بقيت طوال عمري أشعر أنَّ ما فعله معي كان دينًا في رقبتي طوال العمر. أنت ظلمتني، منذ وصولنا إلى دمشق تركتك تديرين حياتنا كلَّها، لم أسألك يومًا عن مالٍ، ولم أسألك يومًا أين كنت؟ كانت ثقتي بك مطلقةً وأنت اليوم تقولين، كنت غريبةً في بيتي. لم تكن هذه الصورة التي ترسميها لعائلتنا الآن هي الصورة الحقيقيَّة، ظننت أنَّنا عائلةٌ نعرف بعضنا أكثر ممَّا أسمع الآن. أكاد أجزم الآن أنِّي لم أعرفك يومًا.

ـ نعم، أنت لم تعرفني يومًا، رسمت في رأسك صورةً جيِّدةً للعائلة، أعجبتك، احتفظت بها وهربت من حياتنا وتركت عبئها عليَّ. يا رجل، تسعة أولاد ماذا كنت أفعل بهم، وأيُّ حياةٍ جيِّدةٍ يمكن أن تعيشها امرأةٌ لم تكن ترفع رأسها من عمل المنزل ومن أعمال إضافيَّةٍ أيضًا. أنت تصوِّر نفسك بوصفك المنقذ للعائلة، وهذا للأسف غير صحيحٍ، ما كنت تراه لم يكن إنجازك للأسف، رغبنا أن تفهم ذلك، وأنت ارتحت إليه وصدَّقته، ولكنَّك لم تسأل يومًا، هل المال الذي كنت تتقاضاه كان يكفي احتياجاتنا، ومن أين يأتي الفرق؟ استكنت لأنَّك ظننت أنَّ هذا إنجازك، في الحقيقة لم يكن كذلك في يوم من الأيام. إذا ظننت أنَّك رفعت كلَّ أحجار دمشق على ظهرك، فعليك أن تعرف أنَّنا قد قمنا بلفِّ كلِّ سكاكر دمشق في ذلك الوقت، أنا وأمُّك والأولاد، كنَّا طوال الوقت نلفُّ السكاكر للمعمل الذي عرفت أمُّك أنَّه يوزِّع السكاكر وأوراقها من أجل لفِّها بالأجرة على العائلات، جلبت بعضها وكانت خائفةً أن أرفض هذا العمل، لكنِّي شجَّعتها، وبقينا طوال الوقت نلفُّ السكاكر أنا وهي والأولاد، لقد شاهدت كميَّات السكاكر وأوراقها مرَّاتٍ عدَّةٍ، رغم حرصنا على ألَّا تراها، وسألت أنت عنها، وقلنا لك أنَّها للجيران، وأنت أردت تصديق هذا، كان أجر ما نلفُّ ضعفي ما كنت تأتي به إلى البيت من مالٍ. لم أرد يومًا أن أشعرك بذلك. لكن عليك أن تعلم أنَّ الحياة التي لا تراها لا يعني أنَّها غير موجودةٍ. أنت لم تكن يومًا جزءًا من حياتنا، بقيت تهرب منَّا طوال الوقت، حتَّى عندما اعتُقِلَ الولد لم

تكلف نفسك عناء زيارته في السجن، كنت ماهرًا في التهرُّب من المسؤوليَّات، رميتها على عاتقي وهربت لعُقَدِكَ وآلامك الكاذبة وهمومك الكبيرة كما ادعيت. لم تكن يومًا بيننا، كنت تقضي أشهرًا طويلةً معنا من دون أن ترى أطفالك، نعم أطفالك، تخرج قبل أن يستيقظوا، وتعود بعد أن يناموا، ولم يكن يخطر لك أن تقبِّلهم حتَّى وهم نيام، من أيِّ قسوةٍ أنت مصنوعٌ؟! عليك أن تعرف أنِّي عددتك غير موجودٍ حتَّى أستطيع أن أرتِّب حياتي، فاخترعت حكاياتٍ عنك حتَّى يهابك الأولاد، ساعدني غيابك الدائم بأنَّ أضرب بسيفك دائمًا، كانوا يصدِّقون التهديدات وتفعل فعلها أفضل ممَّا لو كنت بيننا. سارت الحياة من دونك، وكنت تعتقد أنَّك مركزها، أنت مخطئٌ، لم تكن سوى شبحٍ خيَّم على المنزل. عليك أن تخرج من حياتهم اليوم كما فعلت طوال حياتك، دعهم يبقون في مكانهم، لا تغادروا بيوتكم، حتَّى لو تهدَّمت، فالمنافي موتٌ متكرِّرٌ.

ـ لا تستمعوا لها، انجوا بحياتكم، كلُّ إنسانٍ يستطيع صناعة حياته من جديد، لا تنظروا خلفكم، ليس لكم شيءٌ في المكان، ما هو لكم أنتم صنعتموه وليس هو من صنعكم.

ـ المكان حياتنا حتَّى لو تهدَّم، لا تتركوا ذكريات أولادكم بين الغرف وتهربوا، منازلنا هي الحياة ومن دونها نموت. لا ترتكبوا الخطأ الذي ارتكبناه.

ـ اهربوا. المكان الآمن هو مكاننا، لا حياة مع القذائف، الصمود عبثيٌّ.

ـ اصمدوا.

ـ اهربوا.

ـ ...

القسم الأول:
التخلِّي
(عائلة عبد الرحمن أحمد خليل)

الفصل الأوَّل:
المستقبل المخبَّأ في جنب الخزانة
(عبد الرحمن أحمد خليل)

سمعت أبي وأمي يتقاتلان من أجل صمودنا في المخيَّم أو الهرب والنجاة بأرواحنا، لم أكترث لهما، فمن يستمع إلى الموتى في هذه الظروف؟! أنا في الأصل كنت نازحًا داخل المخيَّم، ما الفرق في النزوح داخل المخيَّم أو خارجه؟! إنَّه الألم ذاته في الحالتين.

عندما قصفت الطائرة المخيَّم، كانت حقيبتي جاهزةً لرحيلٍ جديدٍ، فقد نزحت قبل ذلك بخمسة أشهرٍ إلى داخل المخيَّم، فمنزلي القريب من السينما الوحيدة في المخيَّم، التي يعتليها قسم شرطة التضامن، كانت قد أصبحت جبهةً للاشتباكات، وصار العيش فيها غير ممكنٍ، حزمت زوجتي حقيبتنا وأمسكت بيد ابنتنا ولجأت داخل المخيَّم عند أهلها، وأنا لحقت بها وبدأنا رحلة لجوءٍ طويلةٍ.

لم أتوقَّع أن أعيش لجوءً ثانيًا بعد كلِّ هذا الوقت، وأنا في مثل هذه السن، لجأت مع أهلي وأنا طفل، وها أنا ذا ألجأ مع زوجتي وابنتي وأنا في أرذل العمر، أيُّ غضبٍ إلهيٍّ هذا الذي يلاحقني، ليس في العمر ما يستحقُّ الحياة، لولا ابنتي التي لم تكمل الثالثة عشرة من عمرها، لما تحرَّكت من بيتي في المخيَّم، لبقيت وانتظرت قذيفةً أو طلقةً تأخذ حياتي، فلا شيءً فيها

يستحقُّ الرحيل من جديد. كُتِبَ عليَّ السير على هذا الدرب المؤلم حتَّى نهايته.

عندما قصفت الطائرة الحربيَّة جامع عبد القادر الحسيني وانفجر صاروخها، ارتجَّ بيت حماي وتحطَّم زجاج النوافذ من قوَّة الانفجار، الذي اقتلع قلبي من مكانه، وأصيبت ابنتي بحالةٍ من البكاء المجنون، كانت في حالة رعبٍ، ترتجف بشدَّةٍ، لم تهدأ سوى بعد وقتٍ طويل. بيت حماي لا يبعد عن مكان سقوط الصاروخ، أكثر من ثلاثين مترًا. بعد الانفجار الذي صمَّ أذناي، لم أعد أسمع شيئًا، شعرت أنَّ قلبي يكاد يتوقَّف وأنِّي انتقلت إلى عالمٍ آخر، لم أنتبه إلى أنِّي ما زلت حيًّاً، إلَّا عندما اصطدم جسد ابنتي الباكية بي، راميةً نفسها عليَّ متمسِّكةً بي، لم أسمع شيئًا، كان الطنين في أذني هو كلُّ شيءٍ، شاهدت الهلع والدموع في وجهها وشاهدت صراخها بفمها المفتوح، لكنِّي لا أسمعه، لقد عطَّل صوت الانفجار المدوِّي حاسَّة السمع عندي. شعرت بارتجافات جسدها وبارتجافات جسدي، عجزت عن قول أيِّ شيءٍ، لم أكن قادرًا على سماع صوتي. احتضنتها وغرقت في بكاءٍ صامت. عندما هزَّتني زوجتي، عرفت أنَّنا ما زلنا على قيد الحياة، وعندما استعدت حاسة السمع، كان الصمت يخيِّم على كلِّ شيءٍ، والوجوه خائفةٌ والعيون زائغةٌ، الجميع في حالة هلعٍ، سقط الكلُّ في بئر الخوف، وملأ الغبار المكان. قرَّرت مغادرة المخيَّم. لم أناقش الموضوع مع أحدٍ، قلت لزوجتي: «لازم نطلع من المخيَّم»، سألتني: «لوين؟»، قلت: «ما بعرف، لازم نطلع من هون، ما رح أترك بنتي عايشة في هذا الرعب»، لم تناقش الموضوع ولم تعارض، رتَّبت حقيبتنا من جديدٍ وانتظرنا الوقت المناسب للخروج من المخيَّم. وعندما خرجنا في اليوم التالي تبيَّن أنَّ الجميع في المخيَّم قرّر الرحيل.

في صباح اليوم التالي، لم أجد سيَّارة تقلنا خارج المخيَّم، تحدَّث الجميع عن مهلةٍ حتَّى الساعة التاسعة وبعدها سيعود الجيش إلى القصف من جديدٍ، الذي لم يتوقَّف طوال الليلة السابقة. منذ الصباح الباكر بدأ نهر

البشر والسيَّارات المحمَّلة بهم حتَّى التخمة داخلها وفوقها يغادرون المخيَّم باتجاه منطقة الزاهرة، أملت أن أجد مكانًا في سيَّارَتي بيت حماي لابنتي وزوجتي على الأقل، امتلأت السيَّارتان على آخرهما، وليس هناك مكانٌ لعصفورٍ فيها، بحثت عن سيَّارة أجرة تقلُّني، الجميع مشغولٌ بنفسه وعائلته، لا سيَّارة أجرة على الإطلاق. أصابني اليأس، الوقت ينفذ بسرعةٍ والمهلة تقترب من نهايتها، وليس أمامي خياراتٌ وليس لديَّ الوقت.

أخرجت دراجتي الهوائيَّة من بيت حماي قبل مغادرتهم بلحظاتٍ، ومن حسن حظِّي أنَّها تعمل، لم يفرغ هواء عجلاتها. ربطت حقيبتنا عليها، وسرنا باتجاه شارع اليرموك، لم تكن أعداد الناس كبيرةً في الحارات الداخليَّة، ازدادت الأعداد كلَّما اقتربنا من الشارع الرئيسيِّ. الوجوه كئيبةٌ بملامح لا يمكن تفسيرها، ساد صمتٌ رهيبٌ بين الكبار، ولم يبقَ سوى صوت السيَّارات وصراخ الأطفال الذين لا يدركون ما يجري، والبكاء المكتوم للرجال والنساء الذين يتركون بيوتهم وحياتهم وراءهم، ولا يعرفون هل سيعودون أم لا. عندما وصلت شارع اليرموك أجرُّ دراجتي والى جواري ابنتي وأمِّها، وجدت المشهد مذهلًا، سيلٌ من البشر يسيرون تائهين إلى خارج المخيَّم، منهم من يركبون السيَّارات والشاحنات ومن يركبون شاحناتٍ ذات ثلاثة عجلاتٍ ومن يجرُّون عربة المنزل المخصَّصة للسوق وقد وضعوا عليها حاجاتهم كيفما اتفق، وهناك من يجرُّون العربات القديمة لأطفالهم، أو حملوا أطفالهم ووضعوا في عرباتهم أغراضهم، ومنهم من يحملون أمتعتهم بحقائب، ومن لم تتوافر له الحقائب جمع حاجاته بأغطية الأسرَّة وحملها على أكتافه، ومن يحمل أطفاله، أطفالًا يحملون أطفالًا، منهم من يبكي بصمتٍ، ومن يبكي بصوتٍ مرتفعٍ، أصوات بكاء الأطفال المتعبين في كلِّ مكانٍ، سيَّاراتٌ يركبها أناسٌ مستعجلون يريدون دخول المخيَّم لنقل عائلاتهم، تمنعهم الزحمة المتدفِّقة بعكس الاتجاه من العبور، يعودون محاولين الالتفاف من مكانٍ آخر، ليعودوا ويصطدموا بالزحمة ذاتها من

جديدٍ، فيستخدمون أبواق السيَّارات بطريقةٍ جنونيَّةٍ. ظَهرَ ذلك اليوم كأنَّه يوم الحشر. كنت واحدًا من هؤلاء التائهين، نظرتُ إلى زوجتي، نظرتْ ناحيتي، لم أستطع الاستمرار بالنظر إليها، خفضت رأسي إلى الأرض وسرنا بين الجموع، بين الحين والآخر كنت اختلس النظر إليهم لأتأكَّد أنَّهما ما زالتا إلى جانبي. لقد تهت بين الجموع، وأعادتني مشاهد الأطفال الذين يحملون أخوتهم إلى طفولتي، يوم حملت أخي ونحن نجتاز حقل القمح، في ذلك اليوم الذي قرَّر فيه أبي أن نخرج من بلدنا في جبل الكرمل إلى المجهول. أذكر أنِّي كنت خائفًا من صوت القذائف التي تنهال على البلدة، وسمعت أبي يصرخ بأمي: «ما رح تبقوا هون، اليهود بغتصبوا النسوان ويذبحونهن، ما سمعتي شو صار في دير ياسين»، سمعت أمِّي ترجوه أن نبقى، بعناد ثورٍ قال: «لا، لازم تروحوا»، ليس أمامها سوى الرحيل في ليلةٍ مظلمةٍ. في تلك الليلة خفت من العتمة أكثر ممَّا خفت من القذائف، ارتجفت من صوت الريح والصمت الذي ساد ساعات المشي الطويل، وعندما حملت أخي الصغير الذي أعطتني إيَّاه أمِّي لأحمله بعض الوقت لأنَّها تكاد تنهار من شدَّة التعب، شددته إلى جسدي لأعرف أنِّي ما زلت حيًّا. لم تكن جدَّتي التي رافقتنا في هذه الرحلة الطويلة تستطيع مساعدتنا في شيءٍ لأنَّها عجوزٌ تحتاج إلى المساعدة وهي تسير على عكَّازين لأنَّ مفصل عنق الفخذ لديها محطَّمٌ بعد سقطةٍ قويَّةٍ عن السلَّم وهي تحاول الصعود إلى سطح الدار، وأكثر من مرَّةٍ انهارت على الطريق وتوسَّلت أمي قائلةً: «منشان الله آمنة، اتركيني أموت هون، والله تعبت»، وبعدها تغرق في البكاء. كانت أمِّي تصرخ يائسةً في ليلٍ حالكٍ بلا ضوءٍ القمر: «خلص... خلص... ما ناقصني أنت.. خمسة ولاد ومرة عاجزة. يا الله شو عملتلك حتى أستاهل هذا العذاب؟!»، أذكر تهدُّج صوتها وهي تقول كلماتها الأخيرة يائسةً ونظرها إلى السماء، ثمَّ تنفجر في بكاءٍ مرٍّ، وسرعان ما ننفجر نحن الأطفال في البكاء معها. كانت سنابل القمح في الحقول التي نسير إلى

جوارها على طرف البلدة تصل إلى كتفي، وعندما تحرِّك الريح سنابل القمح وأرى أمواجها المعتمة في ظلام لا تضيئه سوى النجوم، يصيبني الرعب، أرى في أمواج السنابل وحشًا يريد ابتلاعي، كنت أرتجف وأبكي صامتًا خوفًا من موجةٍ أخرى من البكاء الجماعيِّ التي تجعلني أخاف أكثر. في تلك الليلة الطويلة بللَّ الندى ملابسي، وغطَّى البلل على خوفي الذي جعلني أبول في ثيابي وأدَّعي أنَّه بُلِّلَ بفعل الندى لا بفعل الخوف.

خلال المسافة الفاصلة ما بين شارع اليرموك والزاهرة، التي لا تتجاوز الثلاثة كيلومترات، وبين حشود البشر الخائفة والتائهة تداعت حياتي أمامي صورًا من فتراتٍ مختلفةٍ لا رابط بينها، أعوامٌ تطوي أعوامًا بصورٍ سريعةٍ، وكأنَّ الخمسة والسبعين عامًا من عمري لم تكن سوى لحظاتٍ. شعرت أنَّ سنوات عمري ذهبت هباء، وأن حياة البشر لا معنى لها، بيتي الذي تمسكت به طوال اثنين وخمسين عاماً تركته ولن أعرف مصيره. أعود لاجئاً وأنا في هذه السن ولا أعرف إلى أين أذهب، فكرت طويلاً إلى أين أذهب وأنا في طريق خروجي من المخيَّم؟ لم أجد من أذهب إليه، اكتشفت أنني بلا أهل، بلا أولاد، بلا أصدقاء، أهدرت عمري في دكاني على مدى خمسة وثلاثين عاماً، ما جعلني وحيداً طوال الوقت، سواء في زواجي الأول، أو في زواجي الثاني، أخذ المحل كل وقتي، ومنذ أغلقته بعد انفجار الاشتباكات في المخيَّم، شعرت أني لا أعرف إدارة أي حديث عن أي شيء مع أي كان، سوى عن أغراض دكاني، وعرفت أن لا مكان أذهب إليه، ولا أحد من إخوتي يمكن أن أذهب لزيارته لقتل الوقت. لقد اختلفنا طوال الوقت، حتى بيت أهلي الفارغ من السكَّان لم أستطع أن أفكر في النزوح إليه عندما خرجت من بيتي أول مرة. لقد روضني المحل على الوحدة، تعودت عليها فأصبحت الوحدة حياتي وأصبحت أنفر من اقتراب الآخرين مني. فجأة شعرت أني بلا جدار ألجأ إليه، الكل خانوني وتركوني للمجهول أنا وابنتي الصغيرة، لم يتصل أحد ليقول لي: «تعال عندي» مع أنهم يتصلون ببعضهم ليطمئنوا على

بعضهم وتعازموا ليلجأ أحدهم عند الآخر، أما أنا فقد نبذوني من بينهم. لجأ أخي سعد من دوما إلى المخيَّم وقد استقبلته أختي بيان في شقة في بنايتها، وعندما غادرت أختي وداد إلى السعودية، أسكنته في شقة أهلي التي كانت تشغلها، أما أنا لم يفكر أحد بي، مع أني أملك جزءاً كبيراً من بيت أهلي ولي فيه الحق أكثر من الجميع، لكنهم تآمروا عليّ، هم وأمي وأبي طوال السنوات الماضية، أكلوا حقي وأنكروه عليّ ونبذوني.

عندما غادرت منزلي نازحًا إلى بيت حماي شعرت بالاختناق، كنت عبئًا عليهم، وعندما أغلقت دكَّاني بسبب الاشتباكات شعرت بالضياع لأنِّي لم أعرف ماذا أفعل بوقتي الذي أصبح فارغًا، وأصبحت عاطلًا عن العمل. لم أعرف ما الذي عليَّ فعله وأنا أسير بين الجموع الخارجة من المخيَّم بعد ذلك القصف اللعين، صحيح أنَّ جموع الناس التي أحاطت بنا في أثناء خروجنا، لم تجعلني أشعر بالوحدة التي شعرت بها في اللجوء الأوَّل وأنا طفلٌ، كنَّا عائلةً نسير في ليلٍ يسترنا، أمَّا هنا فكنَّا جموعًا من آلاف البشر نسير في وضح النهار إلى المجهول. وجود الآخرين إلى جانبك على الطريق، يعني أنَّك لا تسير على الطريق وحدك، وأنَّ المصير المجهول ليس مصيرك وحدك، إنَّه مصير الآلاف الذين يسيرون أمامك وخلفك وعلى جانبيك. لم أشعر بطول الطريق كما شعرت بهذه الكيلومترات الثلاثة التي أخرجتني من المخيَّم.

عندما خرجنا من مدخل المخيَّم الوحيد، أخذ الازدحام يخفُّ تدريجيًّا، وأصبح من الممكن إيجاد سيَّارة أجرةٍ، ولأنِّي لا أعرف إلى أين أذهب بقيت أسير على غير هدى، لم يستمرَّ الوضع طويلًا، أوقفتْ زوجتي سيَّارة أجرةٍ من دون أن أنتبه، نادت عليَّ، استدرت فوجدتها وابنتي أمام تلك السيَّارة، عدت خطواتٍ باتجاههم أجرُّ درَّاجتي، فككت الحبل الذي يثبِّت الحقيبة على الدراجة، وضعت الحقيبة في الصندوق الخلفيِّ للسيَّارة، أردت أن أضع الدرَّاجة فوق السيارة. قال لي السائق: «شو بتعمل؟!»، قلت: «بدنا ناخذ

البسكليت معنا»، قال بانزعاج: «ما بتحطها على سيَّارتي.. انزلوا من السيارة»، عندها أخرجت زوجتي رأسها من نافذة السيارة التي كانت قد ركبت فيها هي وابنتي في المقعد الخلفي، نظرت إليَّ نظرةً متعبةً وقالت بانزعاج: «اتركها يا رجل»، نظرت إليها وللدراجة التي أُمسِكُها بيدي، نَقَّلتُ نظري بينهما مرَّاتٍ عدَّةٍ، استعجلني السائق قائلًا: «بدي أمشي، شو قرَّرت؟» تركت الدراجة على جانب الطريق، ركبت في المقعد الأماميِّ للسيَّارة، بقيت أنظر للدراجة الواقفة على جنب الطريق حتَّى غابت عن نظري.

أخفيت دموعي التي نزلت على خدي عن السائق إلى جانبي وأنا أنظر إلى درَّاجتي مودِّعًا، لقد رافقتني هذه الدراجة منذ عودتي من السعودية في العام 1975، اشتريتها عندما افتتحت دكَّاني لبيع الأدوات المدرسيَّة، الدفاتر والأقلام وغيرها من لوازم الطلاب، ومع الوقت أضفت إليها آلةً لنسخ الوثائق. كنت أصنع الكثير من الدفاتر التي أبيعها في دكَّاني، فقد عملت منذ طفولتي في تجليد الكتب، وهي مهنةٌ كانت مطلوبةً في بداية الخمسينيَّات عندما التحقت بمطبعة الوليد لتجليد الكتب في منطقة باب الجابية في دمشق، حيث كان الكثير ممَّن يشترون الكتب يخيطونها ويجلِّدونها بجلدٍ سميكٍ من أجل حفظها لزمنٍ طويلٍ. وهو ما يحتاج فكَّ الكتاب وإعادة تجليده من جديد، وطبع اسم الكاتب وعنوان الكتاب واسم صاحبه على الغلاف وعلى جانب الكتاب بماء الذهب. تعلَّمت المهنة مطلع الخمسينيَّات، وبقيت فيها طوال عمري. أحببت رائحة الورق والغراء والجلد الذي يغلِّفها منذ البداية، لم أعرف ما الذي تحتويه الكتب التي أجلِّدها، رغم ذلك كنت أشعر بهيبتها، وكثيرًا ما استرقت النظر لبعض الجمل في الكتب وأنا أعمل على تجليدها، وفي الكثير من الأحيان لم أفهم الجمل التي أقرأها منزوعةً من سياقها.

تجليد الكتب هي المهنة التي ذهبت بها إلى السعودية من أجل بناء حياتي المستقبليَّة عندما لم يتجاوز عمري ستة عشرة عامًا. تركت أهلي وأنا طفلٌ لأبني مستقبلي في مكانٍ آخر، كانت عمَّتي وزوجها وهو ابن عمٍّ أبي في الوقت ذاته، قد ذهب بعد نكبة فلسطين إلى السعودية، وقد حقَّق نجاحًا مذهلًا، خلال سنواتٍ قليلةٍ راكم جرَّاءها ثروةً وأصبح غنيًّا جدًّا، تكفَّلت عمَّتي بي، وقالت لأبي: «لا تخاف عليه، هو أمانة عندي».

لم أكن قادرًا على ملاحقة أحلامي خلال التحضير للسفر، رأيت سيلًا من المال لا ينتهي ولا أعرف ماذا أفعل به، فأنا سأعمل لبعض الوقت وأجمع بعض المال لأعود إلى دمشق وأبني مطبعةً ضخمةً أكبر وأحدث من مطبعة أبي توفيق، الرجل الذي كنت أعمل عنده، مطبعةً لا منافس لها في دمشق. حلمت بشراء كلِّ شيءٍ، منزلٍ وسيَّارةٍ وأثاثٍ جميلٍ والذهاب سياحةً في هذا البلد أو ذاك، سأتزوَّج من أجمل فتاةٍ، سأخرج أهلي من ضائقتهم إلى الأبد. تزاحمت الأحلام في رأسي، وكانت الأيَّام التي سبقت السفر من أجمل أيَّام حياتي، أخذتني الأحلام إلى حدودٍ لم أعرفها من قبل ولا عرفتها بعد ذلك، أكثر أحلامي التي حلمتها في تلك الأيَّام، كانت أحلام الرجال والمراهقة معًا. كانت دول الخليج بالنسبة لجيلي من اللاجئين أرض الأحلام وتحقُّقها، راجت أساطير الفلسطينيِّين الذين ذهبوا إلى صحراء الخليج وجمعوا أموالًا طائلةً بين تجمُّعات ومخيَّمات اللاجئين وأجَّجت أحلامهم، فكلُّ واحدٍ من اللاجئين يعرف قريبًا له أو أحد أبناء مدينته أو قريته قد انتقل من الفقر إلى الغنى في تلك الصحراء التي نبتت فيها آبار النفط وجلبت لهم الكثير من المال.

منذ الأيَّام الأولى لوصولي إلى السعودية تبدَّدت أحلامي، وعرفت أنَّ المال لا يقدِّم نفسه بسهولةٍ للقادمين إلى صحراء بدَّدت الكثير من أحلام اللاجئين، ومن أحلام غيرهم من الذين أتوا إلى هذه البلاد معتقدين أنَّهم سيجدون المال الكثير كيفما التفتوا، وسيجمعون الثروات بأيِّ عملٍ عملوا. لم

يكن إيجاد عمل شيئًا سهلًا في تلك الأيَّام. استقبلتني عمَّتي في بيتها أيَّامًا عدَّةً، بعد ذلك انتقلت إلى بيتٍ صغيرٍ قريبٍ منهم، كانت مدينة جدَّة في منتصف الخمسينيَّات مدينةً بائسةً، تنمو ببطءٍ لا يتناسب مع أحلام القادمين إليها لتحقيق ثروةٍ سريعةٍ. بقيت ثلاثة أشهرٍ بلا عملٍ، وشعرت أنِّي ضيفٌ ثقيلٌ على عمَّتي، ومبلغ المال المتواضع الذي حملته معي، وهو كلُّ مدَّخرات العائلة، سرعان ما تبدَّد. أعطتني عمَّتي بعض المال الذي سرعان ما تبدَّد أيضًا. في النهاية وجد زوج عمَّتي لي من خلال أحد معارفه عملًا في تجليد الكتب في مطبعةٍ في مدينة جدة. لم يكن راتبه كبيرًا، كما كانت أحلامي، لكنَّه أنقذني من العوز في بلاد الغربة. ولمزيدٍ من تحطُّم الأحلام، اكتشفت أنَّ أجري الذي أتقاضاه، لن يستطيع أن يحقِّق حتَّى أحلامي الصغيرة في بناء حياةٍ كريمةٍ بمال الغربة خلال سنواتٍ قليلةٍ، كان وفر المال الذي أجنيه من الضآلة ما أشعرني أنَّه لا يستحقُّ عناء الغربة. كان عليَّ أن أخرج من هذا الحالة، فلم آتِ إلى السعودية من أجل أن أبقى تحت وطأة الحاجة أو أن أعيش الكفاف. عليَّ أن أجد عملًا آخر وأكثر جدوى ماليًا، خلال أشهرٍ من البحث بعد الانتهاء من عملي لم يتوافر لي أيُّ عملٍ أفضل منه. سألت نفسي، لماذا لا أعمل مع زوج عمَّتي؟ لا بدَّ من أن يكون عنده عملٌ ما يناسبني. لَمَّحت لعمَّتي، من دون جدوى. في بيت عمَّتي تعرَّفت إلى سعاد أخت زوجها، التي تعيش معهم، وكانت طوال الوقت تعاملني بلطف وتَحنُّ عليَّ، وفي كثيرٍ من الأحيان كانت تُحمِّلُني طعامًا أعدَّته حتَّى آخذه معي وآكله في البيت الذي أسكنه في الجوار، عندما لا آتي لتناول الطعام عندهم. في كثيرٍ من الأحيان لم أجد مكانًا أذهب إليه، فأذهب إلى بيت عمَّتي على نحوٍ آليٍّ، ألاعب أولادها الصغار، تقدِّم سعاد لي ما هو متوافرٌ في المنزل، أشعر أنَّني أعيش وسط عائلةٍ. في الليل أعود إلى سكني البائس وحيدًا.

بعد عامٍ من العمل الشاقّ، حسبت النقود التي جمعتها، وجدت المبلغ تافهًا، ضحكت من أحلامي السابقة، كيف أنّي خلال سنواتٍ قليلةٍ سأصبح من الأغنياء وأحقّق كلَّ أحلامي في عزِّ شبابي. بدا لي أنَّ الوضع مستحيلٌ وأنَّه لا يمكنني أن أبني ثروةً من هذا العمل البائس، والعودة إلى دمشق ليست ممكنةً أيضًا. شعرت الدنيا تضيق عليَّ، وازداد شعوري بالوحدة، المبالغ الزهيدة التي تتوفَّر معي على حساب حياتي لا تفعل شيئًا، شعرت أنّي بحاجةٍ إلى تغيير حياتي، لا أستطيع الاستمرار في الوحدة والإحباط. الشيء الوحيد الذي أَشعرني بالحياة، هو اهتمام سعاد بي وبكلِّ تفاصيلي، كانت كأمٍّ حنونٍ، وكنت سعيدًا بهذا الاهتمام، وشعرت أنّي أميل إليها، لكنّي خفت، فهي تكبرني بسبع سنواتٍ. عددت فارق العمر بيننا سيشكِّل عائقًا أمام تدفُّق مشاعري، لكنَّها تسرَّبت رغم الموانع التي وضعتها في طريقها، وجدت نفسي أشكو وحدتي لعمَّتي المرَّة بعد الأخرى. ومن كثرة شكواي، قالت عمَّتي: «إذا حاسس حالك وحيد، ليش ما تتجوز؟»، فاجأني الاقتراح، لكنّي صمتُّ، ولمعت فكرة زواجي من سعاد في ذهني في اللحظة التي اقترحت عمَّتي الزواج عليَّ، ولم أعرف تمامًا إذا كانت عمَّتي جادَّةً في اقتراحها أم لا، وأنا بالكاد بلغت السابعة عشر عامًا من عمري. وظننت أنَّ عمَّتي تمزح معي، فسرعان ما طردت الفكرة من رأسي.

كنت كلَّما طردت فكرة زواجي من سعاد من رأسي، ألحَّت عليَّ أكثر، وأصبحت متعلِّقًا بها أكثر، حاولت أن ألـمِّح لعمَّتي من دون أن أنجح، وخفت أكثر أن ألـمِّح لسعاد. أنسى الموضوع أيَّامًا عدَّةً، ويعود للإلحاح عليَّ بقوَّةٍ أكبر. كان عليَّ إيجاد مخرجٍ لأنتهي من هذا الموضوع الذي يقلقني، فقرَّرت مصارحة عمَّتي وإذا كان ردُّ فعلها سلبيًّا، أدَّعي أنّي أمزح. وعندما انفردت بعمَّتي، سرعان ما قلت لها وأنا ألهث: «إذا طلبت إيد سعاد من عمي أبو هاني، بوافق؟»، كنت أرتجف وأنا أقول كلماتي، وخلال لحظات الصمت التي تلت، تمنَّيت أن أختفي من أمام عمَّتي. فاجأ الكلام عمَّتي،

حارت بماذا تجيب، وكلَّما طال الصمت، شعرت نفسي أسقط في هاويةٍ، لأنَّ الطريقة التي قلت فيها الكلمات، لن تسمح لي بالتراجع عنها وأقول أنِّي أمزح، كان الزمن الفاصل بين الكلمات التي قلتها وبين ردِّ عمتي تساوي دهرًا بالنسبة لي. أخيرًا، ردَّت عمَّتي وهي تحت وقع المفاجأة: «رح أسأل عمَّك أبو هاني وقبله رح أسأل سعاد.. الله يقدِّم اللي فيه الخير»، عندما أنهت كلماتها انزاح جبلٌ ثقيلٌ عن صدري. فرحت بما أنجزت، وعدت للقلق من جواب سعاد وأخيها. أصبحت أذهب كلَّ يومٍ إلى بيت عمَّتي متلهِّفًا لسماع الجواب، ولكن كلَّ مرَّةٍ تحبطني بالقول إنَّها لم تفتح الموضوع مع زوجها، لعدم وجود وقتٍ مناسبٍ، وهو مشغولٌ طوال الوقت، وأحيانًا لا يعود إلى البيت. في زيارتي الرابعة قالت لي: «سعاد ما عندها مانع، بس بعد موافقة أخوها»، بعد أن أخبرتني عمَّتي بموافقة سعاد، بتُّ أخجل من النظر إليها، وكانت هي أكثر خجلًا منِّي. شعرت أنَّ الفترة الفاصلة بين قولي لعمَّتي عن رغبتي بالزواج من سعاد وبين جواب زوجها أطول ممَّا أستطيع الاحتمال. بعد أسبوعٍ أتى الردُّ قالت عمَّتي: «أبو هاني ما عندُه مانع يدعم هذا الزواج، بس لازم أبوك يطلب إيد سعاد من أبو هاني»، عندما سمعت كلمات عمَّتي شعرت بالزهو، وسرعان ما غادرت منزلهم عائدًا إلى بيتي، أو بالأصح غرفتي، وشرعت في كتابة رسالةٍ متأنِّيةٍ إلى والدي ليطلب لي يد سعاد من ابن عمِّه. ما إن انتهيت منها، حتَّى شعرت نفسي خفيفًا، سعيدًا، منتشيًا وأنا ذاهبٌ إلى البريد من أجل إرسالها، رغم حَرِّ مدينة جدَّة الخانق بسبب الرطوبة العالية.

انتظرت ردَّ أبي بفارغ الصبر، كنت راغبًا في إنهاء الإجراءات في أسرع وقتٍ، كان البريد يأخذ وقتًا طويلًا. بعد انتظارٍ شعرته طويلًا جدًّا، جاء الردُّ قاسيًا، لم أتوقَّعه، وعرفت أنَّ رسالتي تسبَّبت في مشكلةٍ هناك. كتب أخي خليل الرسالة التي أملاها أبي عليه، وقال فيها، أنَّه لا يوافق على هذا الزواج، وأنِّي ما زلت صغيرًا، ولا يناسبنا أن تتزوَّج واحدةً أكبر منك بسبع

سنواتٍ وأنت ما زلت ولدًا. كان وقع الرسالة عليَّ سيِّئًا، ليس لأنَّه رفض زواجي من سعاد، بل لتعامله معي كولدٍ صغيرٍ، ما دمت ولدًا صغيرًا، لماذا تعاملت معي كرجلٍ وأرسلتني إلى بلاد الغربة ولم أبلغ من العمر السادسة عشرة؟! سألته بصوتٍ عالٍ وكأنَّه أمامي. استفزَّتني الاستهانة بي وشعرت بغضبٍ شديدٍ، وعرفت ألَّا أحد يشعر بي في غربتي ولا حتَّى أهلي. لم أنتظر، كتبت رسالةً غاضبةً، قلت فيها: «طالما أنا طفلٌ صغيرٌ، لماذا أرسلتموني إلى الغربة في الصحراء، كان يفترض أن أكون على مقاعد الدراسة كإخوتي، ولأنَّكم اخترتم أن أكون رجلًا قبل الأوان، عليكم أن تقبلوا تصرُّفاتي كرجلٍ، لقد اخترت زوجتي وعليكم أن تقبلوا هذا الخيار، وإن لم تقبلوه، لن أكون ابنكم بعد اليوم، ولن أعود للتعرُّف عليكم مرَّةً أخرى، أنتم لا تعرفون قسوة الغربة، تتحدَّثون وأنتم مرتاحين، وهذا القرار نهائيٌّ، إذا لم تساعدوني في هذا الأمر، لستم أهلي، ولن أدوس أرض دمشق مرَّةً أخرى، وسأنساكم إلى الأبد»، كنت أعرف أنَّها كلماتٌ قاسيةٌ على أبي وأمِّي، وأقدِّر أنَّ أبي سيتأثَّر بهذا الكلام، ومن دون أن يطلب أبي يد سعاد، فإنَّ أبا هاني لن يوافق على زواجنا من دون رضا أهلي، وأهلي لن يقبلوا هذا الزواج من دون أن يشعروا بأنَّهم سيخسرونني إذا لم يفعلوا ذلك. هي ضربتي الأخيرة، فكتبت كلماتي بكلِّ ثقةٍ. سعاد فرصتي للخروج من وضعي المزري ولن أتخلى عنها. تأخَّر الردُّ لكنَّه جاء كما أردت، رغم التحذيرات أملى أبي على أخي خليل الكلمات التالية: «أنا لست موافقًا على هذا الخيار، وأمُّك غير موافقةٍ أيضًا. وبما أنَّك تعدُّ نفسك رجلًا فعليك أن تتحمَّل مسؤوليَّة ما أنت مُقدِمٌ عليه، سأفعل ما تريد وأنا لست مقتنعًا، حتَّى لا تقول يومًا ما أنَّنا وقفنا في طريق مستقبلك» سعدت بالموقف، ولم ألتفت لعدم الموافقة، لم أهتمَّ، كنت أعرف ما أريد، ولم يهمَّني رضَوا عن الخطوة أم لا، المهمُّ ما أريده أنا.

نفذَّ أبي وعده، تكلَّم مع أبو هاني على الهاتف وطلب يد سعاد منه، وقال له: «الولد ابنك وفي رعايتك»، تكفَّل أبو هاني بكلِّ تفاصيل العرس، وهو حفلٌ على نطاقٍ ضيِّقٍ جدًّا من المدعوين، وضع أبو هاني شرطًا وحيدًا لمباركة هذا الزواج، أن تكون العصمة بيد أخته. لم أفهم الشرط في حينها، لكنِّي وافقت عليه. قدَّم لنا شقَّةً جديدةً هديةً بمناسبة الزواج لنعيش فيها. بعد زواجي تحوَّلت حياتي على نحوٍ كبيرٍ وكنت أنتظر تحوُّلا آخر. أسهمت المساعدات الماليَّة التي يعطيها أبو هاني لأخته بتحسين وضعي الذي أصبح مريحًا بعد ما كان يقترب من الكفاف.

ظننت أنَّ أبا هاني سيأخذني للعمل معه بمجرَّد زواجي من سعاد، انتظرت أن يعرض عليَّ عملًا، مرَّ الوقت من دون حدوث ذلك، ضقت ذرعًا بعملي وبالمساعدات التي يمنحها لنا، أريد أن أعمل عنده، مثل الذين يعملون عنده، وأن يعاملني مثلهم ليس أكثر. لأنَّه لم يبادر إلى ذلك، لـمَّحت لسعاد أن تسأله عملًا لي عنده، وبعد ذلك صرَّحت لها بذلك، وقلت لها: «أنا أولى من الغريب بالشغل عند أبو هاني»، هزَّت رأسها من دون أن تجيب، كرَّرت السؤال مرَّاتٍ عدَّةً وهي تهزُّ رأسها كلَّ مرَّةٍ من دون إجابةٍ. انزعجت من إلحاحي وأنا لا أفهم لماذا لا تطلب من أخيها أن يوفِّر لي فرصة عملٍ أفضل من العمل الذي أقوم به عند الآخرين. وبعد طول إلحاحٍ قالت: «أخوي ما بخلط بين الشغل والقرابة، قال إنُه مستعد يقدِّم لنا كل اللي بدنا إيَّاه، بس الشغل لا، ما بدُه مشاكل عائلية بسبب الشغل» شعرت بالإهانة، وقلت غاضبًا: «أنا بدي أشتغل عندُه مثل الباقين مش أكثر ولا أقل»، قالت: «أنا بعرف هذا الشي، بس هذا اللي قالُه وأنا ما حبِّيت خبرك حتَّى ما تنزعج، أنا ما بحبك تنزعج»، ظننت أنَّ مزيدًا من الإلحاح يحلُّ المشكلة، كان تقديري خاطئًا، وأنَّ إنجابنا لعائدة طفلتنا الأولى يغيِّر موقفه، وكنت مخطئًا أيضًا، وبعد قرابة العامين من محاولات العمل عنده، عرفت أنَّ هذا لن يحدث في أيِّ يومٍ من الأيَّام، وعرفت أنَّ موقفه نهائيٌّ لا

عودة عنه، وهو الرجل العنيد. استسلمت للواقع وأصبحت أجبن، لذلك أقلعت عن فكرة ترك عملي وبدء عملٍ جديدٍ خوفًا من أن أجد نفسي بلا عملٍ بعد أن أصبحت أبًا.

عندما وُلِدَت عائدة -ابنتي الكبرى- كنت سعيدًا بأبوَّتي، تغيَّرت حياتي كلُّها وأصبح هناك جديدٌ أعيش من أجله، لقد أحدثت ولادتها تغييرًا في بيتنا وأصبح أكثر ألفةً وصخبًا، وكنت أنتظر عودتي من العمل بفارغ الصبر حتَّى ألاعبها. صرت أبًا وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وكنت أفتخر بذلك، لقد أعطاني ذلك ثقةً أكبر بالنفس، حتَّى عملي الذي كرهته في الفترة الأخيرة، عدت لأشعر بالحبِّ اتجاهه. من الصعب شرح الشعور الغامر الذي انتابني في تلك الفترة. إضافةً لهذا الشعور منحتني ولادة عائدة شعورًا إضافيًّا في المسؤوليَّة تجاه المستقبل، شعرت أنَّ عليَّ أن أضمن لها مستقبلًا جيِّدًا. كلُّ هذا غيَّر حياتي تمامًا، انتقلت مباشرةً من الطفولة إلى المسؤوليَّات الأبوية. أصبح عليَّ أن أنجز الحدَّ المقبول للعيش كعائلةٍ، وأصبحت أفكِّر في الحصول على منزلٍ للعائلة، ولأنَّ وجودي في السعودية مؤقَّت ومهما طال سأعود إلى دمشق، صرت أعمل على شراء منزلٍ في دمشق، لم يكن الأمر سهلًا، فقد اشتغلت ثلاث سنواتٍ حتَّى تحقَّق ذلك، وكلَّما ازداد عدد أفراد العائلة ازدادت المسؤوليَّات. في العام 1959 أخبرني والدي أنَّ المؤسَّسة العامَّة للاجئين توزِّع قطع أرضٍ من أجل بناء مخيَّم في منطقة الغوطة جنوب الميدان، كانت في ذلك الوقت ما تزال منطقةً زراعيَّةً بلا خدماتٍ، وكانت بعض العائلات الفلسطينيَّة قد انتقلت إلى هناك من حارة اليهود التي سكنَّاها بعد أن جلنا في بعض مناطق دمشق، في جامع أوَّلًا، ثمَّ اشترينا غرفةً بائسةً في حي الأمين. عندما غادرت إلى السعودية كنَّا نعيش فيها. كتب لي بما أنِّي متزوِّجٌ سيحصل لي على قطعةٍ أرضٍ إلى جانبه، لكنَّ المنطقة التي سيمنحوننا فيها الأرض منطقةٌ معزولةٌ، لم تصل لها الخدمات ولا طريقًا إسفلتيًّا يصل إليها، قلت له: «أنا ما بدي إياها، بدي أشتري قطعة

أرض على الشارع المزفت بالمخيَّم الجديد»، كنت قد جمعت بعض المال، وقد تبرَّع لي أبا هاني بجزءٍ من المبلغ، أرسلته لأبي واشترى لي قطعة أرضٍ، وبعد أشهرٍ وحالما انتقل أهلي إلى المخيَّم، بدأت أرسل المال إلى أبي من أجل بناء بيتٍ على هذه الأرض. تقدَّمت حياتي ببطءٍ، في وقتٍ توقَّعت أن تكون انقلابيَّة، كلُّ أحلام الغنى السريع والسهل التي رسمتها قبل القدوم إلى السعودية تبدَّدت، العمل المضني هو ما انتظرني هناك. أخذت أتكيَّف مع واقع الحال، وكانت الأحلام الكبيرة تداهمني في بعض الأوقات، ولكن سرعان ما تعود إلى الخبو. بدأت هموم المنزل تزداد، خلال ثلاث سنواتٍ أصبح عندي ثلاث بنات، ازداد عبئهم يومًا بعد يومٍ، المساعدات التي قدَّمها أبو هاني لنا، لم تحلَّ المشكلة كلُّها، والوضع أكثر صعوبةً من دونها. الإنجاز الأهمُّ خلال هذه الفترة، هو بيتي الذي بنيته في المخيَّم، عرفت أنَّ سيَّارةً تحمل رمل البناء، سقطت على أبي وآذت رجليه وهو يبني البيت، ولم أعرف حجم الأذى الذي تعرَّض له، لكنِّي عرفت أنَّه تجاوزها سالـمًا.

بعد غياب أربع سنواتٍ متواصلةٍ، قرَّرت العودة أنا وسعاد والبنات إلى دمشق في زيارةٍ. اشتريت الهدايا للجميع، لأنِّي كنت خائفًا أن يتسبَّب الخلاف الذي حصل مع أهلي حول زواجنا أنا وسعاد برفض أهلي لسعاد ومضايقتها، لذلك، لم أفكر بالعودة إلى دمشق قبل اكتمال منزلي، فيصبح صالحًا للسكن، فإذا حصلت أيُّ مشكلةٍ لا اضطر للبقاء عند أهلي، أذهب للعيش في بيتي. توقَّعت أن ترفض أمِّي استقبال سعاد، أو تعاملها بجفاءٍ على الأقل، كان الوضع عكس ما توقَّعت. وجدت الجميع بانتظارنا، إخوتي جميعًا، وأمي وأبي، وجدَّتي أيضًا. أخذتني أمِّي بالأحضان ودموعها على خدِّها، وأنا بكيت، وأخذت سعاد بالحضن وهي تبكي أيضًا، وكانت سعيدةً جدًّا بالبنات، كانت البنتان الأكبر تحاولان الاختفاء وراء سعاد، وتنظران إلى طفلةٍ وطفلٍ يحاولان الاختفاء وراء أمِّي، الطفلة أختي وداد وكان عمرها حوالي السنة عندما غادرت، عرفت أنَّ الطفل الآخر هو أخي عمر الذي وُلِدَ

وأنا في السعودية، وُلِدَ بعد ولادة عائدة بأشهرٍ عدَّةٍ، وهناك أخت لي اسمها نوال وُلِدَت بوقتٍ متقاربٍ مع ابنتي الثالثة رائدة وكانت تبلغ من العمر أشهرٍ عدَّةٍ. احتضنت أمِّي بناتي بكلِّ حنانٍ، خيَّم سحرٌ خاصٌّ على المكان، كنت أرى المكان لأوَّل مرَّةٍ، فقد غادرت إلى السعودية قبل أن ينتقل أهلي إلى المخيَّم. يتكوَّن بيت أهلي من ثلاث غرفٍ، واحدةٌ منفردةٌ باتجاه الجنوب، إلى يمين الباب الخارجي. والغرف والمطبخ وغرفةٌ صغيرةٌ قرب البئر المقابل للباب الرئيسي، كانت غرفة جدَّتي في القسم الشمالي من البيت إلى يسار الباب الخارجي. بين الغرف مساحةٌ واسعةٌ فيها داليتان تحملان عناقيد العنب على الجانبين، واحدةٌ إلى جانب البئر باتجاه الشرق، وواحدةٌ إلى جانب بيت الخلاء باتجاه الغرب، بالقرب من الباب الرئيسيِّ للبيت. سقف الغرف من ألواح الخشب المستندة على عمودٍ خشبيٍّ يمتدُّ في منتصف الغرفة بين جدارين تستند عليه الألواح الخشبيَّة وفوق الألواح الخشبيَّة طبقةٌ من خليط الطين مع التبن وفوقها طبقةٌ من الإسمنت. بنى أبي البيت وحده، وقد صنع حجارة البناء وصبَّها بيديه، لم يدخل عاملٌ إلى البيت، سوى النجَّار والحدَّاد اللذين صنعا الأبواب والشبابيك الخارجيَّة، حتَّى البئر في صدر المنزل حفره بيديه. منذ وصلت مطار دمشق شعرت نفسي محمومًا، لم أعرف هل هذا بسبب شوقي إلى أهلي وأصدقائي القلائل في دمشق، أم هو شوقٌ لدمشق التي عشت فيها طفولةً معذَّبةً. كنت أنظر للطريق ذاهلًا، وعرفت أنَّ عبد الرحمن الذي غادر دمشق قبل أربع سنواتٍ، ليس عبد الرحمن الذي يعود إليها. أصابتني مشاعر متناقضةٌ عصيَّةٌ على التفسير، يبدو أنَّ قسوة السعودية جعلتني أحبُّ دمشق رغم طفولتي المعذَّبة فيها. تذكَّرت طفولتي، ولحظات اللعب العبثيَّة التي كنت أسرقها بين الحين والآخر، لم تكن طفولتي بالسوء الذي صوَّرته لنفسي، كانت طفولةً معذَّبةً في جوانب، وفي الوقت ذاته سعيدةً في جوانب أخرى.

تدفَّقت ذكرياتي وأنا غير قادرٍ على التقاط أيٍّ منها والتوقُّف عندها، عندما وصلت بيت أهلي كنت مذهولًا من نفسي أكثر ممَّا أنا مذهولٌ من دمشق.

استقبلني أهلي بالترحاب على عكس ما توقَّعت، أمِّي سعيدةٌ ببناتي، وبناتي سعيداتٌ بأخواتي الأطفال، أعمارهم متقاربةٌ، وباحة الدار أصبحت مكانًا لصخبهم والسماء فوق الباحة تخفِّف من ضجيجهم. لم تتركنا أمِّي نذهب لنقيم في بيتنا، قالت: «روحوا، تفقدوه، بس تناموا هناك ما حزرتوا، إلَّا إذا بدكم تزعلوني» أذعنَّا لمطلبها ومطلب أبي بالبقاء معهم، تفقَّدنا بيتنا، الذي أعجب سعاد على تواضعه، وأعجبني أيضًا. شعرت بالفخر لهذا الإنجاز المبكر بالنسبة لشبابٍ من جيلي. فقد أصبحت أملك بيتًا وأنا ما أزال في الثالثة والعشرين من عمري، أمرٌ يعدُّه الكثيرون إنجازًا هائلًا لطفلٍ غادر إلى الغربة، وعاد ليملك منزلًا في أفضل منطقةٍ في المخيَّم الجديد وهو ما يزال شاباً. رأيت الحسد في عيون أصدقائي والجيران، لم يخرج الكثيرون من أوضاعهم المأساوية التي كانوا يعيشونها منذ خرجنا من فلسطين. لم يعرف أحد أيَّ غربة أعيش؟! وكيف ومن أين جاء هذا البيت؟! سعدت بهذا الإنجاز في بداية حياتي، والذي أخسره اليوم في نهاية حياتي، لقد تحوَّل إلى ركامٍ بفعل القصف الذي تعرَّضت له المنطقة، بقيت محافظًا عليه كما بُنِيَ أوَّل مرَّةٍ، لم أرغب يومًا في هدمه وإعادة بنائه، كان يعجبني رغم نصائح الجميع بإعادة بنائه لأنَّه أصبح باليًا، التي رفضتها كلَّها، في الحرب المجنونة القائمة في البلد، هَدَمته القذائف، ولا أظنُّ أنَّني أستطيع إعادة بناءه يومًا، لم أعد أملك الوقت ولا الطاقة لذلك.

عندما خرجت من بيتي بعد القصف العنيف الذي تعرَّضت له المنطقة التي يقع فيها، لم أعرف إلى أين أذهب، فكان اللجوء إلى بيت حماي، وعندما خرجت من المخيَّم لم أعرف أين أذهب أيضًا؟! سألني السائق الذي ركبنا معه من الزاهرة بعد خروجنا من المخيَّم: «لوين رايحين، إن شاء الله؟»، لم أتوقَّع السؤال، لأنِّي لم أملك جوابًا، وعندما سألني سرحت

بعيدًا، لكنَّه كرَّر السؤال، فأجبت: «إلى صحنايا» لم يكن هناك مكانٌ فعليًّا أذهب إليه، وجدت نفسي أمام بيت ابنتي، أنزلت أغراضي من سيَّارة الأجرة، أعطيت الرجل أجرته، ورحل. لم أرغب في مواجهة ابنتي على باب منزلها في الطابق الرابع، لم أكن قادرًا أصلًا على حمل حقيبتي إلى ذلك الارتفاع. قلت لابنتي هناء اتصلي لي من هاتفك على أختك، فأنا لا أملك هاتفًا نقَّالًا، عندما رنَّ الهاتف أعطتني إيَّاه، سمعت صوت ابنتي رائدة يقول: «ألو.. ألو.. ألو» لم أعرف ماذا أقول، خرجت الكلمات منِّي بصعوبةٍ وأنا أقول: «كيفك يا بنتي»، قالت: «أهلًا بابا، كيفك؟ وينك أنت؟»، قلت وأنا أحبس دموعي بصعوبةٍ: «طلعنا من المخيَّم من شوي، وما بعرف وين بدي روح!»، وأضفت بصعوبة: «فيني أبقى عندك كم يوم حتَّى أدبر حالي»، قالت: «وينك أنت هلأ؟»، قلت: «أنا قدام بنايتك»، قالت: «أهلًا وسهلًا بابا»، حملنا أغراضنا بصعوبةٍ، تناوبنا أنا وزوجتي على حمل الحقيبة على الدرج، وعندما وصلنا باب شقَّتها في الطابق الرابع، كانت بانتظارنا سلَّمت عليَّ وقبَّلتني وقبَّلت أختها، ولم تقبِّل زوجتي، وظهرت المفاجأة على وجهها، كأنَّها لم تتوقَّع أن تكون معي، وأنا لم أخبرها، كان الموقف محرجًا، وشعرت أنَّ زوجتي تريد أن تتراجع وتغادر، لكن لا مجال لذلك. شاهدت الإذلال في عينيها، لم أرَ هذا الحزن في عينيها من قبل، آخر ما توقَّعته أن تكون ضيفةً ثقيلةً على ابنة ضرَّتها، لم تحبَّا بعضهما يومًا، ولم تكسر الحرب من رفض أولادي لزوجتي الثانية، هي تعرف ذلك، ولم يكن الأمر سرًّا، لحظتها عرفت أنَّ قرار المجيء لعندها كان قرارًا أحمقًا. ليس التراجع ممكنًا، فقد أصبحنا داخل البيت. لن تطول إقامتي عند ابنتي سوى أربعة أيَّامٍ، ما إن انقضى اليوم الأوَّل، حتَّى أصبحت تلقي الأوامر علينا جميعًا بطريقة عدوانيَّة، وعندما قالت لي بلهجةٍ آمرةٍ واحتقاريَّةٍ: «لازم تترك كندرتك برا البيت»، على مسمع من زوجتي وابنتي. تمنَّيت لو انشقت الأرض وابتلعتني، كانت لهجتها عدوانيَّةً وانتقاميَّة، وشعرت لحظتها حجم

الكراهية التي تحملها لي. وعندما انفردت بزوجتي قالت: «لازم نمشي من هون فورًا»، قلت: «لوين نروح. إلى الجامع؟!»، قالت: «الجامع أهون علي من هذا الذل»، أنهت كلماتها وشرعت في جمع أغراضنا. وعندما غادرنا، كانت ابنتي في غرفتها، لم نرغب في إزعاجها، تركنا البيت من دون وداعٍ، لأنَّنا لم نرغب في المزيد من الإساءة، لقد أصبح البقاء مستحيلًا، غادرنا من دون إصدار صوتٍ. لم يكن أمامي أيُّ خيارٍ، ذهبنا إلى الجامع الذي كان مكتظًّا بالناس، شاهدت الراحة على وجه زوجتي رغم صعوبة العيش مع كلِّ هذه الجموع، فلم يكن وجهها مخنوقًا كما كان الوضع في بيت ابنتي. لا أعرف كيف انتشر خبر وجودي في الجامع بسرعةٍ، فبعد يومين من وجودنا في الجامع، رنَّ الهاتف المحمول لابنتي هناء، وكانت أختي بيان على الهاتف، وعندما أخذت الهاتف لأردَّ عليها، صرخت بي منفعلة: «شو بتعمل يا خيا، بعدنا ما متنا، ليش بتروح على الجامع وبيتي موجود؟!»، عندما سمعت كلماتها لم أستطع مسك نفسي عن البكاء، ولم أعرف ما أقول، ولم تنتظر منِّي أنَّ أقول شيئًا، قالت: «وين أنت حتَّى أبعث ابني يجيبكوا؟»، عندما جاء ابنها لأخذنا، لم أستطع الكلام، وعندما وصلنا إلى بيت أختي في صحنايا أيضًا، كان في عينيها من الشفقة ما يكفي ليجعلني أبكي، فقد شعرت أنَّها تعرف كلَّ شيءٍ عن الإذلال الذي شهدناه، لكنَّها لم تقل شيئًا، أخذتني في حضنها، وبكيت وبكت، أخذت ابنتي وأمها في حضنها وقالت لي: «البيت بيتك، كان لازم تجي لعندي من الأوَّل»، لم أعلِّق، غرقت في أحزاني، لكنِّي شعرت بالراحة من جانبٍ آخر.

في الأوقات الصعبة نحتاج إلى من يقف إلى جانبنا، ليس مهمًّا أن يحلَّ لنا مشكلاتٍ ملموسةٍ، بل أن نشعر أنَّه يقف إلى جانبنا هذا يكفي. في سنِّي وقد تجاوزت الخامسة والسبعين عامًا أحتاج إلى من يسندني أكثر من أيِّ وقتٍ سابقٍ. لم أتوقَّع أن أحتاج أحدًا، كنت مكتفيًا بذاتي وبحياتي المتواضعة،

لم أفكِّر يومًا في أنَّ خرابًا سيعمُّ البلد ويشرِّدني من بيتي ويعيد لي ذكريات طفولةٍ قاسيةٍ.

أقمت عند أختي بيان حوالي أربعة أشهرٍ، لم تشعرني يومًا بأنِّي ثقيلٌ عليها، لكنِّي كنت أشعر أنِّي أُثقِلُ عليها، وكلَّما أردت المغادرة، ترفض وتقول: «في شي مضايقك؟! ليش بدك تطلع؟»، كلُّ يومٍ إضافيٍّ أشعر نفسي أثقل، وكلَّما عاملتني بطريقةٍ أفضل أشعر بثقلي أكثر. فقد حطَّمت موقفي السابق من أنَّ إخوتي لا يقفون معي في أزمتي، وشعرت بالخزيِّ بيني وبين نفسي من المواقف التي أخذتها منهم. لم نكن وحدنا المستضافين عندها، فقد كان عم أولادها الأصغر وزوجته مستضافين أيضًا، حيث تقطَّعت به السبل أيضًا، ولم يجد مكانًا يؤويه، فأخذت بيان على عاتقها استضافته مع عائلته. لذلك عندما اقترب موعد مغادرتها إلى الإمارات عند ابنتها، وجدت الفرصة مناسبةً لمغادرة منزلها. اشترى ابني رضوان الذي يعمل في متجرٍ لخاله في جدَّة منزلًا له في منطقة قدسيا خلال سنوات عمله في السعودية، وبعد أن عرف أنِّي مشرَّدٌ ولست مقيمًا عند ابنتي رائدة، اتصل على هاتف ابنتي وتحدَّث معي وعرض عليَّ الإقامة في منزله في قدسيا، لكنَّ أختي بيان سبقته واستضافتني عندها، وليس من اللائق المغادرة بعد كرم الاستضافة. مع مغادرتها البلد بات عليَّ المغادرة. عندما اتصل رضوان للاطمئنان عليَّ، قلت له: «صار لازم نطلع من بيت عمتك، هي بدها تسافر على الإمارات عند ابنتها»، قال رضوان: «ما في مشكلة يابا، بيتي بانتظارك»، انتقلنا إلى هناك في انتظار أن يتحقَّق حلمنا ونعود مرَّةً أخرى إلى المخيَّم. شعرت أنَّه لا مستقبل لي حتَّى أبدأ من جديد، وندمت لأنِّي تزوَّجت مرَّةً ثانية وأنجبت هذه البنت وأنا عجوز، فرحي بها تحوَّل إلى غصَّةٍ في ترحالنا، والسؤال الذي حرقني وقتها هو أيُّ مستقبلٍ ينتظر هذه الطفلة؟!

لا أعرف كيف انقضت كلُّ هذه السنوات من عمري، ولا أعرف لماذا قضيت عشرين عامًا في السعودية؟ ولماذا قضيت كلَّ هذا الوقت في ذلك

الجحيم، لا سيَّما بعد معرفتي عدم قدرتي على تحقيق أحلامي؟ لماذا بقيت كلَّ هذه السنوات أنتظر أن يأخذني أبو هاني للعمل معه، ولأثبت له جدارتي ولأصبح شريكًا له؟ لماذا تزلَّفت له كلَّ هذا التزلُّف؟ ما حقَّقته من العمل كلَّ هذه السنوات في السعودية، حقَّقه من يعمل في دمشق مثلي وأكثر، من دون حاجةٍ لأن يذلَّ نفسه ويتذلَّل للآخرين. كلَّما مضى وقتٌ أكثر وأنا في السعودية ازداد إحباطي، وازدادت مشاكلي في البيت. كان تعامل سعاد معي بتعالٍ يفقدني عقلي أحيانًا، أصرخ، أحطِّم الأشياء، حتَّى أمام الأولاد، لم أعد أحتمل الحالة، ولم أعد أزور عمَّتي حتَّى لا أصطدم بأبي هاني. بعد عشر سنواتٍ من هذا الجحيم، كان عليَّ اتخاذ قرارٍ يخصُّ حياتي، أيَّ قرارٍ، لأنِّي شعرت أنَّ أبا هاني وعمَّتي وسعاد هم الذين يقرِّرون حياتي، وأنا مجرَّد متفرِّج عليها وهي تضيع في الغربة. بعد حرب العام 1967 قرَّرت أنَّ على عائلتي العودة إلى دمشق، لأنِّي لم أعد قادرًا على تحمُّل أعبائها الماليَّة في السعودية، وإذا عادوا إلى دمشق وسكنوا في بيتنا هناك، ينخفض مصروفهم، لأنَّ دمشق أرخص بكثيرٍ من جدَّة، وأترك أنا البيت الذي نعيش فيه وأسكن في غرفةٍ مع آخرين كما يفعل العمَّال القادمون من سورية والسعودية والسودان... وبذلك أتمكَّن من توفير بعض المال لبدء حياةٍ جديدةٍ في دمشق، ورمي حياة الذلِّ التي عشتها في السعودية حتَّى ذلك الوقت. حاول أبو هاني وعمَّتي إقناعي بأنَّ الوضع في سورية خطيرٌ بعد الحرب التي انهزمت فيها سورية، وليس من الصحيح أن ترسل عائلتك إلى هناك. سمعت كلامًا كثيرًا حول الأوضاع الخطرة في المنطقة، لكنِّي بقيت على عنادي. لم ترغب سعاد بالذهاب إلى دمشق والعيش هناك، لكنَّها قالت: «أنا مستعدة آخذ الأولاد وأروح أعيش بالشام، بس بشرط.» سألتها: «شو شرطك؟» قالت: «أنو تتحمَّل مسؤوليَّة وكلفة حياتنا كلها. بلا مساعدات، لا من أبو هاني ولا من غيرو»، قلت: «موافق على شرطك»،

ورتَّبنا الأوضاع من أجل النزول إلى دمشق على نحوٍ نهائيٍّ، أنا أقضي إجازة الصيف معهم، أعود إلى عملي ويبقون هم في بيتنا في المخيَّم.

لم يعترض أبو هاني على انتقالنا إلى دمشق، لم أفهم لماذا لم يفعل ذلك إلَّا بعد سنواتٍ، عندما غضبت سعاد غضبًا شديدًا في إحدى شجاراتنا، عندما بدأت أشتم أخاها أبا هاني. قالت صارخةً: «أنا الغلطانة، أنا بتحمل المسؤوليَّة، كان لازم أسمع كلام أبو هاني، واحد مثلك ما فيه أمل منُه. قلت معليش يا بنت، اِتحملي. والطامة الكبرى إني أقنعت أبو هاني، وقلت له، خيا اتركنا نجرب. احنا عنا خمسة أولاد، يمكن تكون فرصة ويصير رجّال. بس لا، أنت بحياتك ما بتصير رجّال، بتظلك الولد اللي اجا على السعودية وقضى عمره يشكي ويبكي. فعلًا الولد بظل ولد لو عينوه قاضي بلد. الله يلعن الساعة التي سمعت فيها كلامك» في كلِّ مرَّةٍ كنَّا نتشاجر، تحاول سعاد امتصاص غضبي، حتَّى أصبحت لا أتوقَّع منها الردَّ، لذلك دُهِشتُ من ردِّها العنيف في تلك المرَّة. منذ تلك الحادثة لم تسكت كما كانت تفعل سابقًا، وباتت عنيفةً، تخفُّ الحالة عند سفري، فأنا لا أراهم إلَّا في الإجازة القصيرة في الصيف، وفي بعض الرسائل التي كنت أكره كتابتها، وبعض التحويلات الماليَّة. انتقال العائلة إلى دمشق أشعرني بالراحة، فقد بات الوضع أفضل من دون العائلة ومتطلَّباتها. بيني وبين نفسي تمنَّيت أن يقدِّر لي أبو هاني هذه الخطوة الاستقلاليَّة، وأن يأخذني لأعمل معه، لكن هذا لم يحدث، فرضيت بعملي ولم أعد أتطلَّع إلى تغييره. لم تكن سنوات الوحدة سهلةً بالنسبة لي في السعودية، لكنَّها أفضل من وجود العائلة معي أو وجودي مع العائلة في دمشق، وهذا ما جعلني أوفِّر القليل من المال، حتَّى أستطيع أن أفعل شيئًا عندما أعود إلى دمشق. كلُّ سنة أقول هذه آخر سنةٍ لي في السعودية، أعود لأتراجع خوفًا من فشلٍ جديدٍ في دمشق. لم أعد أحلم بالغنى، بتُّ أريد أن أكفي عائلتي فقط، وبعد حوالي عشرين عامًا من الغربة، لم أعد أعرف دمشق، وقد كبر أبنائي بعيدًا عنِّي، فلم أعد

أعرفهم ولا هم يعرفونني. كنت أظنُّ أنَّ المشاكل التي تعانيها عائلتي في دمشق، هي المشاكل التي تخبرني سعاد بها، وأنَّ المشاكل التي لا أعرفها غير موجودةٍ، هربت سنواتٍ من هذه المشاكل وكأنَّها غير موجودةٍ، تعاملت مع الحياة كعازبٍ وأنا عندي زوجةٌ وخمسة أولاد. فلم يكن بقائي في السعودية من أجل المال فحسب، بل ابتعادًا عن المشاكل، فأنا لم أرغب في قضاء الوقت وأنا أهتمُّ بمشاكل الأطفال. لم تستمرَّ حالة الهرب تلك، ليس لأنِّي لم أرغب في استمرارها، بل لأنَّ أبي قرَّر أن يخبرني بالمشاكل التي لم أرغب في معرفتها. ففي الزيارة الأخيرة لدمشق قبل أن أعود إليها على نحوٍ نهائيٍّ، عندما قابلت أبي في المرَّة الثانية، قال لي وبحزمٍ: «بناتك صاروا صبايا، وما عاد مناسب تتركهم لحالهم وتروح على السعودية، هدلون ولادك وأنت لازم تحل مشاكلهم. أخوتك ما بقدروا يحلوا المشاكل بدالك. ولادك كبروا وصار لازم تكون فوق راسهم هون بالشام»، قلت: «عن أي مشاكل بتحكي؟» قال: «الأولاد صاروا بسن بحتاجوا لأبوهم بجنبهم»، قلت: «شو رح أعمل بالشام؟»، قال: «في محل مسكر بالبيت، بتقدر تفتحوا وتسترزق منو. افتحوا شو ما بدك، أنا ما رح أتدخل. بس ارجع لعند ولادك»، وكان يقصد محلًا في بيته. بنى أبي بيته على مراحل وكان آخرها في العام السابق لعودتي إلى دمشق، وأصبح لديه شقَّةٌ أرضيَّةٌ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى شقَّةٌ في الطابق الأوَّل وتحتها ثلاث محلَّات. بيت أهلي في شارع اليرموك لم يكن مكان عمل أبي، الذي افتتح دكانًا في المخيَّم وفي المنطقة التي سكنها أهالي بلدتنا في فلسطين، وكانت هذه المنطقة تسمَّى منطقة الدوار، أو منطقة الإعاشة، نسبةً إلى مقرِّ الاونروا لتوزيع المساعدات الغذائيَّة. بينما المحلَّات الثلاثة في بيت أهلي، مشغولٌ فيها محلٌّ واحدٌ، وهو المحلُّ الصغير على الزاوية، الذي افتتحه أخي خليل العائد قبلي من السعودية لتصليح الأدوات الكهربائيَّة، بعد أن أنهى عقده هناك كمدرِّسٍ. وقد عرض عليَّ أبي

المحلَّ الكبير الذي عدت بعد أشهرٍ عدَّةٍ لأفتتحه كمكتبةٍ، أمَّا المحلُّ الثالث، فبقي فارغًا فترةً، ثمَّ أجَّره أبي لرجلٍ افتتحه خياطًا.

بعد حديثي مع أبي، سألت إخوتي وأمي وسعاد هل هناك مشكلاتٌ معيَّنةٌ، الكلُّ قال، لا. أختي بيان قالت: «حساسيَّة عمر بناتك هي اللي خلت أبوك يقول ما قال»، عندما قلت لسعاد عن فكرة أبي بعودتي إلى دمشق، قالت: «منيح»، لم تتحمس وبدت ممتعضةً وشعرت أنَّ فكرة عودتي لا تناسبها، لأنَّها ستزيد مشكلاتها ولن يساعدها وجودي في حلِّ المشكلات في العائلة. بعد أن عرفت أنَّ الجميع يعتقد أنَّ عودتي إلى دمشق باتت ضروريَّة، عدت إلى السعودية لأنهي عملي هناك وأرتِّب أوضاع العودة. زرت عمَّتي وزوجها، وأخبرتهما أنِّي أرتِّب أوضاعي من أجل العودة إلى دمشق، وأنَّ أبي أعطاني دكَّانًا في بيته وسأفتتحه كمطبعةٍ صغيرةٍ بدايةً. سألني أبو هاني: «ناقصك شيء؟»، قلت: «أبدًا، عندي مشكلة واحدة، مش عارف كيف بدي أجيب مقص ورق آلي على سورية، ما عارف شو بدي أعمل بهذا الموضوع؟!»، قال: «ولا يهمك، أعطني مواصفات المقص الآلي وإيمتى بدك يكون عندك. اعتبرُه صار عندك، واعتبره هدية إلك ولسعاد..»، وفعلًا بعد ستَّة أشهرٍ وكنت قد أنهيت عملي في السعودية، وبدأت أحضِّر المحلَّ للعمل، جاء المقصُّ الآلي الذي وعد به أبو هاني، وكنت قد اشتريت مطبعة أحرفٍ، لطباعة الأشياء البسيطة مثل نعوات الموتى وكروت الأفراح. قسَّمت المحلَّ إلى قسمين، داخلي كورشة طباعةٍ صغيرةٍ وصناعة الدفاتر وتجليد الكتب، وخارجيٍّ، كواجهةٍ لعرض الدفاتر والأدوات المدرسيَّة.

بعد سنواتٍ طويلةٍ من الغياب، بدأت أتعرَّف على عائلتي من جديدٍ، فلم تكن الإجازة وحدها تكفي لأقول إنِّي أعيش وسط عائلة، كانوا يصبرون على الكثير من الأشياء لحين مغادرتي، وبعدها يعود الوضع إلى ما كان عليه. بعد عودتي النهائية، لم يبق الوضع السابق قائمًا، أصبح وجودي الدائم طبيعيًّا، وبدأت المشكلات تزداد في المنزل، ما جعلني أقضي أوقاتًا أكثر في

المحل، تجنُّبًا للمشكلات العائلية. رغم كلِّ ما جرى، بقيت أشعر أنَّ سعاد تتعامل معي بتعالٍ، وكلُّ السنوات السابقة لم تغيِّرها، وهذا ما أزعجني، ولم أعرف ما هو المطلوب منِّي، قمت بكلِّ ما أستطيعه، ولم ترضَ سعاد عنِّي. وعندما نتشاجر، تعيِّرني قائلة: «هربت إلى السعودية من مسؤوليَّاتك، ولما رجعت على الشام بحجِّة هذه المسؤوليَّة، هربت منَّا للدكَّان، وما عدت تجي على البيت»، وعندما كنت أقول لها: «شو بدي أعمل غير هيك، بدي أدبِّر مصروف البيت؟!»، كانت تجيب ساخرةً: «بتحكي جد؟! أنت مقتنع إننا عشنا كل هاي السنين من شوية المصاري اللي كنت بتبعثها من السعودية، أو اللي أنت بتعطيني إياها من يوم ما رجعت على البلد؟»، قلت: «شو قصدك؟»، قالت: «ما بقصد شي، روح واسأل أي حدا بتعرفوا، قلُه قديش بتعطينا مصاري اليوم، وقديش كنت تعطينا لما كنت بالسعودية. واسأل إذا كانت هاي المصاري بتفتح بيت عايشين فيه ثمانية أشخاص؟»، قلت: «شو بيعني هذا الكلام، أنا مقصر؟»، قالت صارخةً: «طول عمرك مقصر، وإذا كنت ساكتة وبحل مشاكلي لحالي، هذا ما بيعني إنك إنت اللي بتحلها. وإذا كنت ما بدك تشوف مسؤوليَّاتك وواجباتك، هذا ما بيعني إنها مش موجودة. طول عمرك بتتعامل إنُه هاي العيلة عيلتي أنا، وأنت مالك علاقة فيها، واللي بتقوم فيه صدقة غير لازمة عليك. أنت ما بتحس إنك واحد من هاي العيلة ولا بتعرف شو بصير فيها ولا معها. أنت بس عليك تلم المصاري وتخبيها، وكأنَّك عزابي عايش بالسعودية وما رجعت على الشام. أنا طول عمري بحل مشاكلنا على الساكت. ما بسكت منشانك، أنا بسكت منشان الأولاد»، دُهِشتُ من اتهامها لي بالتقصير، قدَّمت لهم ما أستطيع، صحيحٌ أنِّي أهرب من البيت وأبالغ في الحضور في المحلِّ هربًا من المشكلات في البيت، لكن هذا لا يعني أنِّي لا أشعر نفسي جزءًا من العائلة. كانت قاسيةً معي، أنا أؤدِّي واجبي، صحيحٌ أنَّ هربي من البيت زاد بسبب المشكلات، لكنَّه لم يكن المشكلة. كنت أغلق المحلَّ يوم الجمعة وأقضيه مع

العائلة، لكن مع الوقت وجدت نفسي أجلس وحدي، وكلُّ واحدٍ من الأولاد والبنات مشغولٌ بنفسه، شعرت نفسي عبئًا عليهم، فأصبحت أفتح المحلَّ يوم الجمعة، وبذلك أخفِّف عنهم وجودي الذي يبدو مزعجًا. زيادة المشكلات مع سعاد، جعلتني أكثر نفورًا من البيت وأكثر حرصًا على المال، لا أعرف ما الذي سيحدث معي، وإذا كان عندها أخٌ غنيٌ يستطيع مساعدتها في كلِّ وقتٍ، فأنا ليس عندي من يساعدني، فليس لي سوى مالي يحملني في الوقت الصعب. وعرفت بأنَّه سيأتي يوم تتخلَّى فيه سعاد عنِّي، وكان عليَّ أن آخذ احتياطاتي.

انتقلت خلال حياتي من إحباطٍ إلى آخر، لذلك وجدت نفسي أنغلق على نفسي لأنِّي لم أجد من يفهمني. عدَّني الجميع سيِّئًا، لم أفهم لماذا؟! ولكنِّي بدأت أتصرَّف بناء على توقُّعاتهم. وزادت الخلافات بيني وبين سعاد التي حرَّضت الأولاد عليَّ حتَّى باتوا يكرهونني، بعدما اشترى أخوها منزلًا في دمشق في منطقة البرامكة. عند أوَّل خلافٍ وصل إليه، قال لها: «انتقلي إلى البيت في البرامكة»، عندما أخبرتني قائلةً: «رح ننقل على بيت أخوي في البرامكة. هناك أحسن للبنات، وهم بدهم ينتقلوا، ما بدهم يضلوا عايشين بالمخيَّم»، كنت سعيدًا بهذا التغيير، فهو يمنحني الحريَّة في التصرُّف في حياتي أكثر. قلت: «فكرة جيِّدة»، لم تكن تنتظر هذا الجواب منِّي، كان واضحًا على ملامح وجهها أنَّ الجواب أحبطها. لا أعرف ما الذي كانت تريده، هم أرادوا الانتقال وأنا لم أقف ضدَّ هذا الخيار لأنِّي ظننت أنَّ العيش في المخيَّم لا يُحتمل، مع ازدياد عدد سكَّانه وازدحام مواصلاته، وأصبح الوصول إلى وسط البلد صعبًا، كذلك أصبح وصول البنات إلى مدارسهنَّ في وسط البلد أصعب بعد أن انتقلن إلى المرحلة الثانويَّة. ظنَّت سعاد أنَّ موافقتي السريعة جاءت لأسبابٍ أخرى، أسباب تتعلَّق بمزيد من التخلِّي عن مسؤوليَّاتي تجاه العائلة. وما لم أعرفه وقتها، وعرفته فيما بعد، أنَّها قبلت الانتقال للعيش في شقَّة أخيها في البرامكة، ليس من أجل البنات،

بل من أجل مزيدٍ من الاستقلاليَّة، فهي عدَّت أنَّ الشيء الوحيد الذي أقدِّمه في هذه العلاقة هو مكان السكن، الذي أرفض تغييره، وكلَّما تشاجرنا حول البيت، تقول: «إحنا كثار والبيت صغير ما واسعنا، بدنا بيت أكبر، ثلاث غرف لثمانية أشخاص ما بتكفي»، وأنا كنت أقول: «احمدي ربك، في ناس بتتمنى تعيش بمثل هيك بيت»، قالت: «بعرف، بس أنا ما بتمنى، إحنا بنقدر نعيش في بيت أكبر وأفضل، ليش نبقى عايشين بهاي الخرابة؟»، استفزني قولها: «خرابة»، قلت: «اليوم صار خرابة؟! احمدي ربك إنكم عايشين أحسن من كل الناس»، قالت: «أنت بتفكر، احنا عايشين أحسن من الناس. قصدك أحسن من الساكنين في المقابر. إذا إنت شايف هذا البيت قصر لازم تفحص عيونك؟ بس هذا البيت خرابة ما بتصلح للعيش»، ازدادت طلباتها، وكنت أعرف إذا استجبت لهذا الطلب أو ذاك هناك مطلب قادمٌ وراءه مباشرةً، فأختصر الموضوع وأرفض المطالب الجديدة. «نحن عايشين مثل كل الناس ليش التبذير»، كنت أقول لنفسي. لكن هي أخت المليونير تريد أن تعيش بما يتناسب مع مقام أخيها وأنا لا أقدر على تحقيق ذلك. ظننت أنَّ الانتقال إلى وسط البلد سيحسِّن العلاقة بيننا، لكنَّ ذلك لم يحدث لأنَّه لم يكن إنجازي، لقد كان إنجازها، وهو ما أسهم في المزيد من الاستقلاليَّة عنِّي، وهذا ما لم أنتبه له في البداية. أصبحت تستطيع الاستغناء عنِّي نهائيًّا، فهي لم تعتمد عليَّ، سوى بالمال الذي أقدِّمه لهم. كما زاد الانتقال من الهوَّة بيني وبين أولادي، فقدت احترامي عندهم بسبب من تحريض أمِّهم، واتهامي بالتقصير بكلِّ مسؤوليَّاتي. وكلُّ ما أقدِّمه لهم، لم يشفع لي عندهم، ولم أكن أشاهد منهم أيَّ مظهرٍ من مظاهر الاحترام، كما باتوا يتجنَّبون الحديث معي، وإذا اضطروا إلى ذلك، يكون على مضضٍ. في الوقت الذي ظننت أنَّ الانتقال سيعزِّز العلاقة بيني وبين سعاد والأولاد، اكتشفت أنَّ الهوة بيننا تزداد اتساعًا، وكلَّما حاولت ردمها وجدتها أعمق من قدرتي على فعل ذلك. هناك شيءٌ مفقودٌ في هذه العلاقة

بحثت عنه طوال عمري من دون العثور عليه. هناك مشكلاتٌ تكبر وتتحوَّل إلى مشاجراتٍ بيني وبين سعاد، وأحيانًا مع البنات أو الأولاد لا أجد تفسيرًا لها، ولا أعرف لماذا اشتعلت أصلًا. هناك شيءٌ خاطئٌ في هذه العائلة. وعندما أقول ذلك، تصرخ سعاد: «في شي غلط؟! كل شي غلط في هاي العيلة، أصلًا كل هاي العيلة إجت من الغلط. الغلط إني قبلت اتزوجك، هذا الغلط هو اللي جاب كل الأغلاط بعدُه» سألت نفسي: «ليش بصير كل هذا؟»، من دون أن أجد جوابًا، أسأل سعاد عندما نكون على وئامٍ تقول: «المشاكل بتصير بكل العائلات، هذه سنة الحياة»، وعندما أسألها في شجارٍ السؤال ذاته تقول: «اسآل حالك، كل هذه المشاكل اجت من طريقتك في الحياة، واعتبار نفسك غير مسؤول عن العيلة، ولما تصير المشاكل اللي بتعرفها، وما بتعرف كيف تحلها، بتركض عند أخواتك وأبوك ليحلولك اياها، أنت ما بتنفع لشيء، بس شاطر تجمع مصاري. المصاري اللي أنا متأكدة إنك ما رح تنبسط فيها ولا يوم بحياتك، ورح تضيع زي ما ضيعت حياتنا. أنت بتفكر بهربك بتعمل زي ما عمل أبوك؟ الفرق بينك وبينُه مثل الفرق بين السما والأرض، أبوك كان عندُه أسبابُه ليهرب، بس هو ما هرب من مسؤوليتُه. أنا بعرفُه من أيام البلاد، ما في يوم هرب من مسؤوليتُه، وما قصَّر مع عيلتُه، وما قدم لمرتُه غير الاحترام. أنت حتى مشاكلك ومشاكل ولادك رميتها عليه وعلى اخواتك، أنت شخص معدوم المسؤولية، وهذا سبب كل مشاكلنا، وسبب دمار هاي العيلة»، كانت تظلمني بهذا الكلام، صحيحٌ أنِّي لم أكن أسكت لها، وكنت لا أدرك ما أقول عندما نتشاجر. لكنِّي لم أكن رجلًا سيِّئًا إلى هذه الدرجة التي تصوُّرها. لم يرغب أولادي في أنَّ أحلَّ مشكلاتهم، فكانوا يلجؤون إلى أعمامهم وعمَّاتهم، هم عائلتي وليس من الخطأ أن يحلَّ إخوتي بعض مشكلاتي. فهناك مشكلاتٌ من الصعب التعامل معها وحدي. ألم يكن من حقِّي أن أستنجد بإخوتي للوقوف معي في المشكلات الكبرى. كيف كنت سأواجه مشكلة أنَّ

ابنتي وقعت في حبِّ شابٍّ مسيحيٍّ. هل كنت قادرًا على معالجة الموقف وحدي، بالتأكيد كنت أحتاج عائلتي معي. محنةٌ كبرى أن تقع ابنتي في حبِّ رجلٍ مسيحيٍّ، إنَّها تجلب لي وللعائلة العار، كيف سأعالج المشكلة وحدي؟ عندها لجأت إلى أبي لاستشارته بما الذي علينا فعله؟ استدعى أخي خليل وقال بعد أن شرح له الموضوع باختصار: «هاي البنت لازم تموت»، صمتنا أنا وخليل. نظر أبي إليَّ وقال: «كيف وصلت لهون يا حمار، ما عرفت تضبط بناتك، أنت شو جنسك، ما كنت عارف بنتك، من يوم ما حبت الحلاق ما عرفت تربيها. الله يلعنك، كنا بالحلاق صرنا بالمسيحي. كل هذا من ورا النقلة على الشام، هون كانت فلتانة، كيف بدها تكون هناك، هاي هي النتيجة»، لم أعرف ما أقول، استمعت إلى توبيخي، من دون أن أقول أيَّ كلمةٍ، لم أنشغل بتوبيخي، بل انشغلت بكلمة أبي «هاي البنت لازم تموت»، خفت من الكلمة ومن النتائج، من الذي سيقوم بهذه المهمة؟ استمرَّ أبي بتوبيخي وأنا أصبت بالخوف الشديد، لم أتصوَّر أن أشاهد ابنتي عائدة مقتولةً، وأن أقتلها أنا. من سيؤدي المهمَّة؟ بقي هذا السؤال يقلقني، كما يقلقني الحلُّ الدمويُّ نفسه، لكنِّي لم أستطع أن أقول، لا. قال أبي: «هاي المرّة، هاي مشكلتك، وأنت رح تحلها بالدم»، قلت: «أنا، ما بقدر ساوي هيك»، قال أبي: «الرجل اللي ما بقدر يغسل عاره ما بستاهل يكون رجّال»، شعرت بالعار والخوف معًا، بعد كلمات أبي أخذت بالبكاء، لم يرحمني أبي، بل زاد عليَّ: «بتبكي مثل النسوان، أنا رح أقتلها بإيدي وأغسل عارك وعارنا»، هنا قال خليل: «طول بالك يابا، القصة بدها طولة بال، لسا ما عرفنا هذا الكلام صحيح ولا لأ. وبعدين أنت رجل كبير، وين بدك تروح وتدور عليها، هاي مش شغلتك»، قال أبي غاضبًا: «مش شايف أخوك ببكي مثل النسوان، خايف ومرعوب وما عمل شي. إذا أنا ما ذبحتها مين بدو يعملها، هذا الخيخا»، وأشار إليَّ، قال خليل: «أنا ما قلت هيك. أنا بقول نهدأ حتى نعرف كيف نحل المشكلة. الانفعال ما بحلها. خلينا نأجل

الموضوع لبكرة»، قال أبي: «وإذا أجلناه لبكرة شو رح يتغيَّر؟»، قال خليل: «ولا شيء، بس بنصير أهدأ وبنفكِّر بطريقة أفضل».

وافق أبي على تأجيل الموضوع على مضضٍ. وأنا بقيت أبكي حتَّى بعد أن غادرنا بيت أهلي. قال خليل: «خلص يا عبد، بدك تظل تبكي مثل النسوان. ما أنت عارف هذا اللي رح يصير، شو اللي مخليك مُتفاجئ وكأنَّك ما بتعرف أبوك، إذا ما بدك هاي النتيجة، كان لازم تسكت على الموضوع»، لم أفكِّر في أنَّ الموضوع سيصل إلى هنا، ولم أفكِّر أصلًا، لأنِّي وجدت نفسي متورِّطًا في مشكلةٍ لا أعرف كيف أحلُّها، فلجأت إلى أهلي، لم أتوقَّع شيئًا، ولم أتوقَّع فكرة الذبح أصلًا. ولم أكن أعرف أيَّ شيءٍ عن حبٍّ بين ابنتي وحلاقٍ ما، لم أعرف هذه القصَّة إطلاقًا، ولا أعرف كيف عرفها أبي، وأنا لم أعرفها. ذهبت إلى أهلي لحلِّ المشكلة، وجدت نفسي أقع في مشكلةٍ أكبر. ظننت أنَّ المشكلة ستُحلُّ بجلب البنت وضربها ضربًا مبرحًا لتتوب عمَّا أقدمت عليه، أمَّا فكرة الذبح فلم تخطر على بالي وباتت تخيفني، وخفت أن يستمرَّ أبي في الضغط عليَّ حتَّى أقوم بالمهمَّة. لم أعرف كيف أتصرَّف، فقرَّرت ترك الأمور لأرى إلى أين ستصل. كنت أعرف أنَّ هذا القرار ليس صحيحًا، لم أجرؤ على فعل شيءٍ، أصبح الموضوع عارًا يمسُّ الجميع في العائلة. شتمت الأولاد والبنات ونفسي، كنت في غاية الخوف والقلق والحيرة. عندما أبلغت سعاد بأنِّي أخبرت أهلي بموضوع عائدة، ثارت ثائرتها. أخذت تصرخ: «ما رح تكون رجّال ولا مرة بحياتك. ليش خبرت أهلك؟! أنت أجبن من إنك تقتل البنت، بدك أهلك يقتلوها؟ أنت مجنون».

إخبار سعاد جعل الوضع أكثر سوءًا، فهي أخبرت عائدة بما جرى بيننا، وعدَّتا أنَّ حكم القتل بحقِّها قد اتخذ، بصرف النظر عن صحَّة الاتهام أم خطئه، وأنَّ هذا الحكم وقع على البنت بسبب غبائي وعدم تحمُّلي المسؤوليَّة. هرب عائدة من البيت حوَّل الشكوك إلى حقائق، وعندما بلَّغت أبي اختفاء البنت، قال متوعِّدًا: «وين رح تروح؟»، لكنَّه لم يصدِّق كلامي،

ذهب واقتحم البيت في البرامكة. كانت سعاد في غاية الخوف من أبي، وعندما سألها: «وين عائدة؟»، قالت: «البنت مو هون، فتش البيت إذا بدك»، خجل أبي من تفتيشه، فغادر المنزل من دون أن يفعل ذلك. طلب أبي منَّا أنا وخليل أن نبحث عن عائدة ونخبره بمكانها. وأنَّه سيفعل اللازم عندما يعرف مكانها. لكنَّنا لا أنا ولا خليل بحثنا عنها، وقال خليل لي: «إذا عرفت مكان بنتك لا تقول شي لأبوي. مفهوم، ما بدنا حماقة ثانية»، بعد اختفاء عائدة حملت سعاد خبر أنَّ عائدة قد تزوَّجت، وأنَّ الرجل أسلم قبل أن يتزوَّجا لأنَّ المحاكم في دمشق لا تقبل تزويجهما من دون أن يكون زوج المسلمة مسلمًا. حلَّ الخبر جزءًا من المشكلة، بأنَّها لم تتزوَّج من رجلٍ مسيحيٍّ. لكنَّها هربت من المنزل وتزوَّجت رغم إرادتنا، وهذا ما تستحقُّ عليه الذبح أيضًا. نقلت الخبر إلى أخي خليل الذي نقله بدوره إلى أبي، وبعد ذلك اختفى الحديث عن عائدة في العائلة، ولم يطالب أحدٌ بالذبح، ولم يأتِ أحدٌ على ذكرها، باتت كأنَّها شخصٌ ميتٌ.

لم تبقَ عائلتي كما كانت قبل الحادثة، زادت غربتي عن أولادي وسعاد، وبات وجودي ثقيلًا، تضامن الأولاد مع أختهم، وعدُّوني مفتعل المشكلة، وكان بالإمكان حلَّها بطريقةٍ أهدأ. وأنا الذي دفعت أختهم لفعل ذلك، بنشر خبر علاقتها مع شابٍّ مسيحيٍّ كفضيحةٍ في العائلة، ولم يكن الأمر يتعدَّى علاقةً بين شابين. وهذا ما جعلهم يعدُّوني المسؤول عن تشرُّد أختهم ووضعها في صورةٍ غير لائقةٍ أمام الآخرين. لم يقولوا لي هذا الكلام مباشرةً لكن عرفته من آخرين. وقد تسبَّبت حادثة عائدة بكراهيَّة الأولاد لي إضافةً لعدم احترامهم السابق، وعدُّوا أنِّي بهذا السلوك دمَّرت كلَّ علاقةٍ معهم، وأنَّهم يحافظون على الكلام معي احترامًا لأنفسهم وليس احترامًا لي. فأنا لم أتصرَّف كأبٍ في الأزمة مع أختهم، وهذا يعني أنِّي لن أتصرَّف كأبٍ مع أحدٍ منهم. كلَّما زاد شعوري بالغربة في عائلتي، زادت كراهيَّتي لوجودي بينهم، وأصبحت أفتعل المشكلات في البيت حتَّى أغيب عنه.

أتشاجر مع سعاد فأخرج من البيت، أنام في الدكَّان لأيَّامٍ، حيث جهَّزت سريرًا أرتاح عليه وقت الظهيرة منذ وقتٍ طويلٍ، لأنِّي لم أكن أعود إلى البيت وقت الغذاء. وأصبح هذا المكان منزلي في كلِّ خلافٍ مع سعاد، حيث أقضي من أسبوعين إلى شهر في الدكان، قبل أن تتصل سعاد لنعود من جديد شهرين أو ثلاثة، لنكرِّر العمليَّة، نتشاجر، فأنام شهرًا في الدكان. الفترة التي أقضيها في الدكان لا يتصل بي أيٌّ من أولادي أو بناتي. رغم ذلك أشعر بالراحة أكثر في وحدتي، ولا سيما أنَّني لم أكن أرغب في إخبار أحد بعدم ذهابي إلى المنزل، لا سيَّما أهلي، مع أنَّهم يسكنون في المكان ذاته الذي توجد فيه دكاني، وعلى مدى سنين لم ينتبهوا إلى أنِّي أنام في الدكان فتراتٍ طويلةٍ، كان هذا سرِّي الصغير. والغريب لا أنا ولا سعاد ولا الأولاد أو البنات أخبرنا أحدًا بهذا الواقع. في بيتي، كنت أشعر أنِّي أكثر وحدةً، وأنَّ أفراد عائلتي يهربون منِّي عند وصولي إلى المنزل. شعرت أنَّ البيت مختلفٌ عندما لا أكون فيه، بيتٌ صاخبٌ، الكلُّ يتحرَّك، ويتكلَّمون مع بعضهم، ويتشاجرون، أيُّ بيتٍ فيه حياةٌ. وعندما أدخل إلى البيت يتغيَّر كلُّ شيءٍ، يختفي الصوت، والبيت الحيُّ يتحوَّل إلى ميتٍ، لا صوت ولا حركة، إلَّا من الغرف إلى الحمَّام. لم أعد أعرف ما يجري في المنزل، لا أعرف ما يفعله أولادي وما الذي يدرسونه، وأيَّ مشكلاتٍ يواجهونها، بتُّ أقلَّ من شخصٍ غريبٍ.

تزوَّجت بناتي الواحدة تلو الأخرى، ما عدا سائدة، وكان وجودي في المراسم شكليًّا، كلُّ شيءٍ يجري من ورائي وعليَّ أن أكون صورةً فقط أمام الناس. وبقي الحال على حاله، لم يتغيَّر أيُّ شيءٍ، مرَّت السنون ونحن على هذه الحالة، سافر رضوان للعمل في السعودية عند خاله، ولم يبقَ في البيت سوى محسن. انتظرت سنواتٍ وسنواتٍ حتَّى يتحسَّن الوضع، لكن لا شيء تحسَّن. وعرفت أنِّي قضيت عمري في انتظار شيءٍ لم يحدث، ولن يحدث. فقرَّرت مغادرة البيت نهائيًّا، لا سيَّما أنَّ المستأجر الذي كان يشغل بيتي

القديم قد أخلاه لأنَّه اشترى بيتًا جديدًا، وبات عندي مكانٌ غير الدكان أنام فيه، وهو أقرب من البيت في البرامكة، وأستطيع أن أصل إليه بدرَّاجتي خلال خمس دقائق، على عكس السكن في البرامكة حيث يحتاج منِّي الطريق حوالي ثلاثة أرباع الساعة.

بخروجي النهائيِّ من البيت، انقطعت علاقتي بأولادي، واقتصرت مع البعض على الاتصالات الهاتفيَّة فقط. كان محسن الوحيد الذي يزورني في فتراتٍ متباعدةٍ، كنت أشعرها زيارة واجبٍ أو حاجةٍ، وليست زيارة محبَّةٍ، فأقابلها ببرودٍ. لا أعرف ما الذي أوصلني إلى حالة الوحدة هذه. لا أصدقاء، قطيعةٌ مع عائلتي، قطيعةٌ مع أهلي، لم أعرف لماذا كلُّ هذا؟ رغم أنِّي قمت بواجبي تجاه عائلتي، قد لا يكون كما يريدون، لكن هذا لا يجعلهم يقاطعونني بهذه الطريقة. حتَّى أهلي غضبوا منِّي لأنِّي طالبت بحقِّي بجزءٍ من الأرض التي حصل عليها أبي من مؤسَّسة اللاجئين، حصل عليها باسمي، وهي بالتالي تعود لي، وليس من حقِّه أخذها، يجب أن يعيدها لي. البيت الذي بُنِيَ على هذه الأرض أصبح يساوي مئة مليون ليرةٍ قبل الحرب، أي حوالي مليوني دولار. وحصَّتي من البيت حوالي الربع، عندما كنت أتصوَّر أنَّه بعد وفاة أبي سيتقاسم إخوتي معي ما هو ملكي، كنت أفقد عقلي، هذا مالي، كيف أقاسمهم إيَّاه، وكيف يستولي أبي عليه؟! ظنَّ أبي أنَّه بإعطائي المحل عندما عدت من السعودية سيسكتني عن حقِّي، صحيحٌ أنِّي صمتُّ بعض الوقت، وهذا لا يعني أنِّي سأسكت عن حقِّي دائمًا. عندما أراد أهلي أن يعيدوا إعمار البيت من جديدٍ في منتصف الثمانينيَّات، لم أعد أحتمل السكوت عن حقِّي. وعندما عرفت أنَّ أبي تقدَّم بترخيصٍ من أجل بناء البيت، غضبت وذهبت إلى البلدية واعترضت على منح ترخيص لأبي ليبني على الأرض التي منحتني إيَّاها المؤسسة. لأنَّ بناءه عليها يشكِّل اعتداءً على حقوقي. عرف أبي بشكواي عليه من أخي عمر الذي كان يتابع المعاملة في البلدية. حضر إلى دكَّاني غاضبًا وقال: «أحسن ما تروح وتشكي علي للبلدية،

كنت تجرأ وتعال احكي معي. بس أنت طول عمرك ناقص، تفو عليك وعلى تربايتك»، وخرج من دكَّاني، ولا أعرف لماذا صمتُّ وأصابني الخوف، ولم تخرج منِّي ولا كلمة. شتمت وصرخت بعد أن خرج من دكاني ولم يسمعني قلت: «أنت مو أب، والأب ما بسرق ابنه. الله يلعنك ويلعن اليوم اللي اجيت فيه على هاي الدكان»، طبعًا لم يسمع كلَّ هذا، تحت وطأة غضبي كتبت على ورقةٍ بالخط العريض: «أنا عبد الرحمن أحمد خليل. أصرِّح أنَّ أبي أحمد خليل سرق أرضي»، ولصقت الورقة على واجهة الدكَّان الزجاجيَّة، وأعترف اليوم أنَّ هذا من الأشياء المخزية التي أقدمت عليها في حياتي. وأخجل من نفسي كلَّما تذكَّرت الواقعة، كانت لحظة غضبٍ لم أعرف فيها ما أقوم بفعله. لم يَرَها أبي، ولو رآها لن يستطيع قراءتها، لأنَّه لا يعرف القراءة. رآها أخي منير بعد أن علَّقتها على الواجهة بحوالي الساعة، وهذا يعني أنَّ العشرات على الأقل من المارَّة شاهدوها. دخل منير دكَّاني من دون أن يبدي أيَّ غضبٍ، قال لي: «شو هذا اللي كاتبه، قيم هالورقة، عيب عليك، مانك ولد صغير حتى تقول هذا عن أبوك»، قلت: «ما رح قيمها، رح قول هذا وأكثر، أبوك حرامي وسرقني، كلكم بتعرفوا هذا الشي»، قال: «أنت بتعرف أنُه هذا غير صحيح. وعلى كل حال هذا ما بهمني، منك لأبوك تصطفلوا، بس احنا مش بحاجة لهاي الفضايح قدام الناس»، دخل إلى المحل وهو يتحدَّث، نزع الورقة من مكانها على زجاج الواجهة ومزَّقها. قال: «بتمنى عليك ما تلصق وحدة ثانية»، قلت: «شو يعني بتهدّدني؟!»، قال: «نعم يا سيدي بهدّدك، إذا عدتها رح تشوف شي ما رح يعجبك أبدًا. هاي السخافة ما بس بتسيء لأبوك، هاي بتسيء إلنا كلنا، وأولهم أنت، وأنا ما رح أسمح بهاي المسخرة»، قلت: «يعني، شو رح تعمل؟»، قال: «إنت سويها، ورح تشوف اللي رح يصير، رح أجي أشوف الواجهة بعد ساعة، إذا رجعت هاي الورقة على الواجهة، رح تشوف بعينك شو رح يصير»، قال كلماته الأخيرة وهو يغادر. لم أحتمل هذا التهديد من أخي الأصغر. كتبت الورقة

من جديد، لكنّي لم ألصقها على الزجاج. صحيحٌ أنّي شعرت بالإهانة من تهديده، لكن ماذا أفعل مع أخي الشاب الذي عُرِفَ بوصفه شابًّا أزعر صاحب مشاكل حتّى وقتٍ قريبٍ، ولم أعرف ما الذي يمكن أن يفعله، وماذا أتوقَّع من شابٍ أشتم أباه. فهدأت قليلًا، وقلت لنفسي لا أريد مزيدًا من الأعداء. بقيت الورقة على الطاولة، بعد أن هدأت، مزَّقتها ورميتها في سلَّة القمامة.

كانت فترة الخلاف مع أبي محرجةً لأنَّ الجميع وقف معه في هذا الخلاف، وزاد من حرجها أنَّ أبي منذ سنوات بات يشغل الدكَّان إلى جواري، التي شغلها خليل سابقًا كمحلٍّ لتصليح الأدوات الكهربائيَّة. عندما حصل خليل على وظيفة مدرِّسٍ في اللاذقية، ترك الدكَّان وانتقل إلى هناك لمدَّة عامين ثمَّ عاد بعدها إلى دمشق من جديدٍ للتدريس فيها. لما مرض أبي لفترةٍ طويلةٍ، ترك دكَّانه قرب الدوار، وعندما شفي بعد ثلاثة أشهرٍ افتتح بقاليَّةً في المحلِّ المغلق إلى جواري الذي كان يشغله خليل، وبذلك أصبحنا أنا وأبي جارين في المحلَّات، وهذا ما جعلنا نلتقي كثيرًا من دون أن نلقي السلام على بعضنا خلال فترة الخلاف. تدخَّل أخي خليل لحلِّ الخلاف بيننا، وكان مستغربًا مطالبتي بالأرض وقال: «كيف هيك بتعمل، مو أنت قلت ما بدي هاي الأرض، لما أبوك أخذها من المؤسسة، شو اللي تغيَّر؟»، قلت: «قلت هيك، بس ما كنت بحكي جد»، قال: «هلأ، بعد خمسة وعشرين سنة جاي تقول ما كنت بحكي جد. مين اللي كان بفتخر أنُّه تخلى عن أرض المؤسسة، مو أنت؟ لو أخذ الأرض واحد غير أبوك، كنت بتتجرأ، تقولو هاي أرضي؟»، قلت: «ما بفهم هذا الحكي، بدي حقي»، قال: «أي حق؟! كأنك بتنسى. مش أبوك دفع عنك بدل الجيش، اللي كان 400 ليرة هداك الوقت، رجعتلُه إياها؟ هذا المبلغ وقتها، كان بشتري أرض أكبر خمس مرَّات من الأرض اللي بتقول هاي أرضي. مش هو اللي اشترالك الأرض عند السينما، وبناها وما أخذ منك شي، وكان رح يخسر رجليه لما وقعت عليه الشاحنة

وهو بشتغل ببيتك. نسيت كل هاد ولا هادا مو مصاري؟!»، قلت «هذا ما صار، هو ما دفع عني ولا شي»، قال: «حرام عليك يا رجل، أنا دفعت بدل الجيش بيدي هاي. والآن بتقول هذا ما صار. غريب أمرك. على كل حال أبوك بدو يحل المشكلة، مع أنُه على قناعة كاملة، أنُه ما الك عندُه شي»، قلت: «وكيف بدُه يحلها؟»، قال: «بيتنازل لك عن الدكان مقابل تنازلك عن الأرض»، قلت: «هذا ظلم، أرضي أكبر من هذا بكثير»، قال متسائلًا ومستنكرًا: «هلأ صارت أرضك لما صار سعرها بالملايين، ولما كانت طين ترفعت عنها. على كل حال فكِّر في الموضوع. وردلي خبر»، بعد أخذٍ وردٍّ وافقت على هذه الصيغة وكتبنا العقود، إلَّا أنَّ العقد الذي كتبته بتنازلي عن أرضي لم توافق عليه مؤسَّسة اللاجئين لأنَّه يعطي أبي أكثر من سقف الحصة المسموح بتملُّكها في المؤسَّسة. ولكن اعتبرنا التبادل قد تمَّ. خرَّب هذا الصدام علاقتي مع إخوتي وأبي وأمي. وبعد أن انتهت المشكلة سألني خليل: «دخلك، شو اللي كسبتُه من مشكلتك مع أبوك غير الفضايح وكلام الناس وغضب أمك وأبوك. شايف وضعك على حالُه، ما تغيَّر شي، بس علاقتك مع أمك وأبوك صارت زفت»، كان محقًّا في ذلك، كما فتح الاتفاق مع أبي بتملُّكي الدكَّان شهيَّة أبنائي بعدما عرفوا أنِّي بتُّ أملكها، أخذوا يتقرَّبون منِّي، لعلِّي أبيعها بعدما أصبح سعرها هائلًا، ويمكن بثمنها أن نفتح مشروعًا آخر، كان عمل المكتبات في انخفاضٍ مستمرٍّ. وبات أولادي يدعونني لأغيِّر مهنتي. كنت أعرف أنَّ التقرُّب ليس محبَّةً إنَّما طمعًا في الكسب من الوضع الجديد.

بعد مغادرتي بيتي، فَقَدتُ القدرة على العودة إلى عائلتي، أولادي الكبار غادروا المنزل لتأسيس عائلاتهم. والصغير تدبَّر أمره باللجوء إلى كندا. فكَّرت مرَّاتٍ عدَّةً بالعودة، وجدت نفسي غير قادرٍ على فعل ذلك، وشعرت نفسي غريبًا عن هذه العائلة التي كانت يومًا عائلتي، حتَّى عندما نتشاجر، لكن اليوم ليس هناك أيُّ رابطٍ بيننا، نتقابل كالغرباء عند أقارب حتَّى من

دون إلقاء السلام. كنت أعرف أنَّني إذا عدت فإنَّ المشكلات ستعود من جديدٍ، لكن هذه المرَّة ستكون المشكلات من أناس غرباء، فمنذ زمنٍ بعيدٍ لم أعد أشعر أنَّهم عائلتي.

بعد أن قطعت الستين من عمري بدأت أخاف من وحدتي، صحيحٌ أنَّ علاقتي بأهلي تحسَّنت، لكنَّ الأهل لا يحلُّون مشكلة الوحدة، أبي وأمِّي باتا كبارًا جدًّا في العمر، وليس من الممكن الاعتماد على مساعدتهما، صحيحٌ أنِّي أقضي عندهما الكثير من الوقت، وبتُّ أنام عندهما أيَّامًا طويلةً، لأنَّ لا شيء أعمله في منزلي، كانت أمِّي تقول: «خليك هون، شو بدك تروح تعمل بالبيت لحالك؟»، كان وجودي معهم يخفِّف من وحدتي، وكنت أسأل نفسي، وماذا لو غاب أمِّي وأبي. بعد عمر الستين يصبح سؤال الموت ملحًّا، وأنا لا أرغب في الموت وحيدًا. تحايلت على الموضوع الذي ليس له سوى حلٌّ واحدٌ، الزواج من جديد. فكَّرت كثيرًا واتخذت قراري، عليَّ بناء أسرةٍ من جديد. لن أتعامل هذه المرَّة مع أسرتي بالطريقة التي تعاملت بها مع عائلتي السابقة، فأنا لست الشخص ذاته، لا قدرة لي على الشجار، مثلما كان الوضع في السابق. قرَّرت الزواج، هذه المرَّة من دون طموحاتٍ ولا أحلامٍ.

في المرَّة الأولى، كان زواجي لتقريب وقت تحقيق أحلامي وأنا لم أبلغ السابعة عشرة من عمري، كنت عجولًا، أريد الكثير من المال بأيِّ وسيلةٍ. اليوم لا أريد سوى كفايتي، وعدم الموت وحيدًا، هذا فقط ما أريده من زواجي الجديد ليس أكثر. بدأت أبحث عن امرأةٍ، لم يكن من المناسب أن أبحث عن واحدةٍ بعمري فقد تجاوزت الخامسة والستين من عمري، لا أريد العيش مع امرأةٍ عجوز ولا مع طفلةٍ. عندما قلت لأمِّي: «بدي أتجوَّز»، قالت: «تجوز، مين ماسكك؟ كان لازم تتجوز قبل عشرين سنة»، قلت: «بدي تساعديني»، ضحكت أمي وقالت: «أنا يا حسرة أساعدك؟! أنا راحت عليّ يا ابني»، كانت أمِّي قد تجاوزت الثمانين من عمرها وأبي أكبر

منها بأربع سنواتٍ، وقد ترك دكَّانه قبل أشهرٍ، أجَّرها إلى شخصٍ آخر لأنَّه ليس قادرًا على العمل. وليس هناك ما يعمله ولا أصدقاء له لأنَّه قضى أكثر من خمسين عامًا من عمره في دكَّانه. الفراغ الذي يعيشه جعله في أيَّام الطقس الجيِّد، يضع كرسيًّا أمام دكَّاني ويتأمَّل دكَّانه التي قضى فيه عمره، كأنَّه يحرسها. لم يدرك عندما قرَّر التوقُّف عن العمل، أنَّ الوقت سيتحوَّل إلى عبءٍ عليه، وأنَّه سيقضي الوقت الذي كان يقضيه في دكَّانه وهو ينظر إليها وهي التي تركها قبل أشهرٍ. الرجل الذي استأجر دكَّان أبي حدَّيثها، لم يغيِّر أبي فيها شيئًا منذ افتتحها حتَّى تركها، حتَّى الواجهة التي كانت للمحل هي ذاتها التي ركَّبها خليل عندما شغل المحل. كان الداخل إلى دكان أبي يراها في حالٍ من فوضى، كانت هذه الفوضى منظَّمةً بالنسبة له، فهو يعرف مكان كلِّ غرضٍ فيها، ولم يهتمَّ أبي بمظهر الدكان، لأنَّ زبائنه كانوا من نوعٍ خاصٍّ. الرجل الذي استأجر المحلَّ حوَّله إلى بقَّاليَّةٍ حديثةٍ، بواجهاتٍ جديدةٍ، وحمَّالات بضاعةٍ أمام المحل، وكانت الفسحة أمام المحل تسمح بذلك. حدث أنَّ أبي الذي كان يجلس كعادته يراقب الدكان في وقت عودة طلَّاب المدرسة القريبة إلى منازلهم بعد المدرسة. سرق تلميذٌ صغيرٌ شقيٌّ كيسًا من البطاطا المقرمشة من الحمَّالات الموضوعة أمام الدكان، وركض هاربًا. شاهده أبي الذي يجلس بالقرب من دكَّاني، وعندما مرَّ التلميذ راكضًا من أمام أبي. مدَّ أبي يده وأمسك التلميذ، سرعة التلميذ أفقدت أبي الجالس على الكرسي توازنه فانقلب مع الكرسي، أفلت الولد من قبضة أبي واستمرَّ بالركض. من دكَّاني التي كنت أبيع فيها شيئًا لأحد الزبائن، شاهدت أبي وهو يسقط. لم يستطع أبي النهوض، فركضت إليه، كان يتألَّم جدًّا، قال بصوتٍ حزينٍ: «يمكن انكسرت رجلي»، أوقفت سيَّارة أجرةٍ وأخذته إلى المستشفى، وهناك قالوا إنَّ عنق الفخذ تحطَّم، وهذا يحدث كثيرًا لكبار السنِّ بسبب هشاشة العظام التي يعاني منها الشخص مع تقدُّم العمر، كما قال الطبيب. حتَّى تلك اللحظة التي بلغ فيها أبي الخامسة والثمانين، لم يكن يعاني أيًّا من

الأمراض المتعلِّقة بالكبر مثل الضغط أو السكَّري أو أمراض القلب، وكان قادرًا على حمل كيسٍ بوزن مئة كيلوغرام، أصغر أبنائه غير قادرٍ على حمله. لكن بعد أن توقَّف عن العمل وأجَّر دكَّانه لشخصٍ آخر، أخذ يذوي بسرعةٍ خلال الأشهر التالية وجاء كسر ساقه ليدخله في حزنٍ شديدٍ. لزم سريره حتَّى مات بعد خمس سنواتٍ من الحادثة. شعرت أنَّ ما جرى مع أبي إنذارٌ لي، أبي الذي حوله أمِّي وكلُّ إخوتي شعر بالانكسار بعد تحطُّم مفصله.

في فترةٍ قريبةٍ من حادثة أبي، دخلت السجن عندما أتاني شخصٌ لا أعرفه وقال لي، أنَّه معلِّم ويريد تصوير الورقة النقديَّة ذات فئة الخمسمئة ليرةٍ من الوجهين، لاستخدامها وسيلة مساعدةٍ في شرح درس رياضيات للتلاميذ. هذه الورقة النقديَّة مصمَّمةٌ من تدرُّجات اللون الرماديِّ، صوَّرت له أوراقًا عدَّةً من أجل تلاميذه كما ادعى، لأجد نفسي بعد أربعة أيَّامٍ في قبضة الشرطة بتهمة التزوير. ولم يخطر لي أنَّ من ادعى أنَّه معلمٌ كان مجرَّد نصَّابٍ سيستخدم هذه الورقات ليشتري فيها من المحلَّات كأوراقٍ نقديَّةٍ حقيقيَّةٍ. بالطبع أُلقِيَ القبض عليه سريعًا لأنَّ ما أقدم عليه فعلٌ غبيٌّ ولا ينطلي على أحدٍ، لأنَّ هناك فارقًا كبيرًا بين أوراق التصوير وأوراق النقود من ناحية النوعيَّة والملمس، اعترف أنَّه صوَّرَ هذه الأوراق في مكتبتي، فأحضرتني الشرطة لأنِّي شريك في جريمة التزوير. لم أقضِ وقتًا طويلًا في التوقيف، لكن ما أخافني فيه شعوري بالوحدة. بعد خمسة أيَّامٍ من التوقيف لم يسأل أحدٌ عنِّي، ولم يعرف أحدٌ أنِّي محبوسٌ. فطلبت من شخصٍ خرج من السجن أن يتصل بأخي خليل ويخبره أنِّي في السجن حتَّى يساعدني، وهذا ما كان. عند الإفراج عنِّي، سألت أهلي: «ليش ما سألتو عني؟» كان جواب أمي: «أنت قلت بدك تروح مشوار على اللاذقية كم يوم، ولما سكرت دكانتك فكرناك رحت على البحر، ما خطرلنا إنك بالحبس.» تطابقت إجابة أمي مع إجابات إخوتي. كنت فعلًا قلت هذا قبل

حبسي بأيَّامٍ عدَّةٍ. سألت نفسي: «إذا صارت مصيبة مثل هاي المصيبة مرة ثانية، أو صرت بعمر أبوي وحالته، شو رح يصير فيني؟» لم أقل هذا لأسوِّغ إقدامي على الزواج، إنَّما فعلًا كنت بحاجةٍ لتغيير حياتي لألف سببٍ وسبب.

بدأت البحث عن امرأةٍ تناسب وضعي، وبعد أن أشعت أنِّي أريد الزواج، دُهِشتُ من حجم النساء العانسات والأرامل والمطلَّقات في الأربعينات من أعمارهنَّ اللواتي يبحثن عن رجلٍ يعشنَ معه، هناك نساءٌ جئن لتتعرَّفن عليَّ وقدَّمن أنفسهن من دون معرفةٍ سابقةٍ، وهنَّ نساءٌ محترماتٌ، لا يريدن الاستمرار في العيش وحيدات أو عانساتٍ مع عائلاتهن. كان البحث متعبًا، كلُّ امرأةٍ لها مشكلاتها، ليس هناك من شخص يخلو منها. وأنا الهارب من المشكلات حتَّى أرتاح، لا أريد أن أجلب لنفسي مشكلاتٍ جديدةً، أريد أن أكمل حياتي بهدوءٍ. فلا يناسبني أن أتزوَّج من امرأةٍ ملاكٍ، عندها شابٌّ صاحب مشاكل. خلال فترةٍ قصيرةٍ عرفت الكثير من النساء، لكن أيًّا منهنَّ لم تكن خاليةً من المشكلات. بعد أشهرٍ شعرت بالملل وبدأت أقلع عن الفكرة، عندما جاء جاري أبا حسن وقال لي: «عندي قريبةٌ مستورةٌ، ما تجوزت، عمرها 38 سنةً ما رأيك تشوفها؟»، قلت: «والله يا أبو حسن، لم أعد متحمسًا للفكرة، وما بدي أحرج حالي وأحرجك»، قال: «يا رجل، ما فيها أي إحراج، المسألة قسمة ونصيب. اتكل على الله وشوفها»، وافقت على مضض إرضاءً لأبي حسن. لم أكن أعلم أنَّ هذه الزيارة، ستغيِّر حياتي، فبعد أن شاهدت الكثير من النساء اللواتي تملكن ظروفًا غير مناسبةٍ لي، كانت ظروف حسنة ملائمةً جدًّا، صحيحٌ أنَّ حظَّها في الجمال كان قليلًا، فهي من عمر أصغر بناتي، لكن لم أرَ في ذلك مشكلةً. فحسمت أمري وقمنا بالإجراءات وتزوَّجنا. بعد زواجي بحوالي ثلاثة أشهرٍ، وبعد سنواتٍ طويلةٍ من انقطاع العلاقة مع سعاد، جاءني تبليغٌ من المحكمة الشرعيَّة بطلب طلاقٍ تقدَّمت به سعاد، لم أفهم، فذهبت إلى مكتب المحامي إلى جوار دكَّاني، وسألته: «ما معنى هذا؟»، لم يفهم المحامي

الوضع من التبليغ، لأنَّه لا يحقُّ للمرأة تطليق نفسها، فما الذي يجري في هذه الدعوى. قال لي: «بكرة بلقي نظرة على وراق الدعوى، وبجبلك الخبر الصحيح»، في اليوم التالي قال المحامي: «يا رجل قول، العصمة بيد مرتك»، سألت: «شو يعني؟»، قال: «ما بتعرف شو يعني؟ ببساطة يعني أنها بتقدر تطلق نفسها في أي وقت»، احتملت سعاد كلَّ سنوات فراقنا، من دون أن تُطَلِّقَ نفسها. عندما علمت أنِّي تزوَّجت أخرى، طلَّقت نفسها منِّي لأنَّها: «ما بدها يرتبط اسمها باسمي مرَّة أخرى»، كما نقلت ابنتي عنها.

بعد حياة الوحدة التي طالت لحوالي سبع سنواتٍ يبدو أنِّي نسيت مشكلات الحياة المشتركة، وأنَّه سيكون إلى جانبك شخصٌ يسألك كلَّ وقتٍ عن أشياء تزعجك. داخل الزواج كنت أرى عيوبه، وعندما أصبحت خارجه، صرت أرى ميِّزاته. وعندما عدت من جديدٍ للزواج، عدت لمشكلاته من جديد. كان الخلاف الأوَّل الذي غاب عن ذهني وأنا أخطِّط للزواج، أنِّي بعد ستَّة أولادٍ وإحدى عشر حفيدًا لا أريد المزيد منهم، لكنِّي لم ألتفت إلى ماذا تريد هي؟ وسرعان ما اختلفنا على حاجتنا لإنجاب ولدٍ أو بنتٍ. أرادت إنجاب ولدٍ سريعًا، لأنَّها ظنَّت أنَّها لا تملك الوقت، فالعام الثامن والثلاثين هو العمر الذي تملك فيه المرأة فرصة الإنجاب الأخيرة، وبعد سنواتٍ قليلةٍ ستفقد ذلك. هي تريد ولدًا بقوَّةٍ، وأنا لا أريد أولادًا، لأنَّ عندي منهم الكثير ولم ينفعوني في شيءٍ. سألت الآخرين عن رأيهم في الموضوع. وكان من بين من سألتهم أختي بيان التي كان جوابها صادمًا قالت: «هذا حقها يا خيا، أنت بتفكر إنها تجوزتك لسواد عيونك؟!»، أضافت الجملة الأخيرة كنوعٍ من المزاح. لكنَّه جاء ثقيلًا وفجًّا ومصيبًا والحقيقة التي حاولت إغماض عينيَّ عنها. سألت نفسي: «شو بخلي مرة مثل حسنة توافق على الزواج بي؟»، بالتأكيد الإنجاب سببٌ رئيسيٌّ، بالطبع هو ليس كلُّ شيءٍ، لكن من دونه ما كانت لتتزوَّجني، كنت فرصتها الأخيرة لتكون أمًا. «حاجة المرة للأمومة، أهم بكثير من إحساس الرجّال بالأبوة، هذا بِحسِّسها إنها بتقدر

تخلق حياة ثانية من جسدها، إحساس ما ممكن وصفه»، كما قالت بيان أيضًا في ذلك الحديث بيننا. لم أكن أملك الحقَّ في حرمانها من أمومتها، ولم أرغب في المشكلات في بيتي، فكان أن وافقت على إنجابنا ولدًا أو بنتًا. كانت حسنة تعتقد أنَّ الولد القادم سيغيِّر حياتنا، وهذا ما كان، عندما ولدت هناء كانت مشاعري مختلفةً عن كلِّ المرَّات التي أنجبت فيها سابقًا. منحني المولود الجديد إحساسًا بالقوَّة، فهذا اللحم الطريُّ يحتاجني، إنَّه مسؤوليَّتي، وهذا ما جعلني أشعر بالقوَّة من أجلها، بات هناك شيءٌ مهمٌّ يستحقُّ أن أعيش من أجله، إنَّه ابنتي، إحساسٌ لم أشعر به من قبل، قد يعود ذلك لتقدُّم عمري، ففي شبابي كنت قويًّا ولا حاجة لشيءٍ خارجيٍّ ليمنحني الإحساس بذلك، ولكن الآن صرت أشعر بالتعب ومنحتني ولادة هناء القوَّة فعلًا. إضافةً لأنَّ وجود الطفل وصوته الذي يعلو بين الحين والآخر حتَّى بكائه، منح البيت الحياة، فلم أكن أنا وحسنة نملك الكثير لنتحدَّث به مع بعضنا، وجاءت هناء ليكون هناك الكثير من الحديث عنها، وباتت الحياة تدبُّ في بيتي، بعد سكونٍ طويلٍ من وحدتي، ومن زواجي الذي كاد أن يكون صامتًا في أشهره الأولى.

أعادني إحساس القوَّة لحياتي، ولم أعد زاهدًا كما هي الحال في فترة وحدتي، لهذه الفتاة مستقبلٌ وعليَّ حمايته، لذلك عليَّ أن أمنحها ما يجعل هذا المستقبل سهلًا عليها. فلا أحد لها غيري، وإخوتها الكبار، كلُّ واحدٍ منهم شقَّ طريقه، ولا أحد منهم يحتاجني ما عداها. لذلك قرَّرت أن أفعل كلَّ شيءٍ يساعدها في حياتها القادمة، وبالطبع المال هو أكبر مساعدةٍ لمن يريد بناء مستقبله، أو على الأقل هكذا ظننت أنا في ذلك الوقت. عدت للسؤال عن حصَّتي في بيت أهلي بعد وفاة أبي، فهي حقِّي. ولكن لم يلتفت لي أحدٌ من إخوتي الذين قرَّروا ألَّا يفعلوا شيئًا في بيت أهلي حتَّى لا يُغضِبُوا أمي التي قالوا إنَّها خافت منهم بعد موت أبي، إذ شعرت أنَّهم يريدون طردها من بيتها ليتخلَّصوا منه بالبيع ويتقاسمون حصصهم.

بعد موت أبي بعامين تقريبًا، توفِّيت سعاد، ظننت بعد سنواتٍ من القطيعة، أنِّي نسيتها ولم تعد تشكِّل لي شيئًا. عندما سمعت خبر وفاتها، شعرت أنَّ مطرقةً سقطت على رأسي، لم أتوقَّع أنَّها ما زالت تعني لي الكثير، تداعت كلُّ حياتنا المشتركة أمامي، بحلوها ومرِّها، لحظات وفاقنا ولحظات خلافنا وشجارنا. شعرت أنَّ غشاوةً ما نزلت على عينيَّ، لم أعرف ما أفعل. ذهبت إلى بيت البرامكة، وطلبت من بناتي أن أرى سعاد، قالت ابنتي رائدة: «هذا ما بجوز، هي ما عادت مرتك، ولا حتى على الورق، حتى أنت ما لازم تكون هون» رجوتهم، سمحوا لي أن ألقي نظرةً سريعةً شفقةً عليَّ. لا أعرف لماذا طلبت ذلك لأنِّي ندمت على هذا الطلب بعد ذلك.

وجه سعاد الجميل، رغم تقدُّمها في السنِّ الذي شاهدته آخر مرَّةٍ وهي حيَّةٌ، تحوَّل إلى وجهٍ هرمٍ بأخاديد عميقةٍ، هي نظرةٌ وأخرجوني من المكان لأنِّهم يريدون تغسيلها، ليلحقوا صلاة الظهر ويدفنوها. نظرةٌ واحدةٌ كانت كافيةً لتدلَّني على فعل الزمن السريع في البشر عندما يتقدَّمون في أعمارهم، عدت للخوف على نفسي من الزمن. قضيت أيَّام العزاء الثلاثة هناك غير واعٍ لما يجري حولي، قال لي إخوتي «اللي عملتُه عيب، وهذا ما بجوز من واحد بمثل عمرك، وشي ما منيح، لا منشانك ولا منشان مرتك»، لكنِّي فعلًا لم أدرك ما حصل معي، لم أصدق أنَّها ماتت، وشعرت أنَّها بموتها تأخذ حياتي السابقة معها، وتقول لي: «هذا صوت الموت، أنت اللي بعدي يا حبيبي»، هذا سمعته بأذني وبصوت سعاد ذاته الذي لا أخطئه، شعرت بالفقدان، أخافني الموت كما لم أخف طوال عمري. ماتت أمي بعد سعاد بسنتين، حزنت لغيابها، لكن لم أشعر بما شعرت به عندما ماتت سعاد، بموت سعاد شعرت باليتم، كأنَّها كانت أمي من حيث لا أدري، وعندما ماتت خرجت مشاعر اليتم دفعةً واحدةً، ولم يكن عندي الكثير من هذه المشاعر عندما ماتت أمِّي. عرفت أنَّ موت أمِّي تسبَّب بمشكلةٍ بين إخوتي، لكنِّي لم أعرف ما هي، لقد تكتَّم الجميع على هذه المشكلة التي تسبَّبت

بخلافاتٍ كبيرةٍ بينهم فوق خلافاتهم السابقة. تكتَّم الجميع على القصة ولم يقل أحدٌ لي أيَّ شيءٍ. لم أعرف هل هذا التعامل معي وحدي، أم أنَّهم يتعاملون مع بعضهم بالشيء ذاته. لم أكن يومًا على وفاق مع إخوتي، تركت البيت وهم صغار، وعدت عندما أصبحوا رجالًا ونساءً، لم أعرف عن حياتهم سوى القليل، ولم يعرفوا عنِّي سوى القليل أيضًا. شعرت بالغيظ تجاههم. عندما ذهبت إلى السعودية، كان خليل أكبرهم في الصف التاسع، وعندما عدت منها، وجدتهم إمَّا أنهوا دراستهم الجامعيَّة، أو يدرسونها، أو يتابعون دارستهم. شعرت بالظلم، لماذا لم أكمل دراستي، ولماذا لم أذهب إلى المدرسة بعد الخروج من فلسطين، كلُّهم تعلَّموا ما عداي، بقيت على تعليم الصف الرابع في فلسطين، أشعرني هذا بالكراهيَّة تجاههم وعزَّز الحواجز بيننا. عندما يأتيني طالبٌ من طلَّاب خليل ويسألني عن القرابة بيننا لأنَّنا نحمل اسم الكنية ذاتها، وأقول: «إنَّه أخي»، ويقول الطالب: «الأستاذ خليل معلمٌ محبوبٌ»، كنت أتمزَّق غيظًا وبرد فعلٍ مباشرٍ أردُّ بحدَّةٍ: «هو معلِّمٌ فاشلٌ»، بعد أن يذهب الطالب، أقول لنفسي: «ليش حكيت هيك، ما كان لازم أقول هذا الكلام»، وعندما تتكرَّر الحادثة أُقدِمُ على بالتصرُّف ذاته. بعد ذلك أصبحت عندما يسألني شخصٌ أقول له: «ما في قرابة بيننا»، أحيانًا أرى الدهشة في عيني الواقف قبالتي، أتخيَّله يعرف قرابتي به ويندهش من إنكارها. كنت أغتاظ، هو يُدرِّس في المعهد التجاريِّ لطلاب ما بعد الثانوي، وأنا أقف في دكاني لأبيع الدفاتر. وللحقِّ وقف خليل معي في الكثير من المواقف وساعدني، كان الغيظ يخرج منِّي غصبًا عنِّي.

بعد وفاة أمِّي، اتفق إخوتي على استثمار بيت أهلي المؤقَّت على حاله، ريثما نحلُّ المشكلة بيننا، نرى ما الذي سنفعله في هذا الإرث. طبعًا، أنا طالبت بحقِّي بالأرض من جديد. تجنَّبوني حتَّى لا يصطدموا معي، فلا أبي ولا أمي موجودين، وهذا ما يزيد من هوَّة الخلاف في حال وقوعه.

المفاوضات تفشل المرَّة بعد الأخرى، ولكنَّ الزمن لم يمهلنا أن نحلَّ مشاكلنا، فداهمنا، لنجد أنفسنا في وسط الصراع الذي اشتعل في سورية.

لم أدرك من عالمي الصغير ما الذي يجري في البلد، استمرَّت الحياة طبيعيَّة بالنسبة لي، من دكَّاني إلى البيت وبالعكس. المخيَّم مكانٌ هادئٌ وطبيعيٌّ، لم أرَ أيَّ تغييرٍ. الناس تؤدي أعمالها في النهار، وفي المساء يزدحم شارع اليرموك بمن يتمشون فيه، وهو الذي تحوَّل مع شارع لوبية إلى سوقٍ كبيرٍ ما بين الملابس والطعام الجاهز في آخر اليرموك. لم تؤثِّر المظاهرات التي تجري في محيط المخيَّم، سواءً في التضامن أو الحجر الأسود أو القدم على المخيَّم. استمرَّ الوضع فيه عاديًا، حتَّى بعد استخدام السلاح وقصف المناطق المحيطة بالمخيَّم وبدء موجة لجوءٍ من الجوار إلى المخيَّم. شعرت بالتغيُّر، عندما أصبح بيتي في موقع الاشتباكات بين الطرفين مع انقسام حي التضامن إلى منطقتين، حي نسرين الذي يتشكَّل من أغلبيَّةٍ من الطائفة العلويَّة، وبين مناطق التضامن الأخرى، مع الاشتباكات بين الطرفين بات بيتي الذي يقع عند الحدِّ الفاصل بين المخيَّم وحي التضامن بالقرب من السينما، يقع في منطقة الاشتباكات الفاصلة بين الطرفين. عندما تصاعدت الاشتباكات، لم نستطع البقاء في البيت، فأخذت حسنة هناء ولجأت إلى بيت أهلها قرب جامع عبد القادر الحسيني، وعندما نحتاج شيئًا من البيت، أنتظر هدوء الاشتباكات وأذهب لإحضاره. توقَّفت عن ذلك بعد أن أصبحت الاشتباكات في المنطقة متواصلةً طوال الوقت، وباتت خطَّ تماسٍ ساخنًا وأصبح من المستحيل الوصول إلى البيت.

لم أتوقَّع هذا، جاءت كلُّ الأحداث عكس توقُّعاتي، التي يبدو أنَّها لم تكن توقُّعاتٍ، إنَّما أمنياتٍ رغبت في أن تتحقَّق، ذهبت الأشياء إلى مكانٍ آخر عكس تمنِّياتي. بقيت في الأشهر التي سبقت رحيلنا من المخيَّم أسير دكَّاني، حتَّى أصبحت أنام هناك أغلب الوقت، لأنَّه ليس في بيت أهل حسنة مكانٌ لأنام فيه، بعد أن لجأ إخوتها الذين يسكنون في الحجر الأسود وحي

التقدُّم عند أهلها أيضًا. فعدت للنوم على السرير ذاته الذي نمت عليه سنواتٍ طويلةً في أثناء وحدتي السابقة. طبعًا كنت أزورهم كلَّ يومٍ، أحضر لهم ما يحتاجون من أغراض. لم يكن بيت حماي الوحيد المكتظَّ بالضيوف اللاجئين، فقد بات الكثير من البيوت يعاني من المشكلة ذاتها، وقد امتلأت الجوامع والمدارس باللاجئين، فلا متَّسع لنوم كلِّ هؤلاء اللاجئين في الأماكن التي يشغلونها. عندما أزور عائلتي كان عليَّ أن أمرَّ من أمام المدارس الثلاثة القريبة من دكَّاني التي تقع في موقعٍ يتوسَّط بين دكَّاني وجامع عبد القادر وهي مسافةٌ لا تتجاوز الأربعمئة مترٍ، كان مشهد اللاجئين مؤلـمًا، رجالٌ كبارٌ، ونساء، أطفال، غسيل منشورٌ في كلِّ مكانٍ، ازدحامٌ داخل المدارس وأمامها، يمكن رؤية اليأس في كلِّ العيون، والحال ذاته في جامع عبد القادر. الأطفال وحدهم يلعبون غير مدركين ما يجري، لكن عندما يسمعون صوت انفجار القذائف القريبة يشرعون في بكاءٍ جماعيٍّ. عندما كنت أنظر إلى اللاجئين في المنطقة لم أكن أعرف أنِّي سأصبح مشرَّدًا مثلهم يعيش في جامعٍ آخر في منطقةٍ أخرى بعد أشهرٍ. كانت تجربةً قاسيةً، صحيحٌ أنِّي مررت بها من قبل في طفولتي، المرَّتان مختلفتان. أذكر تمامًا الرحلة المخيفة من بلدتنا إلى نابلس، حيث عشنا في الخيام هناك أيَّامًا عدَّةً، وسرعان ما انتقلنا إلى عمَّان ومنها إلى دمشق. لقد سكنَّا في جامع باب الجابية حوالي خمسة أشهرٍ، كان جامعًا صغيرًا عبارةً عن مستطيلٍ طويلٍ بعرض حوالي عشرة أمتارٍ وطولٍ حوالي خمسة وعشرين مترًا. زينة السقف الجميلة جعلتني أتأمَّله كلَّما عدت للنوم، لا سيَّما في النهار فتظهر نقوشه بوضوحٍ. اقتطعت كلُّ عائلةٍ لاجئةٍ جزءًا من الجامع بتعليق البطانيَّات لإقامة حاجزٍ مع جيرانها في الجامع، وتعاون الجميع لبناء الحواجز حتَّى يغيِّروا ملابسهم أو يقوموا بأشيائهم الخصوصيَّة، وبات الجامع مدخلًا بعرض حوالي المترين على الجانبين وعلى طول الجامع بطانيَّاتٌ تفصل بين العائلات. لم أشعر بمعاناة أهلي في ذلك الوقت، كنت طفلًا، ألعب وأولاد

الآخرين اللاجئين مثلنا أمام الجامع طوال النهار. الآن، أفهم لماذا اختفى أبي من حياتنا في ذلك الوقت، كان يخرج منذ الصباح ولا يعود حتَّى آخر الليل، وعندما نسأل أمي، كانت تقول: «بالشغل»، كنَّا نصدِّقها، ولكنِّي عرفت فيما بعد، ليس هناك أيُّ عملٍ يحتاج كلَّ هذا الوقت، الآن أدرك أنَّه شعر بالخزي والخجل ونحن نسكن الجامع. إنَّها تجربةٌ مهينةٌ، لذلك عملت أمي على إيجاد حلٍّ سريعٍ، بأن اشترت بالليرات الذهبيَّة المتبقِّية معها غرفةً من الطين على أطراف حي الأمين، من أجل أن يعود أبي لنا، لكنَّه لم يغيِّر عادته، بقي يغيب عنَّا طوال اليوم، يذهب قبل أن نستيقظ ويرجع بعد أن ننام، قضى عمره على هذه الشاكلة.

لم أستطع أن أكون مثل أبي، لقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره عندما خرج من فلسطين، بينما كنت بضعف عمره، في السادسة والسبعين، عندما خرجت من المخيَّم. عندما لجأت عند ابنتي لم أتوقَّع أن تطردنا. وعندما فعلت ذلك لم أجد أمامي سوى الجامع في صحنايا للجوء إليه، قضيت هناك أربعة أيَّامٍ من أسوأ أيَّام عمري. رأيت الشفقة في عيون الآخرين، تلك الشفقة التي كانت تجتاحني عندما كنت أمرُّ بلاجئي الحجر الأسود والتضامن والقدم الذين سكنوا الجوامع والمدارس في المخيَّم، بين أن أشفق على الآخرين، وأن أكون موضع شفقتهم، الفارق بضعة أشهرٍ فقط، انتقلت خلال أشهرٍ من إذلالٍ إلى إذلال. كان الجميع يحكون قصصهم الحزينة التي أوصلتهم إلى الجامع، القنابل التي تدمِّر البيوت تدفع الناس إلى الرحيل والبحث عن مأوًى آخر، والقنابل التي تهدِّد حياة البشر تدفعهم أيضًا للرحيل هربًا من الموت. في أيَّامٍ معدودةٍ سمعت من القصص الكثير بما فيها قصَّتي التي سمعتها على لسان رجلٍ من درعا في مثل عمري، مع تغيير الأماكن وبعض التفاصيل، تصبح قصَّتي. جاء الرجل من درعا بعد أن أصبح وصوله إلى بيته مستحيلًا، لم يتخيَّل في حياته أن يفقد بيته، لكن هذا ما كان، فجاء لاجئًا عند ابنه في صحنايا، فوجد نفسه مطرودًا من زوجة

ابنه، فلا مكان له سوى الجامع، بعد أن فقد المال الذي جمعه طوال عمره بالطريقة نفسها التي فقدت بها مالي الذي جمعته طوال حياتي، وفقدته بالمكان نفسه الذي فقده فيه، هو لم يستطع الوصول إلى ماله، وأنا لم أستطع الوصول إلى مالي. عندما سألني الرجل عن قصَّتي قلت له: «هي قصتك نفسها، بس بدل درعا وحط محلها مخيَّم اليرموك، وبدل ما تقول ابني قول بنتي، بتلاقي حالك بتحكي حكايتي نفسها.» ظنَّ الرجل أنِّي أسخر منه، لم يعرف أنَّني طوال عمري لم أعرف المزاح وعندما أروي نكتةً ما لا أحدٍ يضحك عليها، فأشعر بالخجل. عندما قلت له: «أقسم بالله العظيم، ما كذبت عليك بحرف»، قال: «يا رجل عيب على شيبتك، تكذب وأنت بهذا العمر؟!» تركني ورحل يتمتم ويحرِّك يده بمعنى يشير إلى أنِّي أقدمت على شيءٍ كبيرٍ. لم أنادِه، وهو لم ينظر خلفه وهو خارجٌ من الجامع. نظرت إليه طويلًا وهو يعدِّل الحطَّة على رأسه ويسير محنيَّ الظهر. أسفت لحاله ولحالي. لقد كذبت في حياتي مثل كلِّ الناس، لكن هذه المرَّة لم أكذب مطلقًا. وفهمت من هذا الرجل بعد هذا العمر، ليس من المهمِّ أن تكون كاذبًا أو صادقًا، المهم أن يبدو ما تقوله صادقًا، ولو كان كلُّه كذبًا بكذبٍ.

كانت الأشهر اللاحقة التي قضيتها عند أختي بيان أقلَّ إذلالًا، وبعد أن انتقلنا إلى قدسيا عند بيت ابني، تحسَّن الوضع من جهةٍ وساء من جهةٍ أخرى. فقد تعهَّد ولديَّ أن يتكفَّلا بمصروفنا، لم يسألا عن مالي ولماذا لا أنفق منه. جاء التحسُّن من أنَّنا بتنا نملك مكانًا نعيش فيه لا نشارك آخرين فيه، هذا ما جعلنا لا نقضي وقتنا حذرين من إزعاج من نسكن عندهم. أصبح الوضع أسوأ، لأنَّ حسنة بدأت تسأل الأسئلة التي لم تكن قادرةً على سؤالها ونحن نعيش عند الآخرين، طبعًا سؤال المال. كانت تعرف أنِّي جمعت الكثير من المال خلال حياتي لكنَّها لا تعرف أين هذا المال. لم أخبرها يومًا عن مكان مالي وهي لم تسأل. كان هذا قبل رحيلنا من المخيَّم. بعد الرحيل استغربت أن نذهب عند ابنتي، ولم نستأجر بيتًا، وخلال هذه الفترة كانت

تسأل بعينيها بوجود الآخرين، أمَّا بعد أن أصبحنا نسكن لوحدنا، أصبح السؤال صريحًا. قالت بضيق: «ليش بنسكن عند الناس وأنت معك مصاري بتحل المشكلة، من غير هذا الذل؟»، لم أجبها، ألحَّت في السؤال: «الناس بتخبي القرش الأبيض لليوم الأسود. وما رح نشوف أسود من هيك، لإيمتى بدك تظلل مخبي مصاريك؟»، قلت لها: «لا تخافي، المصاري موجودة، ورح تطلع بالوقت المناسب»، قالت: «وإيمتى الوقت المناسب برأيك، هذا اللي بنعشيُه مو وقت مناسب؟!»، قلت: «رح يجي وقته»، وصمتُّ، وهي ضربت كفًّا بكفٍّ. لم أستطع أن أقول لأيٍّ كان أين هي أموالي. فأنا لم أتوقَّع ما جرى، لذلك لم أغيِّر مكانها منذ وضعتها فيه، كانت قيمتها تنخفض يومًا بعد يوم، لكن على الأقل الدولارات كانت ستحافظ على قيمتها. لا أعرف لماذا لم أنقلها من البيت إلى الدكَّان. صنعت جيبًا في جنب الخزانة، وأسقطتها هناك، وكلَّما توفَّر مبلغٌ جديدٌ أغلِّفه وأسقطه فوقها. في كلِّ مرَّةٍ زرت فيها البيت لأجلب بعض الأغراض من هناك، خطر لي أن آخذها معي، لكن كان السؤال نفسه يشغلني، أين سأخبِّئها؟ لم أملك مكانًا آخر، فتركتها مكانها، لأعود لها عند الحاجة، حتَّى لم أستطع الوصول إليها. بعد انتقالنا إلى قدسيا، حاولت الاتصال بأحمد بن خليل المحاصر في المخيَّم، وتحدَّثت معه على الهاتف، وطلبت منه أن يأتي لي بأمانةٍ من بيتي، لم أقل له ما هي الأمانة، لأنِّي طلبت منه أن يفحص إمكانيَّة الوصول إلى هناك. وعندما ذهب إلى هناك قال لي: «والله يا عمي، مستحيل أصل على بيتك، القنَّاص اللي فوق البلدية بيقتل حتَّى القطط اللي بتتحرَّك بالشارع»، بعد أن تحدَّثت مع أحمد بالموضوع ندمت، وكنت سأغيِّر رأيي، حتَّى لو كان قادرًا على الوصول للأموال، لأنِّي غير واثقٍ إذا وصل إلى الأمانة أنَّه سيوصلها إليَّ. فقرَّرت تركها هناك حتَّى تحين فرصةٌ جديدةٌ للوصول إليها.

في قدسيا بدأت أخرج من البيت ورؤية بعض المعارف من المخيَّم الذين تجمَّعوا هناك، كنَّا نجتمع أمام الدكَّان التي افتتحها أبو السعيد في

قدسيا وهو الذي كان يملك دكَّانًا عند الدوار في المخيَّم، لنسمع أخبار الآخرين من هنا وهناك. لم أفعل شيئًا في قدسيا سوى الوصول إلى دكَّان أبي السعيد والعودة إلى البيت والاستماع إلى القصص. اقتربت الاشتباكات من قدسيا، وعندما أصبحت في محيطها، أُغلِقَ المكان، ومنعوا الدخول والخروج منه، وبدأت أزمة الطعام القليل. كنَّا قد موَّنا بعض المواد الغذائيَّة وراكمنا مساعدات الأونروا وغيرها من المساعدات التي مكَّنتنا من تجاوز هذه الفترة الصعبة.

بأربع بناتٍ وولدين، الأصغر بينهم أصبح في الثانية والأربعين من عمره، ما كانت حاجتي للزواج بامرأةٍ تصغرني بخمسةٍ وعشرين عامًا وأن أنجب طفلةً تعيش ما أعيشه؟! كنت أفكِّر ببساطةٍ، قضيت سنواتٍ طويلةٍ وأنا أجمع المال، وأحيانًا على حساب أبنائي الكبار، ووفَّرت الكثير منه خلال هذه السنوات، لأنِّي عمليًّا، لم أكن أنفق سوى على نفسي. وهذا الحال منذ عودتي من السعودية. والمال الذي وفَّرته سيضمن حياةً كريمةً لهذه الطفلة وأمِّها إذا متُّ. فرضت الحرب أشياءً جديدةً في حياتنا لم تكن في الحسبان. لذلك هربنا من المخيَّم بعد أن أصبح العيش فيه غير ممكنٍ، كانت الاشتباكات في قلب الغوطة بعيدةً عن قدسيا، لكنَّها أخذت تقترب حتَّى وصلت إلى قلب قدسيا، أين سنذهب من جديدٍ؟ كآلاف اللاجئين في قدسيا وجدت نفسي وعائلتي في قلب الحصار. قبل أن أصل إلى قرار إلى أين الرحيل الجديد؟ قدسيا أصبحت محاصرةً من الجيش لأنَّ المعارضة المسلَّحة سيطرت عليها. استسلمت لقدري، انتظرت الفرج، داومت على الذهاب عند دكان أبي سعيد لمعرفة الأخبار، وهو استمرَّ في فتح دكانه رغم أنَّها فرغت من البضاعة منذ الأيَّام الأولى للحصار. عندما يسألونه: «ليش بتفتح دكانك وما عندك بضاعة؟»، كان يقول: «شو بدي أعمل بالبيت، أتقاتل مع مرتي؟!».

مع الأيَّام ازدادت الأوضاع سوءًا، ليس بسبب الطعام فحسب، بل بسبب نقص الدواء عند المرضى أيضًا، كان الحصار محكمًا، وأخذنا نقنِّن في طعامنا، وسط احتجاج ابنتي التي تقول طوال الوقت: «قلتلكم لازم نهرب من هون، وإنتوا ما سمعتوا كلامي»، أصبحت متوتِّرةً طوال الوقت، ومنذ غادرنا بيتنا في المخيَّم، وهي في حالٍ غير طبيعيَّةٍ، لم تعتد العيش عند الآخرين أو معهم رغم أنَّنا نعيش على هذه الحالة منذ سنتين عندما وقع الحصار على قدسيا. منذ قصف المخيَّم بالطائرات التي سقطت صواريخها بالقرب منَّا، وهي تصاب بالرعب من أصوات القذائف، لم تستطع الاعتياد على هذه الأصوات ولم يقلَّ حجم رعبها. بعد مفاوضاتٍ طويلةٍ وحصارٍ خانقٍ لأكثر من شهر، بدأت أخبار التوصُّل إلى مصالحةٍ تصل إلى دكَّان أبي سعيد. كلُّ يومٍ يأتي الخبر، الليلة سيسلِّم المسلَّحون أسلحتهم ويخرجون ويُرفَعُ الحصار عنا وتُدخَلُ المواد الغذائيَّة والدواء. ينتظر الناس الفرج، وفي الصباح يبقى كلَّ شيءٍ على حاله. وعندما خرجت الدفعة الأولى من المسلَّحين، ازداد أمل السكَّان واللاجئين بفكِّ الحصار، وفعلًا بعد ثلاثة أيَّامٍ خرج كلُّ المسلَّحين بموجب المصالحة، وفُتِحَ الطريق بعد وضع حاجزٍ عسكريٍّ على مدخل قدسيا للتفتيش، الذي تعامل مع الناس معاملةً سيِّئةً. بعد فكِّ الحصار عن المدينة، شعرت أنَّه لا حاجة إلى الانتقال إلى مكانٍ جديدٍ، كلُّ الأماكن معرَّضة للمصير نفسه. وبعد فكِّ الحصار، عادت دكَّان أبي سعيد إلى العمل، أصبح على علاقةٍ جديدةٍ مع الحاجز حتَّى يسهِّلوا عمله، طبعًا مقابل رشًى صغيرةٍ، علبة سجائر، علبة شكولاته، علبة بسكوت، وهكذا. أمَّا نحن سكَّان المخيَّم كنَّا نذهب إلى الدكَّان، لتلقط أخبار المخيَّم، وهل من أخبارٍ عن مصالحة هناك؟ حتَّى نستطيع العودة إلى بيوتنا، أو على الأقل حتَّى أستطيع استرجاع مالي المخبَّأ هناك في الخزانة.

مرَّت الأيَّام متشابهةً رغم قسوتها، أسمع أخبار من هنا وهناك، عن موت فلان ومرض علان وهجرة أخٍ أو أختٍ، وطلاق فلانة. أخبارٌ كلُّها سيِّئةٌ،

ننتظر خبرًا مفرحًا من دون جدوى. ابنتي التي كانت متفوِّقةً في المدرسة، أهملت دراستها، لم تحبَّ المدرسة في قدسيا، دخلت سنَّ المراهقة وبدأت مشاكلها تزداد، لم أستطع أنا وأمُّها أن نقنعها بالاهتمام أكثر بدراستها من أجل مستقبلها. كانت تضحك وتتساءل مستغربةً: «شو يعني مستقبل؟!».

انتظرت المخيَّم فجاءني مرض القلب، كنت أعرف أنِّي أعاني من ضعف العضلة القلبيَّة وهذا مرضٌ عاديٌّ عند كبار السنِّ مثلي، لكن هذه المرَّة جلطةٌ، قال الأطباء بعد ذلك: «لازم تنتبه على حالك، ابعد عن الزعل» إنَّه تحذيرٌ غريبٌ، وما الذي نعيشه في السنوات الأخيرة سوى الزعل على اختفاء كلِّ شيءٍ من حياتنا. بتُّ أقلَّ حركةً، لأنِّي أشعر بالتعب كلَّما تحرَّكت. كنت أجبر نفسي على التحرُّك، حتَّى لا أستكين وأصبح غير قادرٍ على الحركة نهائيًّا. جاءت أخبار المخيَّم التي تقول بأنَّ الحكومة تعمل على استرجاع المخيَّم من «داعش» بسرعةٍ، وأنَّ قصفًا عنيفًا يتعرَّض له المخيَّم من أجل إخراجهم وعودة أهله إليه، ويقول آخرون أنَّ هدف القصف هو تدمير المخيَّم ولن يعود أحدٌ إلى هناك. كان أملي كبيرًا بأن نعود إلى المخيَّم، وأن استرجع مالي بعد خروج رجال داعش من المخيَّم. لكن بعد خروجهم، أُغلِقَ المخيَّم، نَهبَ الجيش والمليشيات التابعة له كلَّ بيوته، وعندما شاهدت الفيديوهات المسرَّبة عن سرقة العفش من المخيَّم، عرفت أنِّي خسرت مالي وأصبح من المستحيل الوصول إليه لأنَّ الخزانة التي خبَّأت فيها المال، سُرِقَت حتَّى قبل أن يخبرني أحد الشباب الذين دخلوا المخيَّم وطلبت منه تفقُّد بيتي، قال إنَّه والبيوت التي حوله صار كتلةً من الدمار. قضيت عمري وأنا أجمع هذا المال، تبخَّر المال، تعب عشرات السنين تبخَّر. فقدت قدرتي على الاحتمال. وجدت نفسي غائبًا عن الوعي، وعندما أفقت قال الطبيب: «لازم ما تبذل جهد»، لأنَّ وضعي بات خطرًا. فقرَّرت أن أتوقَّف عن الكلام، لن أقول شيئًا عن أيِّ شيءٍ، سأنتظر قدري الذي أتمنَّى أن يأتي اليوم قبل الغد.

الفصل الثاني:
أيتام بوجود أب
(عائدة عبد الرحمن أحمد خليل)

لا أعرف من أطلق عليَّ اسم عائدة، كلُّ شيءٍ ينطبق عليَّ عدا اسمي. فأنا لا أحبُّ العودة إلى الأماكن التي أغادرها. عندما سألت أمِّي: «من أعطاني هذا الاسم؟» حارت بالإجابة، لكنَّها قالت بحسمٍ أنَّها لم تختره لي، إنَّما اختارت لي اسم: «حنين» لأنَّها فعلًا كانت تحنُّ إلى البلدة التي وُلِدَت وترعرعت فيها في فلسطين وخرجت منها فتاةً شابَّةً، تاركةً حبَّ عمرها وراءها. وهو الحبيب الذي لم تعرف مصيره، هل بقي حيًّا في البلاد، أم أصبح لاجئًا مثلها، أم قُتِلَ في المعارك التي دارت في فلسطين؟ حاولت معرفة مصيره، لكنَّها لم تنجح في الوصول إلى نتيجةٍ، مثل كثيرين ممَّن لم يعرفوا مصير أحبَّتهم في فوضى الحرب والترحيل التي شهدتها فلسطين في عام النكبة. هي ليست متأكِّدةً، إذا كان أبي هو من أعطاني هذا الاسم أو أنَّ أحدًا ما قد اقترحه عليه.

عشت غريبةً عن اسمي، وعن كلِّ شيءٍ في هذا العالم، حتَّى أنِّي عشت حياةً غريبةً، لم أخترها، لكنَّني وجدت نفسي أعيشها، فسرت معها وأنا لا أعرف إلى أين سأصل؟ لم أسأل نفسي، لا الآن ولا في الماضي، هل الحياة هي طريقٌ نسير عليه كي نصل إلى مكانٍ أو هدفٍ؟ منذ صغري عددت الأشياء

بلا معنى. سواءً أكانت حياتنا غنيَّةً أو فقيرةً فنحن نعيش ونموت بلا معنى، كلُّ شيءٍ عبثٌ مهما حاولنا أن نجعل له معنى. هذه خلاصتي في الحياة منذ صغري.

وُلِدتُ في الجحيم، هذا أقلُّ ما يقال عن السعودية التي وُلِدتُ وقضيت طفولتي الأولى فيها. لا يمكن لكائنٍ بشريٍّ أن يحبَّ ذلك المكان، الذي هو قطعةٌ من الجحيم، ما زاد الطين بلَّةً، أنَّ مدينة جدَّة التي وُلِدتُ فيها تقع على البحر، وهذا يعني رطوبةً عاليةً وأجسادًا دبقةً طوال الوقت. كان الطقس يسبِّب لي التوتُّر، باستثناء بعض الفترات من فصل الشتاء عندما يأتي الحرُّ معتدلًا.

وُلِدتُ لأبٍ مراهقٍ تزوَّج امرأةً أكبر منه سنًّا طمعًا في ثروة أخيها، لا هو حصل على الثروة ولا غادر مراهقته. وكلَّما فشل في التقرُّب من خالي المليونير، كانت أمِّي تدفع الثمن، لذلك منذ طفولتي، لا أذكر سوى الشجار الدائم بينهما. كنت أحزن من أجل أمِّي، فهي لا تستحقُّ المعاملة بهذه الطريقة، وأبي لا يعرف أنَّ هذا لا يجدي مع خالي. ليس لأنَّه لو علم بما يجري لتصرَّف معه على نحوٍ آخر، لم تكن أمِّي تريد إزعاج خالي الذي حملها معه ولم يتركها لمصيرها، كما فعل الكثيرون بأخوتهم وأحبَّتهم في ظلِّ الحرب في فلسطين وفي ظلِّ الفاقة التي عانى منها الناس بعد الحرب في مخيَّمات اللجوء في الدول المحيطة. حملها معه في البحر إلى مصر، عاشت معه ومع زوجته في غرفةٍ واحدةٍ، لم تشكُ، كانت ممنونةً، وحريصةً على ألَّا تغضب زوجته التي عاملتها كأختٍ، فهي لم تكن تكبرها سوى بثلاث سنواتٍ. طبعًا هذا لا يعني أنَّ أيَّ خلافات لم تقع بينهما، بل كان التسامح الأساس في تعاملهما معًا. بدايةً قضوا سنةً قاسيةً في مصر، لم يكن عمل خالي يكفي، فيتدبَّرون أمرهم بالتحايل على الحياة. عندما قرَّر خالي الذهاب إلى السعوديَّة، أقدم على مغامرةٍ كبرى، فهو لم يكن يعرف ما الذي سيفعله هناك، كلُّ ما كان يملكه هو عنوانٌ في مدينة جدَّة لشخصٍ يعرفه منذ كان

يُقيم في حيفا، وساعده في أن يؤمِّن له من صديقه اليهودي أبرًا عدَّة من البنسلين لابنه المصاب بشظايا قنبلةٍ رماها اليهود جانب بيته في وادي النسناس في حيفا وصادف وجود ابن الرجل في المكان. فعل ذلك، عندما تدبَّر بعضًا منها لابن أخ زوجته أيضًا وهو الطفل الذي سيصبح عمِّي خليل مستقبلًا، والذي انفجر لغمٌ فيه وبعددٍ من أطفال البلدة. قرَّر خالي مغادرة مصر بكلِّ الأحوال سواءً ساعده الرجل أم لا. ولأنَّهم لا يملكون المال ثمنًا لرحلة الطائرة مرتفعة السعر، ذهبوا من القاهرة برًا إلى البحر الأحمر، ومن هناك ركبوا عبَّارةً وصولًا إلى ميناء مدينة جدة. خاف خالي من الخذلان، خاف أن يقف بباب الرجل ويصدَّه، لكنَّه لا يملك خيارًا آخر. عندما دقَّ الباب خرج طفلٌ في الثانية عشرة من عمره تقريبًا سأله خالي: «مرحبا عمو. الوالد هون؟» لم يردَّ الولد، عاد إلى داخل البيت وهو يصرخ: «بابا، ضيوف... بابا، ضيوف»، سرعان ما خرج رجلٌ في حوالي الأربعين من عمره بملامح عاديَّةٍ يغلب عليها الملل، استغرب الرجل أن يأتيه ضيوفٌ في مثل ذلك الوقت. كانت أمِّي تنظر إلى أخيها في تلك اللحظات، شاهدت خوفه الظاهر رغم محاولاته إخفاءه، روت أمِّي لي بعد سنوات طويلةٍ القصَّة وقالت: «حسيت إنها لحظات أصعب عليه من اللحظات التي تركنا فيها بيتنا بحيفا لما كانت قذائف اليهود بتنزل علينا مثل المطر»، تغيَّرت ملامح الرجل عندما شاهد خالي، أصبح سعيدًا بضيفه غير المتوقَّع، تعانق الرجلان، وتبدَّد خوف خالي بعد أن دخلوا البيت وقال الرجل: «أنت ضيفي ومفضل عليَّ، وما بتطلع من بيتي غير على بيتك»، قال خالي: «الفضل لله»، نادى الرجل على ابنه، قال له: «تعال سلم على عمك، لولاه كنا خسرناك... خلي يشوف محل الجرح»، اقترب الطفل خجلًا وسلم على الجميع، ثمَّ رفع الجلابية ليرى خالي الجراح في صدره وبطنه وبعد أن أنزل الطفل جلابيته، قال الرجل: «الحمد لله، اليوم هو سليم مثل النمر» فعلًا، لم يتركهم الرجل وبقوا في ضيافته حوالي الشهر، ساعد فيها الرجل خالي في الحصول على عملٍ

في شركة إنشاءاتٍ بريطانيَّةٍ تعمل في إنشاء الأبنية وتعبيد الطرق في جدة، وجد عملًا بسهولةٍ لأنَّه يجيد الانكليزيَّة التي تعلَّمها في مدارس فلسطين. عمل في الشركة منسِّقًا للعمل بين الموظَّفين الإنكليز والعمَّال العرب في مواقع العمل الميدانيَّة. بعد ثلاث سنوات من العمل معهم، كانت الشركة قد أنهت عقودها مع الحكومة السعودية. ولأنَّها لا تريد أن تشحن معدَّاتها مرَّةً ثانيةً إلى انكلترا، قرَّرت بيعها في السعودية بما أنَّها متضمِّنةٌ في كلفة المشروع المنتهي. اشتراها خالي بكلِّ ما معه من مال واستدان من آخرين أيضًا، مغامرًا بكلِّ شيءٍ معه. لكنَّ هذه المغامرة المحسوبة، فتحت له نهر أموالٍ لا ينتهي. أتى بأخيه الذي يقيم في لبنان ليعمل معه كشريكٍ، لأنَّه قدَّر أنَّه لا يستطيع وحده إدارة عمل أدرك ضخامته سلفًا. بدأ يأخذ بعض التعهُّدات التي ينفذها بهذه المعدَّات، أو يؤجِّر المعدَّات لمتعهِّدي أعمالٍ يفتقدون إلى الآلات الثقيلة التي اشتراها من الشركة الانكليزيَّة. هذه رواية أمِّي عن الطريق الذي سلكه خالي وصولًا إلى الثروة.

وُلِدتُ بسبب هذه الثروة، أنا متأكِّدةٌ لو لم يكن خالي غنيًّا، لما فكَّر أبي أن يتزوَّج أمِّي إطلاقًا. ليس هذا تقديرًا للحظة التي قرَّر فيها الزواج، بل هذا ما أثبته كلُّ يومٍ في حياة عائلتنا البائسة. بقي طوال عمره يجمع المال، لكنَّه لم يستفد منه ولم يستمتع به، كان جمع المال بحدِّ ذاته متعةً بالنسبة له، لا همَّ له في الدنيا غير ذلك، لا أصدقاء له، علاقاته سيِّئةٌ مع الجميع، معنا جميعًا نحن أولاده، مع إخوته، مع أخواته، وأمِّه وأبيه. لا أعرف كيف قضى حياته. كان أبونا بالأوراق فقط، وما تبقَّى من مسؤوليَّات الأبوة لا علاقة له بها. كنَّا أبناء أمِّي، وكنَّا أيتامًا بلا أبٍ دائمًا، رغم أنَّه لم يمت، كنَّا بلا أبٍ حتَّى في الأوقات التي عاش معنا. عندما أصبحت طفلةً واعيةً، شعرت بالنفور منه. لم تتكلَّم أمِّي عليه بالسوء رغم كلِّ ما فعل. حاولت أن تحافظ على صورةٍ معقولةٍ له في عيوننا، نحن أبناؤهما، كان يبدِّد هذه الصورة بتصرُّفاته وعدم مسؤوليَّته. شعرت بالنفور كلَّما اقترب منِّي، لم أرغب يومًا

أن يعانقني، وكنت أقوم بذلك على مضض كلَّما جاء من السفر. هناك شيءٌ داخليٌّ يرفض أبي وهو أبعد من تصرُّفاته، شيءٌ من كيمياء البشر التي لا تنسجم، مثل الزيت والماء.

كانت طفولتي في السعودية كئيبةً، لم أحبَّ المكان، لا سيَّما أنِّي عرفت أنَّني لا أنتمي إليه، هناك عرفت أنِّي لاجئةٌ من بلدٍ اسمه فلسطين، رغم أنِّي وُلِدتُ في جدة مثل أيِّ طفلةٍ سعوديَّةٍ. لكن لأنِّي وُلِدتُ لشخصين غير سعوديَّين، فأنا لن أستطيع أن أكون سعوديَّةً طوال عمري. طبعًا، لم أرغب أن أكون سعوديَّةً، أن تنتمي إلى مكانٍ وتولد في مكانٍ كلاجئٍ، هذه المفارقة اكتشفتها عندما ذهبت إلى المدرسة وأنا طفلةٌ في السعودية. ولا أعرف كيف يتعامل الآخرون مع مثل هكذا أمر، بدا الأمر لي غريبًا، أنا الغريبة، جاءت معرفتي بكوني غريبةً عن البلد ليعزِّز اغترابي عن كلِّ شيءٍ أيضًا. كان الكثير من الغرباء في صفِّي المدرسي، الذين جاؤوا من بلدانٍ أخرى، وهذا ما خفَّف عليَّ الوضع، لكنِّي عرفت أنَّ هؤلاء الغرباء لا يشبهونني، فهم لهم بلدٌ يعودون إليه، أمَّا أنا فلا مكان أعود عليه، إنَّما أعود من مكانٍ أنا غريبةٌ فيه إلى مكانٍ آخر، أنا غريبةٌ فيه أيضًا. عندما أعود، كنت أعود إلى دمشق التي هي أيضًا ليست فلسطين. كنت أحبُّ سماع قصص أمِّي عن البلاد الجميلة، وحكاية حبِّها التي حطَّمتها الحرب، وكثيرًا ما تمنَّيت لو أنَّ تلك الحرب لم تقع، وبالتالي لم أُولد، أو وُلِدتُ بنتًا لذلك الحبِّ الذي حطَّمته الحرب.

مع انتقالنا إلى دمشق، تغيَّرت حياتي، قد يكون هذا القرار الوحيد الذي يستحقُّ أبي عليه الشكر، عندما أصرَّ على عودتنا للعيش في دمشق وترك السعودية نهائيًّا ليثبت أنَّه صاحب القرار في عائلته. وافقت أمِّي على هذا الخيار لعلَّه يأتي ثماره ويتحمَّل المسؤوليَّة عن العائلة، مع أنَّها تعرف أنَّ ذلك لن يحدث، لكنَّها راهنت على معجزةٍ، ولم تعرف أنَّ زمن المعجزات قد انتهى. لم أكن أعرف دمشق ولا المخيَّم، زيارتان عابرتان في طفولتي لا

تجعلاني أعرف المكان. في هاتين الزيارتين، حظيت بصديقةٍ، وعندما عدت إلى المكان كان لي من أشتاق له. إنَّها عمَّتي وداد التي تكبرني بعامين. وجدت نفسي معها في المدرسة ذاتها، وكانت فرحتي كبيرةً فيها. كنَّا نشبه بعضنا كثيراً، ليس بالشكل، إنَّما بطريقة التفكير، لكنَّ أساليبنا مختلفةٌ، كنت صداميَّةً ولم أكن أستطيع السكوت، ولم أكن أحسب حسابًا لأيِّ شيءٍ. بينما كانت هي انسحابيَّةً لا تريد خوض معارك، تحاول أن تحصل على ما تريد من دون معارك. لكنَّها عندما تضطر لخوض معاركها، تخوضها إلى نهايتها، واليوم نحن الاثنتان نخوض معركتنا ضدَّ مرض السرطان، هي في أميركا، وأنا في دمشق. كبرنا في مراهقتنا معًا رافضتين لشكل حياتنا السائد، كانت تعتقد أنَّ المخيَّم سبب كلِّ كوارثنا وكرهته لذلك، قد يكون ذلك لأنَّها وُلِدَت في مثل جوِّ المخيَّم في حي الأمين واستمرَّت بالأجواء ذاتها في المخيَّم. لكنِّي أظنُّ، لم تكن المشكلة في المخيَّم، بل في بعض البشر في المخيَّم، أنا على عكسها، أحببت المخيَّم رغم أنَّ عيشي فيه لم يستمرَّ لفترةٍ طويلةٍ. وقد يكون ذلك لأنِّي عشت طفولتي المبكرة في السعودية، هناك عشت كغريبةٍ، في المخيَّم وجدت الناس تشبهني، غرباء يعيشون مع بعضهم في مخيَّم للاجئين يعيدون صياغة حياتهم من مواد بسيطةٍ، ذكرياتٍ حملوها معهم من البلاد، ومن أحلام في تغيير واقعهم البائس. كنت أرى الناس في المخيَّم أجمل من الناس في السعودية، الناس الذين يصنعون حياتهم بمحبَّةٍ، ويخوضون معاركهم الصغيرة مع الحياة من أجل الأفضل، يقومون بأشياء جميلةٍ ويرتكبون حماقاتٍ كثيرةٍ. ميزةٌ أخرى وفَّرتها العودة للعيش في المخيَّم، بات أبي بعيدًا عنَّا، ولن نراه كلَّ يومٍ، وستنتهي المشكلات شبه اليوميَّة، كما كان الوضع في الفترة الأخيرة التي قضيناها في السعودية. هو يأتي شهر إجازةٍ في العام، يحاول أن يكون جيِّدًا وينقضي الأمر بشجارين أو ثلاثة، ونرتاح بقيَّة العام حتَّى الإجازة التالية.

وافق المخيَّم مزاجي لأنِّي أصبحت قادرةً على الخروج في كلِّ وقتٍ، في الصيف حتَّى الجوُّ معتدلٌ في دمشق، بذلك تخلَّصت من الجحيم السعودي، وصرت أخاف أن يغيِّر أبي رأيه ويعيدنا إلى السعودية، لحسن حظِّي لم يحدث هذا. بتنا نذهب إلى صالتي السينما القريبتين من بيتنا، سينما الكرمل التي يوجد فيها بلكون، وسينما النجوم وهي بلا بلكون. وكانت العائلات تفضِّل الذهاب إلى سينما الكرمل لأنَّ صاحبها كان يخصِّص البلكون للعائلات، ولا يقطع للشباب المنفردين تذاكر هناك، إنَّما في الصالة العادية. كنَّا نذهب إلى هناك مرَّةً في الأسبوع على الأقل، أنا وعمَّتي وداد نجمع المال خلال الأسبوع من أجل ذلك، وفي نهاية الأسبوع نصطحب عمِّي عمر الذي يصغرني بأشهرٍ عدَّةٍ ونذهب لمشاهدة الفيلم المعروض. وعندما نريد أن ندلِّل أنفسنا، ومعنا ما يكفي من المال، كنَّا نذهب إلى السينما في مدينة دمشق، سينما الزهراء أو سينما دمشق أو سينما الفردوس أو سينما الخيام أو سينما الدنيا. هناك ننتظر انطفاء الأضواء، لنرى الألوان الساحرة على الشاشة، هناك شاهدنا الكثير من الأفلام العربيَّة والأجنبيَّة والهنديَّة، أفلامًا مثل «أبي فوق الشجرة» لعبد الحليم حافظ وناديا لطفي، والذي شاهدناه عشرات المرَّات. «لصوص، ولكن ظرفاء» الذي ضحكنا عليه كثيراً وفيلم «نحن لا نزرع الشوك» و«خلي بالك من زوزو» الذي تسبَّب في وقوعي في الحبِّ لأوَّل مرَّةٍ، بسبب شبه شابٍّ مع حسين فهمي، وغيرها الكثير من الأفلام العربيَّة. وأفلامٌ أميركيَّة مثل «العرَّاب» وأفلام شارلي شابلن القديمة التي ضحكنا عليها كثيراً و«أنا لا أكذب لكنِّي أتجمَّل»، وأفلام الكابوي الأميركيَّة وغيرها الكثير من الأفلام التي نسيتها. كنَّا مسحورتين بأفلام شامي كابور الهنديِّ وغنائه في أفلامه، لدرجة أنَّ الشابَّ الأخرس جار بيت جدِّي، كان يخرج من الفيلم الهنديِّ يغنِّي معتقدًا أنَّه يغنِّي هندي، وكان هذا ما يجعلنا نموت من الضحك، لا سيَّما أنَّ الأخرس كان مغرمًا بعمَّتي وداد، وأظنُّ أنَّه كان يغني لها، لكن لا نفهم نحن لغته. وعندما

قلت لعمَّتي: «الأخرس بغني لك» نكزتني بكوعها متصنِّعةً الجديَّة وقالت: «إخرسي»، وبعد لحظات انفجرت بالضحك، ولا أعرف كم مرَّةً حضرنا فيلم «الزهرة والحجر» وفيلم «اليتيم» الذي أظنُّ أنَّه أبكى كلَّ شباب وشابَّات المخيَّم الذين حضروا الفيلم. لم تكن مثل هذه الحياة متوافرة في السعودية، لذلك أحببت السكن في دمشق، رغم بؤس المخيَّم والطين المنتشر في كلِّ مكانٍ شتاءً، والغبار المنتشر في كلِّ مكانٍ صيفًا.

بعد أن كنت وحيدةً في جدة، بات عندي الكثير من الصديقات، نتبادل الحديث والوظائف والكتب والنكات ورسائل الحبِّ المكتوبة لمراهقين ذكورٍ في أعمارٍ قريبةٍ من أعمارنا. وكثيرًا ما اجتمعت صديقاتٌ عدَّةٌ عندي، بيتنا مريحٌ بالنسبة لهم، فالأب غير موجودٍ، ولا إخوة ذكورًا كبارًا يتحكَّمون في حياتنا، وأمِّي لا تمانع في استقبال صديقاتي، بل على العكس تعاملهنَّ في غاية اللطف، لذلك كان بيتنا جنَّة الحريَّة لصديقاتي.

تأثَّرت بالروايات الرومانسيَّة التي قرأتها في ذلك الوقت، وجاء فيلم «خلي بالك من زوزو» ليجعل الحبَّ مطلبًا ملحًّا بالنسبة لي غير قابلٍ للتأجيل. وصادف أن عمل شابٌّ اسمه وليد فيه شبه ما من حسين فهمي في محلِّ حلاقةٍ إلى جانب مدرستنا، ولأنَّ الفيلم حديث المراهقات في المدرسة، وقعت أغلب بنات مدرستي الإعداديَّة في حبِّ هذا الشابِّ، وأنا واحدةٌ منهنَّ. ولأنِّي لا أريد أن أخسر هذه المنافسة، كان عليَّ الفوز بالشاب، وطالما وجدت حسين فهمي خاصَّتي، فأنا سأصبح سعاد حسني، دلُّوعة الشاشة العربيَّة. كان الشاب خجولًا، والكثير من الرسائل التي رُمِيَت له، لم تجعله يجرؤ على مغادرة خجله، وكلُّ الابتسامات من بعيدٍ وحتَّى غمزات الأعين لم تجدِ نفعًا، على العكس كان هذا يدفعه للانطواء على نفسه والهرب والاختباء في الدكان الذي يعمل فيه. كنت أحتاج إلى الفوز بالشابِّ، كان رهانًا بيني وبين نفسي، أكثر منه رهانًا مع صديقاتي في المدرسة. تصرَّفت على نحوٍ جنونيٍّ، دخلت الدكَّان عندما كان الشابُّ وحيدًا

وطلبت منه موعدًا، وعندما ارتبك قلت له: «رح شوفك بكرة بعد المدرسة عند سينما الكرمل»، لم يكن في المخيَّم أماكن مغلقةٌ من الممكن أن نتقابل فيها، ولم يخطر على بالي غير السينما، لم أعرف هل سيأتي أم لا، كل ما فعله هو أنَّه هزَّ رأسه، لم أعرف هل هي موافقةٌ منه أم حركةٌ بحكم العادة. دُهِشَ من جرأتي، ولم يعرف كيف يتصرَّف، وقد يكون وافق بهزِّ رأسه ليتخلَّص من الموقف المحرج الذي وجد نفسه فيه. في اليوم التالي قابلته في المكان الذي اتفقنا عليه، تبادلنا بضع كلماتٍ وتمشينا قليلًا، واتفقنا أن نلتقي في يوم الخميس لندخل السينما، وافق على ذلك. طلبت من عمَّتي وداد أن ترافقنا فرفضت قالت: «أنت مجنونة، أنت بتعملي لحالك المشاكل، وأنا بغنى عنها»، قلت: «أنا حرة في حياتي»، قالت: «صحيح أنت حرة، لكن هذا شيء غير عادي في المخيَّم رح يعملك مشاكل»، لوَّحت بيدي مستنكرةً وتركتها تضرب كفًّا بكفٍّ استغرابًا من تصرُّفاتي. منذ لقائنا الأوَّل شعرت أنَّ وليد شخصٌ باردٌ وغير مبادرٍ، لكنِّي لم أعر انتباهًا لذلك، لقد فزت بالشاب دونًا عن كلِّ بنات المدرسة. في اليوم المحدَّد للقاء ذهبنا إلى السينما وبعدها تمشينا قليلًا، وذهب كلُّ واحدٍ منَّا إلى بيته. برودته وتردُّده وخجله جعلوني أشعر أنَّه هو البنت وأنا الشاب، وهذا وضعٌ لم يعجبني إطلاقًا. في الأسبوع التالي وأنا خارجةٌ من المدرسة، طلبت منه أن يرافقني، وسرت معه أمام كلِّ تلميذات المدرسة حتَّى وصلنا إلى القرب من بيتنا الذي يبعد حوالي عشر دقائق مشيٍ عن المدرسة.

في اليوم التالي عندما ذهبت إلى المدرسة، استدعتني المديرة وخطبت فيَّ عن الأخلاق الحميدة وعن البنات السائبات والشباب الذين يستغلُّون البنات، إلى آخر الأسطوانة المشروخة عن الأخلاق. لم أفهم لماذا كلُّ هذا الكلام، فأنا طالبةٌ متفوِّقةٌ في دراستي وعلاقتي مع مدرِّساتي جيِّدةٌ جدًّا، ولم أقصِّر في وظيفةٍ أو درسٍ، ولم أتشاجر مع أحد، فأنا لطيفةٌ مع الجميع. وعندما قالت بعربيَّةٍ فصحى: «إنَّ المدرسة أخلاق، وليست تعليمًا فحسب،

وعلى البنات أمثالك صون أنفسهنَّ»، شعرت نفسي مستفزَّةً قلت: «بس يا آنسة أنا ما عملت شي»، قالت بتهكُّمٍ: «لم ترتكبين أيَّ خطأ، من الفتاة التي كانت تسير مع شابٍّ من غير أقربائها أمام كلِّ التلميذات أمس، أليست أنت؟»، قلت: «بس أنا ما عملت شي وأنا بالمدرسة، أنا ما هربت من المدرسة، وهذا كان بعد المدرسة»، قالت: «المدرسة مسؤولة عن دراستك وتربيتك وسلوكك داخل المدرسة وخارجها، وأنت بسلوكك هذا تعطين مثالًا سيِّئًا للتلميذات في المدرسة. لذلك عليك إحضار ولي أمرك، ولن تعودي لحضور دروسك قبل أن يحضر. لن أعاقبك، لكن يجب أن يعرف أهلك بما تقومين به من تصرُّفاتٍ شائنةٍ»، كنت غاضبةً جدًّا، شعرت أنَّ ذلك تدخُّلًا سافرًا في حياتي، وليس لها الحقُّ أن تفعل ذلك، لكنِّي لم أرغب في أن أزيد المشكلة. عندما أخبرت أمِّي بأنَّ المديرة تطلب ولي أمري. سألتني: «ماذا فعلت؟»، شرحت لها الحكاية كلَّها قالت: «الله لا يوفقك، كيف بتعملي هيك، شو وين مفكرة حالك؟!»، وعندما ذهبت أمِّي إلى المدرسة بوصفها ولي أمري، لم تقبل المديرة ذلك، قالت «أريد ولي أمر رجل»، قالت أمِّي: «أبوها مسافر بالسعودية»، قالت المديرة: «جدها أو أحد أعمامها يفي بالغرض»، عادت أمِّي محبطةً من المدرسة، فلم تستطع إقناع المديرة أنَّ ما قمت به طيش بنات صغيرات وأنَّها ستعالج الموضوع بنفسها. لم تجرؤ أمِّي على إخبار جدِّي في الموضوع، وبذلك ليس أمامها حلٌّ لهذه المشكلة سوى إخبار أحد أعمامي حتَّى أعود إلى المدرسة، ولا أعرف هل كان من سوءٍ حظِّي أو من حسنه، أن يكون عمِّي سعيد المتوافر الوحيد في ذلك الوقت، وكان على أمِّي أن تخبره وتمنَّت عليه ألَّا يخبر جدِّي أو أبي في السعودية. لم تجرؤ أمِّي على إخباره الموضوع، تركت الموضوع للمديرة كي تخبره بطريقتها وهي تعرف أنَّها ستبالغ في الموضوع.

في اليوم التالي، حضرت مع عمِّي سعيد إلى المدرسة، وقفت أمام الإدارة، دخل عمِّي عند المديرة وقد سمعت حديثهما الذي كان يصل إليَّ،

عندما قالت المديرة: «سلوك ابنة أخيك الأخلاقيُّ غير جيِّد، لذلك عليكم تربيتها من جديد حتَّى لا تكون مثالًا سيِّئًا لزميلاتها. فهي ترافق الشباب وتسير معهم في الشارع علنًا، وهذا سلوكٌ مسيءٌ لها وللمدرسة»، لم يعجب الكلام عمِّي الذي قال لها: «اسمحي لي ما أقبل هذا الكلام عن ابنتنا، أنا مدرِّس وأعمل بالتدريس مثلك، وهذا الكلام ما بيجوز، بنتنا مربابة أحسن تربية، ولا نسمح لأحد يحكي عن أخلاقها ولا حتى أنت. أساءت لأحد في المدرسة، لمدرسة أو لطالبة؟ هل هي كسلانة في دروسها؟ إذا ما عملت شي من هذا، ما بحقلك تحكمي على أخلاقها من وشايات الأخريات»، قالت المديرة: «أنا أقول ذلك حرصًا على مستقبل فتاةٍ مجتهدةٍ وعلى أخلاقيَّات المدرسة»، قال عمي: «مش هيك بحافظ المدير على أخلاقيَّات المدرسة بافتعال فضيحة لطفلة، إحنا أحرص من المدرسة على أخلاقيَّات بنتنا، هذا المخيَّم قدامك، بتقدري تسألي، مين إحنا وأي عيلة وشو أخلاقنا؟ إحنا ما محتاجين حدا يعلمنا الأخلاق، ولا محتاجين شهادات حدا، وما بنسمح لحدا يقول هذا الكلام عن بنتنا وأخلاقها. إحنا منعلم الناس الأخلاق. من ناحية ثانية، طالما البنت ما قامت بأي شي خطأ في المدرسة، أنت مش من حقك تحاسبيها على سلوكها خارج المدرسة، هاي مسؤوليَّتنا. مسؤوليتك تنحصر في المدرسة، وطردها لفعل عملتُه برة المدرسة مش من صلاحياتك، ومش من صلاحياتك تملي على الطالبات تصرُّفاتهم برة المدرسة. أنت غلطتي بحق بنتنا ولازم تعتذري لها. وإلا رح أطلع من هون على رئاسة الوكالة أقدم شكوى فيكي إلى قسم التعليم في الأونروا، وشكوى لوزارة التربية لتجاوزك صلاحياتك وللافتراء على تلميذة بريئة. الآن فيكي تختاري بين الشكوى والاعتذار من ابنتنا»، كنت أسمع صوت عمِّي وأنا في حال ذهولٍ، لم أصدِّق ما أسمع في البداية، بعد قليل تأكَّدت أنَّه يدافع عنِّي شراسةٍ لم أتوقَّعها. تخيَّلت وجه المديرة الممتقع والمصدومة بما تسمع. لقد أخرسها هجوم عمِّي سعيد غير المتوقَّع، والذي حوَّل الموضوع من مخالفة بنت لمدرستها

إلى معركةٍ كبيرةٍ مع المديرة وعقلها المتحجِّر. حارت المديرة ماذا تفعل؟ عندما وجدت أنَّ عمِّي جادٌّ وواثقٌ ممَّا يقول، وعرفت أنَّه محقٌّ ويمكن إذا نفَّذ تهديده أنَّ عملها سيتضرر. لم تجد أمامها من خيار سوى الاعتذار مني.

عندما حضر عمِّي إلى بيتنا واصطحبني إلى المدرسة، كنت في غاية الخوف من النتائج التي سيسفر عنها هذا اللقاء. لكن ما سمعته من جدلٍ أشعرني بالسعادة، فلأوَّل مرَّةٍ أشعر أنَّ أحدًا ما ينصفني ويدافع عن حريَّتي، رغم أنَّ الآخرين يعدُّونني مخطئةً. طبعًا لم ينته الأمر هنا، كان عليَّ أن أدفع ثمن هذا الموقف حتَّى بعد أن دافع عنِّي. لذلك عندما عدنا إلى البيت ضربني بالحزام قال: «هذا لإنك خليتني أقف هذا الموقف، وخليتي مديرة تافهة تحكي عن أخلاق عيلتنا، ولإنك حطيتينا بهيك موقف بسبب شاب تافه»، كنت أصرخ وأقول وأكرِّر: «أنت ما إلك علاقة فيني»، لكن هذا لم يجنِّبني الضرب. وعندما عدت إلى المدرسة في اليوم التالي، كنت فخورةً وأشعر بالنصر، فرحتي بالانتصار على المديرة، جعلتني لا أشعر بالغضب تجاه عمِّي بسبب الضرب الذي ضربني إياه، فسعادتي طغت على كلِّ شيءٍ. الغريب أنَّ عمِّي سعيد الذي فعل ذلك من أجلي، سيتحوَّل في الأعوام التالية إلى شخصٍ متعصِّبٍ دينيًّا.

أعطتني المشكلة مع المديرة صورة البنت القويَّة عند صديقاتي والبنت الوقحة الفلتانة عند الأخريات، ولأنِّي كنت فخورةً بالانتصار على المديرة، أخذت ألعب الأدوار المتوقَّعة منِّي كفتاةٍ قويَّةٍ، وبدا هذا كتمرينٍ لشخصيَّتي التي كوَّنتها في ذلك الوقت، الفتاة القويَّة الواثقة من نفسها أينما ذهبت. جلب لي هذا السلوك الكثير من المشكلات في العائلة وخارجها. لم أكن أستطيع التحكُّم بنفسي، ولم أكن أستطيع السكوت عن أيِّ اعتداءٍ عليَّ من أيٍّ كان ولو كان بكلمةٍ. أمِّي كانت الاستثناء الوحيد، وهي الوحيدة التي كانت تؤمن أنِّي فتاةٌ طيِّبةٌ، رغم الخلافات بيننا بين الحين والآخر، ورغم صورتي كفتاةٍ لئيمةٍ وقويَّةٍ وسائبةٍ وفلتانةٍ... إلخ من الصفات

التي أبدع من لا يحبُّني في إطلاقها عليَّ. بعد تلك الحادثة باتت الكثيرات في المدرسة يردن صداقتي كحماية لهنَّ من الأخريات، وأخرياتٌ يتجنَّبن العلاقة معي خوفًا من أن تتأثَّر سمعتهن بصداقتي. في كلِّ الأحوال لم أحظ بعلاقة صداقةٍ حقيقيَّة في المدرسة، رغم علاقاتي الكثيرة مع زميلات صفِّي، وبقيت علاقة الصداقة الحقيقيَّة هي تلك التي ربطتني بعمَّتي وداد.

إحساسي بقوَّتي قادني إلى الصدام الكبير مع أبي، حدث ذلك عندما أنهيت مرحلة الدراسة الإعداديَّة. اعتاد أبي كلَّما جاء في إجازة إلى دمشق، أن يُسمعنا كلامًا كثيرًا عن تضحيته من أجلنا، وعن كفاحه من أجل لقمة العيش في الصحراء السعودية. وكلُّ ذلك ليجعلنا نعيش أفضل حياةٍ ويستطيع أن يغطِّي مصاريفنا المتزايدة، إلى آخر الاسطوانة المشروخة، التي يكرِّرها عامًا بعد عامٍ. في كلِّ مرَّةٍ أهزُّ رأسي موافقةً على ما يقول على مضضٍ، وهو يشعر بفخرٍ لا يستحقُّه، لأنِّي كنت أعرف واقع الحال في ذلك الوقت، رغم محاولات أمِّي التغطية على أبي، وعدم إخبارنا حقيقة الوضع الذي لا يحتاج إلى شرح. على العكس كان الوضع مستفزًّا للغاية، يتقصَّد أبي عندما يرسل المال من السعودية، إرساله مع شخصٍ ليعرف القاصي والداني أنَّه أرسل المال إلى عائلته، لكن لا أحد يعرف كم مرَّةً يرسل المال، وهل يكفي المال هذه العائلة التي يدَّعي أنَّه يتعب ويشقى من أجل سعادتها؟ تَصنَّع صورةً لا يستحقُّها ويريدنا نحن وأمي أن نصادق عليها وهي التي تُظهِرُه بمظهر الأب المثاليِّ أمام الآخرين أوَّلًا، وأمام نفسه ثانيًا. في ذلك العام قرَّرت التوقُّف عن مداهنته، عددت ألَّا شيء يستحقُّ مداهنة شخصٍ كاذبٍ، حتَّى لو كان أبي، أو بالأحرى لأنَّه أبي. إذا كانت أمِّي مضطرةٌ لذلك للحفاظ على صورة العائلة المثاليَّة، فأنا لا تهمُّني هذه الصورة، إنَّما تهمُّني الحقيقة. قرَّرت التوقُّف عن الكذب، تجنَّبت مقابلته عند عودته من السفر، سلامٌ عابرٌ وأعود إلى غرفتي، وأصبحت أتجنَّب البقاء معه، حتَّى جلسات الطعام المشتركة تجنَّبتها بحجَّة المرض أو غيرها من الحجج. لم يكن

ذلك ممكنًا طوال الوقت، وكانت لحظة الصدام لا بدَّ قادمةٌ. في جلسةٍ مسائيَّةٍ مع إخوتي، كنَّا نلعب الورق، الجوُّ حارٌّ والمروحة تدور على أشدِّها وأصواتنا مرتفعةٌ، لم يكن أبي في البيت، ولم ننتبه لعودته، بقيت أصواتنا مرتفعةً وضحكاتنا صاخبةٌ. ولم نقم بشيءٍ غير عاديٍّ أو يصنَّف قلَّة أدبٍ. شيءٌ ما في جلستنا استفزَّ أبي، أو شيءٌ ما في الخارج أزعجه، فأراد إزعاجنا. وقف في مدخل الصالة التي نلعب فيها الورق. وضع يده على جنب الباب. نظر إلينا وقال بصوتٍ مستاءٍ: «شو هالمسخرة اللي عاملينها؟»، قالت أختي رائدة بكلِّ براءةٍ: «بنلعب شدة. شو فيها؟!»، قال: «تضييع الوقت ما فيه شيء»، عرفت أنَّه يريد افتعال مشكلةٍ لسببٍ ما. وضعت الأوراق، همَمتُ بالذهاب إلى غرفتنا. قال: «وين رايحة؟»، قلت: «على غرفتي»، قال: «أوَّل بتسمعي شو بدي أقول، وبعدين بتنقلعي وين ما بدك. أنا ما بعيش حياة صعبة بالغربة، وبقدملكم كل شي، وإنتو بتتصرفوا بقلة احترام معي، أنا بضحي بحياتي هناك منشانكم، وإنتوا عايشين هالمسخرة. ما شايف منكم احترام، بس لعب ومسخرة...»، بدأ موشَّح التضحية المفضَّل بالنسبة له، وشعرت أنَّه لن يتوقَّف حتَّى يُشعرنا أنَّ ما فعله، لا يصدر عن أيِّ إنسانٍ، إنَّه يفوق عمل الملائكة، ونحن بناته وأبناؤه العاقُّون لا نقدِّر ولا نحترم جهوده الجبَّارة. سكت بعض الوقت، بعد دقائق وجدت نفسي غير قادرةٍ على الاستمرار بالاستماع إلى هذه الترَّاهات التي يردِّدها طوال الوقت. قلت له: «يابا بكفي»، قال: «شو قصدك بكفي، ما بدك إياني أحكي؟»، قلت: «العفو، سمعنا هذا الكلام كثير، بس أنت مش منتبه إحنا ما عدنا صغار»، قال: «شو قصدك؟ صار عندك لسان وبتعرفي تردي فيه على الكبار، شو قصدك ما عدتوا صغار؟»، قلت: «صح، ما عدت صغيرة، وبعرف كيف بنعيش بهذا البيت، ما عاد بدي اسمع موشَّح التضحية منشانكم والصحرا اللي بتاكل عمري...»، قال: «كيف عايشين بهذا البيت، من شغلك؟! أنت أصلًا ما بعجبك العجب من يوم يومك، واليوم صرتي وقحة ولسانك طويل»،

قلت: «خلص بابا، خلص كذب، ما عدنا صغار، وما بدنا منك شي، خلص بكفي تمن علينا بشي ما عملتُه ولا رح تعملُه. بحياتك ما صرفت علينا، ولا رح تصرف، أنت مو شايف غير حالك، خلص مليت وزهقت من الحكي الفاضي»، دُهِشَ من سماع كلامي، رفع يده وهوى بها على وجهي وهو يقول: «وقحة»، أُصِبتُ بالصدمة، لم أتوقَّع أن يصفعني، ركضت إلى غرفتي، وأقفلت الباب على نفسي وشرعت في البكاء، ليس من ألم الصفعة، لكن من الإهانة التي حملتها.

كانت هذه الصفعة نهاية العلاقة مع أبي، لم يفسِّر ما قلت على أنَّه توصيفٌ للواقع الذي كنَّا نعيشه في ذلك الوقت، إنَّما عدَّ ذلك يعود إلى أمِّي التي لم تفلح في تربيني، فكبرت على الوقاحة وقلَّة الأدب. هذا التفسير الذي أراحه، أن يلقي تبعات الموقف لا على نفسه، بل على أمِّي المقصِّرة في تربيتي وتعليمي الأدب مع الكبار. طبعًا، على الفور انتقل الانتقام منِّي إلى أمِّي، التي تربِّي أولادًا وبناتًا لن يكونوا صالحين لشيءٍ، لأنَّهم لا يحترمون والدهم، وأكيد من لا يحترم والده، لن يحترم الكبار الآخرين. هو الذي يضحِّي بعمره من أجلنا، ونحن في النهاية ناكرين للنعمة. كان صيفًا قاسيًا بموشَّحٍ سخيفٍ طويلٍ ومملٍّ. كأنَّه عدَّ جدلي معه فرصةً من أجل أن يتخلَّى عن آخر مسؤوليَّاته، ويتحوَّل إلى القول: «لازم تحمدوا ربكم على إني آويكم في بيتي. أب آخر كان طردكم من البيت».

خلال وجود أبي في السعودية، كان شهر إجازته فيه ثلاثة أسابيع من الشجارات، شيءٌ يمكن احتماله، مقابل الهدوء بقيَّة السنة. بقي الحال على هذا النحو، حتَّى قرَّر أبي العودة إلى دمشق نهائيًّا، ليربِّي أولاده وبناته الذين أصبحوا في سنٍّ حرجةٍ ويحتاجون أباهم إلى جانبهم، وفق نصيحة جدِّي له، وفق ما قال. وقع قراره بالعودة النهائيَّة إلى دمشق على رأسي وقوع الصاعقة. هذا القرار يعني أنَّ الشجارات لن تعود موسميَّة، بل ستغطِّي السنة كلَّها.

جرت الأمور على أرض الواقع أسوأ من التقدير، لم تحتمل أمِّي هذا الوضع، لقد طفح الكيل بها، استنفذت كلَّ طاقتها على الاحتمال. أخبرت خالي بكلِّ شيءٍ، وقالت له: «لم أعد أتحمل، تحملت كل شيء من أجل الأولاد، بس ما في شيء عبينفع. آسفة، إني برمي حملي عليك، بس أنا وصلت إلى النهاية»، قال: «ولا يهمك، بدك ترجعي على السعودية؟»، قالت: «أنا رح أعمل اللي أنت بتقول عليه، بس أنا بفضل نبقى بالشام، البنات والأولاد ممتازون بالمدارس، وما بدي أنقلهم لجو جديد. بس رح أعمل اللي أنت بتأمرني فيه»، قال: «أعوذ بالله، أنا ما بأمرك خيتا، بس بدي أفهم منك شو الأفضل الك حتى أتصرف»، وأضاف: «ما تاكلي هم، المشكلة محلولة»، لم ننتظر طويلًا. لم يرضَ خالي بهذه الإهانات لأخته، فقرَّر أن يحرِّرها ماليًا نهائيًّا، بعد أشهرٍ عدَّةٍ، اشترى بيتا في منطقة البرامكة، وطلب من أمِّي الانتقال إليه، والتعامل معه كأنَّه بيتها، لم يكتب البيت باسم أمِّي، لا أعرف الاعتبارات تمامًا، أظنُّ أنَّه فعل ذلك، حتَّى لا ينقل الخلاف إلى مكانٍ آخر، فإذا سجَّل البيت باسم أخته، أصبحت عرضةً للابتزاز من أبي كونها قادرةً على التصرُّف به، ولكن طالما أنَّها غير قادرةٍ على التصرُّف به، وهو باسم خالي، لن يستطيع أبي ابتزاز أمِّي. فهي تستطيع السكن في البيت، ولن يقترب أحدٌ منها أو تسمع أيَّ كلمةٍ بهذا الشأن، إنَّه بيتها ولكنَّها غير قادرة على التصرُّف به. لأنَّ خالي بعد سنواتٍ طويلةٍ، وبعد أن تزوَّج أبي من امرأةٍ أخرى وطلبت أمِّي الطلاق منه وباتت العودة للعيش مع بعضهم مستحيلةً، نقل ملكيَّة البيت إلى أمِّي.

انتقالنا إلى البيت الذي يملكه خالي وسط دمشق، أَسكتَ أبي نهائيًّا، لم يتكلَّم كما في السابق، وبات أقرب إلى الضيف في البيت عندما يكون على وفاقٍ مع أمي، وعندما يختلفان، يغيب، إمَّا عند بيت جدِّي عندما أصبح جدِّي وجدَّتي يعيشان وحدهما فوق دكَّانه، أو في دكَّانه عندما يكون مختلفًا مع جدِّي أو جدَّتي أيضًا. وعندما انتقلنا من بيت المخيَّم سارع إلى تأجيره،

حتَّى يستفيد من أجرته. ارتاحت أمي إلى حدٍّ كبيرٍ من الادعاءات الفارغة لأبي، وباتت أكثر جرأةً في مواجهته مع تقدُّمهما في السنِّ، لم تَخَف على سمعة العائلة، كما كانت من قبل، أو أنَّ خوفها على هذا الجانب قد خفَّ. في البداية كان الانتقال إلى وسط البلد صعبًا عليها، فهي على مدى السنوات التي تلت عودتنا من السعودية إلى دمشق، بنت علاقاتٍ وصداقاتٍ جميلةً في المخيَّم مع الأقارب ومع غيرهم. وما زاد من شبكة علاقاتها في المخيَّم، أنَّ خالي وزوجته كانا يعتمدان عليها في توزيع مبالغ ماليَّةً كمساعدةٍ للفقراء من الأقارب وغيرهم من المعوزين، وهو ما أعطاها شعبيَّةً كبيرةً بين هؤلاء البسطاء والمحتاجين، الذين كانت تختارهم بعنايةٍ، فكانوا الأكثر حاجةً بين من تعرف. وهذه المهمَّة أبقت علاقتها مع المخيَّم مستمرةً لأداء مهمَّتها حتَّى بعد الانتقال إلى وسط دمشق، لذلك لم تبنِ علاقاتٍ جديدةٍ في مكان سكننا، باستثناء بعض الجيران في البناية ذاتها.

كان الانتقال كارثةً حقيقيَّةً بالنسبة لي، أحببت عالمي الذي بنيته في المخيَّم، لم أتذمَّر يومًا ممَّا تذمَّر الآخرون منه، هناك الكثير من العيوب في المخيَّم، لكن لم أكن أراها مقابل الحياة الحميمة التي أعطاني إيَّاها المخيَّم، ولم أعرفها لا في السعودية قبل المجيء إلى المخيَّم، ولا بعلاقاتي التي بنيتها في وسط البلد بعد ذلك. شيءٌ ما في المخيَّم لا أعرفه تمامًا جعلني متعلِّقةً به، أشعر أنَّ تجربتي هناك فيها الكثير من الخصوصيَّة، فلم تعوِّضها أيُّ تجارب أخرى. واليوم بعد هذا الغياب الطويل عن المخيَّم، أقول إنَّه المكان الذي أحببته وعلق في روحي أكثر من أيِّ مكانٍ آخر في دمشق التي لم أغادرها. شعرت دائمًا بالانتماء إليه حتَّى عندما لم أعد أسكن فيه، وبعد أن حصَّلت على الجنسيَّة السورية بحكم زواجي من سوريٍّ، لم أشعر أنَّ انتمائي للمكان قد تغيَّر. في بداية انتقالنا إلى وسط دمشق، كنت أقضي يوم الجمعة مع عمَّتي وداد في المخيَّم عند بيت جدِّي، أذهب يوم الخميس بعد المدرسة وأعود الجمعة. فقد انتقلت من مدرستي الثانوية في الميدان التي

شاركتني فيها عمَّتي سنةً واحدةً، إلى ثانوية أسعد عبد الله في منطقة الحلبوني القريبة من بيتنا الجديد، التي تحتاج مشي حوالي عشر دقائق. كنت أنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، ولم تحاول أمِّي منعي من الذهاب إلى المخيَّم، كانت تثق أنِّي بأمانٍ في بيت جدِّي. ولم يكن أحد هناك يحتجُّ على مبيتي، الجميع يحتفل بي، ستِّي وجدِّي وعمَّتي الصغيرة وأعمامي الصغار، حتَّى عمَّتي بيان المتزوِّجة وعمِّي خليل أيضًا، إذا ما قابلوني عند بيت جدِّي كانوا يحتفلون بي. لكنَّ هذه الزيارة الأسبوعيَّة، لم تدم طويلًا، فبعد حوالي السنة، لم يعجب أبي أن يكون لي علاقةٌ جيِّدةٌ مع بيت جدِّي، لا سيَّما أنِّي في المخيَّم يوم الجمعة عندما يكون هو في البيت، كان الذهاب للمبيت عند بيت جدِّي يجنِّبني الاجتماع به في البيت يوم العطلة، وهذا ما يجعلني أشعر بحريَّتي. عندما بدأ أبي يفتح دكَّانه يوم الجمعة هربًا من البيت ومشاكله، لم يُرِدني في المخيَّم، أخذ يضايقني عند بيت جدِّي، وتحوَّلت زيارتي للمخيَّم من متعةٍ إلى عقوبةٍ، بوجود دكَّان أبي إلى جانب بيت جدِّي، وهو الوضع الذي جعله قادرًا على إزعاجي في أيِّ وقتٍ. في كلِّ مرَّةٍ وجدت جدَّتي أبي يعنِّفني، كانت تقول له: «أترك البنت بحالها»، لكنَّه كان يتمادى في إزعاجي من أجل إزعاجها لأنَّها تحامي عنِّي. بوجود أبي هناك، لم يكن الوضع محتملًا، فتوقَّفت عن زيارة المخيَّم.

انتقلت من ضيق المخيَّم إلى رحابة مدينة دمشق، كنت بنت هوامش المدينة، بتُّ بنت وسطها، وبدأت أرى المدينة بعيونٍ أخرى، سحرتني أسواق المدينة، في الوقت الذي لم أكن أعرف منها سوى بعض دور السينما والأسواق الرئيسيَّة مثل الحميدية والصالحية، أصبحت أنبش بطن المدينة. فسوق الحميدية الذي كان بالنسبة لي بوظة بكداش والجامع الأموي، على هامشه أسواق أكثر أهميَّةً منه، عدا عن أنِّي بدأت أعرف أنَّه سوقٌ من طوابق، وليس المحلات التي نراها على الجانبين عندما نسير باتجاه الجامع الأموي فقط. هناك عالمٌ آخر من المتاجر في الطوابق العليا، يقف من

يعملون معهم من شباب بلسانهم الحلو، يحاولون إقناع المتسوِّقين بالصعود إلى محلَّاتهم، لأنَّهم يملكون بضاعةً أفضل وأسعارًا أرخص. حول سوق الحميدية أسواقٌ ساحرةٌ، على رأسها سوق النسوان، وهو السوق الباهر الذي لا أظنُّ أنَّ هناك مكانًا في العالم فيه كلُّ هذه الألوان الصارخة للملابس النسائيَّة الداخليَّة التي تستخدمها نساء دمشق في الليالي الحمراء، كلُّ الطيف اللوني، وكلُّ أشكال الملابس الداخليَّة التي تعمل على إغراء الرجل، المعروضة بكثافةٍ أمام المحلات وفوقها وعلى جنبيها وداخلها. كانت ألوان السوق تدخل السرور إلى قلبي. سوق النسوان تتصل نهايته الداخليَّة بسوقين، الأوَّل سوق الصوف، المتخصِّص في بيع الصوف، وفيه الكثير من المنجِّدين المستعدِّين لتحويل هذا الصوف الذي غالبًا ما يُشترى قبل الزواج إلى فراشٍ جديدٍ للزوجين. يحوِّل المنجِّد هذا الصوف إلى فرشات ومخدات ولحافات. لم أكن أحبُّ هذا السوق، لأنَّ رائحة الصوف تزعجني، أشعر أنِّي أمشي بين الخراف. سوق البزورية هو السوق الثاني المتفرِّع عن سوق الحميدية، كنت أعشق رائحة هذا السوق على عكس سوق الصوف. البزورية هو السوق الذي يبيع البهارات بكلِّ أنواعها والمكسَّرات النيَّة، ويزدحم حتَّى آخره قبل عيدي الفطر والأضحى، حيث الجميع يريد شراء حاجاته من أجل كعك العيد، الذي يصنعه كلُّ أهالي دمشق ومحيطها قبل يوم أو يومين من العيد، ما يجعل رائحة المدينة ساحرةً، ارتبطت هذه الرائحة عندي بالعيد منذ أيَّام المخيَّم، فأصبحت رائحة العيد، حتَّى عندما أشمُّها في غير أوقات العيد، أشعر أنِّي في انتظاره. في المخيَّم كان كعك العيد طقسًا من السحر بالنسبة لي، أنتظره بفارغ الصبر. كانت أمي تفضِّل صناعة الكعك بالاشتراك مع بيت جدِّي، ولم تمانع جدَّتي، التي كانت تحبُّ اجتماع أفراد العائلة عندها عشيَّة العيد، وهو ما كان يشعرها بالفخر. عندما يبدأ العجين، ورائحة اليانسون والقرفة والحلبة وغيرها من البهارات تملأ المكان، أشعر بالدوار من تلك الرائحة الساحرة، يستمرُّ هذا الطقس يومًا وليلةً، كنَّا

نحن الفتيات الصغيرات نشارك في العمل، أنا وأخواتي وعمَّاتي، إذ تكلِّفنا أمي وجدَّتي بمهمَّاتٍ نستطيع إنجازها من عجنٍ، أو وضع عجين الكعك في قالبٍ وصفِّه في الصواني الكبيرة، ونقل الكعك في الصواني إلى الفرن القريب، لم يكن أحدٌ يملك فرنًا على الغاز أو الكهرباء حتَّى يصنع الكعك في البيت، لذلك في الأيَّام السابقة على العيد، كان الفرن يشتغل ليلًا نهارًا حتَّى يغطِّي احتياجات السكَّان المحيطين به جميعًا. وكان طقس كعك العيد يسمح لنا بالسهر حتَّى الصباح، وهو الوقت الذي تنتهي فيه صناعة الكعك عادةً، وتوصيله إلى الفرن وجمعه وترتيبه وإعادته إلى البيت، وبعد هذه المعركة الطويلة مع الكعك نكون نحن الأطفال قد نمنا من تعبنا الشديد في هذا المكان أو ذاك من بيت جدِّي. لذلك دائمًا ما كانت روائح البزورية تذكِّرني بكعك العيد، وعندما أمشي هناك وأستنشق هذه الروائح التي تُدخل السكينة إلى قلبي. وبالقرب من سوق الحميدية على الطرف الآخر من نهر بردى، حيث تفصل قلعة دمشق بين الحميدية والأسواق المتداخلة على الطرف الثاني من النهر خارج سور دمشق، سوق الهال والمناخلية وسوق الجلود أو السروجية. في سوق الهال المتخصِّص في بيع الخضار، وهو مكان كراجات الباصات الذاهبة إلى بلدات الغوطة الشرقيَّة. كان بائعو الخضار في المدينة يتسوَّقون بضاعتهم من هناك، حيث تُسَوَّقُ منتجات ريف دمشق من الخضروات والفاكهة في تلك السوق، وكانت ألوان الخضار، لا سيَّما البندورة تشدُّني في صناديقها الخشبيَّة، والعنب الديراني بأشكاله المختلفة، وروائح النعنع والزعتر الأخضر والبقدونس والخس وغيرها من الخضراوات في الصيف، وقد انتقل هذا السوق من وسط مدينة دمشق بعد سنواتٍ إلى منطقة الزبلطاني على طرف مدينة دمشق. كان سوق الجلود ينقسم الى قسمين، القسم الأوَّل سوق الخجا، الذي يبيع الحقائب بكلِّ أنواعها، اليدويَّة النسائيَّة، وحقائب السفر بكلِّ أنواعها وأحجامها التي تملأ كلَّ المحلات عن بكرة أبيها، وهو السوق المقابل تقريبًا لسوق الهال. وكلَّما

مررت منه كنت أحلم بالسفر إلى أماكن بعيدةٍ، أتعرَّف عليها وأعيش تجربةً أخرى. وخلف سوق الخجا باتجاه ساحة المرجة، كان هناك سوق الحمام والطيور حيث يشتري كشَّاشو الحمام حمامهم الغالي عليهم، أو يبيعونه عندما يصبحون غير قادرين على تحمُّل تكاليفه. ومن هناك زيَّنت دمشق سماءها بحمامٍ يطلقونه من سطوح منازلهم ليعود إليها بعد أن يرسم دوائر في سماء المدينة. أمَّا القسم الثاني من سوق الجلود، فكان على طرف النهر، وهي محلَّاتٌ صناعيَّةٌ، تصنع سروج الخيل وأحزمة الرجال وبيوت الأسلحة الجلديَّة. أمَّا المناخلية، فقد اكتسب اسمه من كونه مكانًا كانت تُصنَع فيه المناخل والغرابيل، وبتراجع هذه الصناعة بات المكان، تجمُّعًا لبائعي مواد البناء الخاصَّة بالحمَّامات والمطابخ، والمكان الأهمُّ الذي يبيع الخردوات في دمشق.

القباقبيَّة مكاني المفضَّل، كان للكميَّة الكبيرة للقباقيب المعلَّقة على أبواب المحلَّات وقع السحر عليَّ، ليس لأنَّها تذكِّرني بالمسلسل المفضَّل لديَّ وأنا طفلةٌ، أقصد مسلسل «حمَّام الهنا» لدريد لحام ونهاد قلعي الذي طالما أضحكني، بل لأنَّه مرتبطٌ بالبيت الشاميِّ القديم الذي له سحره الخاصُّ أيضًا، عندما دخلت البيت الشامي لأوَّل مرَّةٍ، لم أصدِّق أنَّ كلَّ هذا الجمال في الداخل موجودٌ خلف جدران الطين الخارجيَّة الفقيرة. وكانت القباقبيَّة التي تقع على الطرف المقابل للجامع الأمويِّ، تؤدِّي إلى المكان الأثير عندي، هناك في نهاية الدرج الخلفيِّ للجامع الأموي، حيث يقع مقهى النوفرة، وهو المقهى الذي أصبح عليَّ أن أذهب إليه مع صديقاتي مرَّةً في الأسبوع على الأقل. نعم، بانتقالي إلى المدينة، تغيَّرت نظرتي إليها، وأصبح هذا المربَّع الأحبُّ بالنسبة لي، هذا لا يعني أنِّي لم أحبَّ أماكن أخرى فيها، لكن في هذا المربَّع أشعر أنَّ المدينة لي، ملكي شخصيًّا، لا أحد يستطيع أخذها منِّي. كنت أمشي في المدينة القديمة وأنا أسمع صوت كعبي يدقُّ الأرض المبلَّطة بقطع الصخر، كنت أستمتع بوقع خطواتي، أشعر أنَّها تعلن وجودي، تعيد لي رجع

الصدى الذي يتغلغل إلى داخلي، تاريخ المدينة يتردَّد بصدى الخطوات. الهدوء هو العنوان الذي علَّمتني إيَّاه المدينة القديمة، التي أخذت تفقده مع غزو المطاعم والمقاهي للبيوت الدمشقيَّة القديمة، التي تحوِّل الكثير منها إلى مطاعم ومقاهٍ حديثةٍ، مع الحفاظ على المبنى القديم. ما حوَّل المدينة الهادئة إلى مدينةٍ صاخبةٍ، ومع هذا الصخب المتزايد والاستثمار المتزايد قُتِلَت المدينة الهادئة، لم أعد أسمع وقع خطواتي عندما أمشي على حجارتها، وشعرت أنِّي فقدت جزءًا منِّي وسط هذا الزحام.

المسبح هو المكان الآخر الذي شدَّني، فبعد انتقالنا إلى البرامكة بسنتين، افتُتِحَ مسبح تشرين المغلق بالقرب من بيتنا، الذي لا يحتاج سوى خمس دقائق مشيًا على الأقدام للوصول إليه. بدايةً لم أفكِّر في السباحة، فقد بدأت في الذهاب إلى هناك مرافقةً لأخي الأصغر محسن. الذي أحبَّ السباحة، وتدرَّب عليها بجدِّيةٍ حتَّى أصبح واحدًا من فريق سورية للشباب، وبعد ذلك أصبح واحدًا من أفضل السبَّاحين في البلد، وعضوًا أساسيًّا في فريق السباحة السوريِّ، كنت سعيدةً بتقدُّم أخي السريع بإتقان السباحة التي عشقها، وهي التي وفَّرت له بعد سنواتٍ طويلةٍ فرصة الهجرة إلى كندا، فقد ذهب إلى أميركا ضمن فريقٍ سوريٍّ للسباحات الطويلة، وبعد انتهاء البطولة ذهب إلى كندا، وطلب اللجوء هناك، ولم يَعُد إلى دمشق إلَّا بعد سنواتٍ طويلةٍ. في أثناء مرافقتي لمحسن، كنت أقابل نساءً يرافقن أطفالهنَّ، لا ينتظرن على المدرَّجات مثلي، بل يقمن بالسباحة في البركة الأخرى. كان في المسبح بركتين، واحدةٌ للسباحة وواحدةٌ للغطس، حتَّى عندما يسبحن في البركة نفسها، لم يعقن التدريب. كنت أذهب مرَّتين في الأسبوع إلى هناك، وبعد أن تعرَّفت على النساء، أخذن يقنعنني بالنزول إلى الماء والسباحة معهن، بدلًا من الانتظار على المدرَّجات. كنت أخاف من الماء، لذلك لم أفكِّر في السباحة، لكن أخذن يتحدَّينني، وأنا عنيدةٌ، لم أقبل أن أظهر كخائفةٍ، فقلت لهنَّ: «بتشوفوا، رح أتعلَّم السباحة وأسبح أحسن

منكن»، لم أقصد ذلك جديًّا، قلت ذلك بدافع الإغاظة لا غير، ودُهِشتُ عندما نزلت إلى الماء، وعرفت ألَّا شيء يستدعي الخوف، وخلال أسبوعٍ بدأت أطفو وحدي من دون مساعدة أحدٍ، وبدأت سباحتي تتحسَّن يومًا بعد يومٍ، وتحوَّل خوفي من الماء إلى عشقٍ للسباحة، وهذا العشق، لم يعكِّره سوى حساسيَّة عينيّ من الكلور الذي يضعونه في بركة الماء للتعقيم، فأخرج من البركة وقد تحوَّلتا إلى كتلتين من الجمر.

شكَّلت المرحلة الثانويَّة حالةً انتقاليَّة بالنسبة لي من بنت المخيَّم المكتفي بذاته إلى بنت المدينة المفتوحة على كلِّ شيءٍ والمفتوحة على الخارج. في المخيَّم شعرت أنَّ الجميع يعرفون بعضهم، ولا يستطيع أحد القيام بأيِّ شيءٍ في الشارع، من دون أن يصل إلى عائلته أو مدرِّسيه أو أصدقائه، المخيَّم بمنزلة حارةٍ مكشوفةٍ على الجميع، وهو ما سبَّب لي المشاكل لأنِّي لم أكن أدرك هذه الخاصيَّة فيه، فقد أردت التصرُّف بحريَّتي من دون أخذ رأي الآخرين بعين الاعتبار، فوجدت نفسي أقع في المشكلات مع مديرة المدرسة، ولم يشفع لي كوني طالبةً مجتهدةً، ولم تكتفِ المديرة بتأنيبي، بل طلبت ولي أمري وأخبرته بما لا يليق، وهو ما كان قد يتسبَّب في قتلي في عائلة أخرى. صحيحٌ أنَّ عمي كان عاقلًا، ولكن من يعرف ماذا سيحدث لو كانت المشكلة مع فتاةٍ أهلها أكثر تعصُّبًا، المدرسة تخبر أهلها: «ابنتكم تتسكَّع مع الشباب الغرباء أمام المدرسة، ضاربةً عرض الحائط بالأخلاق»، الشابُّ الواحد يصبح شبابًا، والمشي المشترك يصبح لا أخلاقيًّا، إلى غيره من الأحكام التي يُبالغُ بها ادعاءً من المتحدِّث أنَّه حارس الفضيلة.

في دمشق أصبح الوضع مختلفًا، المدينة بنت الغفلة، لا أحد يعرف أحدًا ولا أحد ينظر إلى أحد. في دمشق شعرت نفسي غريبةً بين غرباء. بالتأكيد البشر يدخلون في علاقاتٍ اجتماعيَّةً، أقارب، جيران، أصدقاء... الخ. يصادف المرء أحدًا يعرفه في الشارع، ولكن ليس كلُّ من في الشارع يكاد يعرفه كما الوضع في المخيَّم. صحيحٌ كان هذا العيب يخنقني، ولكن مقابله

هناك ميزةٌ في المخيَّم ليست في الأماكن الأخرى، عندما تحتاج المساعدة تجد من يمدُّ يده مباشرةً لك.

هذا لا يعني أنَّ دمشق كانت باريس أو برلين أو لندن، طبعًا، لا. بل يعني أنَّ مساحة الحريَّة الشخصيَّة في المدينة أكبر منها في البيئات الأكثر محافظةً. حتَّى دمشق نفسها كانت مقسومةً بين الأحياء الحديثة والقديمة، بين المدينة وريفها أيضًا، يغلب على الأحياء القديمة المحجَّبات بالمعنى التقليديِّ للحجاب الشاميِّ، الذي يعني أنَّ المرأة تلبس الحجاب وهو لفَّةٌ بيضاء ترتدي فوقها ملاية سوداء تغطِّي وجهها وتزداد أو تخفُّ سماكة الملاية وفق درجة محافظة العائلة. اختفى هذا اللباس من المدينة بعد ذلك وبقي مقتصرًا على مدن الريف التي استقبلت المحافظين المفقرين من أهالي وسط مدينة دمشق، مثل دوما وحرستا وداريا... كنت أظنُّ أنَّ ارتداء الحجاب أو نزعه مسألة حريَّةٍ شخصيَّةٍ. لكنَّ هذه الحرية لم تكن محترمةً، وقد انتُهِكت هذه الحريَّات على نحوٍ واسعٍ من أجهزة الأمن، لا سيَّما في فترة الصراع مع الإخوان المسلمين الذي تسبَّبت برعبٍ للبلد. لقد شهدت مدينة دمشق رعبًا حقيقيًّا بسبب التفجيرات التي تعرَّضت لها، واستُبِيحت من قوَّات سرايا الدفاع التابعة لشقيق الرئيس حينها، وعبث الأمن بحياة الكثير من البشر، وأيُّ شخصٍ يمكن أن يخسر حياته أو يقضي عشر سنواتٍ في السجن لمجرَّد وشايةٍ كاذبةٍ.

أصبح البشر يختفون من المدينة بحلول الظلام، ومع حلول الساعة السادسة تكون المحلَّات جميعها قد أغلقت أبوابها، كنت أشعر أنَّ هناك حظرًا للتجوُّل غير معلنٍ. وفي الليل تُسمَع بعض الطلقات التي يمكن أن تكون قريبةً أو بعيدةً. في بداية عامي الدراسيِّ الأخير في كليَّة التاريخ في جامعة دمشق، كنت أنا وصديقتي جميلة التي تسكن قريبًا من بيتي راجعاتٍ إلى المنزل ظهرًا، لأنَّ مدرِّسًا في الكليَّة ألغى دروسه بسبب وفاة والدته. بعد أن تسكَّعنا في مقصف كليَّة الآداب وثرثرنا كثيرًا، لم يبقَ أمامنا

ما نفعله، فقرَّرنا الذهاب إلى المنزل. في تلك الفترة درَّب الجيش بناتٍ من المدارس الثانوية على الهبوط المظلِّي، وأطلق عليهنَّ اسم «المظليَّات» وكذلك أولادًا من المدارس الثانوية أُطلق عليهم اسم «المظليُّون» ولتشجيعهم منح هؤلاء تسهيلاتٍ لدخول الجامعة، أيُّ واحدٍ منهم، يحصل على عشرين علامة مساعدةٍ في امتحانات الثانوية، بمعنى أنَّه لو رسب في الثانويَّة وهو يحتاج إلى هذه العلامات، يضيفونها له امتيازًا لأنَّه خضع أو خضعت لدورة المظليِّين والمظليَّات. وليس هذا وحسب، بل منح هؤلاء امتياز أن يختاروا الفرع الذي يريدونه ويسجِّلون فيه مباشرةً بصرف النظر عن مجموع علاماتهم، من دون الخضوع لنظام المفاضلة وفق العلامات الذي كان سائدًا في ذلك الوقت. كان طالب الثانوية يحتاج إلى مجموع حوالي 200 علامةً حتَّى يستطيع دراسة الطبِّ حينها، لكنَّ المظلِّي يكفيه أن يحصل على 104 علاماتٍ، وهي الحدُّ الأدنى للنجاح في الثانوية، حتَّى يدخل الكليَّة التي يريدها، من كليَّة الطبِّ التي تحتاج أعلى العلامات إلى آخر كليَّة في الجامعة، ويكون قبل ذلك قد تمت مساعدته بعشرين علامة. أي أنَّ المظلِّي أو المظليَّة يحتاج إلى 84 علامةً فقط ليدخل أو تدخل كليَّة الطب، بينما يحتاج الطلَّاب الآخرون إلى مجموع 200 علامةٍ لدخول الفرع ذاته. كان هذا الظلم بعينه، لكن أعطيت هذه الامتيازات لهؤلاء حتَّى يكونوا رديفًا للجيش في التصدِّي للإخوان المسلمين الذين أرعبوا الرئيس عندما حاولوا اغتياله بقنبلةٍ يدويةٍ أمام قصر الضيافة، من دون أن ينجحوا في ذلك. عندما ركبنا أنا وجميلة الباص من أمام كليَّة الآداب في المزَّة، وصولًا إلى البرامكة، كانت المظليَّات ينتشرن في الشوارع مع مرافقةٍ من المظليِّين وجنود سرايا الدفاع، ويقمن بنزع الحجاب عن رؤوس النساء في شوارع دمشق، بصرف النظر عن عمر من ترتدي الحجاب، سواءً كانت صبيَّةً أم عجوزًا. نزعت المظليَّات الحجاب عن رؤوس النساء بسعادةٍ واحتفاليَّةٍ، والنساء المسكينات، يحاولن ستر شعورهن بأيِّ شيءٍ من دون أن ينجحن في

ذلك. بكت النساء الكبيرات في السنِّ وهنَّ حاسرات الرأس. في البداية لم أفهم ما يجري، نظرنا أنا وجميلة إلى بعضنا باستغرابٍ، غير قادرتين على استيعاب ما يحدث. وعندما وصلنا إلى جانب امرأةٍ عجوزٍ مستسلمةٍ، تجلس على طرف الرصيف منهكةٍ، تسبَّب نزع حجابها بسقوطها على الأرض. كانت العجوز مصدومةً عندما حاولت مساعدتها. نظرت من بين دموعها وقالت: «شو عملت؟ حتى يعملوا معي هيك، ليش هاي المهانة يا بنتي؟ بشو مضايقتهم القماشة اللي على راسي؟» وشرعت في بكاءٍ مرٍّ. احتضنتها وأنا أبكي معها، لم أعرف ما أقول سوى: «حقك عليّ يا أمي»، احتضاني للعجوز زاد من بكائها، وزاد من بكائي أيضًا. كنت عاجزةً عن فعل أيِّ شيءٍ لها، كنت عاجزةً عن فعل أيِّ شيءٍ لنفسي. بعد أن ساعدت العجوز على الوقوف وذهبت في طريقها تسير ببطءٍ شديدٍ. نظرت إلى جميلة وقلت: «شو كنت رح أعمل لو كانت هاي المرة أمي؟» لم تجب جميلة على سؤالي. أغمضت عينيها وشرعت في البكاء. في الطريق إلى المنزل، كان منظر النساء منزوعات الحجاب والمذهولات والباكيات يقتل شيئًا ما داخلي، نساءٌ محطَّماتٌ يشعرن بالانتهاك والاعتداء، يبكين شاعراتٍ بالخوف، ينظرن إلى اللا شيء. شعرت أنَّه قد انتُهِكت واغتُصِبتُ وليس فقط مئات النساء المحجَّبات اللواتي نُزِعَ حجابهن، رغم أنِّي لم أضع حجابًا أو ايشاربًا على رأسي طوال حياتي.

عندما انتهيت من دراسة الثانويَّة قرَّرت دراسة التاريخ، كنت أستطيع أن أدخل كلَّ الفروع الأدبيَّة في الجامعة من التجارة والاقتصاد حتَّى الشريعة، وفي تلك الأيَّام كان يحقُّ للذين يدرسون الفرع الأدبيَّ أن يسجِّلوا في كليَّة التجارة، أُلغيَ ذلك في وقتٍ لاحقٍ واقتصرت على طلاب الفرع العلمي. أردت من التاريخ أن يُفهمني العالم الذي أعيش فيه، لأنِّي كنت أظنُّ كما تقول كتب التاريخ، أنَّ الحاضر نتاج الماضي، والمستقبل نتاج الحاضر. أردت أن أفهم، لماذا ما زال الناس منقسمين على حدث حصل قبل

1400 سنة؟ وما الذي يجعل حدثًا يعيش كلَّ هذا الزمن، وتختلف عليه أناسٌ لم تكن مولودةً حينها؟ كان ذلك قبل دخولي محنتي في الزواج من مسيحيٍّ، التي فاقمت من حاجتي إلى إجاباتٍ على أسئلةٍ كثيرةٍ، لماذا نعيش متعلِّقين في ماضٍ لم نصنعه؟ ويؤثِّر علينا سلبًا، ولماذا نحن عاجزون عن الخروج من الدائرة الجهنَّميَّة التي نعيشها؟ لكنَّ دراستي لم تعطِني إجاباتٍ على هذه الأسئلة، لأنَّ المكان الذي ذهبت إليه من أجل الإجابات، هو نفسه طرح أسئلةً لا تقلُّ صعوبةً عن الأسئلة التي انتظرت أن تجيب عليها دراستي للتاريخ، لأنَّ التاريخ في بلادنا، ليس كذلك، بل هو ما زال حاضرًا ويؤثِّر على هذا الواقع بثقله الهائل، كلَّما تعمَّقت أكثر في التاريخ، يصبح أثقل على أكتافي، وأرى تأثيره الأعمق في المجتمع. إنَّه القرآن، هو الكتاب الذي اخترق المجتمعات العربيَّة، وأصبح يؤثِّر فيها. هذه المجتمعات، التي تختلف في كلِّ شيءٍ حتَّى في القرآن، ولكنَّ الكل يعدُّه لا يُمَس، هذا الكتاب هو الذي أنتج التاريخ الثقيل الذي نقبع جميعنا تحت ثقله.

رسم هذا الثقل معالمه على حياتي الشخصيَّة، فعندما تعرَّفت على جورج وأنا في سنتي الجامعيَّة الثالثة، لم أكن أتصوَّر أنَّ هذه المعرفة ستعصف بحياتي. تعرَّفت عليه في بيتهم، عن طريق أخته غادة التي تدرس الهندسة المدنيَّة، تلك الفتاة السمراء المبتسمة دائمًا صاحبة الجسد النحيف والسبَّاحة الماهرة. تعرَّفت عليها في المسبح الذي كانت من روادِه، كما كنت أنا. تبادلنا أطراف الحديث في كلِّ مرَّةٍ تقابلنا فيها، وعندما دعوتها إلى بيتنا القريب من المسبح، قبلت الدعوة، وعرَّفتها على أمي وأخواتي. واتفقنا على الحضور في الوقت نفسه إلى المسبح، وكنَّا نلتقي فيه مرَّتين في الأسبوع، ونحتسي القهوة مرَّةً في الأسبوع في بيتنا الذي أصبحت غادة جزءًا منه. في البداية شعرت غادة بالحرج من زياراتها المتكرِّرة لبيتنا، لكنَّها بعد ذلك أصبحت جزءًا من عائلتنا، وباتت تأتي في أيِّ وقتٍ، سواءً كنت موجودةً أم لا، فقد باتت علاقتها مع أمِّي قويةً، وأخذت أمِّي تعاملها كواحدةٍ منَّا. لم

يخطر على بالي أن تكون غادة مسيحيَّةً، ولم يكن يهمُّني الأمر. عرفت ذلك من أوَّل زيارة لبيتهم في دمشق القديمة بالقرب من باب شرقي وكنيسة حنانيا. فقد أصرَّت غادة على أن أزورهم في البيت، «مش معقول أنا بزوركم كل مرة، وأنت ما زرتينا ولا مرة»، كما قالت غادة، فقلت: «أكيد، رح زوركم»، اتفقنا على الموعد، عندما زرتهم أوَّل مرَّةٍ، لم يكن في البيت سوى والدتها. كانت صورتا المسيح ومريم العذراء المعلَّقتين في الغرفة الكبيرة في المنزل والصليب في رقبة أمِّها، كافيةً لتدلَّ على أنَّهم عائلةٌ مسيحيَّةٌ. أمُّها امرأةٌ لطيفةٌ، في نهاية الخمسينات من عمرها، بعينين زرقاوين وبشرةٍ بيضاء ناعمةٍ، بدأت التجاعيد القليلة تغزو وجهها المحافظ على جمال كانت تملكه فيما مضى، جمالٌ لم ترثه ابنتها غادة منها. ويضفي شعرها الأبيض المشوب ببعض الأسود عليها الوقار، والذي ترفض أن تصبغه. امرأةٌ تعتزُّ بنفسها، ودودةٌ، شعرت أنَّها قريبةٌ من قلبي من أوَّل لقاءٍ بيننا. بعد هذه الزيارة، أصبح المشي من مقهى النوفرة بالقرب من الجامع الأموي، حتَّى بيتهم في آخر المدينة القديمة داخل السور بالقرب من باب شرقي طقسًا نمارسه مرّةً كلَّ أسبوعين على الأقل، ونتقصَّد المشي في الطرقات الصغيرة، متجنِّباتٍ الشارع الطويل الذي يبدأ من سوق مدحت باشا وينتهي في باب شرقي، وهو طريقٌ مستقيمٌ كنَّا نشعره مملًّا، مقارنةً بالتواء الطرق الصغيرة الواصلة بين المكانيين والموازية تقريبًا للشارع المستقيم. تعرَّفت على أبيها، الرجل الضئيل، قليل الكلام، أستاذ الرياضيات الشهير في ثانوية ابن خلدون، أفضل مدرسة في مدينة دمشق. لم أتعرَّف على جورج في تلك الفترة، بل تأخَّر تعرُّفي عليه أشهرٍ عدَّةً من تعرُّفي على غادة. وكان ذلك قرب نهاية السنة. عندما اقترب العام من نهايته سألتني غادة: «في عندك خطط لحفلة رأس السنة، عندك مكان تروحي عليه؟»، فقلت: «أبدًا، ما إليّ بالعادة أسهر حفلة رأس السنة»، قالت: «ممتاز، معناه رح تسهري معنا هذه السنة»، قلت: «موافقة، بس وين السهرة؟ ومع من؟»، قالت: «ما في مكان محدد

لهلأ، ممكن يكون ببيتنا أو بيت حدا من رفقاتنا. رح نكون مجموعة من الشباب والصبايا، طبعًا من اللي بعجبوكي»، قلت: «أنا موافقة» لم أسهر قبل ذلك احتفالًا برأس السنة ولا مرَّة، كنت أصطحب إخوتي وأخواتي في يوم عيد الميلاد، ونذهب إلى باب توما، لنشاهد الاحتفالات، وبابا نويل يوزِّع الهدايا البسيطة على الأطفال، أمَّا يوم رأس السنة فقد كان مثله مثل أيِّ يومٍ آخر في حياتي، لا يعني شيئًا.

في أوَّل سهرة رأس سنة في حياتي تعرَّفت على جورج. قرَّرت المجموعة قضاء سهرة رأس السنة في بيت غادة، وهي سهرةٌ مقتصرةٌ على الشباب والشابَّات، لأنَّ والدا غادة قرَّرا قضاء ذلك اليوم عند أحد أعمامها في احتفالٍ عائليٍّ آخر، رفض جورج وغادة الذهاب إليه لأنَّهما يرغبان بحفلٍ شبابيٍّ، فلم يمانع والداهما. وافقوا على سهر الشباب في البيت بشرط عدم التخريب. ولأنَّ الاحتفال يتطلَّب تحضيراتٍ، طلبت غادة منِّي مساعدتهما، فوافقت. وكان ذلك يعني أنَّ عليَّ الحضور باكرًا، وبالتأكيد، عليَّ إحضار غيار ملابس معي، لأنَّه من غير المعقول أن أسهر بذات الملابس التي سأعمل بها. أخبرت أمِّي أنِّي سأسهر هذا اليوم عند غادة، فوافقت. حضَّرت أغراضي عصر ذلك اليوم، ألقيت السلام على أمِّي وإخوتي وقلت لها: «كل عام وأنت بخير يا أجمل أم. كل عام وأنتم بخير يا شباب»، ردُّوا: «وأنت بألف خير.. سهرة موفقة»، قبل خروجي قالت أمي: «عايدة، استني»، أتت باتجاهي حاملةً كيسًا، سألتها: «شو هذا؟» قالت: «شوية فطائر منشان الحفلة»، ومدَّت يدها إلى جيبها وأخرجت ورقتين من فئة المئة ليرة، وكانت مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت، وأعطتني إيَّاهما. شعرت بقشعريرةٍ تجتاح جسدي، وحبٍّ يغمر قلبي تجاه أمِّي، شعرت بفرحٍ غامرٍ، ليس لأنَّها صنعت لي الفطائر وأعطتني المئتي ليرة التي لا أحتاجها، لأنَّ معي من المال ما يكفي. بل لأنَّها فكَّرت فيَّ، وكيف يمكن أن تكون حفلتي أفضل بفطائرها، وكيف سيكون وضعي أفضل بين الآخرين، وأنا أحمل من المال ما يكفي،

عانقتها بكلِّ محبَّة الدنيا، وقلت: «بحبك يما» شعرت الفرح في عينيها وأنا أغادر. عندما وصلت إلى بيت غادة. سألتني غادة وأنا أدخل البيت: «شو هذا اللي حامليته؟»، قلت لها: «هذا غيار السهرة، وشوية فطائر حب من إمي»، أمسكتني من يدي وقادتني إلى المطبخ حيث اجتمع شابان وفتاتان إضافةً لغادة. عرَّفتني غادة على الشابِّ الأوَّل، وقالت: «أخي الغليظ جورج» وأشارت إلى الشابِّ الثاني وقالت: «بشير بن عمي» وأشارت إلى الفتاة الأولى، وقالت: «جوزفين صديقة بشير وصديقتنا طبعًا» وأشارت إلى الفتاة الثانية، وقالت: «ريم ابنة عمي» والضيوف الباقون سيأتون تباعًا وأخيرًا التفتت إليَّ، وقالت: «صديقتي عائدة» قال جورج: «يا هووو.. أخيرًا تعرَّفنا على الست عائدة»، اقترب منِّي، خفَّض صوته وقال: «أهلا وسهلا. غادة صرعتنا فيك، صرنا حابِّين نتعرَّف عليك، أحنا عرفناك من قبل ما نشوفك»، قلت باستغرابٍ: «صحيح!» كانت السهرة مفاجأةً بالنسبة لي، مجموعةٌ من الأصدقاء شبَّانٍ وشاباتٍ متقاربون في الأعمار والاهتمامات، يدرسون في كليَّاتٍ مختلفةٍ، يودِّعون عامًا ويستقبلون عامًا جديدًا بحماسٍ. حضَّرنا مائدةً متواضعةً، وأضفت فطائر أمي نوعًا من السحر على المائدة، وقد أثنى الجميع على أمي وفطائرها، بين جدٍ ومزحٍ، مرَّ الوقت سريعًا، كانت المرَّة الأولى التي أتذوَّق فيها الكحول، شربتها بكثيرٍ من الحذر، لأنِّي لم أكن أقدِّر تأثيرها عليَّ. لم أشرب كميَّةً كبيرةً، أردت البقاء بكامل صحوي، ليس لأنِّي خائفةٌ، على العكس كنت مطمئنَّةً جدًّا، أردت أن أكون صاحيةً، لأنِّي أردت الاستمتاع بالسهرة الجميلة التي دعتني إليها غادة، وعرَّفتني على أشخاصٍ في غاية اللطف. في هذه السهرة، كسبت أصدقاء أكثر من أيِّ مرحلةٍ أخرى في حياتي، تفاوتت علاقتي بهم فيما بعد، كنَّا حوالي عشرين شابًّا وفتاةً، استمرَّت علاقتي مع نصفهم تقريبًا لسنواتٍ طويلةٍ لاحقةٍ. كنَّا نجتمع بين الحين والآخر في حفلة عيد ميلادٍ لأحدهم، أو حفلة تخرُّجٍ من الجامعة لصديقٍ آخر، أو أيِّ مناسبةٍ أخرى. سمعنا أغاني من المسجِّلة،

رقصنا عليها. وسمعنا غناءً وعزفًا على العود من منير الشاب الذي يدرس في المعهد العالي للموسيقى ويملك صوتًا ساحرًا، كلَّما توقَّف، نطلب جميعنا منه الاستمرار، يستجيب ويستمرُّ بصوته الشجيِّ، سحرنا بأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وصباح فخري وآخرين، وصولًا إلى منتصف الليل، فتمنَّى كلُّ واحدٍ منَّا أمنيةً، قبل أن يطفئ جورج الإضاءة ويعود إلى تشغيلها من جديدٍ. لم أعرف ماذا أتمنَّى للمستقبل في تلك اللحظات، وجدت نفسي أتمنَّى لنفسي مستقبلًا سهلًا، لا أعرف، لماذا تمنَّيت هذه الأمنية بالذات، هل كنت أتوقَّع أنَّ حياتي ستكون صعبةً في المستقبل، وهي كانت كذلك فعلًا، لذلك تمنَّيت هذه الأمنية. أم أنِّي كنت أميل إلى الحياة البسيطة، لكنَّ حياتي تعقَّدت لظروفٍ خارجةٍ عن إرادتي. في كلِّ الأحوال، في تلك الفترة من حياتي، آخر ما كنت أتوقَّعه هو أن تسير حياتي كما سارت في السنوات اللاحقة.

عندما انتهت الحفلة حوالي الساعة الثانية صباحًا، لم تدعني غادة أذهب وحدي إلى البيت في سيَّارة تكسي، قالت: «إحنا رح نوصلك على البيت»، قلت: «ما في داعي، بقدر أروح لحالي»، رفضت رفضًا قاطعًا، وقالت: «يا أما إنت بتنامي عنا، يا رح نوصلك أنا وجورج»، قلت: «زي ما بدك. بس أنا عندي اقتراح، أنُه نتمشَّى شوي قبل ما نركب التكسي. حاسة حالي بحاجة إلى شوية هوا نظيف، بعد كمية الدخان الرهيبة التي شميتها بفضل المدخنين»، قال جورج بحماس: «معك حق. أنا موافق»، لم أكن أدخِّن السجائر، وأنزعج جدًّا من رائحتها، لم أستطع الاحتجاج على التدخين، في هكذا سهرةٍ أغلب من فيها يدخِّن، ولم أرغب في أسر حريَّة أحدٍ، أو أن يكون لي تأثيرٌ سلبيٌّ على السهرة، لا سيَّما أنِّي سعيدةٌ فيها.

عندما خرجنا من البيت، كان الجوُّ باردًا، شعرت بالهواء البارد يمرُّ على وجهي بنعومةٍ، شعرت برعشةٍ أنعشتني، استنشقت كميَّةً كبيرةً من الهواء النظيف، ملأت رئتي به، وزفرته زفرةً طويلةً. لم تمطر في ذلك اليوم، كان برد كانون معتدلًا في ذلك اليوم، لذلك شعرت أنَّ المشي ساحرٌ. مشينا باتجاه

بيتنا في الشارع الطويل، لكن سرعان ما اقترحت أن نمشي في الحارات الضيِّقة، فوافقا. عندما انعطفنا في أوَّل حارةٍ، سألني جورج: «شو الأمنية اللي تمنيتيها؟»، احترت هل أقول الحقيقة، أم أغيِّر أقوالي، فكَّرت أن أقول له: «إنها سر، لأننا لما بنحكي عن أمانينا ما بتعود تتحقق»، قلت لنفسي: «ليش محتارة؟ هاي أنا، وهذا ما فكرت فيه، ما في شي بخجل»، قلت لجورج الذي يمشي إلى جانب غادة من الجهة اليمنى، بينما أنا أمشي من الجهة اليسرى، بعد أن مددت رأسي إلى الأمام ونظرت إليه: «تمنيت تكون حياتي سهلة في المستقبل»، ابتسم وقال: «أحلامك متواضعة، ما في أمنيات بالمال، ولا أمنيات بسيَّارة فاخرة، ولا أمنيات بعريس غني، ولا أمنيات بسفر بعيد؟»، سألته: «شو أمنيتك أنت؟»، قال بلغة الواثق: «أمنيتي التخرج من الجامعة، ويصير عندي مكتب هندسي مشهور، بجبلي مصاري كثير، وأشتري كل اللي بدي إياه»، قلت: «أمنية جميلة. أنا شخصيًّا، ما فكرت في يوم من الأيام تكون المصاري جزء من أمنياتي المستقبلية. أكيد المصاري مهمة، بس ما بتصلح تكون هدفي المستقبلي، أنا ما بفكر بهاي الطريقة»، قالت غادة: «بظن الأماني مختلفة بين الرجال والنسوان، الطرفين عندهم طريقتين مختلفتين بالتفكير. أنا بحس حالي أقرب لتفكير عائدة، مع أني بدرس الهندسة مثلك. أحلام النساء بسيطة، مو لأنهن مش طموحات، لا، لأنهم ببساطة بدهم حياة أكثر صدق. أمَّا الرجال فعندهم أحلام كبيرة، لأنهم بحملوا وهم إنهم رح يغيروا كل شي، بس النسوان بدهم يغيروا بس اللي لازمُه تغيير. أنا تمنيت يكون عندي أسرة بسيطة ومتفاهمة»، قال جورج: «طريقة التفكير بتيجي من التربية، ما في شي اسمُه تفكير نسائي أو رجالي، في تربية مجتمع بتربي كل واحد منَّا بطريقة مختلفة، وتحط عليه قيود مختلفة. منشان هيك أحلام النسوان على الأغلب منزلية، وأحلام الرجال خارج المنزل. هاي نتيجة تربية المجتمعات المتخلِّفة»، قلت: «طبيعي يختلف تفكير الرجال عن النسوان، مو بسبب التربية وبس، كمان بسبب

الحساسية، الحساسية وحتى التضامن مختلفين عند الرجال عنو عند النسوان. لما تكون أحلام النسوان منزلية، هذا بيعني أنها أحلام بِتهتم بالبشر، ولما تكون أحلام الرجال خارج البيت، بتكون أحلام بِتهتم بالأشياء، وهدلون طريقتين بنشوف فيهم العالم، وهو مش خلاف تفصيلي. كلنا بنحلم، بس السؤال إيش طبيعة هاي الأحلام؟»، قال جورج: «الأحلام جزء أساسي من حياة البشر، رجال ونسوان، والبشر ما ممكن يعيشوا بلا هاي الأحلام أو الأوهام سمُّوها زي ما بدكم. أحلام بتتحقق وأحلام بتتحطم وبينهم طريق حياة طويل ما بيتطابق بين تجربتين، إذا كان اللي بيخوض التجربة رجل أو مرة»، قالت غادة: «أنا ما عبقول إن الرجال والنسوان بفصل بينهما حيط صخري، أبدًا. اللي بقولُه إنهم بعيشوا بمجتمع واحد، بس بفكروا بطريقتين مختلفتين».

استمرَّ النقاش على هذه الحال، وبدل أن نمشي قليلًا ثمَّ نركب تكسي، وجدنا أنفسنا، نمشي كلَّ حارات دمشق القديمة، أحيانًا نسمع صوت رجلٍ ثملٍ يشتم، أحيانًا صوتًا آخر يغنِّي، أحيانًا صوت موسيقى صاخبةٍ راقصةٍ يخرج من بيتٍ ما في طريقنا. عندما وصلنا إلى سوق الحميدية من جهة الجامع الأمويِّ لم يكن هناك سوى أصواتنا ووقع أقدامنا على أرض السوق الحجريَّة. السوق فارغٌ تمامًا، المحلَّات مغلقةٌ، تضفي الأضواء الباهتة على السوق بقبَّته الحديديَّة مهابةً ورهبةً. للمرَّة الأولى أمشي في السوق في هذا الوقت من الليل. السوق الذي طالما عرفته مزدحمًا، لا أحد يسير فيه سوانا، اختفى الجميع من المكان، ينامون في بيوتهم ويرون أحلامًا لا تنتهي أو يشاهدون كوابيس تقلق نومهم. عندما وصلنا على مدخل السوق من الجانب الآخر. وقف ثلاثتنا، نظرنا إلى بعضنا، ضحكنا من دون أن نقول كلمةً واحدةً. قال جورج: «لازم نركب تكسي» أشار جورج إلى واحدةٍ، ركبنا من هناك، أوصلوني إلى بيتنا، وعادوا في السيَّارة ذاتها إلى بيتهم. عندما

وصلت إلى البيت كان أبي نائمًا، لم أشاهده، ولم يحدث الصدام الذي كنت خائفةً منه، لأنِّي راجعة متأخرة إلى البيت.

لم يكن جورج حبِّي الساحق من اللحظة التي رأيته فيها، ولا أظنُّ أنَّه أحبَّني من النظرة الأولى كما يقولون. نما الحبُّ بيننا ببطءٍ وبالتعوُّد على بعضنا، مع الوقت وجدت نفسي قريبةً جدًّا منه، وأصبحت أشتاق له في الأيَّام التي لا أراه فيها. وبدوره أخذ يتدبَّر أوقاته كي نلتقي أطول وقتٍ ممكنٍ، ويبدو أنَّنا فعلنا ذلك من دون أن ننتبه. ما زاد من فرص لقائنا، أنَّ كليَّة الهندسة المدنيَّة التي يدرس فيها مع غادة، قريبةٌ من كليَّة الآداب التي أدرس فيها. فعندما كانا يجدان نفسيهما يملكان وقتًا من الفراغ بين محاضراتهما، يأتيان لرؤيتي في مقصف كليَّة الآداب، حيث كنت أقضي وقتي عندما لا يكون عندي محاضرات. أو أذهب إلى كليَّتهم في طريقي إلى البيت، ألقي نظرةً داخل مقصف الوليد المقابل لكليَّة الهندسة، في حال وجدت غادة أو جورج أدخل لأجلس معهما، أو مع الموجود منهما، إذا لم يكن أحد منهم موجودًا، أتابع مسيرتي إلى البيت. في البداية حرص جورج أن يأتي برفقة غادة، ولكن بعد شهرٍ تقريبًا أصبح يأتي لوحده في حال كان لدى غادة محاضراتٍ. ما قرَّبنا من بعضنا، أنَّنا عرفنا أنَّ مزاجنا متقاربٌ، في السينما والمسرح وفي تقييم اللوحات الفنيَّة التي وجدنا أنفسنا نتابعها، حتَّى بتنا ثنائيًّا كثيرًا ما ترافقنا غادة في مهرجانات السينما والعروض المسرحيَّة والمعارض التشكيليَّة والمحاضرات عن الأدب. وتبيَّن حتَّى أنَّ مزاجنا متقاربٌ في تقييم الأدب من خلال الروايات التي كنَّا نشتريها ونقرأها بشغفٍ. اكتشفنا تعلُّقنا ببعضنا قبل اكتشافنا لمشاعر الحبِّ المتبادلة بيننا، في البداية أنكرت هذه المشاعر بيني وبين نفسي، وأقول لنفسي: «حتَّى لو فكَّرت بجورج، أعتقد من المستحيل هو يفكِّر فيني»، وأسأل نفسي: «في حال صار، شو رح يكون مصير هذا الحب؟» وعندما أفكِّر في العقبات، أصرف النظر عن الموضوع، واستمرُّ بالعلاقة على الوتيرة نفسها.

الغريب أنَّه في وقتٍ لاحقٍ قال لي، إنَّه فكَّر بالطريقة نفسها التي فكَّرت فيها. يقول لنفسه: «إذا كنت بفكِّر فيها، فمن المستحيل هي تفكِّر فيني»، ما لم نكن نجرؤ على الحديث عنه، هو أنَّ العقبات تأتي من كونه مسيحيًّا وأنا مسلمةٌ. طبعاً لم أكن أنا مسلمةً بالمعنى الدينيِّ ولا هو مسيحيٌّ بالمعنى ذاته. وُلِدَ لعائلةٍ مسيحيَّةٍ فوجد نفسه مسيحيًّا، ووُلِدتُ أنا لعائلة مسلمةٍ فوجدت نفسي مسلمةً. لم أكن أشعر بالفرق معه أو مع غادة أو مع صديقاتي المسيحيَّات. بقي هذا الوضع مسكوتًا عنه بيننا، إلى الوقت الذي وقعت فيه ابنة عمه ريم في حبِّ شابٍّ مسلمٍ، وهو زميلها في كليَّة الأدب الانكليزي التي تدرس فيها. فقد أعلنت ريم عن حبِّها، وطلبت دعمنا ورأينا. لم يكن لا جورج ولا غادة من المعارضين لهذه العلاقة، على العكس كان جورج يشجِّعها، ويقول لها: «مش كل يوم، الواحد منا بيلاقي حب حياته. إذا كنت مقتنعة إنه حب عمرك، تمسكي فيه بكل قوة»، إعلان ريم عن حبِّها لمسلمٍ فتح باب النقاش في المجموعة حول الزواج العابر للأديان. كنت أعرف، كما كان جورج يعرف، أنَّ حبَّ بنتٍ مسيحيَّةٍ لشابٍّ مسلمٍ مسألةٌ معقَّدةٌ، لكنَّها أقلُّ تعقيدًا من أن يحبَّ شابٌّ مسيحيٌّ فتاةً مسلمةً. فالشاب المسلم يستطيع أن يتزوَّج مسيحيَّةً وأن تبقى على دينها، فقانون الأحوال الشخصيَّة لا يُلزِمُ المسيحيَّة بتغيير دينها حتَّى تتزوَّج من مسلمٍ، فهي تستطيع أن تتزوَّجه وتبقى على دينها. أمَّا المسيحيُّ عندما يقع في حبِّ مسلمةٍ، فلا يستطيعان الزواج من دون أن يشهر إسلامه، من دون ذلك لا يستطيعا الزواج وفق القانون، ولا يستطيعا تسجيل هذا الزواج. صحيحٌ أنَّ وضع ريم فتح النقاش، لكنَّه لا يشبه وضعنا. ولا حتَّى يقترب منه، أمام الجميع، كنَّا أنا وريم وحبيبها سعد وبشير وجوزفين وغادة، قال جورج: «مش رح أتردَّد عن إعلان إسلامي، إذا لقيت حب حياتي عند بنت مسلمة»، وأضاف: «أنا ما شايف معنى أنه الواحد يتراجع لما يلاقي حب حياتُه عند حدا من دين آخر. بعرف ببلدان ثانية مثل أوروبا، بقدر

المسيحي يتجوَّز مسلمة من دون ما يغيِّر دينُه. بس احنا عايشين هون، واحنا ما حطينا هاي القوانين، ولازم ما نتركها تتحكم فينا. شو معنى أنُه أنا مسلم أو مسيحي، وأنا بجميع الحالات ما إلي علاقة بالدين. وزي ما بقول المثل، أسلم بطرس لا كسب الإسلام ولا خسر المسيح»، كنت أعرف أنَّ هذه المرافعة مقدَّمةٌ من أجلي، رغم أنَّها ظهرت كأنَّها محاولةٌ لإقناع ريم بالحفاظ على حبِّها. ريم التي كانت متحمِّسةً في البداية لم تملك الجرأة على الذهاب بعيدًا وراء حبِّها، فقد بدأت تسمع كلامًا آخر في أوساط أقاربها الآخرين وكلامًا مهينًا من البعض. وجدت نفسها ممزَّقةً بين حبِّها لعائلتها وحبِّها لسعد. خافت من المجهول فخسرت حبَّها. وتزوَّجت فيما بعد من مسيحيٍّ وتحوَّلت إلى مُدرِّسة لغةٍ انكليزيَّةٍ تعيسةٍ، تُؤدِّي الأشياء بحكم الواجب، من طهي الطعام حتَّى الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، بعد ما كانت فتاة توزِّع فرحًا على العالم كلِّه خلال دراستها الجامعيَّة.

التقطتُ رسالة جورج، لقد بات الأمر واضحًا، فهو يقول كلامًا نهائيًّا، إنَّه مستعدٌّ للذهاب إلى نهاية الطريق وراء حبِّه. بتُّ أنتظر أن يعلن حبَّه الذي سيذهب وراءه إلى نهاية الطريق. في تلك اللحظة لم أعرف هل أنا خائفةٌ من الحبِّ، أم من التجربة مع جورج، أو من كليهما؟ بدأت أخاف من فقده، نمى شعور الحبِّ داخلي ببطءٍ، لكن بثباتٍ وقوَّةٍ. وأخذت الأسئلة تتكاثر، إذا ذهبنا إلى نهاية الطريق كما وعد جورج، هل تكون الحياة الواقعيَّة، مثل الكلام الجميل في الجلسات الحميميَّة؟ كنت أعرف أنَّ الكلمات شيءٌ والواقع شيءٌ آخر، لكن لا شيء يمنع تطابق الكلمات مع الواقع إذا أراد البشر. منذ تلك الجلسة أدركت أنِّي سأذهب باتجاه تجربةٍ مختلفةٍ، تجربةٌ لم أخترها، تجربةٌ وجدت نفسي فيها، وسأذهب فيها إلى النهاية مهما كلَّفت من ثمنٍ، انتظرت أن يعلن جورج حبَّه لي، لتنتقل العلاقة لمستوًى أخر. لم يتأخَّر، بعد أيَّامٍ وبمناسبة عيد ميلادي، قرَّرا هو وغادة دعوتي إلى بيتهم. في ذلك اليوم كنَّا معًا ظهرًا، مشينا معًا من كليَّته

إلى التكيَّة السليمانيَّة في الحلبوني. هناك أمام محلَّات الذهب طلب منِّي أن أنتقي خاتمًا هديةً. قلت وأنا فرحةٌ ومحرجةٌ: «هذا كثير!» قال: «ما في شيء كثير عليك في هاي الدنيا» وعندما شرعت في النظر إلى الخواتم. قال: «لا، مش خاتم، محبس، أحبسك فيه للأبد»، نظرت إليه مدهوشةً قال: «ليش أنت مستغربة، أنا مو بس بحبك، أنا بعبدك»، اقترب منِّي وأخذ قبلةً خاطفةً. التفت إلى الرجل صاحب المحل وقال: «بعد أذنك طبعاً»، أصبحت كالمسحورة، اشترينا محابس، ركع على ركبتيه في المحل وقال بلغةٍ خطابيَّةٍ: «هل توافقين على الزواج من هذا الرجل البائس الذي هو أنا. وهذا الرجل الطيب شاهد على هذا الزواج»، لم أعرف ماذا أقول؟ رفعته عن الأرض، وقف قبالتي، دفنت رأسي في صدره وشرعت في البكاء. قضيت ذلك اليوم وأنا محمومةٌ غير مصدِّقةٍ ما يجري، وكانت الحفلة مناسبةً لأن نرتدي الخواتم، أمام دهشة الجميع على السرعة التي سارت فيها الأمور. طبعًا، ارتداء الخواتم هو إعلانٌ للعلاقة بين الأصدقاء وليس لأهل جورج أو لأهلي. عددنا أنَّ الموضوع يخصُّنا وحدنا، وهذا خيارنا، وسنتعامل مع تفاصيل التعقيدات الاجتماعيَّة فيما بعد. كنت سعيدةً وخائفةً، سعيدةٌ لأنِّي في أعماقي أرغب بشدَّةٍ في هذه العلاقة، وأعرف كم بتُّ متعلِّقةً بجورج، شيءٌ يتجاوز الحبَّ، من دون أن يمرَّ به، أردت هذه العلاقة بقوَّةٍ، لكن لم أكن قادرةً أن أعلنها من جانبي، لذلك كنت أنفيها دائمًا وأعدُّها غير معقولةٍ على الأقل من طرف جورج. وخائفةً لأنِّي أعرف أنَّ هذه العلاقة ستكون صعبةً وغالية الثمن، ولا أعرف فيما إذا كنَّا أنا وجورج قادرين فعلًا على مواجهة كلِّ الصعوبات والأزمات التي يمكن أن تواجهها هذه العلاقة. رغم ذلك، لم أتوقَّف عن التفكير، وجدت نفسي في خضمِّ علاقةٍ صاخبةٍ وجميلةٍ وخطرةٍ، أقول لنفسي: «فلتكن النتيجة ما تكون، هاي حياتي ورح أعيشها زي ما بدي».

انقضى العام، وتخرَّجت في كليَّة التاريخ، كما تخرَّج جورج في كليَّة الهندسة، والتحق بعمله في وزارة الإسكَّان حيث كان مجبرًا على العمل خمس سنوات في مؤسَّسات الدولة، وهي كانت مفروضةً على المهندسين المتخرِّجين حديثًا، ولأنَّه وحيد أهله فهو معفيٌّ من الخدمة العسكريَّة الإلزاميَّة. كما التحقت أنا للعمل في مدارس دمشق مُدرَّسةً لمادة التاريخ وفق نظام الساعات، لذلك عملت في الكثير من المدارس خلال السنوات الأربع اللاحقة، سواءً كانت مدارس إناثٍ أو ذكورٍ. جعلتني قريبةً من هؤلاء الشباب، الذين كنت أحبُّ العمل معهم، وكانوا يحبُّون درسي، لأنِّي -وعلى عكس مدرِّسي التاريخ التقليديِّين- حوَّلت مادة التاريخ من تعداداتٍ للأسباب والنتائج إلى حكاياتٍ، وأدركت أنَّ البشر من كلِّ الأعمار كبارًا وصغارًا يحبُّون الحكايات أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، عندما نقصُّ حكايةً، ينصت الجميع للحكاية التي نرويها، وعندما تكون الحكاية مملَّةً، لا يحكمون عليها فورًا، ينتظرون الممتع فيها، قبل أن يصابوا بالإحباط دفعةً واحدةً، عندما نقول لهم أنَّ الحكاية انتهت، لكنَّهم لم يستمتعوا بها، لأنَّها لم تكن قادرةً على حمل الإثارة المتوقَّعة منها. استمتع بعملي، عندما أجد الطلاب أو الطالبات منتبهين ومنتبهاتٍ وينتظرون نهاية الحكاية. لذلك جمعت الكثير من حكايات التاريخ المثيرة، التي كنت أستخدمها في شدِّ انتباههم، عندما أشعر أنَّ الملل أصابهم. ففي التاريخ حكاياتٌ لا تنتهي، إنَّه كنزٌ حقيقيٌّ للقصص.

بعد انتهاء دراستنا والبدء في العمل، تغيَّر روتين حياتنا، انتقلنا من طلَّاب لمنتجين، زادت قدراتنا الماليَّة كثيرًا عنها عندما كنَّا طلابًا. واستمرَّت العلاقة بجماليَّاتها، مع بعض الخلافات العادية بين العاشقين التي سرعان ما تنحل. مع مضي الوقت أصبح السؤال، ماذا بعد؟ هل سنبقى في هكذا علاقة إلى الأبد، أم سنجد الطريقة التي تجعلنا قادرين على الزواج والعيش في بيتٍ واحدٍ؟ خيَّم هذا السؤال علينا، وحاولنا مناقشته، من دون فائدةٍ،

لأنَّه من المعروف ما المطلوب حتَّى نستطيع العيش معًا، ولكني لم أكن قادرةً على طلبه من جورج. هذه مسألةٌ يجب أن يُقدِمَ وحده عليها، وإذا طلبتها منه تصبح شرطًا تعجيزيًّا منِّي. تركت الأمور تسير، لقناعتي أنَّ الزمن قادرٌ على حلِّ أكبر المشكلات. حدث أمرٌ غير متوقَّعٍ انعطف بالعلاقة انعطافًا حادًّا. لا أعرف كيف حدثت الأمور بالضبط، ما حدث أنَّ أبي عرف بعلاقتي بجورج عن طريق المصادفة، من خلال حوارٍ بين إخوتي سائدة ورائدة عن علاقتي بجورج المسيحيِّ، وفهم من كلامهما، أنَّنا متزوِّجان بالسرِّ. جُنَّ جنونه، ضرب أمِّي وصرخ فيها: «هذه آخر تربيتك. بنتي بتتزوج مسيحي ومن ورائي. أنا رح أتصرَّف. هاي البنت لازم تموت اليوم. رح نقتلها اليوم، ونغسل شرفنا»، عندما عدت إلى البيت وجدت وجه أمِّي متورِّمًا سألتها: «شو مالك؟ مين عمل فيكي هيك؟»، قالت: «مش مهم، المهم إنت تهربي، ما في وقت رح يقتلوكي»، سألت: «مين اللي بدو يقتلني وليش؟»، قالت: «أبوك عرف أنت وجورج تجوَّزتوا»، قلت: «أمي، بس إحنا ما تجوزنا»، قالت: «مش مهم، هذا ما رح يغيِّر شي، إذا أبوكي قال لجدِّك وعمامك إنك تجوزتي مسيحي بالسر، ما حدا رح يسأل إذا كان هذا الحكي صحيح، رح يصدقوا كلام أبوكي ويتصرَّفوا»، قلت: «أنا ما رح أهرب، ما عملت شي لأهرب منُه»، قالت: «قبل شوي كان جدك وعمك خليل هون، وهما بدوروا عليكي، ما بدي كثرة كلام، اهربي، ما بدي موت بحسرتك»، كانت أمِّي خائفةً جدًّا، وبدت واثقةً ممَّا تقول، وأنَّ حياتي في خطرٍ حقيقيٍّ، بصرف النظر عمَّا حدث في الواقع. انتقل خوفها إليَّ، شعرت فعلًا أنَّ حياتي مهدَّدةٌ. لا سيَّما عندما أخذت تضرب وجهها وتقول: «ما بدي أخسرك، ما بدي يقتلوكي وأموت بحسرتك، خلص روحي، اهربي»، وانهارت على الأرض وهي تبكي. احتضنتها وبكيت معها. دفعتني وقالت: «اهربي» نفَّذت رغبتها، وخرجت من البيت.

لم يكن أمامي سوى جورج، الذي رويت له ما حدث، قال: «مفهوم، خلينا نتجوز»، قلت: «جورج، مش وقت مزحك»، قال: «أنا ما بمزح، رح نتجوَّز بكرة، بعد موافقتك طبعًا. اليوم بتبقي عند ريم بنت عمِّي، وبكرة بنتجوز»، قلت: «ما بدي إياك تتسرع»، ابتسم ابتسامةً ساخرةً، وقال: «أتسرع! بالعكس تأخَّرت كثير، كان لازم آخذ هذا القرار من زمان، وما أستنى لهذا اليوم»، سارت الأمور بسرعةٍ قبل أن أستوعبها. أوصلني جورج عند ريم. وبعد ذلك كما روى لي، عاد إلى البيت، ليخبر أمَّه وأباه قال لهما: «قرَّرنا أنا وعائدة نتجوَّز. بعرف حتَّى أتجوزها، لازم صير مسلم. وهذا ما بيعني شي بالنسبة إلي، أنا ما كنت مسيحي ولا متديِّن، وما رح صير مسلم ولا متديِّن. هاي المرأة حب عمري وما رح أتخلَّى عنها، مش لأنها اليوم مهدَّدة بالقتل، منشان أنا بحبها، من واجبي ومن حقَّها عليّ أحميها وأكون جنبها، وأنا بحياتي ما كنت نذل، ولا رح أكون، وأتركها بهذا الوضع لحالها. وأنتو إمِّي وأبي اللي بحبهم، رح حبهم طول عمري. بس ما كنت رح أقدر أعمل هيك من دون ما خبركم»، ذُهِلَ والدا جورج من أقواله، ولم يجدا ما يقولانه، ارتبط لساناهما كما قال لي. كلُّ ما استطاعت أمُّه الخائفة أن تقوله: «أي مصيبة بترمي حالك فيها؟!»، لم يعرف أبوه ما الذي يفعله، هل يقف في وجه ابنه وخياراته، ويحاول حمايته من خيارٍ خطيرٍ، قد يودي بحياته، أم يتركه يختار حياته، فهو الذي سيعيشها. حيرته منعته من الكلام أو اتخاذ موقفٍ في ذلك الوقت. لم يرغب في التأثير على قرار ابنه كما قال له فيما بعد. إذا واصل خياره سيقف معه حتَّى النهاية، وإذا تراجع عن خياره، سيقف معه أيضًا، لكن لن يدفعه بأيٍّ من هذين الخيارين. أمه كامرأةٍ مسيحيَّةٍ عاديَّةٍ، كانت خائفةً على ابنها الوحيد من القتل، لأنَّها سمعت الكثير من القصص عن القتل لمسيحيِّين ليس لأنَّهم تزوَّجوا مسلماتٍ، بل لمجرَّد الشكِّ في أنَّهم أقاموا علاقةً مع مسلماتٍ. قصصٌ بعضها

حقيقيٌّ وبعضها من نسج الخيال الدينيِّ المسيحيِّ. لذلك كانت مرعوبةً من الفكرة.

نفَّذ جورج وعده وتزوَّجنا بعد إشهار إسلامه في المحكمة، وبعد أيَّامٍ وجدنا شقَّةً صغيرةً في جرمانا، انتقلنا إليها. بعد أن أقدم جورج على خطوة الزواج، خرج والده عن صمته وكما روى لي جورج قال له: «عائدة تركت كل شيء منشانك، أهلها وعالمها، وبعرف شو بيعني هذا للمرة، اشترتك مقابل كل شيء، ما عاد إلها حدا من عالمها السابق. بتمنى تكون فاهم ومقدر للي صار، ولازم تبقى مقدر هذا طول عمرك. بتمنى ما تخذلها في يوم من الأيام»، لقد كانت علاقتي بوالد جورج متينةً، ودائمًا سعى للاطمئنان عليَّ، والكثير من المرَّات تناقشنا في قضايا عدَّ أنَّ من واجبه أن يناقشها معي ليلفت انتباهي، فلا يقدِّم لي املاءاتٍ أو أوامر. كان رجلًا يتمتَّع بحضورٍ لطيفٍ، وعاملني كما يعامل ابنته غادة.

رغم اتخاذنا أنا وجورج احتياطاتنا من أجل تجنُّب أيَّ خطرٍ قد يداهمنا، إلَّا أنِّي لم أعرف حتَّى اليوم، إذا كانت حياتي في ذلك الوقت مهدَّدةً جديًّا، وفي خطرٍ حقيقيٍّ أم هي مجرَّد مخاوف أمِّي المبالغ فيها، وأنَّ القصص التي تُروَى عن هكذا أحداث، هي التي دفعتها أن تطلب منِّي الهرب من البيت لحمايتي من لحظةٍ حمقاء. حتَّى لو كان إسلام جورج يحلُّ جزءًا من مشكلتي مع أهلي، إلَّا أنِّي في النهاية لم أتزوَّج مسيحيًّا فحسب، بل هناك ذنبٌ كبيرٌ لا يمكن غفرانه في مجتمعنا ويستدعي القتل أيضًا، هو أنِّي تزوَّجت من دون موافقة أهلي، أي أنِّي: «خطفت»، مثل ما يصف الناس عندنا هذه الحالة، وهذا ما جعل الزواج الشرعيَّ لوحده لا يحلُّ مشكلتي مع أهلي. بعد عامٍ قابلت أمِّي، التي طلبت أن تطمئن عليَّ، فنفَّذت رغبتها فورًا، استمرَّ قلقها، لكن ليس كما السابق. وبعد عامين من الحادثة بدأت تزورني هي وأخواتي البنات على نحوٍ منتظمٍ، وهذه الزيارات أعادت لي الروح، فخلال الفترة السابقة شعرت بوحدةٍ قاتلةٍ، لم يكن الحبُّ

وحده كافٍ ليغطِّي حياتي ولا علاقاتي الجديدة، كنت بحاجةٍ لأهلي، لأمِّي تحديدًا، وهذا ما أعاد لي توازني، وعرفت أنِّي لست وحيدةً. والسبب الرئيس في المصالحة، هو ولادتي لابنتي جورجينا التي أغنت عالمي بمجيئها للحياة. وبذلك بدأت استعيد حياتي الطبيعيَّة وتراجعت مخاوفي، وعادت ثقتي بنفسي كالسابق. صحيحٌ أنِّي لم أصالح كلَّ أهلي، وهذا لم يكن مرغوبًا بالنسبة لي، لأنَّ هذه العلاقات أخذت تنقطع قبل إقدامي على الزواج من جورج. ويبدو أنَّني لست وحدي من فعل ذلك، فالعائلة التي تضخَّمت كثيرًا بالأولاد وبأولاد الأولاد أصبح من الطبيعيِّ أن تتفكَّك إلى عائلاتٍ صغيرةٍ، كلُّ واحدةٍ مهتمَّةٌ بشؤونها المتزايدة وبالحياة التي تزداد صعوبةً يومًا بعد يومٍ. وبعد سنواتٍ عندما سألت رائدة عن الموضوع، قالت: «ما بعرف، ما في حدا ببيت جدِّي انشغل بشو عملتي، صحيح زواجك بهاي الطريقة ما ممكن يقبلوه، أنت عارفة ما حدا بيقبل زواج بنتُه بهاي الطريقة. بس ما بظن حدا من عمامك فكَّر عن جد يقتلك. خوف إمِّي مفهوم، أنت عارفة هي إم، والإم كيف بتفكِّر، هذا خلاها تبالغ بالموضوع. كل واحد من عمامي مشغول بحالُه وعيلتُه ومشاكلُه، ما في حدا مشغول فيكي. يمكن أبوي قدر يخوِّف إمي، وإجت زيارة جدِّي لتزيد الطين بلة. بس ما بظن حدا صدَّق أبوي، لأنُه ما حدا بصدقُه من زمان. وأنت عارفة لو بدهم يلاقوكي، ما كان صعب عليهم، منشان هيك أظن بيت جدي ما حمَّلوا الموضوع على محمل الجد»، كنت أوَّل مرَّةٍ أفتح هذا الموضوع مع أحدٍ من العائلة، وكنت مدهوشة ممَّا تقول رائدة. قالت كلماتها بالكثير من الثقة، وكانت هي أقربنا إلى بيت جدِّي وأعمامي، وأكثرنا معرفةً بهم. هل هي على حق؟ وهل المخاوف والرعب الذي عشته أنا وأمِّي وجورج بلا أساسٍ؟ إنَّها سخرية القدر إذا صحَّ ذلك، أن تعتقد أنَّك تخوض معركةً كبيرةً وخطيرةً مع آخرين، هم أنفسهم لا يعرفون شيئًا عن المعركة التي تدَّعيها.

مع الوقت تصالحت مع الجميع، وأقصد بالجميع من يهمُّني أمرهم من العائلة ومن يهتمُّون لأمري، الاثنان اللذان لم أستطع مصالحتهم، هم أبي وخالي، وهما من اتخذا موقفًا حادًّا ممَّا أقدمت عليه. لكنَّ الحياة سارت بخطوطٍ متعرِّجةٍ، والأشياء التي كنت واثقةً منها في شبابي، أخذت ثقتي بها تهتزُّ مع التقدُّم بالعمر، والكثير من الأشياء التي اقتنعت بها في زمنٍ ما، تغيَّرت قناعتي فيما بعد، وكأنَّ الحياة تهذِّبنا وتقمع جموحنا. طبعًا، لم أندم على زواجي من جورج، ولم تكن هذه التجربة سيِّئةً، لكنَّها لم تكن مبهرةً كما توقَّعتها عندما تزوَّجنا. الزواج عيشٌ مشتركٌ، يقع في الروتين مع الوقت طال أو قصر، ويموت الحبُّ ويبقى ذكرى بعيدةً، تُذكِّر بأنَّ كلَّ هذا حدث بسبب ذلك الحبِّ الذي كان في الماضي، وأحيانًا أشعر أنَّه ماضٍ سحيقٌ. سارت الحياة على نحوٍ اعتياديٍّ، أنهى جورج خدمة الدولة، وافتتح مكتبه الهندسيَّ الخاصَّ، وتحسَّنت أوضاعنا الماليَّة خلال السنوات اللاحقة. وسارت أخته غادة على الدرب نفسه، وبعد أن أنهت خدمتها للدولة، انضمت للعمل معه في المكتب الهندسيِّ. وبقيت أنا في عملي، وطلب منِّي جورج أن أترك العمل بالتدريس بعد تحسُّن أوضاعنا الماليَّة ولم نعد بحاجةٍ إلى راتبي. رفضت بشدَّةٍ، لأنِّي لا أشتغل من أجل المال على أهميَّته، ولم أرَ نفسي يومًا، ربَّة منزلٍ ينصبُّ كلُّ اهتمامها في الطبخ والنفخ وتنظيف البيت، وشرب القهوة عند الجارات العاطلات عن العمل.

تغيَّر كلُّ شيءٍ مع الزمن، أنا وجورج وأهله وأهلي والبلد، التغيُّرات البطيئة التي لا ننتبه لها في حينها، تغيِّر حياتنا من دون أن ننتبه، فجأةً ننتبه إلى أنَّنا تغيَّرنا، وأنَّ الحياة ليست كما تصوَّرنا. عندما تزوَّجت جورج، لم يكن يظهر من مسيحيَّة عائلته، سوى أيقونةٌ معلَّقةٌ على الجدار في صدر بيت أهله، والصليب الذي تعلِّقه أمُّه في رقبتها، وذهاب أمِّه وأبيه إلى الكنيسة يوم الأحد. أمَّا جورج وغادة، فلم يكونا يذهبان إلى الكنيسة إلَّا عندما يتزوَّج أحد أصدقائهما. يذهبان إلى الكنيسة لحضور حفل تكليل

الزوجين وغالبًا ما أرافقهما بوصفي من المدعوين. أمَّا في غير هذه الأوقات فلا يخطر لهما الذهاب إلى هناك. وعندما كنَّا نذهب لزيارة بيت أهل جورج، لم يكن هناك ما يشير إلى أنَّ المنازل في الجوار، منازل مسلمين أو مسيحيِّين، باستثناء الكنائس التي كانت تشير إلى نفسها، ببعض الصلبان، التي تزيِّنها من الخارج مع أجراس الكنيسة التي تدقُّ أيَّام الأحد. وعلى الجانب الآخر، عندما كنت في المدرسة الإعداديَّة في المخيَّم، لم تكن أيٌّ من البنات في المدرسة تضع حجابًا على رأسها، وتبدأ البنات في وضع الحجاب، عندما يبدأن دراستهن الثانويَّة. أمَّا عندما انتقلنا إلى وسط البلد، كان هناك انقسامٌ بين المدارس، هناك المدارس في المناطق المحافظة، مثل الميدان والشاغور، التي كانت طالباتها متحجِّباتٍ، ومدراس وسط البلد، التي أغلب طالباتها بلا حجابٍ. في السنة الأولى التي بدأت فيها التدريس، قرَّرت وزارة التربية والتعليم منع الطالبات من ارتداء الحجاب في المدارس، لم أفهم لماذا على الوزارة أن تتدخَّل في هذا الموضوع، وعاد إلى ذاكرتي ذلك اليوم الأسود، عندما اقتلعت المظليَّات بحماية جنود سرايا الدفاع حجاب النساء في شوارع دمشق قبل أقلَّ من عامين، وتركن النساء محطَّماتٍ منتهكات في شوارع دمشق. مع قرار المنع أخذت تزيد نسبة النساء والطالبات المحجَّبات، صحيحٌ أنَّ الحجاب كان ممنوعًا داخل المدارس، لكنَّه لم يكن كذلك خارجها، وباتت الطالبات اللواتي يضعن على رؤوسهن الحجاب عندما يخرجن من المدرسة في ازدياد. ومع الوقت تراخى تطبيق منع الحجاب في المدارس، كنت أراقب تلك التغيُّرات، خلال السنوات الطويلة التي عملت فيها بالتدريس. ازدادت نسبة المحجَّبات في المدارس والشوارع، حتَّى غدون في السنوات الأخيرة، أغلبيَّةً ساحقةً يضغطن على غير المحجَّبات من أجل ارتداء الحجاب، سواءً عن طريق الهداية إلى الإسلام من جديدٍ، أو عن طريق التهديد بعقابٍ شديدٍ في الآخرة أو إهانتهنَّ لأنهنَّ لسنَ ملتزماتٍ بما يفرضه الشرع الإسلاميُّ، وهذه الحملة كانت شديدةً في التسعينيَّات، ويبدو

أنَّها لم تكن بعيدةً عن تحوُّلات السلطة بعد أن تغيَّر العالم في بداية التسعينيَّات مع انهيار الدول الاشتراكيَّة. ولم يكن هذا التحوُّل بين المسلمين فحسب، بل بين كلِّ الطوائف الدينية، وفي المناطق المسيحيَّة ظهرت الرموز الدينيَّة على الأبواب. فالبيوت التي لم يكن عليها أيُّ رمزٍ دينيٍّ حال بيت أهل جورج، باتت تعلِّق صلباناً للدلالة على مسيحيَّتها، وبعد ذلك تقدَّمت خطوةً أخرى، وأخذت العائلات المسيحيَّة تعلِّق على بيوتها مجسَّماتٍ لمريم العذراء أو المسيح أو كليهما. وأخذت تظهر على السيَّارات هذه الرموز، آياتٌ قرآنيَّةٌ للسنَّة، وسمكةٌ على سيَّارات المسيحيِّين، وسيفٌ ذو نصلين على سيَّارات العلويِّين وغيرها من الرموز التي تدلُّ على الهوية الطائفيَّة لصاحب السيَّارة. أثَّرت هذه في عائلتي كما أثَّرت في الآخرين. فقد كبرت ابنتي التي ولدت في منتصف الثمانينيَّات في هذه الأجواء، وفي عائلةٍ منقسمةٍ إلى دينين، وأخذ كلُّ دينٍ يشدُّها إليه، أنا وأبوها غير المتدينين لم ننتبه إلى صراعها الداخلي بشأن هويتها الدينيَّة، ولا بالمحيطين المتقاطعين، الذين يحاول كلُّ واحدٍ منهما شدَّها إلى جهته. ونحن الذين حاولنا أن نجعلها حياديَّةً تجاه الدين، لم ننجح، لأنَّنا ببساطةٍ لم يكن تأثيرنا عليها الأقوى كما ظننَّا، وجاء تأثير المحيط أقوى، وجدت نفسها تعيش في بيئةٍ مسيحيَّةٍ، فاحتقرت البيئة الإسلاميَّة، على أساس أنَّها بيئةٌ متخلِّفةٌ، وأنَّ المسيحيِّين متحضِّرون. لم أكن أُعرِّف نفسي كمسلمةٍ، ولم يكن جورج يُعرِّف نفسه كمسيحيٍّ قبل زواجنا، ولم يعرِّف نفسه كمسيحيٍّ أو كمسلمٍ بعد زواجنا، وجاء إعلان إسلامه في المحكمة شكليًّا، حتَّى نستطيع الزواج. وكانت صداقاتنا ومحيطنا، هو محيط صداقاتٍ متنوِّعٍ، مسيحيُّون، مسلمون، دروز، علويُّون، إسماعيليُّون... لم نسأل أحدًا من هؤلاء عن هويته الطائفيَّة، كان هناك سوريُّون وفلسطينيُّون، يُعرِّفون أنفسهم كأفرادٍ في مجتمع، وكأسماءٍ شخصيَّة. لا أعرف ما المراحل الانعطافيَّة التي جعلت ابنتي جورجينا تعرِّف نفسها كمسيحيَّةٍ، وترتدي الصليب، وتنظر إلى الآخرين بوصفهم أناسًا أقلَّ

قيمةً منها ومن طائفتها. كنت حزينةً لهذه النظرة التي تُصغِّر قيمة الناس، وتراهم أقلَّ شأنًا، لأنَّهم لا ينتمون إلى الجماعة ذاتها التي ننتمي لها. كبرت البنت ولم أنتبه أيَّ هويةٍ خطرةٍ حملت. عندما كبرت، خضت معها نقاشاتٍ صاخبةً، من دون أن أنجح في زحزحتها، ومن دون أن أستطيع إقناعها، بأنَّ الناس مختلفين في البلد وداخل الطوائف نفسها، المهم أن يرى الواحد منَّا الآخرين مساوين له. أبدًا لم تقبل هذا الكلام، وعدَّت أنَّ هناك طوائف حضاريَّةٌ، مثل المسيحيِّين الذين عدَّت نفسها تنتمي إليهم، وهناك طوائف متخلِّفةٌ مثل المسلمين. لم تكن تعرف أنَّها تعبِّر بهذا الكلام عن تخلُّفٍ وعنصريَّةٍ. ولم أستطع إقناعها أنَّ التخلُّف عابرٌ للطوائف، المسلمين والمسيحيِّين والدروز والعلويِّين... والتخلُّف ليس مشكلةً طائفةً واحدةً، إنَّه مشكلةٌ بلدٍ بأكمله، لا أحد -أيًّا كانت الجهة التي ينتمي إليها- يستطيع أن يُخرج نفسه من هذا المجتمع ومن هذا البلد ويدَّعي أنَّه مختلفٌ، وقلت لها: «بحكم تجربتي، كنت شاهدةً على التخلُّف بين المسلمين وبين المسيحيِّين. وأنا شايفة المشكلة، مشكلة مجتمع مش مشكلة أفراد»، كل هذا النقاش معها لم يكن مجديًا، بقيت على قناعاتها من دون أن تتزحزح. كنت أشعر أنِّي لو لم أكن أمَّها، لصنَّفتني بين المتخلِّفين. ولا أعرف إذا كانت بينها وبين نفسها تضعني في تلك الخانة، أم تُخرجني وحدي من هذه الخانة، بوصفي على صلةٍ بأجواءٍ مسيحيَّة منحتني التحضُّر، وأنا القادمة من فئة المتخلِّفين؟

غيَّرتني إصابتي بسرطان الأمعاء تمامًا، تحت تهديد الموت الذي اقترب منِّي فجأةً، من دون أن أنتبه، أصبحت امرأةً أخرى. في الحادية والخمسين من عمري، جاءني المرض الذي لا يرغب أحدٌ في تسميته. شخَّصه الأطباء في مرحلةٍ مبكرةٍ، وقبل أن ينتشر على نطاقٍ واسعٍ. عندما عرفت أنِّي مريضةٌ بالسرطان، أصبت بالرعب، لم أصبح عجوزًا بعد، لماذا يأتي هذا المرض الخبيث ليهدِّدني بالموت الآن، ما زال عندي الكثير لأفعله. بعد التصوير

والفحوصات وتحليل الخزعات، حُدِّدَ القسم المصاب من الأمعاء وتقرَّر استئصالها. أجريت العمليَّة، والتشخيص اللاحق للعمليَّة قال كان الاستئصال تامًّا، لكنَّ هذا الاستئصال التامَّ، لم يعدني شخصًا عاديًا، فتحوَّلت إلى مريضة سرطان، وعليَّ القيام بالكثير من الأشياء، ليس أوَّلها الخضوع لجلسات علاجٍ كيماوي، وهي من أقسى ما واجهت في حياتي. إنَّه علاج الموت المتكرِّر، والذي لا مهرب منه. وبعد أن انتهت كلُّ العلاجات، لم أعد كما كنت، هناك شيءٌ داخلي تغيَّر بتحوُّلي إلى مريضة سرطان، ليست النظرة إلى الموت هي ما تغيِّر، بل النظرة إلى الحياة، منحني تهديد الموت نظرةً جديدةً إلى الحياة، ما كان يمكنني الوصول إليها لو بقيت صحَّتي جيِّدةً، لأنَّ الصحَّة الجيِّدة تعطي الوهم بالخلود، نعدُّ أنَّ الموت سيصيب غيرنا، ولكنَّه لن يصيبنا. في أحاديثنا، نقول: «كلنا على هذا الطريق»، لكن لا أحد يصدِّق أنَّه فعلًا يسير عليه، لأنَّنا نعتقد أنَّنا خالدون. لم يقصِّر أحدٌ معي في أثناء مرضي، لا جورج ولا أهله ولا أهلي، الكلُّ وقف معي في محنتي، وهذا ما ساعدني على تحمُّل ما أنا فيه. الوحيد الذي لم يأتِ لزيارتي هو أبي. خلال السنوات الماضية من تجربتي وقبل المرض، لم أعد تلك الفتاة المتمردة، التي تتحدَّى كلَّ شيءٍ ولا تأبه لشيءٍ أو لأحدٍ. مع الوقت أصبحت أكثر حساسيَّةً، وبدأت أجد للناس التبريرات، فالبشر ليسوا ملائكةً، وبدأت أتسامح مع الذين ارتكبوا الأخطاء بحقِّي، لأنَّنا ببساطةٍ، كلُّنا نخطئ، وبالتالي نخطئ بحقِّ بعضنا البعض، وحلُّ الأخطاء هو الاعتذار أو التسامح. لأنَّ الحياة لا تحتمل الاحتفاظ بخلافاتٍ تافهةٍ عشرات السنين وجعلها تتحكَّم في حياتنا، لذلك سامحت أبي وكلَّ من أساء إليَّ يومًا قبل أن أصاب بالسرطان. وجاء مرض السرطان ليعلِّمني التسامح أكثر، ولأعرف أنَّنا أشخاصٌ مهدَّدون بالموت دائمًا، حتَّى عندما نكون في أفضل صحَّتنا، هذا لا يعطينا أيَّ ضمانةٍ ضدَّ الموت، الذي يمكن أن يأخذنا في حادث سيرٍ. كنت سعيدةً بأن استطاع أبي الاتصال بي للاطمئنان على صحَّتي. لم يأتِ لزيارتي، والاتصال الهاتفيُّ أفضل من لا شيء. كنت

أعرف أنَّه اتصل بإلحاحٍ من عمَّتي وداد، التي طلبت منه أن يزورني، لكنَّه لم يقبل، فاقترحت عليه الاتصال للاطمئنان عليَّ على الأقل، وهذا ما كان. زيارة عمَّتي وداد صديقة الطفولة، واحدةٌ من الأشياء السعيدة التي حدثت لي في السنوات الأخيرة، التي افتقدت فيها الفرح. فهي عادت لتستقرَّ في دمشق بعد عامٍ من إصابتي بالسرطان، لكنَّها ما لبثت أن غادرت هي وبناتها المدينة، بعد الاحتجاجات التي شهدتها البلد وحوَّلتها إلى مكانٍ خطرٍ، ما حملها على الهرب منها. لم أعرف أنَّ العمر سيمتدُّ بي لسنواتٍ، لتصاب هي أيضًا بالسرطان، ونقضي أوقاتًا طويلةً على الهاتف، نحكي عن كلِّ شيءٍ، مريضتان بذات المرض، صديقتا طفولةٍ، افترقنا وقتًا طويلًا، وعاد المرض اللعين ليجمعنا رغم المسافات الشاسعة، نتذكَّر طفولتنا، نفرح، نتذكَّر متاعبنا، نبكي، نتذكَّر السخرية، نضحك. تقاطعت حياتنا بمشكلاتها وأفراحها وأتراحها، حتَّى عندما لم نكن نلتقي، تجربتان، كلُّ واحدةٍ في قارَّةٍ يجمعهما الكثير من المشتركات، نتعكَّز على بعضنا، هي في أمريكا وأنا في دمشق المدمَّرة عمرانًا وبشرًا.

بعد إصابتي بالسرطان، شعرت أنِّي غريبةٌ عن كلِّ شيءٍ، عن المكان الذي أعيش فيه، عن الأشخاص الذين أعيش بينهم، عن عائلتي وزوجي وابنتي، وأكثر غربةً عن عائلة زوجي. كنت أظنُّ هذا بسبب المرض، لكنَّني أظنُّ أنَّه يعود إلى سببٍ آخر، إلى تضخُّم الهوية الدينيَّة للبشر في هذا البلد خلال السنوات الأخير، تحوُّلٌ جرى ببطءٍ، لكن بثباتٍ، لم أنتبه إليه، سوى مع بحث ابنتي عن هويتها، واختيارها هويةً مسيحيَّةً، عددت ذلك حالةً فرديَّةً، ولكن عندما فكَّرت فيما يجري في المدارس التي عملت فيها، التحوُّلات تكرَّست أمامي من دون أن أنتبه لها، ومن دون أن أستطيع فعل شيءٍ حيالها.

الاحتجاجات التي بدأت في مدينة درعا في مواجهة مظالم السلطة، كشفت عمق هذه التحوُّلات، ودفعتها حتَّى نهاياتها القصوى. دفعت

المظالم المتراكمة الناس للاحتجاج على أوضاعٍ ليس ممكنًا العيش معها، من سلطةٍ جائرةٍ، لم تقمع البشر بالمعنى السياسيِّ فحسب، بل باتت تغلق عليهم سبل أرزقاهم وتفقرهم مع الرئيس الابن. هذا الرأي الذي كنت أحمله تجاه ما يجري في البلد، هو الذي جعلني اصطدم مع كلِّ المحيط العائليِّ من جهة زوجي، وعلى رأسهم زوجي. الظلم في كلِّ مكانٍ في البلد، وهو مرسومٌ على كلِّ وجهٍ نقابله، لا أفهم، كيف يمكن لأحدهم ألَّا يرى كلَّ هذا الظلم الذي تعرَّضت له أكثريَّة البلد؟! ويأتي أحدهم مثل زوجي جورج، ويقول: «هدول إرهابيين» مكرِّرًا ما يقوله رجال السلطة، رغم أنَّ من يريد أن يرى، كان يستطيع أن يذهب إلى أماكن التظاهرات، ليرى كيف يواجه الناس الرصاص الحي بصدورهم العارية. هناك بشرٌ لا يريدون أن يروا الحقيقة، حتَّى لو كانت هذه الحقيقة أمامهم، فهم ينكرونها ويُكذِّبونها. جميع من أعرفهم من أهل جورج وقفوا ضدَّ التظاهرات منذ اللحظة الأولى، وقبل أيِّ عملٍ مسلَّحٍ شهدته البلد بعد ذلك. لقد أصبحوا خائفين حتَّى منِّي أنا التي عشت معهم عمري كلَّه، بعد هذا العمر، عادوا ليكتشفوا أنِّي مسلمةٌ وسنيَّةٌ، ولأنِّي كذلك أقف مع الإرهابيِّين الذين يهدِّدون البلد، ويهدِّدون تنوُّعه، ويهدِّدون باقتلاع المسيحيِّين الكفَّار، وأنَّ السلطة على كلِّ عيوبها تحمي المسيحيِّين وغيرهم من الأقليَّات في مواجهة الإرهاب الذي يستهدفهم. لا أحد منهم صدَّق، أنَّ كلَّ ما في الأمر، أنِّي أقف ضدَّ الظلم وأكرهه، ولا يمكن أن أكون مع ظالمٍ، وهؤلاء البشر مظلومون يطالبون بحقوقهم، ليسوا إرهابيِّين. لقد كرَّروا رواية السلطة وصدَّقوها، وقف الجميع مع السلطة، القلَّة القليلة من مسيحيِّين أعرفهم وقفوا ضدَّ الرواية السائدة وضدَّ الظلم لأنَّه لا يحتمل، ووقفوا مع المعارضة، ليس لأنَّ السنة وحدهم مظلومون من النظام، بل والمسيحيُّون مظلومون أيضًا من نظامٍ طائفيٍّ يعطي الأولويَّة في المناصب والمصالح لأزلامٍ من طائفته، ويستثمر هذه الطائفة وطوائف الأقليَّات الأخرى للوقوف معه على اعتبار

هذه الطوائف مهدَّدةٌ من إرهاب الأكثريَّة في البلد. هذا كان موقف عصام صديق عائلتنا، الذي ذهب وراء قناعاته وانضم إلى المعارضة وهرب من البلد بعد محاولة اعتقاله الفاشلة، إذ داهمت المخابرات بيته، ومن حسن حظِّه، أنَّه لم يكن في البيت تلك الليلة، فنجا من الاعتقال، وهرب خارج البلد. عندما تأتي سيرة عصام، كان الحديث يدور عنه بوصفه خذل المسيحيِّين، والأكثر تطرُّفًا، يتحدَّثون عنه بوصفه الخائن الذي باع نفسه للإرهاب الإسلاميِّ ولدول الخليج.

لم أحتمل هذا الوضع، لم أحتمل نظرات الاتهام في عيون الجميع، وكأنِّي من يدمِّر البلد، لم أحتمل الكلام عن البشر بوصفهم حشراتٍ بحاجةٍ إلى سحقٍ. الرجل النبيل ليس موجودًا ليقف معي في مواجهة طغيان الأنا الدينيِّ المسيحيِّ الذي لن يرى سوى نفسه، وليذهب الآخرون إلى الجحيم. كان والد جورج قد توفِّي قبل انطلاق الاحتجاجات في البلد بثلاث سنواتٍ. تركت وفاته أثرًا وفراغًا كبيرًا عندي. لقد كان الشخص الأكثر قربًا منِّي، والأكثر تفهُّمًا، وفي كثيرٍ من الأحيان شعرت أنَّه يفهمني ويشعر بي أكثر من زوجي نفسه. رجلٌ يستحقُّ صفة النبيل، نبيلٌ مع الجميع، ونبيلٌ في سعة صدره وفي تسامحه. وقف معي عندما كنت أختلف مع الآخرين في المنزل، ليس مجاملةً لي، بل لأنَّه يقف مع الحقِّ، ولم يكن يهاجمني عندما نختلف، إنَّما يشرع في نقاشٍ. بوفاته شعرت بوحدةٍ حقيقيَّةٍ، شعرت أنَّني خسرت سندي الأقوى. وجاءت أحداث البلد، التي دفعت الاستقطاب إلى نهايته، فلم أعد شخصًا يُعبِّر عن وجهة نظرٍ أخرى، بل بتُّ واحدةً مندسَّةً أدافع عن مجرمين إرهابيِّين يدمِّرون البلد.

لم تعد البلد آمنةً، وهذا ما جعل جورج يبحث عن فرصةٍ لخروج ابنتنا جورجينا خارج البلاد، فهي التي خرجنا بها من هذه الدنيا، ويجب أن تغادر خوفًا من قذيفةٍ هنا أو قنَّاصٍ هناك، وهذا النوع من الأخطار يشمل الجميع. وقد عمل جورج على مغادرتها البلد، وأنا كنت متحمِّسةً لخروجها،

على الأقل، بمغادرتها أضمن أمانها. طلب جورج منِّي مرافقتها، وأن يبحث لنا عن مكانٍ نعيش فيه خارج البلد. كانت موجة اللجوء إلى البلدان الأوروبيَّة قد بدأت، لكنَّ جورج وأنا لم نكن لنغامر ونرسل ابنتنا مع المهرِّبين، ونضعها في خطرٍ لا تخرج منه، قد تكون الحرب خطرًا أقلُّ منه. رفضت الخروج من البلد، وسألت جورج: «شو رح أعمل برة؟ أنا مش قادرة على مساعدة جورجينا. خليها تروح وتبني مستقبلها هناك، أنا ما عدت صالحة لأبدأ من جديد حياة ثانية»، حاول إقناعي والضغط عليَّ، قال: «أنا بدي سلامتك»، ضحكت وقلت: «جورج أنت بتعرف، إني حاملة موتي جواتي، وأنو قذيفة طايشة ما رح تعمل شي غير تسرع النهاية مش أكثر»، في النهاية رضخ لرغبتي. وسافرت جورجينا وحدها إلى كندا.

لم تكن الحرب أقلَّ قسوةً من المرض الذي ينهش جسدي. كثيرًا ما تمنَّيت لو أنَّ المرض قتلني قبل أن أرى كلَّ هذه الألم الذي عاشه الناس في دمشق. أصدقاء وأقارب دمَّرت الحرب حياتهم، وخسروا أبناءهم في قذائف طائشةٍ أو على جبهات القتال التي يؤدُّون الخدمة الإلزاميَّة عليها، أو أولئك الذي التحقوا بالمعارضة. وأصبح النازحون من بيوتهم المهدَّمة أو التي تقع في مواقع الخطر يحسدون الأموات بعد سنواتٍ من النزوح، وبات الموت مطلبًا بعيد المنال رغم أنَّه يحيط بهم من كلِّ جانبٍ، لكنَّهم لم يكونوا محظوظين ليأتيهم ويخلِّصهم من عذاب الحاجة. انخفضت دخول البشر وزادت إيجارات البيوت، وارتفع سعر كلِّ شيءٍ على نحوٍ جنونيٍّ، واستنفد الناس مدَّخراتهم سريعًا، وتحوَّلت الحياة إلى جحيمٍ. فالعائلة التي يعمل فيها الرجل والمرأة والذين يسكنون بيتهم ولم ينزحوا إلى مناطق أخرى، بات دخلهم عُشرَ دخلهم الذي كانوا يتقاضونه قبل الحرب. ولم يستطع أن يكفي حاجاتهم الأساسيَّة. أمَّا من خسروا بيتهم وتهجَّروا إلى مناطق أخرى، فإذا لم يجدوا من يساعدهم من خارج البلد، بعد أن استنفذوا مدَّخراتهم المتواضعة، وجدوا أنفسهم في الجامع في بداية الأمر، وبعد ذلك طُرِدوا منه،

وباتوا ينامون في الحدائق أو الشوارع، وعمليَّة طردهم من هذه الأماكن مستمرَّةٌ ومتكرِّرةٌ. عندما أمرُّ بحديقةٍ وأرى الناس البؤساء يفترشون العشب بعيونٍ زائغةٍ تائهةٍ لا ترى أمامها أشعر قلبي يؤلمني. وهؤلاء أو غيرهم عندما أشاهدهم في المطر والبرد يرتجفون ويحاولون تجنُّب المطر بقطعٍ من البلاستيك أو الكرتون المبتلِّ، كنت أبكي. لا شيء في هذا العالم يستحقُّ أن يعيش إنسانٌ بهذه الطريقة. والحديث الجارح عن المفقودين، الذين لا يعرف أهلهم هل هم أحياءٌ أم أمواتٌ، فمن يعرفون أنَّ أولادهم قُتِلُوا يتألَّمون بالتأكيد، لكنَّ ألمهم أقلُّ لأنَّهم عرفوا مصير أولادهم، أمَّا من لم يُعرَف مصيرهم، يبقى القلق يأكل أهلهم طوال الوقت.

أصبح كلُّ شيءٍ في البلد يؤلمني، ولم أعد أحتمل النقاش حول ما يجري، ولم أعد أحتمل الأشخاص المحيطين بي. قلت لجورج: «بدي أروح أعيش ببيت أمي»، قال: «مانك بحاجة لتروحي تسكني هناك لحالك، هذا بيتك، وأنت ما بتقدري تعيشي لحالك، إنت عارفة إنك مريضة»، قلت: «ما تخاف عليّ، بتقدر تجي لعندي إيمتى ما بدك. أنا هون حاسة حالي مخنوقة، بدي أغير المكان»، حاول كثيرًا إقناعي بالبقاء، لكنِّي لم أعد أطيق المكان، وأريد التحرُّر من قيد المحيط الذي يخنقني. لم تكن المسألة مكانًا آخر أنتقل إليه، بل مكانًا أشعر أنَّه مكاني وأستطيع أن أفعل فيه ما أشاء، من دون نظرات العداء التي أشاهدها في عيون الآخرين.

بانتقالي إلى بيت أمِّي أصبحت أقرب إلى الناس وآلامهم. في البداية، ظننت أنِّي سأعيش وحدي، وهذا سرعان ما تغيَّر، لأنِّي عشت وسط آلام الناس التي لا تنتهب، فقد خفَّف هذا عليَّ آلام مرضي. تحرَّكت في المحيط القريب للمنزل، استعدت الكثير من الذكريات التي عشتها في المكان ومحيطه، لم يتغيَّر المكان كثيرًا، الأبنية أكثر اتساخًا من قبل، والناس في الشارع يحملون وجوها لا تشبه تلك التي كانت قبل الحرب، وجوهٌ مكفهرَّةٌ، حزينةٌ، الدموع في عيون الكثيرين. قابلت بعض من أعرفهم،

وفهمت كيف انهارت حياتهم في السنوات القليلة المنصرمة، استمعت إلى الكثيرين ممَّن أعرفهم، وممَّن لا أعرفهم. كانت الحاجة السوط الذي يلسع الجميع بقوَّةٍ، كانت هذه الحاجة تختلف بين حالةٍ وأخرى. لم أكن قادرةً على الخروج من البيت دائمًا، فالمنزل الذي يقع في الطابق الرابع، والذي كنت أصعده وأنزله راكضةً وأنا شابَّةٌ، بات يتعبني الآن لا سيَّما عند الصعود. كانت حنان ابنة أختي رائدة، تنام عندي بعض أيَّام الأسبوع، كونها تعمل مدرِّسة لغةٍ انكليزيَّةٍ، في المدرسة ذاتها التي عملت أنا لسنواتٍ طويلةٍ فيها، والتي تقع في منطقة الميدان. ولأنَّ القدوم من صحنايا إلى الميدان بات صعبًا في ظلِّ الحواجز العسكريَّة على الطريق. طلبت منِّي أن تقضي عندي بضعة أيَّامٍ في الأسبوع، قلت لها: «أهلًا وسهلًا بك كلَّ الأسبوع»، كسرت حنان عزلتي، وكانت فرصةً بالنسبة لي لأتعرَّف كيف تفكِّر فتاةٌ في مثل عمرها. لم تكن تشبه ابنتي مع أنَّهما من العمر ذاته. مع تعرُّفي الأعمق عليها، شعرت أنَّها تشبهني أكثر من ابنتي، لا أقصد الشبه من ناحية الشكل، إنَّما الشبه في طريقة التفكير وفي النظرة إلى الحياة، رغم أنِّي لم أبنِ علاقةً قويَّةً مع بنات أختي، لأنَّ زوج رائدة لم يكن يريد علاقةً لعائلته معي، أدهشني التشابه بيننا عندما عرفت أنَّها واقعةٌ في حبِّ شابٍّ درزيٍّ، وأنَّها قالت لأمها أن تحدِّث والدها من أجل أن يتقدَّم لخطبتها، لكن يبدو أنَّ والدها رفض، وأمها ترفض أن تخبرها ما جرى بينهما بهذا الشأن. عرَّفتني على الشاب، كان من الواضح أنَّه ذكيٌّ ولمَّاحٌ ويحبُّها. خفت أن يكون مصيرها مثل مصيري. عندما قالت لي أنَّها ستلحق به إلى تركيا، لأنَّه قد فرَّ من الخدمة العسكريَّة، ومن هناك سيبحثان عن بلد أوروبي يلجآن إليه لبدء حياةٍ جديدةٍ، كنت سعيدةً من أجلها، قد يكون حظُّها أفضل لأنَّها ستبدأ حياتها في غير بلدٍ. عندما حان موعد سفرها، ودَّعتها وتمنَّيت لها حياةً سعيدةً.

مع سفر حنان إلى تركيا، عاد الهدوء إلى المنزل، لكن لم يدم طويلاً. بعد حوالي ستة أشهرٍ لحقت رائدة بي في بيت أمّي. فقد نجحت حنان وفهد بالوصول إلى هولندا، وتزوَّجا هناك. تسرَّب الخبر إلى فاروق زوج رائدة، فجنَّ جنونه وطردها من البيت، فجاءت عندي. كما أنَّ ابنتها نور لم ترغب في ترك أمِّها وحدها، فجاءت للعيش معنا أيضًا. صحيحٌ أنِّي كنت سعيدةً بوجودهما معي، لكنِّي لم أكن سعيدةً بحزن رائدة الذي طغى على البيت في ظلِّ الأزمة الطاحنة التي تمرُّ بها. لم أستطع مساعدتها سوى بكلمات التضامن والنقاشات الحميميَّة التي تحبُّها. وهي في الوقت ذاته حاولت إخفاء حزنها، حتَّى لا تؤثِّر على وضعي النفسيِّ وبالتالي تؤثِّر سلبًا على مرضي. لم تنجح في ذلك، كان الحزن المكشوف يملأ عينيها، ورائدة أسوأ واحدةٍ بيننا في إخفاء مشاعرها. لم تفكِّر طويلًا، حتَّى قرَّرت اللحاق بأولادها في أوروبا مع ابنتها نور. أخذت ترتِّب أمورها بسرعةٍ، معتقدةً أنَّ الخروج من المكان يُخرجها من أحزانها. دعمت خيارها مع قناعتي بأنَّها ستحمل حزنها معها، ولأنَّها مستعجلةٌ للخروج، تدبَّرت رحلة المغادرة خلال فترةٍ قصيرةٍ.

ودَّعتها وتمنَّيت لها رحلةً موفَّقة، وعدت إلى عزلتي من جديدٍ، أراقب الوضع الذي يزداد تفجُّرًا في البلد، متأمِّلةً الآلام المتزايدة لضحايا القمع الوحشي والإفقار والحصار والإذلال. وعرفت نوعًا آخر من الألم العميق، عندما قابلت فتحية، هي زميلةٌ قديمةٌ في مهنة التدريس في سوق باب السريجة حيث كنت أتسوَّق هناك. دَرَستُ وفتحية معًا في ثانوية الميدان. حدَّثتني عن المصاعب التي تعيشها، لكنَّها قالت: «رغم هيك، ببقى وضعي أفضل من غيري، أنا لسا ببيتي والأوضاع مستورة. وحسيت بهذا الشي لما التقيت بمها الخش، بتذكرينها اللي كانت تدرِّس لغة عربية معنا بثانوية الميدان؟»، قلت: «آه، بتذكرها، كانت صديقتي، شو صاير معها؟»، قالت: «المسكينة، رح تفقد عقلها. شفتها من أسبوعين، وهي ما بتغيب عن بالي.

نجت من مذبحة داريا مع ولاد ابنها، بس ابنها ومرتُه راحوا بالمجزرة، وابنها الثاني مش مبين، وزوجها مات قبل الأحداث. كانت تائهة، سألتها عن حالها، قالت الحمد لله، بس بسرعة صارت تبكي بحرقة، عبطتها وبكيت معها، أخذتها معي على البيت، استضفتها، حاولت أسمع قصتها، بس ما قبلت تحكي، جرحها بعدُه جديد. ساعدتها على قد ما بقدر، بس رفضت المساعدة. كانت بتستنى صاحب البيت يطردها هي والولاد من البيت. لأنها مش قادرة تدفع أجرة الغرفة اللي ساكنة فيها بالدويلعة»، قلت: «عندك رقم تلفونها؟»، قالت: «أكيد»، قلت: «بتروحي معي لعندها؟؟»، قالت: «طبعًا، وبكل سرور»، سجَّلت رقم هاتفها وهاتف مها. سألتني عن حالي: «قلت الحمد لله، مرضت بالسرطان قبل شي تلات سنين، عملت عملية استئصال، وبعدني بقاوم»، قالت: «أنا آسفة، ما كنت بعرف، الله يشفيكي»، قلت: «ولا يهمك» افترقنا، وأنا أفكِّر في مها، هذه الشابَّة صاحبة النكتة، أجمل المحجَّبات، أكثرهن سخريةً من نفسها ومن الآخرين، ابنة الحياة الغنيَّة بتجربتها وروحها، مدرِّسة اللغة العربيَّة، التي تسخر من عملها ومن لغتها، مدرِّسةٌ ممتازةٌ، أحبَّتها الطالبات، وأنا أحببتها. عندما انتقلت إلى المدرسة التي تعمل فيها، كانت أوَّل معلِّمةٍ ترفع الكلفة معي، بخفَّة دمٍ سحرتني وافتتحت علاقةً جميلةً معها لسنواتٍ لاحقةٍ، وعدنا كلُّ واحدةٍ لتذهب في طريقها في الحياة، بعد أن انتقلت من المدرسة. حافظنا على علاقتنا بعض الوقت، لكنَّ انشغالات الحياة فرَّقتنا، رغم السنين عندما أذكر شخصًا طيِّبًا، كانت هي النموذج المجسَّد للطيبة الذي يخطر على بالي.

عندما زرناها أنا وفتحية، كانت تجمع أغراضها من الغرفة البائسة المشتركة مع عائلاتٍ أخرى في شقَّةٍ يسكنونها في الدويلعة. عندما سألتها: «وين رح تروحي؟»، قالت بيأسٍ والدمعة بعينيها: «بلاد الله واسعة»، وهو يعني أنَّها لا تملك مكانًا تذهب إليه. قلت: «بعرف بلاد الله واسعة، بس على أي بقعة من بلاد الله رح تروحي؟»، نظرت إليَّ، التفتت إلى فتحية،

عادت ونظرت إليَّ، لم تعد قادرةً على الاحتمال، غطَّت وجهها بيديها وانفجرت بالبكاء وقالت: «ما بعرف، ما عندي مكان أروح عليه» اقتربت منها، احتضنتها، واقترب الطفل والطفلة من جدَّتهما، احتضنا ساقيها وشرعا في البكاء أيضًا، ولم تكن فتحية أحسن حالًا. أبعدت مها عنِّي قليلًا. جفَّفت دموعي. قلت: «ولا يهمك، رح تسكني معي»، نظرت إليَّ، وقالت: «بترجاكي عائدة، ما بدي حدا يواسيني، بعرف المصيبة اللي أنا عايشتها، وما بدي حدا يزيد جروحي»، قلت: «أبدًا، أنا ما عم بواسيكي، بعرف مصيبتك، وأنا أخذت قراري قبل ما أجي لهون. أنا محتاجتك كمان، وإذا سكنتي معي بتكوني قدَّمتي لي خدمة ما رح أنسالك إياها طول عمري. مها، أنا عندي سرطان، وعملت عمليَّة استئصال، صحتي مش منيحة، بدي إياكي معي»، بُهتت ممَّا قلت وتحوَّلت نظرتها القاسية ووجهها المتجهِّم إلى وجهٍ مدهوشٍ يحاول الابتسام بصعوبةٍ. قالت: «أنا آسفة، هدا خبر محزن. الله يشفيكي»، قلت: «ولا يهمك، رح نحكي عن المرض كثير بعدين»، سألتها: «وين غراضك؟»، قالت: «هاي الفرشات وشوي أغراض المطبخ وأوعينا»، قلت: «جيبي أوعيكي وأواعي الولاد، واتركي الباقي، ما رح تحتاجيهم بعد اليوم»، قلت لفتحية: «جيبي تكسي، وخلينا نروح من هون. واحنا بنخبِّر صاحب البيت بإنها رح تترك الغرفة»، قالت فتحية وهي ذاهبة: «حاضر.. الله يجزيك الخير»، وظلَّت تكرِّر العبارة الأخيرة حتَّى غادرت بعد وصولنا إلى البيت في البرامكة.

أرشدت مها على الشقَّة، مكان المطبخ، الحمام، وغرفتها وغرفة الأولاد، لكنَّها رفضت وقالت: «أنا والولاد رح نام بالغرفة نفسها. ما بدي الولاد يزعجوكي»، لم أجادلها، حتَّى لا تفهم أنَّ ما أقوله أوامر يجب عليها تنفيذها، أريد أن تفهم أنَّها شريكتي في البيت، وأنَّها تتنازل عندما تعيش معي. قلت لها: «زي ما بدك»، بعد أيَّامٍ عدَّةٍ قلت لها: «رح جيب تخت بطابقين هدية منِّي للولاد، إذا ما عندك مانع؟»، لم تمانع وقالت: «زي ما بدك»، احتاج

الطفلان حنين وورد، إلى بعض الوقت حتَّى تعوَّدا عليَّ، لكنَّهما أضفيا الحيويَّة والحياة والمرح على البيت بعد صمتٍ طويلٍ. بدايةً تعاملت مها معي بحذرٍ، خافت أن يكون ما أقوم به شفقةً عابرةً، سرعان ما أندم عليها لتجد نفسها في الشارع من جديدٍ. كنت أحسُّ بهذا القلق في تعاملها معي، في نهرها للأطفال لتجنُّب أفعالٍ يمكن أن تزعجني. تلبَّسها الخوف من الغد، لم تعرف كيف قضت الفترة الماضية، ولا تعرف كيف ستقضي ما تبقَّى من حياتها، وماذا سيكون مصير هؤلاء الأطفال، إذا حدث لها مكروهٌ. حاولت طمأنتها بكلِّ الوسائل، أحيانًا أشعر أنَّها اقتنعت، وأحيانًا أشعر أنَّها متشكِّكةٌ، ليس لأنَّها لا تثق بي، بل لأنَّ ما مرَّ عليها خلال سنوات الأزمة، جعلها تشكُّ في وجود الله نفسه، كنت أتفهَّم حالتها فما مرَّت به يصعب على بشرٍ تحمُّله. مع الوقت صرنا أقرب إلى بعضنا. لم أطلب منها أن تحكي لي ما جرى في داريا وقت المذبحة، خوفًا من أن أفتح جرحًا لا تريد أن تتحدَّث عنه.

مع أوَّل جلسة علاجٍ كيماويٍّ جديدةٍ خضعت لها، وشاهدت كم الخوف والقلق في عينيها عليَّ، عرفت كم هي ممنونةٌ لي، وكم هي خائفةٌ أن تفقدني وأن تعود إلى حياة الحاجة التي عاشت مرارتها. رغم آلامها، كانت تشعر بالنجاة، لكنَّها ليست واثقةً من أنَّ هذه النجاة ستستمرُّ، لا سيَّما مع مرضي القاتل، الذي لا تعرف متى يُنهي حياتي. لا أقول إنَّها تريد أن أستمرَّ بالحياة لأكون حلًّا لمشكلتها، فأنا أعرف كم تحبُّني منذ كنَّا نعمل معًا. صحيحٌ مضى زمنٌ طويلٌ على تلك الأيَّام، وأعرف جيِّدًا أنَّ هذه المرأة الطيِّبة التي حطَّمتها الحرب لا تفكِّر بهذه الطريقة. عندما حدَّثتها عن علاقتي بالمرض، وكيف غيَّر علاقتي بالحياة والأشياء، استمعت بكلِّ شغفٍ إلى أقوالي، اعتدت أن أتكلَّم على مرضي ببساطةٍ، نوعٌ من التكيُّف مع واقعي، ولقناعتي أنَّ مواجهتي له هي الوسيلة الوحيدة للتعامل معه، إذا لم يكن للانتصار عليه، لأنِّي أعدُّ تجاهله استسلامًا له. شعرت أنَّها دُهِشت ممَّا

تسمع عن رأيي بمرضي، الذي لم يكن برأيها: «أقلَّ إجرامًا من الحرب»، وأضافت: «الحياة مش عادلة، الحرب أخذت الأحلى فينا، وهاي المرض بصيب الأفضل بيناتنا. الله ياخذ الحرب والمرض»، كنت أشعر بكمِّ الحبِّ الذي تحمله كلماتها. وشعرت أنَّها تحاول القول، أنَّنا جميعًا شركاء في المصيبة ذاتها، عندما روت لي ما شاهدته يوم المذبحة.

كنَّا نجلس على البرندة في سماءٍ صافيةٍ وهناك بعض النسيم الذي يحمل لسعة بردٍ، كنت متعبةً جدًّا، فطلبت منها أن نجلس على البرندة، وعلى البرندة شعرت بالبرد فقلت: «يا ريت يا مها تجيبيلي أي شيء ألف حالي فيه، حاسة حالي بردانة»، قالت: «من عيوني» دخلت وأحضرت غطاء لفَّتني به، وقالت: «إذا بدك بنفوت لجوا؟»، قلت: «لا، حابة أظلني هون»، قالت: «براحتك».

نظرت إلى السماء وقالت: «هاي نفس السما اللي شفتها وأنا هربانة من داريا يوم المذبحة. حتَّى القمر ما خجل وغاب حتَّى يستر هربي وهرب الناس بتلك الليلة. حتَّى القمر دل الجيش والشبيحة على المساكين الهربانين من الموت، فضحهم بهديك الليلة وبدل ما ينفذوا بجلدهم، صادوهم واحد واحد ووحدة وحدة. يمكن لو غاب القمر هديك الليلة، كان نفد ناس أكثر من اللي انقتلوا. كان يمكن يصيبني اللي صابهم لولا لطف الله، يمكن نفدت بحسنة الولاد، حتَّى يبقى إلهم حدا بهاي الدنيا. ما غاب القمر ولا غطتُه الغيوم حتَّى نهرب بستر الليل. كرهت القمر وكرهت حالي وكرهت البلد»، نظرت إليَّ بعينين غائمتين، شعرت أنَّ الذكرى تطرق رأسها بعنفٍ. أشاحتْ بوجهها، أغمضتْ عينيها بقوَّةٍ، فتحتهما، نظرتْ إلى السماء وقالت: «كان أوَّل أيَّام العيد، وكنَّا قرَّرنا ما حدا يساوي كعك عيد، كان الناس زعلانين على الشباب اللي قتلتهم المخابرات بالمظاهرات. صار شوية اشتباكات بطرف البلد من ناحية المعضمية. سمعت صوت الرصاص وانفجارات هون وهناك، كنَّا تعوَّدنا على هذا الوضع، اشتباكات صغيرة بين الجيش الحر وجيش

النظام. ثاني أيَّام العيد، انقطعت الكهربا عن البيت وعن كل داريا. اتصلت بابني محمود اللي بيسكن في الطرف الثاني من داريا من جهة صحنايا، حتَّى أعرف إذا صاير شي، ما لقيت حرارة بالتلفون الأرضي. جرَّبت بالموبايل، كمان ما قدرت أتصل، لأنُه راحت التغطية. ما عرفت شو بدي أعمل، كمان ابني محمد ما كنت قادرة أتصل فيه، ولا هو عبيتصل فيني، وهذا شي ما بصير عادةً. قلت لحالي بستنَّى للمسا وبعدها بشوف شو بدي أعمل. كل خمس دقايق برجع بتصل ما بردُّوا، الخطوط مقطوعة، والموبايل ما في تغطية. بالليل كان في صوت كثير انفجارات جاي من جهة المعضمية. ولأنُه الانفجارات كثيرة بهديك المنطقة، هرب الناس لقلب داريا، أو حاولوا يطلعوا من داريا على صحنايا أو على كفر سوسة. لاقوا كل المداخل لداريا الكبيرة والصغيرة مسكَّرة بحواجز عسكريَّة أو مسكَّرة بالتراب وعليها قنَّاصة. ما حدا قادر يفوت أو يطلع من داريا. وكان في كثير دبَّابات جهة الشرق بين داريا وأوتستراد درعا. بلَّش الجيش بقصف قلب داريا، كانت الانفجارات رهيبة، حاول اقتحام داريا من جهة الكورنيش، علقوا هني والجيش الحر في المنطقة، تراجع الجيش. بالليل حدا بدق بابي. قبل ما أفتح سألت: "مين؟" إجا صوت محمود من برَّة بقول: "أنا ومعي وفيقة"، عرفت أنُه ابني ومرتُه. دغري قال وهو داخل وقبل ما أسأله: "ما قدرنا نظل بالبيت، الرصاص مثل زخ المطر على بنايتنا. خفت على الولاد، قلت بنجي لعندك، يمكن يكون الوضع أحسن بالطابق الأرضي وأكثر أمان، جنب بيتي بطخوا على كل شي بتحرَّك. كنا بدنا نقلك قبل ما نيجي، بس كل الاتصالات مقطوعة بداريا"، قلت: "أهلا وسهلا حبيبي، البيت بيتك". حاولت خبِّي خوفي، مع إني كنت أنتفض مع كل انفجار، وولاد محمد يصيروا يبكوا. اليوم اللي بعدُه، تالت أيَّام العيد، يوم فظيع، من الصبح الانفجارات بكل داريا، والهلكوبتر بتزت قذائف على البلد. صوت بكاء الولاد وصراخ النسوان جاي من كل محل. وولاد ابني متمسكين بأمهم وبيبكوا. حسيت قلبي رح يوقف.

طول الليل ما وقف القصف وما نمنا ليلتها. نام الولاد من التعب، بفيقوا مع كل انفجار قريب، وينتفضوا وهما نايمين مع الانفجارات البعيدة. طلع الجيش الحر من البلد بعد هذا القصف. باليوم الرابع هديت الانفجارات، صار الناس يطلعوا على الشوارع يتفقَّدوا أهاليهم، ويدفنوا الجثث اللي انتشرت بالشوارع. ابني محمود قال: "بما إنُه الوضع هدي، خليني أروح اتفقَّد البيت، وأجيب شوية غراض من هناك للولاد"، قلت: "والله ما في داعي يا ماما.. استنا شوية"، قال: "طلِّيت برَّة من شوية، الناس بالشوارع"، استسلمت وقلت: "زي ما بدك يا ابني"، لما إجا يطلع مرتُه قالت: "رح أجي معك، أنت ما بتعرف شو رح تجيب للولاد"، قال: "ما في داعي رح جيب كل شي"، قالت: "رايحة معك، إنت بتقول أنُه الناس بالشارع، والولاد هون مع مرت عمي"، قلت: "اعملوا زي ما بدكم"، راح محمود ومرتُه يتفقَّدوا بيتهم، وصرت أراضي الولاد اللي بدهم يروحوا معهم. بعد ما هديوا، رحت أنظِّف البراد. لأنُه بعد ما قطعت الكهربا تلات أيَّام، كل الأكل اللي بالبراد خرب، وصار لازم أطلع الأكل الخربان برا البيت. جمعت كل الأكل بكيس واحد، حطِّيت حجابي على راسي، وطلعت لأرمي الكيس بحاوية الزبالة. وأنا برمي الكيس، في واحد راكب بسكليت وبصرخ بأعلى صوتُه "الجيش والشبِّيحة فاتوا على البلد".. "الجيش والشبِّيحة فاتوا على البلد".. قرَّبت من الشارع الرئيسي ورا بيتي، تطلَّعت على مدخل البلد. شفت كثير رجال مسلَّحين فايتين على داريا. دغري صرخت "محمود" ما عرفت شو أعمل، رجعت على البيت وسكَّرت الباب. بعد شوية صرت أسمع صوت الرصاص هون وهناك. أسمع ضحك مو طبيعي، مسبَّات وسخة، صراخ ناس بتستنجد، ناس بتترجَّى، رجال بصرخوا، نسوان بصرخوا، ولاد بصرخوا، ولاد بيبكوا، نسوان بتبكي. مرَّة بسمع الصوت قريب ومرَّة بسمعُه بعيد. صابني شلل. فهمت من الصوت اللي كنت بسمعُه، إنهم بلشوا يقتلوا بالناس. بالأوَّل كذَّبت داني، بس الصراخ والرصاص والناس اللي بتترجَّى كان أقوى

من إني أكذبُه، الناس عبتموت عن جد. أخذت الولاد على أبعد زاوية بالبيت وأنا مرعوبة، حسِّيت الموت واقف على باب بيتي، حاولت خلي الولاد هاديين وما يطلعوا صوت. كنت بطلَّع على الباب لما سمعت دق قوي على الباب البراني. قلت لحالي: "ما رح أفتح شو ما صار يصير" حطيت إيدي التنتين على تم الولاد وكتمت بكاهم حتَّى ما حدا يسمع صوتهم. سمعت صوت بنادي: "علي... علي..." رد عليه اللي بدق على بابنا: "أنا هون" قال الصوت التاني: "تعال.. المعلم طالبك" قال: "جاي.. جاي" سمعت دعساته وهو ببعد عن البيت.

ما بعرف شو أقلك، أنا وقتها مو بس شُفت الموت، كمان سمعت صوته حتَّى شمِّيت ريحتُه. بهداك اليوم كان الموت عبيحصد الناس حصد، ما خلوا حدا وصلولوا إلَّا وذبحوه، إذا كان مرة أو زلمة أو ولد، الموت بكل محل بالبلد، بكل بيت، وبكل حارة وبكل شارع. كل ما سمعت صرخة واختفت كان شي جواتي يموت، كنت بعرف اللي صرخ أو اللي صرخت ماتوا. ما كنت قادرة أصرخ، لأنِّي إذا صرخت رح يجوا ويخلصوا عليّ وعلى الولاد. حسيت حالي بعدني حاطَّة إيدي على تم الولاد، مع إنهم سكتو، رفعت إيدي عن تمهم، وقلتلهم "اشش" وحطيت أصبعي على تمي حتَّى يفهموا إنُه لازم يسكتوا. ما بعرف الوقت اللي مر عليّ حتى صارت الدنيا ليل. وما بعرف كيف بقدرة الله بقيوا الولاد ساكتين. حسيت حالي استنيت ألف سنة، وأنا بتخيَّل فيها كل الصور البشعة لكيف رح يقتلوني أنا والولاد. دعيت لربي ألف مرَّة أنفد أنا وهالولاد اللي ما إلهم ذنب. ودعيت لربي إذا انقتلنا أموت قبل الولاد حتَّى ما أموت ميت مرَّة بحسرتهم. دعيت لربي ينفد محمود ومرتو بحسنة الولاد، ودعيت ينفد ابني الثاني محمد. هداك اليوم كان أطول يوم بحياتي، الرعب اللي شفتُه فيه، لا شفتُه قبل ولا شفتُه بعد. حسيت حالي مش قادرة أتحمَّل كل هذا الخوف، حسيت أنُه الواحد اللي بيستنَّى الموت أصعب من الموت نفسه، حسيت حالي متت ميت مرَّة

هداك اليوم. بنص الليل قلت لحالي لازم أطلع من داريا، شو ما بدُه يصير يصير، بدي أموت؟ مأنا عبموت كل لحظة ميت مرَّة. طلعت من بيتي ومشيت ناحية المتحلِّق، كنت إذا قدرت أمشي شي نص ساعة، رح كون طلعت من طوق الجيش اللي حول البلد. مشيت أنا والولاد حتَّى وصلت آخر المباني بداريا، وصلت عند البساتين، هناك شفت دبَّابة من بعيد واقفة نواحي صحنايا. رحنا على الجهة الثانية، ومشينا حتَّى ما عدت شفت الدبابة، مشينا مع صف طويل من الشجر لجهة القدم، رجعنا ميَّلنا على الطرف الثاني، ووصلت لمحلَّات حوليها سيَّارات خربانة وقطع سيَّارات تالفة، عرفت إنَّها محلَّات تصليح السيَّارات اللي بين القدم وكفر سوسة، وهاي المنطقة بنعرفها من زمان باسم بيادر نادر. بس وصلنا لهناك، ما عدت شفت لا دبابات ولا عساكر. مشينا دغري لعند المتحلِّق اللي كنت بعرف جهتُه من ضو السيَّارات الماشية عليه، وكأنُه ما في شي عبصير بداريا. لما وصلنا عند المحلق، فجأةً طلع بوجهنا رجَّال، موتني من الخوف، وبلشوا الولاد يبكوا. قلت لحالي إجت ساعتك يا مها. قلتلو: "ببوس رجلك لا تقتل الولاد، هدول ما الهم ذنب..."، قال: "وكلي الله يا خاله. أقتل مين؟! أنا هون منشان أساعدك. إحنا عبنساعد الناس اللي عبتهرب من داريا. أنت صرتي بأمان يا خالة"، ما عدت قادرة أوقف على رجلي، قعدت بأرضي وبلشت أبكي، والولاد على الجنبين ببكوا معي. مسك الشب إيدي لقدرت أوقف، وصلني على سيَّارة قريبة، أخذنا شاب ثاني على بيت بطرف كفر سوسة. ما صدَّقت إنُه أنا والولاد صرنا برَّة داريا.

بعد يومين لما فتحوا الطريق لداريا، رجعت أدور على ولادي وأهلي، سألت عن ابني محمود ومرتُه، اللي راحوا يتفقدوا بيتهم. قال جيرانُه اللي نفدوا من المذبحة. ما بعرفوا شو صار مع محمود ومرتُه، بس لاقوهم مقتولين على الرصيف برصاص بالراس. قالوا كل واحد طلع هداك اليوم قتلوه، وفاتوا على كثير بيوت وقتلوا اللي فيها. وقبل ما يفتحوا البلد مرَّة

ثانية، كثير من الأهالي اللي كانوا بالبلد شافوا بهداك اليوم الجيش والشبيحة بيجمعوا جثث الناس بسيَّارات شحن كبيرة، طلعت من درايا وما حدا عرف وين راحت. تاني يوم طلعت الناس من بيوتها بعد ما طلع الجيش والشبِّيحة من البلد، وبقيوا محاصرينها من برَّة، الناس عرفت من الأخبار إنُه صار مجزرة بالبلد، طلعوا من بيوتهم، ليلاقوا الجثث بالشوارع، غير الجثث اللي نقلها الجيش. الأهالي دفنوا الجثث بسرعة لأنُه رحيتها صارت طالعة. خبَّرني جار محمود، إنهم دفنوه هو ومرتُه بالجنينة الصغيرة اللي جنب بنايتهم. قال الرجل: "الله بعوضك خالتي، الموت كان بكل مكان، ما عرفنا شو نساوي، دفنَّاهم بسرعة قبل ما تتفسخ الجثث وتاكلها الكلاب" وبكي ودار وجهُه عني. كانت خسارتي كبيرة، ابني ومرتُه وأخوي الوحيد، اللي رفيقُه لاقى جثته بجنب بسكليته بنص الشارع الرئيسي بداريا جنب البلدية. ما عرفت ليش اجا لهناك لينطخ تلات رصاصات بصدرُه. ما سمعت شي عن ابني محمد من هداك اليوم، ما بعرف إذا هو عايش ولا ميِّت؟

طلعت من داريا وأنا مدمَّرة، ما عاد إلي شي أرجع عليه. خسرت كل شي، وتشرَّد كل أهل البلد. ما عاد في طعمة لحياتي، لولا هالولدين لقتلت حالي، بدل ما أنتقل من ذل لذل، من بيت لبيت، ومن وجع لوجع. ما بعرف على شو الله بعاقبني، أنا اللي ما أذيت حدا بحياتي كلها. وليش علي أتحمل كل هذا الظلم والإهانة والذل؟!».

عندما انتهتْ من حديثها شرعتْ في البكاء، رفعتْ رأسها إلى الأعلى باتجاه السماء وفتحتْ يديها على وسعهما وقالت: «يا رب، ليش عملت فيّ هيك؟! ليش؟!»، ضربت فخذيها بيدها المفتوحتين بكلِّ قوَّةٍ، ثمَّ أخذت تلطم صدرها، وهي تقول من بين دموعها: «ليش؟!.. ليش؟!.. ليش؟!»، لم أجد ما أفعله سوى البكاء واحتضانها لمنعها من الاستمرار في لطم صدرها. وضعت رأسها على كتفي وهي تبكي بحرقةٍ ونشيجٍ كانا يُقطِّعانني، شعرت بعمق الألم الذي تأتي منه دموعها. حزنت لعدم قدرتي على فعل شيءٍ لمحو

هذا الألم ومساعدتها في تجاوز الكارثة التي مرَّت بها وحوَّلتها إلى حطام امرأةٍ. قلت لنفسي: «اتركيها تبكي قد ما بتقدر، بلكي الدموع بتخفِّف عنها».

بعد هذا البوح القاسي، أصبحت أقرب إليَّ، زالت الحواجز التي وضعتها بيننا، ما جعلها أكثر تحرُّرًا في حديثها معي. كان بوحها قنطرة عبورٍ قويَّةٍ بيننا. بعد حديثها خطر لي السؤال المؤلم، كم من القصص المؤلمة راكمتها البلد خلال السنوات الأخيرة؟ والذي تبعه السؤال الشخصيُّ، ما الذي أستطيع فعله من أجل تخفيف هذا الألم؟ طوفانٌ من الأحداث الكارثيَّة والمؤلمة التي اجتاحت البلد وما زالت، وماذا يمكن أن أفعل لهذا البحر من الألم والحزن؟ شعرت بالإحباط، لكنِّي قلت لنفسي، بالتأكيد لست الوحيدة التي تحاول معالجة هذا الألم. تذكَّرت الحكاية الإفريقيَّة، التي تقول: وقع حريقٌ كبيرٌ في الغابة، فهربت كلُّ الحيوانات منها، عصفور الطنَّان وهو أصغر العصافير، أخذ يحمل في منقاره نقط الماء من البحيرة ويلقيها على النار من أجل إطفائها، سخرت منه حيوانات الغابة الأخرى، لكنَّ عصافير الطنان الأخرى انضمت إليه ونقلت الماء بمناقيرها من البحيرة إلى الحريق، نقطة فوق نقطة فوق نقطة، استطاعت العصافير إطفاء الحريق في الغابة. بدأت بنفسي، جمعت كلَّ ملابسي التي لا أحتاجها، واحتفظت بغيارين فقط، فأنا لا أحتاج أكثر من ذلك. وطلبت من مها، أن تمنح ملابسي للنساء الأكثر حاجةً. وبدأت اتصالاتي من أجل جمع ما أستطيع من المال لمساعدة النساء المحتاجات، الكثيرون والكثيرات خذلوني، لكنَّ ابنة خالي هدى وصديقة طفولتي المقرَّبة في السعودية، التي استمرَّت العلاقة بها بعد أن غادرنا إلى دمشق عبر الرسائل والاتصالات الهاتفيَّة، والتي كانت استقلَّت للعمل بمفردها بعد وفاة خالي، ونجحت في بناء سلسلةٍ من محلَّات الملابس النسائيَّة الفاخرة في السعودية والتي جعلتها تضاعف ما ورثته عن والدها مرَّاتٍ عدَّةً. أمَّا إخوتها الباقين فقد استمرُّوا في الشراكة ذاتها. تلك كانت وصيَّة خالي قبل وفاته، لكنَّ هدى المتمرِّدة

خرجت من هذه الشراكة، وقالت: «أبوي مات، حكمني وهو طيِّب، ما بدي يحكمني وهو ميِّت. رح أطلع من هاي الشركة»، وكان لها ما أرادت مع الحفاظ على علاقةٍ طيِّبةٍ مع إخوتها. عندما أخبرتها بما أفكِّر به من مساعدة النساء قالت: «عائدة أنا معك. رح أبعث مبلغ ثابت كل شهر، ورح أشوف صديقاتي وشو بقدروا يساووا، وبخبرك باللي بصير معي»، وعرضت الأمر على صديقات لي في أوروبا والخليج، بعضهن وعدن ولم يفين، وبعضهن أرسل لفتراتٍ متقطِّعةٍ...الخ. المهم أنِّي وجدت ما أفعله من أجل هؤلاء. وبمساعدة مها، قسمنا الاحتياجات إلى ثلاث مجموعاتٍ وفق الأولويَّة، الحاجات العلاجيَّة الدوائيَّة والجراحيَّة الملحَّة والاسعافيَّة، الحاجات الدراسيَّة لطلَّاب وطالبات الجامعات، حاجات الفقر الشديد وحالة التوزيع العشوائيِّ في حال أتى مبلغٌ إضافيٌّ من أجل الأعياد أو شهر رمضان أو افتتاح المدارس أو غيره من المناسبات. طلب منِّي البعض أن أوزِّع مساعداتٍ عينيَّةً، أغذيةً وملابس وغيرها. اعتذرت فلم أكن أنا أو مها قادرتين على ذلك، والمواد العينية مشكلةٌ بسبب التفتيش على الحواجز العسكريَّة التي نمت كالفطر في مدينة دمشق، وبات الطريق الذي كان يحتاج إلى نصف ساعةٍ لقطعه قبل الأحداث يحتاج إلى ستِّ ساعاتٍ بعدها. المساعدات الماليَّة هي التي استطعت التعامل معها بسبب صحَّتي المتراجعة يوميًّا. كانت مها تقدِّر حاجات اللواتي نقدم لهنَّ المبالغ، وقد تحتاج المرأة إلى شيءٍ آخر أكثر إلحاحًا لا تودُّ البوح به، هكذا تستطيع أن تتصرَّف بالمساعدة وفق احتياجاتها بصرف النظر عن تقديرنا. كان إعطاء المال الوسيلة الأكثر سهولةً لمساعدة المحتاجات في ظروفنا وظروف البلد.

تعثَّرت رحلة أختي رائدة وابنتها نور، اللتين قرَّرتا مغادرة البلد للحاق بأولادها في أوروبا، فهي ليست قادرةً على العيش في البلد بعد انفصالها للمرَّة الثانية عن زوجها، وبدل أن تصلا إلى أوروبا وجدتا نفسيهما عالقتين في جزيرة قبرص. انتظرتا أن تخرجا من المكان الذي وجدتا نفسيهما عالقتين

فيه، لكنَّ ذلك لم يكن مجديًا، قلت لها: «ليش عبتنتظري عندك، ارجعي على الشام، وانتظري زي ما بدك»، قالت: «ما بقيلي شي بالشام أرجع إلُه. ولادي هاجروا، وأنا وجوزي تطلقنا، ليش بدي أرجع؟! رح نحاول نلاقي طريق من هون»، قلت لها: «زي ما بدك»، بعد عامٍ من المحاولات المرهقة نفسيًّا وماليًّا، والوقوع ضحيَّة المهرِّبين النصَّابين، قلت لها من جديدٍ: «ارجعي على الشام»، استسلمت وقرَّرت العودة. قبل عودتها شرحت لها الوضع في البيت وأنَّ صديقتي مع حفيديها يعيشون معي في البيت، وقلت لها: «إذا الوضع ما بناسبك، أنا بقدر دبِّر حالي واتركلك البيت، وأستأجر واحد ثاني، ما بدي تكوني مزعوجة»، قالت: «عائدة، ما عاد بدي شي من الدنيا، بس بدي أرجع، تعبت»، وشرعت في البكاء على الهاتف. حاولت تهدئتها قلت: «رح ترجعي، ورح يكون الوضع مثل ما بدك وأحسن».

عادت رائدة إلى دمشق امرأةً محطَّمة، أصبحنا ثلاث نساء محطَّماتٍ، أنا حطَّمني المرض، مها حطَّمتها المذبحة، ورائدة حطَّمها تفكُّك عائلتها. ثلاث محطَّماتٍ يسندن بعضهن في بلد يطحنه الموت والألم. وجدت رائدة فيما نفعل نوعًا من العزاء، وعدَّت أنَّ مساعدة الأخريات يعوِّضها عن فشلها في تغيير حياتها عن طريق اللجوء إلى بلدٍ أوروبيٍّ. انخرطت مباشرةً في مساعدتنا، وعادت ابنتها نور لإكمال دراستها الجامعيَّة في كليَّة الاقتصاد، فعندما غادرت كانت في السنة الثالثة. عادت نور محبطةً ومحطَّمةً أكثر من أمها، فقد بنت آمالًا على اللحاق بأختها في هولندا وإدارة ظهرها للبلد مرَّةً واحدةً وإلى الأبد، لذلك لم تكن قادرةً فعليًّا على الدراسة، لكنَّ الجامعة أصبحت المكان الذي تقضي وقتها فيه بديلًا عن اجترار أحزانها في المنزل. عادت بعد أشهرٍ عدَّةٍ وقالت لأمِّها: «ما رح أبقى بهذا الجحيم» كانت تقصد دمشق. أضافت: «رح أحاول مرَّة ثانية»، قالت رائدة: «يا أمِّي حاولنا وتبهدلنا، وأنت بتعرفي كل شي بالتفصيل»، قالت البنت: «بعرف، بس الموت أهون عليّ من الحياة هون، ما إلي بهذا البلد أي مستقبل، شو بدي أظل

أعمل. في كثير ناس حاولوا مرَّة وعشرة لحد ما نجحوا. وأن رح ظل حاول»، حارت رائدة بما تفعله مع ابنتها لأنَّها خائفةٌ عليها من خطر الطريق. وعندما سألتني ماذا تفعل وأًّنها خائفةٌ على ابنتها من الطريق الخطر الذي جرَّبته بنفسها سابقًا، كما أنَّها خائفةٌ عليها من إحباطٍ جديدٍ. قلت لها: «والله يا رائدة البلد حالها مش أحسن من طرق التهريب، نور معها حق، هذا البلد ما عاد فيه مستقبل لحدا، وهي بعدها بأوَّل شبابها. أنت شايفة الموت بكل مكان بالبلد، لو كنت بعمرها، لعملت مثلها وما تردّدت ولا لحظة»، تجادلتا كثيرًا، لكن في النهاية لم تستطع رائدة الوقوف في وجه ابنتها، استسلمت لخيار البنت وتركتها تجرِّب حظَّها من جديد، كانت موجةٌ كبيرةٌ بدأت تنتقل من سورية إلى تركيا ومنها إلى أوروبا بسرعةٍ غريبة. لم تكن رائدة خائفةً على ابنتها فقط، بل خائفةً على نفسها أيضًا. فنور هي آخر فردٍ من عائلتها بقي برفقتها، وبمغادرتها تصبح رائدة وحيدةً، طوال عمرها خافت من الوحدة، واليوم تجد نفسها وحيدةً في بلدٍ أصابه الجنون. بعد مغادرة نور تحوَّل إحباط رائدة إلى اكتئابٍ، كثيرًا ما باغتها وهي تبكي من دون سببٍ، تبكي بحرقةٍ، تبكي الخوف والوحدة والقلق وتبكي حالي أيضًا لأنَّ صحَّتي أخذت تتدهور بسرعةٍ.

تعبت من توسُّع دائرة البؤس والمعوزين، ما أقوم به من مساعدة المحتاجين تتضاءل قيمته كلَّ يومٍ. تنتشر الحاجة في البلد أسرع ممَّا ينتشر السرطان في جسدي، لن تكون القطرة وتجميعها كافيةً لإطفاء الحريق كما في الحكاية الإفريقيَّة. أشعر أنِّي لم أعد قادرةً على فعل أيِّ شيءٍ. يخذلني جسدي، لست قادرةً على الاستمرار، ولا القدرة على مقاومة المرض، تنهار مقاومتي. ينتصر المرض عليَّ في معركتي معه، وهي المعركة التي لم تكن شريفةً ولا متوازنةً إطلاقًا، يبدو آن الأوان للاستسلام.

الفصل الثالث:
عندما تكون التضحية مجانيَّةً
(رائدة عبد الرحمن أحمد خليل)

كان عليها الانتظار، لا أن تذهب وتتركني وحيدةً في هذا الجحيم، أعرف أنَّها مريضةٌ، وأعرف أنَّ صحتها تنهار، لكن ليس هذا وقت موتها، لم يبقَ لي في هذا البلد غيرها. صرختُ: «عائدة، هذا مش وقت تموتي، كسرتي ظهري. منشان الله لا. بدي ياكي، رح موت بلاكي، محتاجيتك كتير، أكثر ما أنت بتتخيلي، ما لازم تموتي»، لكنَّها لم تسمع صراخي، قرَّرت أن تذهب إلى موتها وتتركني وسط هذا الجحيم الذي خسرت فيه كلَّ شيءٍ، لقد دمَّرت الحرب البلد، وفي طريقها دمَّرت حياتي أيضًا. لم نكن عائلةً سعيدةً قبل أن تحترق البلد، لكنِّي كنت راضيةً عن عيشي، بعد صراعٍ طويلٍ ومريرٍ مع زوجي وعائلته، استطعنا أن نصل إلى حلٍّ وسط ونعيش معًا في الحدِّ الأدنى من الخلافات، ربما لم يكن هذا حقيقيًّا، بل مجرَّد وهمٍ في رأسي، لكن أقنعت نفسي به، ويبدو أنَّ الواقع ظلَّ على حاله.

عندما أتأمَّل حياتي والمسارات التي ذهبت فيها، أصاب بهستيريا الضحك أحيانًا، وبهستيريا البكاء أحيانًا أخرى. أيُّ حياةٍ غريبةٍ عشتها؟! لطالما حسدت عائدة على حياتها. أعرف أنَّ حياتها لم تكن سهلةً، لكنَّها كانت حياتها، عاشتها كما أرادت، المشكلات التي مرَّت بها هي الثمن

الطبيعي لخيارها الصعب الذي اختارته، لذلك زادت المصاعب حياتها غنى. أمَّا حياتي فقد انشغلت فيها بكيف أصنع حياتي كما يُريدها الآخرون؟ كانت النتيجة لا شيء، لا أرضيت الآخرين، ولا عشت حياتي كما رغبت عيشها. حاولت المحافظة على علاقاتٍ جيِّدةٍ مع الجميع، مهما كانت الخلافات بينهم، وظننت أنِّي نجحت في ذلك، لأعرف فيما بعد أنَّ هذا مجرَّد وهمٍ آخر في حياتي، لأنَّه لا يمكن إقامة علاقةٍ جديَّةٍ على القدر نفسه بين شخصين متصارعين. فهذه العلاقات في أحسن الحالات تبقى سطحيَّةً، لأنَّنا لا نعرف الآخرين، ولا الآخرين يعرفوننا، كلُّ العلاقات تقوم على المجاملات السخيفة، في الوقت الذي نعتقد أنَّنا نقيم علاقاتٍ حميمةً مع كلِّ الأطراف، لا يعدُّ الآخرون هذه العلاقات جزءًا من علاقاتهم الجديَّة. عرفت ذلك في كلِّ مرَّةٍ جاءت الحياة لتختبر هذا النوع من العلاقات. في لحظة الحقيقة خذلني الجميع.

بدأت القصة من عائلتي وأنا طفلة، في الوقت الذي عرفت أنَّ أمِّي وأبي على خلافٍ دائمٍ، حاولت أن أقيم علاقةً متوازنةً مع الاثنين، لأنِّي لا أريد خسارة أيٍّ منهما، لكنَّ أبي عدَّنا جميعًا، لا سيَّما نحن البنات منحازات إلى أمِّي في صراعهما، وبهذا سوَّغ غضبه علينا ومقاطعتنا جميعًا في مرحلةٍ لاحقةٍ من حياتنا. صحيحٌ أنَّنا كنَّا منحازاتٍ إلى أمِّي، وجاء هذا الانحياز لأنَّ أبي لم يترك خطأً لم يرتكبه معها ومعنا، ونحن لم نكن نراها معركةً بينهما كما رآها. من الظلم أن تطلب من طفلٍ الوقوف مع أحد والديه وقت الخلاف، هذا يعني تمزُّقه. رغم ذلك حاولت المحافظة على علاقةٍ جيِّدةٍ مع أبي. وعندما تشاجرت عائدة معه حول التضحية التي يقوم بها بوجوده في السعودية من أجلنا. كان بإمكان عائدة أن تسمع الكلمات وتسكت، ويمرَّ كلَّ شيءٍ بسلامٍ، فهي ليست أوَّل مرَّةٍ يُسمِعُنا كلامًا قاسيًا، ولن تكون الأخيرة. كان لعائدة رأيٌ آخر، إنَّه لا يمكن قبول هذا، لأنَّ التواطؤ مع كذبه سيجعله يتمادى أكثر. لم أدرك أهميَّة ما أقدمت عائدة به، إلَّا عندما عاد

أبي من السعودية وفتح المكتبة في بيت جدِّي. كنَّا في زيارة له في مكتبته عندما أعجبني دفتر رُسمت عليه صورةٌ جميلةٌ لطفلةٍ. قلت: «بابا، بدي هذا الدفتر..»، قال لي: «ادفعي حقه»، لم أصدِّق ما أسمع، عمِّي خليل الذي كان واقفًا مع أبي في الدكان وشاهد الدموع في عيني قال: «يا زلمة، حرام عليك، أعطيها الدفتر وأنا بدفع حقُه»، قال أبي: «أنا ما بقول هيك منشان حق الدفتر، لا، أنا بقول هذا الكلام منشان ما يستبيحوا المكتبة»، قال عمِّي باستغرابٍ: «شو بتحكي يا رجل؟!».

لم أسمع بقيَّة كلام عمِّي لأنِّي خرجت من المكتبة إلى بيت جدِّي الملاصق للمكتبة، وهناك انفجرت في البكاء. عندما سألتني جدَّتي: «ليش بتبكي يا ستي. شو في؟»، لم أستطع أن أقول لها ما جرى، قلت: «وقعت يا ستي»، قالت: «بسيطة يا ستي. الله يحميكي».

هل يستحقُّ دفترٌ من الرسوم كلَّ هذا، وماذا يعني قوله: «منشان ما يستبيحوا المكتبة»، من نحن الذين نستبيح المكتبة، غرباء مرُّوا بالمصادفة ويسعون لسرقته، ألسنا أولاده وهو المسؤول عنَّا؟ أليس من حقِّنا عليه أن يُقدَّم لنا ما نحبُّ، وألَّا يعاملنا كغرباء؟! عندما عاد إلى البيت في المساء، أحضر دفتر الرسم، الذي فتح جرحًا غائرًا عندي لم يندمل إلى اليوم، وقدَّمه لي. وعندما خرج من الغرفة، نظرت إلى دفتر الرسم، رفعته من مكانه وأخذت بتمزيقه، وكنت أرغب في تمزيقه أمامه، لكنِّي لم أجرؤ على فعل ذلك. وقتها قلت إنَّ عائدة معها حقٌّ في الردِّ على أبي. شخصٌ أنانيٌّ وشكَّاك، يحاول أن يقنعنا ويقنع نفسه أنَّه الأب المثالي، رغم أنَّنا لم نرَ منه سلوك الأب يومًا. هذا التخلِّي رافقه طوال عمره، وجد خالي يساعدنا فتخلَّى عن مهامه كأبٍ، وترك الأمور تذهب إلى حيث تشاء طالما أنَّها لا تكلِّفه شيئًا. حرص أمي على الحفاظ على صورة العائلة المثاليَّة، ساعد أبي في التوغُّل في هذه السلوكيَّات، فلم يعرف سوى عددٍ قليلٍ من الأشخاص المشكلات التي نعاني منها. عدَّت أمي هذه القضيَّة حاسمةً، لأنَّ صورة العائلة تؤثِّر على

مستقبل وخيارات بناتها في الزواج، وعندها ثلاث بناتٍ، ولا تريد أن تغامر بمستقبلهنّ، وفعلت كلّ ذلك معتقدةً أنّها تحمي مستقبلنا. لم تعرف أنّ أقدارنا لن تحكمها صورة أبٍ وأمٍّ على تناحرٍ دائمٍ، تصوِّرها الأمُّ على غير حقيقتها. تزوَّجت عائدة من جورج بعد قصَّة رعبٍ عشناها، وأنا تزوَّجت فاروق بالطريقة التقليديَّة، وسائدة لم تتزوَّج أصلًا. بقيت عازبةً طوال حياتها وهربت من البلاد لأنَّها لم تطقِ العيش هنا منذ زمنٍ بعيدٍ. تفكَّكت صورة العائلة التي حاولت أمِّي الحفاظ عليها قبل الحرب، وأبي الذي بقي يتعامل مع عائلته بغرابةٍ، يوم زعلان ويوم رضيان، يوم يهرب من البيت ويوم يصبح البيت بيته، لا سيَّما بعد أن انتقلنا من المخيَّم إلى البرامكة. وبقيت الحال على هذا المنوال، حتَّى قرَّر الزواج من ثانيةٍ بعد أن تجاوز الخامسة والستين من عمره. شكا طوال عمره أنَّه لم يعش حياته، وأنَّ أهله زوَّجوه وهو طفلٌ صغيرٌ. وكلُّنا نعرف أنَّه يكذب، لأنَّه أصرَّ على هذا الزواج وأهله كانوا رافضين له، وأذعنوا بناءً على إصراره وهو في بلدٍ آخر. وعندما قلت له بعد سنواتٍ طويلةٍ: «جوَّزوك وأنت طفل، ما كبرت؟»، لم يجد ما يقوله، رمقني بنظرة احتقارٍ وتوقف عن الكلام. لم تسعَ أمي طوال خمسين عاماً من زواجها من أبي للخلاص منه، رغم الخلافات المتكرِّرة التي لا تعدُّ ولا تحصى بينهما، ورغم أنَّ العصمة بيدها، فهي لم تستخدمها. انتظرته أن يُقدِمَ على خطوة الطلاق، لكنَّه لم يفعل، رغم أنَّه عاش خارج منزل العائلة أكثر ممَّا عاش داخله. لم يفعل ذلك، رغم أنَّه هدَّد بذلك آلاف المرَّات. لديَّ يقينٌ أنَّه لم يفعل ذلك لأسبابٍ ماليَّةٍ، في الوقت الذي لم يدفع أيَّ شيءٍ في مصروف المنزل، كان يبدو للبعيدين أنَّه رجلٌ ملتزمٌ ببيته ويُؤدِّي واجباته، وفي حال تطلَّق قد يضطر لدفع بعض المال وهذا لا يريده إطلاقًا. منذ بداية الشجارات بينهما، تعهَّد خالي لأمِّي أن يكون مصروفها ومصروفنا منه ولا تشغل بالها به طالما هو حيٌّ. وعرف أبي بالتعهُّد، ف يدفع أيَّ مبلغٍ في البيت، وتحوَّل فعليًّا إلى ضيفٍ عندنا. عندما تزوَّج للمرَّة الثانية، ظنَّ أنَّ

الأمور ستجري مثلما كانت تجري سابقًا، لم يكن هذا رأي أمي إذ سرعان ما استخدمت العصمة التي تملكها، والتي لم تستعملها أو تهدِّد بها من قبل، قالت: «ما عاد في داعي تبقى هاي الورقة بينا». عندما اتخذت قرارها كانت قد تجاوزت السبعين من عمرها. ومن سخرية القدر، أنَّ أبي دُهِشَ من إقدامها على تطليقه، وكأنَّه لم يحطِّم ما تبقَّى من خيوطٍ واهيةٍ معها بزواجه من امرأةٍ أخرى.

جعلتني الحياة القلقة التي عشتها متردِّدةً في كلِّ شيءٍ. لم أستطع طوال حياتي أن أتخذ موقفًا واحدًا وسريعًا من حدثٍ محدَّدٍ، قضيت عمري متقلِّبةً من النقيض إلى النقيض، أريد الشيء بقوَّةٍ، وفجأةً أتخلَّى عنه، أعود وأندم وأصبح أريده من جديد، وهكذا. لم أكن قادرةً وحدي على حسم أمري، أسأل الآخرين عن الأشياء، وأنفِّذ ما يقولونه لي، شعرت أنَّ حياتي ليست لي، وأنِّي غير قادرةٍ على التحكُّم بها، أتركها ليتحكَّم الآخرون بها. عرفت ذلك ولم أستطع تغييره، يتحكَّم الآخرون بحياتي لأنِّي أريد ذلك، فأنا من أسألهم وأنفِّذ نصائحهم، خوفًا من قراري الخاطئ. وعندما أنفِّذ ما قالوه أندم، وأشعر أنَّ أفكاري الخاصَّة كانت أفضل من نصائحهم التي أدخلتني في مشكلاتٍ أنا في غنًى عنها، لم أثق يومًا بأفكاري، وهذا ما دمَّر حياتي، ولم أستطع أن أختار شيئًا في حياتي حتَّى ملابسي الشخصيَّة. اعتمدت على خيارات أمي وأنا طفلةٌ، وعندما أصبحت في المراهقة اعتمدت على خيارات أختي عائدة. التي كثيرًا ما قالت لي: «هاي مش مشكلتي، لازم تحلِّي مشاكلك لحالك، ما فيكي كل مرَّة تعتمدي على الآخرين. هاي حياتك، وأنت لازم تقرِّري فيها الكبيرة والصغيرة»، كنت أرجوها وأقول: «منشان الله عايدة، هاي آخر مرَّة، المرَّة الجاي أنا بقرِّر»، وفي كلِّ مرَّةٍ قلت: «هاي آخر مرة» لكن المرَّة الأخيرة لم تأتِ. بعدها اعتمدت على صديقاتي، وعندما كبرت أصبحت أعتمد على ابنتي حنان.

لا أذكر حياتي في السعودية، كنت طفلةً صغيرةً عندما عدنا إلى دمشق، حياتي في السعودية شيءٌ غائمٌ يمرُّ في ذاكرتي. من الممكن أنّي لا أرغب في تذكُّرها لأنَّها تجربةٌ قاسيةٌ كما قالت عائدة، وهذا ما جعلني أرفض تذكُّرها. أعدُّ أنَّ حياتي بدأت من العودة إلى المخيَّم. هناك عرفت أنَّ الحياة فيها أقارب وأصدقاء وأعياد وتحضيراتٌ للعيد، أي وجدت نفسي بين آخرين أصبحوا عائلتي ومجتمعي. وجدت مكانًا أنتمي إليه، ووجدت بشرًا يشبهونني. في البداية كان بيت جدي الحاضنة لنا، كنَّا عائلةً فيها خمسة أطفال، وبيت جدِّي فيه أربعة أطفال من أعمارنا، هم أعمامي وعمَّاتي، وأولاد عمِّي خليل وعمَّتي بيان كانوا صغارًا، كان يجتمع في بيت جدِّي أكثر من عشرة أطفال، وهو ما كان يشعرني بالسرور. وعندما يجتمعون في بيتنا، أحاول كلَّ شيءٍ من أجل إرضاء الجميع حتَّى يبقوا أطول مدَّةٍ ممكنةٍ، لأبقى أعيش هذه السعادة. لم تدم هذه الحالة مدَّةً طويلةً، لأنَّ الخلافات العائليَّة، لا سيَّما بين أبي وأمي، بدأت تؤثِّر علينا، فأخذت هذه العلاقات بالانحسار تدريجيًّا، وأصبحت نادرةً بعد انتقالنا إلى وسط دمشق.

لم أغب طويلًا عن المخيَّم، لم أستطع تجاوز امتحان الثانوية العامَّة مرتين، وهذا أحبطني، كان السبب واضحًا، لم أبذل الجهد اللازم والكافي الذي يمكِّنني من النجاح، لكنِّي أعدت ذلك إلى حظِّي السيِّئ. لم يكن عندي الرغبة في الدراسة الجامعيَّة، قرَّرت أصلًا إتمام الدراسة الثانوية، والتوقُّف بعدها، لكنِّي لم أستطع اجتيازها. حاولت عائدة إقناعي بالدراسة من جديدٍ وبأهميَّة الشهادة، بحججٍ لا تنتهي، لكن هذه النصيحة التي قدَّمتها وقدَّمها الآخرون لي أيضًا، هي النصيحة الوحيدة التي لم أسمع كلامهم فيها. عندي دراسةٌ، ولم يكن هناك أيُّ عملٍ يمكن أن أقوم به، أصبح طبيعيًّا أن أنتظر العريس الذي سينقلني من بيتنا إلى بيته. لم أرغب في القيام بأيِّ شيءٍ، لا الدراسة ولا العمل ولا الزواج، لكنَّ الحياة لا تقف عند رغباتي، مع العريس

الثالث الذي تقدَّم إليَّ، وجدت نفسي أتزوَّج من فاروق وأعود للسكن في المخيَّم.

كان فاروق من الطلاب المتفوِّقين في معهد المهن التابعة للأونروا الواقعة في منطقة المزَّة، حيث درس هناك خراطة المعادن، ولأنَّه كذلك اختير أستاذًا للمادة للطلاب في معهد المهن ذاته للمادَّة ذاتها. وكانت الأوضاع الماليَّة للعاملين في الأونروا جيِّدةٌ مقارنةً بالعاملين بالدولة، يأخذون رواتب أعلى، ويستطيعون توفير رواتبهم بالدولار واستلامه بالدولار بعد عامٍ ثمَّ تصريف هذا الراتب بما يعادل ثلاثة أضعاف سعر الدولار كما تصرفه الحكومة السوريَّة. وهذا يجعل الرواتب تتضاعف ثلاث مرَّاتٍ. لذلك عدَّت عائلتي فاروق عريسًا جيِّدًا لي لأنَّ عمله جيِّدٌ ومضمون، وبعد سنواتٍ طويلةٍ سيحصل على تعويض نهاية خدمةٍ كبيرٍ وبالدولار. دار كلُّ الكلام حول المال الضامن لحياتنا المشتركة، لم أعترض عليه، شعرت أنَّ الكلام ناقصٌ، لأنَّ أحدًا لم يسألني ما أريد. اقتصر الكلام كلُّه على الظروف وليس على البشر. لم أدرك هذا في ذلك الوقت، لكن عندما أتذكَّر تلك الفترة، أشعر أنَّ الكلام كان يدور حول، هل يستطيع هذا الشخص أن يوفِّر لي الحياة التي أريدها أم لا؟! لم يكن هناك أسئلةٌ عن مشاعري، عن الحبِّ، عن خياراتي، عن رغبتي في الزواج في المبدأ أم لا. لم أجد ما يعيب الرجل، اقتنعت بما يقولون. وبقي السؤال عن الرجل نفسه. عندما قالت أمِّي لأبي: «لازم تسأل عن الشب»، قال: «ليش بدي أسأل عنُه، أوضاعُه مناسبة لبنتنا، وهو من عيلة مستورة، ومن بلدنا»، ظنَّ أبي أنَّ هذه المعلومات كافيةٌ للموافقة على زواجي من الشاب. لم يخطر له السؤال عن أخلاقه، عن عاداته السيِّئة، عن طبيعته من بخلٍ، أو كرمٍ، أو قسوةٍ، أو طيبةٍ... الخ. عندما لم يقم أبي بالمهمَّة، طلبت أمي منِّي الذهاب إلى عمِّي خليل، والطلب منه أن يسأل عن الشاب. لم أخبره أنَّ أبي لا يريد السؤال عن الشاب. قال عمِّي: «أكيد عمي رح أسأل عنُه، أنت بنتنا وحياتك ومستقبلك

بتهمني»، سأل عمِّي عن فاروق في المخيَّم، وقال: «هو شب من عيلة محترمة، أبوه عندُه ملحمة، وهو بحب عملُه بالمعهد. هو شخصٌ لطيفٌ. ما بشرب وما بدخن. المسا بساعد أبوه بالملحمة، مثل لما كان طالب. ما سمعت عنُه شي سيِّئ. بالنهاية يا عمي، هذا اللي عرفتُه، ويمكن يكون في أشياء ما عرفتها عنُه، وبكل الحالات ما حدا بعرف كيف رح يكون زوج. كل اللي سألتهم شهدوا فيه شهادة طيِّبة. ما في شي بعيب الرجَّال. بس القرار بيرجع إلك»، عندما قلت لأبي أنَّ عمِّي خليل سأل عن فاروق ويقول إنَّه رجلٌ جيِّدٌ، عدَّ ذلك تبنِّيًا من عمِّي خليل لهذا الزواج، ما يعطيه الحقَّ في التخلِّي عن أيِّ مسؤوليَّةٍ تجاهي وتجاه هذا الزواج. لذلك في كلِّ الخلافات والشجارات التي نشبت لاحقًا بيني وبين فاروق ولجأت فيها لأبي، أحالني إلى عمِّي خليل بوصفه المسؤول عن: «الجوز السيِّئ الذي جابه»، كما كان يقول، لم يكن لعمِّي خليل أيَّ يدٍ في زواجي، ونحن الذين طلبنا منه السؤال عن فاروق، ولم ينقل أيَّ معلومةٍ خاطئةٍ عنه.

منذ بدايته، كان زواجي مُربكًا، قد أكون السبب، وقد يكون فاروق، أو نحن الاثنين معًا، وقد تكون التدخُّلات الخارجيَّة من أهله، وقد يكون كلُّ ذلك مجتمعًا. لكن هناك شيءٌ واحدٌ أنا متأكِّدةٌ منه. منذ اليوم الأوَّل، لم أشعر بالراحة في المنزل، ولم أشعر أنَّه منزلي، رافقني هذا الشعور طوال مدَّة سكننا المشترك مع أهله. فقد سكنَّا في المبنى ذاته، صحيحٌ في شقَّةٍ منفصلةٍ، لكنَّها منفصلةٌ نظريًّا، لأنَّه وفي المخيَّم بالذات، السكن المشترك في بنايةٍ جميع سكَّانها من العائلة نفسها، حتَّى لو كانوا يسكنون في شققٍ منفصلةٍ، الأبواب والجدران لا تعني شيئًا في هذه البيوت، الكلُّ يقتحم حياة الآخرين القاطنين معه برضاهم أو بغيره، وهذا يعود إلى طبيعة المكان المزدحم وطبيعة علاقات البشر في هذا المكان الضيِّق. ويبدو أنَّ السكن خارج المخيَّم، جعلني أرى عيوب العيش فيه أكثر من القاطنين هناك. إنَّ الاعتياد على أشياء يحولها إلى أشياء مهمَّةٍ من دون أن ننتبه، عندما سكنَّا في المخيَّم،

اندمجنا فيه، وكنَّا سعداء بعد عودتنا من السعوديَّة أن نجد بشرًا نستطيع أن نراهم متى نشاء، وأن نجتمع ثلاث عائلاتٍ معًا، وننام في بيت جدِّي رغم أنَّ بيوتنا قريبةٌ ونستطيع العودة إليها في أيِّ وقتٍ. لم نكن نرى أنَّ من المهمِّ العودة إلى بيوتنا. على العكس، كنَّا نشعر أنَّ الوجود مع الجماعة نوعٌ من الحماية من العزلة والوحدة، وأنَّ كلَّ البيوت بيوتنا. بعد العيش سنواتٍ في وسط البلد، حيث الجيران لا يدقُّون بابنا إلَّا في حالاتٍ نادرةٍ وطارئةٍ، وزيارات الأقارب في المناسبات، وعلاقاتنا باتت بمواعيد بسبب المسافات، أصبحت هذه الحياة نوعًا من الاعتياد على الهدوء. العودة إلى صخب المخيَّم يمكن عدُّه جميلًا لأيَّامٍ عدَّةٍ، وليس لحياةٍ كاملةٍ. يبدو أنَّ هذه واحدةٌ من الأشياء التي جعلتني لا أشعر بالارتياح للسكن في المخيَّم. كما أنَّ العيش مع حماةٍ قويَّةٍ وثلاث نساءٍ عانساتٍ، وهنَّ أخوات فاروق اللواتي لم تأتِ فرصتهن في الزواج، وكأنِّي المسؤولة عن بقائهنَّ في بيت أهلهنَّ من دون زواجٍ. شعرت أنَّ العودة إلى المخيَّم، هو انتقالٌ إلى عشٍّ للدبابير. وفي الوقت ذاته أراد فاروق أن يثبت أنَّه الرجل في البيت، لذلك خضع لإملاءات أمِّه، بحجَّة أنَّها امرأةٌ كبيرةٌ ولا يريد إغضابها وعليَّ تحمُّل أفعالها، ولا يستطيع أن يُغضبها من أجلي. أنا التي اخترت الذهاب إلى المخيَّم لأنِّي أريد العيش بهدوءٍ، وجدت نفسي في وسط عاصفةٍ أقوى منِّي، بدأت المشاكل منذ الأيَّام الأولى لزواجي. وكان عليَّ التعامل مع كلِّ هذه المشكلات دفعةً واحدةً، لكن كيف؟ وأنا التي كنت أتردَّد في أتفه المسائل. حتَّى لا أغضب كنت أتمهَّل بالردِّ، أو لا أردُّ، حتَّى لا أتسبَّب بمشكلةٍ. وعندما أفعل ذلك، أجد نفسي أقع في مشكلةٍ أكبر، لأنَّ أخوات فاروق عددن ذلك تصرُّفًا متعاليًا وتعاملًا معهنَّ بعدم احترامٍ، بعدئذٍ تحوَّلت المشاكل إلى حربٍ حقيقيَّةٍ، لم يمرَّ أسبوعٌ من دون مشكلةٍ، ولم يمرَّ شهرٌ من دون مشكلةٍ كبيرةٍ. كُنَّ يسخرن منِّي، ويَعدُدنَ تعاليَّ يأتي من أنَّني أعدُّ نفسي ابنة مدينةٍ أتكبَّر على المخيَّم، وقلن: «لكان يا عمي، ابنة مدينة ما عادت تعرف تعيش بالمخيَّم!»،

ويكرِّرن ذلك كلَّما أردن إغاظتي. كنت أكظم غيظي، وأركض إلى غرفتي وأشرع في البكاء، الذي كان متنفَّسي الوحيد في ذلك السجن الذي عشت فيه. خلال حوالي عامٍ ونصفٍ عدت إلى بيت أهلي ثلاث مرَّاتٍ، وأنا غاضبةٌ، ويستمرُّ زعلي أسبوعًا حتَّى يأتي فاروق ويعتذر، ويرجوني أن أعود. وبعد ولادة ابننا، أصبح فاروق يستخدمه وسيلةً للضغط عليَّ من أجل العودة، وبعد عامين أصبحا ولدًا وبنتًا، وكانوا كلما وجدوني أكثر ارتباطًا ببيتي بسبب أولادي، كلَّما زادوا الضغط عليَّ من دون أن أفهم ما الذي يريدونه منِّي بالضبط، ولماذا كلُّ هذه المشكلات، هل بسبب الغيرة أم الفراغ؟ ولم أكن أعرف كيف أستطيع إرضاءهم لتركي أعيش بسلامٍ. بعد ثلاثة أعوامٍ لم أعد أحتمل أكثر، وأصبحت أشعر أنِّي أعيش في الجحيم. كان ذلك عندما راجعني فاروق وسألني غاضبًا: «ليش بتقولي عن أخواتي شراميط؟»، قلت وأنا مدهوشة: «أنا قلت هذا؟!»، شعرت أنَّه لا يسألني لأنَّه متشكِّكٌ، بل يدلُّ كلامه أنَّه متأكِّدٌ ممَّا يقول ومتأكِّدٌ من أنِّي قلت مثل هذا الكلام. طبعًا لم أكن ملاكًا، وشكوت كثيرًا من تعامل حماتي وبناتها معي، وقلت إنَّهم: «ناس مشرشحين، بدهم ينتقموا منِّي، بس ما بعرف على شو!»، وقلت: «مين بقدر يعيش مع هيك نسوان؟ والله بجننوا اللي بتجوزوه، منشان هيك عنسوا»، قلت: «مجرمات، ما عندهم رحمة، رح يجننوني»، قلت هذا وأكثر، وهنَّ لم يقصِّرن في الكلام السيِّئ عنِّي. عندما عرفنَ أنَّ أختي عائدة متزوِّجةٌ من رجلٍ اسمه جورج، أصبحن يشهِّرن بنا بوصفنا عائلة نساءٍ شراميط وكافرات، نساؤهن يتزوَّجن من وراء أهاليهنَّ من مسيحيِّين. رغم ذلك لم استخدم الصفات التي تمسُّ بالشرف، وكنت حريصةً ألَّا أستخدمها في حديثي عن بنات حمايّ أو غيرهن من النساء. عندما سمعت اتهام فاروق الذي ينقله عن أمِّه وأخواته، لم يبقَ ما يقال، شعرت أنَّ هذا الزواج إذا استمرَّ سيؤدِّي إلى جريمةٍ في نهاية المطاف. قلت لفاروق بلغةٍ حازمةٍ على غير عادتي: «طلقني»، كانت أوَّل مرَّةٍ أطلب منه الطلاق، ولم أرميه كنوعٍ

من التهديد، بل قصدت الكلمة بكلِّ معناها: «ما عاد إلي مكان في هاد البيت»، أضفت، وأخذت أجمع أغراضي. قال: «بتهدّديني؟ رح أعملك اللي بدك إياه»، وكأنَّه انتظر أن أقول هذه الكلمة، وبعد أسابيع عدَّةٍ أرسل ورقة الطلاق إلى عنوان بيت أهلي في البرامكة.

عندما تزوَّجت عدت وحدي إلى المخيَّم، ولما عدت مطلَّقةً إلى بيت أهلي، عدت ومعي ولدين. شعرت بالظلم مرَّتين، الأولى لأنَّ بيتي تهدَّم من دون أن يكون لي ذنبٌ في ذلك، والثانية أن أعود بطفلين وأتحمَّل مسؤوليَّتهما، لا أتذمَّر منهما فهما ولداي وأريدهما معي، لكنِّي شعرت بعبء المرأة المطلَّقة، كيف تُعَاقَبُ بأغلى ما عندها، أولادها. لم أكن سعيدةً بالعودة إلى بيت أهلي، لكن ما جعل الأمر محمولًا، أنَّه لم يبقَ في بيت أهلي سوى أمِّي وأختي سائدة وأخي محسن. عائدة تزوَّجت. ورضوان سافر للعمل عند خالي في السعودية. ومحسن وجد طريقه للهجرة إلى كندا بعد سنةٍ من عودتي إلى بيت أهلي. لم أكن منزعجةً، لقد انتهيت من الجحيم، هناك في بيت زوجي كنت متوتِّرةً طوال الوقت، أنتظر مفاجأةً سيِّئةً في كلِّ لحظةٍ، لدرجة لم أعد أتوقَّع أيَّ مفاجأةٍ جيِّدةٍ. جاء إحباطي الأكبر من وضعي، فقد كنت امرأةً بلا تعليم وفرصتها في إيجاد عملٍ متواضعةٌ أو في قطاعاتٍ غير مرغوبةٍ. كنت أنظر إلى سائدة التي تعمل مدرِّسةً في المدرسة الثانوية للفنون، وإلى عائدة مدرِّسة التاريخ في ثانويات دمشق، وأحسدهما على عملهما الذي منحهما استقلالهما، تمنَّيت أن أكون مثلهما، لكن ذلك لم يكن ممكنًا. لست مثلهما، هنَّ نساءٌ قويَّاتٌ وأنا امرأةٌ مسكينةٌ. حاولت عائدة وسائدة إقناعي بالعودة للدراسة، لكنِّي لم أستطع فعل ذلك، فأنا التي فشلت فيها وأنا شابَّةٌ ولم يكن عندي أولاد، كيف يمكنني أن أنجح وأنا عندِّي كلَّ هذه المشاكل؟! كما أنِّي خفت من الفشل من جديد، وبعد أن فكَّرت بالموضوع، قرَّرت صرف النظر عنه، لن أحتمل فشلًا آخر في حياتي، «بكفِّيني المرَّات التي فشلت فيها. وماني بحاجة لفشل

جديد» قلت لنفسي. ربَّما اتخذت هذا القرار لأنِّي لم أحتَج إلى تغيير حياتي رغم كلِّ الظروف التي مررت بها. فالوضع الماليُّ الذي عادةً ما يكسر ظهر المرأة عند طلاقها لم يكن ضاغطًا عليَّ، لا سيَّما أنَّ خالي قد تعهَّدني وأولادي كما تعهَّد أمِّي، وأصبح يرسل لي مساعدةً شهريَّةً ثابتةً، وكان هذا حلًّا بالنسبة لي، كما أرسل فاروق المال من أجل أولاده، صحيح ليس كما أريد أنا، لكنَّه لم ينقطع عن إرساله، فهو لم يرغب في الذهاب إلى المحاكم من أجل نفقة الأولاد، فهو يعرف أنَّها تحكم بمبالغ أقلُّ من تلك التي يرسلها، والمحاكم مكانٌ أخر لتعذيب النساء، حيث تعطي النساء الفتات من دخول أزواجهن، للنفقة على أولادهن. عدَّ ذهابه إلى المحكمة من أجل نفقة أولاده، إهانةً له ويرسم صورةً غير لائقةٍ له أمام أولاده وأمام الآخرين، فطلب حلًّا للمشكلة بعيدًا عن المحاكم، وهو الحلُّ الأفضل بالنسبة لي أيضًا، وهذا ما كان.

في تلك الأيَّام، أعجبني شعوري كوني مظلومةً ويتعاطف الآخرون ويقفون معي أنا وأولادي. بعد مرور الفترة الأولى الصعبة من طلاقي، بدأت أعتاد على الحياة الجديدة، فقد خرجت من ضغطٍ شديدٍ في منزل زوجي إلى التحرُّر من كلِّ قيدٍ. لا أحد يتحكَّم بتصرُّفاتي وسلوكي ويمليها عليَّ، لا أبي يتدخَّل في حياتي، منذ طلبت منه أن يقف معي في مشاكلي مع زوجي، تهرَّب وأحالني إلى عمِّي. ولم تهمَّه النتيجة، سواءً أصبحت ابنته مطلقة أم دُمِّر بيتها. ولا يهمُّه هل أعيش سعيدة أم تعيسة؟.. إلخ. لم يكن يهمه سوى نفسه، ولا يريد من أحدٍ أن يقترب منه، لا ابنًا ولا أخًا ولا أحدًا، وهذا ما كان له. وعندما عدت إلى بيت أهلي، كان متشاجرًا مع أمِّي، وقضى أكثر من ستة أشهرٍ خارج المنزل، وهذا ما أراحني في الفترة العصيبة من طلاقي. وعندما عاد إلى المنزل من جديدٍ، لم يسألني شيئًا عن مشكلتي مع فاروق، وكأنَّ شيئًا لم يحدث، وأنا لم أشكُ له، وكأنِّي لم أتطلَّق إنَّما في زيارةٍ طويلةٍ إلى بيت أمِّي الذي هو ضيفٌ فيه مثلي. كان التحرُّر من الأوامر الميزة الأولى

التي شعرت بالارتياح لها، وعندما بدأت أقارن وضعي عند أهلي ووضعي في بيت زوجي، كانت المقارنة لمصلحة بيت أهلي. أكيد هناك ميِّزاتٌ وعيوبٌ في كلا الحالتين، ميِّزات العيش عند أهلي أكثر وعيوبها أقلُّ. فعندما فكَّرت في الموضوع وجدت أنَّ وضعي قد تحسَّن بالطلاق ولم يصبح أسوأ. صحيحٌ أنَّني بقيت أسمع الكلام المتكرِّر من أنَّ «مكان المرأة بيت زوجها»، و«والمرة ما الها غير الستر»، و«ظل راجل ولا حيطة»، إلى غيرها من التعابير عن أولويَّة الزوج. أخافني هذا الكلام، لكنَّ الواقع الذي أعيشه يقول غير ذلك، إنَّ خسارة الزوج ليست نهاية العالم، وأنَّ المرأة تستطيع العيش بلا رجلٍ، إذا لم تعضَّها أسنان الحاجة. أقول هذا رغم مصاعب العيش بلا رجلٍ في هذا البلد. عندما عرف الرجال أنِّي امرأةٌ مطلَّقةٌ، عدُّوني سهلة المنال، وأنَّني أنتظر أيَّ إشارةٍ من أيِّ تافهٍ منهم، حتَّى أركض خلفه إلى الفراش، بوصفي محرومةً من الجنس وهو الفحل الذي سيحلُّ مشكلتي، صورةٌ بشعةٌ للمرأة المطلَّقة من خيالٍ اجتماعيٍّ مريضٍ. ليس هناك منهم من يفكِّر في علاقة حبٍّ أو زواجٍ مع مطلَّقةٍ ومعها أولاد أيضًا، كلُّ ما فكَّروا فيه أن أكون صاحبةً لأيَّامٍ أو أشهرٍ عدَّةٍ وبعد ذلك كلُّ واحدٍ يذهب في طريقه، ويكون أضاف لقائمة إنجازاته النسائيَّة امرأةً أخرى ليفاخر بأنَّه حصل عليها. كان المطلوب منِّي أن أكون شرموطةً بالمجان. لم أكن أعرف الرجال قبل أن أتزوَّج، وفاروق الرجل الوحيد الذي عرفته عن قربٍ، لقد قرَّفني الرجال، أمَّا بعد طلاقي، عرفت حقارة الرجال وتفاهتهم. يقومون بدور الرجال على زوجاتهم وأخواتهم، ويتحوَّل الواحد منهم إلى مسخٍ ومهرِّجٍ عندما يقابل امرأةً غريبةً، يريد إقناعها أنَّه الرجل الألطف في هذا العالم، وحقيقة حياته أنَّها سلسلةٌ من النذالات. منذ انفصلت عن فاروق عاهدت نفسي ألَّا أقرب رجلًا طوال عمري، وحذف الرجال من حياتي، أتعامل معهم، لكن لن يدخل رجلٌ آخر حياتي من جديد، حياتي لن يكون فيها سوى أولادي ولا شيء آخر. هذه القاعدة التي اعتمدتها بعد طلاقي، وهذا يعني

أنِّي يجب أن أصنع لنفسي حياةً مستقلَّةً، رغم أنِّي لا أعمل، فقرَّرت أن استثمر المال الذي معي على قلَّته في أعمالٍ قصيرةٍ ومضمونةٍ وتدرُّ عليَّ بعض المال الإضافيِّ. ومن جهة أخرى أن أوفِّر بقدر ما أستطيع من المال الذي يرسله خالي لتوسيع أعمالي. لم تكن أعمالًا محدَّدةً، أحيانًا وضعت هذا المال مع أخ لصديقتي عبير يتاجر بالزيت في موسم الزيت ويحتاج إلى المال، لأنَّ المال الذي معه لا يكفي، فأشاركه في هذه التجارة على أن يعيد إليَّ المال مع الأرباح بعد أن ينتهي الموسم الذي لا يطول أكثر من شهر.

كانت أرباح تجارة الزيت جيِّدةً، مرَّةً واحدةً في السنة مردودها جيِّدٌ. وفي أوقات أخرى أشارك في شراء دكَّانٍ أو شقَّةٍ صغيرةٍ، وبعد شهرٍ أو شهرين، عندما يرتفع سعرها نبيعها ونربح بعض المال. وأحيانًا أشارك منيرة صديقتي التي كانت تعمل في الملابس النسائيَّة المهرَّبة من لبنان أو تركيا. هي تجلب البضاعة وتبيعها وأنا آخذ نسبتي، وأحيانًا آخذ بعض الملابس وأبيعها ما يجعل نصيبي في الأرباح أكبر. تعرَّضت مرَّاتٍ عدَّةٍ للخسارة، لكنَّها لم تكن كبيرةً مقارنةً بأرباحٍ حقَّقتها هذه الأعمال التجاريَّة على صغرها، ما زاد مالي على نحوٍ مستمرٍّ، من دون أن أخبر أحدًا بما أملك، خوفًا من خسارتي لمساعدات خالي التي لم تتوقَّف حتَّى بعد وفاته، لأنَّ أولاده تعهَّدوا من كان خالي يتعهَّدهم، وعدوه بالالتزام به قبل وفاته. وبعد أن ادخرت أموالًا كافيةً، استثمرت جزءًا منها في شراء شقَّةٍ في صحنايا حتَّى أضمن لي مبلغًا احتياطيًّا أستطيع اللجوء إليه إذا اضطرتني الظروف الصعبة، وعملت بالمثل الذي يقول: «خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود»، لكنِّي لم أتوقَّف عن العمل في الأعمال الصغيرة والسريعة التي أحيانًا تجلب أموالًا قليلةً وأحيانًا كثيرةً، في جميع الحالات تأتي بمبالغٍ أفضل بكثيرٍ من الحال لو كنت أشتغل بوظيفةٍ. وتبيَّن لي أنَّ الرزق غير الظاهر، فيه من الأرباح ما لا يمكن للرزق الظاهر أن يأتي به، لأنَّ الأخير يعرفه الجميع والكلُّ يريد أن يعمل به ويراكم المال، فيصبح لا يأتي سوى بالقليل من

المال. أمَّا الرزق المخفيُّ، فلا أحد يعرف عنه غير من اكتشفه، وعندما يكتشفه الآخرون يكون من بدأ به أوَّلًا قد ربح ما فيه الكفاية، أو أصبح تاجرًا كبيرًا في المهنة يوزِّع على آخرين. هذا العمل جعلني أعرف الكثير من الأشياء، لأنِّي لا أضع مالي في هذا العمل أو ذاك قبل أن أعرف كيف ستسير آلية العمل، إن اقتنعت أشارك، وإن لم اقتنع أعتذر. حتَّى أنِّي شاركت مع ضابطٍ في الجيش عن طريق صديقتي عبير التي كنت أعطيها المال، وتقوم بالمهمَّة لها ولي، من دون أيِّ صلةٍ بيني وبينه. تأخذ عبير المال وتعطيه لأخيها علي الضابط الذي كان يخدم في لبنان، وهو يقوم بتهريب السجائر والأشياء الأخرى غير الموجودة في البلد، مثل كلِّ الضباط الذين خدموا في لبنان عندما كان الجيش هناك. كانت أرباح السجائر كبيرةً، ولم تكن الجمارك تستطيع أن تفعل أيَّ شيءٍ تجاه ذلك، لأنَّ هذه البضاعة تدخل البلد عن طريق ما كان يسمَّى بـ«الخط العسكري» في سيَّاراتٍ عسكريَّةٍ، ليس للجمارك أيُّ سلطةٍ عليها، ولا يستطيع رجال الجمارك تفتيشها، كانت الجمارك تصادر البضاعة من تجار المفرق المساكين. في المحصلة كانت المبالغ مجزيةً، توقَّفت عن هذه الشراكة لأنِّي لم أعد أرغب في المشاركة في جلب مواد تضرُّ الناس إلى البلد. أصبحت كلَّما توافر مبلغٌ كبيرٌ أحتفظ بجزءٍ منه للاستمرار في هذا الصفقات، وأشتري بالجزء الآخر بيتًا، وأصبحت أملك بيتين، واحدٌ في المخيَّم، وواحدٌ في صحنايا، قبل انفجار الأحداث في البلد. لقد استطعت أن أصنع وضعًا ماليًا معقولًا يجعلني أشعر بالاطمئنان من أنِّي لن أحتاج إلى أحد، وهذا الوضع منحني القوَّة لأنِّي لست خائفةً من الحاجة بعد الآن.

لا أعرف لماذا أصابني وهم أنَّ الحياة ستنتظرني مهما تأخَّرت، وأنَّ فاروق لن يستطيع العيش من دوني. وقلت لنفسي عندما يعتدل في سلوكه يمكن أن أعود إليه، ولن أعود إلى الأوضاع ذاتها التي تركتها، لن أفعل ذلك مهما كان الثمن. وعلى هذا الأساس انتظرت أن يأتي مستسلمًا مثل المرَّات

الماضية. لكن هذه المرَّة اختلفت، فلم يكن ما جرى شجارًا كالشجارات التي حدثت بيننا سابقًا، بل شكَّل محطَّةً فاصلةً في حياتنا. كانت أوَّل مرَّةٍ أطلب فيها الطلاق، أمَّا في المرات السابقة، فكنت أذهب غاضبةً عند أهلي أيَّامًا عدَّةٍ، يتدخَّل الآخرون، لا سيَّما عمِّي خليل فأعود. هذه المرَّة، عندما طلبتُ الطلاق شعر فاروق بالإهانة، وعدَّ هذا يعني رفضي له شخصيًّا وليس احتجاجًا على الظروف التي أعيشها. تحت تأثير الغضب الذي شعر به، سارع إلى إتمام إجراءات الطلاق. وسريعًا تزوَّج امرأةً أخرى، اسمها خولة، كردٍّ فعلٍ على ما عدَّه رفضًا له وأنَّه شخصٌ غير مرغوبٍ. وخولة امرأةٌ شاميَّةٌ مطلَّقةٌ بلا أولاد كانت تعيش مع أهلها الذين انتقلوا للعيش في القسم الحديث من بلدة يلدا الملاصقة للمخيَّم. فعل ذلك ليثبت لي أنَّه ليس مرفوضًا، وأنَّه يستطيع الزواج متى شاء، ومن امرأة أفضل منِّي.

لم أتوقَّع أن يفعل فاروق هذا، زواجه من أخرى جعل إمكانيَّة العودة لبعضنا أصعب. لم أكن قادرةً على العودة للعيش بالطريقة السابقة مع أمِّه وأخواته، وبات من المستحيل أن أعود إلى الوضع نفسه مع ضرَّةٍ أيضًا. صدمني فاروق بسرعة الإقدام على هذا الخيار، كان عليه أن ينتظر، ليس من أجلي، بل من أجل أولاده، أعماه الغضب، وهذا ما جعله يستعجل الزواج، ولا أعرف قدر التأثير من أمِّه أو أخواته على قراراته. تحتمل القرارات السريعة الخطأ أكثر بكثيرٍ من القرارات المدروسة. ويبدو أنَّ المرأة التي تزوجها، لم تعرف قبل الزواج أنَّه يتزوَّجها ردَّ فعلٍ على خلافه معي، فهي بالتأكيد عرفت ذلك بعد زواجهما، لأنَّ مثل هكذا وضع من الصعب إخفاؤه. سرعان ما نشبت الخلافات الكبيرة بينهما، ووصلت إلى القتال بينها وبين أخواته، حتَّى بينها وبينه. وكلَّما زار أولادي والدهم يعودون في حالةٍ حزينةٍ لا أعرف لها تفسيرًا، هل بسبب ما وجدوه من تعاملٍ هناك، أم بسبب انفصالنا أنا ووالدهم؟ لم أكن أعرف. وعندما أسألهم، كيف عاملتهم زوجة فاروق، يقولون إنَّها لطيفةٌ كثيرًا معهم، تمنحهم الهدايا والسكاكر

وتبتسم لهم وتعمل لهم كلَّ ما يرغبون به، أمَّا هم فيعودون بهذا الحزن الذي لم أفهمه يومًا. أنجبت زوجة فاروق بنتًا اسمها زهرة رغم كلِّ الصراعات التي دارت بينهما. قد تكون فكَّرت بأنَّ إنجاب ولدٍ أو بنتٍ يمكن أن يغيِّر الأجواء والنفوس، لم يحدث شيءٌ من هذا، ووجدا نفسيهما يستمرَّان في خوض صراعٍ مريرٍ، يستخدمان فيه كلَّ الكلمات والشتائم النابية المتوافرة في التداول وحتى اللكمات. وهذا ما أدَّى بطبيعة الحال إلى الوصول للنتيجة الحتمية لمثل هكذا صراع، الطلاق.

لم تأخذ خولة ابنتها معها، كما فعلت أنا مع أولادي. وعندما تركت المنزل لم يتجاوز عمر البنت أكثر من ثمانية أشهرٍ. تركت البنت وقالت: «بنتكم ربوها أنتم، عندك بدل الأم أربعة»، وقصدت أخواته الثلاثة وأمَّه، وقالوا إنَّ هذا دليلًا على أنَّها امرأةٌ سيِّئةٌ، هذا عرفته فيما بعد، عندما كان متزوِّجًا منها لم يهمَّني سماع أيُّ شيءٍ عنه أو عنها. وأظنُّ هذا الكلام غير صحيحٍ، فليس هناك أم تتخلَّى عن ابنتها بسهولةٍ، وأظنُّ أنَّ أسبابًا قاهرةً جعلتها تتركها، لا أعرف ما هي هذه الأسباب، لكن أجزم أنَّ المرأة الطبيعيَّة لا تتخلَّى عن أطفالها بسهولةٍ. لم أحمل أيَّ ضغينةٍ شخصيَّةٍ تجاه خولة، ما جرى ليس مسؤوليَّتها. على العكس أشفقت عليها، لأنَّ طلاقًا واحدًا حول حياتي إلى جحيم، فكيف هي المسكينة مع طلاقين في وقتين متقاربين وفي محيطٍ أكثر تخلُّفًا من محيطي؟! ما فعله فاروق جعل حياته أسوأ، تزوَّج من امرأةٍ ثانيةٍ لاعتقاده أنَّ الحياة سهلةً وأنا أُصعِّبها، لم يرَ الصعوبات الفعليَّة التي كانت أمامي، عدَّني من يخترع الصعوبات ويبحث عن المشكلات. تجربته الثانية كانت أسوأ من تجربتنا معًا. لا أعرف إذا منحه ذلك الفرصة للاعتراف بواقع الحال والصعوبات التي يمكن أن تعيشها امرأةٌ في أجواء بيتهم. ولا أعرف إذا ما تخلَّى عن فكرة أنَّ الرجل يفضِّل على المرأة بمجرَّد زواجه منها، وما تبقَّى في الحياة الزوجيَّة هو مسؤوليَّة المرأة. هذه الأفكار وغيرها جعلت فاروق لا يفعل أيَّ شيءٍ في حالة صدامي مع أخواته

أو أمه اللواتي أردن تربيتي لأنِّي لم أحصل على التربية في بيت أهلي، كما قلن. وأظنُّ ذات القصص بالتفاصيل ذاتها تكرَّرت مع خولة، وهذا ما جعلها تهرب من هذا الجحيم، الذي يعدُّه أصحابه أنَّه الجنَّة بالنسبة للقادمين من خارج العائلة. ولا أظنُّ أنَّ خولة، كانت ستصل إلى الطلاق مرَّةً ثانيةً، لو استطاعت التعايش مع هذه العائلة بالحدِّ الأدنى المقبول، لما عادت إلى بيت أهلها حيث الشروط أسوأ من المكان الذي كانت تعيش فيه. لا شكَّ بأنَّ القدر الكبير من الألم والإهانة الذي شعرت به في المكان الذي يُفترض أنَّه بيتها هو الذي جعلها تهرب من جنَّة فاروق وأهله. بمعنًى ثانٍ، أيُّ امرأةٍ تذهب إلى مكانٍ شروطه سيِّئةٌ، تكون هاربةً من شروطٍ أسوأ، وربَّما قدومها من شروطٍ أسوأ من شروطي، جعل أهل فاروق يضغطون عليها أكثر، لأنَّها لا تملك ما تفعله في مواجهة هذا الاضطهاد. ولا أعرف ما إذا أدرك فاروق الخطأ الذي ارتكبه في هذه العلاقات، لأنَّه كما عرفته، لا يعترف بأخطائه، فهو يعدُّ نفسه الرجل الطيِّب الذي يُخطئ الآخرون بحقِّه، أمَّا هو فلا يخطئ بحقِّ أحدٍ. في الحالات جميعها، أصبح وضع فاروق محزنًا مع هذا التشظِّي، بين أولاده الذين يعيشون معي، وبين ابنته التي تعيش مع أهله، وكيف يكبر أولاده بعيدين عن بعضهم، وهو وضعٌ لا يُحسَدُ عليه. وأظنُّ أنَّه لم يفكِّر في الزواج مرَّةً ثالثة في هذه الأوضاع السيِّئة، ومن تلك التي ستقبل به في مثل هكذا ظروف؟!

بعد حوالي العام من طلاق فاروق الثاني، دعاني عمِّي خليل على العشاء لأنِّي لم أزره منذ مدَّةٍ، كنت سعيدةً بهذا الدعوة، وصدف أن دعا ابنته ميرفت معي، وهي تصغرني بخمس سنواتٍ، وطالما لعبنا معًا ونحن صغار، وكانت متعلِّقةً بي وهي صغيرةٌ، وبقيت علاقتنا جيِّدةً، أزورها أحيانًا أو أصادفها عند أهلها أحيانًا، فقد كنت أزورهم على نحوٍ دوريٍّ. قالت ميرفت وهي تعانقني: «لما عرفت إنك معزومة عند أهلي، قلتلهم، ما بتصير هاي العزيمة من دوني، أنا مشتاقة كثير لرائدة»، قلت: «وأنا مشتقتلك أكثر،

وكنت بفكر أجي عندك بأقرب وقت، القلوب عند بعضها. وأنا مبسوطة إني ألاقيك هون»، قالت ميرفت: «الجية عند بيت أهلي، ما بتغني عن إنك تجي عندي وتزوريني»، قلت: «أكيد»، ذلك العشاء عند بيت عمي والحديث الجميل الذي تبعه من الأشياء التي كنت أفتقدها، أجواء العائلة الحميمة، لذلك كنت في غاية السعادة، وأنا بطبيعة الحال أحبُّ عمِّي خليل وأولاده وزوجته وأشعر أنَّ هذه العائلة عائلتي الحقيقيَّة.

بعد العشاء أخذني عمِّي خليل إلى غرفةٍ جانبيَّةٍ لوحدنا، وقال: «بدي أحكي معك بموضوع شخصي، إذا ما كان عندك مانع؟»، قلت: «تفضَّل عمِّي»، قال: «هذا الموضوع لازم أقلك إياه، هو أمانة لازم أنقلك إياها، وهذا الموضوع ما في حدا بقرر فيه غيرك. أنا ما بعرف شو رأيك، بس رح خبرك الموضوع بكل الحالات، بس بتمنى عليكي ما تعصبي. بس لازم خلص ذمتي»، انتابني القلق بعد سماع هذه الكلمات، لم أعرف عمَّا يتحدَّث، لكنِّي قلت: «خير يا عمي»، قال: «رح أختصر الموضوع وأكون مباشر، ببساطة، فاروق بفكر يرجعك»، عندما سمعت هذه الكلمات شعرت كأنَّ كهرباءً تلسعني، فتحت عينيَّ على وسعهما وقلت: «شو بتحكي عمِّي، أرجع لفاروق بعد كل هاي السنين؟! وبعد كل هذا الأسى، وبعد كل الظروف الصعبة اللي أنت أكثر واحد بتعرفها. الله يلعن فاروق وأهله والساعة اللي شفتُه فيها، ما شفت من وراهم الخير، كل اللي شفتُه إهانة وذل. بعدين كيف بفكر هذا الرجال، هو واحد مريض، بفكِّر كنت بستناه كل هذا الوقت، حتَّى يقلي تعالي نرجع، باجي ركض. وهو بفكر ما عندي خيارات، وما كان فيني أتجوز؟!»، نظر عمِّي إليَّ بحزنٍ وقال: «طولي بالك يا عمي»، قلت وقد بدأت أصرخ: «كيف أطول بالي عمي؟! هذا الحيوان دمّر حياتي وحياة أولادي، وبتقلي طولي بالك. بعد كل اللي تحملته منه ومن أهله، كافأني بأنُه طلقني. وهذا ما كفاه، راح بسرعة وتجوز من وحدة ثانية. مستعجل خايف الدنيا تهرب منو...»، انتظرني عمِّي خليل حتَّى أفرغت

غضبي. قال: «أنا نقلت إلك اللي قالُه الرجّال، بعرف كل اللي قلتيه، وبعرف الظلم اللي عشتيه. بس في كثير ناس بصير بينهم أكثر من اللي صار بينكم، وبرجعوا برتبوا حياتهم من أول وجديد. أنا ما بقلك، وافقي على الرجعة. أنا رح أنسى كل الكلام اللي قلتيه هلأ، وبقلك، اهدي وفكري بالموضوع، خذي وقتك، مانك مضطرة تعطيني قرار هلأ. خذي وقتك. بس فكري بهدوء وبعدها قولي لأ. أنا بجميع الحالات رح أكون معك»، قلت: «والله يا عمي، ما في شي أفكر فيه، هو واحد حقير، ما خلا دناءة ما عملها معي، هو ما بستاهل أفكر فيه ولا لحظة وحدة»، قال: «بكل الأحول، ما بدي جواب منك قبل أسبوع أو شهر، أو أقلك ما بدي جواب منك قبل ما تهدي، وتقرري وأنت مش معصبة»، قلت: «ماشي الحال، زي ما بدك عمي، منشانك رح فكر بالموضوع، مع أنو محسوم من هلأ».

عندما أخبرت أمِّي بما حمله عمِّي خليل من اقتراح. لم أفهم منها موقفًا محدَّدًا من العودة إلى فاروق. قالت: «هاي حياتك، وأنت اللي رح تعيشي الحلوة أو المرة. قرِّري اللي بدك إياه، وأنا ما بكون غير معك»، وأظنُّ أنَّها قالت هذا الموقف الحذر، لخوفها أن أفهم كلامها على نحوٍ خاطئٍ في حال قالت عودي إلى فاروق، أي أعتقد أنَّها تريد التخلُّص منِّي ومن أولادي لأنَّنا نعيش عندها منذ طلاقي. كنت أعرف أنَّها تشعر بالأسى تجاهي، ولأنَّها أمٌّ حنونةٌ، تمنَّت لي حياةً ثانيةً أفضل، غير تلك التي أعيشها وحيدةً مع أولادي عندها، فهي عانت كثيرًا من الوحدة ولا تتمنَّاها لعدوِّها، كيف لابنتها؟ وكانت تشعر بالأسى تجاه سائدة أيضًا، التي رفضت كلَّ عروض الزواج في المبدأ، لأنَّها ببساطةٍ لم ترغب في الزواج بعد معايشتها لتجربة أمي وأبي المريرة التي شهدناها جميعًا، وهو ما تسبَّب لها بعقدةٍ اتجاه الرجال وأخذت موقفًا نهائيًّا من الزواج، بأنَّها لن تقدِّم على هذه الخطوة، وقد ظلَّت على موقفها، حتَّى بعد أن هاجرت إلى كندا.

قرَّرت، وأنا أشتم فاروق عند بيت عمِّي في ذلك المساء، أن أنسى الموضوع وألَّا أفكِّر فيه، وأعدَّهُ محسومًا، فلا شيء فيه يستحقُّ التفكير. كرَّرت بيني وبين نفسي التعبير المعروف: «الأسى ما بنتسى» لأنِّي حاولت بكلِّ ما أستطيع من قوَّةٍ أن أحافظ على بيتي، لكنِّي فشلت في ذلك. تخلَّى فاروق عنِّي بسهولةٍ وبخفَّةٍ وبلا مبالاةٍ، وهذا ما جرحني جرحًا عميقًا وأظنُّ أنَّه لن يندمل ما حييت. من دون أن أنتبه ووجدت نفسي أفكِّر في مستقبلي ومستقبل أولادي، وأفكِّر بفاروق. ليس من السهل أن تربِّي امرأةٌ أولادها لوحدها في هذا العالم القاسي، الأولاد بحاجةٍ إلى أبٍ، وأظنُّ أن يتربَّى الأولاد مع أبٍ سيِّئ أفضل ألف مرَّةٍ من أن يتربُّوا من دون أبٍ. والفكرة التي كانت غير ممكنةٍ ولا أريد أن أتذكَّرها قبل يومٍ واحدٍ، أصبحت تلحُّ عليَّ. لما لا، نعم، كما قال عمِّي، الكثيرون حصل بينهم أكثر ممَّا حصل بيني وبين فاروق، أعادوا ترتيب حياتهم من جديدٍ، واستمرُّوا مع بعض. وبنظرةٍ مختلفةٍ إلى فاروق، وجدته رجلًا فيه الكثير من العيوب، ولكن فيه أيضًا الكثير من الأشياء الجيِّدة. فالبشر في النهاية بشرٌ بأخطاءٍ وليسوا ملائكةً، وهذا لا ينطبق على فاروق فقط، بل عليَّ أيضاً، فأنا لست ملاكًا أيضًا، أملك من العيوب ما يكفي لتجعلني كائنًا بشريًّا. بعد أيَّامٍ عدَّةٍ أخذت أفكاري منحًى آخر، ليس إمكانيَّة العودة إلى فاروق، التي باتت ممكنةً ومقبولةً بالنسبة لي، بل أصبح التفكير في شروط العودة أيضًا، حتَّى لا أعود لتكرار التجربة السابقة ذاتها. لأنِّي لا أظنُّ أنَّ تجربة زواجه الثاني الفاشلة ستردعه أو ستوقف هجمات أمِّه وأخواته، هناك أشياء نستطيع تغييرها بأيدينا لأنَّها ممكنة التغيير، وهناك أشياء لا نستطيع تغييرها، والطباع لا يمكن تغييرها. وأظنُّ أنَّه وأهله يتصرَّفون بطباعهم التي لا يمكن تغيُّرها. لذلك وجدت نفسي، أفكِّر بشرطٍ أساسيٍّ واحدٍ إذا أراد العودة وكان حريصًا فعلًا على أن تنجح. وهو أن نبدِّل مكان السكن، وألَّا يكون هذا التبديل داخل المخيَّم بل خارجه، أي يجب علينا مغادرة المخيَّم نهائيًّا. لا أريده أن يقطع علاقته مع

أهله، لكنّي أريد هذه العلاقة في الحدّ الأدنى بالنسبة لي. تفكيري بالعودة، جاء من تفكيري بأولادي، فأنا لا أفكّر في الزواج من رجلٍ آخر يتحكّم بحياتهم، ولا أعرف أيَّ رجلٍ سيقبل بي مع ولدين؟! وهل إذا قبل في البداية لا يعود وينقلب، أو يقبل كاذبًا ويسعى بعد ذلك للتخلُّص منهما؟ بالتالي سأجلب كارثةً إلى أولادي. كما أنّي لم أفكّر في تركهم لفاروق من أجل صناعة عائلةٍ جديدةٍ مع رجلٍ جديدٍ. وفكرة أن أبتعد عن أولادي لم تخطر على بالي، بمعنى ليس هناك خططٌ لزواجٍ من رجلٍ ثانٍ، ولأنَّ الأفضل للأولاد أن يعيشوا مع أبٍ من العيش من دونه، بدت الفكرة التي طرحها عمّي منذ أيّامٍ، والتي كانت مرفوضةً رفضًا قاطعًا، هي الحلُّ الأفضل للوضع الذي أعيشه، ليس بالنسبة إلى أولادي فحسب، بل ولي أيضًا. فأنا أخاف من وحدتي، وأريد أحدًا إلى جانبي، تعبت من إنجاز كلِّ الأشياء بنفسي، أريد إنسانًا أعتمد عليه، يسندني وقت الحاجة. وأنا أعرف أنَّ فاروق في هذا الجانب شخصٌ إيجابيٌّ رغم كلِّ عيوبه. وإذا كانت الحياة كلُّها من أوَّلها إلى آخرها، هي الاختيار بين السيّئ والأقل سوءًا، أكيد العودة إلى فاروق هي أقلُّ الحلول سوءًا، وهذا يعني أنَّها الحلُّ الأفضل بالنسبة إلى ظروفي. تراجعت حالة الغضب التي شعرت بها حينما أخبرني عمّي بالخبر الذي كان له وقع الصاعقة، بعد أسبوعٍ أصبح أفضل الحلول المتوافرة. لم أردَّ خبرًا لعمّي، تحسُّبًا من أن يفهم فاروق أنّي مستعجلةٌ على العودة. صحيحٌ أنّي اقتنعت بالفكرة، لكن بقيت إهانة الطلاق تنغّص عليَّ هذا الحلَّ. عندما أتذكَّر أنَّه طلَّقني، يعود غضبي إلى الاشتعال وأقول لنفسي: «مش رح أرجع. ليش بهدلني بهاي الطريقة؟» أفقد قدرتي على التفكير، فتتأجَّج مشاعر الكراهية تجاه فاروق لما فعله معي. أصبحت أتأرجح بين هذه الحالة وتلك. في كلِّ مرَّةٍ يكون غضبي أقلَّ من المرَّة السابقة، وبذلك بات الحلُّ مقبولًا. انتظرت حتَّى يسألني عمّي خليل عن قراري النهائيِّ، حتَّى أقول له: «شرطي للرجعة، أن ننتقل ونسكن برة المخيَّم».

لم يتأخَّر عمِّي خليل عن سؤالي، وعندها شعرت بالخوف والتردُّد. أن أفكِّر في الموضوع واتخذ قرارًا، شيءٌ مختلفٌ عن وضع هذا القرار موضع التنفيذ. خفت من التجربة الجديدة، من العيش المشترك مع شخصٍ كان بيني وبينه الكثير من المشاكل، بعد أن عشت مستقلَّةً لسنواتٍ. خفت لأنِّي لم أعد تلك المرأة التي تطلَّقت قبل سنواتٍ، وما كنت أقبله قبل سنواتٍ، لن أقبل به بعد الآن. أجبت على مخاوفي، وقلت لنفسي، إذا شعرت أنَّ التجربة لا تناسبني، انسحب منها، ولن أعاني المشاكل التي عانيت منها في المرَّة الأولى. أخبرت عمِّي بموافقتي وشرطي. قال: «تمام يا عمي، رح أنقل شرطك، فما على الرسول إلَّا البلاغ. بننتظر وبنشوف شو الجواب»، قلت: «وأنا عمي، مش مستعجلة»، وبعد مراسلاتٍ عدَّةٍ، طلب عمِّي منِّي الاجتماع المباشر مع فاروق. فقلت: «ما عندي مانع» وبعد يومين، تقابلنا أنا وفاروق في بيت عمِّي. أوَّل مرَّةٍ أنظر له مباشرةً، في المرَّات السابقة، عندما كان يأخذ الأولاد لزيارته، تجنَّبت النظر إليه. لذلك لم أنتبه إلى التغيُّرات التي طرأت عليه. لكن هذه المرَّة نظرت إليه مباشرةً. نظرت في عينيه، كان التعب واضحًا عليه، تعب المهزوم، لم يحاول إخفاء ذلك، ويظهر بمظهر الرجل القويِّ. بعد السلامات والأحاديث الشكليَّة العامَّة، قال: «أنا موافق ننتقل من المخيَّم زي ما بدك، وبعرف إنك بتفضلي صحنايا، منشان هيك، أنا بدور على بيت هناك، هادا بيرضيكي؟ بدك شي ثاني؟» قلت: «لأ، ما بدي شي غير نعيش هادين والولاد يتربوا بجو مناسب. وما نرجع نعمل زي أول»، قال: «معك حق. بس أنا ببقى عندي سؤال أخير» قلت: «تفضل اسأل اللي بدك اياه.» قال: «إن شاء الله الأيام اللي راحت ما بترجع أبدًا. وبنعيش حياة جديدة ما فيها مشاكل»، وتردَّد قليلًا وأضاف: «شو منشان زهرة؟» قصد ابنته من زوجته الثانية. قلت: «ما كان في داعي تسأل، هاي وحدة من العيلة، ورح تتربَّى مع إخواتها، مثلها مثلهم. وما رح تكون غير هيك بالنسبة إلي»، ارتاح لجوابي وخجل من سؤاله، وأخفى دمعةً نفرت من عينيه، وأشاح

بوجهه إلى الجهة الأخرى. قبل أن يسألني فاروق، لم أفكِّر بزهرة سوى كواحدةٍ من العائلة، ولم أكن لأظلمها وأتركها تعيش بعيدًا عن إخوتها، إلَّا في حال أنَّها ستعيش مع أمها. أمَّا غير ذلك، فقلت لنفسي، قبل أن أقول ذلك لفاروق: «هاي البنت ما إلها ذنب، وما رح تكون غير بنتي، ولو كانت مش من بطني» كانت زهرة واحدةً من عائلتي، وعاملتها كابنتي. أصرَّ فاروق على تزويجها من ابن أخيه، قبل أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها. حاولت الاعتراض على هذا الزواج، كان موقفي ضعيفًا، فهي في النهاية ليست ابنتي، ولم أرغب في الظهور وكأنِّي أقطع بنصيبها، فكان هذا الزواج، وغادرت زهرة البيت إلى بيت زوجها.

اشترى فاروق بيتًا في صحنايا البلد من ثلاث غرفٍ وصالةٍ في الطابق الثالث، عقدنا قرانًا جديدًا، وعدنا للعيش معًا من جديدٍ. هذه المرَّة لم يكن عندي أوهام، أصبحت أعرف أنَّ المشاكل جزءٌ طبيعيٌّ من الحياة الزوجيَّة، ليس هناك عائلةٌ تخلو منها. لا أريد إنهاءها تمامًا فهذا مستحيلٌ، لكن أريدها مشكلات ضمن الحدِّ الأدنى، وأن أبقى قادرةً على التعايش معها. كنَّا أنا وفاروق قد تغيَّرنا، والانتقال إلى صحنايا أوقف الاحتكاك بيني وبين أهله، أذهب معه عندهم في المناسبات القليلة كواجبٍ اجتماعيٍّ، في حال مرض إحداهنَّ، أو في الأعياد، إذ يشعر كرجلٍ بمسؤوليَّته تجاه أمِّه وأخواته، وغير ذلك يذهب وحده عندهم كما يشاء. بقيت المشكلات قائمةً مع أهله، لكن طالما أسكن بعيدًا عنهم، فأنا أستطيع تحمُّل زيارتين أو ثلاثة في العام، وبعدها أعود إلى بيتي أنسى أيَّ إساءةٍ. لم أكن قادرةً على هذا عندما كنَّا نسكن معًا في البيت ذاته. بعد الانتقال بتُّ أفهم فاروق أكثر من السابق، من دون أن يشرح ذلك. لم يستطع في خلافاتي مع أهله أن يقف معي ضدَّهم، لأنَّ موقفه حسَّاسٌ، فهو الابن البكر المسؤول عن العائلة بعد وفاة والده، الذي توفِّي في أثناء فترة خطوبتنا، ما جعلنا نؤجل العرس لأشهرٍ عدَّةٍ، ولا أعرف إذا كانت أمُّه وأخوته، قد عَدَدنني وجه شؤمٍ عليهم، لأنَّ والد

فاروق توفِّي بعد خطوبتنا بأسابيع. هذه الوفاة جعلته مسؤولًا عن العائلة، غير قادرٍ على الوقوف ضدَّهم، لا سيَّما أمُّه، حتَّى لو عرف أنَّها على خطأ. وهذا جعلني أشعر نفسي وحيدةً في بيتٍ يكرهني. لم يفكِّر فاروق بأنَّ هناك ظلمًا بحقِّي، بل فكَّر بوصفه مسؤولًا عن هذه العائلة، فهنَّ الأولى بحمايته، حتَّى لو كنَّ مخطئاتٍ، لأنَّهنَّ على قول الناس «ولايا» وهو تعبيرٌ يختصر المرأة كضحيَّةٍ مسكينةٍ مكسورة الجناح. خفف السكن خارج المخيَّم كثيراً من مشاكل الاحتكاك المباشر، ما جعل حياتنا تسير مع قدرٍ أقلَّ من المشاكل أستطيع التعايش معها.

رغم تغيُّرنا أنا وفاروق، إلَّا أنَّ هناك أشياءٌ بداخلنا لم تتغيَّر. جلب تغيُّر الظروف بعض الهدوء إلى حياتي، فأصبحت أكثر واقعيَّةً بعد التجربة القاسية التي مرَرت بها، لأنِّي ببساطةٍ عرفت ليس هناك ملائكةٌ بين البشر، حتَّى لو ادعوا ذلك. البشر ذاتهم من يقومون بالأفعال القبيحة والنبيلة، لكلِّ شخصٍ وجهين، لذلك أظنُّ أنَّ هناك خلافٌ دائمٌ بين الناس على تقييم الآخرين. هناك من يعدُّ شخصًا بمنزلة ملاكٍ، بينما يعدُّه آخر شيطانًا. لم أفهم هذه المعادلات ولماذا تختلف آراء الناس، لكنِّي قرَّرت التعامل مع هذا الواقع القائم. الدرس الذي لم أستطع نسيانه بسبب ما عانيت منه سابقًا، وهو أنَّ عليَّ الاستمرار في استقلالي الماليِّ، وعدم الخلط بين مالي ومال فاروق، لأكون مستعدَّةً إذا جاءت اللحظة الأسوأ التي أتمنَّى طبعًا ألَّا تأتي. وبقيت أهتمُّ في مصالحي وصفقاتي الصغيرة، رغم تراجع هذا الاهتمام لمصلحة عائلتي التي أصبحت تحتاج منِّي وقتًا أكثر من السابق. عندما كنت أسكن عند أمي، حيث رميت بعض مسؤوليَّاتي عليها، وهذا ما منحني المزيد من الوقت، وهي سعيدةٌ لأنَّها تُشغِلُ نفسها بالاهتمام بأطفالي، بعد أن أصبح كلُّ إخوتي كبارًا. أحيانًا، كانت تضجر منهم، وتقول لي: «تعالي خذي ولادك، ما صدقت ولادي كبروا حتَّى أخلص من همهم»، طبعًا تعود في اليوم التالي لتلعب معهم، وتقول: «بتقدري تتركيهم عندي، إذا بدك

تروحي على محل»، كانت تشفق عليَّ وعلى الحالة التي أعيشها، وترى في مصيري حظًا عاثرًا مثل مصيرها. إذ تزوَّجت رجلًا، ظننت أنَّه رجلٌ، لكنَّه لم يملك من رجولته سوى شكله. تركها طوال عمرها تواجه مشاكلها ومشاكلنا وحدها.

احترف أبي الهرب من المسؤوليَّات، يضع رأسه وينام بكلِّ اطمئنانٍ، في وقتٍ تكون كارثةً قد حدثت في العائلة، لا يكترث وكأنَّ هذه العائلة لا تعنيه. عدَّته أمِّي غير موجودٍ، ومنذ سكنَّا في البرامكة، بات أغلب الوقت هاربًا من البيت، يفتعل مشكلةً ويغيب لأشهرٍ. عدَّت أمي هربه أفضل من بقائه في ظلِّ أيِّ مشكلةٍ، لأنَّه لن يفعل شيئًا سوى لومها بطريقةٍ مستفزَّةٍ بوصفها المسؤولة عن كلِّ المشاكل التي تقع لنا. لم أعرف كيف يفكِّر هذا الرجل. أفهم أن يتشاجر مع أمي، وألَّا يقابلها وأن يغيب عن المنزل، ولكنِّي لم أفهم، لماذا عندما يغيب عن البيت، لا يعمل على لقائنا نحن أولاده، لماذا يعاقبنا رغم أن لا ذنب لنا في خلافاتهما؟! أشعرني غياب أبي وأنا طفلةٌ باليتم وهو على قيد الحياة. تمنَّيت أن يلاعبني، أن يسألني عن أحلامي وطموحاتي، أن يمسح شعري ويقرأ لي حكاية قبل النوم، أن أشعر بوجود رجلٍ يحميني من الخوف، يشعرني بالأمان. عندما عشت عند أهلي بعد طلاقي من فاروق، لم أشعر بوجوده إلى جانبي، لم يحاول القول: «أنا معك. ما تهتمي، كل شي رح يصير أحسن»، لم أسمع منه هذه الكلمات، أو ما يشابهها. ولم يسألني كيف حالي. وعندما عشت هناك لم يسألني إن كنت أحتاج إلى شيءٍ، ولو من باب رفع العتب. صحيحٌ أنَّ عمِّي خليل عوَّض مكانه، وهذا ربَّما سيكون أقلَّ وطأةً عليَّ لو أنَّ أبي ميِّت، أمَّا أن يقوم عمِّي بدور أبي الموجود على قيد الحياة، فهو وضعٌ جارحٌ لي. وأنا أعيش هناك، تأمَّلت حياة أمي مع أبي. لا أدري كيف احتملت أمي هذا الرجل كلَّ هذه السنوات. لم تكن مضطرةً إلى ذلك، لا أعرف إذا كانت تملك أسبابًا لذلك ولم تبُح بها. والغريب في تحمُّلها هذا الوضع، أنَّ العصمة كانت بيدها منذ

البداية، فهي تستطيع التخلُّص منه من دون الحاجة إلى وضع أسبابٍ لهذا الطلاق كما هي في حال أرادت الانفصال بدعوى تفريق، لأنَّ المرأة تحتاج إلى سببٍ للانفصال عن زوجها تقدِّمه للمحكمة حتَّى توافق المحكمة على التفريق بينهما، بينما في الطلاق، لا يحتاج الرجل إلى أسبابٍ يبديها للقاضي عند طلاقه لزوجته. كما شرح لي المحامي في أثناء إجراءات طلاقي من فاروق. في كثيرٍ من الأحيان، شاهدت الحزن والحسرة في عيني أمي. لم تنجح محاولتها الحفاظ على صورةٍ جيِّدةٍ للعائلة أمام الناس إلَّا في مخيِّلتها، ويبدو أنَّ هذه الصورة، هي التي جعلتها تحافظ شكليًّا على هذه العائلة من التفكُّك، وقد يكون ذلك، حتَّى لا تحمل وصمة المطلَّقة، كان من الصعب على امرأةٍ حمل هذه الصفة قبل ثلاثين سنةً، فأنا خبرت بنفسي صعوبة هذا الوضع. عندما سألتها لماذا لم تفعلي ذلك، فأنا لا أشعر أنَّ هناك أيَّ شيءٍ يربطك بأبي؟ أجابت: «من لما شرط أخوي العصمة بإيدي، حلفت يمين ما أعمل هيك بالمستقبل أو أهدِّد فيه، أو أطلق حالي، وأصير المرة اللي طلَّقت حالها من جوزها. ولما قرَّرت أخالف يميني، وفكَّرت أطلق حالي بعد ما طفح الكيل، خفت من كلام الناس. لما كنت أفكِّر بيني وبين حالي، أقول لحالي، خلي الناس تروح عجهنم، شو إلهم عندي. ولما أبدأ بالتنفيذ، أرتعب، وأتراجع. استنيت أبوكي يعمل رجَّال شي يوم ويطلِّقني، بس هو جبان وما عمل هيك، ولا رح يعمل هيك»، ولا أعرف لماذا لم يفعل أبي ذلك، صحيح أنِّي سألت أمي عن الموضوع، لكنِّي لم أسأل أبي. فهو لم يفعل ذلك، حتَّى عندما تزوَّج من أخرى، كما أنَّه لم يفعل ذلك وهو شابٌّ، رغم أنَّ المشاكل مع أمي بدأت في وقتٍ مبكرٍ من زواجهما. انتظر حتَّى تجاوز الخامسة والستين وتزوَّج من جديدٍ. هذا الفعل جعل أمي تقوم بما كانت خائفةً منه طوال عمرها. في الوقت الذي علمت أنَّ أبي تزوَّج من أخرى، ذهبت إلى المحامي، وكَّلته بإجراء الطلاق وفق الشرط الموجود في عقد الزواج، وقد أصبحت عجوزًا. ما أخافها خلال حياتها ولم تستطع فعله،

فعلته في آخر حياتها، لأنَّها لم تعد تشعر أنَّها تخسر شيئًا. والغريب أنَّها شعرت بارتياحٍ كبيرٍ بعد أن أقدمت على هذه الخطوة، رغم أنَّها متأخِّرةٌ جدًّا. خرج أبي من حياتها رسميًّا، بعد خروجه من حياتها فعليًّا منذ سنواتٍ طويلةٍ. بعدها لم تعد تسمع أخباره، بات بحكم الميِّت بالنسبة لها، لم تسعَ لأيِّ معلوماتٍ عنه. عرفتْ أنَّه أنجب بنتًا من زوجته الجديدة، لم ترغب في رؤيتها. في عزاء منى ابنة عمِّي سعد التي صدمتنا بوفاتها وهي في الثانية والعشرين من عمرها، من دون سببٍ معروفٍ، ومن دون مرضٍ سابقٍ. موتٌ فجائيٌّ غريبٌ. أحبَّت أمِّي عمِّي سعد وزوجته وأولاده، فقد وقفت معهم في أزماتهم، وكانت الوسيط الذي يوصل المساعدات من زوجة خالي، وهي في الوقت ذاته عمَّة عمِّي سعد، التي أحبَّته طفلًا عندما كانت تحمله في البلدة في فلسطين قبل النكبة، وبقيت لعمِّي سعد مكانةً لا سيَّما عند عمَّته، فكانت تسأل أمِّي عن أخباره التي يخفيها عنها، لا سيَّما عندما يعيش ضائقةً ماليَّةً، أو أيَّ أزمةٍ أخرى، فلا يقول ما يضايقه، وأمي هي عين زوجة خالي على أوضاع إخوتها وأخواتها وأولادهم في دمشق. تأثَّرت أمي كثيرًا بموت هذه الشابَّة الأجمل في العائلة، والمفضَّلة عندها. صدمها موت شابَّةٍ لم تبدأ حياتها العمليَّة سوى قبل أشهرٍ قليلة قبل وفاتها. كانت أمِّي تجلس في العزاء عندما مرَّت طفلةٌ عمرها أربع سنوات من أمامها وهي غارقةٌ في شرودها، متأثِّرةٌ جدًّا بهذا الموت، ابتسمت الطفلة لأمي، وأمي ابتسمت لها، اتجهت الطفلة باتجاه أمِّي التي حملتها ووضعتها بحضنها، وسألتها: «ما اسمك؟» لم تجب الطفلة، جلست ساكنةً في حضن أمِّي الشاردة، وبات كلُّ من ينظر إلى أمِّي يصاب بالدهشة لمنظر الطفلة المستكينة في حضن أمي. في البداية، لم أنتبه، حتَّى ربَّتت عمَّتي بيان على كتفي وقالت: «شوفي أمك». نظرت إلى أمِّي، فوجدت المشهد الغريب، أصبت بالدهشة كما أصيب الجميع. هناء أختي من أبي من زوجته الثانية تجلس مرتاحةً في حضن أمِّي. سكتُّ مثلما فعل الآخرون، وانتظرت أن تمرَّ

اللحظة بسلامٍ. بعد عشر دقائق تململت الطفلة في حضن أمِّي، نزلت وذهبت في سبيلها. لم أخبرها، أنَّ الطفلة التي كانت جالسةً في حضنها، هي أختي من أبي، ولا أعرف إذا كان أحدٌ آخر أخبرها بذلك. أمَّا أنا فقرَّرت ألَّا أخبرها لا حينها ولا بعد ذلك.

عندما ماتت أمِّي بعد سنوات، هزَّني الحدث كما لم يهزَّني حدثٌ من قبل، حتَّى طلاقي لم يفعل ذلك بي. بقيت أمِّي بصحَّةٍ جيِّدةٍ طوال عمرها، لم تعانِ من أيِّ مرضٍ، بعض متاعب الكبر من ضغط دمٍ مرتفعٍ، تكيَّفت معه، وكانت تعالجه بالمشي المستمرِّ لأنَّها لا ترغب في تناول أيِّ دواءٍ. فجأةً، أمي لا تصحو، أختي سائدة، توقظها في الصباح بعد أن تأخَّرت في نومها على غير العادة، لكنَّها لا تستجيب. تناديها: «أمي.. أمي» وتهزُّها في الوقت ذاته. لكنَّها لا تستجيب. عندما اتصلت سائدة بي، وسمعت صوت بكائها، توقَّعت أن تخبرني بكارثةٍ، وآخر ما توقَّعته أن تقول لي: «رائدة.. أمي ماتت» لم أفهم الكلمات، وظننت أنِّي أسمع كلماتٍ خطأً. عدت وسألتها: «شو قلتي؟!» قالت: «ما سمعتي.. أمي ماتت»، بقيت جملة: «أمي ماتت» تتكرَّر في رأسي وشيءٌ في داخلي يهوي بسرعةٍ في ثقبٍ مظلمٍ لا ينتهي. جلست على الصوفا القريبة من الهاتف. استقبلت الخبر واقفةً، وبعده لم أعد قادرةً على الوقوف. رأيت شريط حياتي المرتبط بأمِّي يعبر أمامي بسرعةٍ. لا دموع، لا بكاء. حالةٌ من الصدمة التي بلدت أحاسيسي وجعلتها حياديَّةً تجاه كلِّ شيءٍ. عندما خرجت ابنتي حنان من غرفتها وشاهدتني «مثل صنم»، كما أخبرتني فيما بعد، سألتني: «شو في؟» قلت بكلِّ حياديَّةٍ: «أمي ماتت»، ركضت حنان باتجاهي واحتضنتني وشرعت في البكاء وهي تقول: «لا»، لم أصب بعدوى بكائها، واستغربت لماذا تبكي حنان؟ كانت حياديَّتي محاولةً أخيرةً لإلغاء الخبر المخيف، رغم نقلي الخبر إلى حنان، إلَّا أنِّي لم أصدِّقه. قالت حنان: «ليش قاعدة هون؟ لازم نروح على بيت ستي»، لم أُعلِّق، لم أوافق، لم أرفض، أخذت يدي، وذهبت إلى غرفتي، غيَّرت لي

ملابسي. اتصلت حنان بأبيها وأخبرته بأنَّ أمي ماتت، أعطتني الهاتف سمعته يقول كلمات العزاء وأنَّه سيحضر حالًا من عمله، قلت له: «شكرًا.. شكرًا»، بعد أن نزلنا من البيت، أوقفت حنان سيَّارة أجرةٍ وقالت: «البرامكة»، سارت بنا السيَّارة حتَّى وقفت أمام بناية أمِّي. نزلنا من السيَّارة ونظرت إلى طابق أمِّي من الخارج وتجمَّدت في مكاني لا أريد الصعود. قالت حنان: «أمي.. خلينا نطلع» لم أجبها. قالت مرَّةً ثانية: «أمي.. خلينا نطلع» نظرت إليها وقلت: «ما بدي» نظرت إليَّ باستغرابٍ ودهشةٍ، وعرفت منذ كنَّا في بيتنا أنِّي تحت تأثير الصدمة. أمسكت يدي وبدأنا نصعد الدرج وصولًا إلى شقَّة أمِّي. وقفت أمام باب الشقَّة ورفضت الدخول. حنان تقول لي: «يا أمِّي هذا ما بصير، لازم نفوت، شو رح يقول الناس»، لم أتزحزح من مكاني. بينما أرفض الدخول وحنان محتارةٌ ماذا تفعل معي، وصلت عائدة إلى بيت أمي، شاهدتنا نقف هناك، احتضنتني واحتضنت حنان وهي تبكي. وقالت لي: «يلا.. فوتي»، استجبت ودخلت، لا أعرف لماذا رفضت مع حنان وقبلت مع عائدة، ربما شعرت بنوعٍ من الحماية تعطيها عائدة لي. عندما دخلنا إلى الغرفة التي سُجِّيت أمي فيها وشاهدت جثَّتها بلا حراك، صرخت، وشعرت نفسي أهوي، لم أصدِّق الموت قبل أن أراه، عند مقابلته على وجه أمي، أغمي عليَّ. صحوت وأنا على سريري في غرفتي القديمة في بيت أمي. لم أصدِّق موت أمِّي قبل أن أرى جسدها المسجَّى، لم أحتمل فكرة أنِّي لن أجد الصدر الذي بكيت عليه وأنا طفلةٌ وشابَّةٌ وأمٌّ من جديد. لم أتخيَّل العالم من دون أمي، بموتها أخذت قطعةً من روحي معها، لم أعرف مدى تعلُّقي بها قبل وفاتها، لأنِّي عددت وجودها في حياتي من البديهيَّات، ليست موجودةً وحسب، بل وستبقى، فهي الثابت الأساسيُّ في حياتي الذي لا أحتمل غيابه. عندما انفصلت عن فاروق عشت عندها سنواتٍ، لم تتأفَّف منِّي أو من أولادي، اختلفنا وتشاجرنا مرَّاتٍ عدَّةً، لكنَّها لم تحاول أن تفرض عليَّ ما لا أريده، لا العودة إلى فاروق ولا الضغط للزواج

من غيره، كانت تتألَّم لحالتي، وتتمنَّى لي حالًا أفضل، لم تحاول فرض هذه الحال الأفضل عليَّ. وعندما ولدت فكرة أن أعود إلى فاروق، كانت حزينةً لأنَّنا سنغادرها فقد أصبحنا جزءًا أساسيًّا من حياتها اليوميَّة. صحيحٌ أنَّ سائدة كانت تعيش معنا، لكنَّ لسائدة طبيعةٌ خاصَّةٌ، هي انعزاليَّةٌ طوال الوقت بعد عودتها من عملها. تجلس في غرفتها وتقفل الباب على نفسها، وتشتغل أعمالها اليدويَّة الخاصَّة من اللوحات والتحف التي برعت في صناعتها. وهي بطبيعة الحال، كان تخطِّط لمغادرة البلد إلى كندا. عرفت أمِّي أنَّ سائدة في النهاية ستغادر البيت والبلد، فهي تريد مغادرة البلد الذي لا تحبُّه، وهذا ما فعلته بعد وفاة أمِّي بحوالي سبعة أشهرٍ. وكانت محظوظةً بذلك، فبعد وفاة أمِّي أصبح البيت كابوسًا بالنسبة لها، لم تعتد العيش وحدها رغم عزلتها أغلب الوقت في غرفتها، كانت أمِّي الظلَّ المخيَّم عليها، وبغياب هذا الظلِّ شعرت بالخوف وعدم الأمان، وبات البيت الذي ترى فيه طيف أمِّي مرعبًا لها، فهي لم تستطع التعايش مع غياب أمِّي واستمرار العيش في بيتها، لذلك كانت تقضي الكثير من الوقت، في البيت الصغير الذي اشترته في صحنايا قرب بيتي.

أنا مثل سائدة شعرت أنَّ موت أمِّي أوقع سقفًا يحمي رأسي، وأصبحت أفتقد حماية وفرتها لي طوال السنوات المنصرمة من عمري. لم يكن شعورًا باليتم، بل أكبر من ذلك بكثيرٍ. عندما نفقد الشخص الأكثر قدرةً على الإحساس بنا في كلِّ الأوقات، لا نكون قد خسرنا شخصًا عزيزًا، بقدر ما نكون خسرنا جزءًا من أرواحنا. هذا الجزء الذي كانت أمِّي قادرةً على ترميمه كلَّما شعرت بالتعب ولجأت إليها، ليس هناك شخصٌ آخر قادرٌ على أداء هذه المهمَّة، لذلك تكون خسارتنا كبيرةٌ، وموت هذا الشخص يمنحنا إحساسًا يفوق اليتم. المسألة الأخرى المهمَّة، هي علاقتنا نحن الأخوة مع بعضنا، فقد كانت أمِّي هي الجامع بيننا، وهي من يحرص على أن نلتقي وعندما تشعر أنَّنا لا نرى بعضنا بما يكفي، تجمعنا عندها عبر دعوة طعامٍ

أو سهرةٍ لطيفةٍ، وعندما يأتي أحد إخوتي من السفر تؤدِّي المهمَّة ذاتها أيضًا، وتطلب منَّا أن ندعوهم إلى بيوتنا مع أخواتي. طبعًا أبي خارج المعادلة، لأنَّه عمليًّا خرج من حياتنا منذ سنواتٍ طويلةٍ، لأنَّه قرَّر هذا الخروج، وليس له أثرٌ مهمٌّ فيها، ممَّا زاد أهميَّة دور أمِّي بالنسبة لنا، التي لعبت دور الأب والأمِّ، وهو ما أرهقها، ومن السهل عليها أن تلعب دور الأب عندما كان غائبًا، أمَّا عندما بات موجودًا، أصبح يُخرِّب الدور الذي تلعبه، ويُدمِّر صورة الأب التي كوَّنَّاها عنه بفضل أمِّي عندما كان غائبًا، التي رسمت له صورة أبٍ مثاليٍّ لا يستحقُّها. لم يتورَّع أبي عن حضور عزاء أمِّي وكأنَّه ما يزال زوجها، لم يغادر العزاء لثلاثة أيَّامٍ، وبكى كالأطفال، دُهِشَ الجميع من وجوده في عزاء أمِّي التي طلَّقته، وعرف الجميع ذلك منه، فهو الذي قال للجميع: «شفتوا شو عملت سعاد؟ طلَّقتني»، كما عادته عدَّ أفضل طريقةٍ للردِّ على ما فعلت أمِّي هو فضحها بين الناس، وبقي لوقتٍ طويلٍ يحكي القصَّة ذاتها مرارًا وتكرارًا. قدومه بهذه الطريقة لعزاء أمِّي، أثار استغراب الجميع حتَّى أعمامي وعمَّاتي، وأثار اشمئزازنا، نحن أبناؤه الذين شعرنا بالخجل من وجوده بيننا في عزاء أمِّي، التي عانت الكثير بسببه، جاء ليبكي عليها كذبًا ويُشعرنا بالحرج. لقد قالت له عائدة بوضوحٍ عندما تواجها وجهًا لوجهٍ: «الأفضل ما تكون هون»، عدَّ نفسه لم يسمع شيئًا، وبقي في العزاء حتَّى انتهت الأيَّام الثلاثة، لقد اعتذر أعمامي منَّا عن سلوك أبي الغريب، شعروا بالخجل من فعلته. ونحن لم نستطع طرده من المكان، لم نرغب في الشجار معه أمام المعزِّين. انقضت تلك الأيَّام بصعوبةٍ بوجوده، لقد أثقل على صدورنا إضافةً إلى الثقل الهائل الذي خلَّفه موت أمِّي في تلك الأيام.

تراجع الحزن على موت أمِّي مع انشغالات الحياة، بقيت أشتاق إليها بشدَّةٍ بين الحين والآخر، وفي الأزمات الشديدة افتقدتها. جعلني غيابها أتخذ قرارًا بأن أكون أمًّا متسامحةً مثلما كانت، لا أظنُّ أنِّي نجحت في ذلك،

أحيانًا أصبر على أولادي مثلما كانت تصبر علينا، وفي الكثير من الأحيان أفقد أعصابي وأتشاجر معهم، لأنِّي أخاف بشدَّةٍ على مستقبلهم. فشلي في التعليم جعلني أبذل ما في وسعي لأن يكملوا تعليمهم، فبعد تجربتي الصعبة في الحياة، وجدت أنَّ التعليم سلاحٌ يمكن للمرء أن يواجه فيه الحياة، ويجعلها أقلَّ صعوبةً عليه وعلى من يحبُّ. وعندما تخرَّج ابني أمين في كليَّة الاقتصاد فرحت، كما لم أفرح من قبل، لم أشعر أنَّ نجاحه له فقط، بل نجاحي الشخصيَّ أيضًا. ولم تكن فرحتي أقلَّ عندما تخرَّجت ابنتي حنان في كلِّية الأدب الانكليزيِّ. أولادي حياتي كلَّها، لم أملك طموحاتٍ شخصيَّةً أكثر من نجاحهم في حياتهم. أردت أن تكون حياتهم المستقبليَّة أفضل من حياتي، هم فخري وإنجازي الأهمُّ في الحياة.

لأنَّ الحياة لا تعطينا كلَّ شيءٍ، ولها مصائبها التي لا يدَّ لنا فيها، لكنَّها تؤثِّر على حياتنا ونضطر للتعامل معها وتغيِّر مصائرنا. حصل ما لم يكن في حسبان أحد، اندلعت الحرب في سورية، بسببها وجدت كلَّ ما بنيته في حياتي ينهار. عندما انفصلنا أنا وفاروق، كانت المرَّة الأولى التي انهارت حياتي، كنَّا معًا السبب فيما حدث. مع الحرب وبسببها، انهار كلُّ شيءٍ لسببٍ خارج عن ارادتنا. في البداية لم أدرك حجم ما يحدث، أيَّامًا عدَّةً من المظاهرات وتنتهي المسألة. لم تكن كذلك. أصبح هناك إطلاق النار على المتظاهرين في قلب مدينة دمشق، ولم يتعلَّق الأمر بمظاهراتٍ بعيدةٍ وقعت في درعا وحمص ودوما... يختفي الشباب بالاعتقال من أجهزة المخابرات لاشتراكهم في المظاهرات، وبعضهم يُعتَقَل عن طريق الخطأ. ازداد عدد القتلى الذين يسقطون في المظاهرات، وسقط العديد من القتلى لأنَّهم كانوا يمرُّون بالمصادفة من المكان في لحظة إطلاق النار. وقد صدمتني طفلة الجيران التي تبلغ من العمر ثماني سنواتٍ، كانوا ذاهبين إلى منطقة يعفور ليقضوا بعض الأوقات الجميلة في بيت جدِّهم هناك. الطفلة التي تجلس على المقعد الخلفي بين أمِّها وأخيها، سقط رأسها على رقبتها، ولأنَّها عادةً ما

تمثِّل، طلبت أمُّها منها التوقُّف عن التمثيل، لم ترفع البنت رأسها، ولم تستجب لتهديدات أمِّها. عندما رفعت الأم رأس الطفلة، صرخت وتركت رأس ابنتها ليسقط من جديد على صدرها لأنَّ الدم غطى صدر الطفلة، الطلقة الطائشة اخترقت رقبة الطفلة من الأمام إلى الخلف، لم تصدر عن الطفلة حتَّى صرخة ألم. عندما وقَّفت السيَّارة، كانت الأم تلطم وجهها على نحوٍ هستيريٍّ، الطلقة اخترقت زجاج السيارة ورقبة الطفلة وقتلتها واستقرَّت بكرسي السيَّارة. الطلقة التي قتلتها، قتلت روح أمِّها التي لم تتعافَ من الصدمة، وأظنُّ أنَّها لن تتعافى فيما تبقَّى من حياتها. وكذلك الحال مع الشاب حسن قريب زوجي فاروق الذي سقطت عليه القذيفة في وسط مدينة دمشق لتقتله وهو عابر سبيلٍ في الطريق لا غير. وغيرها من قصص الموت الذي ينزل على البشر من السماء، أو الاعتقال العشوائيِّ سواءً ارتكب الشابُّ ذنبًا أم لم يرتكب. ما جرى في البلد جعلني أخاف على أولادي، لا سيَّما على ابني الوحيد أمين، الشاب الخجول. صحيحٌ أنَّه معفًى من الخدمة العسكرية لأنَّه وحيد، لم يكن التجنيد هو الخطر الوحيد على الشباب بعد أن اشتعلت الحرب. منذ سمعت بأنَّ هناك من يهاجر إلى أوروبا، عن طريق مصر أو تركيا، أخذت أبحث عن طريقٍ مضمونٍ حتَّى يخرج أمين من البلد، ومع أنَّه رفض الفكرة في البداية، إلَّا أنَّه غيَّر رأيه، بعدما جرى مع أناس يعرفهم، سواءً بالاعتقال أو بالإهانات المتكرِّرة على الحواجز. لم يعارض فاروق سفر أمين، لكنَّه طلب أن يغادر مثلما يغادر الآخرون. أصابني الخوف عليه من رحلة البحر عن طريق مصر لأنَّه سيقضي وقتًا طويلًا في البحر في قاربٍ تالفٍ، مدَّة الرحلة بين الإسكندرية وإيطاليا تصل إلى عشرة أيَّامٍ، وهي مسافةٌ طويلةٌ ومخاطرها كثيرةٌ، وأردت له رحلةً مخاطرها أقلُّ. كانت حجَّة فاروق أنَّه لا يملك المال من أجل رحلةٍ مكلفةٍ، ومصروف البيت زاد، والرواتب أصبحت أقلَّ وكلُّ الأشياء باتت أغلى. قلت له: «ما تشغل بالك بالمال، أنا رح أدبر مبلغ سفر أمين.» بعد

اقتراحي، هدأ فاروق ولم يبقَ مشغولًا بتدبير المال من أجل أمين، مع أنِّي لم أصدِّق أنَّه لا يملك المال الذي يغطِّي سفر أمين. بعد السؤال والاستفسار من كثيرٍ من الجهات والأصدقاء والمعارف ممن خاضوا تجربة التهريب إلى أوروبا، تبيَّن أنَّ الطريق الأقل أخطار، هو مغادرة سورية إلى تركيا ومن هناك ركوب الطائرة إلى أحد مطارات الدول الأوروبيَّة، وكلفة العمليَّة حوالي ستة آلاف دولار، في الواقع تكلَّفت أكثر من عشرة آلاف دولار. عندما وصل أمين إلى برلين شعرت بالراحة، لا خوف على ابني الوحيد من طلقة قنَّاصٍ أو قذيفة مدفعٍ طائشةٍ أو صاروخ طائرة أخطأ هدفه، أو من اعتقالٍ خاطئٍ قد يؤدِّي إلى مقتله، مثلما جرى مع الكثيرين.

طبعًا، لم تنتهِ المشاكل بمغادرة أمين، بل زادت، وبتُّ أمام مشكلةٍ، لم أجد لها حلًا. لقد وقعت حنان في حبِّ شابٍّ درزيٍّ، مدرِّسٍ يعمل معها في المدرسة ذاتها. حين حدَّثتني عنه، لم يكن لديَّ مانعٌ، لا سيَّما وأنا على قناعة أنَّ زواج البنت من غير دينها أفضل لها من الزواج بشخصٍ من دينها. ودائمًا كنت أقارن تجربة زواج عائدة وجورج مع الزيجات التي أعرفها بين أصحاب الدين الواحد، بدءًا من زواجي أنا وفاروق وصولًا إلى زواج أغلب من أعرفهم، أظنُّ أنَّ الأفضليَّة لعائدة وجورج. طلبتْ حنان منِّي أن أخبر فاروق بأنَّ الشاب الذي تعرفه يرغب في التقدُّم لطلب يدها. عندما أخبرت فاروق بالأمر، قال: «ما في مانع»، ولكن سأل بعد ذلك: «من وين الشب؟»، قلت: «شب سوري»، قال: «شو بشتغل؟» قلت: «بشتغل معها مدرِّس رياضيات»، قال: «من أي مدينة؟»، قلت: «من السويداء»، قال: «هذا بيعني أنُه درزي؟»، قلت: «صحيح، درزي»، نظر إليَّ نظرةً غاضبةً وقال: «كل شباب البلد، ما عجبها إلَّا الدرزي، بدها تفضحنا مثل خالتها. هاي المرة حكيتي معي بالموضوع. مرَّة ثانية إذا فتحتي الموضوع ما تلومي غير حالك»، قلت: «طيب، خلينا نحكي»، وقف غاضبًا وقال: «يلعن ربك، ما فهمتي شو حكيت. هي كلمة ورد غطاها. هاي الجيزة ما بتم غير على

جثتي، بذبحها وبشرب من دمها. أنا ماني أبوكي، وهاي بنتي مش أختك اللي خطفت مسيحي»، غلى الدم في رأسي، إنَّه يشتمني ويعيِّرني بأختي، أمسكت نفسي عن الانفجار في وجهه، قلت لنفسي حالة غضبٍ وتنتهي، لكن الأمر بات أسوأ. عندما قال: «هاي تربيتك الوسخة. تربية شرميط»، لم أعد قادرةً على ضبط نفسي. صرخت في وجهه: «أنا وبنتي وأختي أشرف من كل عيلتك. أخواتك الشرميط. ما بسمح لا إلك ولا لغيرك يحكي هذا الحكي عنا»، وقف قبالتي وأنا أصرخ، احتقن وجهه، وجحظت عيناه، وأخذ يرتجف. رفع يده وصفعني بكلِّ قوَّته قبل أن أنهي كلامي، سقطت على الأرض وسال الدم من فمي. وقفت ببطءٍ، مسحت بيدي الدم عن شفتي، نظرت إلى الدم على يدي، نظرت إليه وهو ما زال يرتجف. قلت: «بتضربني!؟ هاي رجولتك. على كل حال هذا مش خطأك. هدا خطأي لما رجعت لواحد مثلك»، لقد اختلفنا كثيرًا في حياتنا السابقة، وبعد أن عدنا إلى بعضنا من جديدٍ، في المرَّات السابقة التي ضربني فيها، شعرت بالإهانة. هذه المرَّة شعرت بأنَّ الإهانة أكبر، كان وقع الشتيمة قاسيًا عليَّ، يشتمني ويشتم ابنتي وأختي ويتهمنا بالعهر. أعاد الشتائم ذاتها وقال: «أنتو عيلة شرميط أصلًا»، خرج وصفق الباب بقوَّةٍ.

لم أشعر هذه المرَّة أنَّها شتيمةً فقط، بل شعرت أنَّها تقييمٌ وحكمٌ أخلاقيٌّ يحمله تجاهنا أيضًا، حكمٌ يعني أنَّه يحتقرنا، ولم أفهم ما الذي جعله يعيش معي كلَّ هذه السنوات، طالما هذا تقييمه لي ولأهلي. شعرت أنَّ حياتي انتهت معه، كانت لحظاتٍ حاسمةً في حياتي. رغم ذلك قرَّرت البقاء، ولم أغادر المنزل. قلت لنفسي: «ما رح أعمل مثل ما عملت المرَّة الماضية. مش رح أطلع من البيت منشان بناتي، مش رح أتركهم وإحنا بهاي الظروف»، أمَّا فاروق فقد خرج من حياتي، سواءً بقيت أعيش معه أم لا. وبات البيت، بمنزلة جهنَّم التي عليَّ الصبر عليها حتَّى أطمئن على بناتي. ما فعله فاروق جعلني على قناعةٍ أكبر أنَّ اختيار حنان لشريك حياتها هو

الصحيح، وأنَّ عليها أن تتبع حبَّها، ولا تتنازل عنه لتعيش حياةً بائسةً كما حياتي مع فاروق. عليها أن تحاول صناعة حياتها التي تحبُّ، إذا لم تنجح، تكون قد نالت شرف المحاولة على الأقل. حتَّى تستطيع ذلك، عليَّ أن أقف معها حتَّى تحقِّق حلمها.

لم أعرف ماذا أقول لحنان بعد ما فعله فاروق، عندما عادت حنان من العمل بعد ما حصل بيني وبين أبيها، لم أكن بحاجةٍ لقول أيِّ شيءٍ، كان الوضع مفهومًا من دون كلام. شاهدتني غاضبةً وحزينةً. سألتني: «ماما، شو مالك؟»، قلت: «ولا شي»، قالت: «أنا السبب بحالتك هاي؟»، قلت: «لأ. أنت ما إلك علاقة بالموضوع»، وشرعت بالبكاء. ما حاولت نفيه أكَّده بكائي، عرفت حنان أنَّ ما أمرُّ به بسببها فعلًا. لم أقل لها ما حصل، ولم أقرَّ أنَّها السبب فيما أنا فيه. كلامي لم يُقنعها، عرفتْ أنَّ حدثًا كبيرًا وقع بيننا لا أريد إخبارها عنه، احترمت خياري ولم تلحَّ لمعرفته. الغريب في الأمر أنَّ فاروق لم يراجع حنان في موضوع زواجها، ولم يعاملها معاملةً مختلفةً، بقي صامتًا على الموضوع، دُهِشتُ من سلوكه الغريب. فقد توقَّعت أن يغضب، يصرخ عليها، وحتَّى يضربها، بعد الغضب الكبير الذي شاهدته على وجهه عندما أخبرته برغبتها بالزواج بفهد، ما جرى بعد ذلك لا يتناسب مع هذا الغضب.

في قلب هذه الأزمة العاصفة التي عشتها في بيتي، ازدادت الأوضاع سوءًا في المخيَّم، فقد اقتحم المسلَّحون المخيَّم، وردَّ الجيش بقصف المخيَّم بالطائرات الحربيَّة، ما أجبر السكَّان على الفرار في اليوم التالي. أعطوا السكَّان مهلةً لمغادرة المخيَّم. في صباح ذلك اليوم، رنَّ هاتفي المحمول، عندما نظرت إلى رقم أختي هناء قلت: «ألو.. ألو.. ألو» لكن أحدًا لم يردَّ، في اللحظات الفاصلة بين فتح الهاتف والرد، خطرت لي الكثير من الأفكار السيِّئة، أنَّها تريد أن تخبرني خبرًا سيِّئًا عن أبي، لكنَّها غير قادرةٍ، وقبل أن تأخذني الأفكار بعيدًا، جاء صوت أبي يقول: «كيفك يا بنتي؟»، قلت: «أهلًا

بابا، كيفك؟ وين أنت؟»، قال وبصوتٍ حزينٍ: «طلعنا من المخيَّم قبل شوية، وما عارف وين بدي روح!»، وقال بتردُّدٍ: «فيكي تستقبليني عندك كم يوم حتَّى أدبر حالي؟»، قلت: «وين أنت هلأ؟»، قال: «أنا قدام بيتك»، قلت: «أهلًا وسهلًا»، صعدوا الدرج وصولًا إلى شقتنا. وعندما فتحت الباب، كان ثلاثتهم أبي وأختي وزوجة أبي بوجوهٍ يائسةٍ حزينةٍ وتائهةٍ يحملون بعض الأمتعة. دُهِشتُ من إحضار أبي لزوجته معه، لم أستطع قول أيَّ شيءٍ، أو أتراجع عن استقبالهم، ولا أعرف لماذا دُهِشتُ وتوقَّعت ألَّا تكون معه. احتضنت أبي وقبَّلته. احتضنت أختي وقبَّلتها، لم أستطع احتضان زوجته، صافحتها ببرودٍ، لم أرغب في فعل ذلك، فعلت ذلك رغمًا عنِّي، ووقع المفاجأة جعلني غير قادرةٍ على إخفاء مشاعري تجاهها، رغم الظروف التي يمرُّون فيها، وهي مشاعر معروفةٌ وليست جديدةً. فأنا لم أحبَّها يومًا، ليس بسبب زواجها من أبي، ليس لها ذنبٌ في ذلك، بل لشيءٍ آخر لم أستطع تحديده، عندي إحساسٌ داخليٌّ رفضها من دون تفسيرٍ. وضعوا أغراضهم جانب الباب، وقدتهم إلى الصالة، كانوا متردِّدين ومربكين: «ثلاثة أشخاص مساكين مشرَّدين، كان تعاملي معهم على هذا الأساس، بصرف النظر مين بكونُه. ما رح أخسر شي إذا تعاملت معهم منيح. حسنة عن أولادي» قلت ذلك لنفسي، لتخفيف حدَّة رفض استقبالهم الذي نما داخلي بسرعةٍ. ليس لعدم تحمُّل ضيافتهم، هذا جزءٌ من الموضوع، والجزء الأهمُّ، التوقيت الذي جاؤوا به، في ذلك الوقت لم أكن أطيق نفسي، فالمشكلة بيني وبين فاروق في أوجها، نعيش في بيتٍ واحدٍ ولا نتكلَّم معًا، فما جرى بيننا كبير، وآخر ما أحتاجه أن يكون أبي وعائلته في ضيافتي، ويعرفون المشكلة، وخفت أن يطردهم فاروق من البيت، لكنَّه عندما عاد إلى البيت وشاهدهم، لم يقل أيَّ شيءٍ، ولم يعترض، ألقى السلام ببرودٍ ودخل إلى غرفتنا.

لم تكن عائلة أبي وحدها التي خرجت من المخيَّم، غالبية السكَّان خرجوا. وأم فاروق وأخواته خرجوا أيضًا، وهنَّ لا ملجأ لهنَّ سوى فاروق،

اتصلن به مستنجداتٍ، فهرع فورًا لنجدتهن، ولم يكن عندي مانعٌ من استقبالهن في هذه الظروف. غادر فاروق البيت لإحضارهن قبل أن أعرف أنَّ أبي أمام بيتي. مع قدوم أبي بات من المستحيل استقبالهم. كان عليَّ أن أتعامل مع الموقف حتَّى لا نقع في موقف المفاضلة بين أهلي وأهله، من يبقى ومن يغادر ونخلق الحرج للجميع في ظلِّ الظروف الصعبة. قبل عودة فاروق مع أمِّه وأخواته إلى البيت. أخذت ابنتي حنان بعيدًا عن أبي وعائلته. وقلت لها أن تتحدَّث مع والدها، وتشرح له الوضع المستجد. وأن تقترح عليه أن يأخذ أهله إلى شقَّةٍ تعود لأهل صديقتها، والتي تحتوي على كلِّ لوازم العيش، فبعد أن استقبلت أبي وعائلته، أصبح من المستحيل استقبال أربعة أشخاص إضافيِّين. فعليًّا لم تكن هذه الشقَّة لأهل صديقة حنان، إنَّما كانت شقتي، وصادف أنَّها كانت خاليةً من المستأجرين في ذلك الوقت. أخبرته حنان بالوضع الجديد وعرضت عليه الفكرة. لم يعترض، ذهبت حنان وأوصلت له مفتاح البيت ودلَّته عليه.

بعد أن انتهيت من مشكلة عائلة فاروق، حضرت الفطور لعائلة أبي الذين لم يأكلوا منه شيئًا، لأنَّهم كانوا تحت تأثير الصدمة والذهول ممَّا جرى في المخيَّم. وحضَّرت لهم غرفة أمين الذي غادر البيت قبل شهر وانتقلت نور إلى غرفته. جمعت أغراضها ونقلتها إلى غرفة أختها حنان لتنام معها في الغرفة، أحضرت فرشتين إضافيَّتين حتَّى يتمكَّنوا جميعًا من النوم في الغرفة. أزعجتني نظرات فاروق، شعرت أنَّها تتهمني بإحضار أبي وعائلته لبيتنا من أجل منعه من إحضار أهله. والعقوبة الأكبر، هي اضطراري للنوم معه في الغرفة ذاتها، وهذا ما زاد توتُّري. فقبل مجيء أبي، كنت أنام في الصالة عندما ينام فاروق في البيت، وأنا في الغرفة عندما ينام خارج المنزل. مع وجود أبي، ولرغبتي بألَّا يعرف أو تعرف زوجته عن أيِّ خلافاتٍ بيني وبين فاروق، اضطررت للنوم معه في الغرفة. لم أعد أستطيع التحدُّث عن أيِّ شيءٍ يتعلَّق بمشكلة حنان، أو بخلافاتنا. لم يكن فاروق يجلس معنا على

الطعام، كان يتناول طعامه خارج المنزل، ولا يتحدَّث مع أبي سوى بكلمات: «مرحبا» و«السلام عليكم» ظنَّ أبي وزوجته أنَّ التوتر في البيت وعدم جلوس فاروق للطعام معهم بسبب رفضنا لقدومهم بعد ما جرى في المخيَّم، مع أنَّ حنان ونور كانتا تعاملا معهم بلطفٍ، لا سيَّما خالتهما هناء الطفلة. هذا الوضع بدأ يصيبني بالتوتُّر، وأخذت أفقد أعصابي. لم أقبل بمساعدة زوجة أبي لي في شغل البيت. وبتُّ عصبيَّةً مع الجميع، مع بناتي وأبي ونفسي.

بعد أيَّامٍ من وجودهم، خرج أبي من المنزل ليقوم بشيء ما لم أسأله عنه، وكان يومًا شتويًّا وماطرًا. عاد بملابس مبلولةٍ، وحذاءٍ عليه الكثير من الطين. وكنت قد انتهيت منذ لحظات من تنظيف البيت، دخل بحذائه إلى البيت. عندما شاهدته يدخل، لم أتمالك نفسي قلت له بعصبيَّةٍ ولغةٍ آمرةٍ: «لازم تشلح كندرتك برة البيت.» عندما التفتُّ إلى الجهة الأخرى، شاهدت زوجته وأختي تنظران إليَّ بدهشةٍ. درت حول نفسي، اتجهت إلى غرفتي، دخلت وأغلقت الباب على نفسي، رميت نفسي على السرير، وشرعت في البكاء من قهرٍ متراكمٍ، فجَّره سببٌ تافهٌ كحذاءٍ متسخٍ. أكيد لم يكن حذاء أبي المتسخ هو سبب الانفجار، بل تعبي المتراكم من مشكلات لا تنتهي، كان يمكن لأيِّ سببٍ تافهٍ آخر أن يفجِّر غضبي، كنت جاهزةً للانفجار. لم أعرف كم بقيت أبكي في الغرفة. عندما خرجت من غرفتي بعد أن هدأت، لم أجد أبي وأختي وزوجته. نقرت على باب غرفتهم، لم يجب أحد. فتحت الباب، وجدت الغرفة مرتَّبةً وخاليةً، ولم أجد أغراضهم. عرفت أنَّهم غادروا. شعرت بالقهر من فعلي الغبيِّ، لم أكن أقصد طردهم من البيت. ركعت على أرض الغرفة، لطمت وجهي وشرعت في بكاءٍ مرٍّ آخر، وقلت: «يا الله، ليش بصير هيك معي»، شعرت بالخجل من نفسي، كيف أفعل ذلك بأبي؟! صحيحٌ أنَّه لم يكن أبي الذي أريده، لكن ما كان عليَّ أن أكون بهذه النذالة معه. رجلٌ عجوزٌ ومشرَّدٌ، لا يجب التعامل معه بهذه الطريقة. بعد قليل وجدت

نفسي أسوِّغ لنفسي ما فعلت، أنِّي لم أفعل شيئًا سوى أنِّي احتججت على حذاءٍ قذرٍ، وهذا لا يستحقُّ الزعل والمغادرة من دون كلمةٍ: «شكرًا»، لم يكن ما فعلته موفَّقًا، هذا صحيح، لكنَّه لا يستدعي ردَّة الفعل هذه. وأخذت أتجه إلى تفسيرٍ أحمِّله فيه المسؤوليَّة. لقد وجد بيتًا وانتقل عليه ولم يحتجني، لذلك غادر من دون أن يودِّعني، فهو لا ينقصه المال الذي جمعه طوال عمره. أنا متأكِّدةٌ أنَّه يملك ثروةً، لأنَّه لم يصرف علينا كعائلةٍ من عمله سوى النزر اليسير. كلُّ هذه التبريرات لم تقنعني، وإذا لم أقتنع فيها، فإنَّ عليَّ أن أعتذر عمَّا حصل. وهذا الشيء لم أكن جاهزةً له إطلاقًا، فعدت إلى تفسير بأنَّه رحل بإرادته، وأنَّ ما حصل كان في غاية العاديَّة، بل بالعكس هم الذين لم يقولوا: «شكرًا»، على الاستضافة. كلُّ ذلك من أجل تبرير عدم اعتذاري، أو أن أذهب وراءه لأعود به إلى البيت. عندما عرفت أنَّه ذهب من عندي ليسكن في الجامع، وأنَّ عمَّتي بيان أرسلت ابنها وجلبه ليقيم عندها شعرت بالعار والخزي، لم أعرف أنِّي شريرةٌ لهذه الدرجة، أن أُذِلَّ رجلًا عجوزًا، وأيُّ رجلٍ، إنَّه أبي. لا شيء في الدنيا يمكن أن يغيِّر صورة البنت العاقَّة التي طردت أباها من البيت ليسكن الجامع. هذا ما سمعته بنفسي من الآخرين، وهذا آخر ما أردت فعله. ولا فرصة لتغيير هذه الصورة، حتَّى لو أعدت أبي ووضعته على رأسي ما تبقَّى من عمري. والبشر يحبُّون صورة الآخرين الشريرة، فهي مصدرٌ لمزيدٍ من الكلام والتشهير لمن أَقدَمَ على فعلٍ شائنٍ، وصُنِّفَ ما فعلته كفعلٍ في غاية الشناعة. شتمت الحرب وشتمت نفسي وأبي والدنيا على هذه الصورة الشنيعة التي وجدت نفسي عليها، صورةٌ ظالمةٌ لكنَّها لبستني.

بعد أيَّامٍ عدَّةٍ، قالت حنان بصوت حزينٍ جدًّا: «أمِّي. اصرفي نظر عن موضوع فهد»، استغربت أن تتخلَّى عن خيارها بهذه السرعة والسهولة. سألتها: «اختلفتوا مع بعض؟»، قالت: «لا أبدًا. مسكوه على الحاجز وأخذوه على الجيش»، حزنت من أجلها وقلت: «اصبري. كل شيء وإلُه حل»، قالت:

«حل شو يا أمي؟! فهد ما بدو يقتل حدا، ولا حدا يقتلُه. بعد كم يوم بكون بقلب القتل. مش بخياره، غصب عنُه، بكل الحالات أنا رح أخسرُه للأبد. إن قتل ما بعود فهد اللي بعرفُه، وإن انقتل راح نهائي. وأنا ما بتحملُه لا قاتل ولا مقتول»، وشرعت في البكاء. لم أجد كلماتٍ مناسبةً أقولها في ذلك الموقف، وجدت نفسي أحتضنها وأقول لها: «الله يصبرك»، كان وضع فهد في غاية الصعوبة، لكنَّ حنان عدَّت وضعها أسوأ من وضعه، فهو يعرف ما الذي يحدث معه، أمَّا هي فتنتظر أن يخبرها، وفي المسافة بين اتصالٍ وآخر، تأخذها الأفكار بعيدًا وتلعب بها الكوابيس التي تعطي لفهد مصائر في غاية السوء، لقد أصبحت شابَّةً مدمَّرةً.

لم يكن أمام فهد خياراتٌ كثيرةٌ، بعد أشهرٍ عدَّةٍ، عندما توافرت له الفرصة المناسبة، فرَّ من خدمته العسكريَّة باتجاه تركيا. وبعد فراره لا إمكانيَّة لعودته إلى البلد، ولم ترغب حنان في البقاء بعيدةً عنه. قرَّرت الالتحاق به وعندما أخبرتني بنواياها، لم أرغب في إخفاء ما جرى بيني وبين فاروق عنها وقلت لها: «أبوكي مش موافق على هذا الزواج، وهدَّد إنُه يقتلك إذا تجوزتي فهد»، وجدت نفسي بعد كلِّ هذه السنين في الموقف ذاته الذي وقفته أمِّي عندما خافت على عائدة من أن يقتلها أعمامها، رغم قناعتي وقتها ألَّا أحد يريد قتلها، وهي القناعة التي أخبرت بها عائدة عندما سألتني عن الوضع عند هربها. لكنَّ عائدة لم تكن ابنتي، عندما بات الموضوع متعلِّقًا بابنتي اختلف الحال. لا أظنُّ أنَّ فاروق رغم تهديده وغضبه يمكن أن يقتل ابنته حنان، وهذا ما أعرفه عنه، فهو غير قادرٍ على فعل ذلك. ولأنَّ هناك احتمالًا ضعيفًا أن يُقدِمَ على ذلك، وجدت أنَّ هذا الاحتمال يتضخَّم عندي حتَّى تحوَّل إلى إمكانيَّةٍ كبيرةٍ، عندها أصابني الرعب، إنَّها طريقة الأم بالتفكير، تفكِّر بقلبها وليس بحساباتٍ باردةٍ. اليوم وبعد هذه السنين الطويلة أفهم كيف فكَّرت أمِّي في مثل هذا الموقف

الذي تعرَّضت له مع عائدة، وأنا اليوم أتعرَّض له مع ابنتي. استغربت حنان من موقف أبيها الذي كان يعاملها بلطفٍ رغم معرفته بما كان يجري.

لم تجد حنان طريقةً شرعيَّة للدخول إلى تركيا، ولم أكن أوافق أن تذهب عن طريق التهريب، لأنَّها طريقٌ محفوفةٌ بالخطر. لكنَّها شعرت أنَّ الوقت ينفذ، فكلَّما تأخَّرت في المغادرة، كلَّما أصبحت الطريق أصعب والمخاطر أكثر، وليست قادرةً على الانتظار. ونحن نبحث الخيارات، عرفت أنَّ عمَّتي بيان التي كانت في زيارةٍ لابنتها ستعود من الإمارات، لتذهب هي وما تبقَّى من أولادها في دمشق عبر رحلة التهريب هذه إلى تركيا ومنها إلى أوروبا. فقد ركبت ابنتها الكبرى أمينة التي هربت من الحرب إلى مصر البحر من الإسكندرية إلى ايطاليا، وابنها قيس فعل الشيء ذاته لكن عن طريق الطائرة، وهذه الفرصة وفَّرها له جواز السفر الذي منحته له الأونروا التي يعمل كموظَّفٍ فيها. كان الوضع يزداد سوءًا في دمشق، وبات الكثيرون يبحثون عن طريق لخروجهم من البلد أو لإخراج أولادهم على الأقل. عندما عادت عمَّتي بيان إلى دمشق، ذهبت لزيارتها بعد أيَّامٍ، وعرفت منها أنَّها ستذهب مع أولادها في هذه الرحلة التي سبق أن ذهب فيها عدنان ابن عمِّي خليل وعائلته، وقد أخذت عمَّتي بيان رقم هاتف السائق الذي أنجز المهمَّة من عمِّي خليل، وستتصل به ليحدِّد موعد المغادرة، وأنَّهم سيركبون من دمشق ويبقون في الميكروباص ذاته حتَّى يصلوا إلى الحدود التركية. في زيارتي سألتها بتردُّدٍ ورجاءٍ: «عمَّتي، بتقدر حنان تروح معكم بهاي الرحلة؟»، قالت: «ما في أي مشكلة، إحنا ما رح نكون لحالنا بالميكرو، إذا كنا بنعرف اللي بدهم يروحوا معنا بكون أحسن، أهلًا وسهلًا»، أسعدني جواب عمَّتي، فأنا وجدت من أثق به ويمكن أن أرسل ابنتي معه. لم أقل لها أنَّ حنان لن ترافقهم كلَّ الرحلة، فلا أعرف ما الذي سيحدث، كان من المهم أن تكون حنان مع عمَّتي حتَّى الأراضي التركية، وبعد ذلك يحلُّها الحلَّال.

عندما حان موعد مغادرة حنان، شعرت بالحزن، أعطيتها مبلغًا من المال، وقلت لها في كلِّ محطَّةٍ، سيصلك المال حيث أنت، كنت قد اتفقت مع أخي رضوان أن يرسل لها أيَّ مالٍ تحتاجه من السعودية حيث يعمل، وأنا أسدِّده له مباشرةً، حتَّى لا تحمل معها مبلغًا كبيرًا من المال، يجعل سرقتها مغريةً ويُعرِّضها للأذى. وهذا ما نصحني به بعض أهالي ممَّن خاضوا التجربة قبلنا. قالوا إنَّه عالمٌ سفليٌّ إجراميٌّ، يجب على المرء أن يكون حذرًا معهم ومن الأفضل ألَّا يعرفوا أنَّ من يُهَرِّبونهم من البشر معهم الكثير من المال، حتَّى لا يؤذونهم ويسرقونهم، كما حدث مع العديدين. خفت على حنان وبدأت أسوأ التخيُّلات تخطر لي، رغم ذلك لا إمكانيَّةٌ للتراجع. ودَّعت حنان وعمَّتي وأولادها، لم أستطع مسك دموعي، وجدت نفسي أبكي وأحضن ابنتي وعمَّتي في الوقت ذاته، بكينا معًا. بقيت طوال اليوم قلقةً، حتَّى وصلوا إلى تركيا. وقد سلكوا الطريق الذي سنسير عليه أنا وابنتي نور بعد أشهرٍ عدَّةٍ في ظروفٍ أسوأ من تلك التي واجهتها عمَّتي وحنان.

لم يعترض فاروق على مغادرة حنان مع عمَّتي بيان في رحلة التهريب وصولًا إلى أوروبا. لم يعرف أنَّ فهد سيكون جزءًا من هذه الرحلة، على العكس، كان سعيدًا بها، لأنَّها ستخلِّصه من كابوس زواجها من شابٍّ درزيٍّ، ولذي سيسبِّب له العار بين أهله وأقاربه ومعارفه. وظنَّ أنَّ الكابوس زال، ولم أستطع أن أخبره الحقيقة التي لم تنتظر طويلًا حتَّى ظهرت.

عندما وصل فهد وحنان إلى هولندا وحصلا على الإقامة هناك، تزوَّجا رسميًّا في ذلك البلد، الذي لا يلتفت لدين الشخص أو طائفته، طلبت منها أن تُبقي ذلك سرًّا عن أبيها لمدَّةٍ على الأقل، حتَّى يمكن أن يفهم الموضوع. لكنَّ الأمور لا تسير كما نشتهي، بعد حوالي ستة أشهرٍ عرف فاروق أنَّهما تزوَّجا في هولندا. لا أعرف عن أيِّ طريقٍ عرف ذلك، فالدنيا أصبحت صغيرةً وكلُّ شيءٍ فيها مكشوفٌ. عندما حضر إلى البيت غاضبًا، شعرت الأمر يتعلَّق بحنان هذه المرَّة، أو بالأصح في كلِّ مرَّةٍ غضب فيها بعد أن غادرت حنان،

ظننت أنَّه عرف بالأمر. لأنَّ الأشياء التي تغضبنا باتت أكثر في زمن الحرب الشرسة التي تشهدها البلد. عندما سألني: «صحيح حنان تجوزت الدرزي؟»، لم أخفِ الحقيقة عنه، قلت له على الفور: «هذا صحيح»، انفجر صارخًا: «بتتآمري عليّ. بتساعديها تهرب منشان تتجوز هذا الحيوان؟! وبتحطي راسي بالطين. أنت مرة أنت، أنت حيوانة، في مرة محترمة بتعمل هيك بجوزها؟ بتعمل هيك شغل شرميط؟»، رفع يده يريد صفعي، لكنَّه تراجع وأنزل يده وقال: «ما في فائدة... ما رح تبقي على ذمتي ولا لحظة، رح أطلع من البيت، وأرجع المسا ما بدي أشوف خلقتك هون، أنت طالق»، لم أجادله، ولم أردَّ عليه، لأنَّ حياتي معه انتهت من قبل، وما حصل في ذلك اليوم مجرَّد تحصيل حاصلٍ. سمعت صوت الباب الذي صفقه بكلِّ قوَّته وهو خارجٌ من البيت. وأصبحت أمام المصير الذي توقَّعته كلَّ يومٍ منذ عدت للعيش معه. جمعت أغراضي وخرجت من البيت إلى بيت أمِّي الذي انتقلت عائدة للعيش فيه قبل أشهرٍ. وبعد مغادرتي المنزل، اتصلت بابنتي نور على الهاتف المحمول التي تحضر دروسها في الجامعة، قلت لها: «أنا طلعت من البيت وما رح أرجع عليه. أبوكي قلعني من البيت، وطلقني»، قالت: «شو بتقولي؟! أنا جاية»، أغلقت الهاتف. عندما حضرت نور في المساء، كنت ما أزال أرتِّب أغراضي في بيت أمِّي. رنَّ الجرس، فتحت لها الباب، ألقت نور برأسها على صدري وشرعت في البكاء. قلت لها: «ليش بتبكي؟»، قالت من بين دموعها: «منشان اللي صار»، قلت: «اللي صار، كان لازم يصير من زمان»، قالت: «رحت على البيت وحكيت مع أبوي، وقلتلُه، مش رح أترك أمي لحالها، رح أروح أعيش معها»، قال: «ليش أنت أحسن؟! ما أنت من نفس الطينة.. إلحقيها.. الله معك.. بتريحي»، وشرعت في البكاء من جديدٍ. قالت من بين دموعها: «ليش أبوي بعمل هيك؟ شو صار له؟ ليش عبصير معنا هيك؟»، قلت: «ما في داعي للبكا، هذا متوقَّع، وإذا ما كان متوقَّع، الجنان اللي ضرب البلد بخلِّي كل شي ممكن. لا تهتمي، الحياة

ما بتوقف عند حدا»، لأوَّل مرَّةٍ أمام حدثٍ من هذا النوع لم أشعر بالحزن ولا بالإهانة، بل شعرت بالراحة، كأنَّ حملًا ثقيلًا انزاح عن صدري. طوال السنوات المنصرمة التي عشتها مع فاروق في المرَّة الثانية، لم أكن مرتاحةً، مارست ضغطًا داخليًّا هائلًا على نفسي طوال هذه السنوات. فجأةً شعرت هذا الضغط يتبخَّر، وارتحت من شيءٍ كان يضايقني ولا أعرف ما هو، وها هو يزول. لم يكن فاروق الضغط الوحيد، بل الحرب تسبَّبت بآلاف الضغوط المرئيَّة وغير المرئيَّة، ولم يعرف أحد كيف يتعامل مع ما يجري في البلد؟ ولا أحد يعرف إلى أين تسير البلد، ولا أنا؟

عندما عدت في المرَّة الثانية إلى بيت أهلي، رغم وجود عائدة، افتقدت أمِّي، تذكَّرت أمِّي التي ماتت وكيف كانت تعاملني. وتذكَّرت سائدة التي غادرت منذ سنواتٍ إلى كندا. شعرت أنَّ البيت موحشٌ بغياب أمِّي، على عكس المرَّة الأولى، الذي شعرته حنونًا دافئًا يشعر بي كما لم يشعر بي مكانٌ آخر. أمِّي كانت تضفي كلَّ هذا على المكان، وبرحيلها تحوَّل المكان إلى جدرانٍ باردةٍ. المكان الذي طالما أحببته شعرت تجاهه بالنفور، رغم وجود عائدة وابنتي نور معي، إلَّا أنَّه لم يخفِّف من حدَّة شعوري تجاه المكان، لأنِّي عشت الإحساس الفظيع في الفقد، طوال الوقت كنت أبحث عن أمِّي، التي لا أجدها، وكلَّما افتقدتها أكثر، كرهت المكان أكثر. بالتأكيد كان للقتل والحواجز التي تملأ المدينة في كلِّ مكانٍ أثرها على حياتنا، وهذا سببٌ آخر لنبحث عن الصورة التي كنَّا نعيشها قبل هذا الجحيم الذي قلب حياتنا رأسًا على عقبٍ. لم أرغب بالعيش في البلد، عليَّ أن أغادر. لم أستطع أن أقترح على ابنتي نور الرحيل واللحاق بأولادي في أوروبا، فلم أرغب في قطع دراستها الجامعيَّة، فهذا مستقبلها. عندما اقترحت هي المغادرة، قلت لها: «وشو منشان جامعتك؟»، قالت: «بتركها، مثل ما كثير تركوها وغادروا»، قلت: «بس هادا مستقبلك»، ابتسمت ابتسامةً ساخرةً وقالت: «شو يعني مستقبل؟! احنا ببلد ما عاد لو مستقبل»، كانت محقَّةً فيما قالت، نعم

البلد ليس لها مستقبلٌ، ونحن ليس لنا ما نخسره في هذا البلد، لذلك وَجَبَ الرحيل.

عندما ودَّعت عائدة شعرت بالحزن والذنب لأنِّي أتركها وحدها وهي مريضةٌ في بلدٍ يعاني من الحرب، قلت لها: «روحي معنا، ما عاد إلك شي بالبلد»، رسمت ابتسامتها الجميلة المتعبة على وجهها وقالت: «وشو إلي هناك؟»، عانقتها وبكيت حالي وحالها. عندما شرعنا في رحلتنا أصبحت الأوضاع أصعب من الفترة التي غادر فيها كلًّا من أمين وحنان وأكثر كلفةً، لم تكن الكلفة هي المشكلة بالنسبة لي، إنَّما مخاطر الطريق وخوفي على نور منها. عندما بدأت الرحلة كان علينا أن نصل إلى تركيا عبر مناطق عدَّةٍ تسيطر عليها جهاتٌ مختلفةٌ لا سيَّما السلطات الحكوميَّة وداعش، وعلينا أن نمرَّ بكلِّ خطوط التماس هذه بين الطرفين وبأكثر من مكانٍ. لم أفهم ما جرى في الطريق. في بعض الأماكن، يقول لنا السائق تغطوا، وهذا يعني أنَّنا يجب أن نلبس اللباس الأسود ونغطِّي وجوهنا بغطاءٍ سميكٍ كنَّا قد تجهَّزنا به سابقًا لمعرفتنا أنَّ الرحلة ستمرُّ بهذه المناطق. سار الميكروباص الذي ركبنا فيه في مناطق للنظام حتَّى ريف حماة، وكان هذا واضحًا لأنَّ كلَّ الحواجز التي توقَّفنا عليها حتَّى ذلك المكان، وقف عليها عساكر بلباسٍ عسكريٍّ ويرفعون العلم السوريَّ المعتمد من النظام، حتَّى الحواجز التي فيها مسلَّحون باللباس المدنيِّ كانت ترفع هذا العلم. بعد دخولنا ريف حماة ومن بعدها إدلب، تغيَّرت الرايات، وبدأت تظهر الرايات السوداء التي كُتِبَ عليها: «لا الله إلا الله» بالأبيض على رايةٍ كاملةٍ بالأسود وفي دائرةٍ بيضاء على الراية ذاتها كُتِبَ بالأسود «محمد رسول الله» والحواجز التي مرَرنا بها في هذه المناطق التي تسيطر عليها داعش، كان الرجال الذين يقفون عليها بذقونٍ طويلةٍ وبعمائم وبلباسٍ أفغانيٍّ. الغريب أنَّ أحدًا من هذه الحواجز لم يفتِّش الميكروباص، لا الحواجز التي تعود للجيش النظاميِّ، ولا تلك التي تعود إلى داعش، مع أنَّنا شاهدنا سيَّاراتٍ أخرى على

هذه الحواجز تخضع للتفتيش، لكن نحن لم يفتِّشنا أحدٌ، وكأنَّ الجميع يعرفون من نحن وما هي وجهتنا، والجميع يتقاسم المال الذي دفعناه إلى المهرِّب من أجل الوصول إلى الحدود التركيَّة.

بعد هذه الرحلة الطويلة والخطرة بين الحواجز، كان علينا أن نعبر الحدود مشيًا على الأقدام. كانت الرحلة صعبةً عليَّ، فقد مشينا حوالي ثلاث ساعاتٍ تورَّمت فيها قدماي. عندما وصلنا إلى الطرف الثاني من الحدود وعثرنا على تكسي ونقلتنا إلى أقرب مدينة حدوديَّة، كنت قد خسرت كلَّ قواي، وفقدت القدرة على الحراك. استرحنا يومين في الريحانية داخل الأراضي التركية، ومنها توجَّهنا إلى مرسين، فقد علمنا أنَّ هناك مهرِّبين يستطيعون نقلنا إلى إيطاليا مباشرةً من دون المرور باليونان، وهذا الطريق سار عليه ابني أمين الذي سبقنا بأشهرٍ عدَّةٍ إلى ألمانيا. تعرَّفنا هناك على رجلٍ وزوجته من المخيَّم يريدان السفر على الطريق نفسها، كذلك شابَّين من حمص منشقَّين عن الجيش. اتصلنا بعددٍ من المهرِّبين، ورسينا بعد المشاورات مع ابني أمين وابنتي حنان على أن نختصر الطريق إلى ايطاليا في مركبٍ آمنٍ، أفضل من قطع الطريق بالمراكب المطاطيَّة الخطرة التي ركبتها حنان وفهد في رحلتهما إلى هولندا، والتي لم تنصحني حنان بها، خوفًا عليَّ وعلى نور. كان خيار القارب الحقيقيِّ، وحتَّى لو كان مهترئًا أكثر أمانًا من خيار القارب المطاطيِّ الرخيص الذي يستخدمونه لمرَّةٍ واحدةٍ والذي يمكن أن يغرق لأتفه سببٍ. لذلك اتفقنا مع المهرِّب على أن ندفع ثلاثة أضعاف المبلغ الذي يتكلَّف به الطريق عبر اليونان. وفي اليوم المحدَّد، وضعنا المبلغ المتفق عليه في مكتب تأمين، على أن يعطي المبلغ للمهرِّب عند وصولنا إلى إيطاليا. جهَّزنا حقائب الظهر التي سنأخذها معنا، ووضعنا فيها ما نحتاج، وما نصحونا أن نأخذه معنا، لا سيَّما ستر النجاة. بعد ذلك انتظرنا المهرِّب الذي أخذنا ليلًا إلى مكانٍ قريبٍ من الشاطئ، انتظرنا ساعاتٍ حتَّى حملونا بواسطة مراكب صغيرةٍ إلى مركب صيدٍ متهالكٍ. صعدت إليه بصعوبةٍ

وبمساعدة الشابَّين من حمص. بعد ستِّ ساعاتٍ من الانتظار، اكتمل العدد مثلما قال المهرِّب على المركب. كنَّا حوالي خمسة وعشرين شخصًا، وهذا غريبٌ على رحلات التهريب التي تكون عمومًا أكثر اكتظاظًا، كما فهمت من أولادي الذين سبقوني. فسَّرت ذلك أنَّنا دفعنا مبلغًا أكبر بكثيرٍ، لذلك من الطبيعي أن نذهب في رحلةٍ أفضل. بعد ساعاتٍ شعرت بالدوار وبرغبة في التقيُّؤ مثل جميع الذين أخذوا يتقيَّؤون في كلِّ مكانٍ، لم يكن أحدٌ قادرًا على التحكُّم بنفسه، وأنا منهم، وجدت نفسي أتقيَّأ وأنا في مكاني، غير قادرةٍ على التحرُّك والوصول إلى الحمام الصغير القذر الذي في القارب، ولم أعرف إن كنت تقيَّأتُ بسبب دوار البحر أو بسبب رائحة قيء الآخرين التي أشعرتني بالقرف، ولم يكن حال ابنتي نور أفضل، فهي أيضًا شرعت في التقيُّؤ قبلي. بات القارب مكانًا لا يطاق بفعل القيء الذي انتشر في كلِّ الأرجاء. وعندما طلع الضوء، أخذ القادرون على الحركة ينظِّفون القارب من القيء الذي كاد يقتلنا. وبعد ذلك قدَّم المهرِّبان المساعدان لنا أولى الوجبات، المؤلَّفة من القليل من الطعام في صحونٍ من الكرتون، بعض البطاطا وأشياء لم أستطع تمييزها، لم أكن قادرةً على وضع أيِّ طعامٍ في فمي، فكيف بهذه القمامة، قمت برميها في سلَّة المهملات. في الصباح شاهدت البحر من المركب الذي أصبح في وسط البحر، اللون الأزرق حولنا من كلِّ الجهات، ولم أعرف إذا كان المركب يسير فعلًا، أم يقف في مكانه رغم صوت المحرِّك الذي يعمل. سألت نفسي: «هل هذا صوت محرك عن جد والقارب بمشي، ولا هو بس صوت المحرك والمركب واقف؟!»، لم يكن هناك غير صوت المحرِّك مسموعًا في المكان، الركاب غير قادرين على الكلام، بعد الإنهاك الذي تسبَّب به دوار البحر، رغم الدواء المضاد للدوار الذي تناولناه احتياطًا واستباقًا للدوار.

لفَّ الصمت الجميع في تلك اللحظات، شعرت بالندم وقلت لنفسي: «ما كان لازم أجي هاي الرحلة وأحط نور بهذا الخطر»، كنَّا في عرض البحر،

التراجع ليس ممكنًا، وعلينا أن نكمل الرحلة حتَّى نهايتها، لقد أنجزنا الجزء الأصعب منها، ولم يبقَ سوى الجزء السهل، يومان أو ثلاثة ونصل إيطاليا ومن هناك الطريق سهلةٌ. تنتهي معها كلُّ المخاطر ولا يبقى سوى خطر أن نبصم في بلدٍ لا نريد الذهاب إليه ونجبر على البقاء فيه بسبب البصمة. يومان وأنا أبحث عن اليابسة التي لم تظهر. أنظر في كلِّ الاتجاهات، لا يابسة. سألت نور: «إحنا ماشين صح؟» نظرت إليَّ مستغربةً سؤالي وقالت: «أمي، مثلي مثلك. ما بعرف وين إحنا، وما بعرف إذا الطريق صح ولا لأ. ما في غير مي زرقا، غير الله ما بعرف وين إحنا».

في صباح اليوم الثالث، صحوت على صوت شخصٍ يقول: «إيطاليا.. إيطاليا.. هاي إيطاليا» عندما صحوت من نومي في الزاوية البائسة، نظرت حيث ينظر الناس. شاهدت اليابسة، قلت: «أخيرًا وصلنا» شعرت بالراحة لوصولنا إلى وجهتنا، ونحن نقترب من اليابسة التي تزداد وضوحًا. اقترب منَّا زورقٌ كبيرٌ للشرطة، أنزل قاربًا مطَّاطيًّا سار باتجاه مركبنا، وطلبت منَّا الشرطة باللغة الانكليزيَّة النزول إلى القارب المطَّاطي، حتَّى ننتقل إلى زورقهم، لينقلونا بدورهم إلى الشاطئ. الشرطيُّ الذي نزل مع القارب المطَّاطي، ألقى لنا بحبلٍ سحبنا به سلَّمًا مصنوعًا من الحبال حتَّى ننزل به إلى الزورق المطَّاطي. نزلنا على دفعاتٍ وانتقلنا إلى زورق الشرطة. وعندما وصلت دفعتنا إلى زورق الشرطة قلت للشرطيِّ: «ايتاليا.. ايتاليا» قال الشرطيُّ: « No. This is Cyprus» شعرت أنِّي سمعت شيئًا خاطئًا، لم أفهم ما قاله. سألت نور التي تغيَّر لونها بعد ما قاله الشرطي: «شو قال؟» قالت وقد شرعت في البكاء: «بقول إحنا بقبرص» التفت إليها، وقلت: «شو عبتقولي؟! اسأليه مرَّة ثانية» قالت: «ما في حاجة، كلامُه واضح، إحنا بقبرص، مش بإيطاليا، الزورق ضاع عن الطريق» دُهِشتُ وكأنِّي أسمع ما تقول لأوَّل مرَّةٍ. لطمت خدودي وقلت: «كل هادا العذاب حتَّى نصل على قبرص؟! يا الله، شو عبصير فينا» لم أعد أعرف ما حصل، لقد غيَّبتني الصدمة

عن الوعي كنت أرى الآخرين يتحرَّكون أمامي، لكنِّي لا أعرف إن كنت نائمةً أم صاحيةً؟ أنزلونا من زورق الشرطة، وقاموا بكلِّ الإجراءات من دون أن أعي ما حصل. طوال الوقت لم أصدِّق أنَّنا في قبرص، انتظرت أن يقول لي أحدهم: «هاي مزحة سخيفة، أو كابوس رح نصحا منُه» لكنَّه الواقع المرِّ الذي وجدنا أنفسنا فيه بعد رحلة العذاب. «شو اللي جاب الزورق على قبرص بدل ما يروح على إيطاليا؟» كان هذا سؤال كلِّ الركَّاب المصدومين بنهاية الرحلة غير المتوقَّع. وبعد أيَّامٍ عرفنا أنَّ السبب يعود إلى أنَّ المركب لم يكن أصلًا متجهًا إلى إيطاليا غربًا، لأنَّ عدد الركَّاب في المركب قليلٌ وبالتالي لم يأتِ بالأرباح المتوقَّعة للمهرِّبين، فقرَّر المهرِّب الكبير أن يحوِّل المركب إلى الجنوب باتجاه الإسكندريَّة في مصر حتَّى يأخذ ركَّابًا إضافيِّين ينتظرون هناك، لتصبح أرباح الرحلة مقبولةً من المهرِّب المتاجر بأرواح أناسٍ في مركبٍ تالفٍ في عرض البحر. لأنَّ من يقود المركب ليس قبطانًا، إنَّما هو واحدٌ من عصابة المهرِّبين، ومعرفته بالاتجاهات متواضعةٌ، في طريقه إلى الإسكندرية جنح بالمركب باتجاه قبرص، فوجدنا أنفسنا هناك بدلًا من إيطاليا.

كانت قبرص بمنزلة العقاب بالنسبة لي ولابنتي نور، منذ وضعنا أغراضنا القليلة في الغرفة الصغيرة في مخيَّم اللاجئين، كنت أستيقظ في منتصف الليل فزعةً، أشعر نفسي ما زلت أتمايل في القارب المتهالك في وسط البحر وأنَّه يسير بنا في طريقٍ لا نهاية لها في عتمةٍ شديدةٍ، لا شيء يدلُّ على أنِّي في البحر سوى اهتزازات المركب. وعندما أستيقظ، أحتاج إلى دقائق عدَّةٍ لأستوعب ما جرى، وأتذكَّر أنِّي في قبرص. بعد استيعاب الصدمة، بدأنا نبحث عن خياراتٍ لمغادرة قبرص، فهذا بلدٌ لا يمكن البقاء فيه كلاجئين، فهو لا يمنحنا أيَّ مستقبلٍ، والعيش في المخيَّم صعبٌ، وليس هناك فرصةٌ للعيش خارجه، لأنَّ البلد غاليةٌ جدًّا، والبقاء فيها يعني البقاء في سجنٍ كبيرٍ. قرَّرنا أنا ونور البقاء هناك، لعلَّنا نجد وسيلةً للانتقال من قبرص إلى بلدٍ

أوروبيٍّ، لكنَّنا لم نجد أيَّ وسيلةٍ يمكننا من خلالها أن نهرب من هناك إلى أيِّ بلدٍ أوروبيٍّ. كانت الأيَّام تسير بسرعةٍ من دون أن نجد مخرجًا من المكان، قضينا عامًا في المخيَّم البائس هناك، من دون الوصول إلى حلٍّ أو طريقٍ. وبعد عامٍ، قلت لنور: «شو بنعمل هون؟» قالت نور: «بننتظر فرصة» قلت: «أنا تعبت، وماني قادرة أتحمَّل الوضع. وليش بننتظر الفرصة هون؟ ليش ما بنرجع على الشام وبننتظر هناك؟» قالت: «أنت عارفة الوضع بالشام وخطورته»، قلت: «بعرف، بس بعرف كمان، قلب الشام، ما فيه هديك المخاطر الكبيرة. مع إنُه في حواجز كثير»، قالت: «بشو بتفكري؟»، قلت: «ما في فائدة نستنا هون، هون ما رح تجينا أي فرصة، بنرجع على الشام، ومن هناك بنفكر شو بدنا نعمل؟»، ظهر على ملامحها، أنَّ الكلام لم يعجبها، رغم ذلك قالت: «زي ما بدك»، قلت: «حكيت مع خالتك عائدة. قالت، إذا إنت تعبانة ليش عبتستني عندك؟ تعي لهون واستني زي ما بدك. حسيت معها حق»، لقد قالت عائدة لي ذلك منذ زمن، لكنِّي قرَّرت أن نحاول الخروج من هنا مباشرةً، وهذا لم يحدث. لقد أخبرتني أنَّها تستضيف صديقتها مع طفلين، وأنَّها مستعدَّةٌ لمغادرة المنزل إذا كان هذا يضايقني قلت لها: «عائدة، ما بدي شي غير أرجع. تعبت»، عندما وصلت إلى البيت بعد رحلةٍ شاقَّةٍ من لارنكا إلى بيروت إلى دمشق، صعقني الحال التي باتت عليها عائدة، لقد أصبحت في غاية الضمور، وقد هرمت في هذا العام ما يعادل عشرين عامًا، جسدها هزيلٌ جدًّا، عيناها غائرتان، ووجهها قد تجعَّد، لم أكن بحاجةٍ أن أسأل عن وضعها، منظرها يشرح وضعها الصحيَّ، لقد فتك السرطان بها. رغم ذلك أذهلتني قدرتها على المقاومة، ومحاولتها صناعة الأمل عند الآخرين ومساعدتهم بكلِّ ما تبقَّى لها من قوَّةٍ، حسدتها على روحها التي تولِّد المقاومة وتجعل حياتها ذات معنى، حتَّى وهي في أسوأ حالاتها الصحيَّة. عرفتني عائدة على مها، عندما روت عائدة لي قصَّتها، لم أصدِّق قدرة هذه المرأة على المقاومة أيضًا. عندما

سنحت لي الفرصة لسؤال مها، من دون أن أسبِّب لها الألم سألتها: «كيف قدرتي تعملي هيك؟» قالت مها: «ما تصدقي المظاهر. متت مية مرة بالمذبحة. بس، شو بدي أعمل، أنا عايشة منشان هدلون الولاد، ما ألهم غيري بهاي الدنيا، ما بعرف شو ممكن يصير فيهم بلاي؟».

خلال عامٍ من غيابي، تغيَّرت دمشق التي أعرفها، الغلاء مرعبٌ، لم تعد دخول الناس تكفيهم بسبب انهيار سعر الليرة مقابل الدولار، كلُّ شيءٍ ارتفع سعره أربعة وخمسة أضعافٍ والرواتب ما زالت على حالها. أخافتني مشاهد المشرَّدين في الحدائق والطرقات، لاجئون من بلدات ريف دمشق التي تشهد اشتباكاتٍ واسعةً، الطلب على أجرة المنازل في مناطق دمشق الآمنة ارتفع ارتفاعًا مذهلًا بسبب النزوح من بلدات مثل دوما وحمورية وسقبا وغيرها من بلدات الغوطة الشرقيَّة، وليس الحال أفضل في مناطق وادي برى مثل الزبداني ومضايا وغيرها من البلدات. أصبح أقلُّ إيجارٍ لمنزلٍ رديءٍ في صحنايا على سبيل المثال لا يقلُّ عن ضعف راتب الموظَّف، وفي وسط البلد خمسة أضعافٍ. وكثيرون لا يملكون أيَّ مالٍ، فكان مصيرهم أن يتشرَّدوا في الجوامع والحدائق والطرق والبنايات غير مكتملة البناء. عرفت أنَّ وضع البلد بات أسوأ، لكنَّ الكلام عن سوء الوضع شيءٌ ومشاهدته بالعين شيءٌ آخر. هناك واقعٌ صعبٌ يتفوَّق على أيِّ وصفٍ. وعندما شاهدت ما يجري في البلد فهمت أهميَّة ما تقوم به عائدة، إنَّها تقوم بعملٍ نبيلٍ في وقتٍ عزَّت فيه النبالة، فأخذت عهدًا على نفسي، أن أكون جزءًا ممَّا تقوم به. وقد وجدت في ذلك عزاءً لي، وشعرت أنَّ لي فائدةً في هذا العالم القاسي. كلَّما فكَّرت في حياتي، شعرت برغبةٍ في البكاء، وكلَّما فكَّرت بأولادي، داهمني البكاء، وعندما أشاهد عائدة تذوي، تندفع دموعي تلقائيًّا. لم أكن امرأةً سهلة البكاء، لا أعرف ما الذي حدث معي حتَّى أصبحت دموعي تسقط بهذه السهولة، أو أنَّ الوضع الذي نمرُّ به يبكي الحجر. مع مقابلتي الناس المحتاجين الذين كنت أوصل لهم بعض

المال، وسماعي لقصصهم، شعرت بجرحٍ غائرٍ يصل قلبي، لم أطلب منهم الحديث عن حياتهم. بعضهم وجدها فرصةً ليقول لي ما لا يستطيع قوله لأهله ومحيطه، مئات وآلاف قصص الآلام والأوجاع يحملها اليوم الناس الذين اكتووا بنار الحرب وتعرَّضوا للإيذاء من الجهات جميعها وعانوا الأمرين.

ابنتي نور هي أكثر ما حرق قلبي، هذه الشابَّة تذوي أمامي من دون أن أكون قادرةً على مساعدتها، حاولنا الهرب من البلد وحربها، وجدنا أنفسنا عالقين في جزيرةٍ لا تؤدِّي إلى مكانٍ. عدنا إلى دمشق لنجدها غير التي تركناها، مكانٌ يستحيل العيش فيه. أعرف أنَّها تذهب إلى الجامعة هربًا من الوضع، فلا معنى للدراسة في بلدٍ: «ما عاد فيه مستقبل» كما قالت قبل أن نذهب في رحلتنا الفاشلة. وعندما بدأت موجة اللجوء الكبيرة عبر تركيا. قالت: «رح أحاول مرة ثانية»، قلت: «يا أمي حاولنا وتبهدلنا، وأنت بتعرفي ما بحاجة حدا يشرح لك الرحلة وخطورتها؟»، قالت: «بعرف، بس الموت أهون عليّ من العيش ببلد مدمَّر، شو رح أعمل هون؟! إحنا جربنا مرة وحدة، غيرنا جرب أربع وخمس مرات، حتى نجحوا»، حرت ماذا أفعل، هل أوافق على محاولةٍ جديدةٍ تقوم بها، أم أبقى على موقفي بأن تبقى في دمشق خوفًا عليها من أخطار رحلة التهريب؟ ناقشت الموضوع كثيرًا مع ابنتي حنان في هولندا ومع عائدة في دمشق. قالت حنان: «انتو بتقرروا، أنا ما بقدر أنصح بشي»، لم أستفد شيئًا من نقاشي معها، ولم تشجِّعني على أيِّ موقفٍ، وأعادت المشكلة لي لأقرِّر فيها. كان لعائدة رأيٌ آخر في موضوع الرحلة عندما سألتها رأيها قالت: «لو كنت بمثل عمرها، ما تردَّدت ولا لحظة بترك البلد»، تجادلت مع نور كثيرًا، وفي النهاية عرفت أنِّي لن أستطيع إجبارها على البقاء، وإن أجبرتها سأبقى أتحمَّل مسؤوليَّة هذا القرار، فإن أصابها أيُّ مكروهٍ في دمشق، سأكون أنا من يتحمَّل مسؤوليَّته، لأنِّي منعتها من الهرب من الموت الذي يخيِّم على المدينة. كان من الصعب

عليَّ مغادرتها وبقائي وحيدةً في دمشق، لأنِّي قرَّرت ألَّا أغادر معها، ولن أكون عبئًا على أولادي هناك، فليشقُّوا طريقهم من دون مزيدٍ من الأعباء. أذعنت لرغبتها في محاولةٍ جديدةٍ. ودَّعتها، وذهبت في رحلتها مع صديقاتها عبر تركيا واليونان هذه المرَّة، وصولًا إلى هولندا عند أختها. حاولت حنان إقناعي بأن أقوم بالرحلة معها وقالت: «ما بقي لك شي بالشام، ليش بدك تبقي؟! تعالي مع نور، إحنا محتاجينك»، قلت: «ما إلي شي عندكم كمان، ما رح أشغلكم بحالي»، كرَّرت محاولاتها لإقناعي حتَّى بدأ الحديث في الموضوع يضايقني، شعرت حنان بذلك، في النهاية، قالت: «إحنا بدنا إياكي معنا، بس إذا أنت شايفة أفضل إلك تبقي بالشام، ما رح أرجع وأفتح الموضوع معك»، كان من حظِّ نور هذه المرَّة أن ذهبت في رحلةٍ سهلةٍ، وكانت ألمانيا قد قرَّرت استقبال اللاجئين السوريِّين، فكانت المرحلة الأصعب في الرحلة هو الوصول إلى تركيا، أمَّا بعد ذلك، فقد كانت رحلتها سهلةً، باستثناء مرحلة قطع البحر بين تركيا واليونان بالقارب المطَّاطيِّ. لذلك لم أنتظر طويلًا أخبارها التي كانت تصل بسرعةٍ، كلَّما انتقلت من مكانٍ إلى مكانٍ. مع وصولها إلى هولندا عند أختها، شعرت بالراحة، لقد أصبح كلُّ أولادي في بلادٍ آمنةٍ. شعرت بالفراغ، كانت عائلتي كلَّ حياتي، وأصبحت بعد سفرهم وحيدةً في بلد تأكلها الحرب. خفَّف وجودي مع عائدة وصديقتها مها من هذا الشعور بالوحدة، وانشغلت بمساعدتهما في المهمَّة التي أخذتا فيها على عاتقهما بمساعدة الناس. جلب هذا العمل السعادة والصمود لعائدة، عندما كانت تنجح في مساعدة إحداهن مساعدةً إنقاذيَّةً، تفرح وتنسى مرضها ويشرق وجهها. ساعدها عملها على مقاومة المرض، لكنَّه في النهاية كان أقوى منها، بعد سفر نور بأربعة أشهرٍ انتصر المرض على عائدة وتوفيت. وقتها شعرت بأنِّي وحيدةٌ تمامًا. بعد العزاء، قالت لي مها: «شكرًا لأنَّك تحمَّلتيني حتَّى خلص العزا، ما بعرف كيف بدي كمل من دونها، كنت بعرف أنَّها مريضة، بس ما صدَّقت موتها.

بس، الموت حق علينا. رح آخذ الأولاد وأترك البيت حتَّى ترتاحي، بتمنَّى تتحمَّلينا أسبوع حتَّى دبر حالي»، أصبت بالخوف عندما سمعت كلماتها، هي ستغادر أيضًا، لم أكن قادرةً على العيش وحيدةً بين جدران البيت الباردة. قلت بلهجة الرجاء: «ليش هيك عبتقولي، أنا أزعجتك بشي؟ ليش بدك تطلعي من البيت؟»، قالت: «عائدة اعتبرت حالها أهلي، وكانت أحسن أهل. أنا ما بدي أزعجك. اللي صابني مو ذنبك، حاسة الأفضل إلي وإلك، إنُه أترك البيت. ما عاد وضعي سيِّئ كثير مثل لما إجيت لعند عائدة. اليوم، بقدر أدبِّر حالي»، قلت: «أقولك سر؟»، قالت: «تفضلي»، قلت: «لما قرَّرت أرجع من قبرص. سألتني عائدة، إذا كان وجودك مع الولاد بالبيت بزعجني. حتَّى تدبِّر حالها وتنتقل على محل ثاني، بتعرفي شو كان قصد عائدة من الكلام؟»، قالت: «شو قصدها؟»، قلت: «كانت بتقصد المعنى الحرفي للكلام، أنو ما أفكِّر بإزعاجك أو إزعاج الولاد. إذا كان هذا رح يصير، كانت مستعدة تطلع من البيت، حتَّى ما تتعرَّضي أنت والولاد لإزعاج مني أو من حدا ثاني. لما رجعت وسكنت معكن، عرفت مكانتكم عند عائدة. كنتي أنت والولاد الروح اللي خلت عائدة تصمد بوجه المرض. أنا ما بدي يتغيَّر شي، بدي يظل كل شي كأنُه عائدة بعدها عايشة. إذا وافقتي تبقي معي، بكون ممنونة»، قبل أن أنهي كلامي، شرعت مها في البكاء متأثِّرةً بما قلت، تذكَّرت عائدة وما فعلته معها. ذهبت باتجاهها، عانقتها وبكينا معًا. قالت من بين دموعها: «ما رح أقدر أقول شي، رح أبقى، بس بشرط» قلت: «موافقة على شرطك، شو ما كان»، قالت: «شرطي بسيط. بس تحسي أنو وجودنا مش مرغوب، خبريني، وبوعدك ما أظل ولا يوم. أوعديني»، قلت: «بوعدك».

عندما طلبت من مها البقاء، لم أكن أعرف أنِّي سأسقط بعد ثلاثة أشهرٍ صريعة جلطةٍ دماغيَّةٍ ستشلُّ نصفي الأيسر، وتجعل نطقي صعبًا. لا أعرف ما الذي جرى معي، فجأةً سقطتُ أرضًا وغبت عن الوعي، لا أعرف ما هي

المدَّة التي قضيتها غائبةٌ عن الوعي. عندما صحوت من غيبوبتي، وجدت عضلات خدِّي لا تستجيب، ولا أستطيع الكلام، كما أنَّ يدي اليسرى وقدماي لا تستجيبان أيضًا. دُهِشتُ من أنِّي غير قادرةٍ على السير، ولم أعد قادرة على الأكل على نحوٍ جيِّدٍ، تداهمني أوجاعٌ قويَّةٌ في فكِّي بين الحين والآخر، أوجاعٌ من الصعب احتمالها، أشعر أنَّ عيني تُقتَلَع من مكانها. أصبحت مها كلَّ شيءٍ بالنسبة لي، لم تتذمَّر يومًا أو تشعر بالقرف من الاعتناء بي. كنت أخجل من نفسي وأبكي وهي تُنَظِّفُني، وهي تقول مبتسمةً: «لا يهمك، أزمة وتمر، شوية صبر، ورح ترجعي مثل أوَّل وأحسن»، كنت أتمنَّى أن تكون كلماتها صحيحةً، لكنِّي لا أعرف أحدًا أصيب بجلطةٍ دماغيَّةٍ، وعاد سليمًا من جديد. مع الوقت تحسَّن الوضع قليلًا، وأخذت أتكيَّف معه، لكنِّي بتُّ امرأةً عاجزةً عن خدمة نفسي.

عندما حصلت حنان على الجنسيَّة الهولندية، اتصلت بي وقالت: «أمِّي أنا جاي على الشام، بدي شوفك»، قلت لها: «ما في داعي، أنا بخير، وبكفِّي إنكم بخير»، طبعًا، كنت في غاية الشوق إليها، وفي الوقت نفسه، لم أرغب أن تراني على هذه الحالة من العجز. لكنَّها لم تسمع كلامي. وفعلًا بعد أيَّامٍ عدَّةٍ كانت هي وابنها أمامي في دمشق، لم أصدِّق عيني، ولم أصدِّق أنِّي وقفت من دون مساعدةٍ من أجل معانقتها، وشرعت في بكاءٍ سعيدٍ، وشرعت هي في بكاءٍ حزينٍ على حالي. كنت سعيدةً بزيارتها، لقد أعادت لي الروح، قالت لي: «رح أبقى معك، ما رح أتركك على هاي الحالة»، تمنَّيت أن تبقى معي فعلًا. لكنِّي قلت لها: «مستقبلك ومستقبل ابنك مش هون. بتمنى تبقي معي، بس ما في شيء بهذا المكان بيستحق تبقي»، خمسة عشر يومًا، مرَّت كأنَّها لحظاتٌ. وبعد مغادرتها، عادت الحياة إلى وضعها السابق، أنا عاجزةٌ وأعيش على كرسيٍّ متحرِّكٍ، أتنقَّل ما بين غرفة النوم والبرندة، وأعيش على أخبار القصف والقتل في البلاد، والحنين والشوق إلى أولادي الذين أخذتهم منِّي البلاد الغريبة.

الفصل الرابع:
كيف يكون لي أخت ليست من أمِّي
(حنان بنت رائدة عبد الرحمن أحمد خليل)

كانت زيارتي لدمشق مُعذِّبةً لي، لم أرغب في رؤية أمِّي على هذه الحالة بعد ستِّ سنواتٍ من الغياب. امرأةٌ محطَّمةٌ على كرسيٍ متحرِّك، أسيرة المنزل. وما زاد من عذاب الزيارة عجزي عن فعل أيِّ شيءٍ من أجلها. وجدتها حزينةً ومتعبةً ووحيدةً في بلد نهشته الحرب وما زالت تنهش به. وحيدةً رغم وجود من يعيش معها في البيت ذاته، امرأةٌ وطفلان يحرِّكان سكون حياتها، امرأةٌ من النوع النادر، أمِّي محظوظةٌ بوجود هذه المرأة معها، لولاها ستكون حياتها أصعب بكثيرٍ. هي صديقة خالتي عائدة، عاشت معها قبل عودة أمِّي وأختي نور من قبرص. وعندما توفِّيت خالتي بمرض السرطان، رفضت أمِّي أن تغادر المرأة البيت، وتمنَّت أن تبقى معها وكأنَّ خالتي عائدة ما زالت على قيد الحياة. اسمها مها، أصابتها مذبحة داريا بنكبةٍ غير قادرةٍ على الشفاء منها، خسرت أولادها، وبقي معها ولدا ابنها. قصَّةٌ من قصص الحرب المؤلمة والفظيعة والمروِّعة، التي لا يمكن للمرء الاستماع إليها، من دون أن يبكي.

أمِّي التي تركتها قبل سفري بكامل صحَّتها، لم يتركها الزمن ولا الحرب بحالها، كان مصيرها العجز في ظروفٍ في غاية القسوة، طلاقها من أبي، هربنا

نحن أولادها من الحرب وتركها وحيدةً، وفاة خالتي عائدة، وكوارث أخرى أفرزتها الحرب لا تعدُّ ولا تحصى. أمِّي التي وجدتها بعد عودتي إلى دمشق، لا تشبه أمِّي التي تركتها قبل ستِّ سنواتٍ، كما أن البلد الذي غادرته ليس البلد الذي عدت إليه، ولا الناس الذين قابلتهم، هم ذاتهم الناس الذين كنت أقابلهم قبل مغادرتي دمشق. صحيحٌ كان الناس محبطين قبل مغادرتي، لكنَّهم اليوم، مدمَّرين، دمَّرتهم الحرب والقتل والدم والقسوة والخوف والحاجة. وأنا نفسي لست تلك الفتاة التي غادرت دمشق غاضبةً من الحرب ومن أبيها. فرحت أمِّي بابني أكثر ممَّا فرحت بي. ابني لورانس أوَّل أحفادها، ولا أعرف هل كانت الفرحة لأنَّه ابني أو لأنَّه كما يقول المثل: «ما أغلى من الابن غير ابن الابن؟»، فرحت بلقاء أمِّي من جديد وحزنت لحالها، كنت أعرف أنَّها مريضةٌ، لكن لم أتوقَّع أنَّ وضعها سيِّئٌ إلى هذا الحدِّ، وخدعتني عندما وقفت واحتضنتني بلا مساعدةٍ، فهمت وضع أمِّي الصحيَّ على حقيقته من مها، لأنَّ أمي لم ترغب في أن نعرف مدى سوء حالتها. فهي لا تستطيع الوقوف، ويجب ألَّا تفعل ذلك لأنَّه خطرٌ عليها، فهي مُعرَّضةٌ لسقوطٍ مؤذٍ قد يتسبَّب بدقِّ عنقها، لأنَّها لا تستطيع استخدام يدها لحماية نفسها في حالة الوقوع، فالشلل أفقدها توازنها نهائيًّا. عندما عانقتها، شعرت بحنان الدنيا يطوِّقني، بكت، وأنا بكيت لحالها، وقلت لنفسي: «ليش انكتب علي أشوف كل هاد الحنان، وهي مش قادرة تاخذني بحضنها، لأنُه أيديها مش صالحة للاستخدام؟ يا الله شو هالقسوة؟»، عندما أعدتها إلى كرسيها المتحرِّك، حاولت احتضان لورانس الذي لم يقبل الاقتراب منها. قلت له: «هاي تيته»، لكنَّه لم يأبه، كان مشغولًا بمراقبة الطفلين الآخرين اللذين يقفان إلى جانب مها.

تعود أولى ذكرياتي في هذا البيت الذي تقيم فيه أمِّي إلى طفولتي، لم أفهم لماذا كنت أنا وأخي وأمِّي نقيم عند جدَّتي؟ ذكرياتي الأولى ضبابيَّةٌ، بين الحين والآخر، يأخذنا أبي أنا وأخي من دون أمِّي في زيارةٍ إلى بيته، ننام

هناك أحيانًا، وأحيانًا نعود في المساء عند جدَّتي. كنَّا نقابل عند أبي امرأةً لطيفةً، عرفت فيما بعد أنَّها زوجة أبي، من دون أن أفهم كيف يكون ذلك وأمِّي موجودةٌ. وبعد فترةٍ من الزيارات المتكرِّرة، شاهدنا مع هذه المرأة طفلةً رضيعةً قال أبي: «هاي أختكم»، لم أفهم كيف تكون أختنا من دون أن تكون أمِّي من ولدتها. كيف يكون لأختي أمًا ثانيةً؟ كانت أشياء في غاية الغرابة. عندما سألت أمِّي: «البنت اللي ببيت أبوي، هاي أختي؟»، أجابت أمِّي بـحزنٍ «صحيح»، ولم تشرح لي الوضع الذي كان أكبر من قدرتي على الاستيعاب، ما زاد في حيرتي. لا تعيش أمِّي مع أبي إنَّما مع جدَّتي، وأبي يعيش مع امرأةٍ أخرى، تحمل طفلةً يقول عنها أنَّها أختي، أبي يعيش في مكانٍ ونحن نعيش في مكانٍ، نزوره كأنَّنا غرباء، أمِّي لا تذهب معنا في هذه الزيارة، والمرأة التي نجدها في البيت هناك عند أبي، تعطينا بعض السكاكر والشوكولا وتتركنا نحمل طفلتها التي هي أختي.

كان عالـمًا غريبًا، يبدو لي كطلاسم في طفولتي البريئة، لم يكن عقلي قادرًا على فهم التعقيدات البشريَّة، التي نعيش واحدةً منها. احتجت لسنوات حتَّى فهمت، أنَّ أبي وأمِّي منفصلان، ونحن نعيش عند جدَّتي لهذا السبب. وأنَّ أبي تزوَّج من أخرى، وأنجب منها طفلةً، وهذه الطفلة تكون أختي، حتَّى لو لم تنجبها أمِّي. عندما عرفت أنَّ أبي طلَّق أمِّي، وفهمت أنَّ هذا كان سلوكًا سيِّئًا من أبي تجاه أمِّي، شعرت نفسي منحازةً إلى أمِّي، ولم أعد أرغب في زيارته، لكنَّ أمِّي قالت: «لازم تروحي، هو بظل أبوكِي، وهاي حقيقة ما فينا نهرب منا»، لم أدرك معنى كلمة حقيقة، ولماذا علي الهرب من شيءٍ لا أعرفه، كان كلام كبيرًا عليَّ، لا أعرف لماذا استخدمت أمِّي هذه الصيغة، ولم تستخدم صيغةً أبسط أستطيع فهمها. يبدو أنَّها كانت تتكلَّم مع نفسها أكثر ممَّا تتكلَّم معي. بعد أن عرفت أنَّه سلوكٌ سيِّئ من أبي، بدأت أفهم لماذا أمِّي حزينةٌ كلَّ الوقت. نعم بدأت أعي الحياة في هذه الفترة التي كان فيها أمِّي وأبي منفصلين، ولم أستطيع أن استخدم كلمتي أبي

وأمِّي مجتمعتين، مثلًا لم أكن أستطيع القول: «رحنا إحنا وأمِّي وأبوي وزرنا بيت جدِّي بالعيد»، أو: «رحنا إحنا وأمي وأبوي مشوار على الزبداني»، كما كان يقول الأطفال من أقاربنا أو من أولاد صديقات أمِّي عندما يريدون المفاخرة بأمِّهم وأبيهم. لم أكن قادرةً على جمع أمي وأبي في جملةٍ واحدةٍ في ذلك الوقت. كنت أُحمِّل المسؤوليَّة لأبي، لأنَّه من طلَّق أمِّي واضطرت للذهاب للعيش عند جدَّتي. أعطاني هذا الإجهاد لذاكرة طفولتي إحساسًا بالنفور من أبي، ولم يتغيَّر هذا الإحساس طوال عمري، رغم كلِّ محاولات أبي لتغيير صورته التي كوَّنتها عنه في تلك الفترة العصيبة من حياتي. لم تحاول أمِّي تحريضنا على أبي، وكانت تتجنَّب الحديث عنه، قد يكون ذلك هو ما زاد في انحيازي لها. لو أنَّها حاولت أن تُحمِّل أبي المسؤوليَّة، أو تشتمه لأنَّه أوصل حياتنا إلى هذا الوضع، كما كان يفعل أبي ذلك أمامنا، بالحديث السيِّئ عن أمِّي، لقلت إنَّهما يتحمَّلان المسؤوليَّة بذات القدر عن الوضع الذي نعيشه. صمت أمِّي عن موضوع خلافها مع أبي وثرثرة أبي في المقابل، كان لمصلحة أمِّي بالنسبة لي، ظننت أنَّ محاولته تشويه صورة أمِّي لدينا فعلت العكس، جعلنا ننحاز إليها أكثر، وكانت طريقةً خاطئةً تمامًا، أبعدتنا عنه أكثر ممَّا قرَّبتنا منه.

بعد وقتٍ طويلٍ، لم أعرف كم هي المدَّة التي انقضت على معرفتي بأنَّ لي أختًا ليست من أمِّي، تكرَّرت زيارتنا لأبي من دون أن نقابل المرأة التي كانت تحمل «أختي»، صرت أرى أختي عند بيت جدَّتي أمَّ أبي، مع جدَّتي وعمَّاتي لم أجرؤ على السؤال عن المرأة اللطيفة التي كانت تحمل أختي، والتي هي أم أختي وليست أمِّي. كانت صدمتي عندما سألتنا أمِّي من دون سابق إنذارٍ، أنا وأخي: «شو رأيكم، نرجع ونعيش مع بابا؟»، لم أفهم ما يعنيه سؤالها. سألت أمِّي: «إحنا رح نرجع نعيش عند بابا؟»، قالت: «لا، رح نسكن ببيت جديد»، قلت: «أختي رح تعيش عند بيت جدِّي؟»، قالت: «لا، أختك رح تعيش معنا»، قلت: «أم أختي رح تعيش

معنا؟»، قالت: «لا»، تجهَّم وجهها وغادرت الصالة حيث نجلس إلى المطبخ. لم أعرف وقتها ما فعلته في المطبخ، أظنُّ أنَّها ذهبت لتخفي دموعها عنَّا. لم تسألنا مرَّةً أخرى عن الموضوع، ولم تنتظر جوابنا على سؤالها. عندما حان الوقت، حزمت أمتعتنا، وقالت سننتقل إلى البيت الجديد.

عندما عدنا للعيش مع أبي، هناك شيءٌ أساسيٌّ قد تحطَّم في العائلة، لم أدرك وقتها، ولم أدرك الآن ما الذي تحطَّم في تلك العلاقة بالضبط؟ لكنَّنا لم نعد عائلةً طبيعيَّةً كما هي العائلات الأخرى. في الشكل عدنا للعيش معًا، لكن هناك شيءٌ مفقودٌ بين الجميع، ليس بيني وبين أبي، بل بيننا جميعًا، وكان عيش زهرة أختي من أبي معنا، يُذكِّر أمِّي بالتاريخ الرديء لعلاقتها مع أبي، صحيحٌ أنَّ أمِّي لم تعاملها معاملةً سيِّئةً، لكنَّ زهرة بقيت تشعر بالغربة بيننا، وتُذكِّر أمِّي بماضٍ لم تكن ترغب بتذكُّره، وأمِّي تُذكِّرها بأمِّها التي تركتها لتعيش هذا الوضع الغريب عليها. لذلك عندما جاءها أوَّل عريسٍ لم تتردَّد في الموافقة عليه. حاولت إقناعها بالعدول عن موافقتها، رغم أنَّ العريس ابن عمِّي، قلت لها: «بعدك صغيرة، شو بدك بهالقصة؟ المستقبل كلُه قدَّامك» لم تستمع لكلامي. قالت: «حاسة حالي غريبة، بدي أحس بأنُه الأشياء إلي. يمكن لما أتجوَّز أتخلَّص من هادا الإحساس»، قلت: «شو غريبة؟! لك أنت أختي. يا حمارة كل شي إلك مثل ما هو إلنا»، قالت: «أنت عارفة منيح، هدا مش صحيح»، كانت محقَّةً. لا أدري، قد أكون مبالغةً في نظرتي للأشياء، لم تكن زهرة سبب العلاقة المختلَّة بيننا كعائلةٍ، قد تكون أحد الأسباب، لكنَّه سببٌ هامشيٌّ. حتَّى مع عدم وجود زهرة بيننا وهربها من البيت بالزواج من ابن عمِّي، لم يتحسَّن الوضع في البيت. وبهذا الخروج تبيَّن أنَّ الشرخ أعمق من وجود زهرة الابنة لأمٍّ أخرى في المنزل الذي نعيش فيه. كلَّما حاولت تحديد سبب الشرخ الذي نعيشه في حياتنا العائلية، أفشل في ذلك. شعرت بهذا الشرخ طوال عمري، وقد أكون وحدي من شعر به، أنا الطفلة التي وعيت على الدنيا ووالداها منفصلين، لم أفهم

كيف عليَّ أن أكون زائرةً في بيت أبي وأعيش في بيت جدَّتي. أظنُّ أنَّ الشرخ الشخصيَّ، وُلِدَ من هذا الوعي المؤلم لحالتي كطفلةٍ، كنت بحاجة أبي إلى جانبي، لكنِّي لم أكن أراه سوى مرَّةً في الأسبوع، وعندما عدنا للعيش معًا، شعرت بالغرابة أن يبقى أبي معنا طوال الوقت. لم تشرح أمِّي لنا لماذا عادت إلى أبي؟ حتَّى عندما سألتها بعد سنينٍ من حصول ذلك، لم أحصل منها على إجابةٍ، كان جوابها: «ما حدا بياخذ غير نصيبه»، ولم تردَّ على جدلي معها، أنَّها هي التي اختارت نصيبها، وهي التي ذهبت إليه برجليها، ولم تكن مجبرةً على فعل ذلك، لم يكن هناك من يضغط عليها من أجل ذلك. قالت: «لما الواحد بنجبر، مش ضروري يكون حدا بيجبرُه على هدا الشي، يمكن حالتُه بتخليه ينجبر يقوم بشغلات ما كان يمكن يقوم فيها لو ما عندُه ألف شغلة بتضغط عليه، بتخلي يعمل اللي مش مقتنع فيه»، لم أوافقها الرأي، وقلت: «أهم شيء الواحد تكون حريتُه بإيدُه، وأنت اللي رحتي برجليكي على الحبس، وحبستي حالك، وخسرتي حريتك، منشان تعيشي علاقة أنت مش مقتنعة فيها»، نظرت إليَّ نظرةً حزينةً، وقالت: «بدعي لربي، ما تشوفي بحياتك اللي شفتُه أنا، حتَّى ما تعرفي كيف المرة بتعمل الأشياء غصب عنها. ما كنت بقدر أتركوا تعيشوا مع رجّال غير أبوكو، كان أبوكي أهون الشرور منشانكم. ما كانت حريتي بالحساب، إنت وأخوكي اللي كنتوا بالحساب. حريتي كانت برة الحساب. لو كنت إنت وأخوكي برة الحساب، كان صار تصرف ثاني. هلأ فهمتي؟»، لم أستطع أن أقول لها: «لم أفهم»، وما كان عليها أن تضحِّي بحريَّتها للعيش مع رجلٍ لا ترغب في العيش معه، لأنَّها ظنَّت أنَّ هذا أفضل لنا نحن أطفالها الصغار. ولم أرغب أن أقول لها، أنَّ العيش معه لم يكن أفضل من العيش بعيدًا عنه، حتَّى لا ألغي التضحية التي تعتقد أنَّها أقدمت عليها من أجلنا نحن أطفالها المحتاجين إلى أبٍ في العائلة. ولم تعرف أنَّه لا قيمة لأبٍ قرَّر أن يستقيل من دوره. هي ظنَّت أنَّ استقالة الرجل من دوره، تكون كما فعل جدِّي معهم،

لكنَّها لم تدرك أنَّ هناك الكثير من الطرق التي تجعل الرجل يتخلَّى عن مسؤوليَّته، ويتحوَّل من أبٍ إلى كابوسٍ. وهذا يعني طريقةً في الهرب أسوأ من الطريقة التي اعتمدها جدِّي في التخلِّي عن مسؤوليَّته للآخرين. بينما في الحالة الأخرى هي الضغط بأقصى قوَّةٍ على الآخرين لمنعهم من الإقدام على ما يريدون بدافع الحرص على مصالحهم. لقد ظنَّت أنَّها بعودتها إلى أبي تحمينا من الضياع، لم تعرف أنَّ هذه العودة كانت أسوأ من البقاء بعيدًا عنه، وكان يمكن أن نكبر بعيدًا عنه على نحوٍ صحِّيٍّ أكثر من العيش معه.

رغم محاولاتي أن تكون العلاقة مع أبي طبيعيَّةً، كما حاول هو أيضًا أن يكون قريبًا منِّي بطريقته، لم تنجح الطريقة التي كانت نوعًا من التكاذب الاجتماعيِّ المكشوف، لأنَّ شيئًا مكسورًا في هذه العلاقة رفض أن يعود إلى طبيعته الأولى. وكان عليَّ التعايش مع علاقة مكسورةٍ مع أبي، الذي حاولت أن أحافظ على احترامي له بكلِّ الحالات. عمليًّا، أخذت أنزوي في غرفتي وأقلِّل الاحتكاك معه. قالت أمِّي أنِّي أتصرَّف مثلما تصرَّفت خالتي عائدة مع جدِّي، التي كانت علاقتها مع أبيها سيِّئةً، لكن لأسبابٍ أخرى غير تلك الأسباب التي جعلت علاقتي مع أبي مشروخةً. يبدو أنَّ انحيازي الدائم لأمِّي، وفي كلِّ الحالات، منع التئام علاقتي مع أبي. بالتأكيد كان أبي مخطئًا بإدارة العائلة، ولم يكن ربَّ عائلةٍ نموذجيٍّ، ويتحمَّل مسؤوليَّة الطلاق الأوَّل بينه وبين أمِّي، لكنَّه لم يرتكب جريمةً، فقد تصرَّف بما يراه مناسبًا، وأيُّ شخصٍ آخر يمكن أن يفعل ما فعله. لكنِّي أنا الطفلة، لم تكن معاييري في الحكم على السلوك البشريِّ هي معايير البشر الناضجين، لذلك، عدَدت طلاق أبي من أمي وجعلنا عائلة مفكَّكة، هو ما منع طفولتي أن تكون طبيعيَّة. كان هذا التصرُّف بالنسبة لي جريمةً لا يمكن غفرانها، لقد استقرَّ الجرح داخليُّ من دون شفاء، ولم تغيِّر السنوات هذا الوضع، حتَّى الوعي بأنَّ ما قام به كان خطأً بشريًّا، وأنَّ أيًّا كان يمكن أن يخطئ مثل هكذا

خطأ، لم يكن قادرًا على جبر هذا الكسر الذي عشَّش داخلي. ويبدو أنَّ جراح الطفولة التي تأتي من الناس الأقرب لنا، هي جراحٌ غير قابلةٍ للشفاء.

كان انتقالنا إلى صحنايا بدايةً جديدةً بالنسبة لي، لم أكن قادرةً على بناء علاقات صداقةٍ في مدرستي عندما كنَّا نعيش عند جدَّتي، لا أعرف إذا كان ذلك بسبب المنطقة التي نعيش فيها، أم يعود إلى خوفي من أن تسألني صديقاتي عن أبي، وعندها أحرج، لأنِّي لا أملك إجابةً على الوضع المعقَّد الذي أعيشه. كان التواصل مع الجيران محدودًا في بناية جدَّتي، لا يُسمح لنا بإقامة علاقات صداقةٍ، لا للكبار ولا للصغار، كانت هذه قواعد جدَّتي في بيتها. اختلف الوضع في صحنايا، هناك صلةٌ يوميَّةٌ مع الجيران، ويستطيع المرء أن يقيم علاقاتٍ خلال ساعاتٍ لا خلال أيَّامٍ. عندما يأتي ساكنٌ جديدٌ تبادر النساء إلى زيارة العائلة الجديدة، وعرض أيَّ مساعدةٍ على المرأة القادمة حديثًا للسكن في البناية. لم تعد صحنايا قريةً فلاحيَّةً كما كانت قبل ثلاثة عقودٍ من سكننا فيها، ولكنَّها لم تصبح مدينةً بعلاقات البشر فيما بينهم. هي أبنيةٌ حديثةٌ بروحٍ فلاحيَّةٍ تعاونيَّةٍ. لذلك، لم يكن عندي مشكلةٌ أن أبني صداقاتٍ بسرعةٍ مع العديد من الفتيات من عمري، وأن تقيم أمِّي علاقاتٍ طيِّبةً مع الجيران، على خلاف انتماءاتهم. في المدرسة لم أعرف التمييز بين سنيٍّ ودرزيٍّ، في الأصل كانت المدينة بلدةً درزيَّةً، وفيها الكثير من السنَّة الوافدين من أماكن أخرى، لا سيَّما من الأماكن الغنيَّة التي أُفقِرَت في وسط دمشق، والتي انتقل سكَّانها إلى مناطق أقلَّ كلفةً من ناحية السكن. اختار المحافظون والمتديِّنون من أهالي دمشق المفقرين السكن في مناطق محافظةٍ مثل داريا ودوما وحرستا وعربين وغيرها. بينما غير المحافظين، اختاروا صحنايا وجرمانا وغيرها من الأماكن الأكثر انفتاحًا في العلاقات الاجتماعيَّة. ويمكن للمرء ملاحظة الفارق بين داريا وصحنايا المتجاورتين من خلال مظاهر التديُّن في الشوارع والمحلَّات واللباس. وجدت نفسي في قلب شبكةٍ من علاقات الصداقة من كلِّ خليطِ سكَّان المنطقة،

إضافةً إلى علاقاتٍ مع فلسطينيَّاتٍ بحكم القرابة والانتماء. لم أسأل أيَّ فتاةٍ من صديقاتي يومًا عن قناعاتها أو دينها. أقمت علاقاتي بناء على الاهتمامات المشتركة مع هؤلاء الفتيات. منهنَّ من كنَّ علاقةً عابرةً، ومنهنَّ من بقيت علاقتي بهنَّ إلى اليوم. لا أعرف لماذا اختارت أمِّي السكن في صحنايا، قد يعود ذلك إلى صديقةٍ لها اختارت الانتقال إليها، وقد يكون من أجل رعاية الشقَّة التي تملكها في البلدة، والتي عرفت بها في مرحلةٍ متأخِّرةٍ من حياتي، لقد كتمت كلَّ المعلومات عن هذه الشقَّة، وعن شقَّةٍ أخرى تملكها في المخيَّم، أخبرتني عنهم، عندما كنت في السنة الثالثة من دراستي الجامعيَّة، لأنَّها أصبحت بحاجةٍ إلى شخصٍ يعرف ما تملك خوفًا من وفاةٍ طارئةٍ. وربَّما كان خيار صحنايا، خيار المصادفة، لأنَّها ببساطةٍ، كانت مستعدَّةً أن تسكن في الجحيم على أن تعود للعيش في الشقَّة التي كانت تسكنها في بناية بيت جدِّي، فكانت كلُّ الأماكن سواسيةٌ في نظرها، لكن ليس المخيَّم، حيث حماتها وبناتها اللواتي كنَّ جحيمها الذي دمَّر أسرتها في وقتٍ مبكرٍ.

كبرتُ في المكان متصالحةً مع نفسي ومع المكان، لم أعانِ من التضييق، حمت أمِّي حريَّتي في الحركة من تدخُّلات أبي، الذي حرص أن يكون تدخُّله في الحدِّ الأدنى. وكانت أمِّي من تحلُّ مشكلاتنا في المدارس، سواءً تعلَّقت المسألة بمشاجرةٍ بيننا وبين آخرين، أو تعلَّق الأمر بغيابٍ غير مسوَّغٍ، أو أيَّ مسألةٍ تجعل المدرسة تتدخَّل في حياتنا كطلاب، لا سيَّما في المرحلة الثانويَّة التي يعتقد فيها المدرِّسون أنَّهم يواجهون جيلًا وقحًا يفتقد إلى التربية في بيت أهله، ولا يحترمون الآخر أو الكبير، سواءً كان معلمًا أو أبًا أو عابر طريق. لذلك كلُّ فتاةٍ في المدرسة متَّهمةٌ من المدرِّسات المدرِّسين والإدارة عند أوَّل سلوكٍ مغايرٍ للسلوك المتوقَّع منها، وأيُّ سؤالٍ يخرج قليلًا عن سياق الدرس يعدُّ وقاحةً، ومحاولة شغبٍ وسخريةٍ من المدرِّس أو المدرِّسة. ولأنَّنا كنَّا نعرف هذه الصورة عند الإدارة والمدرِّسين والمدرِّسات، كنَّا نتصرَّف وفق المتوقَّع منا، أكثر ممَّا نتصرَّف وفق ما نريده ووفق قناعاتنا، وهو نوعٌ

من سلوك النكاية في مواجهة محاولة الضبط العنيفة التي تُمَارَس علينا، مدارس تعاني نقصًا في المدرِّسين، والذين يحضرون يعطون دروسهم بلا مبالاةٍ، محتفظين بجهدهم لما بعد المدرسة، من أجل الدروس الخصوصيَّة التي يعطونها في البيوت أو في المعاهد الخاصَّة التي يتقاضون عليها مبالغ أكبر من راتبهم البائس بكثيرٍ. كانت صفوف المدارس بلا تدفئةٍ، بزجاج نوافذ محطَّمةٍ هنا وهناك، تجعل الصف في الشتاء أقرب إلى الثلَّاجة. لم أشعر أنَّ المدرسة مكانًا للتعلم، كانت سجنًا بالنسبة لي، ليس فيه سوى لغة الأوامر وقائمةً من الممنوعات، ممنوع المكياج، ممنوع فتح جاكيت بدلة الفتوة، ممنوع الضحك من دون سبب، ممنوعة الأسئلة خارج الدرس، ممنوع منكرة الأظافر، ممنوع وضع الكحلة.. ممنوع.. ممنوع.. الخ كنت أشعر أنِّي أدخل سجنًا وليس مدرسةً.

في أثناء امتحاناتي للشهادة الإعداديَّة حصل شيءٌ غير متوقَّعٍ، كنت أدرس تحضيرًا لفحص العلوم في اليوم التالي، عندما دخلت أمِّي إلى غرفتي، وقالت وبملامح خائفةٍ: «حنان، بكرة ما في امتحان، أجلوه»، قلت: «أمي مش وقت مزحك»، قالت: «أنا ما بمزح، مات الرئيس وأجلو الامتحانات»، وضعت رأسي على كفي وقلت: «ما عرف يموت بوقت ثاني، شو رح أعمل؟!»، قالت وهي تخرج من الغرفة: «ما رح تعملي شي، رح تستني تحديد موعد جديد للامتحانات»، لم أفهم وقتها، معنى أن يموت الرئيس، تعلَّق الموضوع بالنسبة لي بتعطيل امتحاناتي، التي كنت أتوق لأنتهي منها لأبدأ عطلتي الصيفيَّة. لكن بتأجيلها ستتأجَّل عطلتي الصيفيَّة أيضًا. عندما خرجت وشاهدت ما يجري على التلفزيون من بكاءٍ وصراخٍ وعويلٍ من رجال ونساء وجنود ومسؤولين، شعرت أنَّ هناك حدثٌ كبيرٌ يقع، وأنَّ موت الرئيس ليس كموت أيِّ شخصٍ آخر. أصبح الجميع متوتِّرًا، لا أحد يعرف ما الذي يجري، الرئيس الذي كنَّا نصرخ في الاجتماع الصباحيِّ في المدرسة مردِّدين هتاف: «قائدنا إلى الأبد» «الأمين حافظ الأسد» ومن كثرة ما ردَّد

الناس هذا الهتاف، صدَّقوا أن الرجل لن يموت، وسيبقى للأبد، أو أنَّهم بعد أن اعتادوا عليه لثلاثين عامًا، لم يرغبوا في موته. لكن من وعدهم أن يبقى قائدهم للأبد، مات مثل الآخرين. وتسبَّب موته في تأجيل امتحاناتي وتأخير العطلة الصيفيَّة. في مساء يوم إعلان وفاة الرئيس الذي قرأه مروان شيخو رجل الدين وصاحب برنامجٍ تلفزيونيٍّ دينيٍّ شهيرٍ كان يُبَثُّ كلَّ يوم جمعة. قرأ الخبر بالكثير من الحزن والتوتُّر والدموع. بعد الإعلان فرغت الشوارع من المارَّة، وبات الجميع ينتظر الخطوة التالية التي لم تتأخَّر، في المساء ذاته اجتمع مجلس الشعب السوريِّ وقرَّر تعديل المادة التي تفرض أن يكون الرئيس قد أتمَّ الأربعين من عمره قبل الترشُّح للرئاسة، فأصبحت أن يكون قد أتم الرابعة والثلاثين من عمره، حتَّى تناسب عمر ابن الرئيس الذي سيأتي رئيسًا للبلاد بعد أبيه. مع الابتعاد عن يوم وفاة الرئيس أخذ التوتُّر ينحسر كلَّما تقدَّم تنصيب بشار الأسد رئيسًا لسورية، بدءًا من تعينه قائدًا عامًّا للجيش وأمينًا عامًّا لحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم، وصولًا إلى الاستفتاء الذي جعله رئيسًا رسميًّا للبلاد. لم يكن هناك منافس للرئيس الذي حُضِّرَ لسنواتٍ قبل وفاة أبيه، وفي حينها لم أفهم التوتُّر والخوف الذي ساد في البلد، وفي بيتنا. وعندما سألت أبي في يوم وفاة الرئيس: «ليش أنت خايف؟»، قال بتوتُّرٍ: «ما حدا عارف البلد لوين رح تروح»، أبي الذي نادرًا ما يشاهد الأخبار، بات مسمَّرًا أمام التلفزيون، ينتقَّل من محطَّةٍ فضائيَّةٍ إلى أخرى، من الجزيرة إلى العربيَّة إلى المستقبل إلى الفضائيَّة السوريَّة. من أجل أن يطمئن ألَّا شيء خطيرًا يحدث في البلد. بعد أيَّامٍ تراجع اهتمامه بالأخبار، وخلال فترةٍ عاد إلى حياته الطبيعيَّة، يذهب إلى عمله صباحًا، يعود عصرًا، يتناول طعام الغداء، ينام قليلًا، ثمَّ يغادر ليرى أصدقائه، وغالبًا ما يذهب إلى المخيَّم، لأنَّه لم يستطع أن يقيم علاقات صداقةٍ في صحنايا، وهذا ما جعله يذهب يوميًّا إلى المخيَّم تقريبًا، وأحيانًا ينام هناك عند جدَّتي.

بعد القلق الذي أصاب البلد خلال فترة انتقال الرئاسة إلى الابن، سادت فترة تفاؤلٍ بالرئيس الشابِّ الذي درس في أوروبا وتعرَّف على الثقافة الأوروبيَّة، والذي رفع شعار «التحديث والتطوير» وبدأت بوادر انفتاحٍ على الخارج، والبلد التي مُنِعَت استيراد السيَّارات، التي استوردتها آخر مرَّةٍ في العام 1983 أي قبل أن أولد، وسورية البلد الوحيد التي زادت فيها أسعار السيَّارات المستعملة بدل أن تنخفض، الذين اشتروا سيَّارةً في العام 1983 باعوها بعشرة أضعاف سعرها بعد خمسة عشر عامًا. وأخذت الجامعات الخاصَّة تفتح أبوابها، والكثير من المؤسَّسات التي تعبِّر عن الانفتاح على الخارج، بعد فترةٍ طويلةٍ من محدوديَّة العلاقة مع الخارج. مع الرئيس الشابِّ تغيَّرت بعض المظاهر في البلد، وبدلًا من الرئيس الأب المختفي الذي لم يكن يشاهده أحد، ظهر الرئيس الجديد مع زوجته في الشوارع، أو في المحلَّات أو في المسرحيَّات. أعطت هذه التغيُّرات الجيل الجديد الأمل، بأنَّه قادرٌ على إنجاز حياةٍ أفضل. لأنَّ جيل الشباب في السنوات العشر الأخيرة من حكم الأب، بات في غاية التشاؤم، إذ تراجعت فرص العمل لخرِّيجي الجامعات قبل أن تتراجع للمهنيِّين، وتراجعت قدرة الناس الاقتصاديَّة، ومن يعمل ليس قادرًا على تلبية حاجات العائلة براتبه الذي تتراجع قيمته باستمرارٍ، في ظلِّ الغلاء الذي لا يتوقَّف.

الأمل هو العنوان الذي ساد في تلك المرحلة، وأنا واحدةٌ من هؤلاء الذين أصبحوا أكثر تفاؤلًا بالمستقبل، صحيحٌ أنِّي كنت مجرَّد طالبةٍ في المرحلة الثانويَّة ولم أدرك ما يجري في البلد، حتَّى اليوم لم أفهم المسارات التي ذهبت فيها البلد، وصولًا إلى ما وصلنا إليه. ولأنَّ الأمل معدٍ مثل مرضٍ سريع الانتشار، أصبت بداء الأمل مثل الكثيرين. ولأنَّ صحنايا تعدُّ بلدةً درزيَّةً، كان الأمل بالرئيس الجديد أكبر من المناطق الأخرى، فالدروز يعدُّون أنفسهم أقرب للطائفة الحاكمة، وأنَّها في النهاية طائفةٌ لا يمكن أن تحكم بالدين لأنَّها ليست طائفةً دينيَّةً، ما يُشعر الطائفة الدرزيَّة بالحماية

في ظلِّ هذا الحكم، ويُفهِمُ هؤلاء أنَّ الخطر يأتي من المتديِّنين الذين يشكِّلون خطرًا على البلد وعلى الطوائف الصغيرة.

رغم رداءة المدارس الثانويَّة في البلد، كانت هذه الفترة من حياتي جميلةً، ليس فيها مغامراتٌ كبيرةٌ، لكنَّها فترة نضوجٍ سريعٍ، من خلال علاقات صداقةٍ في غاية الروعة أقمتها في المكان. واكتشفت أنَّ الصداقات الحقيقيَّة هي ما يجعل لحياتي معنى، حتَّى في حالة أخطأت ولم تكن الصداقة كما توقَّعت، أو أنَّها جاءت لأسبابٍ مصلحيَّة أو انتهازيَّةٍ من الأخريات، فهي تجربةٌ تضيف لتجربتي خبرةً في الحياة وفي معرفة البشر. في تلك الفترة حصلت على الصديقتين الأقرب لي. وعد وعليا. وعد، تلك الفتاة الخجولة الخائفة دومًا من تصرُّفاتها، وكثيرًا ما تخطئ بسبب الخوف والارتباك. فتاةٌ جميلةٌ، ملامحها ناعمةٌ، لها عينين بنيَّتين لوزيَّتين قلقتين، تتحدَّث بصوتٍ منخفضٍ. وقعت ونحن في الثانوية في حبِّ ابن جيرانهم، ولأنِّي أطول منها وصديقتها، طلبت منِّي أن أرافقها في لقاءاتهم الأولى. سألتني عن كلِّ تفصيلٍ وكأنِّي أكثر خبرةً منها، هل أقابله؟ هل يمكن أن يعرف أحد من أهلي؟ هل يمكن أن يكون كاذبًا؟ هل ما أقوم به صحيح؟ هل تعتقدي أنَّه مناسبٌ لي؟ هل يمكن لنا أن نتزوَّج؟ أسئلةٌ لا تنتهي، تسأل السؤال الثاني قبل أن تسمع إجابة السؤال الأوَّل، هذا إذا كنت أنا شخصيًّا أملك إجابةً. في اللقاء الأوَّل، كاد الدم ينفجر من وجهها، كان الموعد عبر رسالةٍ رُمِيَت من البرندة المجاورة إلى بيت وعد. كانت متردِّدةً بالذهاب كما هي في كلِّ شيءٍ، وربطت ذهابها إلى الموعد بمرافقتي لها، لأنَّها في غاية الخوف. وإذا شاهدنا أحد ما معه، تقول إنَّه يتكلَّم معي وليس معها. أي المطلوب منِّي تحمُّل تبعات تصرُّفاتها، ولأنِّي أحبُّها جدًّا، وافقت على لعب دور المرافقة. كان الموعد في «تاون سنتر» وهو سوقٌ كبيرٌ متعدِّد الطوابق يقع على طريق درعا الدولي، قبل الوصول إلى مدخل صحنايا بحوالي كيلومترين فقط، اُفتُتِحَ قبل مدَّةٍ وجيزةٍ، فيه العديد من محلَّات الألبسة

والأدوات المنزليَّة والمفروشات والمواد الغذائيَّة وبعض المطاعم والمقاهي، وبات مركز استقطاب الكثير من سكَّان مدينة دمشق. وصلنا إلى المكان، كان ينتظرنا على باب السوق، لم يجرؤ أن يتقدَّم منَّا، ولا هي تجرَّأت أن تتقدَّم لبدء الحديث معه، بقينا نلفُّ في السوق، وأنا أستعجلها: «خلصينا، احكي معو. أشري يجي»، وهي تقول بارتباكٍ: «استني شوي... استني شوي»، تجوَّلنا في الطوابق الأربعة للسوق، وهي تقول: «استني شوي»، وهو لا يجرؤ على الاقتراب. وعندما وصلنا إلى قسم المفروشات، وهو في الطابق الأخير، لم أعد أحتمل سألتها: «شو أسمُه؟»، قالت: «جلال» وقفت واستدرت أريد أن أشير له بالقدوم، أشاح بنظره إلى الجهة الأخرى. ناديت: «جلال»، التفت، أشرت له بيدي أن يأتي. جاء كأنَّه طفلٌ ارتكب ذنبًا وينتظر العقاب، كان مرتبكًا أكثر منها، يرتجف من الخجل. لم أستطع تحمُّل المشهد، كنت سأنفجر من الضحك. لذلك قلت بصعوبةٍ: «مرحبا. وعد بدها تحكي معك»، التفت إلى وعد وقلت: «رح روح على الحمام، رح أرجع بعد شوي»، طبعًا لم أكن بحاجةٍ للذهاب إلى الحمام، كانت حجَّةً للهرب، لأنِّي لن أتحمَّل نفسي وسأنفجر من الضحك وهذا ما سيزيد من إرباكهم. فذهبت بعيدًا وانفجرت بالضحك وحدي، أمام دهشة العابرين من هذه الفتاة المجنونة التي تضحك بلا سببٍ. تحسَّن الوضع في المرَّات اللاحقة، رافقتها ثلاث مرَّات، وفي المرَّة الرابعة، قلت لها: «هذا بكفي، لازم تكملي لحالك. مهمتي خلصت»، رَجَتني، لكنِّي صمدت حتَّى في مواجهة دموعها، واستمرَّت العلاقة بينهما حتَّى تزوَّجا، بعد تخرُّج وعد من كليَّة الاقتصاد في جامعة دمشق. تخرَّج جلال من كليَّة الهندسة الميكانيكيَّة في دمشق. تزوَّجا قبل وقوع الأحداث في سورية بمدَّةٍ قصيرةٍ، وكانا سعيدين بهذا الزواج، وأنا التي ظننت أنَّها علاقةٌ عابرةٌ بين مراهقين خجولين، سرعان ما تنتهي، لكنَّهما خيَّبا ظنِّي، وهذا أجمل ما فعله صديقي وصديقتي العزيزين.

عليا شخصيَّةٌ أخرى، واثقةٌ من نفسها، لا تعرف التردُّد، أستطيع القول إنَّها متهوِّرةٌ لدرجةٍ محرجةٍ، يمكن لتصرُّفاتها أن تُحرج من يرافقها، من دون أن تشعر هي بالحرج. عندما تعرَّفت عليها، ظهرت كفتاةٍ لئيمةٍ، قاسيةٍ، بلا قلبٍ. كانت هذه الصورة غير حقيقيَّةٍ، فخلف المشهد الخارجي الخادع، تقبع فتاةٌ في غاية الطيبة تملك حساسيَّة الفنان، فتاةٌ حافظت على الطفلة بداخلها من التشوُّهات التي يخلقها مجتمعٌ مريضٌ عند الشخصيَّات التي تملك حساسيَّةً عاليةً مثل عليا. وأنا مثل الآخرين خدعني مظهرها القاسي وتعاملها المتعالي في البداية، نفرت منها، لكنَّ الاحتكاك معها، جعلني أعرف الوجه الأخر للفتاة، واحدةٌ من أوَّل الأشياء المدهشة التي عرفتها عنها، أنَّها فنانةٌ بكلِّ معنى الكلمة، ترسم بطريقةٍ مدهشةٍ، موهبةٌ فطريَّةٌ ولدت معها، وكانت تطوِّرها وتعمل عليها وحدها وبسريَّةٍ من دون معين. عرفت ذلك بالمصادفة المحضة، عندما نسيت دفترها في درج مقعدها وخرجت من الصف مستعجلةً، ولم أستطع اللحاق بها لأعيده لها، فاحتفظت به في حقيبتي لليوم التالي. في البيت عندما أخرجت كتبي، أخرجت معها دفتر عليا، دفعني الفضول لفتح الدفتر، كنَّا في الصف نعرف أنَّ عليا تملك أجمل خطٍ في المدرسة وليس في الصف فقط. فتحت الدفتر لأتأمَّل خطَّها، وعندما فتحت الدفتر من الخلف، وجدت ما لم أتوقَّعه، لوحاتٌ صغيرةٌ على كامل صفحة الدفتر، مرسومةٌ بقلم الرصاص، جودة اللوحات مذهلةٌ، الظلال التي تعكسها الأشياء بفعل زاويا الضوء، كانت محترفةً، سحرتني عشرة لوحاتٍ مرسومةٌ بقلم الرصاص في نهاية الدفتر، لم أتوقَّع أنَّ الفتاة التي تُحاول أن تُفهِمَ الآخرين أنَّها قاسيةٌ، تتمتَّع بهذه الحساسيَّة المرهفة. كنت سأظنُّ أنَّ هذه اللوحات رسمت من شخصٍ آخر، لو أنَّها لم تكتب اسمها على زاوية كلِّ اللوحات. لوحةٌ لتفَّاحةٍ إلى جانب شمعةٍ مضيئةٍ، ضوء الشمعة يضيء التفَّاحة من جانبٍ ويعكس ظلَّها على السطح من الجهة الأخرى، ويتمدَّد الظلُّ منسابًا مع الضوء، كانت لوحةً بجودةٍ عاليةٍ بالنسبة لفتاةٍ في مثل

عمرها. كانت اللوحة الأخرى في غاية الروعة، وجهٌ حزينٌ ومنكَّسٌ لفتاةٍ مغمضة العينين وعلى طرف عينيها تتسلَّل دمعتان. شعرت أنَّ هذه اللوحة تعبيرٌ عن روح عليا المعذَّبة. لقد غيَّرت اللوحات مشاعري تجاهها على نحوٍ حادٍّ، من الحياديَّة تجاه فتاةٍ حادَّةٍ وعدوانيَّةٍ كما كنت أراها، إلى حبٍّ لهذه الفتاة الشفَّافة، وإعجاب بها وبأعمالها. في اليوم التالي لم أستطع كبح نفسي، وأوَّل ما شاهدتها على باب المدرسة، ركضت عليها واحتضنتها وقبَّلتها، وهي في غاية الدهشة والارتباك من هذه المفاجأة التي لم تتوقَّعها. ولم أتركها طويلًا في دهشتها، وقلت لها: «أنت فنانة بتجنني»، ازدادت ارتباكًا وتلفَّتت حولها وقالت: «شو بتحكي؟»، قلت بحماس: «بقول إنَّك فنانة بتجنني، شفت اللوحات بالدفتر اللي نسيتيه بدرج المقعد امبارح»، قالت: «هادا كلام كبير عليّ، هاي خربشات، مش أكثر. منشان الله ما تجيبي سيرة لحدا عن هاي اللوحات»، قلت: «ليش بتخبي؟ هذا شي لازم تفخري فيه، ويعرفوا كل الناس»، قالت: «منشان الله، بعدين، بعدين»، قلت: «زي ما بدك، بس أنا بحب أشوف لوحاتك إذا سمحتيلي؟ بحس حالي فرحانة بس أشوفها. وعديني، تخليني أشوفها؟»، قالت: «بوعدك»، منذ ذلك اليوم تغيَّرت علاقتنا، وتحوَّلت إلى صداقةٍ قويَّةٍ. وهذا ما جعل عليا لا تطلعني على لوحاتها الجميلة فحسب، بل وتطلعني على حياتها الصعبة أيضًا، التي كانت سببًا لتعاملها القاسي مع الآخرين ويهدف إلى إبعادهم عن حياتها الصعبة التي لا تريد أن يطلع الآخرون عليها وتصبح مجالًا للنميمة. فهي وأخوها الذي يصغرها بعامين، يعيشان مع جدَّتهما في غرفةٍ واحدةٍ، ويتكفَّل أعمامها بالصرف عليهم، في حياةٍ لا تتجاوز الكفاف، بعد أن انفصل والدها مدمن الكحول عن أمِّها. والدها مختفٍ دائمًا ولا يعرفون أين يختفي، ويعود ليتشاجر مع أخوته، ويذهب للاختفاء من جديد. وأمُّها التي أجبرها أهلها على الزواج من رجلٍ آخر، كانت تقابلهم بلقاءاتٍ متباعدةٍ وحزينةٍ، فهي لم تكن قادرةً على فعل أيِّ شيءٍ لهم، لضيق الحال

الذي تعيشه في عائلتها الجديدة، في مناطق المخالفات في بلدة دوما. منذ ذلك الوقت أصبحنا شريكتين في كلِّ شيءٍ، أحاول أن أساعدها بكلِّ الطرق، باقتسام مصروفي معها، بتبادل الملابس، بشراء الجديد عبر هدايا. وعندما ترفض لعزَّة نفسها، لم أكن أضغط عليها، أو أحاول إقناعها، بأنَّ ذلك ليس بشيءٍ يمكن حمله على محمل الجد. كنت أحترم حساسيَّتها، ولم أحاول نقل ما تقوله لي من ظروفها الصعبة حتَّى إلى أمي، ولم أحاول إشعارها بأنَّ ما أقدِّمه لها هو على سبيل المساعدة، بل على سبيل الحبِّ والصداقة. أصبحنا نقضي الكثير من الوقت في بيتنا في الشتاء، وفي المشي في المساء صيفًا. كنت أؤمن أنَّ مستقبلًا جميلًا ينتظرها، وأنَّها مشروع فنانةٍ مهمَّةٍ، لم أشكَّ في هذا لحظةً واحدةً في حياتي، وكلَّما شاهدت لوحةً جديدةً أتأكَّد من هذا أكثر، حتَّى من تلك اللوحات التي تمزِّقها لأنَّها لم تعجبها. كان عليها أن تخطو خطوةً إلى الأمام بالانتقال من الرسم بالفحم، الذي تمارسه بأرخص كلفةٍ، الورق العادي وقلم الرصاص إلى محاولات الرسم بالزيت، لكن هذا لم يكن متوافرًا لها، لأسبابٍ تتعلَّق بالكلفة والمكان. فهي لم تكن قادرةً على تحمُّل كلفة الألوان واللوحات الخام والفراشي وحامل اللوحات المستخدم لتثبيت اللوحات عليه في أثناء عملية الرسم. كما أنَّها لم تكن تملك المكان الذي ترسم فيه أو تضع فيه أدوات الرسم، فهذه الأدوات ترفٌ لا يمكن احتماله في الغرفة المتواضعة التي تعيش فيها هي وأخوها وجدَّتها. فكرتُ طويلًا بكيفيَّة مساعدتها، ولم أجد حلًّا سوى أن أتعلَّم الرسم بنفسي، فطلبت من أمِّي أن تشتري لي الألوان والفراشي والحامل واللوحات الخام، ولم تبخل أمِّي عليَّ في ذلك، رغم أنَّها استغربت طلبي، لأنِّي لم أبدِ أيَّ اهتمامٍ بالرسم في طفولتي. لكنَّها لم ترغب في حرماني الفرصة، لعلَّ ما تفكِّر فيه خاطئٌ، فاشترت لي ما طلبت. ومن جهةٍ أخرى طلبت من عليا مساعدتي في تعلُّم الرسم الزيتي. قالت: «أنا ما بعرف أرسم بالألوان، وما بعرف أخلط الألوان» قلت لها: «بسيطة، بنتعلم سوا، بندور على النت، في مواقع كثير بتعلم

الرسم بالألوان»، قالت: «هاي شغلة صعبة»، قلت: «بنجرب. الإنترنت موجود، خلينا نحاول» بدأنا نقرأ عن مزج الألوان، وكيف الوصول إلى كلِّ الألوان من خلال الألوان الثلاثة الأساسيَّة الأحمر والأزرق والأصفر، وكيفيَّة شدِّ اللوحات، وكيف نضع الأساس عليها، وكم من الوقت يحتاج حتَّى يجفَّ، وكيفيَّة التعامل مع الألوان ونسبها. قرأنا عن تاريخ الفنِّ التشكيلي، منذ عصر النهضة حتَّى اتجاهات ما بعد الحداثة. لم أفهم الكثير ممَّا قرأت، ولم أتقدَّم في تعلُّم الرسم ولا خطوةً، ولم يكن هذا هدفي، أردت أن أوفِّر لعليا الفرصة أن تذهب بموهبتها إلى النهاية. كنت أتركها غارقةً في معالجاتها، فهي كانت تقوم بعملها كأنَّها مسحورةٌ، كانت الألوان تفعل فعلها، تخترق روحها وتجعل منها فتاةً أخرى. كانت محاولاتها الأولى محبطةً لها، شجَّعتها، تحت حجَّة «شو أقول أنا؟!»، طبعًا لم تحاول السخرية من لوحاتي، التي كنت أسخر منها بنفسي. ولم أتوقَّف عن الرسم، مع أنِّي كنت أعرف أنِّي أسوأ من أيِّ دهَّانٍ في العالم، وليس أسوأ من أيِّ فنانٍ تشكيليٍّ. ثابرت من أجلها حتَّى لا تتوقَّف عن المحاولة، وبعد محاولاتٍ عدَّةٍ مع تجربة النجاح والفشل، أخذ الفنَّان بداخلها يجد طريقه في الدروب الوعرة للتعامل الصعب مع الألوان. آمنت أنَّ عليا فنَّانة، ودفعت بها دفعًا حتَّى تذهب إلى كليَّة الفنون الجميلة وهو مكانها الطبيعيُّ. صحيح أنَّ الوساطة والرشى كانت تفعل فعلها في دخول من لا يملك أيَّ موهبةٍ إلى الكليَّة، لم تكن كليَّة الفنون الجميلة قادرةً على تجاهل موهبةٍ رائعةٍ كموهبة عليا. بعد نجاحنا في الشهادة الثانويَّة، كانت خائفةً من الفشل في تجاوز المسابقة للدخول إلى الكليَّة، وكان امتحان القبول يتمثَّل في رسم تمثالٍ لرأسٍ من العصر الروماني، بالظلال التي يصنعها له ضوء يأتي من جهة التمثال اليساريَّة ويمدد ظلُّ التمثال على الأرض. عندما انتهت من امتحانها وكنت أنتظرها في بهو الكليَّة، كانت خائفةً جدًّا من النتيجة، ولم تكن راضيةً عن لوحتها، لأنَّ فيها بعض الأخطاء. سألتها: «في حدا رسم التمثال أحسن

منك؟»، قالت: «ما بعرف. بس الوقت ما بكفي حتى أرسمُه زي ما بدي، ما لحقت أشوف شغل غيري، يا دوب لحقت أخلص شغلي»، كان خوفها مشروعًا، فلم تكن تعرف أيَّ شيءٍ آخر يمكن أن تفعله في حياتها غير الرسم. فهي مكوَّنةٌ إمَّا أن تكون فنَّانةً أو لا شيء. ولأنَّها تعدُّ نفسها بلا خيارٍ ثاني، تحوَّل خوفها إلى رعبٍ، وهي تنتظر نتيجة المسابقة. حاولت التخفيف من خوفها، كيلا تشغل نفسها بالمسابقة وقلت: «أنت فنَّانة بالكليَّة وبلاها. والكليَّة ما رح تضف إلك شي كثير»، قالت: «أنا ما بقدر أحارب العالم لحالي، بدي حدا يعترف فيني. والكليَّة هي مدخلي لهذا العالم، ومن دونها ما بقدر أقدم حالي، ورح يكون الطريق صعب كثير، وما رح أقدر أمشيه»، لذلك تضرَّعت لله أن تنجح في المسابقة، لم أكن قادرةً على رؤية عليا مكسورةً، وهي تقف على العتبة التي ستنقلها إلى العالم الذي ترغب به. بعد شهرين صدرت النتيجة بعلامةٍ تتيح قبولها في الكليَّة، فرحت وكأنِّي أنا التي قُبِلت، في الوقت الذي كان نصيبي كليَّة الآداب، قسم اللغة الانكليزيَّة، وهي الكليَّة التي ظننت أنَّها تناسبني.

عندما أنظر خلفي إلى تلك الفترة، أحنُّ إليها بقوَّةٍ، أحنُّ إلى براءتي وبراءة صديقاتي، شابَّاتٍ يغادرن المراهقة، غير مهموماتٍ بمتاعب الحياة، يصطدمن بمشكلةٍ صغيرة يعدُّونها نهاية العالم، وسرعان ما يَعُدنَ إلى حياتهن البسيطة التي تنتظر القادم الأجمل وتتجاوزن بسرعةٍ العالم الذي سقط على رأسهن منذ قليل. لم تختلف الحياة الجامعيَّة، إلَّا بأنَّنا أصبحنا أكثر حريَّةً في علاقاتنا الاجتماعيَّة، أصبح لكلِّ واحدةٍ منَّا علاقاتها الخاصَّة داخل كليَّتها، من دون أن يؤثِّر هذا على علاقتنا معًا، وكنَّا نشكِّل شلةً موحَّدةً من الصديقات والأصدقاء المقرَّبين. أعطتنا الجامعة مساحةً من الحريَّة في علاقتنا مع الجنس الآخر التي كانت علاقاتٍ صعبةً إلى حدٍّ كبيرٍ عندما كنَّا في الثانويَّة، وكنَّا نقيم حفلاتٍ بسيطةً لسببٍ نخترعه من أجل اجتماعنا معًا لا غير. لكلِّ إنسانٍ فتراتٌ مفضَّلةٌ في حياته، كانت هذه الفترة

الأكثر غنى وجمالًا في حياتي. قد يعود حنيني لتلك الفترة إلى المصائب التي شهدتها حياتنا في المرحلة اللاحقة.

تجاوزت المرحلتين الثانويَّة والجامعيَّة من دون أن أقع في الحبِّ، وكان هذا غريبًا ومدهشًا بالنسبة لصديقاتي، ففتاةٌ مثلي لا ينقصها الجمال، أو النباهة، أو الثقة بالنفس، أو الروح المرحة -كما كنَّ يقلن- ويسألنني ساخراتٍ: «وين الخطأ؟»، كنت آخذ سؤالهنَّ على سبيل الدعابة، أضحك ولا أجيبهن. لم أقع في الحبِّ، رغم أنِّي تعرَّفت على الكثير من الشباب في الجامعة، بعضهم صارحني بحبِّه لي، اعتذرت منهم لأنِّي لم أملك مشاعر تجاههم، سوى مشاعر الحبِّ الأخوي أو الصداقة، تمنَّيت في مراهقتي في الإعداديَّة، أن أقع في الحبِّ، عندما كنت أشاهد بنات صفِّي، وهنَّ يذبن من الخجل عندما تقابلن الولد الذي وقعن في حبِّه، أو وهنَّ تكتبن الرسائل مرَّةً بعد أخرى لتعبرن عن مشاعرهنَّ أكثر، أو عندما تتلقين رسالةً فيها بعض الشعر المستعار من نزار قباني أو محمود درويش أو من كلمات الأغاني، كان الهيام يرفعهن إلى السماء. وكذلك الحال في المراحل التالية، تمنَّيت أن أقع في الحبِّ، لأجرِّب هذه المشاعر التي أشاهدها على الأخريات، وعايشتها لحظةً بلحظةٍ بتجربة وعدٍ أوَّلًا، وفي تجربة عليا فيما بعد. كانتا تتهمانني بأنِّي بلا قلب وتسخران مني وتقولان: «لازم تروحي على الدكتور، عشان نعرف عندك قلب ولا مضخَّة مية»، كانت وعد أوَّل من أطلق السخرية، وأعجبت عليا، وباتتا كلَّما جاء حديث الحبِّ تتطلَّعان ببعضهما، وتقولان لي معًا: «لا.. لا.. لازم تروحي على الدكتور»، ولا تكملان الجملة، التي أصبحت أنا من يكملها ضاحكةً. هذا كان الحال مع صديقتي المقرَّبتين، أمَّا الآخرين فقد كانوا يعتقدون أنِّي فتاةٌ متعجرفةٌ، مستعليةٌ، متشوفةٌ، لا يعجبها العجب. وزاد من هذه الصورة الشباب الذين رغبوا في إقامة علاقةٍ معي واعتذرت منهم، لم يحتملوا فكرة رفضهم، فحاولوا أن يرسموا لي صورةً غير حقيقيَّةٍ. في مرحلةٍ ما بدأت أشكُّ في نفسي. هل أنا بلا

قلبٍ فعلًا؟ كما تقول صديقاتي العزيزات، أم متعجرفةٌ لا يعجبني العجب؟ كما يقول الآخرون. ولماذا لم أقع في الحبِّ إلى الآن؟ هل هذا مرضٌ عضويٌّ أم نفسيٌّ؟ خطرت هذه الأفكار لي كثيرًا، لكن سرعان ما أرميها ورائي، لأنِّي ببساطةٍ لا أعاني من مشكلةٍ، وطالما أنا كذلك، لماذا عليَّ أن أنشغل بأسئلة الآخرين؟ لم أكن مشغولةً بالموضوع، وعددت نفسي فتاةً غير محظوظةٍ، لأنِّي لم أقابل حبَّ حياتي، الذي غالبًا ما تقابله الفتيات في المرحلة الثانويَّة أو الجامعيَّة، بصرف النظر عن مصير هذه العلاقة، فغالبًا ما تتكوَّن العلاقات المشوبة بمشاعر منفجرةٍ في هذه المرحلة. ولأنِّي لم أعش هذه التجربة في تلك المرحلة، فقد رضخت لحظي العاثر بعد تخرُّجي في الجامعة، وعددت ألَّا نصيب لي في عصف الحبِّ. فلم أعلم أنِّي سأعاني منه بعد أن تجاوزت الأخريات أعاصيرهن.

عندما بدأت العمل كمدرِّسةٍ بالساعات، كانت ثانوية الميدان من بين المدارس التي حصلت فيها على ساعات تدريسٍ، ومن المفارقات أنَّ هذه الثانوية، هي ذاتها التي عملت فيها خالتي عائدة مدرِّسةً لمادة التاريخ سنواتٍ طويلةٍ. وفي هذه المدرسة تعرَّفت على فهد الشاب الذي يماثلني في العمر تقريبًا وصاحب الوجه الطفوليِّ والنظرة اللطيفة المتعاطفة. مدرِّس رياضيات، يدرِّس ساعاتٍ مثلي، أي أنَّنا أصحاب عملٍ مؤقَّتٍ في المدرسة. منذ شاهدته أوَّل مرَّةٍ شعرت أنَّ هناك شيءٌ هوى داخلي، لا أعرف لماذا؟ فأنا لم أؤمن يومًا أنَّ القلب ممكن أن يتحرَّك من أوَّل نظرةٍ. جمعتني معه صفة أنَّنا المعلمان الأصغر سنًّا في المدرسة، فشعرنا أنَّنا أقرب لبعضنا من باقي المدرِّسين. عندما قدَّم نفسه لي وقال: «مرحبا. اسمي فهد»، ابتسمت بما يقرب الضحكة وأنا أردُّ عليه وأقول: «وأنا حنان»، قال: «ليش بتضحكي؟!»، قلت: «ما توقعت يكون إلك اسم مخيف، اسمك ما بيشبهك نهائيًّا»، قال: «معك حق، أنت بتعرفي إحنا ما بنختار أسامينا. يمكن أهلي كان بدهم رجّال عندُه جرأة فهد، قام الله أعطاهم رجَّال بخاف مثل

الأرنب»، ضحكنا وقلت: «مش باين عليك خوف الأرانب»، قال: «شو عرَّفك؟»، قلت: «إحساسي بقولي، وعلى الأغلب إحساسي ما بغلط بتقدير البشر»، قال: «إحساسنا بيخدعنا كثير، ما لازم نتسرَّع ونبني عليه أحكامنا»، قلت: «أنا عكسك، ببني أحكامي على إحساسي، ولما بجي الواقع ويقول أنا غلطانة بغيِّر أحكامي. منشان هيك أنا ما بشك بالأوَّل، وما بنتظر إثباتات سلف. يمكن هذا لأنِّي مش مدرسة رياضيات مثلك، وما بشتغل بالأرقام»، قال: «المسألة ما إلها علاقة بشو درست، بل إلها علاقة بتجربة الحياة. وهذا حديث طويل. على كل حال، أنا مبسوط أني تعرَّفت عليك»، قلت: «وأنا أسعد».

لم يحاول فهد أن يخترع تاريخًا كاذبًا لنفسه حتَّى يغريني، قدم حياته كما هي، فهو شاب اعتمد على نفسه في صناعة مستقبله. وُلِدَ وتربَّى في مدينة السويداء لأبٍ يعمل سائقًا على شاحنةٍ كبيرةٍ، ويُبذر ما يحصل عليه من أجرٍ في القمار والكحول. عندما يخسر أمواله في القمار وهذا ما يحدث غالبًا، يعود إلى البيت بحالة من الانفعال الشديد، يضرب زوجته وأولاده وكأنَّهم السبب في خسارته أمواله. عندما كانوا صغارًا هو وأخوته الثلاثة، حمتهم أمُّهم بجسدها من الضرب الجنونيِّ الذي مارسه عليهم. لم تستطع ترك البيت خوفًا على أطفالها، لم تتخلَ عنهم، لأنَّها لم تكن قادرة على أخذهم معها إلى بيت أهلها، كما أنَّ المرأة التي تترك زوجها بين الدروز تجلب لأهلها العار، ولم تكن قادرة أن تسبِّب لأهلها هذا العار. كانت متعلِّقةً بأولادها، وامتلكت عناد بغلٍ حتَّى لا يكون مصيرهم كمصيرها. سرقت المال من زوجها، وتعرَّضت للضرب، من أجل مدارسهم. كان يهزأ بها قائلًا: «شو المدرسة رح تعمل للحمير؟!»، كانت تقول: «اعمل ما بدالك، بمدارس الولاد ما الك علاقة»، في الإعداديَّة بدأ فهد في العمل صيفًا من أجل أن يوفِّر مصروفه لوقت الدراسة، عمل في نجارة الباطون وهو في الصف السابع، دخلت الكثير من المسامير الصدئة في قدميه، وهو ما كان يستدعي

رفعه فلقة في كلِّ مرةٍ يدخل مسمار في قدمه، لإخراج الدم من المكان الذي دخل فيه المسمار حتَّى لا يصاب بالغرغرينا. وفي السنوات اللاحقة عمله في الصيف مع بلَّاطٍ، بقي يعمل معه كلَّ صيف حتَّى نهاية المرحلة الثانويَّة، وأحيانًا في أثناء دوام المدرسة عندما يحتاج إلى المال هو أو أمُّه أو أخوته. في السنة الأولى من الجامعة، ولأنَّه دخل كليَّة الرياضيات والفيزياء، توقَّف عن العمل بالبلاط. وبدأ يعمل في التدريس، هناك طلبٌ على مدرِّسي مادة الرياضيات للدروس الخصوصيَّة، لوجود نقصٍ حادٍّ في المدارس الحكوميَّة، ورغم كثرة الذين تخرَّجوا في هذا الفرع الجامعي، كان المدرِّسون القادرون على تقديم المادة على نحوٍ جميلٍ وسهلٍ قلائل. امتلك فهد هذه الموهبة، وسريعًا ما أصبح عنده مجموعة طلَّاب، تكفي مصروفة ومصروف العائلة على قلَّة ما كان يتقاضى من الطلاب، ورغم أنَّه أعفى الطلَّاب الفقراء من دفع مقابل الدروس. وحرص رغم استقلاله الماليِّ أن ينهي دراسته الجامعيَّة.

في سنته الجامعيَّة الثانية، لم يكن فهد قادرًا على احتمال تعامل أبوه مع أمِّه. عدَّ أنَّ ضرب أمَّه، ليس إهانةً لها فحسب، بل إهانةً وتحقيرًا له أيضًا، وليس قادرًا على تحمُّل هذا الوضع. في تلك الليلة التي سمع أبوه يشتم أمُّه ويقول لها: «وين المصاري يا شرموطة؟»، وهي تقول: «ما في مصاري، من وين المصاري»، ركض فهد من الغرفة الأخرى ودخل إلى غرفة والديه. ذُهِلَ أبوه من اقتحامه الغرفة، وقف بين أبيه وأمِّه. نظر في عيني أبيه مباشرةً، والغضب واضحٌ في عينيه، قال: «هاي آخر مرة بترفع يدك على أمي. أقسم بالله، إذا رفعت يدك عليها مرَّةً ثانية رح أقطع لك إياها»، أخرج رزمةً من المال من جيبه، رماها بوجه أبيه، سقطت الأوراق النقديَّة على الأرض وقال: «خذ هاي المصاري وروح وين ما بدك، وساوي اللي بدك إياه، أوعى تفكر مرة ثانية تمد إيدك على أمي»، كانت أمه وراءه تبكي، وترجوه قائلة: «فهد، لا تدخل بيني وبين أبوك، أحنا بنحلها مع بعض»، قال فهد: «ما عاد في مشكلة نحلها»، لم ينبس الأب بأيِّ كلمةٍ، أدار ظهره وخرج من

البيت كلِّه. عندما روى لي الحادثة قال فهد: «هاي المرة كنت مستعد أقتلُه من دون ما يرفلي جفن. وهو شاف هذا الشي بعيوني. كان بيشتغل فينا سجان وجلاد، وكنت مستعد خلِّص عليه، على الأقل لأخلِّص أمِّي وأخواتي من وحشيتُه. توقَّعت يرد ويكسر الدنيا، استغربت لما ما عمل شي، وما قال ولا كلمة وحدة»، لم يأخذ أبوه المال، لكنَّه لم يضرب أحدًا في البيت بعد هذه الحادثة. عندما تعرَّفت على أمِّ فهد، توقَّعت أن أقابل امرأةً محطَّمةً، كئيبةً، متعبةً من صعوبة الحياة ومن المعاناة التي شهدتها، على العكس وجدت امرأةً مرحةً، متفائلةً، مبتسمةً، وكأنَّها لم تمرَّ بكلِّ تلك الظروف الصعبة التي رواها فهد. يبدو أنَّها كانت تعرف ما تريد رغم كلِّ الصعاب، معركتها أولادها الذين كانوا عند حسن ظنِّها، فشعرت بالانتصار على الظروف وعلى القهر الذي تعرَّضت له. عندما تحكي عن تجربتها المؤلمة، تحكي عنها بسخريةٍ جميلةٍ، لا تخفي ما مرَّت به، ويبدو أنَّ سخريتها من كلِّ شيءٍ، كانت المقاومة الفعَّالة لكلِّ الظروف التي مرَّت بها. هي تماثل أمِّي في العمر، وعندما عرفت ظروفها، شعرت أنَّ أمِّي كانت محظوظةً، أنَّ لها أهلٌ استطاعت اللجوء إليهم عندما فقدت قدرتها على الاحتمال. أم فهد لم تملك هذا الترف، فبقيت صامدةً بنبعٍ من السخرية لا ينتهي.

كان فهد بدايةً جديدةً لحياتي التي ظننت أنَّها أصبحت ورائي، إحساس الحبِّ حالةٌ خاصَّةٌ لا يمكنني وصفه. قد لا يكون فهد الرجل الأفضل في هذا العالم، لكنَّه الرجل الذي شعرت أنَّني لا أستطيع العيش من دونه، الرجل الذي يخلق الفرق عندي، الفرق في المزاج، والاحتضان، والاستفزاز، حتَّى الفرق في الغضب. كلُّ ما يخصُّه مختلفٌ عن الآخرين، للفرح معه طعمٌ آخر عن الفرح مع الآخرين، ومن دونه يصبح ناقصًا. لم أعتد الغضب من الآخرين، مع فهد بات الوضع مختلفًا، هو الوحيد الذي يستطيع أن يُغضبني بشدَّةٍ، كما لم أغضب من قبل. وحاله ليست أفضل، يفرح بكلِّ شيءٍ صغيرٍ أقوم به، يسعده فنجان قهوةٍ أصنعه له، يجنُّ عندما يراني

حزينةً يفعل كلَّ شيءٍ من أجل إخراجي من الحالة. يغضب منِّي كما أغضب منه، وعندما نغضب معًا يتحوَّل وضعنا إلى حالةٍ هستيريَّةٍ لا نعرف كيف نخرج منها. في الحالات جميعها في صعودها وهبوطها، لم يكن هذا يهزُّ الحبَّ الذي بيننا أو يشكِّك فيه.

انتقل فهد في سنته الدراسيَّة الثالثة للعيش في مدينة دمشق، وتحديدًا في بلدة جرمانا. في البداية استأجر غرفةً مشتركةً مع طلَّاب آخرين، وبعد أن تحسَّن دخله المالي من المجموعات التي يُدرسها، انتقل للعيش في شقَّةٍ صغيرةٍ عبارةً عن صالةٍ وغرفةٍ صغيرةٍ للنوم. كان يسكن هذا البيت عندما تعرَّفت عليه. لم يكن التحاقه بالتدريس الحكومي لاعتباراتٍ ماديَّةٍ، فعندما تخرَّج من الجامعة، كانت أوضاعه الماليَّة جيِّدةً، وقد استعان به معهدٌ خاصٌّ في جرمانا لتدريس الرياضيات لطلَّاب الشهادة الثانويَّة، وأعطاه راتبًا يفوق ضعف ما يتقاضاه من التدريس الحكومي. شعر أنَّ عليه واجبًا تجاه الآخرين. هو الذي قضى فترة تعليمه محتاجًا، يعرف أنَّ هناك الكثير من المحتاجين في المدارس الحكوميَّة التي يتردَّى فيها التدريس بسرعةٍ، كسياسةٍ لدفع الناس للذهاب إلى المدارس والمعاهد الخاصَّة. وأصبح المدرِّسون العاملون في المعاهد الخاصَّة التي تدرِّس طلاب الشهادتين الإعداديَّة والثانويَّة، يهملون عملهم في مدارسهم من أجل المعاهد الخاصَّة التي يعملون فيها، أو من أجل استقطاب طلَّابهم للدروس الخصوصيَّة هناك. عندما بدأت عملي في المدارس الحكوميَّة، شاهدت حالةً مرعبةً من الانهيار الأخلاقيِّ في مهنة التدريس. كان يقول: «بعرف ما رح أقدر ألغي الفساد بالبلد، رح أحاول أرضي ضميري قدر الإمكان»، أقام مجموعةً من الطلاب المجتهدين الفقراء لتدريسهم الرياضيات والفيزياء مجانًا، «هدول مو لازم يخسروا مستقبلهم لأنُه أهلهم ما معهم مصاري ومدارسهم خربانة. هادا مش ذنبهم، وهدول مستقبل البلد.»، هكذا كان يقول. وعندما قلت له: «هادا مش ذنبك أنت»، قال: «صحيح. بس رح يكون ذنبي أكبر إذا بقدر

أساعدهم، وما بعمل هيك»، كلُّ يومٍ كنت أزداد إعجابًا به، ليس لأنَّه الرجل الذي خطف قلبي، بل لأنَّه الرجل الذي لم ينسَ معاناته، التي بدل أن تجعله يحقد على العالم الذي ظلمه، ويُنمِّي ضدَّه قيمًا سلبيَّةً، فعل العكس، علَّمته محنته أن يُخرِجَ أجمل ما عنده، ويُنمِّي قيمًا إيجابيَّةً تقوم على مساعدة الآخرين الذين يحتاجون إلى المساعدة، طالما قرَّروا أن يساعدوا أنفسهم. أمَّا من قرَّر أن يستسلم، فهذا شأنه، ولا يمكن مساعدته، وفق فلسفة فهد في الحياة. سألته مرَّةً: «من وين بتجيب هذا اليقين، مع أنُه العالم اللي حولينا فاجر؟»، قال: «أمِّي هي اللي ربتني ضد الكره. هاي المرة اللي شافت الويل بحياتها، بدل ما تحقد على اللي شربها الويل، اللي هو أبي. كانت تتعاطف معُه، وتقول عنو "مسكين" ولما أسألها: "كيف يعني مسكين؟" تقول: "اللي بحل مشاكلُه بضرب الناس، بخرِّب بدل من يصلح، واللي بعمل هيك مش مسكين؟"، كان معها حقٌّ، هو مسكينٌ بضربنا إحنا المساكين مثله، لأنُه ما ملاقي حدا غيرنا يتفشش فيه. بس أنا ما قدرت أسامحه، مش منشاني، منشان أمِّي، كان أهون علي ألف مرَّة يضربني ويهيني من إنُه يهين أمِّي ويضربها» كان جرحه جرَّاء ما فعله أبوه مع أمِّه عميقًا، ولم يبدُ أنَّه سيأتي يومٌ ويندمل، لكنَّه لم يعامل والده بالسوء يومًا، على الأقل استجابةً لرغبة أمِّه وتمنِّياتها عليه.

مضت الأيَّام مع فهد سريعةً، أشهرٌ مضت من دون أن أنتبه إلَّا عندما أصبحت خلفي. سرعان ما وجدنا أنفسنا في وسط الاحتجاجات التي شهدتها البلد انطلاقًا من درعا. صحيحٌ أنَّنا لم نشارك في المظاهرات التي عمَّت كلَّ المحافظات، لكنَّنا تعاطفنا معها جدًّا. وكان رأيي ورأي فهد، أنَّه بسبب الأوضاع المأساويَّة وعدم العدالة التي تعمُّ البلد، لا بدَّ من أن تنفجِّر. كلَّما زاد الوضع سوءًا في البلد، كان السؤال عن مصير علاقتنا يزداد إلحاحًا. الاحتجاجات التي بدأت مظاهراتٍ، بدأت تتحوَّل بعد عامٍ إلى اشتباكاتٍ مسلَّحةٍ في مناطق عديدةٍ، والتنقُّل يزداد صعوبةً في المدينة يومًا بعد يومٍ

بسبب الحواجز المتزايدة في كلِّ مكانٍ، وبعد التفجيرات المتعدِّدة التي شهدتها مواقع عدَّةٌ من المدينة، لا سيَّما التفجير الهائل في منطقة القزَّاز مقابل فروع المخابرات هناك، الذي دوَّى في كلِّ أرجاء البلد، التي شعرت أنَّ الانفجار في منطقتها. كنت يومها أنام عند خالتي عائدة التي انتقلت من بيتها للعيش في بيت جدَّتي في البرامكة، من دون أن تفصح عن السبب الذي جعلها تفعل ذلك في ظلِّ ما يجري في البلد وفي ظلِّ إصابتها بمرض السرطان. ولم يناقشها أحدٌ ولا حتَّى زوجها في قرارها، تقديرًا لوضعها الصحيِّ، إذ كانت تعاني من سرطانٍ في الأمعاء. لأنَّ البلد وخالتي كانا يمرَّان في أيَّامٍ صعبةٍ، فقد اخترت أن أقضي جلَّ وقتي عندها. شهدت صحَّة خالتي تدهوُّرًا والحواجز في البلد زادت لدرجةٍ لم تعد تطاق، وأصبحت المسافة ما بين صحنايا ووسط المدينة حيث عملي، تحتاج إلى ساعاتٍ حتَّى يجتازها المرء. وما ساعدني على ذلك القرار أنَّ المسافة من بيت جدَّتي وعملي، لا تحتاج أكثر من عشر دقائق بالسيَّارة أو الميكروباص، أو نصف ساعةٍ مشيًا على الأقدام.

بينما كنت أغسل وجهي في الحمَّام تحضيرًا للذهاب إلى المدرسة، اهتزَّت البناية بفعل انفجارٍ هائلٍ في مكانٍ قريبٍ، ولأنَّنا في الطابق الرابع كان الشعور بالاهتزاز أكبر. ركضت إلى البرندة نظرت بالاتجاهين لم أرَ أيَّ دخانٍ يتصاعد. عدت إلى الداخل، ألقيت نظرةً على غرفة خالتي، كانت تجلس في سريرها وتضع يدها على صدرها وتقول: «شو هالانفجار يا حنان؟»، أعطيتها كأس الماء الموضوع على الطاولة جانبها وأنا أقول: «انفجار، ما بعرف وين؟» شربت القليل من الماء وأخذت نفسًا عميقًا كأنَّها غريقةٌ، وقالت: «شكرًا» رنَّ هاتفي المحمول، ورنَّ هاتفها في الوقت ذاته، ظهر رقم فهد على هاتفي. فتحت الخطَّ فورًا، سأل: «أنت بخير؟»، قلت: «أنا بخير. بتعرف وين الانفجار؟»، قال: «بقولوا بالقزَّاز. الدخان هناك شايفينوا من جرمانا»، قلت: «رح سكر وأطمن على أمي»، قال: «أوكي.

باي»، وأنا أتكلَّم مع فهد، فهمت من كلام خالتي أنَّ المتحدِّث زوجها يريد الاطمئنان عليها. اتصلت مباشرةً بهاتف أمي التي فتحت الخطَّ وسألتني فورًا: «أنت بخير؟»، قلت لها: «أنا وخالتي بخير، ما تقلقي»، عندما التقيت بفهد بعد الحادث كان حزينًا يسب ويلعن. فهمت منه أنَّه حزينٌ على ضحايا الانفجار، لا سيَّما أنَّه خسر أحد تلاميذه المجتهدين فيه، وهو ذاهبٌ إلى المدرسة، وكان الميكروباص الذي يركب فيه، قريبًا جدًّا من الشاحنة التي انفجرت، فتحوَّل ركاب الميكروباص إلى أشلاء متناثرةٍ في المكان، تعرَّفوا على الشابِّ من كتبه التي تناثرت في المكان من دون أن تحترق، كما تناثرت جثث الآخرين وأغراضهم على مسافةٍ بعيدةٍ، وقد حطَّم الانفجار زجاج النوافذ على بعد أكثر من كيلومتر.

ألحَّ فهد بعد الحادثة على ارتباطنا والعيش معًا، وهو يقول: «ما قادر ظل بعيد عنك، بقلق كثير عليكي، لازم نكون مع بعض كل الوقت، لحتى أطمن..»، قلت: «استنى لتهدا الأوضاع شوي»، قال: «ما قادر أستنى، ما في شي بقول أنُه الأوضاع بالبلد رح تهدا. كل شي بقول إحنا راحين على جهنم. وأنا بدي أواجه هاي جهنم معك»، وكنت مثله أرغب في البقاء معه كلَّ الوقت في مثل الظروف التي تمرُّ بها البلد، ظننت أنَّ الأمور من ممكن أن تهدأ، ونبدأ حياتنا في ظرفٍ أفضل من الذي تمرُّ به البلد. وبعد مدَّةٍ بات إلحاحه لا يحتمل، وصرت أظنُّ أنَّه على حقٍّ لا مؤشِّراتٍ أنَّ البلد ستذهب إلى أوضاع أفضل. عندها طلبت من أمِّي أن تقول لأبي أنَّ شابًّا يريد أن يتقدَّم لخطبتي، وشرحت لها قصَّتي مع فهد التي تعرف جزءًا منها. فرحت أمي لأنِّي أخيرًا سأتزوَّج، كثيرًا ما سألتني، إذا كان في حياتي شابٌّ، يصلح لأن أؤسِّس معه عائلةً. كنت أقول لها: «بكير على هاد الحكي»، وكلَّما مرَّ الزمن، تشعر بالقلق تجاه فرصي المتراجعة بالزواج. تعود لتسألني السؤال ذاته، وأعود لأجيبها الجواب ذاته. هذه المرَّة أنا التي بادرت وأخبرتها أنَّ رجلًا يريد الارتباط بي. ولأنَّها لم تتوقَّع ذلك، كانت المفاجأة سعيدةً بالنسبة لها،

وتحمَّست لتخبر أبي. بعد أيَّامٍ انقلبت حالة أمِّي، لم تعد تلك المرأة السعيدة بحصول ابنتها على عريسٍ وفي ظروف البلد الصعبة. تحوَّلت إلى شخصٍ في غاية الحزن والكآبة. في البداية لم أقدِّر أن هذا التحوُّل بسببي، حاولت أن أعرف منها ما الذي يجعلها حزينةً وكئيبةً إلى هذا الحدِّ. أجابت: «ولا شي. شغلة بسيطة وبتروح بحالها»، سألتها: «أنا السبب بحالتك؟» قالت: «أبدًا. أنت ما إلك علاقة بالموضوع»، أشاحت بوجهها عنِّي وشرعت بالبكاء. قالت دموعها كلُّ شيءٍ. لم أكن بحاجةٍ لتروي لي ما حصل بينها وبين أبي حتَّى أعرف، دموعها أبلغ جوابٍ على المهمَّة التي كلَّفتها بها. ندمت لأنِّي طلبت منها أداء المهمَّة. كان عليَّ أداءها بنفسي ومواجهة أبي، هي مشكلتي وكان عليَّ وحدي حلَّها، لم أكن بحاجةٍ أن أسبِّب لأمِّي مشكلةً مع أبي، الذي من المتوقَّع أن يرفض هذا الزواج، ولم يكن الوضع بحاجةٍ إلى ذكاءٍ خارقٍ لمعرفة ذلك. والسيِّئ أنَّ أبي أرسل لي عبر أمِّي رسالةً واضحةً، أنِّي لن أدفع الثمن وحدي إذا أقدمت على هذا الفعل، أمي ستدفعه قبلي. كنت أنانيَّةً، هربت من المواجهة ووضعت أمِّي في فوهة المدفع، وتَسبَّبتُ لها بكلِّ هذا الحزن الذي أراه في عيونها. لم ألحَّ عليها في الحصول على الجواب، وهي لم ترغب بإزعاجي بجواب أبي، قدَّرت رغبتها، ولم أعد لسؤالها عن الموضوع. الغريب أنَّ أبي لم يراجعني، في الوقت الذي أزعج أمِّي، أصبح أكثر لطفًا معي، وكأنَّه يحاول رشوتي بالتعامل اللطيف لأصرف النظر عن علاقتي بفهد. لم يقل هذا الكلام، ولم يُلمِّح إليه، قرأت هذا في قلقه الذي يحاول إخفاءه كلَّما تحدَّث معي.

عندما سألني فهد عن الموضوع تهرَّبت من الإجابة، قلت له: «ما إجت فرصة لأفتح الموضوع مع أهلي»، أعاد السؤال كلَّ أسبوعٍ تقريبًا، وأجبت الجواب ذاته. في النهاية لم أعد قادرةً على احتمال هذا الإلحاح والاستمرار في الكذب عليه. قلت: «أبي مش موافق»، لطم فخذه وقال: «ليش؟ لأنِّي درزي، من الصبح بغير هذا اللي ما اخترته. أحكي معُه وأنا

مستعد أعمل أيَّ شي حتَّى هاد الموضوع يخلص»، قلت: «الموضوع مش بهاي البساطة، وما إلُه علاقة فيني بس»، قال: «ما فهمت. شو عبتحكي؟!» قلت: «رح يجي وقت وتفهم»، قال منفعلًا: «وليش ما أفهم اليوم؟» لم أرغب في أن أقول له، أنِّي مستعدةٌ دفع حياتي ثمنًا للزواج منه، لكنِّي لن أدفع الثمن وحدي، ولن أكون قادرةً على أن أرى آخرين، لا سيَّما أمِّي تدفع ثمن تصرُّفاتي، وثمن شيءٍ لا ذنب لها فيه. أنا أعرف أبي جيِّدًا، إنَّه شخصٌ انتقاميٌّ لن يترك أمِّي في حالها إذا فعلتُ هذا، سيجدها فرصةً للانتقام من أمِّي عن الجديد والقديم. لم يستمرَّ فهد في الإلحاح طويلًا، فقد حدث ما هو أسوأ. فجأةً اختفى فهد، ليس موجودًا، هاتفه المحمول مقفلٌ أو خارج التغطية كلَّ الوقت. قلت لنفسي: «هو زعلان منِّي، منشان هيك سكر تلفونُه، بكرة بهدا وبنحكي، وبقدر اللي بمر فيه»، في اليوم التالي لم يظهر ولم يتصل. سألت أصدقاءه عنه، لم يَرَه أحد، ولم يتصل بأحدٍ، وهاتفه على حاله لا يجيب ولا يرن. وسمعت الإجابة ذاتها وكانت من أمِّه وأخوته. «وين اختفى؟» سألت نفسي. الموضوع أنَّه غاضبٌ منِّي، فإذا كان غاضبًا منِّي، فهل هو غاضبٌ من الجميع؟ لم تبقَّ فكرةٌ سيِّئةٌ لم تخطر على بالي، وسرعان ما كنت أطرد هذه الأفكار من رأسي. وحدها فكرة أنَّه معتقلٌ وغير قادرٍ على الاتصال تفسِّر ما يجري. وهذا ما كان بعد ثلاثة أيَّامٍ، رنَّ هاتفي المحمول وكان رقمًا غريبًا فتحت الهاتف وقلت: «آلو»، جاء صوت فهد من الجهة الأخرى يقول: «حنان. ما تخافي أنا بخير»، وحالما سمعت صوته بكيت. لم أصدِّق أنِّي أسمع صوته من جديدٍ. سألت: «وين أنت؟»، قال: «أنا محبوس»، وقع قلبي قبل أن أسمع تتمَّة جملته: «مش معتقل منشان شي. بس مسكوني على الجيش، مسكوني على حاجز جرمانا»، هدأت قليلًا، وبات معروفٌ الثمن الذي سيدفعه، الالتحاق بالخدمة العسكريَّة التي تجنَّبها. تأخَّر فهد عن الالتحاق بالخدمة العسكريَّة، وهذا ما جعله متخلِّفًا عنها، فأصبح مطلوبًا، لم تكن هذه مشكلةً، قبل انطلاق المظاهرات في البلد، كان

يمكن أن يتملَّص بسهولةٍ فعنوانه وشعبه تجنيده في السويداء. ولم يذهب إلى هناك إلَّا نادرًا، وهو ما يعني أنَّه آمنٌ في مدينة دمشق. مع تردِّي الوضع في البلد، وازدياد الحواجز والتأكيد على المتخلِّفين عن الخدمة العسكريَّة على الالتحاق بالجيش لحاجة السلطة للمزيد من المجنَّدين، لأنَّ الجيش بات ينتشر في كلِّ المدن، زادت أخطار اعتقال المطلوبين على الحواجز وكان أن قُبِضَ عليه على حاجز جرمانا، كما قال.

بعد حوالي شهرٍ، وفي أوَّل إجازةٍ قصيرةٍ له، قابلت فهد آخر، غير الذي عرفته قبل اعتقاله، كان خائفًا ومتعبًا وسارح الذهن طوال الوقت. كان يقضي فترة التدريب ولم يكن قد فُرِزَ إلى الوحدات العسكريَّة المنتشرة في البلد بعد. ما حاول تجنُّبه وجد نفسه في قلبه مباشرةً. فكرةٌ واحدةٌ شغلته طوال الوقت كما قال لي: «ما رح أقدر أطخ حدا وأقتلُه، واللي ما بعمل هيك بطخوه، يعني معادلة يا قاتل يا مقتول. وأنا ما بدي كون لا قاتل ولا مقتول. منشان هيك مش عارف شو أعمل؟»، فجأةً أدركت ما لم أنتبه له سابقًا، كنت سعيدةً لأنَّ فهد بخيرٍ، لكن لم أدرك أيَّ مأساةٍ يعيش. شغله القلق طوال الوقت، وكلَّما اقترب موعد فرزه على الوحدات كلَّما زاد خوفه وقلقه. في اليومين الذين قضاهما في دمشق، لم يستطع أن يخرج من الحالة التي يعيشها، حاول إجبار نفسه على الابتسام أو الضحك، لكن باصطناعهما كان يبدو كمريضٍ. لم أعرف ما أقوله له، أو كيف أساعده. فكرة قتل إنسانٍ مرعبةٌ، رغم أنَّها أصبحت شيئًا عاديًّا في البلد بعد كلِّ هذا القتل المستمرِّ ممَّا يقرب العامين. وعندما فُرِزَ فهد إلى الوحدات الخاصَّة التي تتمركز في ريف حلب. دخلتُ في حالة خوفٍ رهيبٍ عليه من مواجهة موقف إطلاق النار على متظاهرٍ وقتله، ما سيدمِّر فهد إلى الأبد، أو انتظار أن يمتنع عن فعل ذلك، ويعامل كخائنٍ يطلق رفاقه النار عليه، أو يُعتَقَلَ ليقضي في أقبية المخابرات كما قضى الكثير من الجنود المنشقِّين، في كلِّ الحالات كنت سأخسره إلى الأبد.

بعد أيَّامٍ عدَّةٍ من اعتقال فهد لأداء الخدمة العسكرية، صحوت مبكِّرًا على صوت أمِّي وهي تقول: «حنان. قومي. جدِّك ومرتُه وخالتك هون»، لم أفهم ما قالته تمامًا وأنا أصحو من نومي: «شو قلتي؟»، قالت: «قصفوا المخيَّم بالطيَّارات إمبارح، واليوم كل الناس هربت، جدك وخالتك ومرتو هون. وأبوكِ راح يجيب ستك وعماتك»، لم تكن هذه المعلومات الصباحيَّة القاسية، قابلةً للاستيعاب بسرعةٍ منِّي، أصبحت الأحداث التي تجري أكبر من قدرتي على الاستيعاب حتَّى من قدرتي على الإلمام بها. لم أفهم ما تقوله أمِّي سوى عندما خرجت من غرفتي وشاهدت الثلاثة بحالةٍ مزريةٍ، بوجوهٍ ميتةٍ، كأنَّهم خارجون من الجحيم. ألقيت السلام واحتضنت خالتي الصغيرة التي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، احتضنت جدِّي الذي بدا أكبر ممَّا هو عليه بكثيرٍ وقد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره، وزوجته، وهي الثانية التي كان عمرها حوالي الخمسين عامًا. خجلت من استثنائها من العناق، فعانقتها أيضًا. عندما روى جدِّي ما جرى في ذلك الصباح في المخيَّم، شعرت أنَّه يروي عن حدثٍ يقع في الجحيم وليس على الأرض. رجلٌ عجوزٌ يروي عن يوم القيامة الذي شهده المخيَّم، والبشر الذين فقدوا وجوههم وباتت ملامحهم بلا حياةٍ، يمشون على طرقٍ بلا هدفٍ، يتركون كلَّ حياتهم في المربَّع الصغير ويحملون القليل من الأشياء، لا يعرفون شيئًا عن مصيرهم، هل يستطيعون الخروج من الحاجز الذي أُقِيمَ في مدخل المخيَّم لإغلاقه، أم العناصر المسلَّحة هناك ستطلق النار عليهم؟ لم يكن أحد على يقينٍ ما الذي سيجري، كانوا يغامرون بحياتهم للنجاة، في الوقت الذي خسروا فيه أماكنهم. أمِّي المشغولة بعائلة جدِّي، كانت مشغولةً أكثر بعائلة أبي، وخافت أن يحضرهم أبي إلى البيت، ويتحوَّل البيت إلى كارثةٍ حقيقيَّةٍ. نادتني إلى غرفة أختي، التي ورثتها عن أخي الذي غادر تهريبًا إلى تركيا ومنها إلى أوروبا قبل شهرين، وما إن وصل إلى هناك، حتَّى انتقلت نور للعيش في غرفته. وقد شرعت أمِّي في إفراغ تلك الغرفة لتركها لعائلة جدِّي،

ونقلت أغراضها إلى غرفتي لننام أنا وهي من جديدٍ في الغرفة ذاتها. قالت أمِّي: «اسمعي حنان. أبوكِ راح يجيب أهلوا، زي ما فهمت من المكالمة اللي حكاها معي. وأنت شايفة، إحنا ما فينا نستقبلهم هون»، قلت: «شو بنعمل؟»، قالت: «اتصلي بأبويكي، وقولي له اللي صار، وأنُه جدك وعيلته إجوا لعنا. واعرضي عليه شقَّة شارع المدرسة على أساس أنَّها شقَّة لأهل صديقتك. ما بدي يعرف أنُه الشقَّة، شقتي»، قلت: «رح أحاول»، قالت: «امسكي. هدا مفتاح الشقَّة»، كنت أعرف أنَّ الأمور بين أبي وأمِّي في غاية السوء بسببي، وهي لا ترغب في الحديث معه حول أيِّ شيءٍ آخر، لذلك استعانت بي، لحلِّ هذه المشكلة.

اتصلت بأبي على الهاتف المحمول، عندما أجاب قلت: «مرحبا بابا. كيف ستي وعمَّاتي؟»، قال: «الحمد لله. ستك تعبانة شوي»، قلت: «بابا اسمعني. من شوي أجا جدي وعيلتُه عنا»، قال: «شو يعني؟» قلت: «بابا حبيبي. أنت بتعرف البيت صغير، صعب يسعنا كلنا»، قال: «والحل؟» قلت: «الحل بسيط. أهل رفيقتي عندهم شقَّة حلوة بشارع المدرسة، حكيت معها من شوي، إذا في مجال نستعيرها، قالوا ما في مشكلة، وجابتلي المفتاح. هي شقة جاهزة ومفروشة»، كنت أتوقَّع رفضًا وصراخًا وشتمًا منه، وأن أدخل في جدلٍ عقيمٍ معه في وقتٍ غير مناسبٍ، وأن يصرَّ على جلبهم إلى بيتنا. استغربت استسلامه. ولم أستطع أن أقدِّر، هل هو استسلامٌ من أجل عدم الصدام مع أمِّي من جديدٍ، لأنَّهما في ذروة خلافاتهما. أم من أجل ألَّا يحرج نفسه مع جدَّتي وعمَّاتي، أم أنَّ ذلك من أجلي أنا، ولا يريد أن يصطدم معي، بما أنِّي من قدَّم اقتراح الحلِّ؟ ذهبت إلى الشقَّة وانتظرتهم هناك. عندما وصلوا، كانوا ثلاث نساءٍ أخرياتٍ آتياتٍ من ذلك الجحيم. تعابير وجوههنَّ فيه الكثير من الموت، كائناتٌ بشريَّةٌ تتحرَّك لكنَّها فاقدةٌ روحها، محطَّمةٌ، تنظر ولا ترى شيئًا، القلق هو كلُّ ما تنطق به العيون. عانقت جدَّتي وعمَّاتي، وساعدت أبي بنقل أغراضهن إلى الشقَّة. انتظرت

معهن، حاولت إخراجهن من الصدمة التي يعشنها، من دون فائدةٍ. أحضر أبي بعض الطعام. أعددنا أنا وأبي فطورًا، حاولنا إقناعهن بالأكل، من دون جدوى، أكلنا نحن من أجل تشجيعهم، لم يشاركونا، فتوقَّفنا عن الأكل، لقد كانوا في عالم آخر.

فاقم الوضع الجديد من أزمة أمِّي، لم تستطع رفض استقبال جدِّي وعائلته، فلم يكن هناك خيارٌ آخر أمامها. أعرف إنَّها لم تكن تحبُّ زوجة جدِّي. لكنَّها لا تستطيع أن تقول لجدِّي وخالتي، أدخلا أنتما، وتقول لها، أنت ابحثي عن مكانٍ آخر. أصبحت متوتِّرةً طوال الوقت، وبدأت تفقد أعصابها، وبدأت بالصراخ علينا، أنا وأختي نور. لأنِّي أعرف وضعها كنت أتحمَّل انفجاراتها وأحاول التخفيف عنها. تتحمَّل نور أحيانًا، وأحيانًا تنفجر غاضبةً. لكلٍّ منَّا مشاكله المتفاقمة. بعد أيَّامٍ عدَّةٍ عدت من عملي، لم أجد جدِّي وعائلته في البيت وأمِّي في حالةٍ يرثى لها سألت أمِّي: «وين جدي؟»، قالت: «راح» من دون أن تضيف كلمةً أخرى قلت: «لوين؟»، قالت: «ما بعرف»، قلت: «تخانقتي معُه؟»، نظرت إليَّ طويلًا وقالت: «اختلفنا على كندرة وسخة»، قلت: «ما فهمت؟!»، قالت: «طردتُه»، وشرعت في البكاء، أسرعت إليها وعانقتها، أجلستها على الصوفا في الصالون، وجلبت لها بعض الماء. كانت تقول: «ليش بصير هيك معي يا الله؟! ليش؟!»، ربتُّ على كتفها وقلت: «بسيطة ماما. طولي بالك»، لم أعرف ما جرى بالضبط بين أمِّي وجدِّي، لكنِّي لم أُعِد فتح الموضوع معها، كانت متاعبها الكثيرة تكفيها، ولا أريد أن أزيد عليها متاعب فوق متاعب.

رغم انشغالي في العمل والأوضاع المستجدة مع وجود عائلة جدي في بيتنا، وجدتي وعماتي في بيت قريب منا، كنت أتصل كلَّ عدة ساعات بفهد على الهاتف المحمول للاطمئنان عليه. وعندما لا يستطيع الرد على الهاتف لأي سبب، يأكلني الخوف والقلق عليه. ولا أرتاح حتى يكلمني من جديد، وكلما انتظرت مكالمته فترة أطول كانت أعصابي تتحطم تماماً خلال هذا

الانتظار الذي يمتد في بعض الأيام لساعات، كان الوقت فيها يطول أكثر مما أحتمل، الساعة أصبحت تعادل سنوات وأنا أنتظر سماع صوته على الطرف الآخر من الهاتف. كانت مكالماتنا قصيرة، ولم يرغب في أحاديث طويلة، كان يقول كلمات قليلة: «أنا منيح. أنت كيفك؟»، «اشتقتلك»، «بحبك»، «ديري بالك على حالك»، «بنحكي.» تكاد تتكرر الكلمات في كل محادثة هاتفية بيننا، كأنه فقد الرغبة في الكلام منذ التحاقه بالخدمة العسكرية.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع من التحاقه بوحدته التي فُرِزَ إليها في ريف حلب. اتصلت به صباحًا قبل أن أغادر إلى عملي، وجدت هاتفه مغلقًا، أو هو خارج نطاق تغطية شبكة الهاتف. أبقيت هاتفي المحمول أمامي على الطاولة في الصفِّ في أثناء الدروس على الوضع صامت، كلُّ بضعة دقائق أنظر إليه، لأتأكَّد هل اتصل، كنت مشتَّتةً وقدَّمت أسوأ الدروس في تاريخي المهنيِّ في ذلك اليوم. وفي الاستراحات بين الدروس كنت أعاود الاتصال به مرارًا وتكرارًا، وهاتفه يعطي الإشارة ذاتها، مقفل أو خارج نطاق التغطية. عندما انتهى وقت المدرسة، أصبحت في غاية القلق، وأخذت أفكاري المرعبة تجتاحني. ما الذي يجري؟ هل هو في منطقة اشتباكٍ تقع خارج نطاق تغطية الهاتف، ولم يتمكَّن من طمأنتي عليه؟ هل هو في المشفى لأنَّه أصيب في اشتباك لم يستطيع تجنُّبه، لذلك لا يردُّ على هاتفه؟ هل قُتِلَ في اشتباك وسقط منه هاتفه في منطقةٍ مقطوعةٍ؟ كانت حرارتي ترتفع وأرتجف، كلَّما خطر ببالي فكرة أنَّه قُتِلَ في اشتباكٍ هناك، لا سيَّما أنَّ اشتباكاتٍ عنيفةً كان يشهدها ريف حلب في منطقة الأتارب وهي منطقةٌ قريبةٌ من المنطقة التي يرابط فهد فيها. ولأنِّي أشعر نفسي غير قادرةٍ على فعل شيءٍ، لا يبقَ أمامي سوى دموعي، فأبدأ بالبكاء. عندما عدت إلى البيت، لم أعد قادرةً على التحدُّث مع أحد، ذهبت إلى غرفتي وأقفلت الباب على نفسي. وضعت الهاتف المحمول أمامي، أحدِّق به طوال الوقت، أو أحمله وأحاول الاتصال به من جديدٍ، ولم أردَّ على أيٍّ من الاتصالات التي

أتتني، حتَّى لا أشغل الخطَّ في لحظةٍ قد يتصل بها. في المساء كنت أغلي وأكاد أنهار من القلق والتعب، أزداد حيرة، وأفكاري تزداد سوداويَّةً. في منتصف الليل تقريبًا، اتصل رقمٌ غريبٌ من خارج البلد، فصلته حتَّى لا أشغل الهاتف، لا أريد أن يشغل الهاتف أيُّ شيءٍ قبل أن يتصل فهد وأطمئن عليه، أصرَّ صاحب الرقم على تكرار الاتصال، وأنا أفصله طوال الوقت. بعد محاولاتٍ عدَّةٍ للاتصال وعدم إجابتي، جاءتني رسالة قصيرةٌ من الرقم ذاته تقول: «ردي أنا فهد»، لم أصدِّق ما أرى. رنَّ الهاتف من جديدٍ جاء صوت فهد يسأل: «كيفك؟»، صرخت: «كيفك؟ شو هذا السؤال السخيف، بتتركني أموت طوال الوقت. وهلأ جاي تقلي كيفك؟ شو دين ربك انت؟! من شو مصنوع؟! طول النهار موتتني عشرين مرة. وهلأ جاي تقلي كيفك؟! فكرتك متت يا حقير. وجاي تقلي كيفك؟!»، طوال الوقت يقول لي: «طولي بالك. خليني أحكي»، وأنا أقول: «شو بدك تحكي؟ بعد ما جبتلي الجلطة»، قال: «هربت من الجيش، وأنا صرت بتركيا»، قلت: «شو ما فهمت؟»، كرَّر: «أنا بتركيا. هربت.. هربت من الجيش»، لم أفهم ما يقول، لم أتوقَّع أن يفعل ذلك، لم يخبرني أنَّه يفكِّر في الهرب من الجيش، ولم يلمح إلى أنَّه يمكن أن يُقدِمَ على ذلك. أخذت بعض الوقت حتَّى استوعبت، أنَّه غادر إلى تركيا. قلت: «هذا مش عذر. كان عليك أن تخبرني، ما تتركني أتخبط بحالي، وأحسب أخماس بأسداس»، قال: «ما كنت بدي تقلقي عليّ»، قلت: «يعني هيك يا فالح ما قلقتني عليك؟! أنت موتتني»، قال: «حقك عليّ، ما كان بدي ازعجك»، قلت: «تضرب أنت وأفكارك الخرا»، كنت غاضبةً جدًّا منه، لو كان أمامي لكنت مزَّقت وجهه من غيظي منه. بقيت منفعلةً لأيَّامٍ عدَّةٍ من الرعب والخوف الذي عشته ذلك اليوم، وعندما هدأت بدأت أفكِّر على نحوٍ عقلانيٍّ في تصرُّفه، رغم غضبي منه لعدم إخباري بنواياه الهرب من الجيش والذي عددته قلَّة ثقةٍ بي. إلَّا أنَّه كان محقًّا بعدم أخباري، وإلَّا لكنت عشت هذا الرعب في كلِّ لحظةٍ غاب

فيها عنِّي. عشتُ حالةً غريبةً في تلك الفترة، بقيت غاضبةً منه لما فعله، رغم كلُّ التبريرات العقليَّة والمنطقيَّة التي فكَّرت فيها بعد هدوء عاصفتي، وعددت سلوكه الأكثر منطقيَّةً في الظروف العصيبة التي كنَّا نمرُّ بها. وفي الوقت ذاته، كنت سعيدةً لأنَّه نجا من الخطر المحدق، وتجاوز الوضع الذي يقلقه ويقلقني من أن يكون قاتلًا أو قتيل. كما أنِّي أصبحت حزينةً، لأنِّي لن أستطيع أن أراه، لقد بات بعيدًا عنِّي، هناك وراء الحدود، شعرت أنَّ المسافة بيننا كانت أبعد من قدرتنا على تجاوزها، وخفت ألَّا نلتقي مرَّةً أخرى.

بعد فرار فهد أصبحت الحياة أصعب وأكثر قسوةً، وجوده إلى جانبي خفَّف عنِّي الكثير، كان قادرًا على خلق لحظات فرحٍ في ظلِّ الظروف الصعبة التي تمرُّ بها البلد، حتَّى هذه اللحظات خسرتها بعد مغادرته. أصبح وضع البلد أكثر صعوبةً، مناطق جديدةٌ تتحوَّل إلى مناطق للاشتباكات المسلَّحة، قوى مسلَّحةٌ بكلِّ الألوان والأشكال تظهر هنا وهناك، يزداد النازحون من ريف دمشق إلى المدينة كلَّ يومٍ. الميسورون منهم يستأجرون بيوتًا في المناطق البعيدة عن الاشتباكات، والذين لا يملكون المال يتكدَّسون في الجوامع التي فاضت على آخرها، وأخذ بعض المساكين منهم يسكنون في البيوت التي لم يكتمل بناءها بعد، وعندما يعرفون أصحابها يأتون لطردهم، اعتقادًا منهم، إذا بقوا في البيت غير المكتمل سيستولون عليه بعد حين. صحنايا الخالية من الاشتباكات، أصبحت مليئةً باللاجئين، أشاهدهم في كلِّ مكانٍ، الكثير منهم حالتهم تدعو للشفقة، نساءٌ ورجالٌ وأطفال عيونهم حزينةٌ مات فيها أيُّ فرحٍ تائهةٍ، لا تعرف نهايةً لأوضاع الهرب من القصف التي يعيشونها والتي أوصلتهم إلى هنا، أو إلى أماكن أخرى، بأوضاع لا تقلُّ بؤسًا عن الذي يعيشونه في صحنايا. الأوضاع وسط دمشق أسوأ، لأنَّ الشرطة هناك لا تتساهل مع اللاجئين الذين احتموا في

الحدائق، بل يلاحقونهم ويطردونهم ليتوزَّعوا على الشوارع القريبة، انتظارًا لمغادرة الشرطة، حتَّى يعودوا للجوء إلى الحديقة من جديد.

باتت دمشق خانقةً بالنسبة لي، كلُّ شيءٍ يدفعني للحزن، وبات الجميع يلاحظ حزني. في تلك الفترة عرضت عليَّ عليا أن ترسم لي بورترية بعنوان «العاشقة الحزينة في مدينة الألم» أغراها حزني برسم ملامح لم تعهدها بي ولا بغيري من قبل، كما قالت. في البداية ظننت أنَّها تمزح، محاولةً إخراجي من حالة الحزن التي أعيشها. وعندما عرفت أنَّها جديَّةٌ فيما طلبت، رفضت طلبها بشدَّةٍ، لا أريد أن أملك لوحةً تذكِّرني طوال حياتي القادمة، بالأوضاع البائسة التي عشتها في هذه الفترة القاسية من حياتي. رويدًا رويدًا، وجدت نفسي لا أرغب في البقاء في البلد، بتُّ غريبةً عن المدينة وغريبةً عن ناسها وغريبةً عن نفسي. أوضاع البلد المتردِّية باستمرارٍ ليست محمولةً، الاشتباكات في كلِّ مكانٍ، اعتقال الناس كلَّ يومٍ، الغلاء يطحن الناس، والخوف يحطِّمهم ويحطِّم علاقاتهم مع بعضهم البعض. الوضع في بيتنا ليس محمولًا أيضًا، العائلة تتفكَّك أمامي ولا أملك أن أفعل شيئًا لمنع وصول ذلك إلى نهايته. تقلقني متاعب أمِّي، تحطُّم علاقتها مع أبي، ستذهب إلى الطلاق بعد قليل، هي تحاول أن تخفي عنَّا ما جرى ويجري بينهما وكأنَّنا ما زلنا أطفالًا سذَّجًا. هي لا تعرف أنَّنا نعرف كلَّ شيءٍ، وأنا وأختي نحاول إقناعها أنَّها تخدعنا ونصدِّق أنَّ أوضاعها والعائلة كما يرام. أصبح العمل بلا معنى، لأنَّنا أصبحنا أمام جيلٍ بلا مستقبل، عندما سألني أحمد طالبي المجد: «ليش بدنا ندرس يا آنسة؟»، أجبته: «منشان المستقبل»، سألني: «أي مستقبل يا آنسة؟ كإنك مو عايشة بالبلد!»، نظرت إليه طويلًا، هذا الشاب الذي سينهي عامه الأخير في الثانويَّة، وسيلتحق بالجامعة العام القادم، يقرأ تغيُّرات البلد التي تجري أمامنا، وأنا لا أرها، وما زلت أفكِّر بالأمور وكأنَّه لم يجرِ أيُّ شيءٍ في البلد، تكدح وتتعب الناس من أجل المستقبل. نعم كان سؤاله محقًّا وجارحًا: «أيُّ

مستقبل؟!»، أيُّ مستقبلٍ ونحن على بعد حوالي ثلاثة أعوامٍ من التدمير المتواصل في البلد، أيُّ مستقبلٍ في ظلِّ الانهيار في كلِّ شيءٍ، المنازل المدمَّرة، العائلات المشرَّدة، المفقودين، انهيار الأوضاع الاقتصاديَّة، رداءة الحالة الأمنيَّة، تراجع الدخول الفرديَّة، انهيار العمليَّة التعليميَّة وعشرات آلاف الطلاب الذين فقدوا دراستهم، كلُّ هذا يتوَّج بالانهيار الأخلاقي والقيمي. نعم لقد فتح السؤال عينيَّ على ما لا أرغب في رؤيته من قبل. ومع هذا السؤال انهارت ثقتي بعملي، ولم أعد أنظر إليه كما في السابق. أصبح كلُّ شيءٍ بلا معنى حتَّى حياتي.

بعد أشهرٍ عدَّةٍ من هرب فهد من الجيش إلى تركيا، حاول ترتيب حياته هناك، لقد وجد نفسه في مدينة غازي عنتاب في تركيا، وتزايد اللاجئون السوريون هناك، جعل البعض يحاول استئناف العملية التعليمية لأطفال اللاجئين هناك، وتعرف فهد على رجل افتتح ما يشبه المدرسة من أجل هؤلاء الأطفال، وقد استطاع أن يجد عملاً في هذا المكان المتواضع، ما حسَّن وضعه النفسي، بعد التنقل بين أعمال غير مناسبة لأشهرٍ عدَّةٍ. فقد رممّ العمل بالتعليم ثقته بنفسه، حتى أحاديثنا على الهاتف باتت مختلفة بعد حصوله على هذا العمل رغم كل المصاعب التي واجهها.

تناقشنا كثيرًا في الخيارات التي يمكن أن تجمعنا من جديدٍ. كان الخيار الأوَّل أن يستفيد من العفو الذي أصدرته السلطة عن الفارِّين من الجيش، فيعود إلى البلد من دون محاكمةٍ. لكنَّ مشكلة هذا الحلِّ أنَّه، سيعود إلى الخدمة العسكريَّة من جديدٍ، وسيعود إلى الوضع الذي هرب منه أصلًا، أو يعود إلى وضعٍ أسوأ من إمكانيَّة أن يصبح قاتلًا أو قتيلًا. لم يكن هذا الحلُّ مقبولًا، ولو قبل هو هذا الخيار، لن أقبله أنا، كنت سعيدةً بأنَّه أصبح في مكانٍ آمنٍ بعيدًا عن الدم الذي يسيل في البلد. الخيار الثاني، أن ألتحق به في تركيا، وهذا بدوره مقسومٌ إلى خيارين. الأوَّل، أن نبقى في تركيا، وأن نعمل في المؤسَّسات التعليميَّة السوريَّة المتزايدة في تركيا، لمساعدة أطفالنا

هناك، لأنَّ فهد ظنَّ أنَّ أمثالنا يمكن أن يصنعوا فرقًا في مثل الظروف الصعبة التي نمرُّ بها. الثاني، هي أنَّ ألتحق به في تركيا، لكنَّنا لا نبقى هناك، إنَّما ننتظر الفرصة، لنعبر بحر إيجة إلى الضفَّة اليونانيَّة، ومن هناك إلى أحد الدول الأوروبيَّة طلبًا للجوء، حيث أصبح هناك تسهيلاتٌ للسوريِّين للحصول على اللجوء في الدول الأوروبيَّة بعد الأوضاع المروِّعة التي تعيشها البلد. حسمنا أمرنا، بأن أذهب إلى تركيا، ومن هناك نغادر إلى دولةٍ أوروبيَّةٍ، لأنَّ تقدير فهد وتقديري كان أنَّ البلد لن تعود إلى ما كانت عليه قبل الأحداث، ولا حتَّى بعد عشرين عامًا، لذلك ليس لنا ما نفعله في البلد، لذلك قرَّرنا ترتيب تهريبنا إلى أوروبا حالما أصل.

في البداية عدَّت أمِّي أنَّ مغادرة البلد خطأً كبيرًا، لكنَّها بعد حين غيَّرت رأيها، فقد عرفت أنَّ المخاطر تأتي من كلِّ مكانٍ، وخافت على أخي أمين ابنها البكر من أن يكون في لحظةٍ ما في مكان اشتباكٍ أو مكان سقوط قذيفةٍ وتخسره. قرَّرت أن يغادر البلد، لم يكن يرغب بذلك، لأنَّه عدَّ ألَّا خطر عليه، فهو وحيدٌ وغير مهدَّد بالخدمة العسكريَّة، ورجلٌ بلا مشكلات. لكن بعد أن اعتقل أحمد صديقه المسالم عن طريق الخطأ، وقضى في السجن خاف على نفسه، وما من حاجةٍ إلى إلحاح أمِّي من أجل مغادرة البلد، لأنَّه بات مقتنعًا بذلك. اتفق مع مهرِّب يوصله إلى تركيا، ومن هناك عبر إلى اليونان وأكمل طريقه إلى ألمانيا. أمِّي دفعت التكاليف، وعندما سأل أمين أبي عن إمكانيَّة مساعدته في تكاليف السفر. اعتذر أبي وقال: «كنت بتمنى أعطيك كل المبلغ، بس أنت شايف الحال، أنا ما عندي مصاري»، لم نقتنع بأقواله، لأنَّنا كنَّا نعرف أنَّه يملك المال، لكنَّه يعتقد أنَّ أمِّي تملك الكثير من المال، فلتدفع هي وليوفِّر هو ماله إلى وقتٍ آخر. وهذا ما كان دفعت أمِّي التكاليف بلا تردُّدٍ. وعندما عرفت أمِّي أنَّ فهد هرب إلى تركيا وأنِّي أفكِّر في اللحاق به، لم تشجِّعني فحسب، بل أخذت تبحث لي عن طريقةٍ تعتقد أنَّها آمنةٌ لأغادر البلد. قالت: «ما تهمك التكاليف، رح أدبر

كل شيء»، قلت لها: «ماما ليش أنت مستعجلة، كأنك بدك تتخلصي مني؟»، نظرت إليَّ نظرةً اخترقتني وقالت: «الله يسامحك.. أنا بدي أخلص منك. أنا كل همي أشوفكم بأمان»، قلت: «ياهووووو. أخذتي الكلام جد.. بمزح معك ست الكل»، لم تهدأ أمِّي حتَّى تدبَّرت لي رحلة التهريب إلى تركيا. بعد زيارةٍ لعمَّتها بيان، عادت وقالت لي أنَّ عليَّ تجهيز نفسي للسفر. قلت: «شو القصة؟»، قالت: «كل القصة، أن عمَّتي بيان رايحة هي وولادها على تركيا عن طريق التهريب. وطلبت منها تأخذك معها، وهي وافقت. انتهت القصة»، قلت: «بتحكي جد»، قالت: «جد الجد. رح تمشوا الأسبوع الجاي. جهزي أمورك»، عندما أخبرت فهد بأنِّي قادمةٌ الأسبوع القادم، لم يصدِّق أنَّ الكابوس الذي عشناه على مدار أكثر من عامٍ ونصف سينتهي قريبًا.

قبل يوم من مغادرتي دمشق، شعرت بحزنٍ شديدٍ، لا أعرف من أين جاءني كلُّ هذا الحزن؟! ظننت أنِّي سأعاني مشاعر متناقضةً بين السعادة والحزن. السعادة لأنِّي سألتقي بفهد من جديدٍ بعد طول عذاب. والحزن لأنِّي أغادر دمشق. لكن هذا لم يحدث، كان شعوري حزنًا صافيًا، ولم يجعلني اللقاء القادم مع فهد سعيدة. عندما دقَّت الحقيقة، عرفت كم أحبُّ هذه المدينة وكم أنا مرتبطةٌ بها. ولم أكن أعرف ذلك قبل ذلك اليوم، ظننت أنَّها مكانٌ مثل أيِّ مكانٍ آخر في هذا العالم، فيها ما يُحبُّ وفيها ما لا يُطاق. تحوَّل حزني إلى قهرٍ، شعرت أنِّي مجبرةٌ على مغادرة المدينة التي أحبُّ، وهي حزينةٌ لألف سببٍ وسبب، وأنِّي أغادر من أحبُّ وهم يحتاجون إليّ. لم تعد دمشق كما كانت، أصبحت المدينة المجروحة أحبُّ إليّ من دون أن أنتبه. فكرت بالإقلاع عن فكرة السفر، لا شيء يجبرني على مغادرة المدينة. كانت عليا أخر شخص قابلته من غير أهلي. قلت ما عندي بلا حرجٍ، نظرت إليّ طويلًا قالت: «أنا بفهمك. بس هذا مش تفكير بالعقل، هدا تفكير بالعاطفة»، قلت: «صار وقت السفر، وأنا حاسة حالي مش قادرة

أعمل هيك، مش قادرة أروح»، قالت: «السؤال الأهم، شو رح تعملي هون؟! ما إنت شايفة البلد عب تنهار بسرعة رهيبة»، قلت: «بقدر أساعد بألف طريقة»، قالت: «هذا كلام نظري، إذا بقيتي بالبلد، بعد شوية، أنت اللي رح تحتاجي المساعدة، مش اللي أنت اللي رح تقدميها»، كان كلامها متشائمًا، ولم تكن هذه نبوءتها وحدها، كلُّ من فكَّر بوضع البلد على نحوٍ عقلانيٍّ، قال إنَّ البلد ذاهبةٌ باتجاه الأسوأ. ليست تقديراتهم المتشائمة، إنَّما تداعيات الواقع السريع هو ما يقول ذلك. الكثير من الذين كانت أوضاعهم وأعمالهم جيِّدةً. انهارت هذه الأعمال وتحوَّل أصحابها إلى محتاجين بسرعة البرق. دمَّرت الحرب أعمالهم وحياتهم بسرعةٍ رهيبةٍ، انتقلت من حياةٍ صاعدةٍ، إلى السقوط فجأةً في هاوية الإفلاس. بعد حديثي مع عليا، شعرت أن كلامي عن البقاء في دمشق، ترف ومبالغة غريبة، لأن الجميع يبحث عن طريق للخروج، وفي الوقت الذي توفرت لي الفرصة، بدأت أتحدث أحاديث شاعرية عن المكان والأحبة، وأقول الكلام الصادم لمن تأذى من الحرب ويسعى إلى الهرب بأي ثمن.

في صباح اليوم الموعود، كانت أغراضي جاهزةً في حقيبة ظهرٍ. ودَّعت أبي الذي تمنَّى لي رحلةً موفَّقةً. ورافقتني أمِّي وأختي نور إلى بيت عمَّتها بيان، حيث تجمَّعنا هناك. جاء الميكروباص ونزل منه السائق وهو رجلٌ في الخمسينيَّات من عمره، بشعرٍ كثيفٍ غزاه الشيب حتَّى آخره، يطلق لحيةً متوسِّطة الطول. عرَّف عن نفسه وقال: «السلام عليكم. أنا أبو نادر. إن شاء الله الرحلة تكون ميسَّرة. تفضلوا خلينا نمشي»، قلنا له: «أهلًا سهلًا»، وعرَّفته العمَّة بيان علينا. كان معه في الميكروباص أربعة ركَّابٍ، ونحن خمسةٌ، أنا والعمَّة وأولادها الثلاثة. سألت عمَّتي بيان السائق: «في ركَّاب ثانين؟» قال: «أنتو، والجماعة اللي بالميكروباص»، ودَّعت أمِّي وأختي، لم أرغب في البكاء، فقمت بذلك سريعًا، سمعت بكاء أمِّي، لكنِّي لم ألتفت، حتَّى لا أبدأ في البكاء أنا أيضًا. ودَّعت عمَّتها، التي ربَّتت على كتفها وقالت لأمي: «إن شاء

الله بنتك رح تكون بأمان»، عندما تحرَّك الميكروباص لوَّحت لهنَّ مودِّعةً، عندها شرعت في بكاءٍ صامتٍ.

بعد أن سار الميكروباص فينا، شرح أبو نادر مسار الرحلة التي ستعبر مناطق عدَّةً تسيطر عليها جماعاتٌ مختلفةٌ. قال: «رح سوق من هون حتَّى حماة، هالمنطقة بسيطر عليها الجيش، وكل الحواجز من هون لهناك، إمَّا حواجز جيش، أو مخابرات، أو لجان الدفاع الشعبي. وشو ما انحكى معكم من الحواجز لا حدا يرد عليهم. لأنُه في حواجز بتحاول استفزاز الركَّاب معي، لأنُه في منهم بعرفوا إنُه محمِّل ركَّاب هربانين لبرا البلد. وهدلون بحاولوا يستفزُّوكم على أساس إنكم جُبنا. بعملوا هيك مش لأنهم بحبُّوا البلد، بعملوه لأنون مو قادرين يهربوا ولا معهم مصاريف الهريبة. وبعد ما نفوت بالطرق الضيِّقة في ريف حماة، أوَّل منطقة رح نفوتها للجيش الحر، وهدلون رح يتفرَّجوا في الميكرو ويتفقَّدوا على خفيف. وبين حماة وإدلب، هاي منطقة داعش، وهدلون ما بهمهم غير الأواعي، النسوان يكونوا لابسات حجاب وكفوف ومغطيات وجوهن، والرجال مطولين ذقونهم وحالقين شوربهم، إنتو شباب رح تسمعوا كلمتين، مروقوهم مو مشكلة. ولما نوصل لشمال إدلب، بتكون سفرتي خلصت، وبتكونوا وصلتوا على حدود تركيا. بتمشوا شي خمسة كيلو بالجبل بتلاقوا حالكم صرتوا بتركيا، هناك بتلاقوا تكاسي بتستناكم، وهناك بترحوا وين ما بدكم. بس إنتو ما دامكم معي، لا تخافوا، ما حدا رح يعمل معكم شي، لانو دافعين للكل، منشان هيك الكل رح يمشينا»، كان يقول كلامه ولا ينتظر أيَّ مقاطعةٍ، مفترضًا أنَّ الجميع سيلتزم حرفيًّا بما قاله لنا، وهذا ما حدث بالفعل، وكأنَّه يعرف أنَّ كلَّ شخصٍ سيخوض هذه الرحلة لن يهمل أيَّ تفصيلٍ حتَّى لا تتعثَّر رحلته. وبالفعل سارت الرحلة كما قال أبو نادر حرفيًّا. عند بعض حواجز المخابرات. قال بعض المجنَّدين كلامًا جارحًا مثل: «في ناس بدها طخ. تاركة البلد للإرهابيِّين وهربانه»، «رجال آخر زمان هربانة من بلدها،

لأنُه شويِّة إرهابيِّين جاين يخربوا البلد»، يردُّ عليه آخر: «لا تقول رجال. هدلون نسوان مو رجال. الرجّال ما بترك بلدو للأعداء وبيهرب..»، عندما اقتربنا من مناطق داعش، لبسنا نحن النساء العباءات السوداء ووضعنا الحجاب على رأسنا، وعندما نقترب من الحاجز، نغطِّي وجوهنا ونلبس كفوف اليد. كنت أشعر نفسي غريبةً في الحجاب، شكلي مضحكٌ، وعندما أغطِّي وجهي أصبح مثل كيس الزبالة الأسود بلا ملامح ولا تفاصيل. رغم الخوف، رغبت بتوثيق هذه اللحظة فطلبت من طارق ابن العمَّة بيان التقاط صورٍ عدَّةٍ لي وأنا في الحجاب ومغطَّاةٌ بالكامل. وعند أوَّل حاجزٍ فتح شابٌّ ملتحٍ الباب. تفحَّصنا وقال لسعد ابن العمَّة بيان الكبير وبلغةٍ فصحى: «لماذا لا تطيل لحيتك وأنت الرجل الكبير؟ لا يجوز أن يكون الرجل حليقًا كالنساء. تحتاج إلى دروسٍ في الدين حتَّى تصبح مسلمًا حقيقيًّا. هل تعرف كم عدد ركعات صلاة الفجر؟» قال سعد: «أعرف» قال الملتحي: «كم هي؟»، قال سعد: «ركعتان فرض وركعتان سنة»، خاب أمل الملتحي من الجواب، لأنَّه ظنَّ أنَّ سعد لا يعرف، فهو سيستمرُّ في السخرية منه، أو يخضعه لدورةٍ دينيَّةٍ كما حصل مع العديدين الذين سألوهم أسئلةً دينيَّةً بسيطةً فلم يجيبوا عليها إجابةً صحيحةً، فخضعوا إلى دورةٍ دينيَّةٍ لأنَّهم على أرض «الدولة الإسلاميَّة»، حيث يجب على الجميع أن يكونوا مؤمنين. الغريب أنَّ الجميع كان يعرف أبو نادر، وفي الحاجز المركزيِّ لكلِّ منطقةٍ، يذهب أبو نادر ويعطي شيئًا ما للحاجز، أظنُّ هي حصَّة الحاجز أو المنطقة من عمليَّة التهريب، ونتابع رحلتنا. شاهدت أربع حواجز تأخذ حصَّتها، ودخل أبو نادر إلى غرف ثلاثة حواجز، ولا أعرف إذا ما وزَّع عليهم حصصهم. لم يتعرَّض أيٌّ من الرجال على الحواجز في مناطق السلطة أو المعارضة أو داعش لأبي نادر بأيِّ كلمةٍ سيِّئةٍ، كأنَّه يؤدِّي عملًا متفقًا عليه بين الجميع. باستثناء التعليقات السخيفة لحواجز النظام وداعش، سارت الرحلة بسلاسةٍ، حتَّى الحدود التركيَّة بالقرب من إدلب. عند الحدود

التركية، أوقف أبو نادر الميكروباص في بلدةٍ صغيرةٍ بالقرب من حارم لم أعرف اسمها. أطفأ المحرّك ونزل من الميكروباص، وقال: «الحمد لله على السلامة. أنا لهون بتنتهي مهمتي. انتو بتقطعوا هذا الجبل، بتمشوا شي خمسة كيلو، بتصيروا بتركيا» وأشار إلى الجبل المقابل لنا. نزلنا وتفقَّدنا أغراضنا، شكرنا أبا نادر الذي سرعان ما ركب الميكروباص، وقال: «لا تقطعوا الجبل بالنهار استنوا الليل. لأنُه إذا الجندرمة التركية مسكتكم بترجعكم»، لوَّح بيده وانطلق راجعًا. لم نثق بما قاله، ذهبنا إلى دكَّانٍ قريبةٍ تبيع المواد الغذائيَّة، وكان فيها رجلٌ في العقد السادس من عمره. ألقينا عليه السلام، اشترينا من عنده بعض البسكويت، وزجاجات الماء. سألته العمَّة بيان: «يا حج، صحيح، تركيا ورا هذا الجبل؟»، ابتسم الرجل وقال: «صحيح. بتمشوا سي ساعة، بتلاقو حالكم بتركيا. والسيَّارات بتستناكو بتأخذكوا على الريحانيَّة، ومنها بترحوا وين ما بدكم»، قالت: «في جندرمة تركية على الطريق؟» قال الرجل: «في، بس ما عبوقفوا حدا، بعملوا حالهم مش شايفين. منشان هيك الأفضل تروحوا بالليل»، العمَّة بيان: «في ناس مرَّت من هون على تركيا؟»، قال الرجل: «ياهووو.. صرلا سنة الناس رايحة جاي من هون. ومن غير هون»، طمأننا الرجل بأنَّ رحلتنا ستكون في غاية السهولة، في المكان ذاته، الذي ستطلق فيه الجندرمة التركية النار بعد عامين على كلِّ عابرٍ من هذه المنطقة، حيث أصبحت أخطر منطقة عبورٍ لتركيا، قُتِلَ فيها ما لا يقلُّ عن عشر أشخاصٍ وهم يحاولون العبور وجُرِحَ العشرات أو المئات، مع سياسة تركيا إغلاق الحدود بكلِّ الوسائل أمام تدفُّق اللاجئين السوريِّين. انتظرنا حتَّى حلَّ الظلام، وبدأنا السير في الطريق المظلم إلى الجهة الأخرى من الحدود، عبرنا الحدود نحن والعائلة الأخرى التي شاركتنا الميكروباص، والتي عرفنا في أثناء الرحلة أنَّهم عائلةٌ واحدةٌ. أمٌّ وشابَّان وشابَّةٌ. كانت المنطقة وعرةً لذلك أخذت منَّا أكثر من أربع ساعاتٍ، مشينا بتمهُّلٍ، لأنَّ العمَّة بيان تعاني من مشاكل في ركبتيها، وهي امرأةٌ

كبيرةٌ قد تجاوزت السبعين من عمرها. كنَّا نرتاح على الطريق كلَّما شعرت نفسها غير قادرةٍ على الاستمرار. عرض عليها أولادها أن يحملوها، لكنَّها رفضت، خوفًا من أن يؤثِّر وزنها سلبيًا وأن يصاب أحدهم بظهره، ويصبح غير قادرٍ على إكمال الرحلة. ما جعل الرحلة تمرُّ بسلامٍ أنَّنا لم نكن خائفين، ولم تكن المخاطر التي ظهرت في مرحلةٍ لاحقةٍ قد سادت على الحدود. وصلنا بعد منتصف الليل، رغم ذلك وجدنا سيَّارات تكسي تنتظر. نحن التسعة ركبنا ثلاث سيَّاراتٍ باتجاه مدينة الريحانيَّة.

اتصلت بفهد عندما قطعنا الحدود، حالما ردَّ على هاتفه المحمول قلت: «مرحبا. قطعنا الحدود. صرنا بتركيا»، قال: «الحمد لله على سلامتك. أنا مبسوط كثير»، قلت: «إحنا بطريقنا على الريحانية»، قال: «تمام، أنا جاي على الريحانية»، قلت: «ما في داعي، أنا باجي على غازي عنتاب»، قال: «أنت بتحكي جد؟! أنا مش مصدِّق إنِّك هون. ما رح أستنى حتَّى تصلي لغازي عنتاب»، قلت: «أنا معي عمَّة أمي وولادها التلاتة»، قال: «أهلًا وسهلًا فيكي وفيهم ومعك كل البلد»، عندما وصلنا إلى الريحانيَّة، أخذنا سائق التكسي إلى فندقٍ متواضعٍ. اتفقت مع العمَّة بيان أن نقضي الليلة فيه لنرتاح من السفر الطويل والمشي المتعب. عندما أصبحنا في الفندق، نزلت أنا والعمَّة بيان في الغرفة ذاتها. قلت للعمَّة بيان: «رفيقي جاي ياخذني من هون على غازي عنتاب، ما بعرف إذا بتحبي نبقى سوى، ولا عندكم خطط تانية؟»، قالت العمَّة: «ما عنَّا خطط محدَّدة. أنت بتعرفي إحنا رايحين على هولندا، بس ما حدا بيعرف شو رح يصير معُه بالطريق»، قلت: «وإحنا إلنا نفس الهدف. بتمنَّى نبقى مع بعض، ورفيقي بقلكم أهلا وسهلا»، قالت: «منيح كثير. خلينا نروح بكرة على غازي عنتاب».

رغم التعب الشديد الذي شعرت به، إلَّا أنِّي لم أعرف النوم بانتظار وصول فهد، الذي انطلق من غازي عنتاب ولم أعرف متى سيصل. احتاجت الطريق ثلاث ساعاتٍ لوصوله، وعندما رنَّ هاتفي المحمول، عرفت أنَّه

وصل، وقبل أن تصحو العمَّة بيان على رنين الهاتف، فصلت الاتصال وخرجت من الغرفة. نزلتُ درج الفندق من غرفتنا في الطابق الأوَّل إلى البهو وأنا في غاية التوتُّر. هناك في وسط البهو، وقف فهد ناظرًا إليَّ وأنا أنزل الدرج، مبتسمًا وفاتحًا ذراعيه. ركضت وألقيت بنفسي على صدره، وأخذت بالبكاء، كانت دموع الفرح، فأنا لم أشعر به منذ غادر فهد البلد، أصبح كلُّ شيءٍ مخلوطًا بطعم المرار. يومها شعرت بالفرح، تأمَّلت فهد الذي خسر بعض كيلوغراماتٍ من وزنه، إذ ظهر وجهه أكثر نُحفًا، تفقَّدت وجهه بأصابعي حتَّى أتأكَّد من أنِّي لا أحلم. رأيت السعادة في عينيه، لم يقل سوى كلمة: «بحبك» اجتاحت جسدي قشعريرةٌ لذيذةٌ، شعرت أنِّي لم أسمع هذه الكلمة الجميلة منذ دهرٍ. قلت: «هدا مش رح يغفرلك، أخذت عهد على نفسي إنِّي أضربك للي عملتُه فيني، ورح أنفذ هذا العهد» قال: «مش مهم، بتقدري تذبحيني، ورح كون مبسوط. اضربي قد ما بدك، أنا بستاهل عقابك» التقطت شفته السفلى وقبَّلته قبلةً طويلةً. لم أَحتَج إلى كلامٍ، كان الصمت وشعوري بجسده الساخن إلى جانبي يكفيني، ألتفتُّ إليه بين الحين والآخر لأتأكَّد أنَّه يجلس إلى جانبي ويعانقني وليس أحدًا آخر، وهو ما منحني شعورًا أقرب إلى الطيران.

بعد ساعاتٍ كنَّا وعائلة العمَّة بيان في الطريق إلى غازي عنتاب، أحد أصدقاء فهد تدبَّر منزلًا من أجل سكننا، وشرعنا مباشرةً نبحث عن طريقةٍ للعبور إلى اليونان. سمعنا الكثير عن طرق التهريب، وهذا الذي يعدنا بيخت خمس نجوم، وآخر بسفينةٍ بأسرَّةٍ فاخرةٍ، وهذا الذي يريد أن يأخذنا مباشرةً إلى إيطاليا وغيرهم من النصَّابين على هامش تجارة التهريب التي كانت رائجةً في تركيا. واقعيًّا كان هناك ثلاثة طرق أكيدةٍ، أوَّلها عن طريق الطيران مباشرة إلى مطار أوروبيٍّ، وهذه الطريقة مرتفعة الكلفة، لا نستطيعها أنا وفهد، الأخرى مركبٌ مهترئٌ يقضي أيامًا في البحر يصل إلى إيطاليا مباشرةً، وهناك خطر أن يفقد اتجاهه الصحيح والذهاب إلى مكانٍ

آخر، وهو ما سيحدث مع أمِّي وأختي نور بعد أشهرٍ. اللتان اختارتا هذا الطريق، ليجنح المركب بهما وتجدان أنفسهما عالقتين في قبرص غير قادرتين على فعل شيءٍ بدلًا من الوصول إلى إيطاليا. والطريق الثالث، هو عبور بحر إيجة بواسطة مركبٍ مطاطيٍّ إلى الجزر اليونانيَّة، وهناك خطر انفجار وغرق هذه المركب الرديئة، أو فشل محرِّكاتها في الاستمرار في العمل حتَّى الوصول إلى الجهة الأخرى من بحر إيجة، إذ تتعطَّل في وسط البحر، لكن في الأحوال جميعها، في الخيار الأخير ليس هناك من احتمالٍ للضياع، فإمَّا الوصول إلى اليونان، وإمَّا البقاء في تركيا والمحاولة مرَّةً أخرى. حسمنا أمرنا واخترنا هذا الطريق. أخبرت العمَّة بيان بأنَّنا قرَّرنا أن نسلك طريق القوارب المطاطيَّة إلى اليونان. قالت: «بصراحة إحنا ما قرَّرنا شيء، بس إحنا فينا نروح معكم على نفس الطريق؟»، قلت: «طبعًا، وهدا بسعدنا»، قلت لفهد أنَّ عائلة العمَّة بيان سترافقنا، قال: «أهلًا وسهلًا».

بدأنا البحث عن أفضل الطرق بأسعارٍ معقولةٍ، أجرينا اتصالاتنا مع المهرِّبين، وبعد أن اتفقنا على المبلغ الذي سندفعه، والطريقة التي سنقطع بها البحر. طلب منَّا المهرب أن نحضر إلى أزمير، وننتظر حتَّى يقول لنا ما هي الخطوة التالية. وكنَّا قد عرفنا أنَّ هناك نوعان من المراكب التي تقطع البحر، هناك الزوارق الكبيرة، وهناك القوارب المطاطيَّة. وقد اخترنا أن نذهب بالقوارب المطاطيَّة. حاول أولاد العمَّة بيان إقناعها بأن تركب المراكب الكبيرة وحدها، وهم يلحقون بها في المراكب المطاطيَّة، لكنَّها رفضت بشدَّةٍ، وقالت سنكون معًا في كلِّ خطوةٍ. اتفق فهد وسعد مع المهرِّب على أن يضعوا المبالغ أمانةً عند مكتب تحويل عملة، وهذا المكتب لن يعطي المبلغ للمهرِّب، إلَّا إذا اتصل أحدنا وقال إنَّنا وصلنا إلى اليونان. من جديد طلب منَّا المهرِّب الانتقال إلى بيدروم وهي البلدة التركية المقابلة لجزيرة كوس اليونانيَّة. احتاجت الرحلة منَّا ثلاث ساعات ونصف لنصل إليها. نزلنا في فندقٍ متواضعٍ، اشترينا معدَّات السفر، لا سيَّما ستر النجاة،

وغلَّفنا أوراقنا المهمَّة وجوازات سفرنا وشهاداتنا بالنايلون حتَّى لا يتسرَّب إليها الماء، كما غلَّفنا المبالغ الماليَّة التي معنا، وأخفيناها في أجسادنا، خوفًا من اللصوص. في المساء اتصل المهرِّب وقال تعالوا إلى نقطة التجمُّع، وأعطانا العنوان. ذهبنا إلى هناك بسيَّارتين، انتظرنا حوالي ساعتين. جاء وقال: «الرحلة التغت. رح ترجعوا، ورح نخبركم بموعد جديد»، سأل فهد: «ليش التغت الرحلة؟»، قال الرجل: «ما بعرف، مش أنا اللي بقرِّر إيمتى بتمشي الرحلة»، تكرَّرت الحالة مرَّتين. وعندها قرَّرنا إذا أُجِّلَ مرَّةً أخرى سنلغي الاتفاق مع هذا المهرِّب ونبحث عن آخر. في المرَّة الثالثة تجمعنا في نقطة التجمُّع. انتظرنا حوالي ساعة، جاء المهرِّب بثلاثة ميكروباصات، ركبنا فيها، وانطلقت باتجاه الشاطئ. وعلى الشاطئ كان هناك حوالي ستة ميكروباصات إضافيَّة، أي أنَّ العدد تجاوز الستين، في الوقت الذي اتفقنا مع المهرِّب على أن يكون العدد بحدود ثلاثين فقط. احتجَّ فهد، وقال للمهرِّب: «ما اتفقنا على هدا العدد»، قال المهرِّب: «شو يعني هذا الحكي؟»، قال فهد: «يعني ما رح نركب مع كل هاي الناس»، قال المهرِّب: «زي ما بدك، لا تركبوا، ما حدا جابركم. وأنا ما عندي وقت جادل حدا، لازم الزورق يمشي بسرعةٍ. إذا بدكم تروحوا على الجهة الثانية تفضلوا اركبوا، وإذا ما بدكم فيكو تروحوا من هون، وما تعطلونا»، قال فهد: «الاتفاق.. اتفاق»، ضحك الرجل وقال: «شايفك مش عارف مع مين بتتعامل، بس تتعامل مع المهربين، كل الحكي بتغير، روح على رحلة ثانية، رح تسمع كلام حلو، بس بالآخر، رح تلاقي الرحلة أسوأ من هاي. الكل بيوعد بيخوت فاخرة، بس بالنهاية كلو بركب بنفس البلم»، قال فهد: «أنت ما بتحكي متل المهربين!»، قال الرجل: «ومن قلك إنِّي مهرب. كس أخت الزمن اللي وصلني لهون»، أضاف: «خلصوني شو قررتو؟»، وانصرف عنَّا. في أثناء وقت الجدال كان الشبان الآخرين في المكان قد شرعوا في نفخ القارب بالهواء بجهاز نفخٍ يدويٍّ. وقفنا حائرين. سأل فهد: «شو رأيكم؟»، قال سعد: «شايف ما

قدامنا خيار ثاني. أحسن نركب معهم، ما بنعرف، شو وضع البلم الثاني، وواضح أنو كلو زي بعضو»، قالت العمَّة بيان: «اتكلوا على الله»، سألني فهد: «شو رأيك؟»، قلت: «وصلنا لهون، خلينا نكمل. أنا ما بحب الرجعة لورا»، ذهب فهد إلى المهرِّب وقال له: «قرَّرنا نركب»، قال المهرب: «معناه، روحوا وساعدوا الشباب بنفخ البلم»، انتظرنا أن ينتهي الشباب من نفخ القارب وهو ما احتاج منهم لأكثر من ساعتين. بحث المهرِّب بين الشباب عن شخصٍ يجيد أو يعرف قيادة المراكب المطاطيَّة، تبرَّع رجلٌ بذلك، ادعى أنَّه خدم في القوات البحريَّة السوريَّة قبل عشرين عامًا، وتعلَّم كيف يوجِّه القوارب المطاطيَّة. قال المهرِّب للرجل: «شايف الضو على الجهة التانية؟»، قال الرجل: «أي. شايفُه»، قال المهرِّب: «رح تظل سايق البلم حتى تصل لهناك»، كان المهرب مشغولًا أغلب الوقت في التحدُّث على الهاتف، وكان من الواضح أنَّه مجرَّد تابعٍ صغيرٍ لمهرِّبٍ كبيرٍ، يتلقى الأوامر وينفِّذها ليس أكثر.

عندما اكتمل نفخ القارب. صعد الأطفال والنساء أوَّلًا وجلسوا على أرض القارب، كما قال المهرِّب. أولاد العمَّة بيان وفهد حملوها من الرمال إلى القارب حتَّى لا تتبلَّل. حمل الرجال الأطفال وكانوا حوالي عشرة أطفال إلى القارب وتلاهم النساء. بعد ذلك ركب الرجال الذين توزَّعوا على محيط القارب. عندما صعد الجميع دفع المهرِّب واثنان معه القارب وقال للرجل الذي تبرَّع بتولِّي قيادة المركب: «شغل الموتور»، شغَّل الرجل الموتور وأخذ يوجِّه القارب الذي تمايل بالاتجاهين لكثافة الحمل، ما أدخل الجميع في موجةٍ من الخوف، الخوف من الماء، والخوف من الفشل في الوصول إلى الجهة الأخرى. كانت أنظارنا جميعًا معلَّقةً بالأضواء على الجهة المقابلة. سار القارب والأضواء ما تزال مكانها. بعد نصف ساعةٍ كان الوضع ما زال على حاله، لم نقترب من الأضواء أبدًا. انتهى الوقت المتوقَّع للرحلة، وهو ساعة لم نصل فيها إلى الطرف الأخر. خدعتنا الرؤية، لم يكن الشاطئ الآخر

على المقربة التي توقَّعناها كما صورتها الرؤية. كلَّما تأخَّر وصولنا زاد خوفنا، بعض الأطفال بدأوا بالبكاء، حاولت الأمهات تهدئة الأطفال من دون فائدةٍ، وبعد ذلك شرعت بعض النساء بالبكاء، وأخذ بعض الأزواج يتشاجرون بلا سببٍ. بعد ساعةٍ ونصف في البحر، تعطَّل المحرك، وتوقَّف القارب عن التحرُّك، وساد الظلام، وبعد صمت المحرِّك، أصبح بكاء الأطفال والنساء والمشاجرات قويًّا، ما بثَّ حالةً من الرعب بين ركَّاب القارب. حاول الرجل تشغيل المحرِّك من جديدٍ، لم ينجح. ما من خيارٍ، سوى الاستنجاد بحرس الحدود لإخراجنا من المأزق الذي نحن فيه، وكنَّا قد حصلنا على أرقام الهواتف اللازمة ضمن استعداداتنا للرحلة. لم نكن نعرف أين نحن، تمنَّيت كما تمنَّى الآخرون ودعوا ربَّهم أن نكون قد تجاوزنا الحدود الدوليَّة باتجاه اليونان، حتَّى لا نعود إلى تركيا، ونعود لمحاولةٍ أخرى. بادر فهد فورًا للتدخُّل قال بصوتٍ عالٍ: «شوية هدوء يا جماعة، رح أتصل بحرس الحدود اليوناني، لياخدونا من هون»، استمرَّ الضجيج. عاد وقال: «هيك ما رح نقدر نعمل شي، هدوا شوية حتى ما نغرق كلنا»، علت أصواتٌ عدَّةٌ من أمكان متعدِّدةٍ من القارب: «هدوء يا شباب» «هدوء يا شباب»، ساد بعض الهدوء، لكنَّ الأطفال استمروا بالبكاء. في هذا الوقت أخرج فهد هاتفه النقال من النايلون الذي لفَّه به وشغَّله. انتظرنا، وكلُّنا أملٌ أن يلتقط الهاتف الإشارة وألَّا نكون في منطقةٍ خارج التغطية ولا نستطيع الاتصال. عندما ربط الهاتف على الشبكة اليونانيَّة، ظهر الارتياح على وجه فهد في ضوء الهاتف المحمول الذي يضيء نصف وجهه في وسط العتمة. شرع فهد بمحاولة الاتصال على الأرقام التي بحوزته. في الوقت ذاته، أخرج سعد هاتفه وشغله، ليحدِّد الموقع الذي نحن فيه على الخريطة عبر تحديد المواقع على الهاتف المحمول، ليخبر فهد حرس الحدود بمكاننا تحديدًا حتَّى لا يتأخَّر وصولهم عندما يبحثون عنَّا. بعد محاولاتٍ عدَّةٍ أجاب الرقم اليوناني الذي يتصل به فهد. تحدَّث فهد مع متلقِّي الاتصال بالإنكليزيَّة.

وكنت أوَّل مرَّةٍ أسمع فهد يتحدَّث بها، ابتسمت في الظلام وكدت أضحك على طريقته بتحدُّث الانكليزية، رغم عيوبها استطاع إيصال ما يريد إلى الطرف الآخر. بعد انتهاء المكالمة قال فهد: «خفر السواحل جايين، وهم بطلبوا منكم تهدوا»، فعلًا ساد الهدوء، باستثناء بكاء الأطفال الذي يعطي صدًى موحشًا في ليل بحرٍ لا ينتهي إلَّا بأضواء كانت أبعد من أن نصل إليها. عندها شعرت بموج البحر، الذي يرفع القارب عاليًا ويعود للنزول. لم أنتبه إلى هذا عندما كان القارب يسير، كنت أظنُّ أنَّ ذلك يحدث بسبب سير القارب، مع وقوفه وسط الماء عرفت أن هذا يحدث بسبب الأمواج. بعد أن مرَّ حوالي نصف ساعة ولم يظهر أيُّ ضوءٍ لأيِّ مركبٍ لحرس الحدود، عاد الخوف يتصاعد من جديد، زاد عدد الأطفال الذين يبكون، كما عادت بعض النساء للبكاء من جديدٍ. كنت في حالةٍ غريبةٍ، فأنا لم أشعر بالخوف من تأخُّر حرس الحدود، ورغم مشهد الأمواج السوداء التي ترفع القارب بين الحين والآخر. راقبت كلَّ شيءٍ كأنِّي أشاهد فيلم رعب أنا خارجه، أو كأنِّي مخدَّرةٌ لدرجةٍ لا أدرك معها المخاطر التي نمرُّ بها. لم أمرَّ بمثل هذه الحالة من قبل في حياتي. في ضوء الهاتف المحمول شاهدت الخوف في عيون فهد في أثناء محاولاته الاتصال بخفر السواحل، كما شاهدته على وجه سعد وأخوته الذين ينظرون في هاتفه وهو يحاول تحديد موقعنا. الغريب أنَّ عدوى الخوف لم تصبني وكأنِّي لست معهم. كانت الساعتان اللتان انتظرناها حتَّى وصل حرس الحدود أطول من عامين في وسط الأمواج. ما إن شاهدنا أضواء زورق حرس الحدود الزرقاء من بعيدٍ، حتَّى تعالت الأصوات: «اجوا..» «اجوا..» «اجوا.» اقترب الزورق منَّا ببطءٍ شديدٍ حتَّى لا تتسبَّب الأمواج التي يصنعها الزورق في انقلاب قاربنا. ألقى رجلٌ من الزورق حبلًا وقال بإنكليزيَّةٍ ثقيلةٍ: «اربطوه» ترجم سعد الكلمة للرجال الذين يجلسون في مقدِّمة المركب، وقاموا بفعل ذلك. قطرنا زورق حرس

الحدود خلفه وسار ببطءٍ شديدٍ حتَّى الشاطئ الذي وصلناه والليل بدأ ينقشع، لنبدأ نهارًا جديدًا في اليونان.

وجدنا مئات اللاجئين على جزيرة كوس اليونانية التي قطرنا إليها حرس الحدود اليونانيِّ، وما إن عرف حرس الحدود والشرطة أنَّنا أنا وفهد وسعد وطارق نعرف الانكليزيَّة على نحوٍ جيِّدٍ أو ممتازٍ حتَّى استعانوا بنا للترجمة للآخرين لتسجيل بياناتهم لدى الشرطة اليونانيَّة. قضينا خمسة أيَّامٍ في الجزيرة ونحن نساعدهم، ومن المفارقات أنَّ الشرطة طلبت منَّا مرَّاتٍ عدَّةٍ أن نترجم لأشخاص معتقدين أنَّهم يتحدَّثون العربيَّة، وعندما نستمع إلى الشخص نعتذر، لأنَّ الشخص يتحدَّث إحدى اللغات الأفغانيَّة. نقلونا إلى أثينا بعد ذلك، ومن هناك بات علينا أن نتدبَّر رحلتنا باتجاه البلد الذي نستهدفه. في فترة الانتظار في تركيا، ومن خلال نقاشاتنا والاستفسار من أصدقائنا ومعارفنا الذين سبقونا، حول أيِّ البلدان أفضل بالنسبة لنا حتَّى نستهدفها في رحلتنا، توصَّلنا نحن والعمَّة بيان وأولادها إلى أنَّ هولندا أفضل مكانٍ نذهب إليه. لكنَّنا لا نستطيع الذهاب مجتمعين، لذلك كانت المحاولات فرديَّةً. حاول طارق الصعود مرَّتين إلى الطائرة من مطار أثينا بجواز سفرٍ مزيَّفٍ، في المرتين ألقي القبض عليه وأعيد عن سلم الطائرة. منذ وصلت إلى تركيا، قرَّرنا أنا وفهد أنَّنا لن نترك بعضنا طوال الطريق مهما كان الثمن، ولن يُجرِّب أحدنا لوحده طريقًا ما. لذلك كان هناك صعوبةٌ في أن نجد جوازي سفر مزيَّفين لنا معًا، والذين قالوا إنَّهم يستطيعون تدبير هذه الجوازات طلبوا مبالغ لسنا قادرين على دفعها. بعد محاولاتٍ عدَّةٍ، قرَّرنا الذهاب برًّا. في المرَّة الأولى حاولنا عن طريق مقدونيا، أمسكتنا الشرطة المقدونيَّة قبل دخولنا الحدود وأعادونا إلى اليونان. كانت محاولتنا الثانية عبر بلغاريا فهذه الدولة حدودها أطول مع اليونان، ويمكن اجتيازها بسهولةٍ أكبر من الحدود المقدونيَّة، وقد استطعنا تجاوز الحدود والذهاب إلى صوفيا لنبحث من هناك عن طريقٍ، قضينا يومين في العاصمة البلغاريَّة،

وتابعنا مسيرتنا باتجاه رومانيا، كان اللاجئون يسيرون جماعاتٍ على الطرقات، وهذا ما جعل إمكانيَّة التعرُّف عليهم سهلًا، لا سيَّما إذا كان بينهم نساء محجَّباتٍ، إذ يسهل التعرُّف عليهم من بعيد. وما زاد من صعوبة رحلتهم، أنَّهم لا يتحدَّثون غير العربيَّة، ما جعل تفاهمهم مع السكَّان المحليِّين مستحيلًا. الرحلة أسهل عندما تكون النساء حاسرات الرأس وفاتحات البشرة، وإذا قمن بصبغ شعرهن باللون الأشقر، تصبح المهمَّة أكثر سهولةً، وهذا ما فعلته أنا. الكثير من المحجَّبات نزعن حجابهن خلال الطريق، بعضهنَّ عاد ووضعه على رأسه بعد الوصول، وأخريات أعجبهنَّ أن يبقين حاسراتٍ، ولم تعدن تعانين من الضغوط الاجتماعيَّة التي فرضت عليهم الحجاب في البلد، فعدن إليه عندما وصلن إلى البلد التي يرغبن الوصول إليه. وهذا ما خلق مشكلات كبيرةً بين الأزواج، الرجال الذين يريدون الحفاظ على حياةٍ شرقيَّةٍ في البلدان الأوروبيَّة، وكأنَّ شيئًا لم يحدث خلال الحرب وبالانتقال إلى دولةٍ أوروبيَّةٍ. والنساء اللواتي يردن التحرُّر من القيود الاجتماعيَّة الكثيرة التي لم تكن تجعلهنَّ قادراتٍ على التصرُّف بحريَّتهن، فوجدن فرصةً للتحرُّر من أعباء ثقيلةٍ كنَّ يحملنها في مجتمعهنَّ. طبعًا، هناك الكثير من الرجال والنساء استمرُّوا في العيش كما كانوا يعيشون في دمشق وريفها أو حلب أو حمص أو الرقة. أنا وفهد تجنَّبنا تجمُّعات اللاجئين في مسارنا، حتَّى لا يُلقى القبض علينا وتتعطَّل مسيرتنا لأسابيع على الأقل، أو إعادتنا من حيث أتينا. عندما كنَّا نسأل السكَّان المحليِّين عن شيءٍ ما، لم يكونوا متعاونين معنا فحسب، بل وجدنا الشباب في بلغاريا ورومانيا والمجر متعطِّشين للحديث بالإنكليزيَّة أيضًا. ومن خلال الحديث كانوا يعتقدون أنَّنا قادمون من إسبانيا، هكذا كانت توحي ملامحنا كما قالوا. خلال الطريق في بلغاريا ورومانيا والمجر كنَّا خائفين من إلقاء القبض علينا، وجعلنا نبصم، ما يعني وفق اتفاقية دبلن، يجب إعادتنا إلى الدولة التي بصمنا فيها، هذا ما كنَّا نعرفه قبل مغادرتنا تركيا. أمَّا بعد

دخولنا النمسا، تراجع خوفنا من البصمة، لأنَّ وصولنا إلى النمسا وفي حال بصمنا في هذا البلد أو ألمانيا التي تلي النمسا في مسيرتنا باتجاه هولندا، فهذا يعني أنَّنا سنعاد إليها، وشروط اللجوء في الدولتين، شروطٌ جيِّدةٌ جدًّا مقارنةً بالمجر أو رومانيا أو بلغاريا. لذلك تنفَّسنا الصعداء عندما قطعنا الحدود المجريَّة النمساويَّة، ومن النمسا وصولًا إلى هولندا، لم نشعر أنَّنا ننتقل من بلدٍ إلى آخر.

أخيرًا، بعد الرحلة التي استغرقت منَّا عشرة أيَّامٍ وجدنا أنفسنا، نسلِّم أنفسنا إلى الشرطة الهولنديَّة في أمستردام، الذين حقَّقوا تحقيقًا أوَّليًا معنا، ولم نواجه صعوباتٍ، ولم نحتج إلى مترجمٍ، حتَّى لا نتأخَّر طلبنا أن نجري التحقيق بالإنكليزية فوافق المحقِّق. وبعد انتهاء تحقيق الشرطة، طُلِبَ منَّا الذهاب إلى مخيَّم كامب تير أبل للاجئين في مدينة ايمتين شرق البلاد. أعطتنا الشرطة بطاقاتٍ لركوب القطار وخريطةً لموقع المخيَّم، يدلُّنا على كيفيَّة الوصول إلى هناك. في المخيَّم أبلغنا المشرفين عليه أنَّنا زوجين، لذلك أعطونا غرفةً واحدةً، وخلال الأيَّام التالية أجرينا الفحوص الطبيَّة وقابلنا المحامي الذي عُيِّنَ لنا وقرأ علينا أقوالنا أمام الشرطة، وقلنا له أنَّها صحيحةٌ. وقال: «عليكم انتظار موعد التحقيق بعد يومين»، وفعلًا كان ذلك، استجوبنا محقِّقٌ من إدارة خدمة الهجرة والتجنس (IND) سألني: «كيف وصلتي إلى هولندا؟»، و«ما الذي دفعك لمغادرة سورية؟»، وغيرها من الأسئلة التي أجبت عليها كلَّها. انتظرنا قرارًا من (IND) الذي جاء بعد ثلاثة أشهرٍ بمنحنا الإقامة في هولندا. وبعدها بدأنا نرتِّب أوضاعنا، بالبحث عن بيتٍ مستقلٍّ، والبدء بدراسة اللغة الهولنديَّة، وبتأسيس عائلةٍ جديدةٍ.

خفت من تجربة العيش مع فهد، فأنا أعرف الكثير من علاقات الحبِّ فقدت بريقها وتلاشى الحبُّ بسرعةٍ البرق بعد الزواج مباشرةً. كأنَّ العيش معًا هو دعوةٌ للطرفين لاكتشاف عيوب الآخر، ممَّا يدفع إلى التباعد بعد أن كان الطرفان يعتقدان أنَّهما لا يستغنيان عن بعضهما. طبعًا لم يكن لديَّ

أوهام المراهقات عن العيش في الحبِّ فقط ولا شيءً آخر. كنت أدرك أنَّ العلاقة ستتغيَّر بيننا بعد العيش المشترك. وهذا ما كان، لكن لم يكن بالسوء الذي تصوَّرت، وكان هناك أساسًا قويًّا لعلاقتي مع فهد تتجاوز المشاعر على أهميَّتها، اكتشفت أنَّنا نشبه بعضنا أكثر ممَّا أتصوَّر، ليس من ناحية الشكل طبعًا، لكن من ناحية المضامين العميقة للمسائل، حتَّى التي لا نتناقش فيها، طبعًا هذا لم يجعل الحياة سهلةً، لأنَّنا كثيرًا ما نختلف، لكنَّ هذا الخلاف المستمرَّ لم يهزَّ الثقة بيننا وهذا ما أبقى الاحترام سائدًا بيننا، ما جعل الخلاف بيننا متعبًا وممتعًا في الوقت ذاته. احترم فهد وقدَّر تضحيتي بالزواج منه، رغم أنِّي لم أَلمِّح يومًا إلى أنَّ ما قمت به تضحيةٌ، بقدر ما كنت أتحدَّث عنه بوصفه خياري الشخصيَّ، ليس من حقِّ أحدٍ أن يمنعني من اختيار شريك حياتي. كلُّ هذا عزَّز الشراكة بيننا ودفعنا لإنجاب طفل الحبِّ، وهكذا أنجبنا ابننا لورانس. فعلنا ذلك بعد تحسَّنت أوضاعنا، تقدَّمنا في تعلم اللغة، وعملنا بعملٍ يقارب عملنا في سورية. إذ وجدنا عملًا في مساعدة أطفال اللاجئين لتأهيلهم للدخول للمدارس الهولنديَّة. فهد يساعد فيما يعرفه كمدرِّس رياضيات سابقٍ، وأنا كمدرِّسة لغة انكليزيَّةٍ سابقة. كنَّا نعمل في مدرستين مختلفتين. هذا الوضع سمح لفهد بمساعدة أهله ماليًّا في ظلِّ التردِّي المستمرِّ للأوضاع الماليَّة للناس في سورية. كما سمح لي بإرسال بعض المال لأختي نور. وأحيانًا أشترك أنا وفهد في مساعدة أحد أصدقائنا أو صديقاتنا الباقين في دمشق، لا سيَّما في الحالات الطبيَّة الطارئة، وإذا كانت المبالغ كبيرةً، نستعين بأصدقاء آخرين وصلوا لأوروبا وأوضاعهم جيِّدةٌ للمساعدة بقدر ما يستطيعون.

لم تكن تجربتنا في هولندا سهلةً، فليس من السهل الانتقال من مجتمعٍ نعرفه جيِّدًا إلى مجتمعٍ لا نعرف شيئًا عنه، وأن نخسر كلَّ صداقاتنا وعلاقاتنا الجميلة ونأتي هنا بلا أصدقاء أو أقارب أو معارف. والأسوأ أنَّ الذين تعرَّفنا عليهم من السوريِّين أو الفلسطينيِّين في هولندا في مرحلة

المخيَّم أو فيما بعدها. هم أناسٌ لا نعرفهم، كأنَّهم قادمون من بلدٍ غير تلك التي أتينا نحن منها. لم نستطع أن نقيم أيَّ علاقةٍ جديَّةٍ معهم، وكانت علاقتنا محلَّ تساؤلٌ من الجميع عندما عرفوا أنِّي مسلمةٌ، ودُهِشُوا، ولا أعرف من أين جاءت هذه الدهشة، هل لأنِّي لا أضع الحجاب، أم أنَّ شكلي أوحى لهم أنِّي مسيحيَّةٌ! وعرفوا أنَّ فهد درزي، وأخذوا يتساءلون هل هذا الزواج شرعيٌّ، طبعًا الشرعيُّ بالنسبة لهم، ليس بالنسبة إلى القوانين الهولنديَّة، بل شرعيُّ بالنسبة لأحكام الدين الإسلاميِّ. طبعًا، لم يسألنا أحد مباشرةً عن هذا، كنَّا نقرأ التساؤل بعيونهم. استطعنا إقامة علاقاتٍ جميلةً مع بعض الهولنديِّين، لكنَّها افتقرت إلى العمق الذي اتسمت بها علاقات الصداقة التي أقمناها في دمشق.

تحوُّلي إلى أمٍّ، تجربةٌ أخافتني وسحرتني. لا أعرف لماذا لم يخطر لي سابقًا، أن أضع تصوُّرًا كيف يمكن لي أن أكون أمًّا وأيُّ أمٍّ؟ لم تخطر فكرة الإنجاب على بالي، لأنِّي ظننت أنَّ الوقت غير مناسبٍ. تغيَّر كلُّ هذا عندما اقترح فهد الفكرة. أنا مثل كلِّ النساء أحتاج أن أكون أمًّا بدافع الغريزة، أمَّا تصوُّر كيف أكون الأمَّ، هذا ما افتقدته، وهذا ما بات ملحًّا التفكير فيه بعد اقتراح فهد أن ننجب «طفل الحبِّ والمنفى»، سألت نفسي، لماذا لا؟ ما الذي يعوقنا عن ذلك؟ لن نخاف على مستقبله هنا، كما كان يمكن أن نخاف على مستقبله في دمشق. لم أتردَّد، وافقت فورًا. بدأنا التحضير لخوض التجربة، وبدأت القراءة حول الموضوع، ما أحتاجه وما لا أحتاجه. أيُّ الطعام أفضل حتَّى يأتي بصحَّةٍ جديدةٍ، وأيُّ الفيتامينات عليَّ تناولها من أجله، وما الذي عليَّ فعله حتَّى لا يتحوَّل شكلي بعد الولادة إلى حالة السمنة أو الترهُّل وهذا ما كان يرعبني. أمشي أم أستريح من أجل صحَّته... الخ. بعد أوَّل اختبار حملٍ جاءت النتيجة ايجابيَّةً، كانت مشاعري متناقضةً، سعيدةٌ لأنِّي حامل لحياةٍ أخرى تنمو بداخلي، والخوف من المصائر التالية، لي ولهذا الجنين الذي سيأتي إلى الحياة بعد أشهرٍ. بدأت التغيُّرات عندي قبل أن

يظهر عليَّ الحمل. اختلفت عاداتي في الطعام، أصبحت جائعةً طوال الوقت، رغم ذلك لا رغبة في الأكل، وعندما آكل سرعان ما أتقيَّأ. جسدي ليس لي، هناك ما يجري فيه ولا أعرفه، أشعر بالتعب والدوران. أصبحت أشتمُّ روائح لم أكن أشتمُّها من قبل. شعرت بالنفور من الكثير من الأشياء، لم أكن أطيق أن يلمسني فهد أو يقترب منِّي، ولست قادرةً على النوم إلى جانبه، فأصبح ينام على الأريكة في الصالة، تاركًا لي الغرفة كلَّها وليس السرير فقط، مُقدِّرًا للظرف الذي أمرُّ به. تحوَّلت إلى عصبيَّةٍ بمزاجٍ عكرٍ، أحاول ضبط نفسي طوال وقت العمل، أنجح بصعوبةٍ، لكن ليس دائمًا. لم أعد قادرةً على احتمال أيِّ شيءٍ في البيت. في الشهر الرابع من الحمل، بدأ بطني بالانتفاخ وزاد وزني أكثر من خمسة كيلوغرام. وبعدها أخذ وزني يزداد بسرعةٍ، وتضخَّمت قدماي، لأنِّي أصبت بالزلال، صرت أصاب بالرعب كلَّما نظرت إليهما، وبدل أن أتوقَّف عن النظر إليهما، أصبحت أحدِّق بهما لوقتٍ طويلٍ. أضع أصبعي على بطَّة رجلي، أضغطه فيشكِّل حفرةً صفراء، تحتاج إلى ثوانٍ لتعود كما كانت. انشغلت جدًّا بأقدامي، رغم أنِّي كنت أعرف ما قاله الطبيب، أنَّها ستزول بعد الولادة. وفي الشهر السادس أخذ الجنين يحتجُّ داخل بطني بالرفس على جدران الرحم. وفهد يحبُّ أن يستفزَّه يضغط عليه في بطني فيقوم هو بالرفس، حينها يشعر فهد بالسعادة، التي لم أشاهدها عليه من قبل. في الأيَّام القليلة السابقة على الولادة، شعرت بتعبٍ شديدٍ وخوفٍ من الولادة. وعندما حان موعدها كنت في غاية الرعب، ولم أكن أتصوَّر هول الولادة وآلامها. وكنت قرَّرت مسبقًا، أنِّي سأتحمَّلها مهما بلغ حجمها، حتَّى لا أضطر لأنجب ابني عبر عمليَّةٍ قيصريَّةٍ، ما يعني جرحًا كبيرًا في بطني ستبقى أثاره تشوِّه المكان. وقتها لم أعلم أنَّ آلام الولادة بهذه الشدَّة، مغصٌ هائلٌ، تشنُّجٌ مرعبٌ، صراخي وصل للسماء، لم أكن قادرةً على تحمُّل الألم، قلت لهم في المشفى وأنا أصرخ: «مش قادرة أتحمَّل، خلصوني، أعملوا قيصرية، رح موت»، لم يفهموا ما

أقول، وكانوا يقولون بالهولندية: «انتظري قليلًا»، وشعرت أنَّ الوقت الذي انتظرته طويلًا جدًّا مصحوبًا بألمٍ لا ينتهي، ولا أسمع سوى الأمر: «عليك أن تضغطي أكثر»، كنت أصرخ وأنا أكزُّ على أسناني، فيخرج صراخي أنينًا، أشدُّ بكلِّ قوَّةٍ أريد إخراج الجنين لأنتهي من هذا الوضع الذي لا يحتمل، وفي الشدِّ الأخير، شعرت أنِّي أخرج الدنيا كلَّها من بطني. ما إن خرج، حتَّى سقطت جثَّةً خائرة القوى، غبت عن الوعي لبعض الوقت، لا أعرف كم طال. بعد استراحةٍ قصيرةٍ، شعرت أنَّ كلَّ عضلات جسدي تؤلمني، انتهيت من الألم المرعب الذي كنت أشعر به، لكن هذا الألم قد توزَّع على كلِّ عضلةٍ من عضلات جسدي التي استخدمتها في الشدِّ الرهيب الذي قمت به من أجل إخراج الجنين من جوفي. عندما أحضروه لي، شعرت بفرحةٍ غامرةٍ رغم التعب الهائل الذي أصابني. لم أصدِّق أنِّي أنجبت هذا الكائن الصغير وصنعت حياةً جديدةً في هذا العالم. كنت سعيدةً ومتعبةً، وقتها قرَّرت أنِّي لن أعيد الكرَّة مرَّةً أخرى ولن أنجب ولدًا آخر مهما كانت الظروف، لن أتحمَّل هذا الألم الرهيب مرَّةً أخرى.

بعد ولادة لورانس، رغب فهد في تسجيل ابننا في سجل النفوس في سورية، وكما قال لي: «رح حاول أنُه يبقى ابني سوري، منشان هيك، لازم أسجله بالقيود السورية»، قلت: «أكيد حبيبي، من حقه أنُه ينتمي للمكان اللي إجا منُه أبوه وأمُه، ومن حقُه يرفض بس يكبر. إحنا بنعمل اللي علينا حتى يبقى على صلة مع البلد»، لم أكن أجامل فهد فيما قلت، كنت أظنُّ أنَّ سوريَّة أبوه وفلسطينيَّتي يجب أن تكونا جزءًا من هوية لورانس طبعًا، إضافةً إلى هولنديَّته التي سيكتسبها من إقامته في المكان. وإذا كانت هذه الأخيرة محكومةً بعيشه في هولندا، فإنَّ المسائل الأخرى تحتاج إلى جهودٍ منَّا، وهذا سيكون نجاحنا أو فشلنا. عندما اتصل فهد بوالده من أجل تسجيل الولد في سورية بناء على أوراق ولادته الهولندية. ارتبك والده واخذ يتكلَّم كلامًا غير مفهومٍ على وضع فهد الرسميِّ في سورية ومشكلة هربه

من الجيش، من دون أن يفهم ما الذي يقصده والده بالضبط. لم يكن أمامه سوى الاتصال بأمِّه حتَّى يفهم الموضوع، عندما سأل أمَّه عن الموضوع قالت: «أبوك ما قدر يخبرك، هو خجلان من اللي عملُه. بس هو كان مجبور يعمل هيك»، سأل فهد أمَّه: «شو الموضوع؟»، قالت: «ما بعرف شو بدِّي قلك، رح قلك إياها مثل ما هي، أنت بالسجلات هون ميت»، لم يفهم فهد ما الذي قالته أمُّه فقال: «شو يعني هدا؟»، قالت: «هادا يعني إنك ما بتقدر تسجل ابنك هون لأنك ميت زي ما بتقول السجلات»، صرخ فهد: «شو بتقولي؟! أنا ميت عندكم. هدا اللي اعطتنوني إياه بالآخر؟!»، قالت: «اسمعني...»، قال: «ما بدي أسمع شي»، وأغلق الهاتف. نظر إليَّ بعيونٍ تائهةٍ وقال: «أنا ميت يا حنان. أهلي موتوني ما عدت موجود بالسجلات بسورية. أنا ميت... أنا ميت»، قمت من مكاني وسرت باتجاهه، احتضنته وقلت له: «طول بالك. أنت حي ترزق. ما في داعي لتزعج حالك»، قال: «يا ليتني مت عن جد، قبل أن أسمع هدا الخبر»، دفن رأسه في صدري وأخذ يبكي كالأطفال. قلت: «اهدا. لازم تعرف شو صار قبل ما تحكم على الأشياء. وتعرف ليش عملوا هيك؟»، قال: «ما بدي أعرف شي... ما بدي أعرف شي...»، قلت: «ما مشكلة، زي ما بدك»، كنت أفهم انفعال فهد، بالمقابل كنت متأكِّدةً أنَّ سببًا قويًّا دفع أهله ليُقدِمُوا على مثل هكذا فعل ويخفونه عن فهد. بعد أيَّامٍ حاولت أن أدفع فهد للاتصال بأمِّه، التي لم يتوقَّف عن الاتصال اليومي بها إلَّا في الحالات الاضطراريَّة. حاولت مرَّاتٍ عدَّةً من دون أن أنجح بذلك. كان يغضب عندما أطلب منه ذلك. بادرت أنا للاتصال بأمِّه لأعرف ماذا حدث؟ عندما تحدَّثت إليها، وحكت لي ما جرى، شعرت أنَّ هذه المرأة التي لم يكسرها الزمن القاسي، بدت مكسورةً هذه المرة، فقد غاب الفرح والسخرية عن صوتها، إنَّها لم تستطع الدفاع عن فهد وحمايته هذه المرة. عندما سمعت القصة كاملةً قلت لها: «لا تهتمي يا أمِّي. ما تلومي حالك، وما لازم حدا يلوم حالُه عندكو. أنا بفهم

اللي صار، وما رح تكوني غير راضية»، كانت تبكي وتقول لي: «أنا خايفه عليه. ما كان بدي آذيه أبدًا»، قلت: «بعرف. وأنت ما آذتيه. الظروف آذتنا كلنا»، لم أستطع ترك فهد بالحالة التي هو عليها، ولم أستطع أن أترك أمَّه وأهله يشعرون أنَّهم أذنبوا بحقِّه.

شعرت بأمِّ فهد تمامًا، وكنت أتصوَّر أن يحدث هذا الموقف بيني وبين لورانس بعد ربع قرنٍ، كم سيكون مؤلـمًا أن يظلمني من هو أحبُّ إليَّ في هذا العالم. في المساء. قلت لفهد: «لازم نحكي بموضوع أهلك»، قال: «ما بدي أحكي بالموضوع»، قلت: «أنا حكيت مع أمك وفهمت شو صار»، قال غاضبًا: «مين سمح لك تتصلي بأمِّي؟ وحتى لو اتصلتي وعرفتي أنا ما بدي أعرف»، قلت: «أوَّلًا، أنا مش محتاجة إذنك لما بدي أحكي مع حدا. ثانيًا، مو بكيفك تسمع ولا لأ. لازم تسمع أوَّل وبعدين بتحكم زي ما بدك، وإزعل من مين ما بدك»، قال وهو يصرخ: «ما بدي أسمع شي»، صرخت أعلى منه وقلت: «وأنا ما رح أسمح لهادا الموضوع يدمر حياتك وحياتنا»، قال: «وأنت شو علاقتك بالموضوع؟»، قلت: «أنت بتسأل جد ولا بتسخر مني؟»، قال: «شو المطلوب؟» قلت: «المطلوب تسمعني من دون مقاطعة، وبعد هيك إلك حرية التصرف»، قال: «حاضر يا ستي. تفضلي»، قلت: «إسمع فهد. كل ما مر وقت أطول على طلعتنا من الشام، بننسى من وين إحنا إجينا»، قال: «شو إلُه طعمة هالحكي؟»، قلت: «خليني أنهي كلامي وبعدين قول اللي بدك إياه»، قال بنرفزة: «تفضلي»، قلت: «بقول هذا الحكي، لأن أهلك ما حبوا يخبروك بالمصايب اللي صارت عندهم، لأنهم خافوا على مشاعرك، وحتى وهني بذوقوا الأمرين. وبس كنت تسألهم كيف حالكم؟ كانوا بقولوا إحنا بألف خير. حتى عند ما كان الأمن بيقلب البيت فوقاني تحتاني. ما حبوا تخاف عليهم، حتى عند ما حول الأمن والشبيحة حياتهم لجحيم بسبب هربك من الجيش، واعتبروك خاين. أنت بتعرف أكثر مني شبيحة السويدا ووساختهم. ما كان في قدام أهلك خيار

غير إنك تموت بالسجلات حتى يحموا أخواتك من خطر الأمن والشبيحة، وهادا الشي ما عملوه أهلك لحالهم، كثير من أهالي المنشقين عن الجيش عملوا هيك حتى يتجنبوا إجرام النظام والشبيحة. معاملة وفاتك كان طريق الخلاص من الجحيم اللي عايشين فيه، إنت رأيك غلطوا لما عملوا هيك؟!»، قال: «كان لازم يخبروني قبل ما يعملوا هيك»، وكانت لهجة الغضب قد تراجعت في كلامه. قلت: «يمكن غلطوا لأنهم ما خبروك، بس أنت بتعرف أي ظروف بتمر فيها البلد بالسنين الأخيرة، وحجم الأذى الهائل اللي بتعرضوا إلُه أهالي المنشقين عن الجيش»، قال: «بعرف، بس أصير ميت هذا كثير! مش قادر أتحمل الفكرة»، قلت: «فهد. كبر عقلك، وفكر في ظروفهم. أهلك ما بدهم موتك، أنت بتعرف هادا منيح. بس عندهم ولاد تانين بدهم يحموهم، لا تكون أناني، أي واحد بالبلد اليوم بعمل أي شي منشان يحمي ولادو من ملاحقة الأمن. وأنت برة البلد وما عليك خطر»، تغيَّرت تعبيرات وجهه ما عنى أنَّ المشكلة قد حُلَّت. لأنَّه لا يريد الاعتراف مباشرةً بخطأ ردِّ فعله، تركنا الموضوع، لأجد فهد بعد يومين يتصل بأمِّه ويعتذر منها ومن أبوه على الألم والإزعاج والملاحقات التي تعرَّضوا لها بسببه، ولامهم على أنَّهم أخفوا عنه ألمهم وهو واحدٌ منهم. بحث أبوه عن وسيلةٍ لتسجيل الولد إرضاءً لفهد، وكانت الوسيلة الوحيدة أن يسجَّل الولد بعد وفاته بأشهرٍ عدَّةٍ، هذا ما تطلَّب أن يصبح لورانس أكبر بعامين في السجلَّات السورية عنها في السجلات الهولنديَّة. وافق فهد على هذا التسجيل، ليس من أجل الحفاظ على الهوية السوريَّة لابننا كما كان يريد، لكن من أجل تسجيل أيَّ مفارقةٍ وأيَّ رعبٍ مرَّ به البلد الذي أتينا منه. وكان يقول ساخرًا: «أنا الميت بساعد أهلي بموتي أكثر من لو كنت حي. آه يا بلد».

قلقت على أمِّي وأختي منذ اللحظة التي قرَّرتا فيها اللحاق بنا في أوروبا. كنت خائفةً من كثيرٍ من الاحتمالات، ولم يكن أحدٌ هذه

الاحتمالات، أن أجدهما عالقتين في جزيرة قبرص بعد جنوح مركب التهريب الذي من المفترض أن يقلَّهم إلى إيطاليا. هناك انتهت بهم الرحلة، لأنَّ قبرص جزيرةٌ لا تؤدِّي إلى مكانٍ آخر، قضوا هناك عامًا ونصف من محاولات الهرب العبثيَّة إلى أوروبا. أخيرًا، استسلمت أمِّي وعادت هي وأختي إلى دمشق. هناك أصاب الاكتئاب أختي نور، ولم تكن قادرة على احتمال البلد الذي تتردَّى أوضاعه بسرعةٍ. انتظرت أشهرٍ عدَّةٍ لتعيد المحاولة مرَّةً أخرى عن طريق تركيا واليونان في موجة الهجرة الكبيرة التي فتحت فيها أوروبا أبوابها أمام اللاجئين. سعدت بوصولها إلى بيتي بعد رحلةٍ سهلةٍ بالقياس إلى الرحلات التي خاضوها سابقًا الذين جاءوا عبر طرقٍ مختلفةٍ إلى أوروبا وذهبوا إلى بلدانٍ مختلفةٍ وفق خياراتهم، أو وجدوا أنفسهم مجبرين على البقاء في البلد التي أخذت بصمتهم، أو حاولوا الذهاب إلى بلدٍ آخر، لكن أعادوهم إلى بلدان البصمة رغمًا عنهم، وفق اتفاقيَّة دبلن بين الدول الأوروبيَّة. قلقت أكثر عندما قرَّرت أمِّي البقاء في دمشق، وعدم المحاولة من جديد القدوم مع أختي نور إلى أوروبا، كما حاولت في المرَّة الأولى. أعرف أنَّ أمِّي مرَّت بظروفٍ قاسيةٍ كثيرةٍ، لكنَّها لم تنكسر، هذه المرَّة شعرت بانكسارها. أعرف قسوة الطلاق الثاني عليها، وأعرف قسوة الظروف التي تمرُّ بها البلد. وقد تكون عدَّت نفسها الشؤم الذي منع رحلة نور الأولى من الاكتمال، لذلك قرَّرت ألَّا تحاول معها في المرَّة الثانية. كما جاء موت خالتي عائدة قاسيًا جدًّا عليها. وعندما عرفت أنَّ قلبها لم يحملها وأصابتها جلطةٌ، جعلت نصفها الأيسر معطَّلًا وأقعدتها على كرسي متحرِّك، شعرت بالذنب تجاهها، وشعرت أنَّه كان عليَّ أن أجبرها على القدوم إلى هنا. كلُّ هذا الكلام ليس مجديًا. انتظرت أوَّل فرصةٍ لزيارتها في دمشق. وعندما جئت أصبت بخيبة أملٍ من وضع أمِّي الصحيِّ ومن وضع البلد الذي ذهب بعيدًا في دمار الحجر والبشر. حاولت أن أقابل والدي الذي عرفت أيضًا أنَّ حالته الصحيَّة سيِّئةٌ، لكن ليس بالقدر الذي عليه حالة أمي. اتصلت فيه وطلبت

أن أقابله، رفض مقابلتي وأغلق السماعة في وجهي. أحزنني موقفه الرافض لي، لكنِّي احترمت رغبته بعدم رؤيتي، فلم أفرض نفسي عليه.

عندما ودَّعت أمِّي لم أستطع النظر في عينيها، كنت أشعر بالعار أنِّي أتركها وحيدةً وأحمل ابني وأعود إلى هولندا، رغم تشجيعها لي على العودة. لطالما شاهدت أمِّي قويةً في كلِّ الظروف، ولم أرغب في رؤيتها محطَّمةً في بلدٍ محطَّمٍ. لذلك كان وداعها من أصعب اللحظات في حياتي. أذهب لأكمل حياتي في الوقت الذي أتركها محطَّمةً ووحيدةً على كرسي متحرِّكٍ. كنت قاسيةً وبلا قلبٍ حتَّى استطعت تركها على هذه الحالة والعودة إلى هولندا. أيُّ جنونٍ وأنانيَّةٍ يصيبنا. أيُّ عارٍ نحمل عندما نترك أحبَّتنا محطَّمين ونعود إلى حياتنا العادية كأنَّ شيئًا لم يكن، وكأنَّ رؤيتنا لألم من نحبُّ مجرَّد رحلةٍ سياحيَّةٍ أخرى في حياتنا. كم نحن قساةٌ وبلا قلبٍ.

القسم الثاني:
التشظِّي
(عائلة خليل أحمد خليل)

الفصل الأوَّل:
اختراع الحياة
(خليل أحمد خليل)

عندما سمعت صوت أمِّي وأبي في سماء المخيَّم في تلك الليلة القاسية، بكيت وقرَّرت البقاء في المخيَّم مهما كان الثمن، بنيت حياتي ورتَّبتها على هذه البقعة الصغيرة من المخيَّم، فلا مكان آخر لي أذهب إليه. في اليوم الذي ملء صوت الطيفين سماء المخيَّم، ملأ الغبار والأشياء المحطَّمة منزلي ومنازل أولادي الثلاثة في البناء الذي أملكه، والذي بنيته من أجل أن يبقى أولادي إلى جانبي في ختام حياتي. أربعة شققٍ في بناءٍ واحدٍ، أنا أشغل واحدةً، وكلُّ ولدٍ من أولادي الثلاثة يشغل واحدةً.

في ظهيرة يوم السادس عشر من كانون الأوَّل حوالي الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة، وأنا أعمل على حسابات ورشة مكبس الخشب العائدة للأولاد، التي تراجعت أعمالها حتَّى توقَّفت نهائيًّا بسبب الصراع المنتشر في كلِّ مكانٍ في سورية. كنت أجلس وحيدًا في غرفتي، فزوجتي ذهبت إلى سويسرا عند ابنتنا في زيارةٍ لترتاح من التوتُّر الذي يسبِّبه لها الخوف الدائم على الأولاد ووقع انفجارات القذائف، والضغط الشديد الذي بات عليه الوضع المتفجِّر في البلد. أصرَّت ابنتي أن أذهب معها في تلك الزيارة، لكنِّي رفضت، قلت لها: «ما في داعي لهاي السفرة»، حاولت إقناعي

وحاول آخرون، لم أقبل أيَّ حجَّةٍ. كانت قذائف متفرِّقةٌ تسقط على المخيَّم بين الحين والآخر منذ أشهرٍ، وأصوات انفجارها تسمع في كلِّ مكانٍ. في ذلك اليوم فجأةً، سمعت انفجارًا هائلًا، يختلف عن صوت انفجارات القذائف السابقة جميعًا. لم أستطع تخمين مصدر الانفجار، رغم سماعي لصوت طائرةٍ حربيَّةٍ تعبر سماء المخيَّم قبل الانفجار. بدايةً خمَّنت أنَّها سيَّارةٌ مفخَّخةٌ، لكن الانفجار كان بفعل الصاروخ الأوَّل الذي أطلقته طائرة الميغ على المخيَّم وسقط أمام جامع عبد القادر الحسيني وحوَّل النازحين الموجودين أمام الجامع إلى أشلاء متناثرةٍ في كلِّ مكانٍ كما قال لي ابني. لم أتصوَّر أن يقصف النظام المخيَّم بالطائرات الحربيَّة، مع أنَّ الطائرات المروحيَّة ومدافع الهاون كانت تقصف محيط المخيَّم في الحجر الأسود ويلدا والتضامن منذ أشهرٍ. بقيت مذهولًا في مكاني لدقائق، وعندما قرَّرت الخروج لأسأل الأولاد عمَّا جرى، وأنا ما زلت في صالة البيت، سمعت صوت الطائرة الحربيَّة مرَّةً أخرى، وهزَّ انفجارٌ هائلٌ البيت بقوَّةٍ ورماني وسط الصالة أرضًا، فقد سقط الصاروخ الثاني الذي أطلقته طائرة الميغ في حديقة مدرسة المالكيَّة الملاصقة لمنزلي، ولا يبعد مكان سقوطه عن منزلي سوى أمتارٍ عدَّةٍ. كان الانفجار مرعبًا، لم أسمع شيئًا بهذه القوَّة من قبل، هوى كلُّ شيءٍ، الأبواب المغلقة اقتُلِعَت من أماكنها، تطاير الزجاج في كلِّ مكانٍ، اهتزَّ البناء بعنفٍ، وانتشر الغبار في كلِّ مكانٍ، غطَّاني وغطَّى كلَّ الأثاث المحطَّم والسليم في المنزل، ولم أسمع سوى الطنين في أذنيَّ. عندما سقطت على الأرض لم أعرف كيف أنهض، ليس لأنِّي أصبت أو غبت عن الوعي، بل بسبب الذهول الذي أصابني، وعندما فتح ابني أحمد الباب ليطمئن عليَّ، لم يتوقَّع أنِّي ما زلت على قيد الحياة، كان الخراب يحيط بي، والغبار يغطِّيني، هزَّني وهو يبكي، وعندما أدرك أنِّي سليم، حضنني بقوَّةٍ وزاد بكاؤه. مضى على سقوط الصاروخ دقائق وأنا لم أتحرَّك من مكاني، نظرت إلى أحمد ذاهلًا، لا أفهم ماذا جرى بالضبط؟! لم أشعر بالحزن أو الخوف أو

الفزع، كلُّ ما شعرت به هو الدهشة. عزلني الطنين في أذنيَّ عن العالم، لم أعد أسمع غيره، شلَّ الانفجار قدرتي على التفكير، عندما رفعني أحمد إلى الأريكة القريبة منِّي، أخذت أجيل النظر في المكان ببطءٍ وكأنِّي أراه لأوَّل مرَّةٍ، أنظر إلى مكانٍ غريبٍ، مكانٍ لا أعرفه، ليس بسبب الغبار، هناك شيءٌ داخليٌ تحطَّم بفعل الانفجار، لم أعرف ما هو بالضبط، لكنِّي شعرت أنَّ شيئًا في روحي أصابه الدمار مثل كلِّ الأشياء الأخرى التي دمَّرها الانفجار، شيءٌ غامضٌ لم أكن قادرًا على معرفته أو تحديده، رغم أنِّي أشعر به بقوَّةٍ. شعرت حطامي الداخليَّ امتدادٌ للحطام الذي يملأ المكان أمامي. أصابتني رغبةٌ في الضحك، الحياة تحوِّل كلَّ شيءٍ إلى سخريةٍ، أنا وخديجة اللذين عملنا طوال نصف قرنٍ من أجل أن نصل إلى ما وصلنا إليه من ترتيب حياتنا وحياة أبنائنا في هذا المكان، يأتي صاروخٌ طائشٌ يدمِّر كلَّ هذا بثوانٍ ويحوِّل المبنى وحياتنا إلى ركامٍ. من أيِّ مادَّةٍ هشَّةٍ مصنوعةٌ حياتنا؟! بقيت مذهولًا لأيَّامٍ، وعندما استعدت سمعي، لم أستطع أن أكلِّم ابنتي وأمَّها في سويسرا، سوى كلماتٍ قليلةٍ لتعرفا أنِّي ما زلت حيًّا، وكنت أصلًا مقلًّا في الكلام بطبعي.

عشت عمري أخاف الانفجارات، والغريب أنَّ انفجار الصاروخ الذي سقط بالقرب من بيتي لم يُخِفني. يعود خوفي من الانفجارات إلى طفولتي في فلسطين، وأنا لم أبلغ من العمر سوى ستَّة أعوامٍ. يومٌ أذكره كأنَّه اليوم، كانت أمِّي تخبز أرغفةً على طابونها في المنزل، وتطبخ الرز على البريموس، أنا ألعب في المنزل، سمعت منصور ابن جيراننا يناديني: «خليل.. خليل تعال لنأكل مربى»، خرجت من البيت ولحقت بي أختي بيان، شاهدت منصور يحمل علبةً حمراء وثلاثةٌ من أبناء الجيران يلحقون به، كان يفصل بين بيتنا وبيتهم حوالي ثلاثين مترًا، وهناك غرفةٌ مسوَّرةٌ بلا سقفٍ وغير مكتملة البناء بين بيتهم وبيتنا، جدرانها على ارتفاع حوالي مترٍ، لها مدخلٌ بلا بابٍ، وقد أُهمِلَت منذ سنوات لسببٍ لا أعرفه. ونحن في الطريق إليهم،

قلت لأختي بيان: «روحي جيبي خبز من عند أمي»، عادت بيان لتأتِ بالخبز، وكنَّا قد أصبحنا في الغرفة، أخذ منصور يدقُّ العلبة ليفتحها، ضربها بالحجر الذي يحمله أوَّل مرَّةٍ، عاد وضربها مرَّة أخرى، أخذ الدخان يخرج من العلبة، عندما شاهدنا الدخان هربنا جميعًا، قفزت عن السور المنخفض، دوى انفجارٌ هائلٌ وأنا معلَّقٌ بالهواء، ما إن سقطت على الأرض حتَّى عرفت أنِّي قد أُصِبتُ، وشعرت جسدي مصابًا وينزف دمًا في كلِّ مكانٍ عدا عيني، وأنَّ رجلي اليمنى أصيبت إصابةً بالغةً. لم أستطع التحرُّك من مكاني، لم أبكِ، كنت تحت تأثير الصدمة، لا أعرف الوقت الذي انقضى وأنا على هذه الحالة، حتَّى شاهدت عمَّتي أم هاني فوق رأسي، تحملني وتركض بي، أذكر وجهها الجميل كأنِّي أراها الآن، كان القلق باديًا على وجهها الأبيض المستدير مثل القمر، أشعر بأنفاسها المتسارعة وهي تحملني وتضمُّني إلى صدرها، رأيت وجهها الجميل بخدودها الحمراء بفعل الصيف اللاهب، وجهًا ملائكيًّا يحملني ويركض بي، لا أعرف إلى أين، وأذكر اهتزاز المنديل الأبيض على رأسها كشراعٍ في سماءٍ صافيةٍ، أرى وجهها ومنديلها والسماء وشعرها الأسود الحالك الذي انفلت وانحسر المنديل عنه، وأذكر فستانها الأسود، الذي كان يعطي وجهها المحمرَّ المزيد من التألُّق والمزيد من البياض. أبي الذي ذهب فجرًا ليعمل في أرضنا التي تبعد عن البلدة أكثر من ثلاث كيلومترات بقليلٍ، ظهر فجأةً من العدم راكبًا فرسه، نزل عنها وهي تلهث، كان خوفه عليَّ ظاهرًا في عينيه الجميلتين، لم أرَ عيني أبي كما رأيتهما في ذلك اليوم، عينان في غاية الجمال، عليهما مسحةٌ من الحزن والقلق وفيهما دموعٌ تريد الانفجار. ما إن ناولتني عمَّتي لأبي حتَّى سقطت هي على الأرض، سار أبي بي بعض الوقت، ثمَّ دخل بي سيَّارةً سوداء، سمعت صوت محرِّكها وهي تقلع، وفجأةً ظهر وجه أمِّي المرعوبة واللاهثة من ركضٍ طويلٍ في نافذة السيَّارة، رأيت وجهها وغبت عن الوعي. كان كلُّ شيءٍ واضحًا لي قبل أن أغيب عن الوعي. قال لي أبي فيما بعد: «لما سمعت صوت

الانفجار، قلت خليل، ما بعرف ليش قلت اسمك، ركبت الفرس ورجعت بسرعة، خفت عليك، شي جواتي قلي أنُه صابك شي. وطول الطريق اللي حسيته طويل، طويل، دعيت لربي ما يكون حدا منكم صابُه شر، ولما وصلت البلدة، قلي ابن منصور إنَّك انصبت مع أولاد التانيين، نكزت الفرس اللي طارت باتجاه الساحة، ومن فوق فرسي قلت لأبو سعيد الشوفير، إلحقني بسيَّارتك بسرعة، ما سأل، شغل محرِّك السيَّارة وإجا وراي. بس شفت الدم معبيك من راسك لأجريك، قلت ما رح تنفذ من هاي الضربة. جسمك كلُه دم، ورجلك مشققة. رح أوقع على الأرض من المنظر اللي شفتك عليه. أخذتك من إيد أختي وركضت على السيَّارة، وقلت: بسرعة أبو سعيد على حيفا، اللي دغري أسرع بالسيَّارة. دعيت لربي يشفيك وينجيك. لما وصلنا المشفى في حيفا، كان وضعك صعب، ما كنت بعرف إنَّك عايش غير من نفسك الضعيف. في المستشفى طلعوا الشظايا الكبيرة من جسمك وسكروا الجروح، وجروح ثانية كانوا يسكروها على الشظايا. كانت المشكلة رجلك اللي انطحن عظمها واتشقَّقت. الدكتور حمزة الله يجزيه الخير، أصرَّ يخليها، وما قبل يقطعها، طلَّع العظم المفتت وطوى لحم الأصابع لورا وخيطها على بعضها وخلَّى الكعب زي ما هو. الدكتور ما قبل يقطع رجلك. وكان عمَّك يقلي: ما منها فايدة، خلي يقطعها، هدلون بعملوا هيك منشان المصاري. ما رديت على عمك، وقلت للدكتور حمزة: اعمل اللي بتشوفوا أحسن للولد. بعت جزء من أرض العزيزية حتَّى تطيب، خفنا من الغرغرينا، منشان هيك كان لازم نلاقي إبر البنسلين اللي بدنا إياها منشان تتحسَّن، كل الدنيا كانت بتحارب مع بعض، ومنشان هيك كان تدبير الإبر صعب وغالي. كان بدك عشرين إبرة. جبت خمستاشر إبرة عن طريق شوفير بشتغل على خط بيروت- حيفا، كلَّفت الواحدة منها خمس ليرات فلسطينيَّة وقتها، وجاب أبو هاني ابن عمي وزوج عمتك الإبر الباقية من عند اليهود. جبلوا إياهم صاحبُه اليهودي اللي كان ساكن في الهادار،

وما أخذ حقها. الحمد لله كنت مفكِّر جروحك أكبر من هيك، لما شفتك عبتسبح بدمك قلت خسرت الولد يا أحمد».

عندما عاد لي الوعي، وجدت جسدي مغطًى بالشاش الأبيض، أشدُّ الألم شعرت به في أصابع قدمي اليمنى، لم أكن أعرف أنَّه لم تبقَ لي أصابع، وأنَّني خسرت مشط قدمي وأصابعي للأبد، وأنَّ كلَّ ما بتُّ أملكه هو كعبٌ وحوله كتلةٌ من اللحم، وضع قدمي الجديد جعلني أتعلَّم المشي من جديد، فلم يكن من السهل المشي من دون مشط القدم، عانيت لسنواتٍ قبل أن أتكيَّف معها. بقي الكثير من الشظايا في جسدي، بقيت أسبوعًا في المستشفى وهم ينزعون الشظايا من جسدي، يفتحون جروحًا جديدةً لإزالة الشظايا الباقية، وبقيت سنواتٍ طويلةً أنتزع بنفسي الشظايا التي يلفظها جسدي، وما زالت بعض شظايا ذلك الانفجار تسكن جسدي حتَّى الآن، وتسبِّب لي مزيدًا من الأوجاع، لا سيَّما تلك التي تسكن ركبتيي وتمنعني من المشي في كثيرٍ من الأحيان، وتطلق إنذارًا كلَّما عبرت جهازًا لكشف المعادن في أيِّ مكانٍ ولا سيَّما في المطارات.

يوم سقطت على الأرض في صالة بيتنا، شعرت تلك الشظايا في ركبتي تتحرَّك، لم أعد أستطيع النهوض، لولا مساعدة ابني لبقيت في مكاني ساكنًا حتَّى يأخذ الله أمانته. لا أعرف الوقت الذي بقيته ذاهلًا وأنا في مكاني، جعلني صوت الطنين الذي عزلني عن العالم الخارجي، أشعر أنِّي في عالمٍ خاصٍّ، عالمٍ خالٍ من القذائف التي تزعجني منذ أشهرٍ، صحيح أنَّ أيًّا منها لم يسقط في محيط منزلي قبل قصف طائرة الميغ، لكن فكرة أنَّ قذائف تعبر فوق رأسي وأسمع صفيرها وأعرف أنَّها ستسقط على رؤوس آخرين بعد ثوانٍ في مكانٍ آخر، جعلتني أشعر أنَّ واحدةً من هذه القذائف يمكن أن تسقط فوق رأسي في أيِّ لحظةٍ وتحوِّلني إلى أشلاء. هذا ما حدث مرَّاتٍ عدَّةٍ في المخيَّم، منذ قُتِلَ أربع وعشرين شخصًا في القذائف التي سقطت على شارع الجاعونة عندما تجمَّع أهالي الحي يحاولون مساعدة جيرانهم

الذين سقطت على بيتهم قذيفةٌ سابقةٌ، سقوط القذائف على التجمُّع جعل عدد القتلى كبيرًا، لم يتوقَّع أهالي حارة الجاعونة أن تسقط عليهم قذائف أخرى بعد دقائق من الأولى، ولم يفهموا لماذا تُقصف حارتهم، فهي أكثر مكانٍ تلقَّى قذائف حتَّى يوم قصف الطائرات الذي أحدث مذبحة النازحين أمام جامع عبد القادر الحسيني، وهم الذين يسكنون الجوامع والمدارس وبيوت المخيَّم حيث قُدِّمَت بعض البيوت الخالية من السكَّان إليهم لتأويهم، قُدِّر عدد النازحين إلى المخيَّم من المناطق الأخرى، بأكثر من مئتي ألف نازحٍ، قدَّم لهم أهالي المخيَّم كلَّ ما هو ممكنٌ من احتياجاتٍ وغذاء. منذ مذبحة شارع الجاعونة، حتَّى مذبحة جامع عبد القادر بقصف الطيران الحربيِّ، توالى سقوط القذائف التي حصدت أرواح الناس في كلِّ أنحاء المخيَّم، الذي شهد حالات نزوحٍ محدودةٍ، أغلبها داخل المخيَّم. في يوم قصف الطيران دخل الجيش الحرُّ إلى المخيَّم، بعد اشتباكاتٍ محدودةٍ مع مؤيِّدي النظام من جماعة أحمد جبريل الذي سلَّح أردأ شباب المخيَّم من حشَّاشين وأصحاب سوابق وزعران، ليحموا المخيَّم من الجيش الحرِّ، وأمام أوَّل هجومٍ للجيش الحرِّ، هربوا إلى خارج المخيَّم.

اليوم التالي لسيطرة الجيش الحرِّ على المخيَّم لا يشبه الذي قبله، هناك شيءٌ غريبٌ حصل للناس، بين ليلةٍ وضحاها، كلُّ الثبات والاستقرار الذي شعر الفلسطينيُّون به في المخيَّم، اهتزَّ بعنفٍ، انهار المكان والثقة السابقة أصبحت تهديدًا للوجود. لم يمهل الطيران أهالي المخيَّم ليفكِّروا، لقد حسم لهم المسألة، أنتم جميعًا تشكِّلون هدفًا عسكريًّا، الادعاءات بأنَّ القذائف التي تسقط على المخيَّم، تسقط بالخطأ لأنَّها تستهدف محيطه لم تقنع أحدًا ولم تلقَ مقبولًا، لقد شاهد الجميع أو سمع الدوي الهائل لقصف طائرة الميغ. قرأ الجميع الرسالة وكان عليهم أن يتخذوا القرار، وما زاد من إلحاحه، أنَّ زعران جبريل المسلَّحين وشبِّيحة النظام وجيش بشار الأسد قد أغلقوا المدخل الوحيد للمخيَّم، وأبلغوا السكَّان بأنَّ عليهم مغادرة المخيَّم،

قبل التاسعة من صباح اليوم التالي لقصف الميغ للمخيَّم، وبعد انقضاء المدَّة سيكون المخيَّم هدفًا عسكريًّا لكلِّ أنواع الأسلحة. كانت ليلةً واحدةً كافيةً ليتخذ جلُّ سكَّان المخيَّم قرارهم بالرحيل عنه. لم أفكِّر بالرحيل ولا للحظةٍ، كان ولدان من أولادي الثلاثة قرَّرا الرحيل، لم أَلُمهما، ولم أحاول ثنيهما عن قرارهما، كان عليهما حماية أولادهما، كذلك الحال بالنسبة لبناتي، ولكن ما أزعجني، هو إلحاحهم عليَّ بالخروج، رفضت الخروج بشدَّة، قلت لهم: «روحوا إنتو ولا تنشغلوا فيِّ، أنا مش طالع من بيتي»، وعندما قال أحمد: «أنا بقيان معك»، قلت له: «ما في داعي تبقى، بتقدر تروح مع أخواتك»، قال: «ما رح إطلع من المخيَّم، إن بقيت أنت أو طلعت. أنا ما عندي محل أروح عليه برة المخيَّم»، كرَّرت عليه قولي: «إنت بتقدر تطلع، شو ذنب ولادك؟»، قال: «مش طالع. ذنب أولادي إنِّي أبوهم، وذنبي إنَّك أبوي. قلتلك مش طالع بكل الأحوال» لم يبقَ ما يُقال، وعندما غادر أولادي، جاؤوا ودَّعوني وبكوا، هرب أحمد من المنزل لأنَّه لا يريد أن يرى دموع أحد، فهو غير قادرٍ على احتمالها. قال أولادي الذين خرجوا، أنَّ مشهد النزوح كان مرعبًا، ولا يختلف عن مشاهد لجوء العام 1948 كما رواها الكبار، بل أسوأ. حمدت ربي أنِّي لم أشاهد هذا المشهد القاسي، عشت التجربة وأنا طفلٌ، ولا حاجة لتجربتها مرَّةً ثانيةً. بعد وقتٍ قصيرٍ عرفت أنَّه إذا كان من الصحيح أنِّي لم أشاهد النزوح الثاني، فهذا لا يعني أنَّ الكارثة لم تقع، وأنَّ نزوحًا رهيبًا أصاب أجيالًا جديدةً من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا قسوة اللجوء الأوَّل، شاركهم فيه مئات آلاف السوريِّين المقيمين في المخيَّم هذه المرَّة، وملايين السوريِّين في كلِّ أنحاء البلد. لم أكن شاهدًا على نهر البشر الذي غادر المخيَّم، لكنِّي في النهاية كنت أحد ضحاياه. تحوَّل المخيَّم العامر بالحياة والحركة حتَّى وقت سقوط القذائف إلى مدينة أشباحٍ. المحلَّات التجاريَّة العامرة بالناس والبضائع مغلقةٌ، أسواقٌ تجاريَّةٌ كاملةٌ ليس فيها سوى القطط تلعب في شوارعها غير عابئةٍ بما يجري. عندما

غادر السكَّان مات المخيَّم، المخيَّم هو سكَّانه وعندما غادروا، شعرت أنَّهم أخذوا المخيَّم معهم وغادروا، لا مخيَّم من دون أحبَّتنا، رافقني هذا الإحساس منذ اليوم التالي لمغادرة أهالي المخيَّم. واسيت نفسي وقلت: «رح يرجعوا»، لم أحاول مشاهدة الجموع الخارجة من المخيَّم، قلت لنفسي: «ما بدي شوف بؤس كمان، بكفِّيني اللي شفتُه في المدارس اللي كانت مليانة ناس مهجرين من بيوتهم، وهذا كلُه شفتُه من بيتي»، أعادني كلُّ شيءٍ إلى تجربة اللجوء الأولى، تفاصيل تتكرَّر معنا ومع آخرين، كلُّ شيءٍ يقول، في النكبات التفاصيل متطابقةٌ، يأتي التطابق عندما تَعدُّ حياتك مستقرَّةً وراسخةً، لأنَّك تعبت وصرفت سنوات عمرك في تحقيق ما أنت عليه. فجأةً تدرك أنَّ حياتك تتبدَّد وتتحوَّل إلى غبارٍ، الصلب يتحوَّل إلى هباءٍ. تحرِّرك النكبات من الأوهام، تضاعف قلقك، وتجعلك تؤهِّل نفسك مسبقًا لكلِّ خسارةٍ ممكنةٍ، كلُّ شيءٍ قابلٌ للاختفاء، الأولاد، المال، البيوت، حتَّى الأمكنة.

أعادتني نكبةٌ إلى أخرى، واستدعى الخوف خوفًا آخر، فجأةً أصبحت حياتي متداخلةً، لا أعرف أوَّلها من آخرها، لا أعرف هل يحدث الانفجار اليوم أم أنَّه حدث قبل ستين عامًا؟ أعادني رعبي من الانفجارات إلى طفولتي، عندما اندلعت الحرب في فلسطين، كنت أرتعب من انفجارات القذائف التي تسقط على بلدتنا، بوَّلت في ملابسي مرَّاتٍ عدَّةٍ، وهذا كان يصيب أمِّي بحالةٍ من الهستيريا، فهي لا ينقصها في ظلِّ تهديد القذائف انشغالها بتنظيفي. كنت في العاشرة من عمري، عندما سمعت أبي يقول لأمِّي أنَّ عليك الرحيل أنت والأولاد، شعرت بالارتياح، كنت أرغب بقوَّةٍ التخلُّص من صوت الانفجارات التي ترعبني، وعندما قالت أمي: «مش طالعة من البلد»، خفتُ أن يوافقها أبي ونبقى تحت رحمة القصف المرعب. كان أبي حازمًا في هذا الموضوع، قال: «خذي الأولاد وأمِّي والفرس وروحي، رح ألحقكم بعد شوية»، عاندت أمِّي أوَّل الأمر، لكنَّها لم تكن قادرة على الوقوف في وجه أبي، لم أرَ القلق على وجه أبي مثلما رأيته في ذلك

اليوم، نظرت إلى وجهه، كان حازمًا وقلقًا، التناقض واضحٌ عليه، يريدنا أن نغادر ويخاف علينا من الطريق، ولا يريدنا أن نبقى، لأنَّ بقاءنا يعني تعرُّضنا الدائم للخطر، خروجنا يعني خطر الطريق المؤقَّت، بقاؤنا يعني استمرار الخطر. كان يفاضل بين خطرين، وهو ما سبَّب له القلق، عَدَّ أبي البقاء أخطر علينا من الخروج. في ذلك اليوم رأيت عيني والدي الجميلتين لآخر مرَّةٍ، بعدها فقد إحدى عينيه في معارك البلدة بعد مغادرتنا، وأصبح يتجنَّب النظر إلى عَينَي محدِّثه مباشرةً، أيًّا كان الشخص الذي أمامه، وبقي كذلك حتَّى وفاته بعد سنواتٍ طويلةٍ من فقده عينه. على حدود البلدة، ولأنَّ قدمي اليمنى التي أصابها اللغم لا تساعدني على المشي، فقد اختُرتُ لأركب على الفرس مع الأغراض التي حملناها معنا. قال أبي موجهًا الكلام لأمِّي: «بس توصلي على حيفا، اتركي الفرس بترجع لحالها على البيت»، لوَّح لنا بيده ونحن نغادر البلدة، شعرت أنَّه يبكي، لم أرَ دموعه في عتمة الليل، لكنِّي أحسست به يبكي، كادت دموعه تنفجر أمامنا قبل أن نذهب، أمسك نفسه، وأظنُّ أنَّه انفجر بالبكاء بعد ابتعادنا عنه. كنت خائفًا من الطريق في عتمة الليل، لكنَّ خوفي كان أقلَّ من خوفي من البقاء تحت رحمة القصف الذي يصيبني بالرعب. عندما سارت الفرس بي، شاهدت ظلال المكان من موقعي على ظهرها. سرنا غربًا باتجاه البحر الذي يبعد عن البلد حوالي ثلاثة كيلومتراتٍ، نزلنا من الحارة الفوقا باتجاه الحارة التحتا، حيث الأبنية الحديثة، نظرت إلى مدرستي بحجارتها البيضاء، التي كان بناؤها واضحًا في عتمة الليل، تركنا المدرسة خلفنا لندخل أرضًا مزروعة بأشجار الزيتون، وبعدها كانت أرضنا التي أعرفها ولعبت على بيدرها والمزروعة بسنابل القمح، كان المنظر من فوق الفرس مذهلًا، بحرٌ من السنابل بلا نهايةٍ، ثقيلةٌ تنحني مع اتجاه الريح كأنَّها تصلِّي، في تلك الليلة المظلمة وبين تدرُّجات الأسود والرماديِّ والضوء الشحيح الذي لا أعرف من أين يأتي؟! كان للسنابل هيبتها. لو لم أعرف مسبقًا أنَّها حقول القمح، لظننت أنَّها بحرٌ

فعلًا. تجاوزنا حقول القمح، وبقي هناك شيءٌ يشدُّني لأنظر باتجاهها، وعندما ابتعدنا، التفتُّ فشاهدت مربَّعًا كبيرًا بلونٍ قاتمٍ، كان الحقل قد تضاءل من بحرٍ كبيرٍ من السنابل المنحنية إلى مجرَّد قطعة أرضٍ. وعندما قطعنا خطَّ سكَّة الحديد الواصل بين حيفا ويافا، تعثَّرت الفرس بحديد السكة وكدت أقع من فوقها. شعرت الطريق طويلًا جدًّا إلى مدينة حيفا، رغم أنَّ المسافة لا تتجاوز السبعة كيلو مترات. عندما وصلنا، لم تسأل أمي أيَّ أحدٍ من الناس القليلين المستعجلين الذين مررنا بهم في المدينة، لمعرفة بيت عمِّها وعمِّ أبي، اتبعت حسَّها ووصلنا بسلامٍ، أنزلتني أمِّي على باب المنزل، أنزلت الأغراض، ربطت لجام الفرس بالسرج الموضوع على ظهرها حتَّى لا تتعثَّر به في طريق العودة، ضربتها على خلفيَّتها، راحت الفرس تخبُّ باتجاه طريق العودة. انتظرنا في بيت عمِّ أبي القريب من الحسبة، لبضع ساعاتٍ حار ابن عمِّ أبي حازم بما يفعله من أجلنا، فأهله سبقونا وغادروا حيفا راكبين البحر باتجاه مصر، وبقي هو لينهي بعض الأشياء العالقة قبل أن يلحق بهم، مع أنَّ المدينة كانت شبه فارغة، والمتاريس هنا وهناك. قبل الوصول إلى حيفا كنَّا هائمين على وجوهنا كعائلةٍ منفردةٍ نسير خائفين في ليل جبل الكرمل، وفي حيفا وفي ضوء النهار، كنَّا هائمين مع عشرات العائلات، لم نكن نعرف أين نذهب، ولا كانت أمي تعرف الطريق التي نسير عليها، ولا مكان للوصول إليه، تكدَّسنا في سيَّارة الشحن مع غيرنا من العائلات الهاربة من الموت، لم نكن نعرف أين ستذهب بنا السيَّارة، المهم المغادرة وليس مهمًا إلى أين. عندما سألنا عرفنا أنَّ الوجهة مدينة نابلس. سارت بنا السيَّارة وكنَّا نفتقد الثبات لأنَّنا كنَّا جميعًا نجلس في قفص الشاحنة الخلفيِّ، وهي شاحنةٌ تدلُّ رائحتها أنَّها معدَّةٌ أصلًا لنقل الخراف أو ما شابه، وليس لنقل البشر. عندما سلكت السيَّارة طريقًا غير ممهَّدٍ بالإسفلت، لم نكن قادرين على التحكُّم بأجسادنا التي تتطاير طوال الطريق، شعرت الساعات التي قضيناها في السيَّارة حتَّى الوصول إلى نابلس

تكاد لا تنتهي، وعندما وصلنا كنَّا جميعًا في غاية الإرهاق من كثرة ما خضَّت السيَّارة أجسادنا طوال الطريق. نزلنا في منطقةٍ قريبةٍ من مدينة نابلس تدعى حوارة، المكان مُغبَرٌّ مثل اسمه، وهناك بعض الخيام البائسة قد أقيمت على عجلٍ، أشار البعض لأمِّي بأن تذهب لتحصل على خيمةٍ إذا كانت تريد البقاء، نظرت أمِّي حائرةً في البداية، ولأنَّ لا خيارات أمامها ولا تعرف ما تفعل، ذهبت وتسلَّمت خيمةً، وعندما نصبتها اكتشفت أنَّها لا تملك أيَّ شيءٍ حتَّى تضعه في أرض الخيمة لنجلس عليه، ذهبت مرَّةً أخرى لتأتي بخيمةٍ أخرى وتفرشها في أرض الخيمة، وما إن وضعتها حتَّى وجدنا أنفسنا نحن الأطفال قد نمنا من شدَّة التعب، وبعد ساعات استيقظت لأجد نفسي وإخوتي نلتحف بطرف الخيمة المفروشة على الأرض، لقد استخدمت أمِّي الفائض من مقاس الخيمة عن أرضها كغطاءٍ لنا، جلبت أمي بعض الطعام لنا. كانت تتركنا مع جدَّتي، تذهب وتحصل على بعض الأشياء وتعود. حصلت على بعض الوسائد في اليوم الأوَّل وعلى بعض فرشات النوم في اليوم الثاني، وبعض وسائل الأكل لتطعمنا، كانت منهكةً ومنهمكةً طوال الوقت وترهق نفسها في كلِّ شيءٍ حتَّى لا تفكِّر بما يجري حولها، سمعت بكاءها مرَّاتٍ عدَّةً في ليل نابلس الموحش. حاولت إخفاءه عنَّا، لكنَّ العديد من الشهقات كانت تفلت منها، بكيت لبكائها وحرصت ألَّا تسمعني حتَّى لا أزيد بؤسها. كانت تجربة حوارة قاسيةً علينا، ولا سيَّما على أمِّي، عدَّت الساعات والدقائق من أجل العودة، احتملت ما كنَّا عليه لأنَّها كانت واثقةً من عودتها إلى بيتها خلال أيَّامٍ، لم يخطر على بالها للحظةٍ أنَّ الخطوات التي مشتها مغادرةً لبلدتها لن تعودها بعد أيَّامٍ، ولن تعودها أبدًا. ما إن رتَّبت خيمتها، وجلست لتستريح، حتَّى ضربها مخلب الحنين إلى الديار، كانت ترى الجنود العرب العائدين المحبطين من الحرب، ويداهمها حدسٌ قويٌّ بأنَّ البلاد تغدو أبعد، يصيبها هذا الإحساس بالقشعريرة، لكنَّها سرعان ما تنفض رأسها طاردةً حدس الشؤم منه. كنت أراقبها طوال الوقت، كانت

لمعة عينيها التي طالما سحرتني وأنا طفلٌ تخبو، عيناها الفرحة طوال الوقت أنهكها الحزن، وعندما وصل أبي في المرَّة الأولى بعينه المقلوعة، وعرفت أمِّي أنَّ البلد سقطت في يد اليهود، سقطت صريعة المرض. أربكنا مرض أمِّي وخفنا أن نفقدها، قامت جدَّتي بمهامها، لكنَّ عجزها أعاقها، كانت أمِّي تهذي طوال الوقت، تقول أشياء غريبةً، عن فقراء تدعوهم إلى مائدة أبيها، عن عروسٍ تُحلِّق بجدائل شعرها الذهبيِّ على قمَّة الكرمل، عن فرسٍ شهباء حملتها إلى أرض من أشجار اللوز المزهرة في حقولٍ لا تنتهي، عن أختي التي توفِّيت طفلة في البلد، كانت تناديها، وتقول لها: «خذيني». سمَّت كلَّ الأعشاب في الجبل، المريمية والسريس وعرف الديك والزعتر البري والخبيزة واللوف والعلت والفرفحينة والنعنع والبابونج وأزهار لا تنتهي، تهذي برائحة البلاد القادمة من الجنَّة ذاتها، تنادي أمَّها باكيةً، تهذي ببقع الدم في حقول القمح، عن زهر الحنون وعن خضار لا تنتهي، وعن شياطين تسرق أولادها منها وتسرق بيتها، وعن ليلٍ طويلٍ، وعن الليرات الذهبيَّة التي خبَّأتها في حفرةٍ في الجدار تحت الرفِّ الاسمنتي الذي يحمل فراشنا. وعن أخيها الذي سرق مالها ومال أخواتها البنات، وعن أخيها الآخر الذي جبن عن مواجه أخيه فترك البلاد ورحل قبل الحرب. كنت أبكي وأنا أسمع هذيانها، لقد أصابتها الحمى، لم يعرف الطبيب السبب، قال تفسيراتٍ عدَّةً، لكنِّي أعرف أنَّ ما أصابها، لم يكن سوى حمى الحنين إلى الديار. لم يحتمل أبي رؤية أمِّي طريحة الفراش تهذي، لا سيَّما أنَّها في هذيانها، كانت تتحدَّث عنه وتحمِّله مسؤوليَّة ما آلت إليه أوضاعنا، لم أسمعه أو أشاهده يبكي، لكنِّي أجزم، أنَّه كان ينزوي ويبكي بحرقةٍ. في اليوم التالي لم يحتمل هذيانها، فقرَّر العودة إلى البلدة ليعود بالليرات المخبَّأة، أصاب أبي الرعب من فكرة أن تقضي أمِّي بسبب مرضها، فهرب عائدًا إلى البلد، كأنَّه أراد أن ينتحر ليموت قبلها، ولا يرى ولا يسمع عن موتها شيئًا. قال لي أنَّه كان يصرخ وهو يقتلع سنابل القمح «هاي الأرض إلي»، تمنَّى أن

يسمعه اليهود ويطلقون النار عليه، لم يكن قادرًا على الاحتمال أكثر، كان يعرف أنَّ الطريق إلى البلد هو طريق الموت، وإذا لم يمت وهو ذاهبٌ، فلا شكَّ بأنَّه سيموت في طريق العودة. خاب ظنُّه، لم يأتِ الموت الذي تمنَّاه، وجد الليرات الذهبية مكانها، وذهب ليخبِّأها، وشى به من خبَّأها، اعتقل أيَّامًا عدَّةً وعاد بلا ذهبٍ وبلا قمحٍ. كانت أمِّي تروي قصَّة القمح كلَّ مرَّةٍ بطريقةٍ، ووفق مزاجها الشخصي، مرَّةً ترويها ساخرةً، وهي تضحك من سذاجة أبي، وما فعله كالأطفال في أحلك الظروف، وتقول: «قال يحصد بالليل، مهو بعرف إنُه بالليل القمح ما بينحصد، الندى بخلي القمح يعفِّن، القمح عفَّن بالمغارة، وأحمد مستنِّي يرجع ليدرسهم»، وتضحك من قلبها. ومرَّةً ترويه بحرقةٍ، أنَّ أبي تصرَّف بحماقةٍ لا يمكن أن تسامحه عليها، لتركها طريحة المرض تقف على حافَّة الموت وهرب ليحصد القمح بيديه العاريتين، ليثبت بطولةً فارغةً، وأكمل الحماقة بأن ذهب إلى واشٍ ليخبِّئ له الذهب في حذائه، وعاد بخفَّي حنين، لا قمح ولا ذهب، في الوقت الذي كنَّا فيه أحوج ما نكون لليرات القليلة التي فقدها بحماقة لا يرتكبها طفل صغير.

أمِّي لم تحبَّ أبي، هذا ما نعرفه جميعًا، لكنَّها لم تحاول أن تقلِّل من احترامنا له، كانت تصوِّره رجلًا ولا كلَّ الرجال. طبع رفضها الداخليُّ علاقتهما طوال الوقت لأنَّهم أجبروها على الزواج منه. في مقابل هذا النفور منه، أحبَّها أبي، واختار الهرب للحفاظ على هذا الحبِّ عندما قادتنا رحلتنا في المنافي إلى دمشق. خاف أن يزيد وجوده في المنزل طوال الوقت المشكلات بينهما، فاختار أن يقضي أغلب وقته خارج المنزل وعمل مع معماريٍّ بعد وصولنا إلى دمشق. فهو يعرف أنَّها أُجبِرَت على الزواج منه عندما كان كاملًا من دون نقصانٍ. لذلك عندما فقد عينه بات يخجل من التعامل مع الآخرين، وخاف أن تخجل به، وبعد أن ترك العمل في البناء، هرب إلى العمل في دكَّانٍ يقضي فيها كلَّ أيَّام الأسبوع، وكدنا لا نقابله، إلَّا

بالمصادفة. لم تخجل من إصابته، بل على العكس، كانت تفخر بهذه الإصابة أمام الآخرين لأنَّها شهادة شرفٍ على أنَّ الرجل دافع عن البلاد وفقد فيها جزءًا عزيزًا من جسده. لم تشعر يومًا بالسوء تجاه إصابة أبي، كانت ببساطةٍ تتجاهلها كأنَّها لم تكن. أمَّا أبي فقد سبَّبت الإصابة له عزلةً اجتماعيَّةً اختارها لنفسه، بات يشعر بالحرج أمام الآخرين بعينٍ واحدةٍ، وكان يعتقد أنَّ الآخرين يتندَّرون عليه بوصفه رجلًا أعور. لم أسمع من أمِّي هذه الكلمة طول عمري، مع أنَّها في سنواته الأخيرة، باتت تتكلَّم على أبونا الأعمى، بعد أن تراجع نظره بصورةٍ كبيرةٍ في عينه الباقية، ولكنَّها لم تستخدمها أمامه، كما لم تستخدمها بدافع التندُّر، إنَّما بدافع استدرار عطفنا عليه. عمليًّا كانت هي المتحكِّمة بالوضع، رغم تصوير نفسها المرأة المسكينة التي تختفي وراء الرجل القويِّ الهارب من البيت دائمًا، شكَّل غيابه فرصةً لها لترسم له الصورة التي تشاء، ولم يكن يحتجُّ على هذا. لم يكن لدية طموحاتٌ شخصيَّةٌ، ولم يكن يرغب بإدارة أيِّ شيءٍ، كان يَعدُّ أنَّ واجبه الأساسي الحصول على المال، وتنتهي مهمَّته بوضع هذا المال بيد أمِّي. لم يختلفا يومًا على المال، على الأقل أمامنا، لقد قبل بالتقاسم الوظيفي بينهما للمهمَّات ولم يحاول تغيير المعادلة من جانبه إطلاقًا. عندما كبرنا وتعرَّفنا على أبي من جديدٍ، عرفنا أنَّه شخصٌ مختلفٌ جدًّا عن الشخص الذي صوَّرته أمِّي لنا في طفولتنا. تلك الصورة أثَّرت فيَّ شخصيًّا، ولزمنٍ طويلٍ كان أبي شخصيَّةً أسطوريَّةً فيها من الجمال ما يجعلها ساحرةً وآسرةً، وكان خوفنا منه يزيد من هيبة هذه الصورة، ويجعله على مسافةٍ كبيرةٍ منَّا.

بدأت أكتشف عاديَّة أبي كإنسانٍ، عندما رأيت كيف يتعامل مع مشكلات الحياة، وكيف تكون ردود أفعاله. كان هذا عندما سافر أخي عبد الرحمن إلى السعوديَّة، ولم أبلغ السادسة عشرة من عمري. كنت قارئ رسائل عبد الرحمن إلينا، رأيت ردود أفعال أمِّي وأبي على رسائله، كنت أتغاضى عن أخطاء عبد الرحمن اللغويَّة وما أكثرها، وأقرأ رسائله بعربيَّةٍ

صحيحةٍ، رغم أنَّه يحطِّم اللغة العربيَّة بكتابته الرديئة التي تحتاج إلى ترجمةٍ من العربيَّة إلى العربيَّة. شاهدت واحدةً من السلوكيَّات البشريَّة لأبي الأسطوريِّ، عندما ناداني لقراءة رسالة أخي عبد الرحمن، كان وجه أمِّي مشرقًا، وكنت أراه على هذه الشاكلة في كلِّ مرَّةٍ تصل رسالةٌ منه، لم تكن ترغب في أن يسافر إلى السعودية وهو ما زال طفلًا، قاتلت من أجل عدم ذهابه، فهو يعمل في دمشق وعمله جيِّدٌ، يسهم قليلًا في البيت، ضغطت عليه من أجل إكمال دراسته، وهو تهرَّب منها. أصرَّ على السفر إلى السعوديَّة، نام خارج المنزل للضغط على أهلي ليتركوه يذهب، شغلت أحلام المال السريع تفكيره، وحمل وهمًا كبيرًا بأنَّه سيبني ثروةً هائلةً خلال أعوامٍ قليلةٍ، ووعدني أن يشتري لي بيتًا وأن يعيد لي أصابع قدمي التي طارت في الانفجار الذي أصابني في البلدة عند أفضل طبيبٍ في العالم، وأن يشتري لي الكثير من الأحذية التي لا تنكسر، كما كانت تتكسَّر عندما ألعب كرة القدم، لأنَّ مقدِّمتها لم يكن فيها أصابع بحكم فقداني لها في الانفجار. فعندما كنت ألعب كرة القدم، أكسر الحذاء، فأتعرَّض للضرب من أبي، لأنَّه لا يملك المال ليدفع كلَّ يومٍ ثمنًا لحذائي الذي يجب تفصيله خصيصًا لرجلي المشوَّهة. وبعد ذلك أصبحت ألعب حافيًا خوفًا على حذائي من التمزُّق، ولأنجو من ضرب أبي الذي يملك يدًا مثل المطرقة. أصرَّ عبد الرحمن على الذهاب إلى السعودية، مهمًّا كلَّف الثمن، أحلامه الكبيرة حملته بعيدًا، سمع كثيرًا عن فرص النجاح في الصحراء التي تملك المال بسبب النفط الذي ظهر هناك، وعن شعبها الذي لا يعرف شيئًا سوى صرف المال، وهي فرصته ليجمع مالًا لا ينتهي، هكذا ظنَّ، وبهذه البساطة. لم توافق أمِّي على سفره حتَّى يوم المغادرة، قامت بكلِّ شيءٍ من أجل أن يبقى، حاولت إغراءه بالمال القليل الذي معها، أو بتنفيذ أيِّ طلبٍ يريده، خافت على طفلها من وحشة الصحراء، ومن كلامٍ كثيرٍ سمعته عن الاعتداءات على الأطفال هناك، وهو طفلها وبكرها. بات عبد الرحمن مسحورًا منذ اللحظة التي سمع فيها أنَّ

عمَّتي يمكن أن تأخذه إلى السعودية من أجل مساعدتنا على أوضاعنا الصعبة، وهو ليس في هذا العالم، غرق في أحلام المال الذي لا ينتهي، استسلم أبي وقال: «يروح على جهنم، ما بدي أخسر الولد، هو جنّ وما إلُه علاج غير ينقلع على الصحراء، لحتى يرجع يشوف الدنيا على حقيقتها»، استسلمت أمِّي في النهاية، لم تحتمل أن يسافر عبد الرحمن وهي غاضبةٌ عليه، بكت عندما غادر المنزل، وبقيت أيَّامًا تبكي وتقول لنفسها: «كان لازم أمنعُه كيف ما كان، بعدو ولد»، حملت الطائرة عبد الرحمن إلى مدينة جدَّة ولم تعد قادرةً على فعل شيءٍ. كانت رسائله الأولى كلُّها سلامٌ وكلامٌ وتقبيل أيادي الوالدين، وسلامٌ تفصيليٌّ لكلِّ الأخوة، وكلِّ محاولاته لإطالة الرسالة تبوء بالفشل، لأنَّه لا يجد الكلمات التي يمكن أن يقولها عن نفسه وعن حياته هناك. هذه المرَّة كانت الرسالة مكتوبةً بطريقةٍ مختلفةٍ، لقد وجد شيئًا جديدًا يقوله لأوَّل مرَّةٍ. بعد السلام والكلام كتب: «يا أبي أريد أن أطلب منك طلبًا، وأتمنَّى ألَّا تردَّني خائبًا، وأنا أعرف أنَّك لن تردَّني. أنت تعرف صعوبة العيش في الغربة ولم أعد أستطيع احتمالها وحيدًا، لذلك رأيت وبعد إذنك طبعًا وموافقتك وموافقة الوالدة، أن أكمل نصف ديني في الغربة، خوفًا من خطأٍ هنا أو خطيئةٍ هناك»، عند هذا الحدِّ من الرسالة كانت عينا أبي وأمِّي تلمع ودموع أمِّي تنزل على خدها، وكانا متأثِّرين على نحوٍ كبيرٍ، وعندما أكملت بقيَّة الكلمات المكتوبة انقلب كلُّ شيءٍ. كانت الكلمات اللاحقة تقول: «وقد وجدت الإنسانة المناسبة لي لترافقني في حياتي، وهي مثال الأخلاق والسيرة الحسنة، وأتمنَّى عليك يا والدي، وبعد رضاك ورضا أمِّي طبعًا، أن تطلب لي يدها من أهلها. وشريكه حياتي التي اخترتها، هي سعاد ابنة عمِّك يا أبي»، لم أنتهِ من كلماتي حتَّى انفجرت أمِّي بالصراخ، وتجهَّم والدي. أمِّي فقدت أعصابها وتوجَّهت بالكلام لأبي: «قلتلك، هاي السفرة مش لله، ضحكوا على الولد وبدهم يجوزوه مرة بعمر أمُّه، هذا بكري يا رجل، مش رح أسمح بهذا الشي، أختك بدها تجوز طفل من

مرة أكبر منو بعشر سنين»، بالغت أمِّي، كانت سعاد تكبره بسبع سنوات، لم تتوقَّف أمي عن الشتائم لأيَّامٍ. لامت نفسها لأنَّها تركت طفلها يذهب إلى السعودية ويضحكوا عليه ويزوجوه من امرأةٍ عانس تكبره بعشر سنواتٍ. أمَّا أبي فالتزم الصمت، ولم ينبس بأيٍّ كلمةٍ. بعد أيَّام استدعاني أبي وقال لي: «اقعد هون واكتب اللي بقولك إياه بالحرف»، جلست وشرع في الكلام، كتبت اللازمة التي أكتبها في رأس كلِّ رسالةٍ دائمًا «بسم الله الرحمن الرحيم.. ولدي الحبيب» وبدأت أكتب كلام أبي وأحوِّله إلى الفصحى «وصلتنا رسالتك، وسمعنا مطالبك، وإذا كنت تريد أن نصاب بالصدمة، فقد تحقَّق لك ذلك، لكنَّنا لم نفعل لك شيئًا، حتَّى تُهيننا هكذا إهانةً، وكأنَّنا لسنا أهلك. ألم تجد امرأةً أخرى في العالم سوى سعاد، أنا لا اعتراض عليها، هي ابنة عمِّي وشرفي وهي من خيرة الناس. هل لعب أحدٌ بعقلك الصغير، ليقنعك بهذا الزواج، إنَّ عمرها قريبٌ من عمر أمِّك. ما الذي يدفعك لهذا الزواج؟! لقد صدمتنا رسالتك، وأنا وأمُّك لن نوافق على هذا الزواج، نراه مدمِّرًا لك ولها، لم نتوقَّع منك هذه الهديَّة بعد كلِّ ما فعلناه لأجلك، هذا تصرُّف أولادٍ، عُد إلى عقلك وفكِّر بطريقةٍ أفضل»، وختمت الرسالة بالخاتمة التقليديَّة: «قبلاتي لك يا ولدي. وأمُّك المشتاقة تهديك السلام، وتنتظرك بفارغ الصبر لتأخذك بحضنها، وسلام أخوتك جميعًا لك. والدك.»، انتبهت أنَّ مضمون الرسالة يتناقض مع ما كتبته في مقدِّمتها وخاتمتها، لكنِّي لم أجرؤ أن أطلب من أبي الغاضب إعادة كتابتها، ما إن انتهى من كلامه، حتَّى قال لي: «هات الرسالة» بعد أن كتبت عنوان أخي في السعوديَّة على مغلَّف البريد، أخذها وحرص على إيصالها بنفسه إلى البريد. سكبتْ رسالة أبي الزيت على النار، وبات أخي أكثر تمسُّكًا بخياره، وردَّ على الرسالة بتصعيد التحدِّي. قائلًا إنَّه يعرف ما يقوم به: «وبما أنِّي ولد، لماذا أرسلتموني إلى السعوديَّة وحدي»، وهدَّد بقطع كلِّ علاقةٍ معهم إذا لم يتمَّ هذا الزواج. أنا شخصياً كنت أعرف أخي، وأعرف لماذا يُقدِمُ على هذا الزواج، إنَّه يريد أن

يبني حياته بالطريقة السهلة وهذه أسهل الطرق المتوافرة له. بعد أخذٍ وردٍّ، رضخ أبي وأمِّي لرغبات الولد المتمرِّد الذي شعر نفسه قد كبر وأصبح رجلًا، بعد أن غادر إلى السعودية.

منذ صغري قرَّرت أنَّ مصيري لن يكون كمصير عبد الرحمن، كنت مقتنعًا بضرورة الاستمرار في الدراسة، بصرف النظر عن إصرار أمِّي، التي أرادتنا أن نتعلَّم، لأنَّها حُرِمَت من التعليم، لقد عملت وأنا طفل بذات المطبعة التي عمل بها عبد الرحمن، لم أجد نفسي في المستقبل مجرَّد عاملٍ في مطبعةٍ أو حتَّى صاحب المطبعة ذاتها. كان العمل وسيلةً للحصول على المال من أجل متابعة دراستي، حتَّى لا أرهق أهلي بتكاليف دراستي. قلت سأكمل دراستي بأيِّ ثمنٍ، لم أقرِّر ماذا سأدرس في المستقبل، كنت محتارًا بين أن أكون مدرِّسًا أو طبيبًا. وفي كثيرٍ من الأحيان كنت أقول سأذهب إلى الجامعة بأيِّ ثمنٍ وبصرف النظر عن الفرع الذي سأدرسه. عندما حصلت على الشهادة الثانويَّة، قرَّرت أن أعمل مدرِّسًا من دون أن أغلق مستقبلي على أن أكون مدرِّسًا طوال عمري، وكانت الأونروا تطلب مدرِّسين ووكلاء مدرِّسين على شهادة الثانويَّة، من أجل المدارس التي ستفتحها في ذلك العام في مخيَّم اليرموك الذي أقامته الأونروا حديثًا جنوب دمشق بحوالي سبع كيلومترات. في الوقت الذي تقدَّمت فيه لوظيفة الأونروا، سجَّلت نفسي في كليَّة الاقتصاد في جامعة دمشق، مع أنِّي كنت أستطيع أنَّ أسجِّل نفسي في كليَّة الطبِّ، لكن لا يمكنني أن أدرس في هذه الكلية وأعمل في الوقت ذاته، كما أنَّها كليَّةٌ تحتاج إلى دراسة سنتين إضافيَّتين عن الكليَّات الأخرى، وأنا لا أملك ترف الوقت. وجدت نفسي في كليَّة الاقتصاد، لماذا كليَّة الاقتصاد؟ لا أعرف، لقد سجَّلتها على نحوٍ اعتباطيٍّ، كان يمكن أن أسجِّل أيَّ فرعٍ آخر، المهمُّ كليَّةً في الجامعة، وليس مهمًّا أيَّ فرعٍ، هذا ما دار برأسي حينها. وفي الوقت الذي سجَّلت نفسي في الجامعة وتقدَّمت لوظيفة الأونروا، تقدَّم أبي للحصول على قطعةٍ من الأرض في مخيَّم اليرموك لنتخلَّص من البيت

الطينيِّ الصغير الذي نعيش فيه في منطقة حي الأمين البائسة، والذي يتألَّف من غرفةٍ بائسةٍ وشيءٍ يشبه المطبخ والحمام. سكنَّا فيه بعد أن حطَّت الرحال بنا في دمشق، وبعد أن كنَّا سكنَّا الجامع لبضعة أشهرٍ، كنَّا سبعة أشخاصٍ مع جدَّتي بعد أن غادر أخي عبد الرحمن إلى السعوديَّة. لكنَّ أمِّي ما لبثت خلال السنوات التي سكنَّاها في حيِّ الأمين، أن أنجبت بنتًا وولدًا، وأصبحنا ثمانية أشخاصٍ نعيش في ذلك المكان الحقير، خرج شخصٌ من المكان بسفر عبد الرحمن إلى السعوديَّة، أضافت أمِّي شخصين. لم أفهم كيف وجد أبي وأمِّي الوقت والمكان لصناعة المزيد من الأطفال. يبدو أنَّ نداء الطبيعة أقوى من أيِّ أزماتٍ، وأقوى من أيِّ اقتلاعٍ، وأقوى من أيِّ حزنٍ. إنَّه الشيء الممتع الوحيد المتوافر للبؤساء، يستمتعون بعض الوقت، يأتون إلى هذه الحياة بمزيدٍ من البؤساء، الذي يشاركونهم هذا البؤس.

حصلت على وظيفة وكيل مدرِّس في الأونروا، وحصل أبي على قطعة الأرض التي طالب بها له ولأبنه عبد الرحمن المتزوِّج، لأنَّ قطع الأرض في المخيَّم الجديد لم تكن تمنح سوى للعائلات، أي أنَّ العزَّاب لا يستطيعون الحصول عليها، وعليهم العيش مع عائلاتهم، وكانت تزيد مساحة الأرض التي تمنح للعائلة أو تنقص بالتناسب مع عدد أفراد العائلة، وهناك سقفٌ للمساحة، لا تُعطى العائلة فوق هذه المساحة مهما كان عدد أفرادها. ولأنَّ أبي حصل على حصَّتين ليستا متساويتين لعائلته وعائلة ابنه اختارهما إلى جانب بعضهم، حصلنا على مساحةٍ أكبر من السقف الذي تمنحه الأونروا للعائلة الواحدة. وعندما قال أبي لأخي في السعودية أنَّه حصل له على قطعة أرض، ماذا يفعل بها؟ كان جوابه: «أنا لا أحتاجها، تستطيع أن تتصرَّف بها»، أنا من قرأ الرسالة التي قال فيها أنَّه لا يريد هذه الأرض في هذا المكان النائي، لأنَّه -وهو المتزوِّج حديثًا والمرزوق بابنةٍ جديدةٍ- كان يراهن على أنَّه سيتحوَّل إلى رجل مالٍ قريبًا، بحكم زواجه من أخت رجلٍ

مليونيرٍ منذ ذلك الوقت، لم تمضِ على زوج عمَّتي وابن عمِّ أبي عشر سنواتٍ في المملكة السعوديَّة، حتَّى تحوَّل إلى مليونيرٍ وحصل على جنسيَّة البلد خلال هذه المدَّة القصيرة، مع أنَّه مثلنا ترك كلَّ شيءٍ في حيفا وخرج وزوجته بملابسهم فقط، لم يكونوا قد رزقوا بأيِّ أطفال بعد، كانا زوجين حديثين عندما وقعت النكبة. ويبدو أنَّ عبد الرحمن كان غارقًا في أحلامه، عندما تخلَّى عن قطعه الأرض التافهة ذات الطريق الطينيِّ الواقعة في مجاهل جنوب دمشق. لم يخطر بباله أنَّه لن يصبح مليونيرًا ولا شريكًا لمليونير، ولم يخطر على باله -ولا على بال غيره- أنَّ قطعة الأرض التافهة الغارقة في الوحل في جنوب دمشق، ستصبح بعد حوالي ثلاثين عامًا في قلب مدينة دمشق المتوسَّعة على نحوٍ جنونيٍّ في الستينيَّات والسبعينيَّات من القرن العشرين. وبعد أن حصل هذا التحوُّل في المكان، وأصبح مكانًا في غاية الأهميَّة وأسعاره ارتفعت على نحوٍ جنونيٍّ، نفى أنَّه قال لأبي ما قال عن قطعة الأرض، وكذَّبنا كلَّنا، مع أنَّه أكَّد هذا في رسالتين متتاليتين، كما أكَّده مباشرةً في زيارته الأولى التي جاء فيها متعاليًا علينا وكأنَّه قادمٌ من كوكبٍ آخر، ونحن لا نمتُّ له بصلةٍ وكأنَّه ليس ابن هذه العائلة ولم يمضِ على غيابة سوى أعوامٍ قليلةٍ.

أعاده فشله في أنَّ يصبح مليونيرًا إلى ذلك الشخص الأنانيِّ المعروف من قبلنا، وقد تكون أنانيَّته هي التي منعته أصلًا أن يغتني في السعوديَّة، فقد ذهب كثيرون إلى هناك واغتنوا، لكنَّه أراد أن يصبح غنيًّا بعمل الآخرين وأن يأتيه كلُّ شيءٍ سهلًا وجاهزًا. صحيحٌ أنِّي قد لحقت به بعد سنواتٍ إلى جحيم السعوديَّة، لكنِّي لم أفكِّر يومًا في أن أصبح غنيًّا، كلُّ ما طمحت إليه تحسين أوضاعنا إلى الأفضل، أن أخلق أفضل الظروف من أجل أن يعيش أولادي في ظروفٍ أفضل من تلك التي عشتها أنا.

تسلَّمت وظيفتي في الأونروا في مدرسة رأس العين في المخيَّم في العام ذاته الذي انتقلنا فيه إليه، لقد بنى أبي بيتنا في المخيَّم بشكلٍ بسيطٍ وحفر

البئر بيديه في صدر البيت مقابل الباب الخارجي. وعلى طرفي البيت أربع غرفٍ وبين الغرفتين اللتين على اليمين وبين البئر كان هناك شجرةٌ تفاح، والى جانبها مطبخٌ صغيرٌ ملاصقٌ للغرفة الداخليَّة اليمينيَّة وفي الوقت ذاته يستخدم حمامًا في نهاية الأسبوع، أمَّا المرحاض فكان إلى جانب الباب الخارجيِّ، وقد حفرت تمديداته إلى حفرةٍ صغيرةٍ أمام المنزل وغطَّيته بغطاءٍ خشبيٍّ وطمرته بالتراب، وهذا ما فعله جميع من سكن المخيَّم، فعندما بدأوا بالانتقال إلى هناك لم يكن الصرف الصحيُّ قد وصل إلى تلك المنطقة، وسينتظر المخيَّم حوالي خمسة عشر عامًا لوصول الصرف الصحيِّ إليه.

عندما بدأت العمل في المدرسة لم يكن عندي خبرةٌ في التدريس، وخبرتي الوحيدة هي تدريسي لإخوتي الأصغر في بعض المواد تحديدًا، مثل الفيزياء أو الرياضيات، أمَّا مواد أخرى مثل التاريخ والجغرافيا، فلم أكن أطيقها، وبما أنِّي كنت صاحب شهادة ثانويَّةٍ علميَّةٍ، فقد اختُرت لتدريس الرياضيات للصفوف الرابع والخامس والسادس وهذا ما كان يناسبني تمامًا. كان المدرِّسون جميعهم في المدرسة من الشباب تقريبًا ولا خبرة سابقةً لنا، خرِّيجون جدد في دار المعلمين أو طلَّابًا في جامعة دمشق. وأغلبنا من سكَّان المخيَّم، فلم تكن المنطقة في ذلك المكان البائس والموحل شتاءً والمغبرِّ صيفًا تجتذب أحدًا للعمل فيه. منذ البداية قرَّرت ألَّا أستخدم أيَّ عصًا في المدرسة، رغم أنَّ الآباء والأمهات كانوا يقولون لنا عندما يحضرون أولادهم للتسجيل أو لتوصيلهم: «الكم اللحم والنا العظم»، أي أنَّنا نستطيع أن نعاقب أولادهم بالضرب، حتَّى الضرب المبرح، لكن من دون أن نصيبهم بكسر. وفي ذلك الوقت لم يكن الضرب قد مُنِعَ في أيِّ مكانٍ في العالم، فقد كان وسيلة تربيةٍ وتعليمٍ مقبولةٍ وشائعةٍ. مع أنِّي لم أستخدم الضرب في المدرسة مع الأولاد، إلَّا أنَّ الوضع كان مختلفًا في البيت مع إخوتي، هدوئي الشديد في المدرسة يتحوَّل إلى عاصفةٍ في البيت عندما يخطئ أحد إخوتي في المنزل في دارستهم، حتَّى لا يختلط الوضع في المدرسة، فلم أقبل أيًّا من

إخوتي في صفوفي، لأنِّي أدركت أنِّي لن أستطيع أن أحافظ على هدوئي في حال كان أحد إخوتي في الصف عندي. لقد أحببت مهنتي كمدرِّسٍ، وكنت أستطيع شدَّ انتباه الطلَّاب من دون التهديد بالضرب، لكن في البيت ينتهي دور المدرِّس وأعود إلى دور الأخ الأكبر المكلَّف من الأب بسلطة عقاب الأخوة.

كان الانتقال إلى المخيَّم بالنسبة لي انتقالًا إلى العزلة بعيدًا عن دمشق، لأنَّ السنوات التي قضيناها في حي الأمين وذهابي إلى المدارس السوريَّة، جعلني أقيم علاقات صداقةٍ مع طلَّاب سوريِّين من الذين درسوا معي في مدارس دمشق. وكان من الطبيعي أن يكون هناك صداقاتٌ، كما يكون هناك عداواتٌ. تعاطف الأصدقاء معي ومع إصابتي ومع نكبتنا كشعبٍ. والأعداء شمتوا بي وسخروا منِّي وأطلقوا عليَّ لقب «الأعرج» عندما أرادوا استفزازي. في ذلك الوقت بدأنا كأصدقاء في مطلع شبابنا نحاول الإجابة على الأسئلة التي تطرحها الحالة التي نعيشها، لماذا وصلنا إلى هذه الحالة من الضعف؟ ولماذا هُزِمنَا؟ وكيف نخرج ممَّا نحن فيه من ضعفٍ؟ كنت كغيري من الشباب معجبٌ بجمال عبد الناصر الرئيس المصريِّ الشابِّ الذي أطاح بالملك الفاسد، وطرد الإنكليز من مصر وأمَّم قناة السويس ودحر العدوان الثلاثيَّ الإنكليزي ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي عن بلده. وشعرت كما شعر كلُّ الشباب في ذلك الوقت، أنَّ ما جرى أعاد لنا الأمل بأنَّنا يمكن أن ننتصر على أعدائنا، وما الهزيمة في فلسطين سوى عارضٍ سرعان ما تطويه أمَّةٌ عربيَّةٌ متحدةٌ قادرةٌ على التصدِّي لكلِّ الأخطار التي نواجهها، وقادرةٌ على إعلان ولادةٍ جديدةٍ لأمَّةٍ عربيَّةٍ، تأخذ موقعها الذي تستحقُّه في العالم، وتخرج من الذلِّ والهوان الذي تعرَّضت له قبل سنواتٍ قليلةٍ. لذلك تظاهرنا في دمشق ضدَّ العدوان الثلاثي. وتظاهرنا بعده من أجل الوحدة مع مصر، كنَّا نجمع بعضنا نحن الشباب اللاجئين في حي الأمين، ننضمُّ لآخرين سوريِّين وننطلق للحاق بالمظاهرات التي كانت تجوب وسط مدينة

دمشق تنادي بالوحدة مع الأسمر في مصر، بُحَّت أصواتنا من كثرة ما هتفنا للوحدة وللرجل المخلص. كبر الأمل عندنا كبارًا وصغارًا، سنعود إلى الديار إنَّها مسألة وقتٍ، القليل من الصبر وسنعود، سنطرد اليهود ونعود إلى بلادنا ونكفَّ عن كوننا لاجئين. شكَّل الأمل نصرًا في ذلك الوقت، أخرجنا من سوداويَّتنا رغم البؤس الذي كنَّا نعيشه. لقد حطَّمنا اللجوء، وجاء الأمل بأنَّنا سنرمِّم حطامنا ونعود بشرًا في وطنهم. كنت أذهب إلى كلِّ المظاهرات التي أستطيع الذهاب إليها. وطبعًا، لم أفوِّت على نفسي حضور خطاب الرئيس المصريِّ، الذي جاء في أوَّل زيارةٍ إلى دمشق، والذي ألقاه من القصر الرئاسيِّ، كان الناس بحرًا يتماوج ويُطرب للكلمات التي يسمعها من الرئيس الخطيب المفوَّه الذي أعلن أنَّ العرب باتوا قوَّةً عظمى في وحدتهم. لقد نُحِرَت الخراف على طريق الرئيس احتفاءً به، حاول الآلاف الوصول إليه للمسه أو تقبليه إن أمكن، لقد مسَّ الجميع شيئًا من السحر في تلك الأيَّام، وتُوِّجَ الرجل نبيًّا ومُخلِّصًا. لم تطل فرحتنا وفرحة أصدقائي السوريِّين بالوحدة، فهذا الرجل الذي قدَّم السوريُّون له بلدهم على طبقٍ من ذهبٍ، ولم يبذل أيَّ جهدٍ في إنجاز الوحدة، بعيدًا عن الخطابات والشعارات الفارغة التي أصابتنا بغيبوبةٍ، فلم نعد نرى سوى النصر القريب، جاءت ممارسات السلطة على عكس ما توقَّع السوريُّون. لقد جاءوا من تجربةٍ ديمقراطيَّةٍ مطالبين بالوحدة، البرلمان السوريُّ والرئيس السوريُّ الذي طلب الوحدة مع مصر، هما البرلمان والرئيس الذين انتخبا في انتخاباتٍ ديمقراطيَّةٍ لا غبار عليها بعد استعادة سورية من الديكتاتور الذي هرب من البلد. ضغط الشارع على هذه السلطات المنتخبة هو الذي أوصل البلد إلى الوحدة. لذلك كان آخر ما توقَّعه السوريُّون، أن تعاملهم السلطات الجديدة، أسوأ ممَّا كانت تعاملهم الدكتاتوريَّات السابقة. كانت أحلامهم بدولة وحدةٍ قويَّةٍ تعبِّر عنهم وتمنحهم الحريَّات، أو على الأقل تحافظ لهم على الحريَّات التي اكتسبوها، لقد قبلوا بحلِّ الأحزاب عن رضا، على أساس

أن تبقى الحريَّة هي العنوان الذي يستطيع فيه الشعب أن يحقِّق أهدافه كما كان يقول الرئيس المصريُّ بلسانه. لكنَّ الواقع قال كلامًا آخر، أنَّ الحكم بات مصريًّا، وبأسوأ أنواع الحكم. شعر السوريُّون أنَّ عبد الناصر قد أوكل حكم سورية إلى نائبه المصريِّ، وهذا بدوره أوكل حكم البلد لأجهزة المخابرات، التي أخذت تبني دولةً أمنيَّةً في سورية على الشاكلة المصريَّة، والتي باتت تخيف الناس. خلال عامين تبدَّدت عند السوريِّين أحلام الوحدة، التي شعروا أنَّها مجرَّد أوهامٍ، توهَّموها وحدهم وأنَّهم لم يصنعوا الوحدة مع مصر، إنَّما صنعوا الوحدة مع رجلٍ واحدٍ، تبيَّن أنَّه ديكتاتور يحكم بأجهزة المخابرات بطريقةٍ أسوأ من الديكتاتوريَّات التي حكمت سورية قبل الوحدة.

عددت نفسي أحد الذين أسهموا في إنجاز الوحدة باشتراكي في المظاهرات التي دعت للوحدة والاشتراك في احتفالات إعلانها. لكن بعد عامين لم يُلحَظ أيُّ تغييرٍ في البلد، الممنوعات تزيد في البلد، والمخابرات تلاحق الناس لانتمائهم لأحزاب سياسيَّةٍ سريَّةٍ، وفهمت وقتها أنَّ الرئيس الأسمر الذي هتفنا للوحدة معه، مشغولٌ بالسلطة وتعزيزها بالمخابرات، ومشغولٌ بملاحقة الأعداء أكثر ما هو مشغول بمستقبل الأمَّة. كفرت بقناعتي بالرجل، من دون أن أكفر بفكرة الوحدة. وبتُّ محبطًا، وعرفت أنَّ أحلامنا بالعودة سريعًا إلى فلسطين قد تبدَّدت، لم أكن قادرًا على إعلان هذا الموقف، لأنَّ الكثيرين بقوا أسرى أحلامهم بالوحدة التي ستعيدنا إلى فلسطين. في الوقت الذي أراد السوريُّون وحدةً، أراد عبد الناصر الضمَّ، وتعامل مع «الإقليم الشمالي» مثلما تعامل مع «الإقليم الجنوبيِّ»، ولأنَّه ديكتاتور لا يشارك أحدًا السلطة في مصر، لم يشارك أحدًا السلطة في الإقليم الجديد، وكانت المناصب التي أعطيت للسوريِّين شكليَّةً، لا سلطات لها، من نائب الرئيس إلى الوزراء في الحكومة المركزيَّة، ولم يهدِ الرئيس المصريُّ سورية جهاز مخابراتٍ قويًّا أيَّام الوحدة فحسب، بل وأهداها أيضًا محاكم

«أمن الدولة» ذات الطابع السياسيِّ أيضًا. كان زخم الوحدة موجًا جرف الجميع، سرعان ما خبا وأخذ الواقع يظهر على حقيقته بممارساتٍ سلطويَّةٍ واستعلائيَّةٍ من القاهرة على سورية. ما أحبط السوريِّين وجعلهم مستعدِّين لخطوة الانفصال التي قضت على هذه الوحدة، ومن بين ما قضت عليه أحلامنا بتحرير فلسطين والعودة إليها. انتقلنا إلى المخيَّم في أثناء فترة الوحدة، وهذا الانتقال إلى العزلة ناسب مزاجي في ذلك الوقت، بعد خيبة أملي في الوحدة، التي رأيت فشلها قبل الانفصال، كما أنَّ هذا الانتقال قطع علاقتي بأصدقائي السوريِّين لصعوبة التواصل معهم. وانقطعت علاقتي بالسياسة بعدها، حاول أصدقاءٌ لي بعدها دفعي إلى المشاركة في نقاشٍ ماذا نفعل كفلسطينيِّين بعد فشل الوحدة، والدعوة إلى اعتمادنا على أنفسنا، لأنَّه «ما بحك جلدك غير ظفرك» كما قال المثل الشعبيُّ، لكنِّي لم أعد مهتمًّا بالسياسة منذ أصبت بإحباط الوحدة، وقرَّرت أن أبني حياتي بعيدًا عن السياسة، لأنِّي ببساطةٍ لا أحتمل إحباطاتها.

إذا كان عيشنا في حيِّ الأمين حالة بؤسٍ، فإنَّ اليرموك الذي أصبح بعد أربعة عقودٍ مدينةً، كان البؤس بعينه في سنواته الأولى. وقد بُنِيَ عكس ما تُبنَى كلُّ الأماكن في العالم. فعادةً ما تُبنَى المدن أو الوحدات السكنيَّة من البنية التحتيَّة، وبعدها تُبنَى البيوت التي تعتمد على هذه البنية التحتيَّة في تخديمها من شبكة مياهٍ وشبكة صرفٍ صحيٍّ وشبكة كهرباء. افتقد المخيَّم كلَّ ذلك، لا شبكة صرفٍ صحيٍّ في المكان، فحفر السكَّان جورًا صغيرةً إلى جانب بيوتهم يصلون عليها مراحيضهم للخلاص من برازهم. ولا شبكة مياه تغذِّي المكان، فحفروا آبارًا داخل بيوتهم، وحرصوا على أن تكون الآبار على الطرف الآخر من بيوتهم التي تقع فيها حفرة المرحاض، حتَّى لا تتلوَّث آبارهم. وكان من حظِّهم أنَّ المياه في الغوطة حيث موقع المخيَّم، كانت تظهر على عمق ثلاثة أمتارٍ من الحفر، لكنَّها بعد ثلاثة عقودٍ لم تعد تظهر على بعدٍ أقلَّ من مئة مترٍ من الحفر، كلُّ ذلك بسبب اقتلاع ملايين الأشجار

من غوطة دمشق خلال هذه العقود. استخدمت مياه البئر للغسيل والجلي، وكنَّا نشتري مياه الشرب، بالتنك الذي يُعبَّأ في الزاهرة من شبكة المياه، ينقلونه على الطنابر ويبيعونه في المخيَّم. ولم يكن هناك شبكة كهرباء فاعتمدوا على مصابيح الكاز، لينيروا ليلهم الطويل. بدأت الحياة في المخيَّم متقشِّفةً، فلا أدواتٍ كهربائيَّةً لأنَّه لا تيَّار كهربائيًّا، وهذا يعني لا غسالاتٍ كهربائيَّةً، لا خزانات مياهٍ ساخنةٍ، لا براداتٍ، ولا راديو... كان هذا تعذيبٌ حقيقيٌّ للنساء، لا سيَّما الغسيل وتحميم الأطفال. كنت أنظر إلى أمِّي المنهكة في حفلة الغسيل الأسبوعيَّة، وأحزن لحالها من الجهد الهائل الذي تبذله لتحميم إخوتي الصغار وغسل الغسيل، أو تحضير الأكل على البريموس، أو العجن وإرسال العجين مع أحد إخوتي لخبزه في الفرن القريب من البيت. كلُّ شيءٍ احتاج إلى جهدٍ مضاعفٍ مرَّاتٍ عدَّةً منها. تمنَّيت أن اشتري لها غسالةً، كانت موجودةً في ذلك الوقت، وكنت قادرًا على دفع ثمنها، لتخليصها من العذاب، لكن لم يكن هناك فائدةٌ من شرائها من دون وجود تيَّار كهرباء، الذي انتظر حوالي عشر سنواتٍ ليدخل كلَّ بيوت المخيَّم، تيارٌ ضعيفٌ غير قادرٍ على تحريك محرِّك غسالةٍ. لكنَّه قادرٌ على إضاءةٍ خفيفةٍ وتشغيل الراديو.

لم يكن التدريس في المخيَّم صعبًا في ذلك الوقت، فقد كان المعلِّم بمنزلة نصف إلهٍ، يهرب التلاميذ من الشارع عندما يرون أستاذهم، فهم يكنُّون له مشاعر هي خليطٌ بين الخوف والاحترام، والأهل في البيت يعزِّزون هذه المكانة عند التلاميذ. انقسم المدرِّسون في التعامل مع التلاميذ، بين من تعامل معهم بالضرب والقسوة، وعدُّوها النموذج الأفضل لتربية هؤلاء التلاميذ وإجبارهم على التعلم، لأنَّه لو ترك الأمر لهم، تركوا المدرسة في اليوم التالي. وقد زاد البعض، أنَّ هؤلاء التلاميذ أصحاب قضيَّةٍ، ونحن مثلهم أبناء هذه القضيَّة، فالواجب الإضافيُّ بحكم عبءٍ هذه القضيَّة، يتطلَّب منَّا أن نجبر هؤلاء التلاميذ على التعلُّم حتَّى يكون مستقبلهم أفضل

ليساعدوا أنفسهم ويخدموا قضيَّتهم. الأغلبيَّة الساحقة من المعلِّمين أيَّدوا وجهة النظر هذه واستخدموا الضرب. استخدم بعض المعلِّمين الضرب المعتدل كأداة تقويمٍ للطلاب وتنبيهٍ لهم، وهناك من جلدهم وكأنَّهم أعداؤه، شعرت أنَّ بين هؤلاء المعلِّمين والتلاميذ ثأرٌ قديمٌ، يضربونهم ضربًا مبرحًا بلا ذنبٍ واضحٍ، يضربونهم من أجل إخافتهم فقط، من دون أيِّ هدفٍ تربويٍّ. منذ البداية قرَّرت ألَّا أضرب أيَّ تلميذٍ، فالمعلِّمون الآخرون يَضربُونهم بما يكفي ولن يزيد ضربي لهم شيئًا. لذلك اعتمدت إقناعهم بأهميَّة الدراسة، وأنَّهم إذا أرادوا مستقبلًا أفضل عليهم أن يتعلَّموا، كانت هذه مهمَّةً أصعب من التدريس نفسه. كيف تقنع طلابًا بؤساء في مكانٍ بائسٍ أنَّ التعليم سيخرجهم من القاع الذي هم فيه؟ نجحت مع البعض، وفشلت مع الأكثريَّة. في العقود اللاحقة كنت أشعر بالسعادة عندما أصادف شخصًا يشغل وظيفةً ما، يسلِّم عليَّ بحرارةٍ ويشكرني لأنِّي كنت أستاذه، وأنَّ كلماتي أثَّرت فيه وأسهمت في إصراره على تغيُّر مصيره والحصول على تعليمٍ جامعيٍّ. صادفت العديد من هؤلاء في حياتي، وكنت سعيدًا لأنَّ لي أثرًا في حياة هؤلاء، وأنَّ المحاولات التي بذلتها لم تذهب كلُّها سدًى كما ظننت.

بعد أن انتقلنا إلى المخيَّم واستلام وظيفتي في الأونروا، كان عمِّي ديب قد تحدَّث عن خطبة أختي بيان لابنه محمد وهو ابن خالتي في الوقت ذاته. وافق أبي وأخذوا يحضِّرون للخطبة، كانت بيان تدرس للشهادة الثانويَّة فأجَّلوا الحفلة إلى ما بعد الامتحانات. اشتروا بعض الأغراض للخطبة، وضعوها أمانةً عند أمِّي، ريثما تنتهي بيان من امتحاناتها ليحتفلوا بالخطبة رسميًّا. اقترح أبي عليَّ أن تصبح الفرحة فرحتين، بأن أخطب ابنة عمِّي عائشة، فأنا أصبحت منتجًا وقادرًا على الزواج والبيت كبيرٌ يتسع للجميع. لم أعترض على هذه الخطبة، فأنا أعرفها وكنَّا نلعب معًا عندما كنَّا نسكن في حي الأمين وكانوا جيراننا. جهَّزنا أنفسنا أنا وأمي وأبي، وذهبنا في

زيارةٍ لبيت عمِّي وفي هذه الزيارة قال أبي لعمِّي: «إحنا جاين نطلب إيد بنتك عائشة لأبنا خليل»، قبل أن يفتح عمِّي فمه بأيِّ كلمةٍ، جاء الردُّ من خالتي المعروفة بفجاجتها، التي قالت «ما شاء الله، أنا ما بجوِّز بنتي لواحد أعرج»، لم استبعد رفض عمِّي المتأنِّف وخالتي المتعالية هذه الخطوبة، لكنِّي لم أتوقَّع رفضًا جارحًا وبكلِّ هذه الوقاحة. عقد ردُّ خالتي لساني، لم يخرج الكلام منِّي. وقفت وخرجت راكضًا أجرُّ قدمي التي عيَّرتني فيها من بيت عمِّي، حتَّى لا أبدأ بالبكاء وأعجز عن أيِّ ردٍّ سوى الدموع، التي كانت أعزُّ ما أملك ليس في ذلك الوقت فقط، بل طوال حياتي أيضًا، لن أسمح لأحدٍ أن يراها حتَّى أمِّي. لم أكن غاضبًا في حياتي، كما غضبت في ذلك اليوم، وبدل أن أهدأ مع الوقت ازداد غضبي. شعرت أنَّ عليَّ فعل شيءٍ ما حتَّى أهدأ قبل أن ينتهي ذلك اليوم. لأنِّي لو نمت من غير أن أفعل شيئًا لن أصحو في اليوم التالي. عدت في المساء بعد أن ذرعت شوارع دمشق مشيًّا وجلست في مقاهي عدَّةٍ، ودخَّنت عددًا كبيرًا من السجائر، ولم أعرف الهدوء، أهدأ قليلًا ثمَّ أعود إلى الغليان. عدت إلى البيت سألت أمِّي: «وين غراض بيت عمي اللي جابوها لبيان؟»، قالت أمي: «شو بدك فيها؟»، قلت: «بدي إياها والسلام»، قالت: «شو بدك تعمل؟»، قلت: «بتجيبيهم ولا بحرق البيت؟»، قالت: «طول بالك»، قلت: «يما جيبيهم. ما عاد عندي صبر»، عرفت أمِّي أنَّ غضبي يمكن أن يدفعني لفعل أيِّ شيءٍ. أذعنت وجلبت الأغراض. حملتها وانطلقت فورًا إلى بيت عمي. قرعت الباب وكان من حسن حظِّي أنَّ خالتي هي التي فتحت الباب. رميت الأغراض بوجهها وأنا أقول: «خرا عليكو وعلى اللي بيأخذ منكو وعلى اللي بعطيكوا، يا زبالة»، قلت كلماتي وعدت أدراجي. بهتت خالتي من المفاجأة، سمعتها وأنا أبتعد عن بيتهم وهي تقول: «الله يكسر إيديك يا أعرج يا ابن الأعور»، بقيت شتيمتها هذه ترنُّ في أذني لسنواتٍ طويلةٍ. وضع ما فعلته حدًّا لأيِّ علاقة تزاوجٍ بيننا وبين بيت عمِّي.

أخافني الصدام الأوَّل مع فكرة الزواج، قدمي مشكلةٌ بيني وبين نفسي، طوال عمري، حاولت أن أتجاوزها وألَّا أفكر فيها، كنت قادراً على هذا وأنا طفلٌ ويعيِّرني الأطفال الآخرين المتخاصم معهم بقدمي المصابة، كنت أعدُّ هذا شتيمةً مثل غيرها من الشتائم التي نتبادلها، لم تكن لتهزَّ ثقتي بنفسي. لا أعرف لماذا جاء الوضع مختلفًا مع خالتي، هزَّني كلامها من الداخل وهزَّ ثقتي بنفسي. عيَّرني الأطفال بقدمي المصابة لأنَّنا كنَّا متخاصمين. لم أكن متخاصمًا مع خالتي أو عمِّي أو أحدًا من أبنائهم، وما من سببٍ يجعل خالتي تفعل ذلك بي، بهذا الشكل الحاقد، الذي تسبَّب لي بجرحٍ بليغٍ. كان يمكنها مراعاة مشاعري، وأن ترفض بالطريقة التقليديَّة وتقول: «والله ما في نصيب»، لم أفهم لماذا كلُّ هذه العدوانيَّة التي تسبَّبت لي بجرحٍ جعلني حذرًا في التعامل مع النساء خوفًا من جرحٍ آخر.

لم يطل الأمر. عندما انتقلنا إلى المخيَّم، تعرَّفت أختي بيان على صديقاتٍ جديداتٍ في المدرسة الثانويَّة التي درست فيها، وكانت خديجة التي تسكن في المخيَّم مع والدتها من بينهم. ولأنَّ والدها قُتِلَ في الحرب في فلسطين، أخذت أمُّها عهدًا على نفسها عندما لجأت من فلسطين وعمر ابنتها خمس سنواتٍ، ألَّا تترك البنت وحدها وألَّا تجلب لها زوج أمٍّ. اشتغلت أعمالًا عدَّةً متواضعةً مع بعض المساعدات التي تمنحها الأونروا، استطاعتا العيش في ظروفٍ في غايةٍ الصعوبة. حصلت أمُّها على قطعة أرضٍ من مؤسَّسة اللاجئين في المخيَّم، بنتها على مراحل حتَّى أصبحت منزلًا صالحًا للسكن. عدَّت الأم أنَّ تعليم ابنتها أهمَّ شيءٍ في حياتها، حتَّى لا يكون لها المصير ذاته الذي عاشته هي، ولم تكن البنت أقلَّ رغبةً في تغيير مصيرها من أمِّها، فعملت على تحقيق حلمها وحلم أمِّها ومستقبلها. عندما قابلتها في بيتنا أوَّل مرَّةٍ، كانت هي وأختي بيان في السنة الأخيرة من الدراسة الثانويَّة. لا أستطيع القول أنِّي وقعت في حبِّها من أوَّل نظرةٍ، هناك شيءٌ أعجبني في هذه الفتاة الطموحة والذكيَّة التي تفوَّقت على ظروفها

الصعبة، علَّمتها قسوة الحياة أن تكون واثقةً بنفسها لأنَّها لم تصنع ظروفها، إنَّما وجدت نفسها في هذه الظروف، وهي تتعامل معها ببساطةٍ، من دون إعلان سخطها على العالم بسبب أوضاعها القاسية. كانت واحدةً من سمات المخيَّم، أنَّ الذين يعيشون فيه، يعانون من الظروف القاسية ذاتها، وكان التفاوت بينهم متواضعًا، وهي فترة صراعٍ مريرٍ مع المنافي التي وجدنا أنفسنا فيها وقد خسرنا كلَّ شيءٍ، بيوتنا وأعمالنا حتَّى ملابسنا. عمل الكلُّ جاهدًا من أجل الخروج من هذه الظروف التي وجدنا أنفسنا فيها بسبب اللجوء. بعد عقدين من الزمن، ستتحسَّن ظروف الجميع، ليس بالمستوى ذاته، لأنَّه سيكون هناك من قهر ظروفه وتفوَّق على القسوة وصنع حياته من جديدٍ مع غصَّة العيش في بلاد الآخرين، وآخرون قهرتهم الظروف ولم يستطيعوا الانتصار عليها. كنت شابًّا طموحًا قد تعرَّف على فتاةٍ طموحةٍ، وجدت نفسي أتقرَّب منها. مع خوف الفشل الذي حملته من تجربتي المريرة مع بيت عمي، تطوَّرت العلاقة ببطءٍ، ولكن بثباتٍ وبتشجيعٍ من بيان، كانت العلاقة بدايةً تقتصر على السلام، صارت حديثًا قصيرًا، وبعد ذلك أسئلة حول دراستهما ومساعدتهما في الدراسة عندما يكون ذلك بمقدوري، سؤالٌ عن امتحانات الشهادة الثانويَّة وتفاصيلها بما أنِّي مررت بها قبل سنواتٍ قليلةٍ. أصبحت خديجة تقضي وقتًا طويلًا عندنا من أجل الدراسة مع بيان، وأمِّي وأمُّها رحَّبتا بالفكرة، أن تدرسا معًا أفضل من أن تدرس كلُّ واحدةٍ بمفردها، وتشعر بالملل. وجود خديجة عندنا جعل علاقتها مع الجميع جيِّدةً، حتَّى باتت أمِّي وإخوتي يعدُّونها واحدةً من العائلة. كما أنَّ وجودها الطويل عندنا، جعلنا نتحدَّث في الكثير من الأشياء وجعلنا أقرب إلى بعضنا بعضًا. وأصبحتا كلَّما أرادتا الاستراحة من الدراسة، تأتيان للتحدُّث معي في الكثير من القصص والمواضيع، وهذا ما جعل العلاقة تتجاوز الرسميَّات التي حرصت عليها في البداية، وتخلَّيت عنها سريعًا. لسمرة خديجة الكثير من السحر مع عيونها الواسعة ووجهها

الانسيابيِّ مع خدودٍ مرتفعةٍ. ضبطتني أحيانًا وأنا أتأمَّلها، تخجل وأخجل. أفكِّر فيها كثيرًا، وتجتاحني مشاعر الشوق لها، كنت أسأل نفسي: «هي بتفكِّر فيني زي ما بفكِّر فيها؟» أعود لأنفي، ولماذا تفكِّر في واحدٍ مثلي، مع أنَّ كلَّ شيءٍ واضحٌ، رغم تشجيع بيان غير العلنيِّ لي خفت من الفشل. ليست وحدها بيان التي انتبهت علينا، بل اكتشفت أنَّ كلَّ أهلي منتبهون، إلَّا أنا وهي. كنَّا ننفي مشاعرنا لأنَّ كلانا غير متأكِّدٍ من مشاعر الآخر. في الوقت الذي كان كلُّ الذين يروننا متأكِّدين من أنَّنا نعيش حالة حبٍّ. لم أجد الثقة بنفسي حتَّى ألمِّح لها بمشاعري تجاهها، إلَّا عندما طلبت منِّي أن ترى قدمي المصابة، لأنَّ بيان روت لها مرَّاتٍ عدَّةً حادثة التفجير التي نجت منها لأنَّها ذهبت لإحضار الخبز، وأصبت أنا فيها، قائلةً لها: «لو ما أخَّرتني أمِّي ولحقت خليل بسرعة، كنت انصبت مثله، أو يمكن متت..»، قلت لها: «ما بنصحك تشوفيها»، قالت: «بس أنا بدي شوفها، إلَّا إذا عندك مانع؟»، قلت: «ما عندي مانع، بس هي رجل مشوهة والسلام»، قالت: «إذا ما عندك مانع، ليش ما تخليني أشوفها؟»، خفت أن ترى قدمي المصابة، خفت أن توسِّع هذه الرؤية المسافة بيننا وأخسر هذا التقارب الذي أنجزته معها. احترت هل اجعلها تنظر إليها، لترى ما هي عليه، لأنَّنا إذا تقدَّمنا في هذه العلاقة من حقِّها أن تعرف واقع قدمي. ومن جانبٍ آخر، خفت أن تكون رؤية قدمي وحالتها البائسة السبب في تباعدنا. لم أعرف ما أفعل. قرَّرت أن أُريها القدم المشوَّهة وأنتهي من الموضوع، مهما كانت النتائج، لن أبقى أخفيها عن الآخرين للأبد. عندما شاهدت قدمي، لم تكن مستغربةً، ولا عبَّرت عن ردِّ فعلٍ سلبيٍّ وقالت: «ما شايفة حاجة لأنَّك تخبيها. هي شرف الك، مانها عيب فيك»، عندها فهمت أنَّها تريد رؤية قدمي من أجل كسر الحاجز الذي أضعه لنفسي ويمنع تقدُّمي في هذه العلاقة. أرادت أن تقول لي على نحوٍ غير مباشرٍ، أنِّي لا أراك ناقصًا فليس عليك البقاء على الرصيف الثاني، تستطيع الاقتراب أكثر بلا خوفٍ. استطاعت بإصرارها على

رؤية إصابتي كسر حاجزي الداخليَّ الذي أقمته بيني وبينها، وباتت العلاقة أكثر سلاسةً. لم أبقَ خائفًا من الفشل، أعادت العلاقة لي ثقتي بنفسي التي كدت أفقدها بسبب الأزمة السابقة، وباتت الأزمة وراء ظهري، فلا حاجز بيني وبين الاستمرار في حياتي. كلَّما عرفت خديجة أكثر أعجبت بها أكثر، وأصبحت جزءًا أساسيًّا من حياتي، ما استدعى بعد حوالي العام ترتيب حياتنا معًا. كان نقاشنا حول كيف نبني حياتنا في ظلِّ الظروف التي نعيشها، فلا تؤثِّر على حياتها وعلى ظروفها خاصَّةً، وكنت أقدِّر هذه الظروف. لم أعترض عندما قالت: «ما رح أترك أمِّي لحالها»، سألتها: «شو معنى هذا الكلام؟»، قالت بتردُّد: «رح تبقى معنا»، قلت: «شو المشكلة؟»، قالت متشجِّعةً ومصحِّحةً الكلام: «احنا رح نبقى معها»، قلت مرَّةً أخرى: «شو المشكلة؟»، قالت: «ما عندك مانع نسكن مع أمي؟»، قلت: «إطلاقًا، وليش يكون عندي مانع؟»، قالت: «ما بتخاف من كلام الناس؟»، قلت: «وشو علاقة الناس بكيف بنرتب حياتنا؟!»، قالت: «وأهلك؟»، قلت: «شو علاقة أهلي بالموضوع؟»، قالت: «ما رح يعترضوا على هذا الشي؟»، قلت: «وليش بدهم يعترضوا؟!»، منحني حبُّ خديجة قوَّةً أشعرتني أنِّي قادرٌ على مواجهة العالم كلِّه وليس مجتمع المخيَّم المحدود. لذلك لم يكن عندي مشكلةٌ أن أوافق على شروطها بالعيش عند أمِّها، وقدَّرت الوفاء الذي تبديه تجاه أمها، التي لم تقصِّر في دعمها من أجل تجاوز ظروفها الصعبة والحصول على تعليمها، الذي أضاف شرطًا لها على الشروط السابقة، لكنِّي لم أكن قادرًا على تنفيذه، وهو أن تعمل في الأونروا، عندما تنتهي من دراستها في دار المعلِّمين. لم أرفض الشرط، ولم أرفض عملها. لم أستطيع تنفيذ هذا الشرط لجهلي بأنظمة الأونروا. قبل أن تُنهي دراستها بأشهرٍ، أعلنا خطوبتنا، وكان من تقاليد العائلات في المخيَّم، أن يعقدوا القران في أثناء الخطوبة، يبقى الاثنان خطيبين لحين العرس. وهذا ما فعلته مثل الجميع. وعندما تقدَّمت خديجة بطلب توظيفٍ للعمل مدرِّسةً في مدارس

الأونروا، رُفِضَ طلبها، لأنَّ نظام الأونروا التي إحدى مهامها تشغيل اللاجئين الفلسطينيِّين لا يسمح بتوظيف اثنين من عائلةٍ واحدةٍ، لاعتقادها بأنَّ عمل شخصٍ واحدٍ من العائلة كافٍ لإعالتها. وبالنسبة للأونروا وفي الأوراق الرسميَّة، نحن عائلةٌ ولسنا خطيبين. لم أكن أعرف ذلك، إنَّه خطأي، فقد عرفت زوجين يعملان في الأونروا، ولم أنتبه إلى أنَّ هؤلاء عملا في الأونروا قبل أن يتزوَّجا، وليس بعد. أحبط الرفض خديجة التي أملت الحصول على الوظيفة في أسرع وقتٍ كما حصل مع الجميع، فقد بنت آمالًا كبيرةً عليها، على رأسها أن تخلِّص أمَّها من الأعمال الشاقَّة التي تشتغل بها. أصبحت خياراتنا محدودةً، إمَّا أن ننفصل ونجري طلاقًا حتَّى تحصل على الوظيفة. وإمَّا أن نسرِّع في زواجنا وأتحمَّل العبء الماليَّ للبيت حتَّى نجد حلًا للمأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه. لم أكن قادرًا على الانفصال عن خديجة، لذلك كان عليَّ إقناعها بالقبول بالخيار الثاني. قالت: «ماني مضطرة أعيش هذا الوضع، ليش أعيش على حسابك وأنا بقدر أشتغل مثلي مثل الأخريات»، قلت: «بعرف، أنت ما بتعيشي على حسابي. هذا خطأي أنا ورح حاول تصليحه مؤقَّتًا لحتى نلاقي حل. ما كنت بعرف إنُه ما بنقدر نشتغل إحنا الاثنين في الأونروا لأنُه متجوزين. ما رح أقبل نترك بعض منشان تحصلي على الشغل. طولي بالك علي وأنا رح حل المشكلة»، قالت: «ما بعرف. ما توقعت يصير هيك معي، وأنت بتعرف شغلي بالنسبة إلي ولأمي، مسألة حياة أو موت»، قلت: «بعرف، عطيني فرصة وما بتكوني غير راضية»، وافقت على مضضٍ، وتزوَّجنا، ووفيت بوعدي وانتقلت أنا للسكن معهم في بيت أمها. خافت أن أغيِّر رأيي في الظروف الجديدة وأفرض عليها أن ننتقل إلى مكانٍ آخر، ونترك أمَّها. كنت قد أخذت عهدًا على نفسي، أنَّ أمَّها ستبقى معها ما حييت. وقد بقيت تعيش معنا حتَّى وفاتها بعد أربعين عامًا. وطوال هذه الفترة كانت أمًّا ثانيةً بالنسبة لي، كما كانت أمًّا ثانيةً بالنسبة لأولادي، الذين كانوا يُنادون أمَّهم وجدَّتهم بلفظة «أمِّي»، عندما يقصدون أمَّهم يقولون «ماما

خديجة» وعندما يقصدون جدَّتهم يقولون «ماما رضية» أمَّا في الحديث المباشر يستخدمون المفردة نفسها «ماما» من دون تمييز لكلتيهما.

كلُّ محاولاتي للبحث عن حلٍّ للمعضلة التي وجدت نفسي فيها، والوفاء بوعدي لخديجة بأن تعمل في الأونروا، باءت بالفشل، لم يكن هناك سوى حلٍ واحدٍ، هو أن أستقيل من وظيفتي، حتَّى تتسنَّى لها فرصة الحصول على وظيفةٍ في الأونروا. رفضت خديجة هذا الخيار، وقالت: «ما بدي الوظيفة تكون على حسابك، وإلَّا مش رح سامح حالي طول حياتي»، وبذلك أغلقت الباب على الحلِّ الوحيد الممكن في الحالة التي نحن فيها. شعرت بالذنب تجاه خديجة وأمها، لم أكن قادرًا على رؤية خديجة التي انتظرت سنواتٍ طويلةٍ لتحصل على وظيفتها كمعلمةٍ، تجلس أسيرة البيت. هربت من هذا الوضع بالاهتمام بالراديو وكيفيَّة عمله، بدأ الاهتمام عندما تعطَّل راديو أبي الذي كان يعمل بنظام اللمبات. اشتريت له راديو جديدًا هديةً. أخذتُ الراديو القديم لأرضي فضولي في معرفة كيف يعمل. أحضرت الراديو إلى بيتي وذهبت إلى مكتبة الرواد وسط دمشق واشتريت منها كتابين، واحدٌ عن الراديو وكيفيَّة عمله، وآخر حول الكهرباء واستخداماتها. كما ذهبت إلى سوق الكهربائيَّات واشتريت بعض العدَّة التي تساعدني في فحص الراديو. قرأت الكتابين قبل الاقتراب من الراديو، فهمت كيف يلتقط الراديو الإشارة، وما هي وظيفة اللمبات والتي ستتحوَّل بعد سنواتٍ قليلة إلى ترانزستورات في الراديو، والتي مهمَّتها تحويل الإشارة إلى صوتٍ من جديدٍ بعد أن انطلقت من محطَّة الإرسال كإشارة راديو. بدا لي الراديو جهازًا معقَّدًا وبسيطًا. بسيطًا من زاوية عمله ومعقَّدًا من زاوية التقاط الإشارة الذي لا أحد يعرف كيف تجري العمليَّة فعلًا، رغم هذا الاختراع الذي تطوَّر بعد ذلك إلى بثٍّ إشارةٍ تلفزيونيَّةٍ، أي بثٍّ صوتٍ وصورةٍ، تلتقطها شاشةٌ تحوِّل الإشارة إلى صورةٍ متحرِّكةٍ بالأبيض والأسود، بعد ذلك أصبحت الشاشة ملوَّنةً، وبعد أن كانت مساحة الشاشة كبيرةً وبحاجةٍ إلى

شكلٍّ مخروطيٍّ حتَّى تعمل، تطوَّرت صناعة التلفزيونات إلى تلفزيوناتٍ مسطَّحةٍ، واختفت التلفزيونات القديمة بانتشار التلفزيونات الجديدة المسطَّحة. مع أوَّل راديو معطَّلٍ اكتشفت شغفي في الأجهزة الكهربائيَّة، الذي انشغلت فيها لأكثر من عشرين عامًا، وانتقلت من الراديو إلى آلة التسجيل التي تعمل على الكاسيت ثمَّ إلى التلفزيون، وهو ما جعلني خبيرًا بجهودي الشخصيَّة في تصليح هذه الأدوات، التي وجدت نفسي أعمل بها بكلِّ الحبِّ، بعد دوامي في المدرسة. لم يملك الكثيرون راديو في المخيَّم، لكن عندما يتعطَّل الراديو عند أحدهم ويعرف أنَّه يمكن أن أصلحه، كان يحضره لي، وغالبًا ما كنت أستطيع فعل ذلك، ولم أتقاضَ أيَّ أجرٍ مقابل هذا التصليح، بل على العكس أحيانًا كنت أدفع ثمن القطعة التي تحتاج إلى تبديلها من جيبي، عندما لا أجد مثلها في أجهزة الراديو التي تراكمت عندي ولم تكن قابلةً للإصلاح. والهواية التي كنت أمارسها في المخيَّم، ستتحوَّل إلى مهنةٍ ثانيةٍ في السعودية عندما سافرت إليها بعقد عملٍ كمعلِّمٍ، مهنةٌ سأضيف إليها في السعودية، تصليح آلات العرض السينمائيِّ، وهي الآلات التي كان يملكها أمراء وأغنياء السعودية الذين كانوا يملكون سينماتٍ صغيرةً لعرض الأفلام داخل بيوتهم.

مضت الأيَّام سريعًا وأنا لم أستطع تحقيق الوعد الذي وعدت به خديجة، ولأنَّها ترفض أن أستقيل من عملي بصفته الحلَّ الوحيد المتوافر، فإنِّي بقيت عالقًا في شعور الخجل تجاهها، أنجبنا ميرفت ابنتنا الأولى ولم أكن قادرًا على تنفيذ وعدي، فما كان منِّي سوى الهرب إلى الأمام. في منتصف الستينيَّات ازداد الطلب السعوديُّ على المدرِّسين بسبب النقص الشديد في أعدادهم في السعودية، وكنت قد تخرَّجت في الجامعة، ورغم أنِّي تخرَّجت في كليَّة الاقتصاد، فقد تقدَّمت للحصول على الوظيفة، وكان الراتب السعوديُّ في ذلك الوقت يعادل ثلاثة أضعاف راتبي في دمشق. قُبل طلبي، وراهنت أن تعمل خديجة هناك كمعلمةٍ فنتقدم بطلبها هناك. في

أثناء فترة تحضيرنا للذهاب إلى السعودية، حزنت أمِّي لأنَّ ابنًا آخر من أولادها سيذهب إلى السعودية، لعنت الصحراء التي تسرق أولادها منها الواحد بعد الآخر. كانت أم خديجة أكثر حزنًا، فهي المرَّة الأولى التي ستفارق فيها ابنتها الوحيدة، وستبقى وحيدةً بعد سفرنا. لم تقل لخديجة أن تبقى، لكنَّ حزنها الشديد كان واضحًا في عينيها ودموعها. في البداية رفضت خديجة خيار السعودية، قالت: «مالنا محتاجين السفر، أوضاعنا منيحة هون، ليش نسافر؟»، قلت: «خلينا نحسِّن أوضاعنا أكثر. بعدين أنا ما عاد قادر أعيش مع ذنب حرمانك من شغلك»، قالت: «أنا ما شكيت»، قلت: «مانك بحاجة تشكي، لكني ما رح أقبل أكون اللي حطم طموحاتك»، لم يكن النقاش معها مجديًا، هي تخفِّف عنِّي، وأنا أشعر أنِّي خذلتها، وأحيانًا أشعر أنَّها تعتقد أنِّي خدعتها. وهذا الشعور عذَّبني طويلًا. لذلك لم أطل الجدل، ووضعتُ الأمور في سياقٍ جدِّي، إمَّا أن نسافر إلى السعودية، وإمَّا سأضطر لوضع حدٍّ لهذه العلاقة، وكلُّ واحدٍ يذهب في طريقه. خافت من فكرة الطلاق، فوافقت على السفر على مضضٍ.

لم تكن تجربة السعودية بالسهولة التي توقَّعت، لم يكن المال الذي انتظرناه سهلًا، ولم تكن الحياة هناك مع جحيم الحرارة صيفًا تعادل الأجور التي أتقاضاها. والأسوأ أنَّ خديجة لم تكن قادرة على العمل، الظروف لم تكن تسمح، لم يكن من الممكن ترك طفلةٍ صغيرةٍ لوحدها، أو ائتمان أحدٍ آخر عليها. مرَّت الأيَّام على خديجة أسوأ من السجن، تحاول إخفاء دموعها وحزنها عنِّي، لكنَّها تفشل. لعنتُ الساعة التي أتينا فيها إلى الصحراء اللعينة. لا أعرف كيف مضت الأيَّام هناك. رافقني سوء الحظِّ في كلِّ مرَّةٍ حاولت فيها أن أعوِّض خذلان خديجة. لولا عنادي وإصراري على الاستمرار بهذا الخيار، لكان علينا العودة نهائيًّا بعد شهر من التجربة المرَّة. لأنَّ خديجة لم تكن موافقةً على السفر، أصابتها حالة كآبةٍ شديدةٍ، لا سيَّما بعد أن عرفنا أنَّها حاملٌ بابننا الثاني، خفت عليها، وقلت لها: «خلص، صار لازم

ترجعي على الشام»، سألت بدهشة: «بتحكي جد؟»، قلت: «جد، خايف عليكي وعلى البنت والولد، وخايف ما أعرف أتصرف في لحظة الولادة»، كانت سعيدةً بقراري بعودتها إلى دمشق، فأنا لم أكن لأسامح نفسي، لو أصابها مكروهٌ لأنِّي لم أحسن التصرُّف. حجزت لها ولطفلتنا تذاكر سفرٍ إلى دمشق وأوصلتهما إلى المطار في الرياض، ودَّعتهما وقلت: «أنا جاي بالعطلة. خبريني بس تولدي، وخبريني ولد ولا بنت»، قالت: «أكيد ما بدي توصاية، دير بالك على حالك. أنا بحبك كثير، وبخاف عليك»، وشرعت في البكاء، احتضنتها ومنعت نفسي من البكاء بصعوبةٍ. حملت ابنتي ميرفت رفعتها إلى الأعلى، وقلت لها وهي تضحك: «ما تعذبي ماما»، عندما غادرت الحاجز باتجاه الطائرة، شعرت بشيءٍ سقط في صدري، هذا البلد موحشٌ مع خديجة، كيف سيكون من دونها؟! سالت دموعي رغمًا عنِّي، فجأةً حلَّ عليَّ تعب السنين كلُّه، وبدأت جراحي القديمة تؤلمني بشدَّةٍ. لم أندم على قرار عودتهم إلى دمشق، فالطقس في البلد لا يناسب الصغار، قضت ميرفت أغلب الوقت مريضةً بسبب الحرِّ، وقضت خديجة الوقت في العناية بها والبكاء خوفًا عليها. جاءني خبر ولادة ابني عامر في أسوأ ظروفٍ، شعرت نفسي مدمَّرًا بأخبار هزيمة حزيران، لم أصدِّق أنَّ إسرائيل تهزم كلَّ هذه الدول العربيَّة، وتحتلُّ كلَّ هذه الأراضي العربيَّة، هل يعقل هذا؟ لم أستطع الفرح عندما جاءني الخبر بولادة عامر، فهو ولدٌ في اليوم الثالث للحرب، وبسبب الحرب، لم يستطيعوا أن يرسلوا لي تلكس في اليوم نفسه يخبروني، بأنِّي رزقت بولدٍ، فقد أرسلوا التلكس بعد أسبوعٍ من ولادته، وأنا لم أكن قد صحوت من هول المصاب الذي شعرت أنَّه دمَّرني شخصيًّا، فلم أستطع الفرح بإنجابي ابني البكر.

ارتحت لأنَّ خديجة غادرت إلى دمشق وشعرت أنِّي محظوظٌ هذه المرَّة، لأنِّي لا أعرف ما الذي كان يمكن أن يحدث في ذلك العام، وأنا على حالة الجنون التي أصابتني بفعل الهزيمة؟ لم أعد أطيق نفسي، لو كانت

خديجة معي هناك، لقضيت الوقت في الشجار معها. في تلك الأيَّام تشاجرت مع نفسي من القهر. عندما عدت إلى الشام بعد شهرين من الحرب، لم تكن الشام تلك التي تركتها قبل الحرب، ولا الناس هم أنفسهم، شعور الذلِّ يحتلُّ كلَّ مكانٍ في البلد. العيش هناك لا يطاق. اختصرت إجازتي لأسبوعٍ، وعدت إلى السعودية. لم أملك القدرة على النظر في عيون الآخرين، وهم غير قادرين على النظر في عيون بعضهم، لقد كان الشعور بالعار يلفُّ الجميع.

في العام التالي، تحسَّن وضعي قليلًا، رغم افتقادي للأولاد ولخديجة، وشعرت أنِّي أكثر حريَّةً في التنقُّل. لم يكن هذا بسبب عدم وجود خديجة فحسب، بل لأنِّي انتقلت إلى العمل في مدرسةٍ في قلب العاصمة الرياض. وهذا ما جعلني أفتح محلًّا لتصليح الأدوات الكهربائيَّة في المساء، للهرب من وحدتي، وهو ما درَّ عليَّ مبلغًا إضافيًّا في بعض الأشهر يقترب من راتبي. لم يقتصر عملي في الرياض على تصليح الأجهزة الكهربائيَّة، بل وفي تركيب الأجهزة وربطها مع الهوائي، لا سيَّما أنَّ بعض المناطق تصلها إشارةٌ ضعيفةٌ، فكانت تحتاج إلى نوعٍ مختلفٍ من الهوائيَّات حتَّى تلتقط الإشارة. في الوقت نفسه لم تكن خديجة مرتاحةً لسفري وحيدًا، لذلك اتفقت في أثناء غيابي مع أمِّها، أن تأتي العام التالي معي على أن تترك الأولاد عند أمِّها في دمشق. تنازعتها واجباتها تجاهي وتجاه الأولاد، اختارت الأولاد في المرَّة الأولى فشعرت أنَّها قصَّرت في حقِّي، وأرادت العام التالي التعويض، ولم تكن موفَّقةً في ذلك، لأنَّها عندما تركت أولادها الصغار عند أمِّها، وأنا لم أمانع في ذلك، لم تحتمل الوضع، كان تركها لأولادها أقسى عليها من تركها لي في السنة السابقة، لكن في الكثير من الأحيان لا نعرف أهميَّة الآخرين عندنا، إلَّا عندما نفارقهم، وكان هذا قاسيًّا جدًّا على خديجة. لم تكن قادرةً على ترك السعودية والعودة إلى دمشق، لأنَّها كانت قد وقَّعت عقدًا للتدريس هناك، وعليها أن تنهي السنة الدراسيَّة على الأقل قبل أن تغادر. لم تكن

الاتصالات ممكنةً، فلم يكن في المخيَّم شبكة هاتفٍ بعد، تتأخَّر الرسائل حتَّى تصل، ظنَّت أنَّ تلك السنة كانت الأقسى عليها، أرادت أن تُشعرني أنَّها تقف إلى جانبي، لكنَّها شعرت أنَّها عبءٌ عليَّ بدلًا من أن تكون عونًا لي. لم ألُمها، كنت أعرف نواياها، وقدَّرت ما حاولت فعله من أجلي ولو جاء بنتيجةٍ معاكسةٍ. أقنعتها تلك السنة أنَّها غير قادرةٍ على العيش في السعوديَّة، هناك شيءٌ أقوى منها يدفعها إلى النفور من هذا البلد. تفهَّمت الوضع، ولم أعد أطلب منها الذهاب معي إلى هناك، في ذلك العام جمعت رواتبها، واقترحت عليها أن تشتري بيتًا بالمال الذي حصلت عليه تلك السنة، وهذا ما كان. لكنَّها اشترطت أن نبقى نعيش مع أمِّها، سواءً بقينا في بيتها أو انتقلت هي إلى بيتنا. لم أعترض، بل فوَّضتها بعمل ما تريد وقلت: «اعملي اللي بريحك» اشترت بيتًا قريبًا من بيت أمها، ولأنَّها قرَّرت أن تبقى مع أمِّها، أجَّرت البيت لعائلةٍ أخرى، من أجل ألَّا يبقى فارغًا وتستفيد من إيجاره، هذه التأجير الذي كلَّفنا بعد عشر سنواتٍ من سكن هذه العائلة، أن ندفع لها فروغًا لترك منزلنا يعادل عشرة أضعاف ما دفعته خلال المدَّة التي سكنوها، وكأنَّنا كنَّا بنك استثمارٍ لمبالغ الأجور التي دفعوها لنا. دفعنا لهم، لأنَّنا أردنا بيع البيت من أجل بناء قطعة الأرض التي اشتريتها في المخيَّم لكي نتوسَّع في البيت، لأنَّ بيت أمِّها أصبح ضيِّقًا علينا. في أثناء عملي في السعودية، حصلت خديجة على وظيفة مدرِّسةٍ في الأونروا، وبذلك تحقَّق وعدي ولم ألوم نفسي على ما جرى. عندما عدت في إجازة السنة التي حصلت فيها على الوظيفة، شاهدت كم هي سعيدةٌ بذلك، وعادت خديجة التي عرفتها قبل أن نتزوَّج، وشعرت أنَّنا نبدأ حياتنا من جديد. كانت سنواتي في السعودية متعبةً، وكان عليَّ أن أنهيها منذ وجدت خديجة عملًا، لكنِّي كابرت وبقيت هناك سنواتٍ عدَّةً أخرى. لم تكن مجديةً بالمعنى الماليِّ. فعندما تسلَّمت عملي في الأونروا، كنت أسهم بمساعدة أهلي بخمسين ليرةٍ شهريًّا، واستمرَّ هذا الحال بعد أن تزوَّجت حتَّى غادرت

للعمل في السعودية، وعندما غادرت إلى السعودية، أصبحت عندما أعود في الإجازة أعطي أبي ألف ليرةٍ وهو ما كان يعادل راتب ستَّة أشهرٍ لموظَّفٍ في دمشق، وتبقَّى معي حوالي ألفٍ وخمسمئة ليرةٍ بعد أن أكون حوَّلت مصاريف البيت إلى خديجة. أصرف المبلغ على بعض المساعدات هنا وهناك وما تبقَّى على رفاهيَّتنا خلال الشهرين اللذين أقضيهما في دمشق مع العائلة، وأعود من جديدٍ إلى الرياض مفلسًا. كان من الجيِّد بالنسبة لي أنَّ خديجة لم تتلاءم مع السعودية ولم تحبَّها، لذلك بقيت هي في دمشق وبقيت وحدي في السعودية، هذا حماني من البقاء في السعودية إلى اليوم. فلو تكيَّفت مع السعودية، لتكرَّر معنا ما حصل مع غيرنا، لنعمل سنةً إضافيَّةً من أجل تحسين أوضاعنا، هذه حال العاملين في الخليج، يؤجِّلون عودتهم عامًا بعد عامٍ حتَّى تصبح العودة مستحيلةً، يكبر الأولاد هناك، ويتعلَّمون هناك، ويتزوَّجون هناك، ويهرمون هناك. يقضون أعمارهم في الغربة يؤجِّلون حياتهم عامًا بعد عامٍ، وعندما يصلون إلى سنِّ التقاعد، يرجون الآخرين أن يُبقوا على كفالتهم حتَّى يبقوا مقيمين هناك. عنادي هو الذي جعلني أقضي عشرة أعوامٍ في السعودية، وكانَّ عليَّ أن أعود مبكرًا ولا أنتظر كلَّ هذا الوقت هناك، فتأجيل الحياة شيءٌ غير ممكنٍ، رغم أنِّي لم أعش أيَّ حياةً صاخبةٍ، لا في دمشق ولا في الرياض. بعد عشر سنواتٍ من العيش في السعودية، سألت نفسي ما الذي أفعله هنا؟ وإلى متى؟ هل أبقى من أجل المال؟ وما حاجتي إلى المال؟ هل أريد أن أصبح مليونيرًا؟ أيُّ مستقبلٍ لي هنا؟ أيُّ مستقبلٍ لأولادي هناك من دوني؟ الكثير من الأسئلة وأنا أقترب من منتصف العمر، إذ لم يغزُ الشيب شعري في ذلك الوقت فحسب، بل انحسر شعري نفسه ليكشف عن مزيد من الصلع أيضًا، في الوقت الذي كان أخي عبد الرحمن، الذي يكبرني بثلاث سنواتٍ محافظًا على شعره كاملًا من دون أيِّ شيبٍ ومن دون انحسار. يبدو أنِّي لم أرث إصابةً سيِّئةً في قدمي من الحرب فقط، بل ورثت أسوأ مورِّثات أهلي من

الناحية الجسديَّة أيضًا، أنا أقصرهم، شبت مبكرًا وأصابني الصلع، رغم أنَّه لا أحد من أهلي أبي وعمي وخالي وإخوتي كان أصلعًا حتَّى في فتراتٍ متقدِّمةٍ من أعمارهم. كلُّ ما كنت أسعى إليه حياةً كريمةً ومريحةً لي ولأولادي، كنت أستطيع تحقيقها في دمشق، من دون ذلِّ الغربة بعيدًا عن عائلتي. قدَّمت استقالتي من عملي قبل عودتي إلى دمشق وعاهدت نفسي ألَّا أعود إلى السعودية ولا حتَّى من أجل الحجِّ إلى بيت الله الحرام.

لم أخبر خديجة بأنِّي سأفعل ذلك، لأنِّي اتخذت القرار فجأةً وقبل الإجازة الصيفيَّة بأيَّامٍ قليلةٍ، وزَّعت أغراضي القليلة على أصدقائي، ودَّعتهم، وقلت لهم: «هذا آخر عهدي في الصحراء، سرقت عشرة سنين من عمري»، اندهشوا ممَّا أقول. قال لي أحمد صديقي المصري: «يا أستاذ خليل، في مين بيتمنى يجي لهين. وأنت بتترك وبتمشي!»، قلت: «مش أنا يا صديقي، هالصحرا ما قدمتلي إشي، حتَّى مالها بلا بركة، بتبخر بسرعة»، كان أصدقائي خسارتي الوحيدة، تأثَّرت ببكائهم، لكنِّي لم أبكِ، حزنت. تراسلنا بعد عودتي، مع الوقت تراجعت الرسائل حتَّى انعدمت. من بين الرسائل أذكر فقرةٌ في رسالة أحمد صديقي المصري لم أَنسَها أبدًا، كتب فيها: «لا تعتقد عزيزي خليل أنَّنا بكينا من أجلك عند وداعك، نحن أو أنا شخصيًّا، بكيت على نفسي، لسببٍ بسيطٍ، هو أنِّي لم أكن قادرًا على اتخاذ القرار الجريء الذي اتخذته أنت، أن تعود إلى عائلتك، في الوقت الذي يترك الآخرون عائلاتهم ويأتون إلى هذه الصحراء، التي تسرق أعمارنا كما قلت عندما ودَّعناك. بكيت على نفسي لأنِّي أجبن من أن أتخذ قرارًا مثلك. وكلُّ الجبناء مثلي كسرتهم الحاجة يا صديقي»، أثَّرت الرسالة فيّ، ولعنت الظروف التي تجبر الشخص على قضاء حياته بطرقٍ لا يختارها بنفسه.

عند وصولي إلى دمشق، أخبرت خديجة أنِّي لن أعود إلى السعودية ثانيةً. ذُهِلَت ولم تصدِّق قال «بتحكي جد؟»، قلت: «وقدَّمت استقالتي كمان»، قالت: «أنت بتمزح معي»، قلت: «بتعرفيني أنا ما بمزح بهذه

الأشياء»، قالت: «يعني جد؟»، قلت: «جد الجد»، هجمت على واحتضنتني وأخذت بتقبيلي عددًا لانهائيًّا من القبلات، وأنا أقول: «خلص بكفي»، وهي تقول: «لا ما بكفي، بتستاهل مليون بوسة على هالخبر»، لم أشاهدها يومًا بهذه السعادة، ولم أشعر يومًا بمشاعر هائلةٍ تجتاحني تجاهها مثل ذلك اليوم، لأوَّل مرَّةٍ أعرف حجم السعادة التي يمكن أن أمنحها لهذه المرأة التي تحمَّلت كلَّ جلافتي وعنادي كلَّ هذه السنين. خرجت سريعًا ونادت على الأولاد وكانوا قد أصبحوا أربعة، بنتين وولدين، أصغرهم عمره حوالي العامين. قالت: «تعالوا اسمعوا. أبوكم ما رح يرجع على السعودية رح يبقى معكم»، ركض الأولاد باتجاهي بما فيهم الصغير الذي لم يفهم ما يجري. سألتني ميرفت: «صحيح بابا ما عاد تتركنا»، قلت: «صحيح بابا» احتضنتهم جميعًا، وكانت حالةٌ من الفرح الجنوني أصابتنا كلَّنا.

عددت السنوات التي قضيتها في السعودية خارج حياتي، لذلك قرَّرت استئنافها في دمشق وكأنِّي لم أغادر إلى السعودية، في الأحاديث اللاحقة عن حياتي كنت أقفز عن هذه الفترة بوصفها فترةً خاويةً، قضيتها كمكنة تعليم لإنتاج المال، وليس كمعلمٍ من لحمٍ ودمٍ. لم أرتِّب لعودتي، شعرت ألَّا معنى للبقاء فعدت. هكذا وبكلِّ بساطةٍ تجاوزت تعقيداتي وعنادي وترتيب الخطوة التالية وعدت. كنت واثقًا، أنِّي أستطيع البدء من جديدٍ في أيِّ مكانٍ، وبكلِّ الحالات لن أعود إلى السعودية، وهذا ما كان. عندما عدت من السعودية، كان أهلي قد أعادوا بناء البيت في المخيَّم، فأصبح هناك بناءين متجاورين من مدخلٍ واحدٍ. الأوَّل هو بقايا البيت القديم وبقي طابقٌ أرضيٌّ واحدٌ. والثاني على زاوية التقاطع بين شارعين، أصبح طابقين، الأرضي عبارةٌ عن محلاتٍ تجاريَّةٍ وفوقه طابقٌ عبارةٌ عن شقَّةٍ سكنيَّةٍ. عندما سألني أبي: «شو رح تعمل، لحتى تلاقي شغل؟»، قلت: «بدور على محل عشان أفتحُه لتصليح الأدوات الكهربائيَّة»، قال أبي: «ليش بدور على محل، والمحل موجود؟»، قلت: «ما فهمت»، قال: «في البيت ثلاث محلَّات،

محل فتحه أخوك عبد الرحمن، وبقي محلان، افتح واحد منهم»، قلت: «ما بتفكر تنقل دكانتك من عند الإعاشة على البيت؟»، قال: «ليش بدي أعمل هيك. رزقتي منيحة بالحارة وزبايني موجودين، ليش بدي أبلش من أوَّل وجديد»، قلت: «معك حق»، قال: «اتكل على الله واختار المحل اللي بدك إياه وجهزُه وافتحُه»، قلت: «على بركة الله»، بدأت بتصميم واجهةٍ لعدَّة فحصٍ ثابتةٍ للأجهزة في المنزل، وهذا ما كنت صمَّمته في السعودية ونفَّذته هناك، عدت ونفَّذته في دمشق، بحيث تقع كلَّ عدَّة الفحص من «الآفو» الذي يفحص التردُّد إلى الدارة التي تفحص الكهرباء في الجهاز، إلى تحليل معنى الطنين. كلُّ ذلك كان في واجهة طاولة التصليح، حتَّى لا أهدر وقتًا طويلًا في البحث عن العدَّة. وقد ساعدتني هذه اللوحة التي بدت في شكلٍ قريبٍ لقيادة الطائرة على جلب الزبائن سريعًا، لا سيَّما بعد النجاحات السريعة في تصليح الأجهزة التي أتتني. أذهلت اللوحة الداخلين إلى المحل، أحيانًا بأصواتها، أحيانًا بأضوائها. ولأنَّ المحل يقع على زاوية شارع المدارس، كثيرًا ما انتبهت إلى بعض تلاميذ المدرسة القريبة يتأمَّلون اللوحة بفضولٍ، ينظرون من وراء زجاج الواجهة لمعرفة ما الذي أفعله بهذه اللوحة العجيبة.

لم أختر فتح محلَّ تصليح الأدوات الكهربائيَّة مهنةً نهائيَّةً لي. فقد عملت في الوقت ذاته على العودة إلى مهنة التدريس، لكن هذه المرَّة لا أريد العمل مع الطلَّاب الصغار يكفيني ما عملته معهم في السعودية وما قبلها. ولأنِّي أملك عملًا لم أكن مستعجلًا لقبول أيِّ عملٍ. تقدَّمت للعمل في الوظائف التي تناسبني فقط، فقد أردت أن أُدرِّس في الاختصاص الذي درَّسته، لأنِّي أظنُّ أنَّه المجال الذي أقدِّم فيه أفضل ما عندي، وفي حال حصلت على هذا النوع من العمل، سأبقى أعمل في تصليح الأجهزة الكهربائيَّة مساءً وفي أيَّام العطل. ظننت أنِّي سأجد العمل الذي أرغب فيه خلال أشهرٍ، لكن طالت المدَّة إلى أكثر من عامٍ ونصف، وجدته أخيرًا في

مدينة اللاذقية، وهي تبعد عن مدينة دمشق حوالي ثلاثمئة وخمسون كيلومتر، تردَّدت في قبول الوظيفة، لأنِّي سأضطر إلى إغلاق المحلِّ الذي أصبح مردوده جيِّدًا، ما سيجعلني أخسر زبائني ومهنةً أحبُّها، صنعتها بنفسي، ما أغراني أنِّي حصلت على عملٍ في الثانويَّة التجاريَّة في اللاذقية، أي سأدرِّس في المجال الذي أحبُّ. حسمت أمري وانتقلت إلى اللاذقية، عندما عرفت أنِّي أستطيع نقل عملي إلى دمشق بعد قضاء عامٍ دراسيٍّ هناك. قلت لا بأس، أغلق المحلَّ، وأعيد فتحه عندما أنتقل إلى دمشق من جديدٍ. شجَّعتني خديجة بالإقدام على الخطوة، وقالت: «أنت منيح في تصليح الراديو والتلفزيون لأنَّك بتحب هاي المهنة، بتشتغلها بس ما رح تلاقي حالك فيها، أنت مدرِّس ممتاز، هون بتلاقي حالك وبتحس بتميُّزك. منشان هيك ما تترك الفرصة»، كانت محقَّةً في التوصيف، أنا أحبُّ العمل مع الأجهزة الكهربائيَّة، لكن ليس في هذه المهنة أي فروقٍ كبيرةٍ بين أصحابها، فلا فروق شخصيَّةً بين مصلح وآخر في تبديل ترانزستور أو شاشة تلفزيون أو محرِّك مسجلة. لكن في مهنة التدريس، تلعب الفروق الشخصيَّة دورًا حاسمًا في قدرة المدرِّس على شدِّ الطلَّاب إلى درسه وجعلهم يستفيدون أكثر ويعزِّز مكانته عندهم، وليس كلُّ مدرِّس قادرٌ على تبسيط الدرس من دون تسخيفه، وإشراك الطلاب في الدرس بطريقةٍ مناسبةٍ، حلُّ المشكلات معهم بطريقةٍ وديَّةٍ. كلُّ هذه الأشياء وغيرها في التعامل مع الطلاب أداءٌ شخصيٌّ. ليست مهمَّة التدريس تقديم المعلومة للطلاب فقط، فمن الممكن إلقاءها على عواهنها والسلام وعدَّ المدرِّس نفسه أدَّى واجبه. حتَّى طرق التدريس التي تُدرَّس في الجامعة، هي طرقٌ جافَّةٌ، بحاجةٍ لملئها بأداءٍ شخصيٍّ يُحدِثُ فرقًا هائلًا بين مدرِّسٍ وآخر، بحيث يحوَّل الدرس من واجبٍ مملٍّ إلى متعةٍ حقيقيَّةٍ. قبلت الوظيفة في مدينة اللاذقية، واحتفظت بعدتي والمحلِّ الذي كنت افتتحته في بيت أهلي، لأنِّي قرَّرت أن أعود وأفتحه عندما أنتقل من جديد إلى دمشق. لكن هذا لم يحدث، لأنَّ مرض السلِّ أصاب أبي في تلك

الفترة، وجعله غير قادرٍ على الذهاب إلى عمله، وأوكل عمل محلِّه إلى أخي عمر المراهق والطائش في ذلك الوقت، الذي قضى على المحلِّ في شهرين وجعله يُفلس. أغلق أبي المحلَّ قرب الإعاشة وسلَّمه إلى أصحابه، فلم يُرِد المزيد من الخسائر، فهو لا يعرف متى سيشفى من مرضه، وهل سيستطيع العودة إلى العمل أم لا. بعد أن قضى أبي أيَّامًا عدَّة في المستشفى، نُقِلَ إلى البيت، وعُزِلَ في غرفة لا يدخلها أحدٌ غير أمِّي مع أخذها كلَّ احتياطاتها حتَّى لا تصاب بالمرض ولا يصاب أحدٌ من إخوتي به. أكثر من ستَّة أشهرٍ وهو معزولٌ وصحَّته متدهورةٌ، وقد هزل جسده، ولم أتعرَّف عليه عندما شاهدته في زيارتي لدمشق، كان أقرب إلى الشبح منه إلى أبي صاحب الجسد المتين، بعد الشهر الثالث من مرضه بدأت صحَّته بالتحسُّن، وقال الطبيب: «لو لم يكن له بنية جملٍ، لقضى السل عليه»، قاوم المرض بقوَّته البدنيَّة، هذا المرض الذي من عادته أن يقتل من تجاوز الستين إذا أصابهم، لكنَّ أبي هزم المرض. بعد تعافيه لم يكن قادرًا على البقاء من دون عمل، شعر أنَّ البطالة تقتله أكثر من المرض. فتح دكَّاني بالمفتاح الذي تركته عند أهلي من أجل أيِّ حالةٍ طارئةٍ. جمع أغراضي عن الرفوف ووضعها في زاوية المحلِّ وأزاح طاولة الفحص جانبًا. اشترى أغراض البقالة وشرع يعمل في المحلِّ كبقاليَّةٍ. عندما عدت في زيارة من عملي في اللاذقية وذهبت إلى بيت أهلي لزيارتهم سألت أمي: «وين أبوي؟»، قالت: «بالدكان»، قلت: «رجع وفتح دكانُه؟»، قالت: «لا، فتح دكانتك»، قلت: «ما فهمت؟»، قالت: «جاب شوية غراض وفتح دكانتك، قال بتسلى شوية، هي ما لازمتك»، شعرت بالغضب والإهانة. سألت: «ليش عمل هيك من دون ما يقلي؟»، قالت: «والله ما بعرف يا ابني، قلتلُه اسأل خليل عن المحل. قال أنت ما عاد بدك المحل»، خرجت غاضبًا من دون وداع. ذهبت مباشرةً إلى المحلِّ المجاور لبيت أهلي. قلت بغضبٍ: «مرحبا يابا»، نظرت إلى أغراضي المكدَّسة في الزاوية وقد تراكم الغبار عليهم، ممَّا زاد غضبي. ردَّ مرتبكًا: «أهلين»، قلت: «ليش أنت

مصر على إهانتنا؟»، قال: «أنا، أستغفر الله»، قلت: «فيك تقلي شو اللي عملتُه؟ ليش ما سألتني؟ ولا أنا طرطور، بتلعب فيني زي ما بدك»، قال: «أنا قلت الدكان ما عاد لازمتك، بتسلى فيها أحسن من القعدة»، قلت: «ومن دون ما تسألني على الأقل منشان غراضي؟ّ! شو أنا ولد صغير؟»، قال: «مو هيك قصدي...»، قلت: «لكان شو قصدك. فكرت إذا قلتلي بدي الدكان، أتمسك فيها، وأقلك هاي دكانتي، عملت أمر واقع منشان تقطع عليّ الطريق؟»، قال: «ما هاذا القصد»، قلت: «اسمع، ما بعرف إذا بتعرف ابنك ولا ما بتعرفوا. بس بحب أقلك، إني بحياتي ما طمعت لا بمالك ولا بأشيائك ولا بمال غيرك. آخر شي كنت أتوقعُه منك بعد كل الاحترام اللي تعاملت فيه معك. أنو تهيني هيك إهانة. بس على كل حال. هذا درس لأعرف أي أب أنت»، قال: «طول بالك»، قلت: «ما بدي طول بالي. ألف مبروك عليك الدكان. بس للأسف أنت ربحت دكان بس خسرت ولد. كان فيك تربح الدكان والولد. بس أنت اخترت تهيني، وأنا لله ما بسمحلُه يعمل هيك معي. سلام»، وخرجت مسرعًا من الدكان، لحق بي وهو يقول: «خليل.. استنى شوية»، «خليل.. اسمعني»، لكنِّي لم ألتفت خلفي، وتابعت طريقي، ولم أعرف إلى أين أذهب حتَّى لا يراني أحد بعد هذا الجرح.

عندما انتقل عملي من اللاذقية إلى دمشق، شرعت في بناء بيتي الجديد على الأرض التي اشتريتها عندما كنت أعمل في السعودية. فالبيت القديم الذي كنَّا نسكن فيه عند أم خديجة أصبح ضيِّقًا علينا فقد أصبحنا ثمانية أشخاصٍ يعيشون في ثلاثة غرفٍ، والأولاد يكبرون بسرعةٍ. الأرض التي اشتريتها مساحتها ثلاثة أضعاف البيت الذي كنَّا نسكن فيه، وقد قرَّرنا أن نبنيها في نظام الشقَّتين، على أن تحمل العديد من الطوابق التي يمكن أن نزيدها في المستقبل من أجل الأولاد. لم يكفِ المبلغ المتوافر معنا لإكمال بناء البيت، فقد كانت الكلفة أكبر بكثيرٍ من التقدير الأوليِّ. رغم أنِّي أعدُّ نفسي محاسبًا ممتازًا، وأستاذًا لمادَّة المحاسبة في المعهد المتوسِّط التجاري،

إلَّا أنَّ الحسابات في الواقع كانت أكبر من الحسابات على الورق، ما اضطرَّني لاستدانة بعض المبالغ، حتَّى هذه المبالغ لم تحل المشكلة واحتجنا إلى المزيد من المال والقدرة على الاستدانة وصلت نهايتها، لا خيار أمامنا. لم تكن حالة اليأس التي أمرُّ بها تُرضي خديجة. قالت لي فجأةً: «خليل، ليش مضايق حالك. الحل بسيط» قلت لها: «كيف يعني بسيط؟»، قالت: «عنا بيت ثاني، بيعو وكمل بحقُّه» قلت: «شو بتقولي؟ هذا بيتك»، قالت: «يا رجل، شو بيتي وبيتك، إحنا الاثنين واحد. وأنا ما حابه أشوفك بهذا الوضع. ما في شي بالدنيا بستاهل زعلك»، قلت: «لا. اتركيه، هو ضمانة الك»، قالت: «يا رجل، الله هو الضمانة. أنت بتشتغل وأنا بشتغل، مش خايفة من بكره، بنكمل بيتنا بحق هذا البيت، وبس الله يفرجها بنشتري واحد غيرُه»، لم يكن عندي ما أردُّ به، كنت محمومًا، ليس لأنَّ الأزمة ستنتهي، وليس مهمًّا أن تنتهي الأزمة، كنت سعيدًا بموقف خديجة، لم أفكِّر ببيع بيتها لحلِّ الأزمة التي نعبرها، لأنِّي لم أرغب أن أقترب من شيءٍ يخصُّها. أحاول طوال عمري حلَّ مشاكلي من دون الاعتماد على أيِّ كائنٍ آخر. كانت حساسيَّةً مبالغًا فيها، بينما خديجة كانت تفكِّر بطريقةٍ أبسط وأقلَّ تعقيدًا وحساسيَّةً، هناك ما نستطيع التصرُّف به وننهي هذه الأزمة، لماذا لا نتصرَّف بما بين أيدينا وننتهي من الموضوع، بدل أن نصنع أزمةً من لا شيء. طبعًا لم يكن بيع البيت سهلًا، فقد دخلنا مفاوضاتٍ شاقَّةً مع المستأجر الذي كان عقد إيجاره يجدِّد نفسه تلقائيًّا للأبد. وكان علينا أن ندفع له فروغًا للمكان حتَّى نستطيع أن نبعيه، وبعد مفاوضات أربعة أشهرٍ، قبل أن يترك البيت مقابل أن يأخذ ما يعادل ثلث ثمن البيت عند البيع، وهذا ما كان.

مع انتهاء بناء الجزء الأوَّل من البيت، انتقلنا إليه وانتقلت أمُّ خديجة معنا تحت إصراري، أرادت أن تبقى في بيتها، لكنِّي رفضت ذلك، قلت: «ما في بيتك بيتنا، بيتنا واحد هون وهناك»، خافت أن يختلف تعاملي معها بعد أن ننتقل للعيش في بيتنا، وهذا لم يخطر على بالي في يومٍ من الأيام.

لطالما كانت علاقتي بها جيِّدةٌ، ولم تكن أمًّا ثانيةً لأولادي فقط، بل كانت أمًّا ثانيةً لي أيضًا، عاملتها كأمٍّ وعاملتني كابنٍ لها. وفي كثيرٍ من الخلافات التي وقعت بيني وبين خديجة، وقفت إلى جانبي. وعندما تميل إلى جانب خديجة في الخلاف، كانت تحاول تهدئتها حتَّى لا يتصاعد الخلاف بيننا. كانت عائلتنا كلَّ حياتها، حتَّى علاقتها مع الآخرين كانت في حدودها الدنيا سواءً مع الجيران أو الأقارب. كانت سعيدة بتربية أولادنا، فهي التي وجدت نفسها وحيدةً مع ابنةٍ وحيدةٍ، أصبح عندها الكثير من الأولاد الذين تربِّيهم. علاقتها بأولادي فريدةٌ، وتأثيرها عليهم فاق تأثيري أو تأثير أمِّهم عليهم. تعلَّمت منها أن الإنسان يمكن أن يقيِّد بالمحبَّة من يحبُّهم، حتَّى لا يرتكبوا حماقاتٍ بحقِّ أنفسهم وبحقِّ الآخرين. وهذا ما اعتمدته في تربية أولادي، وندمت على الفترة التي ظننت فيها أنَّ أنسب شكلٍ للتربية هو الضرب، وقد كنت بعض الأحيان قد ضربت إخوتي الأصغر منِّي معتقدًا أنِّي أُصوِّب سلوكهم. مع أبنائي اختلف الوضع، حاولت أن أطوِّقهم بالمحبَّة كما تعلَّمت من حماتي، لكنِّي فشلت في أن أحقِّق ما كانت تحقِّقه هي معهم، لا أعرف أين الخطأ الذي وقعت به، لكنِّي لم أنجح في الحصول على النتائج التي كانت تحصل عليها حماتي من أولادي. وأظنُّ اليوم بعد تفكُّرٍ طويلٍ فيما جرى، أنَّ الفرق بيني وبينها كبيرٌ، لقد استخدمتُ أسلوبها بطريقةٍ سيِّئةٍ. فهي كانت تطوِّق الأولاد بالحبِّ لجعلهم يقومون بشيءٍ أو يمتنعوا عن آخر، على أن يكون هذا الامتناع نابعًا من داخلهم، من إرادتهم. أمَّا أنا فطوَّقتهم بحبِّي حتَّى يفعلوا ما أريده أنا، لا ما يريدونه هم، وأنَّ حبِّي لهم لم يكن مرشدًا كما كان حبُّ جدَّتهم لهم، إنَّما كان حبِّي أداة قمعٍ وترهيبٍ لهم ولخياراتهم في الحياة، واليوم بعد أن فات أوان إصلاح أيِّ شيءٍ، أعرف أنَّ الحب يمكن أن يكون أداةً رديئةً نستخدمها ضدَّ من نحبُّهم، ونحطِّم حياتهم، واليوم أفهم لماذا فشل أولادي في خياراتهم.

بعد بناء البيت واستلام وظيفتي في دمشق، عشت في المخيَّم على نحوٍ متواصلٍ. كان السفر يبعدني عن الكثير من المشكلات، وعندما أعود تكون هذه المشكلات انتهت أو حُلَّت. عندما عشت في المخيَّم، أصبحت مضطرًا للتعامل مع المشكلات منذ ولادتها. رغم أنَّ قراري بأنَّ أولادي هم مشروعي في الحياة، إلَّا أنِّي لم أستطع تجاهل مشكلات أهلي. حاولت أن أعوِّض حرماني من التعليم الذي أردته بأولادي، وحرصت على أن يحصلوا على أفضل تعليمٍ. التعليم أصبح محور حياتي وأساس تعاملي معهم، عليكم أن تتعلَّموا، عليكم أن تحصلوا على أفضل الدرجات، عليكم أن تدخلوا كليَّة الطبِّ، كلُّ ما تريدونه سيكون عندكم، وليس عليكم أن تفعلوا شيئًا غير الدراسة. كان لخديجة الهدف نفسه، فماذا نريد نحن الآباء من أبنائنا غير أن يكونوا أفضل الناس على الإطلاق. لأنَّهم أولادي ظننتهم أذكى وأفضل الطلاب، وسيكونون متفوِّقين على الجميع، أمنت أنَّهم كذلك. كانت ميرفت التجربة الأولى، ظننت أنَّها ستحصل على علاماتٍ تؤهِّلها لدخول كليَّة الطبِّ، لكنَّها فشلت في ذلك، ولم تحصل سوى على علامات تدخلها كليَّة الاقتصاد، ولأنِّي لم أرد لها أن تكرَّر تجربتي، أقنعتها بأن تعيد امتحان الشهادة الثانويَّة من جديد. أذعت لرغبتي في ذلك، وأعادت امتحانات الثانويَّة، تحسَّنت علاماتها قليلًا، لكنَّها سمحت لها بالدخول إلى كليَّة الهندسة الكهربائيَّة فقط. رضيت بهذا المصير لها، وقلت ابني عامر سيعوِّضني عن هذه الخيبة. في العام التالي تقدَّم عامر إلى امتحانات الشهادة الثانويَّة، حصل على علامات أقلَّ من أخته، فلم يحصل في مفاضلة دخول الجامعة سوى على كليَّة الهندسة الميكانيكيَّة. حاولت إقناعه بإعادة امتحان الشهادة الثانويَّة، رفض قال: «بابا، أنا بعرف إمكانيَّاتي، ما رح يطلع معي شي أحسن، وإذا عدتها يمكن احصل على علامات أقل»، تناقشت معه كثيرًا لكنَّه هذه المرة كان في غاية العناد، وعندما ضغطت عليه مرَّةً أخرى قال: «بابا، أنا اللي سويته، سويته منشانك. أنا أصلًا ما كان بدي أدرس

علمي»، صدمني جوابه، ظننت أولادي أكثر طموحًا ممَّا اكتشفت في الواقع. مع ابنتي فاتن، تراجعنا خطوةً وكان إنجازها أن درست الأدب الانكليزي. مع عدنان الذي كان عنيدًا عناد بغلٍ، لم أستطع دفعه سوى لإنجاز الإعداديَّة، ولم يرغب في إكمال أيِّ دراسةٍ، سوى الدراسة المهنيَّة، التي أتمَّها بصعوبةٍ. مع عدنان عدت لأوَّل مرَّةً لضرب أحد أبنائي، فقد تصرَّف بكلِّ ما لا أحب أن يصدر أولادي، من عدم الدراسة، إلى التدخين، إلى البقاء طويلًا خارج المنزل، إلى تربية الحمام. الذي منعته من القيام به على سطح البيت. حاولت خديجة وأمُّها إقناعي، أن أدعه يربِّي الحمام، فهو لا يضرُّ أحدًا بذلك، أفضل من أن يذهب ليشاهد الحمام عند الآخرين. لم أقبل لأني ببساطة كنت أعرف أنَّ هذا الاهتمام «شغل زعران» وزاد بعد أن كبر قليلًا أن أصبح اهتمامه بالصيد، وبدأ يحاول امتلاك بندقيَّة صيدٍ خاصَّةٍ به. لم يكن أحمد أحسن حالًا من عدنان، فشل في دراسته وقد حصل على الشهادة الإعداديَّة بصعوبةٍ، وجد أنَّ طريق عدنان أقلَّ صعوبةً وأكثر راحةً لشخصٍ يريد كلَّ شيءٍ بسهولةٍ في الحياة. مع سمر التي وُلِدَت بعد أخوها أحمد بسنواتٍ عدَّةٍ، كنت اقتربت من عامي الخمسين وتعبت من الضغط عليهم من أجل التعليم. وفشلي في ذلك كلَّ مرَّةٍ، فتركتها تفعل ما تشاء بدراستها من دون تدخُّلٍ منِّي، حتَّى لم أُبدِ أيَّ رأيٍ فيما تفعل، إلَّا عندما كانت تسألني. وقد أخذ أولادي الآخرين يعيِّرونني كيف عاملتهم بقسوةٍ وكيف عاملت سمر بلينٍ غير معهودٍ.

لقد فشلت مع أولادي، أو بالأصح دفعتهم إلى الفشل، ولم أعرف أنِّي بمصادرة قرارهم، واتخاذه بدلًا منهم، باتوا يخافون من اتخاذ أيِّ قرارٍ في حياتهم، وأخذوا يلقون عبء قراراتهم عليَّ أو على أمِّهم، وعندما يفشلون يُحمِّلوننا المسؤوليَّة، بالقول: «أنت قلتلي أعمل هيك» لم يحمَّلوا المسؤوليَّة، لأنَّهم لم يتعلَّموا اتخاذ القرار. في النهاية فشل كلٌّ من ميرفت وعامر بإنهاء دراستهم الجامعيَّة، وتحوَّل عدنان وأحمد إلى هواية الصيد، وأنهيا حياتهما

الدراسيَّة وأخذا يعملان بمهنٍ مختلفةٍ، دهان، بلاط، بناء... أيَّ شيءٍ يجدونه عرضًا، المهمُّ بالنسبة إليهم كان الصيد، الذي تُسخَّر كلُّ إمكانيَّاتهم من أجله، وبدل البندقيَّة أصبح عندهم ثلاثة، وبعد ذلك أشتروا كلاشنكوف، ولا أعرف ما حاجتهم إليه ولا من أين اشتروه. فاتن أكملت دراستها بصعوبةٍ، وسمر تخرَّجت من كليَّة التربية.

في مثل هذه الأوضاع، بات عليَّ مسؤوليَّة ترتيب حياتهم، شعرت أنِّي أتحمَّل مسؤوليَّة فشلهم في كثيرٍ من القضايا، كنت أعتقد أنِّي أربِّيهم أفضل تربيةٍ، كنت مخطئًا، لقد فشلت في تربيتهم وفي تعليمهم كيفيَّة صناعة حياتهم، لذلك وَجَبَ عليَّ أن أرتِّب لهم حياتهم بقدر ما أستطيع. كبروا بسرعةٍ من دون أن أنتبه، وازدادت حاجاتهم، وبعد قليلٍ سيؤسِّسون عائلاتهم، ولا ظننت أنَّهم قادرون على فعل ذلك وحدهم. لذلك كان عليَّ أن أعيد بناء البيت، ليجد كلُّ واحدٍ منهم بيته الخاصَّ فيه، ويبقون حولي لأستطيع مساعدتهم في كلِّ وقتٍ. حصلت على رخصة بناءٍ، ليصبح البناء الذي نسكنه مؤلَّفًا من شققٍ عدَّةٍ لسكن الأولاد عندما يؤسِّسون عائلاتهم، وشقَّةٌ لنا أنا وزوجتي، وأخرى للبنات في حال أيِّ مشكلةٍ بين إحداهن وزوجها.

كان وقتًا عصيبًا عليَّ، عشت الأزمة الأعمق في حياتي، أزمة الفشل المطلق في كلِّ شيءٍ. حلمت بعائلةٍ نموذجيَّةٍ من الناجحين في دراستهم ثمَّ في أعمالهم. وجدت نفسي أعيش في عائلةٍ غارقةٍ في الفشل، بدءًا منِّي حتَّى آخر ولدٍ. شعرت بثقلٍ هائلٍ على صدري، فكَّرت طويلًا، أين ومتى وقع الخطأ؟ هل هو خطأي؟ هل هو خطأ أولادي؟ هل هو تأثير الظروف؟ أسئلةٌ كثيرةٌ خطرت لي، لم أكن قادرًا على الاعتراف بها أمام العائلة ومناقشتها، لأنِّي أصلًا، لم أعترف بالفشل في عائلتي، وعددتها نموذجًا للعائلة الناجحة، وأنا غير مقتنعٍ بذلك. كنت أحتاج لمن أتحدَّث معه عن أوجاعي التي لا أستطيع التكلُّم فيها مع خديجة أو الأولاد، أو مع إخوتي، حتَّى لا أقرَّ

بفشلي. احتجت لأحدٍ قربي يمنعني من السقوط والانكسار. كانت نهاد بجانبي دائمًا، امرأةٌ تحمل أسمًا يصلح للجنسين، لكنَّها كانت كاملة الأنوثة، وكأنَّ أهلها توقَّعوا ذلك، فمنحوها اسمًا يصلح للجنسين لتخفيف أنوثتها الطاغية، زميلتي في العمل منذ سنواتٍ، مدرِّسةٌ في المكان ذاته الذي أعمل به، هي مثلي متزوِّجة ولها مشاكلها، تحتاج مثلي لأحدٍ يسمعها، لأنَّها لا تستطيع البوح بما يؤلمها لأحدٍ في عائلتها. توقَّعت كلَّ شيءٍ في حياتي سوى علاقة حبٍّ مع نهاد، ليس مانعًا واحدًا لمثل هكذا علاقةٍ فحسب، هناك الكثير من الموانع أيضًا، التي تجعل هذه العلاقة مستحيلةً، ليست أوَّلها قدمي المحطَّمة التي عدت للتفكير فيها، وهل يمكن لهذه المرأة الجميلة المنحدرة من عائلةٍ شاميَّةٍ والمتزوِّجة من رجلٍ لا عيب في مظهره على الأقل أن تنظر إليَّ، كنت أنفي ذلك رغم ازدياد اهتمامها بي. فجأةً اكتشفنا أنَّنا نشبه بعضنا حدَّ التطابق، وما كان زمالةً قويَّةً، فجأةً تحوَّل إلى حبٍّ عاصفٍ متأخِّرٍ، كبحناه نحن الاثنين لبعض الوقت لأنَّه بدا مستحيلًا. فجأةً هذا المستحيل أصبح حقيقةً رغم جبل الموانع الذي يحيط به. وجدت نفسي أقول ما لم أكن قادرًا على قوله، أسخر من جديَّتي المبالغ فيها، أسخر من حبِّ الطلَّاب لي كمدرِّسٍ لهم، أسخر من العمر الذي ضيَّعته هباءً منثورًا في أولاد ليس منهم أيَّ نفعٍ. دُهِشتُ من نفسي وأنا أبكي على صدرها، وأنا الذي انقطعت الدموع من عيني منذ كنت طفلًا، كأنِّي على صدرها عدت طفلًا لا أشعر بالخجل من البكاء، كما أخجل أمام الآخرين، بل على العكس يتحوَّل البكاء على صدرها إلى تطهُّرٍ من أوجاعي وآلامي. كنت حرًّا معها، أحلِّق، أقول ما أشاء من دون حسابٍ، أبكي كما أشاء، أضحك كما لم أضحك في حياتي، وأنا معها رميت كلَّ رزانتي في حاوية القمامة. كان هذا الجزء الجميل من العلاقة، إذ وجدت نفسي بعد كلِّ التجربة التي مررت بها. كما كان هناك جزءًا مرهقًا في هذه العلاقة. لم أتصوَّر أنَّ امرأةً جميلةً وحسَّاسةً مثل نهاد، تحمل داخلها هذا الكم الهائل من الحزن والألم، امرأةٌ مقيَّدةٌ

بآلاف الخيوط التي تمنعها من عيش حياتها، كما يجب أن تعيشها، لم تفعل شيئًا في حياتها برغبتها، دائماً كانت مدفوعةً لفعل ما ينبغي عليها فعله، لا ما ترغب هي به. عندما تتحدَّث عن حياتها، أشعر بالحزن الشديد من أجلها، وعندما تبكي على صدري تحطِّمني تمامًا، لم أكن قادرًا على احتمال دموعها، أشعر بها سكاكين تُغرَزُ في قلبي. وراء مظهرها الارستقراطيِّ الأنيق الذي يبدو سعيدًا، كانت غابةٌ من الحزن والضياع وفقدان المعنى. منها عرفت أنَّه من الصعب على المرأة أن تعيش حياتها إلى جانب رجلٍ لا تشعر به، رجلٍ قد يكون الأفضل في العالم، لكنَّه لا يعني لها شيئًا، ولم تستطع حتَّى أن تتعوَّد عليه بفعل العشرة الطويلة كما يقولون، قالت بلهجتها الشاميَّة المحبَّبة «بيني وبينه حاجز رهيب مو قابل للكسر، حاولت أكسره ما قدرت، على العكس، كل ما حاولت أكسره بزيد سماكة. مع هذا الحاجز ولدت ولادي، ما فرحت، كأنُه في شي ميِّت جواتي. متت باليوم اللي أجبروني أتجوز هذا الرجل. المشكلة أنُه رجل منيح وزوج منيح، ما بقدر أعيب عليه شي، ويمكن كثير من النسوان بتمنوا واحد مثلُه. بس أنا لا، بشعر أنُه أخذ روحي، ومن يوم دخلت بيتُه ما عاد عندي روح. ما في شي إلُه معنى، كل شيء في حياتي ما إلُه معنى، لا الأولاد، ولا الأهل، ولا الأصدقاء، ولا الهدايا، ولا التياب، ولا الحفلات، ولا السفر.. عشرين سنة زواج، ما عرفت طعم الفرح، ويمكن كمان ما عرفت طعم الحزن، عشت حالة من البلادة، خسرت فيها كل الأحاسيس، وفكرت أنُه هذا رح يكون حالي لحتى موت. بس معك تحرَّك فيني أشياء ما كنت بعرف إنَّها موجودة»، كانت غصَّة البكاء في صوتها المجدولة مع كلماتها تترك تأثيرًا مدمَّرًا عليَّ. لم أتحمَّل ألمها، ولم أكن قادرًا على حمله عنها كما تمنَّيت، ولا أعرف كيف امتلكت القدرة على سماعها، وهذا ما زاد همًّا لهمومي التي لا تطاق. كنَّا نعيش تلك الحالة المتناقضة، في أن نخفِّف متاعب عمرنا بحبٍّ مستحيلٍ، ولم نفكِّر ما هو مصير هذه العلاقة، كنَّا نحتاجها، وهذا أهمُّ شيءٍ فيها، لم نكن قادرين على

الاستمرار من دونها، فهي منحت حياتنا معنًى في وقتٍ افتقدت فيه أيَّ معنًى آخر، والضغوط الآتية من كلِّ الجهات جعلتنا نكره حياتنا. شكَّلت هذه العلاقة الواحة الوحيدة في صحراء حياتي القاحلة، هذا ما شعرت به في ذلك الوقت، وشعرت أنِّي لا يمكنني العيش من دون نهاد، فقد باتت بالنسبة لي قضيَّة حياةٍ أو موتٍ. غيرتني العلاقة من دون أن أنتبه، تحوَّلت إلى شخصٍ آخر، انتبه الآخرون إلى تغيُّراتي، كانت واضحةً لدرجة أنَّ الآخرين لاحظوها وأنا وحدي الذي لم أنتبه، ظننت أنَّ حياتي تسير كما كانت في السابق بالنسبة لهم. يبدو أنَّ حالة الحبِّ من الصعب إخفاؤها، فالمحبُّ دائمًا في حالة فضيحةٍ. عندما شعرت أنِّي لا أستطيع العيش من دونها، انفجر في وجهي جبل الموانع الذي لا يمكن تجاوزه إلَّا بقوَّةٍ هائلةٍ وتدمير عائلتين لا ذنب لهما سوى أنَّ عضوين فيهما أصابهما جنون الحبِّ فجأةً. بعد القفز في الحبِّ والسُكر في ملذَّاته وآلامه، يأتي وقت الخروج والسؤال ماذا بعد؟ من هنا إلى أين عليَّ الذهاب، نستطيع أن نقف في المرحلة نفسها لبعض الوقت، لكنَّ سؤال إلى أين الذهاب في هذه العلاقة؟ يزداد إلحاحًا. وكان عليَّ أن أواجه السؤال الأصعب، هل أستطيع دفع ثمن بقاءنا معًا طوال الوقت؟ وهل تستطيع هي أن تفعل الشيء ذاته؟ للقفز من الوضع الذي نحن عليه إلى العيش معًا، كان يجب أن نمرَّ عبر جثث عائلاتنا. وحضر سؤالي الشخصيُّ، هل أستطيع أن أدمِّر عائلتي وعائلتها من أجل أن نكون معًا. أخافني السؤال، وبتُّ أنظر إلى حياتي السابقة نظرةً أكثر واقعيَّةً، هل هي بهذا السوء الذي أتحدَّث به مع نهاد؟ هل أصف حياتي كما هي، أم أبالغ حتَّى أحصل على عطفها؟ وماذا سيحدث لعائلتي، هل سيتحوَّل أولادي الفاشلين إلى ناجحين عندما أُقدِم على هذه النقلة؟ وهل ستكون عائلتها وأولادها أفضل حالًا؟ وهل حقًّا ستخرج من حالة عدم الإحساس بالأشياء معي، أم ستستمرُّ الحالة معها حتَّى في حياتنا المشتركة؟ بعد العدد الكبير من الأسئلة الموجعة، وجدت نفسي خائفًا ممَّا كنت أتوق إليه. في ظلِّ

هذه الأسئلة وصلت العلاقة الجارفة إلى عنق الزجاجة، أصبحت تراوح مكانها وباتت تحتاج إلى نقلةٍ، وهذه النقلة تقع بين خيارين متطرِّفين، إمَّا أن نذهب إلى نهاية الطريق ونعيش معًا وهذا ما يحتاج إلى أن نخرج من عائلاتنا لنؤسِّس علاقةً جديدةً بزواجٍ جديدٍ. ولأنِّي لا أنا ولا هي كنَّا قادرين على فعل ذلك، كان علينا الذهاب إلى الخيار الآخر، أن يذهب كلٌّ منَّا في طريقه من دون ضغينةٍ. كان الانفصال مؤلـمًا، لم أواجه في حياتي وضعًا كنت فيه غير قادرٍ على كبح نفسي فيه مثل هذا الوضع، شعرت نفسي مربوطًا بحبالٍ غليظةٍ تشدُّني بقوَّةٍ هائلةٍ اتجاهها. لم أنجح دائمًا في منع نفسي من لقائها بعد قرار الانفصال، كنت أشعر أنِّي عدت صغيرًا وأُفطمُ من جديد وأنا غير قادرٍ على الابتعاد، كان اللقاء اليتيم الذي جرى بعد قرارنا في الانفصال مدمِّرًا، شعرت نفسي محطَّمًا تمامًا وهي لم تكن أحسن حالًا، بكينا كما لم نبكِ من قبل، حزن الدنيا حضر في ذلك اللقاء، بدلًا من الفرح الغامر الذي طبع لقاءاتنا السابقة. احتجت إلى شحذ كلِّ قوَّتي الداخليَّة لمنع نفسي من مقابلتها مرَّةً أخرى، لعنت ضعفي، ولعنت الساعة التي تعرَّفت فيها عليها، واتخذت قراري بكلِّ عنادي الذي أعرفه عن نفسي، بأنِّي لن أقابلها، حتَّى لو متُّ، ليس من أجلي، بل من أجلها، لم أكن قادرًا على رؤيتها بالحالة التي رأيتها فيها آخر مرَّةٍ، وإلَّا سوف أدمِّر الدنيا وليس عائلتي فقط. عرفت خديجة بحدس الأنثى فيها بهذه العلاقة، لم تملك أيَّ معرفةٍ محدَّدةٍ، لكنَّه إحساسها. لا أعرف كيف؟ ولكنَّ سلوكها كان يقول إنَّها تعرف بعلاقتي بنهاد، من دون أن تعلن ذلك. وهذا ما كان يزيد عذابي، ما ذنب هذه المرأة التي احتملتني بالحلوة والمرَّة أن أتسبَّب لها بهذا الأذى. تحوَّلت خديجة في هذه الفترة إلى امرأةٍ حزينةٍ، حزينةٍ بلا سببٍ، فلا شيء يدعو للحزن، لكنَّها حزينةٌ. لا أحد أفشى سرِّي لها، سلوكي هو الذي فضح هذه العلاقة من دون أن أنتبه. لم تراجعني خديجة، ولم تفتح الموضوع معي، مع أنِّي توقَّعت أن تفتحه في أيِّ لحظةٍ، حتَّى بعد أن انتهى، لم تتطرَّق له أبدًا.

أصبتها بجرحٍ بليغٍ، صمتت عليه، لأنَّها لم تكن تريد أن تهدم العائلة، وكأنَّ لسان حالها يقول «سأبلع هذا الجرح، إذا هو تجاوز ما يمرُّ به»، منعتها كرامتها من مراجعتي وإعلان تمسُّكها بي. كرَّرت في تلك الفترة القول: «ما في مرة بالدنيا بتقدر تحافظ عل رجّال ما بدو إياها» كانت الرسالة واضحةً، أنكرت أنَّها موجَّهةٌ لي، رغم أنَّها توصيفٌ للواقع القائم، بعد ذلك عرفت أنَّها ليست المصادفة، إنَّما كانت تقصد كلَّ كلمةٍ تقولها، وعندما أنظر إليها وأتذكَّر تلك الأيَّام أشعر بالعار والخجل. دخلنا الأزمة وخرجنا منها، من دون أن تراجعني حتَّى بعد أن انتهت، لأنَّها لم تكن تريد أن تكسر صورتي عند أولادي، ولا تريد أن نعيش بذكرى جرحٍ لن يندمل. ندمتُ على العلاقة مع نهاد، لكنِّي لم أتوقَّف عن حبِّها يومًا، كانت أيَّام انفصالنا الأولى من أصعب أيَّام حياتي، الانفصال عنها سبَّب جرحًا في روحي، بقي نازفًا طوال حياتي.

لا أعرف لماذا كانت أزمتي مع نهاد، تذكِّرني بالمشكلة العائليَّة التي تسبَّبت عائدة بنت أخي عبد الرحمن بها قبل سنواتٍ طويلةٍ. ليس هناك رابطٌ بينهما، سوى أنَّهما قصَّتا حبٍّ رغم اختلاف ظروف كلِّ تجربةٍ منهما. وقد أكون تذكَّرت القصَّة، لأنَّها تعلن فشلي في الاحتفاظ بحبِّي، ونجاح عائدة في الاحتفاظ بحبِّها، رغم كلِّ المخاطر التي أحاطت بهذا الحبِّ. في تلك الأيَّام الصعبة، استدعاني أبي لأمرٍ هامٍّ، كنت قد تصالحت معه وتجاوزت الخلاف القديم، وتفهَّمت مع الوقت أنَّ أبي بعد مغادرته فلسطين، لم يعد يقوم بالأشياء إلا مواربةً على نحوٍ غير مباشرٍ، لأنَّ الهرب بات مكوِّن شخصيَّته الرئيسيِّ، وأصبح عندما يواجه مشكلةً مباشرةً يشعر بالضيق، فهو لا يريد أن يواجه أيَّ شيءٍ. عندما علم أنَّ عائدة ابنة عبد الرحمن على علاقةٍ مع شابٍّ مسيحيٍّ، ثار غضبه ولم يعرف ماذا يفعل، استدعاني وأخبرني وقال لي: «شفت شو صار؟»، قلت: «خير. شو صار؟» قال «بنت أخوك عشقانة واحد مسيحي»، أدهشني الخبر وسألته: «مين قلك؟»،

قال «أخوك عبد الرحمن»، لم أصدِّق أنَّ هذا الأحمق حمل بنفسه هذا الخبر لأبي، ولم أفهم لماذا أخبره، وما هي العبرة من اكتشافه أنَّ له عائلةً وحريصٌ على شرفها، وهو لم يتحمَّل مسؤوليَّتها يومًا. لعنت عبد الرحمن بسرِّي على الورطة التي أوقع أبانا فيها. قال أبي بلهجةٍ آمرةٍ: «رح نروح على بيت أخوك ونشوف هاي المصيبة»، قلت: «طول بالك يابا. ما فيك تأخذ على كلام عبد الرحمن، هو دائمًا بهول بالأشياء»، قال: «بدك تروح، ولا أروح لحالي؟»، منذ وصلت بيت أهلي عرفت أنَّ أبي غاضبٌ، وعندما قال كلمته الأخيرة عرفت أنَّه خائفٌ أيضًا، وشعرت أنَّه يريدني أن أرافقه، ليس لأنَّه يريد أن يرتكب جريمة قتلٍ كما كان يبدو عليه الأمر، بل على العكس يريدني معه، حتَّى لا يفعل ذلك. قرَّرت الذهاب معه، حتَّى أمنع حدوث مثل هذا الأمر، لأنِّي لم أكن قادرًا على منعه من الذهاب، فلم يكن أمامي من خيارٍ، سوى أن أرافقه حتَّى لا تقع في العائلة جريمة شرفٍ تلوِّث سمعتنا. في الطريق إلى بيت عبد الرحمن، فكَّرت في الوضع الرديء الذي صنعه عبد الرحمن بحماقته، لكنِّي حزنت على وضع أبي، وتضامنت بشدَّةٍ مع عائدة العاشقة. شعرت أنَّ الحبَّ أهمُّ من كلِّ شيءٍ، لماذا نلاحق حبَّ عائدة، حتَّى لو أحبَّت الشيطان وليس شابًّا مسيحيًّا؟ هي حياتها، لماذا نفرض على المحبِّين عقوباتنا الاجتماعيَّة السخيفة؟ أيُّ جرمٍ ارتكبته هذه الفتاة في حبِّها لشابٍّ، أيًا يكن هذا الشابُّ؟ وأيُّ أبٍ بلا إحساسٍ مثل عبد الرحمن يخلق فضيحةً لابنته ويضعها في موقع الخطر؟ في الطريق إلى البرامكة مع أبي حيث بيت عبد الرحمن، اكتشفت أنِّي في غاية التسامح مع عائدة، وقرَّرت أن أحمي العاشقة من أبي مهما كان الثمن. عندما وصلنا وطرقنا الباب فتحت سعاد زوجة عبد الرحمن الباب، بوجهٍ متورِّمٍ، قال أبي: «السلام عليكم» بغضبٍ وقلت بتعاطفٍ: «مرحبا. من فعل بك هذا؟ عبد الرحمن؟»، قالت: «أهلًا وسهلًا. تفضَّلوا»، لم تجب على سؤالي، لكن دموعها أجابت. سأل أبي سعاد: «وين عائدة؟»، قالت: «عائدة مو هون، خير شو

في؟»، قال أبي: «أكيد مو هون؟»، قالت: «فوت فتش البيت إذا بتحب»، قال: «لا، على كلِّ حال بنرجع بعدين»، خرج غاضبًا وسعاد تلحق بنا: «وتقول شو في؟»، قلت محاولًا طمأنتها: «مشكلة وبتنحل، لا تشغلي بالك»، لم أفهم لماذا ذهب أبي إلى البرامكة وما الذي كان يحاول إثباته في تلك اللحظة بهذا التصرُّف؟ لا شكَّ عندي أنَّ التصرُّف أخاف سعاد وأخاف عائدة ودفعها إلى الهرب خوفًا على حياتها، فهي اختفت بعد هذه الزيارة لتتزوَّج من ذلك الشاب. أقول هذا لأنَّ أبي قال لي بعد سنواتٍ طويلةٍ من الحادثة: «لما سعاد قالت: عائدة مو هون، فتش البيت إذا بتحب. خفت أفتش البيت وألاقي عائدة، ما بعرف شو كنت رح أعمل؟ لو لاقيتها كنت تبهدلت، لأنِّي ما كنت بقدر أقتلها. حتَّى لما قلت لأخوك منير شو صار، وأنُه لازم يغسل شرف العيلة لأنَّها بنت بتستاهل القتل. وليش ما بتغسل إنت شرف العيلة؟ ردَّ بمسخرةٍ «شو ذنبي أنا؟! اللي بحب واللي بتجوز مسيحي ولا مسلم ولا يهودي، شو علاقتي أنا؟ أولاد أخوي ما شفتهم من سنين، مثلهم مثل الغربا، اليوم بصير عندي عيلة وبدي أغسل شرفها؟! والله يابا الشرف مش شقفة قماش بنغسلُه، وما بعرف ليش عائدة إذا تجوزت شب مسيحي بتلوث شرف العيلة؟ شو هالشرف هذا؟ والله ما بهمني هالشرف ولا بدي غلب حالي وأغسلُه، خليه وسخ. شو صاير عليّ؟» وقتها ما قصرت فيه، وقلتلُه أنت رجَّال ما عندك شرف، ما في واحد عندُه شرف بحكي هيك حكي... بس أنا كنت رضيان عن جوابه، لأنِّي عرفت ما رح أخسره ويعمل جريمة ويروح عالسجن، مع أنَّه راح على السجن بعدين، بس لسبب ثاني»، لا أعرف لماذا قال أبي لي هذا الكلام بعد سنواتٍ، هل ليقنعني أنَّ صورتي عنه في تلك اللحظة لم تكن حقيقيَّة؟ أم أنَّه كان ينوي قتلها فعلًا في تلك اللحظة، وتراجع مع الوقت، وهو لا يريدني أن أعرف حقيقة موقفه لأنِّي الشاهد الوحيد على ما جرى. عندما رافقته في ذلك اليوم كنت أعرف أنَّه، لن يرتكب هذا الفعل، ببساطةٍ لأنَّه لم يتسلَّح بشيءٍ. وكنت قرَّرت منعه،

حتَّى لو كان ينوي فعل ذلك. همَمتُ بأن أقول له هذا الكلام، وجدت ألَّا فائدة من إخباره بذلك، فصمتُّ.

رغبت أن يكون كلُّ شيءٍ كما أريد في حياتي، ظننت أنَّ لإرادتي فعل السحر، أستطيع أن أفعل ما أريد طالما أملك الإرادة والعناد لتحقيق ذلك، وأنَّ على الآخرين أن يحقِّقوا إرادتي طالما أنا أحبُّهم وأثبت لهم هذا الحبَّ. وأكثر من هذا، ظننت أنِّي وحدي من ضحَّى من أجل الآخرين، أمَّا عندما ينفِّذ الآخرون إرادتي، فهم ينفِّذونها لأنِّي أعرف مصلحتهم أكثر منهم. عشت بقوقعةٍ أوهم نفسي أنِّي الوحيد الذي أعرف ما ينبغي فعله، والآخرون مجرَّد أغبياء من أقرب الناس إليَّ إلى أبعدهم. لم أعرف أنَّ هذا الفهم للحياة يصنع جدران عاليةً بيني وبين الآخرين، وعندما يوافق الآخرون على رأيي أو يتصرَّفون كما أملي عليهم، هذا لا يعني اقتناعهم بآرائي، بل هم باتوا يعرفون ألَّا فائدةً من الجدال والنقاش معي، سواءً أرادوا أن يفعلوا ما أقول إرضاءً لي، أو قرَّروا أن يفعلوا عكس ما أريد، في الحالتين يوافقون على ما أقول ويفعلون ما يريدون. أتعبني الفشل المتكرِّر في معالجة المشاكل بهذه الطريقة مع الجميع، وبدأت استسلم لواقعٍ أقوى منِّي، وعرفت متأخِّرًا أن قدرتي على التأثير معدومةٌ عكس الوهم الذي عشته سابقًا كرجلٍ عصاميٍّ عنيدٍ، لا يتراجع عن رأيه. طوَّعتني الحياة التي أردت تطويعها. القرار الذي سيطرت عليه لفترةٍ طويلةٍ، بدأت أتخلَّى عنه، لم أعد أتحمَّل المزيد من الفشل وبدأت أشعر بالكبر، وأولادي الذين باتوا رجالًا، أصبح عليهم أنَّ يتخذوا قراراتهم بأنفسهم. عندما عادوا ليسألوني عن كلِّ تفصيلٍ في حياتهم، عرفت أنِّي فشلت في تعليمهم كيفيَّة اتخاذ القرار، الذي لا يأتي إلَّا بالتمرين. وكانت المفارقة المرَّة، عندما كنت أريد أن يفعلوا ما أريد، فعلوا ما أرادوا. وعندما أصبحت أريد أن يفعلوا ما يريدون، عادوا إليَّ لأقرِّر عنهم بإرادتهم. بأيِّ سخريةٍ تديرنا الحياة!

ذهب الأولاد إلى بناء حياتهم الخاصَّة، تزوَّجت ميرفت من وليد، الشابِّ الذي أحبَّته في الكلية، فاشلان في الدراسة تزوَّجا ليبنيا عائلةً، لم أرتح لهذا الرجل يومًا، لكنَّه خيارها ولم أقف في طريقها، اشتغلت لبعض الوقت في معمل لصناعة المعدَّات الطبيَّة في دمشق، وهو المكان ذاته الذي اشتغل فيه زوجها كفنِّي آلاتٍ ميكانيكيَّةٍ بفعل دراسته، والذي اشتغل فيه ابني عامر بعد فشله في إكمال دراسته أيضًا. تزوَّج عامر بدوره من فرح أخت زوجة عمِّه عمر، وذهب ليعمل معهم في تجارة السيَّارات المستعملة، وهو زواجٌ وعملٌ لم أكن راضيًّا عنهما أيضًا، كان خياره الذي لم أعارضه. كذلك الحال مع عدنان الذي تزوَّج من عبلة، وأحمد الذي وقع في غرام سهيلة، وأخذ يمثِّل أنَّه سيجنُّ إذا لم يتزوَّج هذه الفتاة، رضخنا لابتزازه وتزوَّج منها. تنقَّلا بين أعمال فاشلةٍ، فلم يبقَ أمامي من خيارٍ، سوى أن أتدبَّر لهما عملًا. بجزءٍ من تعويضات خديجة من نهاية خدمتها في الأونروا افتتحت لهما ورشةً لكبس الخشب للنجَّارين، وقلت لهما أنَّ أمَّهما شريكتهما في هذا المحل برأس مالها. ولأنِّي أعرف أيَّ فوضى يعيشان في حياتهما، اشترطت عليهما أن أتولَّى حسابات المحلِّ، فوافقا على مضضٍ. تزوَّجت فاتن من مرعي، وهو شابٌّ درس الكيمياء في جامعة دمشق، ويعمل في معملٍ للألمنيوم في دمشق، وهو الرجل الوحيد بين أزواج وزوجات أبنائي الذي أعجبني، كنت أشعر أنَّه يشبهني في الكثير من الأشياء. تزوجت سمر من صالح ولحقت به إلى ألمانيا، فهو ذهب إلى هناك عندما كان فتًى صغيراً، درس ميكانيك الطائرات، وعندما أنهى دراسته وعمل أراد أن يتزوَّج من محيطه السابق، فوقع اختيار أهله على سمر، لم أرغب أن تتزوَّج خارج البلد، لقد كانت سمر مدلَّلتي والأقرب إلى قلبي، ليس لأنَّها أصغر أبنائي، بل لأنَّها الأكثر طيبةً وحنانًا، كنت أريدها إلى جانبي طوال الوقت، لكنَّها اختارت أن تتزوَّج هذا الشاب، فما كان منِّي سوى أن باركتها. عندما بنيت بيتي جمعت أولادي الثلاثة، قلت لهم «هاي بيوتكم، حتَّى ما تختلفوا، ما

حدا رح يختار، رح نعمل قرعة على الشقق. كل واحد منكم، رح يرضى بقسمتُه. الشقق مثل بعضها زي ما بتعرفوا. أنا شايف القرعة أفضل حل لتجاوز أيَّ خلاف هلأ وبالمستقبل»، وافقوا على الاقتراح، جرت القرعة وكلُّ واحدٍ عرف شقَّته. حاولوا فيما بعد أن يتبادلوا شققهم، لكنِّي رفضت بشدَّةٍ. قلت لهم «أنا عملت هذا منشان أتجنَّب الخلاف، ما رح أتسبَّب هلأ باللي تجنبتُه».

بعد الفشل الذي منيت به في أن يكون عندي أولادٌ مختلفين عن الآخرين يملكون مستقبلًا استثنائيًّا، أصبح كلُّ ما أريده ألَّا أرى حياتهم تنحدر إلى أوضاع بائسةٍ. لذلك كان عليَّ أن أساعدهم في بناء حياتهم وعائلاتهم على نحوٍ عاديٍّ ومعقولٍ بعد أن ازدادت صعوبة الحياة في البلد، بسبب تردِّي الدخول. وكان عليَّ أن أبقيهم حولي، لأنَّ هذا الجيل لم يكن قادرًا على امتلاك شقَّته الخاصَّة، إلَّا بشقِّ الأنفس أو بالفساد، كان علينا أن نقدِّم لهم هذه الشقق حتَّى يبدأوا حياتهم. أصبح الهدف الأساسيُّ لحياتي، أن يكون أبنائي حولي، يعيشون معًا ويتضامنون مع بعضهم، وأكون مطلًّا على حياتهم في حال احتاجوا إلى مساعدةٍ أو رأيٍ. عندما وصلت إلى تقاعدي، كان هذا قد تحقَّق، وشعرت أنِّي تجاوزت فشلي السابق. بات كلُّ شيء، كما أردنا أنا وخديجة، أن نعيش حياتنا براحةٍ، غير قلقين على الأولاد الذين يتابعون حياتهم على نحوٍ جيِّدٍ. وعندما تقاعدت خديجة من عملها أيضًا، ولم يكن عندها راتبٌ تقاعديٌّ، إنَّما مكافأة نهاية خدمةٍ، لأنَّها عملت في الأونروا، فاقترحت عليها أن تشتري شققًا صغيرةً وتقوم بتأجيرها، بذلك يصبح عندها ما يشبه الراتب التقاعديَّ، وهذا ما كان، لكني اقترفت حماقةً، اقترفها الآلاف في البلد في بداية الاحتجاجات، فيما تبقَّى من مبلغ نهاية الخدمة لخديجة، لأنَّنا مثل كثيرين لم نعرف ماذا نفعل بالمال الذي معنا، فلا نحن قادرين على إخفائه في مكانٍ ما، لأنَّه يمكن في أيِّ حملة تفتيش أن يُسرَق. ولا مقتنعين أن نضعه في البنك، لأنَّ البنوك يمكن أن

تغلق أبوابها في حال أيِّ انهيارٍ إضافيٍّ في البلد، في هذه الحالة لن نستطيع الوصول إلى مالنا عندما نحتاجه. لذلك، وافقت على فكرة ابني أحمد، وكانت فكرةً بسيطةً أنَّ الأرض لا يمكن سرقتها، لنشتري بالمبلغ الذي نملكه أرضًا، وقد وجدنا أرضًا مناسبةً بسعرٍ مناسبٍ في منطقة دير العصافير. اشتريناها وحفرنا فيها بئرًا وبنينا سورًا وغرفتين، قمنا بهذا عندما كانت المنطقة تشهد اشتباكاتٍ مسلَّحةً، وليس فقط مظاهراتٍ. أضحك اليوم ممَّا أقدَمتُ عليه بحماسٍ في تلك الفترة، وعندما أفكِّر اليوم لماذا فعلت ذلك؟ أكتشف أنِّي قلَّدت الآخرين، وارتكبت الحماقات التي ارتكبوها، معتقدًا أنِّي أتصرَّف بذكاءٍ. فهذا التصرُّف قد وضعنا على حافَّة الإفلاس، بعد إنفاق آخر ما تبقَّى لنا من مالٍ معتقدين أنَّنا نحميه. وأصبح وضعنا سيِّئًا، بعد أن كنَّا نعيش وضعًا جيِّدًا كعجوزين مستقرَّين مرتاحين، ومتطلَّباتهما متواضعةٌ، وقد كنَّا نستخدم فائض المال الذي معنا، في مساعدة أضعف الأولاد أو البنات عندما يحتاجوا الدعم.

عندما انتهيت من واجباتي تجاه أولادي، وتقاعدت تقاعدًا مريحًا، حصل ما هو غير متوقَّعٍ، انفجرت البلد. الاحتجاجات التي بدأت بالمطالبة بحياةٍ أفضل، تحوَّلت إلى بحرٍ من الدم. كانوا محقِّين في مطالبهم، أربعون عامًا من القمع والقسوة والاهانات، ستدفع البلد إلى الانفجار، احتاجت البلد إلى التغيير، بدل أن تذهب إلى التغيير ذهبت إلى الانهيار. انهارت البلد، وانهارت حياتي معها، وتحطَّمت عائلتي. المخيَّم الذي بقي لمدَّةٍ وكأنَّه خارج الصراع الذي يجري في البلد، أصبح منقسمًا على نفسه بشأن ما يجري، بين مؤيِّدٍ للاحتجاجات والثورة، وبين مؤيِّدٍ للنظام، وبين من يقول «إحنا الفلسطينيَّة ما دخلنا»، لم يظهر هذا الخلاف مبكرًا، لأنَّ المخيَّم خلال أكثر من عامٍ ونصف استقبل اللاجئين من الطرفين، سواءً من مواقع الثورة في الحجر الأسود والتضامن والمناطق الأولى التي شهدت أولى الاحتجاجات، أو من شارع نسرين المنطقة المؤيِّدة للنظام. اللاجئون الذين بدأوا بالمئات،

أخذوا بالازدياد خلال الفترة اللاحقة ووصلوا إلى عشرات الآلاف. لم يكن ابني عامر متحمِّسًا لما يجري، كان خائفًا، على عكس عدنان وأحمد المتحمِّسين للثورة، كانا يجلبان الجرحى واللاجئين من حدود المخيَّم، حيث الاشتباكات، يحضران الجرحى لمشافي ومستوصفات المخيَّم، واللاجئين إلى المدارس التي باتت مراكز إيواء للاجئين، يجمعان لهم التبرُّعات العينيَّة أو الغذائيَّة. مع مرور عامٍ على الاحتجاجات التي تحوَّلت إلى اشتباكاتٍ مسلَّحةٍ بات كلُّ محيط المخيَّم مشتعلًا، لم يكن ممكنًا أن يبقى المخيَّم خارج هذا الصدام المسلَّح، رغم تمنِّياتي أن يبقى كذلك. بعد قصف الطائرة للمخيَّم ومغادرة أغلب سكَّانه وخروجه من يد النظام، لم يكن الإغلاق محكمًا، سُمح بزيارة المخيَّم رغم الحصار، وسُمح بإدخال بعض الأشياء البسيطة من المستلزمات، مثل بعض الأكل والدواء، ليس بكميَّاتٍ كبيرةٍ، بحجَّة: حتَّى لا تكون دعمًا للمسلَّحين في المخيَّم، كما يدَّعي المدافعون عن النظام. بعد مغادرة السكَّان بات المخيَّم موحشًا، المكان الذي كان يعجُّ بالبشر قبل أيَّامٍ، خلت شوارعه من سكَّانه ومن لاجئيه. فجأةً انقلب المكان رأسًا على عقبٍ، مات شيءٌ فيه، فالأماكن تعيش بسكَّانها، وعندما يغادرونها تموت. الأماكن ما زالت موجودةً، اللافتات، الشوارع، الكتابات على الجدران، السوق، محلَّات الطعام، محلَّات الملابس، محلَّات الخردوات... باتت أماكن مهجورةً، لا خضار في السوق ولا متسوِّقين، ليس هناك من يبيع الطعام وليس هناك من يشتريه، من محلَّاتٍ كانت تبيع الطعام وتجد المشترين طوال الساعات الأربع والعشرين من اليوم. بقي المكان واختفى روَّاده. عندما تأمَّلت هذا التحوُّل السريع، شعرت نفسي عاريًا. بقيت في المخيَّم ليس لأنَّ لا مكان لي أذهب إليه فحسب. بل لسببٍ آخر أيضًا، فعلى مدى العام الأوَّل من الصراع -وقبله أيضًا- كان بعض الأصدقاء والمعارف والأقارب، وضعوا عندي أماناتٍ من ذهبٍ ومالٍ أو وثائق، لأنِّي أملك خزنةً كبيرةً وقويَّةً في بيتي، ولأنِّي شخصٌ أمين في رأيهم. ولأنِّي لم أتوقَّع أن يحدث

ما حدث في المخيَّم بين ليلةٍ وضحاها، فلم أُعِد الأمانات إلى أصحابها، فوجدت نفسي عالقًا مع الأمانات في المخيَّم، وعليَّ أن أعالج مشكلتها، أصبح الوضع خطيرًا ولا أعرف أيَّ مصيرٍ يمكن أن أتعرَّض له. عندما توضَّحت أوضاع المخيَّم بعد أيَّامٍ من خروج السكَّان، وعرفت كيف يتعامل الحاجز التابع للنظام الذي أغلق مدخل المخيَّم أمام السكَّان الذين يزورون المكان، وكيف يتعامل المسلَّحون داخل المخيَّم، أخذت أتصل بأصحاب الأمانات، حتَّى يستعيدوا أماناتهم. وقد استغرق إعادتها حوالي الأسبوعين، حتَّى تمكَّن أصاحبها من إرسال من يثقون به لأسلِّمهم إيَّاها. خلال هذه الفترة ازداد الحصار على المخيَّم، وكلَّما حضر أحد أولادي بزيارةٍ إلى المخيَّم، يلحُّ على ضرورة خروجي من هناك، وكلَّما اتصلت بنتٌ من بناتي، تلحُّ الإلحاح ذاته، لأنَّهم يخافون عليَّ، وأنا رجلٌ عجوزٌ لا فائدة من بقائي في المخيَّم، طالما بقي أحمد هناك ليحمي ما تبقَّى من البيت. بعد حوالي الشهر وعندما جاءت ميرفت لزيارتي في المخيَّم، أغمي عليَّ وهي عندي. وعندما استعدت وعيي، كانت قلقةً عليَّ، عرفت أنَّها تأخَّرت عن أولادها فقلت لها: «روحي منشان ولادك»، رفضت، وقالت: «ما رح أتركك وأنت على هاي الحالة، وما رح أطلع من المخيَّم إذا ما طلعت معي وشافك دكتور»، اتصل أولادي جميعهم من خارج المخيَّم، يتمنَّون عليَّ الخروج من أجل صحَّتي. لم أعد أحتمل الضغوط، فقرَّرت مغادرة المخيَّم، وجدت أنَّه لا معنى للبقاء وسط الدمار، وأنا في صحَّةٍ تتدهور سريعًا وسط صراعٍ لا دور ولا مصلحة لي فيه، فأنا الرجل العجوز لا أستطيع سوى تأمُّل الدمار المتزايد في المخيَّم، وأشعر نفسي عبئًا ثقيلًا على ابني أحمد، لذلك أصبحت المغادرة والبقاء سواءٌ. لقد تحطَّمت حياتي عندما تحطُّم المخيَّم وبالتالي تحطَّمت عائلتي التي هي كلُّ حياتي، فقد انقطع الخيط الناظم بفعل الحرب، وبدأ أولادي يغادرون البلد. كنت أرى الحطام وأنا خارجٌ من المخيَّم، في الشوارع الخاوية، التي ظننت أنَّها ما تزال تعجُّ بالحياة وأنا أجلس في مربَّع بيتي، لكن في الطريق إلى

حاجز البطيخة، عرفت أنَّ المخيَّم قد مات، لأنَّ من أحيا المخيَّم، البشر الذين حوَّلوا الطين إلى مدينةٍ وسوقٍ كبيرٍ، ذهبوا إلى غير رجعةٍ. وعندما شاهدت المسلَّحين على حاجز البطيخة، شعرت أنَّهم يحرسون المخيَّم من عودة الحياة إليه.

بعد خروجي من المخيَّم بقيت يومًا عند ابنتي ميرفت، وفي اليوم التالي لحقت بابني عدنان وابنتي فاتن اللذين انتقلا إلى قدسيا بعد خروجهم من المخيَّم. بعد أيَّامٍ جاء ابني عامر لزيارتي إلى قادسيا وليخبرني أنَّه سوف يغادر البلد، قال: «أنا خايف على ولادي، ما إلي مصلحة أخسر ولد من ولادي»، قلت: «منيح. شو ناوي تعمل؟» قال: «قرَّرت أترك البلد، الكل عبيتركوها»، لم أكن موافقًا على مغادرته، لكنِّي تفهَّمت موقفه، ليس وحده من غادر، فقد غادر الكثيرون خوفًا أو تقيَّةً. غادر أخي الصغير منير إلى القاهرة، وكنَّا قد أصبحنا مقرَّبين من بعضنا، بعد أزمة العلاقات في العائلة التي ولَّدها الخلاف على بيت أهلي، والألم الذي تسبَّب به اختفاء الذهب الذي كانت تملكه أمِّي قبل وفاتها، ما خلَّف جرحًا عميقًا عنده، وعندما استعدنا الذهب من جديدٍ رفض أن يأخذ حصَّته منه، وقال: «بتبرع بحصتي لأختي نوال، وبتمنَّى ما عاد حدا يجبلي هالسيرة، لأنَّها بتستفزني»، نفَّذت رغبته كما أراد، لكن مع مخالفةٍ في تفصيلٍ صغيرٍ، بين هذا الذهب كان هناك خاتمٌ قديمٌ يعود إليه، أعطاه لأمِّي قبل أن يُعتَقَل بأشهرٍ عدَّةٍ، وبقي معها ولم يطالبها به بعد خروجه من السجن. عندما تقدَّم ابنه محمود إلى امتحان الشهادة الثانويَّة، وعدته جدَّته إذا نجح ستمنحه خاتم أبيه هديةً، بعد أن سألها عن الخاتم الذي شاهده في صورةٍ قديمةٍ لوالده، لكنَّه في ذلك العام لم ينجح في الثانويَّة، وفي العام التالي نجح في الثانويَّة، وكانت جدَّته المتعبة، تؤجِّل إعطاءه الخاتم، وتقول له «بس أطول الذهبات رح أعطيك الخاتم»، وتوفِّيَت أمِّي قبل أن تفعل ذلك. عندما شاهدت خاتمه بين ذهب أمِّي، قرَّرت أن أمنحه لأبنه، تنفيذًا لوعد جدَّته وذكرى

لأبنه من جدَّته وأبيه. عندما أعطيت الخاتم لمحمود، رفض أخذه، وقال: «بخاف أبوي بيزعل»، قلت: «معك حق، أنا بحكي مع أبوك»، معه حقٌّ، لأنِّي أعرف أبيه، صحيحٌ أنِّي عنيدٌ، لكن عنادي لا يقارن بعناده، فما زلت أذكر، كيف مزَّق الليرات الورقيَّة التي منحته إيَّاها عندما كان طفلًا، احتجاجًا على معاملتي له، وبقي غاضبًا مني لسنواتٍ طويلةٍ ثمنًا لكفٍّ صفعته إيَّاه في لحظة غضبٍ. عندما قابلته قلت له: «أنا أخذت خاتمك من ذهبات أمِّي جزءًا من حصَّتي، وأنا رح أعطيه لمحمود. هدية مني» كنت أتوقَّع أن يثور، ليس عليَّ، إنَّما من ذكر الموضوع الذي لا يرغب في تذكُّره. سيطر على نفسه وقال: «زي ما بدك»، قالها باختصار حتَّى ينهي الموضوع. أنهيته، وعددت صمته موافقةً ضمنيَّةً، فأعطيت الخاتم لمحمود، وقلت: «خبرت أبوك»، فأخذه. حزنت عندما غادر منير دمشق، وها هو ابني عامر يغادر أيضًا. قال إنَّه سيغادر إلى ماليزيا ومن هناك سيجد طريقًا إلى اللجوء. بعد مغادرته بشهرٍ عرفت أنَّه في تايلند وليس في ماليزيا. لم يكن اللجوء سهلًا كما توقَّع، إنَّه خلال أيَّامٍ عدَّةٍ أو شهرٍ سيجد مكانًا آمنًا له ولأولاده. لقد انتظر إعادة التوطين عبر مفوَّضيَّة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لأكثر من عامين، حتَى قبلت نيوزيلاندا الموافقة على استقباله مع عائلته.

غادرت أنا بعده لألتحق بزوجتي خديجة عند ابنتنا سمر في سويسرا، وتتابع خروج الأولاد الواحد بعد الآخر من البلد، بدءً بابني عدنان إلى ألمانيا، لتلتحق به فاتن وزوجها وأولادها إلى سويسرا بواسطة أختها سمر. ثمَّ لحقت بها ميرفت وابنها إلى ألمانيا. وبقي أحمد المحاصر في المخيَّم ولا يستطيع الخروج لأنَّه مطلوبٌ للأجهزة الأمنيَّة، ما احتاج إلى مدَّةٍ طويلةٍ، وإلى طريقةٍ خاصَّةٍ ليخرج من المخيَّم مباشرة إلى تركيا، ثمَّ مع عائلته إلى ألمانيا. بخروج أحمد -أخر أفراد عائلتي- لم يبقَ لي أحدٌ من عائلتي الصغيرة في البلد.

لم يكن قرار الخروج من البلد بصعوبة قرار الخروج من المخيَّم، لأنَّ المخيَّم كان أكثر من مكانٍ بالنسبة لي، فهو المكان الذي نجحت فيه في صناعة عالمي، أكيد لم يكن عالـمًا مثاليًّا، يكفي أنَّه عالمي ولي القدرة على التأثير فيه، عالمي الذي أحبُّه والذي صنعته أنا وخديجة بتعبنا وجهدنا. لم يكن سهلًا عليَّ الخروج منه، رغم الدمار الذي شهده قبل خروجي، والذي لا يقارن بالدمار الهائل الذي شهده بعد خروجي، كما حدَّثني ابني أحمد بعد خروجه من الحصار. ظننت لفترةٍ أنِّي إذا انتظرت أو صمدت في المخيَّم، أستطيع أنا وسكَّان المخيَّم استعادة المكان، مكاننا. عندما خرج أولادي وانهار عالمي الذي بنيته على مدى نصف قرنٍ، تحطَّم عالمي ولو بقيت جدران المخيَّم واقفةً. بخروج الناس لم يبقَ المكان هو المكان، ولا البشر هم البشر أنفسهم. عندما خرج السكَّان من المخيَّم وبقي بعض الصامدين هناك، الذين يملكون حلمًا أو وهمًا باستعادة المخيَّم، كنت أرى كيف ينكرون أيَّ تغييرٍ للمكان، وأنَّ المكان مكانهم ببشرٍ أو من دونهم، وأنَّ صمودهم في المكان يجعلهم يحافظون عليه، وطالما حافظوا عليه، فهم يحمونه ويبقونه كما كان قبل الكارثة. تمنَّيت أن أحمل قناعاتهم، وأرى في البقاء في المخيَّم مثل هذه المعاني، التي تساعدني على البقاء واختراع معانٍ كبيرةٍ للبقاء والصمود في مكانٍ شهد طرد سكَّانه، ما يعني دمار المكان. مع بدء تشديد الحصار على المخيَّم وفقدانه للكثير من الضروريَّات وقطع الكهرباء والماء عنه، بدأ الحالمون والواهمون يستيقظون من وهمهم أو حلمهم، ويدركون أنَّ البقاء والصمود في المخيَّم، ليس مسألة أيَّامٍ أو أسابيع، حتَّى أشهرٍ، وأنَّ هذا الوضع القاسي سيستمرُّ طويلًا. في الأيَّام الأولى، كان الحصار سهلًا، وسُمِحَ لسكَّان المخيَّم وإن بأعدادٍ محدودةٍ الدخول والخروج منه، لذلك بقي آلافٌ من السكَّان في المخيَّم رغم انقطاع التيَّار وشحِّ الماء، وكلَّما اشتدَّ الحصار وطال، زاد عدد الخارجين منه، وخلال الأشهر الستَّة التالية على خروج السكَّان، فقد الكثير من الباقين في المخيَّم قدرتهم على

الصمود، وغادروا إلى أماكن أخرى. وفي هذه الفترة غادرت المخيَّم وبضغطٍ من أولادي، ولأنِّي عرفت أنَّ البقاء هناك، لن يجعلني أستعيد عالمي الذي انتهى بخروج أولادي من المكان. عندما خرجت من المخيَّم حاولت إقناع أحمد بالخروج معي، لكنَّه رفض، وقال: «ما رح أترك أرزاقنا وبيوتنا وأطلع. اطلع أنت، وأنا رح أحمي أرزاقنا»، تحدَّثت معه كثيرًا، أصرَّ على موقفه، فلم يكن أمامي سوى الاستسلام أمام عناده وخرجت وحدي من المخيَّم. بعد خروجي اشتدَّ الحصار وصولًا إلى الحصار المطلق ومن كلِّ الجهات. ودخل الباقون في المخيَّم في صراعٍ مريرٍ مع الجوع، الذي أخذ يحصد الأرواح من بينهم، لم يبقَ هناك ما يأكلونه، وتحوَّل البشر إلى أشباح من الجوع، وقضى العشرات موتى بسبب هذا الحصار. وكانت صورة الأخرس الذي قضى جوعًا، والذي ظهر في صورة موته كهيكلٍ عظميٍّ، وهو رجلٌ طيِّبٌ يعيش من وراء دكَّانه الذي افتتحه بقاليَّةً متواضعةً على شارع اليرموك بالقرب من مؤسَّسة صامد. حاول الكلام طوال الوقت، لكنَّه فشل. صورة موته جوعًا، جعلته يحكي ما لا يمكن التعبير عنه بالكلام، وكانت الكلام الأكثر بلاغةً عن آثار الحصار القاتلة. والمؤلم أكثر في موته، وجود ابنه على الحاجز الرئيسيِّ عند دوار البطيخة الذي يحاصر المخيَّم. أيُّ سخرية قدرٍ هذه أن يحاصر الابن أباه الأخرس حتَّى يموت جوعًا، أيُّ مأساةٍ يمكن الحديث عنها، أيُّ حكايةٍ ممكن للمرء أن يحكها عن أخرسٍ يموت من الجوع لأنَّ ابنه أغلق عليه طريق الطعام! حكايةٌ من حكايات القسوة والألم التي لا تنتهي التي شهدها المخيَّم والبلد كلُّه.

أدمت قلبي مراقبة المخيَّم يهوي في بؤسه وجوعه ودم من بقي من سكَّانه محاصرًا، وكان بقاء أحمد في المخيَّم عامل توتُّرٍ شخصيٍّ بالنسبة لي، فعليَّ أن أقلق مع كلِّ قصفٍ أو اشتباكٍ يتعرَّض له المخيَّم، أو اشتباكٍ بين من فيه من مسلَّحين والمحاصرين للمخيَّم. وكنت أقلق أكثر عندما يكون الاشتباك بين المسلَّحين داخل المخيَّم أنفسهم. ولأنَّ الاتصالات تنقطع لفترةٍ

طويلةٍ، لم نكن نعرف مصير أحمد حتَّى نحظى باتصالٍ جديدٍ، أو خبرٍ يُنقَلُ عن طريق السماع. كنت أهوي في كلِّ مرَّةٍ أشعر فيها أنَّ المكان يهوي، لم أفهم السبب، كيف يكون تأثير الاشتباك البعيد أكثر تأثيرًا من صوت الطلقات في الحارة التي أعيش فيها. وهذا ما استغربته، عندما سكنت مدَّةً في قدسيا، وشهد الحيُّ الذي سكنت فيه اشتباكاتٍ، لم يكن وقعها كتلك التي شهدتها في المخيَّم. في قدسيا خفت الخوف الطبيعيَّ من أيِّ اشتباكٍ، كان خوفًا وحسب، لم يكن مخلوطًا بحسرةٍ على المكان وعلى نفسي، كما هو الحال في المخيَّم. لم أعد أطيق البقاء في البلد، رتَّبت ابنتي سمر زيارةً لي إلى سويسرا. عدت وقبلت ما كنت رفضته عندما غادرت خديجة، فكان عليَّ السفر، رغم أنِّي لا أعرف ما الذي سيفعله رجلٌ متقاعدٌ مثلي في بلدٍ لا يعرف لغته. أقنعت نفسي أنَّ الزيارة ستكون مؤقَّتةً وسأعود بعد حينٍ إلى دمشق، عندما غادرت دمشق عن طريق بيروت، كنت في غاية التناقض وفي حالٍ مزريةٍ من الضياع، كلُّ المعاني التي أعرفها، كلُّ القيم، كلُّ الأحلام، كلُّ الطموحات، أصابها عطبٌ ما أو اهتزَّت أو انهارت، لا شيء بقي له معنًى، شعرت نفسي عاريًا ومحطَّمًا، ورجلٌ يغادر إلى مكانٍ جديدٍ، بعد أن فرغ العالم من المعنى.

وصلت إلى سويسرا كأنِّي غائبٌ عن الوعي، أشعر نفسي شبحًا يتحرَّك، كان عليَّ أن أكون سعيدًا بلقائي بابنتي سمر وزوجها وأولادها، وبلقاء زوجتي خديجة، لم أكن كذلك. قبل خروجي من المخيَّم، بتُّ أشعر أنَّ كلَّ ما أقوم به خاطئٌ، حتَّى الأشياء الصحيحة شعرتها خاطئة. شعرت أنَّ البقاء في المخيَّم خاطئٌ، والخروج منه خاطئٌ، والخروج من دمشق خاطئٌ، والقدوم إلى سويسرا خاطئٌ، حتَّى شعرت كلَّ وجودي في الحياة خاطئٌ.

عندما انتهت فترة الزيارة، كان علينا أن نغيِّر سبب وجودنا في البلد، أصبح علينا التقدُّم بطلب لجوءٍ حتَّى نستمرَّ في العيش في المكان، وإلَّا كنَّا مضطرين لمغادرة البلد. ذهبنا بمساعدة صالح زوج سمر وتقدَّمنا بطلب

لجوءٍ إلى سويسرا، وكما هي حال كلِّ لاجئٍ، يجري محقِّقٌ من دائرة الهجرة تحقيقًا منفردًا مع طالب اللجوء يجيب فيها على أسئلة المحقِّق. وكم شعرت بالقهر عندما سألني المحقِّق عن طريق المترجم المصريِّ، الذي عرفت جنسيَّته الأصلية من طريقة كلامه: «أين ولدت؟»، قلت: «ولدت في فلسطين.» قال: «أنت تقصد إسرائيل؟»، قلت: «لا. أنا ولدت في فلسطين ومش في إسرائيل»، قال: «أفهمك. أنت تقصد إسرائيل»، قلت بغضبٍ، عرفه المحقِّق من تعابير وجهي قبل أن تترجمه كلماتي: «ليش ما بتفهمني، أنِّي ولدت في فلسطين، ولما ولدت ما كان في شي اسمه إسرائيل في العالم»، خلعت حذائي ورفعت قدمي المشوَّهة ورفعت ملابسي عن صدري لتظهر علامات الشظايا الزرقاء من أثر التفجير الذي تعرَّضت له في طفولتي، تابعت كلامي: «بتعرف شو هذا؟ هاي آثار جروح لغم يهودي على جسمي وأنا ولد صغير، لما كنت بالصف الأوَّل بالمدرسة، قبل ما اليهود يأخدوا بلدي فلسطين، اللي إنت بتقول إنَّها إسرائيل»، خبطت على الطاولة أمامي وأنا أقول: «أنا أكبر من إسرائيل بعشر سنوات. فهمت؟!»، صمتُّ وأنا أرتجف من الغضب، لم أشعر يومًا أنِّي غاضبٌ كذلك اليوم، شعرت أنَّ المحقَّق لا يريد سلب تاريخي وحياتي فحسب، بل يريد سلبي حتَّى جراحي التي حملتها من هناك. كان التأثُّر واضحًا على وجه المترجم المصريِّ، وعندما ترجم ما قلت، لم أفهم ما قال بالألمانيَّة، لكن تحشرجت الكلمات في حلقه من تأثُّره بحالتي، فهم المحقِّق وأحسَّ عمق ألمي وقال: «أنا آسف. أنا أفهمك»، كرَّر العبارة مرَّتين، لكنَّ هذا الاعتذار، لم يغيِّر شيئًا من شعوري بالقهر. اختفى المكان الذي وُلِدتُ فيه، لكنَّ جراحي والشظايا التي ما تزال في جسدي شاهدةٌ على أنِّي كنت هناك، وقنابل من سرقوا وطني مزَّقت جسدي، هذه الشظايا الشاهد على جروحي، أطلقت إنذار كشف المعادن في مطار بيروت، عندما مررت منه، اضطررت لأشرح للموظف أنَّها شظايا في جسدي منذ كنت طفلًا ولم يستطع الأطباء انتزاعها. وعادت هذه الشظايا

لتطلق الإنذار في مطار بازل السويسري. شرحت للموظَّف بإنكليزيَّتي الركيكة حال الشظايا التي حملتها من فلسطين، لم يصدِّق، حتَّى عرضني على آلة تصويرٍ، أظهرت الشظايا التي تسكن جسدي منذ أكثر من ستين عامًا، هزَّ الموظف رأسه بدهشةٍ ممَّا رأى، ومصدِّقًا ما ظنَّ أنَّه كذبٌ، أو ظنَّ أنِّي عجوزٌ خرفٌ. غادرت فلسطين بآثار إصابةٍ ما زالت شظاياها في جسدي بفعل غزاةٍ قتلوا من قتلوا، وشرَّدوا من شرَّدوا، وسرقوا بلدي، الذي ينكره موظَّف الهجرة السويسريِّ عليَّ وينكر أنِّي ولدت فيه. ولا أعرف أيَّ سخرية قدرٍ، جعلتني ألجأ إلى المدينة التي شهدت تأسيس الحركة الصهيونيَّة وهي الحركة التي استطاعت بعد خمسين عامًا من تأسيسها سلبي بلدي. أنا هنا في مدينة بازل التي تذكِّرني بلجوئي الأوَّل يوميًّا، في الوقت الذي أعيش فيها بسبب لجوءٍ ثانٍ من بلدٍ قضيت فيه جلَّ حياتي، التي دمَّرتها الحرب هناك، لجوءٌ آخر جعل حياتي بلا معنًى. الكلُّ يقول إنَّ سويسرا بلدٌ جميلٌ، لكنِّي لم أشعر بذلك، كأنِّي بتُّ لا أرى، ليس بفعل ضعف النظر، بل لأنِّي لا أصدِّق أنِّي غادرت دمشق وأعيش اليوم في مكانٍ لا أعرفه وليس لي، أشعر فيه بغربةٍ تجرح روحي.

بعد حوالي عامين من وجودي المرِّ في سويسرا، بدأ أولادي يأتون تباعًا إلى ألمانيا، عدنان أوَّلًا، ثمَّ ميرفت، وأخيرًا أحمد، وفاتن إلى سويسرا، ومبكرًا ذهب عامر إلى نيوزيلاندا. التقيت أولادي الذين أتوا لزيارتي، عندما قابلتهم لم أجد أولادي الذين تركتهم في دمشق، قابلت أشخاصًا آخرين، لم أصدِّق أنَّهم أولادي، ولم أصدِّق أنِّي عشت معهم وأنِّي أنجبتهم. لا أعرف إذا كانوا تغيَّروا، أم أنا الذي تغيَّرت، أم كلُّنا تغيَّرنا، لدرجة لست الأب الذي يعرف أولاده، وليسوا الأولاد يعرفون أباهم. سألت نفسي هل الكارثة التي مررنا بها غيَّرتنا إلى هذا الحدِّ أم كشفت ما كان فينا أصلًا ليس إلَّا. أنا لم أعد أعرف أولادي، ولا أعرف خديجة التي تعيش معي في هذا السجن السويسريِّ، ولا أعرف نفسي. عندما أنظر إلى خديجة وهي تنظر إليَّ بأسًى

لما آلت إليه حالي، تنهمر دموعي وحدها، وعندما تنتبه، أغطِّي راسي باللحاف وأبكي وحدي بصمتٍ، حتَّى لا أزيد أساها أسًى. أتقوقع على نفسي كأنِّي عدت إلى رحم أمِّي التي أشعر بالحاجة لحمايتها في شيخوختي كما لم أحتاجها من قبل، وأسأل نفسي «شو بتعمل هون يا ختيار يا حمار؟!».

الفصل الثاني:
الحياة دائمًا في مكانٍ آخر
(ميرفت خليل أحمد خليل)

لا أعرف ما الذي أفعله هنا، ولا أعرف ما الذي يمكن أن أفعله لو بقيت في دمشق، لقد جعلتني الحرب، وبعدها اللجوء، حائرةً ومتردِّدةً أكثر ممَّا كنت طوال عمري. أحيانًا، تتحول الحياة التي لا معنى لها إلى حياة في غاية الأهميَّة، لأنَّ الحياة التي تلتها تصل إلى قاع التفاهة. أيُّ معنى للحياة التي أقضيها في انتظار وصول زوجي الذي لا أعرف أيُّ علاقة هذه التي ما زالت بيننا، هل هو زوجي حقاً؟ ما الذي يربطني بهذا الرجل؟ ولماذا قمت بمعاملة لمِّ الشمل من أجل جلبه إلى ألمانيا؟ وما الذي بقي بيننا من علاقةٍ بعد غياب أربع سنوات، وبعد علاقةٍ فاترةٍ، أو بالأصح ميِّتةٍ؟ ما الذي يهمِّني بكلام الناس بعد كلِّ الخراب الذي مررنا به في حياتنا وفي البلد الذي عشنا فيه؟ لماذا أجلبه إلى هنا وأترك ابنتي وحدها هناك وسط آثار الحرب التي تبيِّن أنَّها أسوأ من الحرب ذاتها؟ وكيف يوافق هو على تركها هناك، وهو الذي ادعى الحرص الشديد عليها عندما تسبَّب لها بكارثةٍ؟ لماذا أجلبه وما حاجتي وحاجة أولادي إليه هنا؟ لماذا لم يقرِّر هو الذهاب في رحلة الموت التي خضتها مع ابني، ويصل هنا ويعمل معاملة لم الشمل

لنا؟ أنا أعرف السبب، هو أجبن من أن يُقدِم على الرحلة، هذا لا يعني أنِّي شجاعةٌ على العكس، لكنِّي لم أجد أمامي خيارًا آخر، سوى أن أحمي ابني الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره بهربنا من البلد، خوفًا من فقدانه في الاشتباكات أو في القذائف أو بالاعتقال، ما قمت به ليس شجاعةً، بل هو خوفٌ من فقدان ابني، شجاعتي جاءت من الخوف ولم تأتِ من الدور البطوليِّ. لم يكن زوجي أجبن من أن يُقدِم بالرحلة فحسب، بل كان أنانيًّا أيضًا، وهي سمةٌ فيه لم تولد في الحرب، بل تضخَّمت فيها وظهرت بأسوأ صورها. تذرَّع بحجج واهيةٍ وسخيفةٍ، ما زاد نفوري منه، فقرَّرت الذهاب في الرحلة ولو كلَّفتني حياتي، لأنِّي لم أستطع البقاء معه. رغم ذلك أنا أرتكب حماقة جلبه إلى هنا بعد هذه السنوات التي قضيتها بعيدًا عنه، ليذكِّرني بفشلي في هذه الحياة. جئت أنا وابني في رحلةٍ خطرةٍ ليس له فيها إسهامٌ يذكر، حتَّى تكاليفها لم يسهم فيها ولا بليرةٍ سوريَّةٍ واحدةٍ، فقد دفعتها أختي سمر كلُّها. أكثر من ذلك هو يعيش في دمشق على مساعدات أختي وراتب أبي التقاعدِّي متخفٍّ وراء حاجة ابنتنا. لا أفهم تناقضاتي، أنا التي قرَّرت أن تكون رحلتي نهاية العلاقة بيننا، أجد نفسي أجلبه إلى هنا وأعيده إلى حياتي من جديدٍ وكأنَّ شيئًا لم يكن، بعد أن أتت فرصة الخلاص منه نهائيًّا. غريبٌ سلوكنا نحن البشر، نُقدِمُ على ما لا نرغب به، ونندم عليه، بعدما يصبح لا معنى للندم. عندما قرَّرت إحضاره كنت أعرف السبب، قد يكون ذلك لأنِّي لم أرَ في الوصول إلى ألمانيا بدايةً لحياةٍ جديدةٍ، أيُّ بدايةٍ يمكن أن تصنعها امرأةٌ فاشلةٌ مثلي بعد الخمسين من عمرها، لم أنجح عندما كنت شابَّةً، وقت كان عليَّ النجاح، فلا أوهام عندي أنَّ حياتي ستكون مختلفةً في ألمانيا عمَّا كانت عليه في المخيَّم، وكأنِّي بإحضاره أستحضر فشلي الذي أجترُّه منذ سنواتٍ طويلةٍ لأجترَّه من جديدٍ في ألمانيا.

توقَّع أبي مستقبلًا باهرًا لي، فأنا ابنة الرجل المشهود له بذكائه ليس من عائلته فحسب، بل ومن كلِّ معارفه أيضًا. فهو الشابُّ العصاميُّ الذي

حمل جروحًا بليغةً من فلسطين، لم تمنعه من بناء حياته. وهو الشابُّ الذي استحقَّ دراسة الطبِّ، لكنَّه درس الاقتصاد لأنَّه لم يملك تكاليف الدراسة ولعدم تحمُّل التفرُّغ الذي تحتاجه الكليَّة في حال رغب في دراستها. ذكرياتي الأولى عن أبي تعود إلى الفترة التي عمل فيها في السعودية. كان قدومه في الصيف أقرب إلى السحر، كلُّ شيءٍ ينقلب رأسًا على عقبٍ في البيت. بدءًا من الهدايا الكثيرة التي يحملها لنا، والضيوف وأولادهم الذين يحضرون للسلام عليه، وصولًا إلى دعوات الولائم والخروج إلى مطاعم دمشق ومحيطها في الهواء الطلق. عودته من السعودية في الإجازة، كانت تعني لي بداية الاحتفالات ونهايتها عندما يقترب موعد سفره. أذكره وهو يقول لي «أنت بنت أبوكي، مستقبلك رح يكون رائع»، حملت ما يقوله أبي نبوءةً غير قابلةٍ للتكذيب، أبي الذي يصنع لنا السحر بقدومه، يقرأ مستقبلي الجميل كما يقرأ في كتابًا من دون تأتأةٍ. كان أبي البعيد الذي يعمل في السعودية أجمل الآباء وأكثرهم قدرةً على صناعة الفرح لنا نحن أولاده الذين ننتظره من الصيف إلى الصيف لنضجَّ بالفرح الذي يحضره معه، ويأخذه معه عندما يذهب.

انتهى هذا السحر بعودته إلى دمشق نهائيًّا وقد بلغت العاشرة من عمري. والساحر الذي يأتي من السعودية، أصبح أبًا عاديًّا مثل كلِّ الآباء، له محاسنه وله عيوبه، بعودته بدأت أتعرَّف على أبٍ جديدٍ، على أب الواقع وليس أب الأسطورة. عطَّل غيابه الطويل دوره كأبٍ في حياتنا كأطفالٍ، وفي غيابه أصبحنا نملك بدل الأمِّ أمَّين، ومنذ طفولتنا، أخذنا ننادي جدَّتي رضية بـ«أمي» وكنَّا نلجأ من ظلم أمِّي خديجة إلى حنان أمِّي رضية، وبقيت الحالة كذلك حتَّى وفاتها، التي شعرت فيها أنَّ خسارتي لا تعوض، لقد منحتني القوَّة حتَّى بعد أن تزوَّجت وأنجبت أبنائي الثلاثة، كنت أستمدُّ منها القوَّة كلَّما زرت بيت أهلي، أحيانًا أضع رأسي على حضنها، وتمسِّد شعري كما كانت تفعل وأنا طفلةٌ، أشعر بسكينةٍ لبعض الوقت تساعدني

على تحمُّل حياتي الصعبة. لم تمرَّ وفاتها من دون أسئلةٍ وجوديَّةٍ بالنسبة لي، أسئلةٌ عن معنى الحياة، وعن الركض من أجل الوصول إلى حفرةٍ صغيرةٍ وانتهاء كلِّ شيءٍ إلى المجان. بموتها أخذتني الأسئلة الصعبة إلى قسوة الحياة، والتي لا معين للبؤساء فيها سوى الله، هو الوحيد القادر على مساعدتهم. في عزائها وضعت المنديل على رأسي، وبدأت تلميحات النساء المحجَّبات، من أنَّ الحجاب يليق بي، وأنَّ وجهي يشعُّ منه النور، والكثير من الكلام المحرج عن حفاظ المرأة على عفَّتها بالحفاظ على دينها، الحجاب فرضٌ أساسيٌّ على النساء. لم أكن مقتنعةً بهذا الكلام، لم أكن طوال حياتي امرأةً متديِّنةً، لكنَّ الضغوط المحيطة، من أهل وليد ومن الجيران ومن الصديقات المحجَّبات، لم تضع أمامي سوى خيار الاستسلام، لإبقاء هذا الغطاء على رأسي كيفما اتفق، ليس حجابًا تمامًا، فكثيرًا ما أنساه، وليس تديُّنًا تمامًا، إنَّما للخلاص من نقِّ النساء اللواتي لا أعرف من أين جئن بهذه الأفكار السخيفة، التي استسلمت لها رغم سخافتها، فلم أعد أملك القدرة على المقاومة والرفض.

بعودة أبي النهائيَّة من السعودية، وإنهاء عقده هناك، عاد ليستعيد دوره كأبٍ، وبالتالي استحضر قاموس الممنوعات، افعلي هذا، لا تفعلي هذا، هذا جيِّدٌ، هذا سيِّئٌ... الخ من الوصايا الأبويَّة التقليديَّة الممارسة من الآباء في تلك الأيَّام. بدأ الأب القريب الساحر القادم من الغياب الجميل يفقد بريقه مع اكتشاف الأب الحقيقيِّ من اللحم والدم، المتقلِّب المزاج مثل كلِّ الناس، فلم يكن أبي ملاكًا كما ظننت قبل ذلك. بعد أن كنَّا أحرارًا إلى حدٍّ كبيرٍ فيما نفعل، وكنَّا بالكثير نأخذ الإذن من ماما رضية لأنَّ أمِّي كانت تفوِّضها بكلِّ شيءٍ يخصُّنا، فقدنا هذه الحريَّة. بعد عودته حتَّى أمي رضية، عندما نطلب منها طلبًا، أصبحت تقول: «اسألوا أبوكم» عاد رجل البيت فعاد القرار له، وبات علينا أن نسأله في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ولم يكن يحيل أيَّ شيءٍ إلى أمِّي كما يفعل الكثير من الآباء بقولهم: «اسأل أمك»، لم نكن نعرف سلطته على البيت وهو بعيدٌ، إلَّا بعدما كبرنا وحدَّثتنا أمِّي عن

أوامره، والقائمة الملزمة المعلَّقة على باب الخزانة من الداخل التي على أمِّي الالتزام بها وهو غائبٌ. بعد أن كانت أمِّي هي من يتابع دراستنا، وكانت تتسامح مع أخطائنا، تصحِّحها لنا وتقول: «انتبهوا في المرة الجاي»، أخذ أبي المهمَّة في كثيرٍ من الأحيان، ويكون سعيدًا عندما أقوم بواجباتي ووظائفي المدرسيَّة من دون خطأٍ، أشعر كأنَّه الطفل الذي وجد الإجابات الصحيحة. وعندما يكتشف أنِّي ارتكبت خطأً، يحزن ويغضب، لا يعاقبني، ولا يؤنِّبني، بقدر ما يلومني بمحبةٍ، وهذا ما كان يحزنني، فأنا لا أحبُّ أن يكون أبي غاضبًا أو حزينًا بسببي. كان يقول: «أنت أحسن وأزكى من هيك، ما بصير وحدة زكية تغلط هيك خطأ»، أو يقول: «حرام عليك. سهلة كثير. ليش ما بتفكري»، أصبحت أشعر نفسي غبيَّةً، أُخطئ بأشياء يقول أبي: «لا أحد يخطئ بها»، أجعله حزينًا وأنا لا أحبُّ أن يكون كذلك. بتُّ أخاف من حزنه وأحرص على ألَّا أُخطئ، وبات خوفي من الخطأ يوقعني بأخطاء أكثر، وأصبحت أراه أكثر حزنًا، وكلَّما انتقلت إلى صفٍ أعلى وزادت صعوبة الدراسة، أصبح الحزن يتحوَّل إلى خيبة أملٍ منِّي، ومن التوقُّعات التي يبنيها عليَّ، ثمَّ على إخوتي من بعدي. لم أعد أعرف ماذا أفعل من أجل ألَّا أراه في هذه الحالة، أصبحت أفعل ما يريده، أو ما يتوقَّعه منِّي، وعندما لا أفعل ما يريده على أكمل وجه، أشعر أنِّي أخيِّب أمله المرَّة بعد المرَّة. أرادني أن أصبح طبيبةً، وكنت أرغب في أن أكون ما يريد، لكنِّي لم أستطع، كان هذا فوق طاقتي، ظنَّ أنِّي أستطيع أن أفعل ذلك إذا أردت. أنا أردت ذلك من أجله، لكنِّي فشلت. في المرَّة الأولى لامتحان الشهادة الثانويَّة، لم أحصل على المجموع الذي يؤهِّلني لدخول كليَّة الطبِّ. كانت كليَّة الاقتصاد نصيبي في المفاضلة الجامعيَّة، لم يكن هذا خيارًا سيِّئًا من وجهة نظري، فأنا سأدرس الفرع ذاته الذي درسه والدي. لم يقبل بذلك طلب منِّي أن أعيد تقديم امتحان الشهادة الثانويَّة، فعلت ذلك من أجله، وليس لأنَّ لديَّ طموحٌ لأن أحصل على كليَّةٍ أفضل من كليَّة الاقتصاد. بذلت كلَّ جهدي في الدراسة

لتحسين علاماتي، حتَّى تؤهِّلني لدخول كليَّة الطبِّ، لم أنجح سوى بالحصول على القليل من العلامات الإضافيَّة، أهَّلتني لدخول كليَّة الهندسة الكهربائيَّة. لم يخطر ببالي أن أدرس الهندسة بأيٍّ من فروعها، لم أرَ نفسي مهندسةً وفي ورشة عملٍ أو في ورشة بناءٍ أو شارعٍ، لم تكن هذه صورتي عن نفسي، بعد فشلي في دخول كليَّة الطبِّ، رغبت في العودة إلى كليَّة الاقتصاد، التي كنت أعدُّها أقرب إلى صورتي عن نفسي من كليَّة الهندسة الكهربائيَّة، لكنَّ أبي أصرَّ على أن أكمل دراستي فيها، لأنَّها أفضل بالنسبة لي كما يرى، على عكس ما كنت أرى، آخر مكانٍ أرغب أن أكون فيه هو كليَّة الهندسة الكهربائيَّة. انتسبت إلى الكليَّة من أجله، وليس من أجلي. وقتها لم أفهم، لماذا هذا الفرع أو ذلك أفضل لي؟ ولماذا يكون الفرع الذي يحتاج علامات أكثر، فرعًا أفضل من الفروع التي تحتاج علاماتٍ أقلَّ؟ وماذا عن رغبتي أنا، وماذا سيحلُّ بالدراسة؟ إذا كان الجميع يريدون أن يصبحوا أطبَّاء لأنَّ هذا هو المستقبل الأفضل، ومن يحدِّد الأفضل لي، أنا أم هو؟ وهل لو استطعت دخول كليَّة الطب، سيكون راضيًا، أم أنَّ عدم الرضى سيبقى، وسيطلب المزيد من الطلبات غير القابلة للتحقيق؟ أسئلةٌ جعلتني أنتبه إلى أنِّي، لم أكن يومًا ما أريد، إنَّما حاولت أن أكون ما يريده أبي، من دون أن أنجح في تحقيق رغبته، فلا أصبحت ما أريد أن أكون، ولا كنت ما أراده أبي. شعرت أنَّ المشكلة ليست فيما أستطيع إنجازه، المشكلة بتقديره العالي لنفسه، وتقديره المنخفض لنا. كان يعتقد أن قدراته أفضل من قدراتنا، وأراد أن يقنعنا على نحوٍ غير مباشرٍ، أنَّنا مهما فعلنا، لن نصل إلى ما وصل إليه، ولم أعرف ما الذي وصل إليه بالضبط؟! في دراستي الجامعيَّة، أجبرت نفسي على تجاوز العام الدراسيِّ الأوَّل بنجاحٍ، طبعًا لم يكن راضيًا عن علاماتي، قبل لي هذه الكلية، فهذا يعني أنَّني يجب أن أكون من العشرة الأوائل في الكليَّة، لا أن أنجح وحسب، فهذا ما عدَّه فشلًا. بذلت كلَّ ما أستطيع من أجل إرضائه ومن أجل أن أردَّ له الحبَّ الذي يحمله لي، لم يرضَ وأشعرني بأنِّي

فاشلةٌ دومًا. لم أحاول مخالفته، ولم أحاول أن أخلق لنفسي مستقبلًا لا يريده، كلُّ ذلك لأنِّي كنت أدرك محبَّته لي، أعرف أنَّه أراد لي مستقبلًا أفضل، ولكن ما الذي يعرفه عن المستقبل بالنسبة لي. لقد خنقني بحبِّه وحرصه على مستقبلي، الذي لم يكن سوى صورته المشتهاة عن مستقبله الذي فشل هو في تحقيقه. وإذا كان هو فشل في تحقيق ما يريد أن يكونه، لماذا يعيب علينا فشلنا نحن فيما يريد أن نكونه. كان من الطبيعي أن نفشل، لأنَّ هذه الحياة التي عشناها لم تكن الحياة التي نرغب في عيشها، بل الحياة التي رغب هو أن نعيشها وفق تصوُّره، أراد أن يعيش حياته مرَّتين، مرَّةً في تجربته، ومرَّةً في مصادرة حياتنا والتحكُّم بها كما يريد. في الجامعة لم أستطع الاستمرار في إرضائه، أو بالأصح فقدت القدرة على ذلك، بدءًا من السنة الثانية تعثَّرت دراستي. في هذه السنة وصل أخي عامر إلى كليَّة الهندسة الميكانيكيَّة، رافضًا أن يعيد دراسة الشهادة الثانويَّة لتحسين علاماته، وكليَّة عامر تقع في المبنى ذاته الذي تقع فيه كليَّتي. وجودنا معًا خارج المنزل لوقتٍ طويلٍ وفي المكان ذاته، غيَّر من العلاقة بيننا، كنَّا نقضي الكثير من الاستراحات في مقصف الكليَّة، وأحيانًا نهرب من الكليَّة إلى وسط المدينة، رافضين الرجوع إلى المنزل، الذي بتنا نشعر أنَّه يخنقنا. في الجامعة تعرَّفت على عامر آخر، وكنت أنا ميرفت أخرى. بعيدًا عن البيت أصبحنا شخصين آخرين. في البيت كانت رهبة الأب حاضرةً، حتَّى عندما كنَّا نتحدَّث في الغرف المغلقة هناك خوفٌ ما نشعر به، مع أنَّنا لوحدنا والباب مغلقٌ، نخاف من تسرُّب صوتنا إلى الخارج، أو من دخول أحد أبوينا ونحن نتحدَّث بطريقةٍ غير لائقةٍ عن أحدهما. طبعًا كان الخوف داخلنا، من أين ولد هذا الخوف؟ لا تفسير عندي. في الكليَّة، كنَّا حرَّين نناقش مشاكلنا براحةٍ وصراحةٍ، لا خوف يخيِّم علينا، ولا أحد الأبوين في الجوار. بالأحاديث الطويلة مع عامر، لم أتعرَّف عليه فحسب، بل تعرَّفت على نفسي أيضًا، كان هو الآخر الذي جعلني أرى نفسي كما يجب أن أراها، وبعيوني أنا لا بعيون

غيري، حتَّى لو كان أبي. عرفت قوَّته وضعفه، وكنت أشعر به طوال الوقت وما يعانيه، هي معاناتي ذاتها، وقد تكون أكثر وطأةً عليه منِّي، لأنِّي أنثى وهو ذكر، وقد يفهم الآخرون أن تكون المرأة مسلوبة الإرادة من زوجها أو أبيها أو أخوتها الذكور، فهذا شيءٌ طبيعيٌ في مجتمعٍ ذكوريٍّ. لكن بالنسبة إلى الشابِّ الوضع أصعب، فليس من المعتاد أن يصادر أبٌ إرادة ابنه حتَّى بعد أن يصبح رجلًا، كان الوضع مخجلًا بالنسبة لعامر، وأظنُّ أنَّ الوضع الذي عانى منه طويلًا، جعله يتحوَّل إلى شخصٍ خجولٍ ومرتبكٍ. مجرَّد أخٍ، أصبح صديقي المقرَّب، وأنا صديقته المقرَّبة، وأصبحت قادرةً على مصارحته بالكثير من الأشياء التي لم أكن قادرةً على مصارحة أحدٍ آخر بها. وقربي منه جعلني أعرفه عن قرب، وأعرف هذا الشخص الطيِّب وحساسيَّته وقدرته على التضامن مع الآخرين، وقدرته على المعاناة بصمتٍ، عرفت عنه الكثير من الأشياء التي لم أعرفها طوال عيشنا المشترك السابق في بيتٍ واحدٍ. سألت نفسي هل حجب أبي الرؤية بيننا من دون أن ننتبه؟ لماذا لم أعرف أخي كما أعرفه الآن؟ هل كبرنا في الآونة الأخيرة وتغيَّرنا إلى هذا الحدِّ، حتَّى لم نعد نشبه أنفسنا قبل أشهرٍ؟ وُلِدَت الكثير من الأسئلة عندي، أسئلة تثير شكوكًا أكثر منها أسئلةً تحتاج إلى إجاباتٍ. بمساعدة عامر حاولت إيجاد نفسي التي فقدتها وأنا أعمل على إرضاء أبي، لم أنتبه أنِّي عندما أقوم بذلك، أفقد نفسي في الوقت الذي لا أحصل فيه على رضاه. ساعدتني العلاقة القريبة مع عامر على أن أعرف ما لا أريد، ولكن لم تجعلني أعرف ما أريد، وبتُّ ضائعةً. في الوقت الذي كنت أنفِّذ رغبات أبي لم أعانِ من مشكلةٍ، لأنِّي بتنفيذي رغباته كانت تنتهي مهمَّتي بالبحث عن نفسي لأنَّ أبي يعرف ما هو الأفضل بالنسبة لي أكثر منِّي. عندما أصبحت لا أريد أن أكون ما يريده أبي، لم أعرف ما أريد أنا أن أكون. وعرفت أنِّي لا أملك صورةً مستقبليَّة عن نفسي، وأنِّي أعجز من أن أتخذ أيَّ قرارٍ إيجابي بشأن مستقبلي، وكلُّ ما استطعت أن أفعله، هو الرفض لما يريده أبي لي. ليس من الإنصاف أن أقضي

حياتي في تنفيذ رغباته، من دون أن يكون لي القرار في التأثير عليها، وعندما وصلت إلى هذه القناعة، اكتشفت أنِّي لا أعرف كيف أتخذ القرار، وأنَّ المسألة ليست أن تعترض على ما لا تريد، الأهم أن تعرف ما تريد وتنجزه. وهذا ما لم أستطيع تعلمه، وعرفت أن اتخاذ القرار بحاجةٍ إلى تدريبٍ، لم يدرِّبني أحدٌ عليه، أصبحت أمتنع عن اتخاذ القرار أو أتخذ القرار الخطأ. كان أحد قراراتي الحمقاء عدم إكمال دراستي، فأنا عمليًّا، لم أرغب في دراسة هذا الفرع، درسته لرغبة أبي أن أدرسه، في السنة الثانية لم أجد المقدرة على الاستمرار في الدراسة، ما ولَّد رفضًا داخليًّا عنيفًا عندي لهذه الدراسة، وظننت أنِّي بذلك أجد نفسي التي فقدتها في إرضاء أبي. حتَّى لا أتخذ قرار التوقُّف الإراديِّ عن الدراسة ويبدو هذا تحدِّيًا لأبي، أسقطت نفسي في دائرة الفشل، أقنعت نفسي بأنِّي غير قادرة على إكمال دراستي، وهي من الصعوبة لدرجة أنَّها كادت تودي بي إلى الجنون. اتخذت القرار الأكثر حماقةً في حياتي، لن أكمل دراستي، مع أنِّي كنت أستطيع ذلك، صحيحٌ أنِّي لست متفوِّقةً في الكليَّة، لكنِّي أستطيع إنهاءها مثل الكثير من الأغبياء مثلي الذين أنهوها. والأسوأ لم أتخذ قرارًا بدراسة شيءٍ آخر، وهذا الرفض كان من أجل ألَّا يعود أبي للتحكُّم بحياتي من جديد. كلُّ ما استطعت الوصول إليه هو السنة الثالثة التي قضيت فيها سنواتٍ عدَّةً حتَّى استنفذت فرص الرسوب.

إدراكي المشوَّه لنفسي دفعني باتجاه بناء حياتي بعيدًا عن أبي، لكن من دون الاصطدام به، لم أتوقَّف عن حبِّه، ولم يولِّد رفضي للحياة التي حاول صياغتها لي إلى كراهيةٍ له، بل على العكس أضافت إلى شعور الحبِّ تجاهه، الشعور بالشفقة لأنِّي خيَّبت أمله، وهذه المرَّة أتقصَّد ذلك، سواء كان هذا القصد واعيًّا أم لا. مثل كلِّ القرارات الحمقاء التي اتخذتها في ذلك الوقت، وقعت في حبٍّ وليد. وهو القرار الأوَّل الذي اتخذته من أجل نفسي، والذي جرَّ سلسلةً من القرارات الخاطئة وصولًا إلى ما وصلت إليه. بتُّ مدعومةً

من شخصين مقرَّبين وموثوقين، بذلك شعرت بالأمان وهو ما منحني القوَّة لأقول: «لا» أوضح لما يريده أبي. كان عامر ووليد صديقيَّ اللذين يشبهانني، ولأنَّ لوليد مشكلةٌ تشبه مشكلتنا في المبدأ وتختلف في البنية، أصبحنا ثلاثيًّا يحاولون الخروج من قيودٍ مفروضةٍ عليهم لا يريدون البقاء فيها. أنا وعامر نعاني من طغيان أبي وسيطرته على حياتنا، ووليد يعاني من سيطرةٍ من نوعٍ آخر، فهو الشاب الأصغر بين إخوته، ولأنَّ والده متوفَّى ويعيش مع أمِّه، بات أخوته الكبار الذين يسهمون في مصروف بيتهم هو وأخته وأمُّه، يريدون التحكُّم بمصيره ويملون عليه شكل الحياة التي يجب أن يعيشها. وإذا كنَّا نحن نعاني من شخصٍ واحدٍ يريد أن يذهب بحياتنا باتجاهٍ واحدٍ، فإنَّ كلَّ واحدٍ من أخوة وليد يريد أن يذهب بحياته باتجاهٍ مختلفٍ عن الآخر. وإذا كان أبي ينطلق فيما يفعل معنا من مشاعر الحبِّ تجاهنا، فليس كلُّ أخوة وليد ينطلقون من الحبِّ، فهناك من ينطلق منه، وهناك من ينطلق من الحسد لأنَّه استطاع أن يحصل على فرعٍ محترمٍ في الجامعة وهم لم يستطيعوا الحصول على الشهادة الثانوية، وهناك من يفعل ذلك كراهيةً. نحن نستطيع إرضاء أبي بأن نفعل ما يريد، لكن مهما فعل وليد كان هناك أحدٌ من إخوته غاضبًا منه دائمًا، فلا يستطيع إرضاء كلِّ إخوته أصحاب المواقف المتضاربة، كلُّ هذا جعل مشكلته أعقد من مشكلتنا.

لم أعد أرغب القيام بأيِّ شيءٍ يريده أبي، ولا أريد أن اصطدم معه في الوقت ذاته، فأنا أريد أن أفعل ما أريد من دون أن أتحدَّاه، لم أكن أملك الجرأة على تحدِّيه، ولم أملكها حتَّى اليوم. يرهبني شيءٌ غامضٌ فيه، لا أدرك ما هو بالضبط، أعرف أنَّه لن يؤذيني، بمعنى أنَّه لن يضربني، لكنِّي أخاف منه، قد يكون بسبب لسانه، فهو يملك لسانًا حادًّا، وقد يكون خوفي في أن أتسبَّب له بمرضٍ، لأنَّ فشلنا كان يدمِّره، لدرجةٍ أكبر ممَّا يؤثِّر فيه فشله الشخصيُّ، أو حتَّى أنَّه يعدُّ فشلنا شخصيًّا بالنسبة له أكثر من فشله. لم أتمكَّن من تجاوز السنة الثالثة في دراستي الجامعيَّة، هناك شيءٌ داخليٌّ

أقوى منّي منعني من تجاوز هذه السنة. بالتأكيد، كانت الكليّة صعبةً، وهذه السنة أصعب سنواتها، الكثيرون الأقل ذكاءً ومثابرةً منّي تجاوزوا هذه السنة، وأنا لم أستطع ذلك، كأنَّ هناك سحرًا منعني من تجاوزها، وكأنَّ السحر هو رفضي الداخليُّ العنيف لأن أقوم بشيء لا أريده. عندما رسبت للمرَّة الثانية في السنة ذاتها، أصبحت العلاقة مع أبي في غاية الصعوبة والتوتُّر، وأصبح استمراري بالعيش في البيت مستحيلًا. لم يسمح أبي لي بالعمل، لأنَّ الدراسة هي الأولويَّة بالنسبة له، ولم أستطع إقناعه بأنّي أستطيع الدراسة والعمل معًا. كان يسخر منّي ويقول: «أنت متفرِّغةٌ للدراسة مش طالع معك شي، بترسبي سنة بعد سنة. بدك تقنعيني إنك بتقدري تشتغلي وتدرسي. شو مفكِّريتني أهبل. المكتوب مبيِّن من عنوانُه»، كنت أعرف أنّي لا أستطيع فعل ذلك، وعددت العمل طريق الهرب من الدراسة، لكنَّه أغلق الطريق عليَّ.

وجد وليد عملًا حتَّى ينتهي من الحالة التي يعيشها بين أخوته، بذلك شعر بحريَّته وتخلَّص من القيود التي تكبِّله وتؤذيه نفسيًّا. لقد بات الوضع مستعصيًا بالنسبة لي، وعليَّ الخروج من هذا الوضع بأيِّ ثمنٍ. كان زواجي من وليد المخرج الوحيد، كنت أعرف أنَّ أبي لن يوافق بسهولةٍ على هذا الزواج قبل تخرُّجي من الجامعة، كما لن يوافق أن أتزوَّج من رجلٍ لم يُنهِ دراسته بعد. قرَّرت خوض هذه المعركة مهما كان الثمن، لأنّي عددتها المعركة الأخيرة مع أبي، وبعدها لن يستطيع التحكُّم بحياتي، سأعيشها كما أرغب بعيدًا عنه. عندما قلت لأمّي أنَّ أهل زميلي في الكلية يريدون أن يأتوا ويخطبونني، وأنا موافقةٌ، استغربت أمّي وخافت من أبي، لأنَّها تعرف موقفه كما نعرفه كلُّنا. في كلِّ الأحوال كان عليها أن تخبره، لم يكن أمرًا يمكن السكوت عنه. عندما أخبرته ثار كما هو متوقَّعٌ، وقال: «مو وقت هالمسخرة. دراستها أهم»، قالت له: «بس بنتك موافقة»، وقع كلام أمي عليه وقوع الصاعقة كما أخبرتني فيما بعد. لم يقل شيئًا سوى: «ابعثيلي

ميرفت»، جاءت أمّي إلى غرفتي وقالت: «أبوك بدو اياكي»، سألتها: «بتعرفي ليش؟»، قالت: «بعرف، منشان موضوع الخطبة»، عندما أنهت كلماتها، شعرت قلبي يهوي. طوال مراهقتي ودراستي الجامعية، تجنَّبت الاصطدام مع أبي، الخوف والرهبة والاحترام والحبُّ والتقدير مجدولين مع بعضهم كانا يمنعاني من الاصطدام به، لكن ما أجَّلته طويلًا، آن أوانه. عندما دخلت عليه، كان يغلي، لكنَّه اصطنع الهدوء. قال: «صحيح اللي قالته أمك؟»، قلت: «صحيح»، قال: «يعني أنت بدك هذا الزواج؟»، تردَّدت بالإجابة لكن قلتها واضحةً: «نعم أريده»، قال: «أنت متأكِّدة؟»، قلت: «متأكِّدة»، قال: «زي ما بدك. خلي أهلُه يجوا»، وأضاف: «روحي على غرفتك»، لم تحصل المعركة التي توقَّعتها، لم أتوقَّع أن يتصرَّف أبي بهذه الطريقة، توقَّعت، رفضًا، وصراخًا، وشجارًا، حتَّى ضربًا، لكن أيٌّ من هذا لم يحدث. لقد تركني في حيرةٍ من أمري. أبي العنيد يتصرَّف بهذه الطريقة، هناك شيءٌ غريبٌ في هذا الموضوع، أن يمرَّ هكذا ومن دون مشاكل شيءٌ فوق طاقة عقلي على التفسير. وعندما قلت لعامر ما حصل قال ساخرًا: «مستحيل... يمكن أبوكي شارب شي مضروب»، فعلًا لم يكن ردُّ فعله يتناسب مع المتوقَّع منه، لم يتوقَّع أحدٌ منَّا أن يكون ما جرى هو ردُّ فعل أبي على زواجي، فلا هو الوقت المناسب، ولا الذي تقدَّم لي بالرجل المناسب. لماذا فعل أبي ما فعل؟ ما الذي يفسِّر سلوكه الغريب؟ لم يملك أيٌّ منَّا تفسيرًا لما جرى في تلك الآونة، لماذا يتخلَّى أبي عن سلطته وجبروته علينا بهذه السهولة، ولماذا لم يعبِّر عن غضبه الذي كان ظاهرًا على وجهه عندما سألني عن موقفي؟ يمكن تفسير ما جرى، بأنَّ صورة أبي عندنا ليست حقيقته، نحن رسمنا له الصورة وأخذنا نعامله على أساس الصورة التي كوَّناها عنه، ويبدو أنَّنا لم نفهم هذا الرجل، لسببين: أوَّلًا، لعجزه عن شرح نفسه وتبرير تصرُّفاته وأفكاره على نحوٍ منطقيٍّ لنا. ثانيًا، لأنَّ الأشياء البديهيَّة لم تكن بحاجةٍ إلى شرحٍ كما ظنَّ، لذلك رفض شرحها للآخرين الذين لا يرونها بديهيَّةً، لا سيَّما

لنا نحن أولاده. لو نظرت إلى أبي من خارج الصورة النمطيَّة التي وضعناها له، لاستطعت فهم ما جرى، أو على الأقل استطعت تفسيره. أبي القاسي الذي صادر إرادتنا، ظنَّ أنَّه صادرها بإرادتنا، أي أنَّنا موافقون على أن يدير هو حياتنا كما يعتقد، ولأنَّنا ببساطةٍ لا نعرف كيف نديرها. أي يجب أن نكون سعداء بما يقوم به، لأنَّه يقوم به بدلًا عنَّا، في الوقت الذي نرغب بما يريد. لم ينتبه إلى أنَّه يفعل ذلك بالضدِّ من إرادتنا، ونحن نرى ما يفعله مجرَّد أنانيَّةً منه، إذ يريد التحكُّم بحياتنا حتَّى يعوِّض فشله الشخصيَّ في الحياة. لكنَّنا لم ننتبه أنَّه لم يرَ نفسه فاشلًا على الإطلاق، لم تكن تصرُّفاته تنطلق من الفشل، بل كانت تنطلق من اعتقاده أنَّه الأذكى بيننا، وعلى الأذكى أن يحلَّ مشكلة الأغبياء الذين تصادف وكانوا أولاده. لم يشكَّ أحدٌ منَّا، نحن أولاده، أنَّه يريد لنا الأفضل، لكن لم يوافق أيٌّ منَّا على أن يصادر حياتنا من أجل هذا الأفضل الذي يعتقده. رسم صورةً عنَّا واستكان لها، ورسمنا صورةً له واستكنَّا لها، لم يعرفنا، ولم نعرفه، وأظنُّ كلُّ واحدٍ منَّا أنَّه يفهم الآخر، أكثر ما يفهم الآخر نفسه. عندما طرحت فكرة زواجي، وكانت هذه أوَّل مواجهةٍ بيني وبينه، ولا أستطيع القول إنَّها صدامٌ، لأنَّه لم يكن مستعدًّا للقتال، بل على العكس كان مصدومًا ومستسلمًا. والسبب على ما أظنُّ يعود إلى أنَّها المرَّة الأولى في العائلة التي يعرف فيها مباشرةً، أن ما أريده ليس له علاقةً بما يريده هو لي، وأنا لا أرى أنَّه يقوم بالأفضل لي كما كان يعتقد. وهذا ما صدمه. ولأنَّ لي خططٌ وخياراتٌ أخرى غير تلك التي خطَّط هو لها، عرف لأوَّل مرَّةٍ أنِّي لا أوافق على ما يقوم به، أي أنِّي لا أمنحه التفويض للقيام بما يقوم به. ولأنَّه يعرف أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يجبر الآخر على أن يقوم بشيءٍ لا يريده، أقرَّ بهزيمته أمامي، لأنِّي لا أريد أن يفكِّر عنِّي وأن يملي عليَّ ما أريد. هذا ما يُفسِّر أنَّه لم يتشاجر معي على هذا الخيار الانتحاريِّ الذي اخترته، فلا يمكن لأحدٍ أن يختار مثل هكذا خيار، من دون النظر بعدوانيَّةٍ للآخر الذي يخطِّط له حياته التي لا يريدها، وفي هذه

الحالة يكون أبي. ولأنَّه لا يريد أن يفرض نفسه عليَّ لا بالقوَّة ولا بالحب، سرعان ما استسلم لرغبتي الانتحاريَّة. بعد سنواتٍ تمنَّيت لو أنَّه لم يستسلم لي، وأجبرني على وقف هذا المسار الانتحاريِّ لحياتي. لكنَّ الواقع شيءٌ والتمنِّيات شيءٌ آخر. شعر أبي وأمي بالأسى على ما أقدمت عليه. حاولت أمي إقناعي تأجيل هذا الزواج حتَّى الانتهاء من الدراسة، أو على الأقل حتَّى أتأكَّد من قراري «الزواج قرار حاسم في الحياة، بعده مش مثل قبله» كما قالت، لم أكن أسمع وقتها، كأنِّي عدت طفلةً ووجدت لعبةً أحبُّها وتمسَّكت بها. لم يحاول أبي إقناعي بأيِّ شيءٍ، كان يعرف أنَّه آخر شخصٍ يصلح للمهمَّة بعد ما دار بيننا. كان حزينًا ومحبطًا، حزينًا لأنَّه يعرف أيَّ مصيرٍ متعبٍ اختارته ابنته التي يحبُّ، فأنا أعرف أنَّه يحبُّني، ولم يكن هذا ما أعترض عليه في العلاقة معه، إنَّما أعترض على طريقة الحبِّ التي يفرض بها سلوكنا علينا. ومحبطًا، لأنَّه كان يقدِّر أنِّي أستطيع أن أصنع مستقبلًا باهرًا، وإن لم يكن باهرًا على الأقل مستقبلًا جيِّدًا ومقبولًا، أمَّا أن أعلن فشلي عبر زواجٍ مبكرٍ، كان هذا فوق احتماله، رغم ذلك، لم يقف في طريقي في هذا الخيار الأحمق.

تزوَّجت في شروطٍ قاسيةٍ، لم يكن راتب وليد يكفي عائلة، فكان عليَّ أن أعمل أنا أيضًا حتَّى نستطيع أن نستمرَّ في حياتنا. في هذه الشروط من الحياة، وسرعان ما يذهب الحبُّ، ويبقى قرف المتطلَّبات اليومية التي لا تنتهي. فكان عليَّ أن أعمل بأسرع وقتٍ. لم يكن الحصول على عملٍ سهلًا. وجدت عملًا في معملٍ للحقن الطبيَّة، ما عدَّل وضعنا الماليَّ وأصبح الوضع محمولًا، ولكنَّه غير مريحٍ. بعد أن وجدت عملًا، سرعان ما خسر وليد عمله، وعدنا إلى مرحلة الحاجة. وفي المعمل الذي أعمل فيه احتاجوا إلى فنِّي كهرباءٍ، وكان وليد قادرًا على القيام بهذا العمل لآلات المعمل، رشَّحته للعمل، وحصل عليه. وبعدها عرفت أنَّ عمل الزوج والزوجة في المكان ذاته ينتج أسوأ وضعٍ عائليٍّ. مع ولادة بتول ابنتي البكر ظننت أنَّ الأمور ستكون

أفضل، وجود طفلٍ في حياة زوجين شابَّين يجعلها أكثر حيويَّةً، لكنَّ هذا لم يحدث. عندما تزوَّجنا كنت أظنُّ أنِّي سأنتقل من سجن أبي المفتوح إلى مكانٍ أكثر حريَّةً، مع شخصٍ أحبُّه وعلاقتي به علاقةٌ نديةٌ ومفتوحةٌ، ليست علاقةً سلطويَّةً كما هو الحال عندما كنت أعيش عند أهلي. رغم أنِّي سمعت الكثير من القصص كيف تختلف علاقة المحبِّين بعد الزواج عنها قبله، لأنَّ الحبَّ يتبخَّر ببساطةٍ وتحضر الأشياء الأخرى الأكثر مللًا وإحباطًا، لكنِّي لم أكن أصدِّق هذا الكلام، فليس هناك سببٌ يجعل حبيبين يحبَّان بصدقٍ يصلان إلى هذه الحال ـ اليوم أضحك على نفسي من تعبير «يحبَّان بصدقٍ»، بعد زواجي ليس مهمًا أن أصدِّق أو لا أصدِّق، لأنِّي عشت هذا الواقع، وترك آثاره على جسدي وروحي. حتَّى اليوم لا أعرف ما هو الخلل الذي حصل، ولا أعرف هل كان هذا الخلل قبل زواجنا ولم أنتبه إليه، أم حصل بعد زواجنا ولم أنتبه إليه؟ كان التحوُّل سريعًا وغريبًا من حالة العشق التي عبَّر عنها وليد، إلى حالة اللا مبالاة التي أصبح يعيشها بعد أشهرٍ من زواجنا. هل كوَّنت مرَّةً أخرى صورةً غير حقيقيَّةٍ للشخص الأقرب لي، وبعد أن أصبحنا أقرب بدأت أعرفه على حقيقته؟ وهل أقنعت نفسي بصورةٍ خادعةٍ لأنتهي من صورةٍ خادعةٍ أخرى؟ لم أجد حريَّتي التي ظننت أنِّي سأحصل عليها بزواجي من وليد. كلُّ المحبِّين -وأنا منهم- يظنُّون أنَّهم سيصنعون عائلاتٍ مختلفةً عن تلك التي عاشوا فيها أو عرفوها، وعندما يبنون أسرهم الخاصَّة يبنون عائلاتٍ أسوأ من تلك التي تركوها خلفهم، لأنَّ الأحلام لا تقفز من رؤوسنا إلى الواقع، لذا يجد المحبُّون أحلامهم تتبخَّر ويواجهون الواقع بكلِّ مرارته. هذا ما فعلناه أنا ووليد، كنَّا نرى أنفسنا أكبر وأهمَّ وأفهم وأكثر وعيًا من عائلاتنا، ونعرف ما نريد ونعرف الحياة أكثر ممَّا يظنُّون، لكنَّ وهم أحلام الشباب يزداد سوءًا عندما يكون الشخص في حالة حبٍّ، تعميه عن الواقع الصلب، الذي يعتقد أنَّه يستطيع أن يغيِّره وأنَّ المسألة تتعلَّق بالإرادة فقط لا بالوقائع. عندما أنجبت ابنتنا، كلُّ وعود

المساعدة والتساوي التي قيلت أيَّام الحبِّ ذهبت أدراج الرياح. وأصبحت أيُّ مساعدةٍ من وليد لي، ليست واجبًا عليه، بل هي كرم أخلاقٍ منه. مع وليد اكتشفت أنَّ التربية المتخلِّفة لا يمكن الخلاص منها بالكلام فقط، وليد ليس فريدًا في هذا، الكثير من الرجال يعانون من انفصام شخصيَّةٍ بهذا الشأن. يدَّعون ألَّا مشكلة لديهم، وأنَّهم سيتعاملون بالمسؤوليَّة ذاتها، وأنَّهم ليسوا آباءهم. الكلام والادعاء سهلٌ، لكن التنفيذ شيءٌ آخر، هذا على فرض كانت القناعات حقيقيَّةً، وليست ادعاءً من أجل إقناع المرأة أنَّه حبيبٌ بمواصفاتٍ خارقةٍ. لكنَّ هذا يتبخَّر أمام أوَّل عودةٍ مشتركةٍ من العمل، فهو المتعب يريد أن يرتاح، وهي المتعبة عليها أن تهتمَّ بالطعام والأولاد والبيت، إنَّه تعذيبٌ حقيقيٌّ. حتَّى في حال حصلت المرأة على أفضل وأحسن زواج، فهو في النهاية مطحنةٌ لها. مثلي مثل كلِّ النساء في بلدي استسلمت لقدري، لم أحتجَّ على هذه الحياة، لأنِّي ببساطةٍ سأعود إلى أهلي، وهو ما يعني أنَّ خياري خاطئٌ، لا أعرف لماذا كابرت وخسرت عمري، ولم أعد إلى بيت أهلي لأبدأ حياتي من جديدٍ، بعد أن أعترفْ أنَّ خياري كان خاطئًا ومتسرِّعًا، ويمكنني تصحيح هذا الخطأ، وبالتالي تصحيح حياتي. إنَّ اعتقادي بأنَّ عودتي إلى أهلي معترفةً بخطأ خياري، سوف يدمِّر حياتي، ولم أنتبه إلى أنَّ عنادي وعدم اعترافي بخطأي هو ما يدمِّر حياتي، وليس الاعتراف بالخطأ، هذا الخطأ الذي جرَّ وراءه أخطاءً، وصولاً إلى هذا اليوم، إذ لا معنى لتصحيح الخطأ، بعد أن بات كلُّ شيءٍ خلفي، حتَّى حياتي.

بدل أن نبني حياتنا وننطلق إلى الأمام كما تصوَّرت في أحلامي، وجدت أنَّنا وقعنا في مستنقعٍ لم نستطع الخروج منه. لم أستطع ولم أرغب في العودة إلى دراستي، فقد زادت الأعباء، وبدل البنت أصبح عندي ابنتين ولحقهما ولدٌ ثالثٌ. انشغلت في العمل والبيت وكان من المستحيل أن أؤدِّي أيَّ مهامٍ أخرى، مثل الدراسة التي أصبحت أملك كراهيةً غريبةً تجاهها. لم أكن وحدي، فقد وقع وليد في الفخِّ ذاته، فهو لم يستطع إكمال دراسته

أيضًا. في البداية حمَّل إخوته المسؤوليَّة عن فقدانه دراسته، لكنَّه بعد ذلك أخذ يحمِّلني المسؤوليَّة، وأنَّ الزواج منِّي منعه وأبعده ليس عن الدراسة فحسب، بل وعن أيِّ شيءٍ إيجابيٍّ في حياته أيضًا. أعجبه أن يجد الذرائع لعدم قيامه بأيِّ شيءٍ، وأخذ يرسم صورةً لحياته بوصفه ضحيَّةً الآخرين، وأنا على رأسهم، وأنَّ طيبته والتزامه بكلمته ووعوده هو الذي أودى بحياته إلى هذا المصير البائس، الذي لم يختره، بل دفع الثمن بدلًا من آخرين، وكان يقصدني بكلمة الآخرين. حاولت دفعه باتجاه أن يقوم بما يجب القيام به، فإذا كنَّا قد أخطئنا في الكثير من الأشياء، فمن الممكن أن نفعل أشياء صحيحةً بحياتنا، وإذا كنت أنا قد انغمست في مسؤوليَّات البيت والأولاد، كان يستطيع هو أن يقوم بما يسهِّل علينا حياتنا. حاولت إقناعه بأن يذهب إلى الخدمة العسكريَّة، لأنَّها باتت تعيق حياتنا، وبات مضطرًا أن يتخفى في كثيرٍ من الأحيان لأنَّ الشرطة تبحث عنه، وندفع رِشًى كبيرةً، حتَّى لا يعتقلونه من أجل الجيش. يستطيع أن يفعل شيئًا، بات مرعوبًا، لم يكن يجرؤ على الذهاب إلى أيِّ مخفر شرطةٍ، ولا يجرؤ على الدفاع عن حقِّه، خوفًا من أن يتطوَّر النزاع إلى شجارٍ يؤدِّي إلى مخفر الشرطة ما يعني أنَّه سيذهب إلى الخدمة العسكريَّة. وعندما كنت أقول له: «مش فاهمة، ليش ما بتروح على الجيش وبتخلص؟» ردَّ عليَّ: «ليش أخوكي عامر ما بروح على الجيش؟» وكان أخي عامر قد ارتكب الحماقة ذاتها. قلت «عامر أخي، مو جوزي، حياته بدمر عيلته، بس حياتك بدمر عيلتي. بعدين عامر وراه كل أهلي. أنت ما وراءك حدا»، كان يردُّ: «ما بدي اروح على الجيش. هيك.. حيونة»، وما زال إلى اليوم يدفع ثمن هذه «الحيونة» لأنَّه عندما بلغ أخي عامر الأربعين من عمره، دفع أهلي له المبالغ الواجبة عليه حتَّى يُعفى من الخدمة، وهي ما يعادل راتب من يماثله في الخدمة وعن المدَّة التي يفترض عليه تأديتها. أمَّا وليد فلم يجد من يدفع له هذا المبلغ، وما زال غير قادرٍ على مغادرة البلد لهذا السبب،

مع أنَّ لمَّ الشمل بات جاهزًا في السفارة الألمانيَّة في بيروت، لأنَّه ما زال مطلوبًا للجيش وغير قادر على دفع المبلغ. صحيحٌ أنَّه أجرى المقابلة في السفارة بطرقٍ ملتويةٍ. لكنَّه لا يستطيع الوصول إلى هنا من دون جواز السفرِ، الذي لا يمكنه الحصول عليه، من دون أن يحلَّ مشكلة الخدمة العسكريَّة، التي تحتاج إلى المال، وبات المال شيئًا نادرًا في سورية بعد الإفقار الذي تعرَّض له الجميع تقريبًا بفعل ما جرى في البلد في السنوات الأخيرة، وأنا لست قادرةً على تأمين هذا المبلغ له من المساعدات الشحيحة التي أحصل عليها في ألمانيا.

منذ حَمَّلني وليد مسؤوليَّة تدهور وضعه، وأعجبه أن يحوِّل نفسه إلى ضحيَّةٍ، عرفت أنَّ عائلتي ستكون مسؤوليَّتي وحدي. كان بإمكاني تغيير ذلك، بما أنَّها مسؤوليَّتي وحدي، فليذهب هو إلى الجحيم، فكَّرت بذلك نظريًّا، لكنِّي لم أقدر على تحويله إلى واقع. لا أعرف ممَّا خفت بالضبط، قد أكون خفت من أشياء كثيرةٍ، منها المهمُّ، ومنها المضحك، خفت من صورة الفاشلة وصاحبة الخيار الفاشل. أعرف أنِّي فشلت لأنِّي لم أفكِّر بما أفعل، كنت أفكِّر بما لا أفعل، فإذا لم أقم بالفعل الذي لا أريده، كنت أعدُّ نفسي ناجحةً، حتَّى لو أدركت أنَّ خياري سيكون أسوأ ممَّا لا أريده بأضعاف. خفت من كلام الناس، كنت أقول إنَّ كلام الناس لا يهمني، سأفعل ما أريد، وليقل الآخرون ما يريدون. كان هذا كلامًا نظريًّا، في الواقع خفت جدًّا من كلام الناس، وصورتي عندهم تهمُّني جدًّا على عكس ما أقول. خفت من نظرات أبي، التي توقَّعت أن تكون بين الشماتة والتأسِّي على حالي، وكأنَّ عيونه تقول لي: «ألم أقل لك»، كانت نظرة أبي من أكثر الأشياء التي تخيفني، وما زالت، لا أعرف ما سرُّ ضعفي أمام نظرته، لدرجة أنِّي لست قادرةً على النظر فيها. خفت من سؤال أطفالي عن أبيهم، وخفت أن يتربُّوا بلا أبٍ، رغم أنِّي أظنُّ اليوم، كان أفضل لهم أن يتربُّوا من دون أبٍ. خفت من المجهول، ماذا بعد الانفصال عن وليد؟ أيُّ حياةٍ يمكن أن أرتِّبها وحدي؟

كيف يمكن للأولاد أن يتربُّوا من دون أب؟ إلى آخره من هذه الأسئلة الهربيَّة، التي لا معنى لها، سوى أنِّي أراها أسئلةً كبيرةً، وكأنِّي مركز الكون، والجميع مشغولٌ بقراراتي المصيريَّة، مع أنَّها لم تكن تعني أحدًا، ولا أحد مهتمٌّ بما أفعل، على عكس ما كنت أتوهَّم. كنت بطيئة التفكير، لدرجة أنِّي اتخذت قرار الانفصال عن وليد عشرات المرَّات، وكنت أجبن وأبطأ من أن أنفِّذه. أقرِّر، أسوِّف، أتراخى، أتجاهل، أنسى الموضوع. أعيد الكرَّة بعد أشهرٍ، كأنِّي أسوِّغ البقاء معه، كحالةٍ مؤقَّتةٍ وصولًا إلى الانفصال، واستطالت الحالة المؤقَّتة والتأجيل حتَّى التهمت حياتي كلَّها.

أصبح عدم القدرة على الانفصال مع عدم القدرة على إنجاز حياةٍ أفضل، عنوان فشلي، لم أقاوم الفشل، ولم أحاول إثبات عكسه، إنَّما استسلمت له. لم أنتبه أنَّ فاشلين لا يستطيعان إنتاج عائلةٍ ناجحةٍ ولا يستطيعان إقناع أولادهم أن يصنعا حياة أفضل من الحياة التي صنعها والداهم. ما لم أنتبه له في البداية، لم أستطع تداركه بعد فوات الأوان. كبر الأولاد بسرعةٍ، من دون أن يجدوا نموذجًا ملهمًا لهم. طبعًا، ليس بالضرورة أن نحظى بأولادٍ أفضل لو كنَّا نموذجين ملهمين، لكن إمكانيَّة أن ينجوا أولادنا من مصيرٍ سيِّئ تصبح أكبر. حالتي أنا وإخوتي نموذجًا لعدم تأثير النموذج الملهم. أبي وأمي حالتان ملهمتان، لقد بنيا حياتهما من العدم. أبي أوَّل من تعلَّم بإخوته، رغم إصابته طفلًا بجروحٍ بليغةٍ في فلسطين، هذه الجروح التي بقي يعاني منها طوال عمره، جدِّي وجدَّتي أميَّان، وأخوه الأكبر ترك المدرسة مبكرًا. قرَّر أن يصنع مستقبلًا مختلفًا، عمل ودرس، وصنع نفسه بنفسه كما يشهد الآخرون له، لا أحد يشكُّ بأنَّ أبي عصاميٌّ وشخصيَّةٌ استثنائيَّةٌ. أمِّي أيضًا، حالةٌ ملهمةٌ، هي الابنة الوحيدة لامرأةٍ مات زوجها في فلسطين قبل أن تلجأ إلى دمشق، هذه المرأة الأميَّة أيضًا، التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، قرَّرت ألَّا تتزوَّج ثانيةً، وأنَّ كلَّ هدفها في الحياة، أن تصنع لابنتها حياةً أفضل من تلك التي عرفت فيها معاناةً لا تنتهي. لم

تخذل البنت أمَّها، أرادتها أن تتعلَّم، فتعلَّمت لأنَّها أرادت لأمِّها أن تفخر بها وبإنجازها كأنَّه إنجاز أمِّها، وهو كذلك فعلًا. اندمجت هاتان المرأتان بحلمٍ واحدٍ، حتَّى أصبحتا أمَّين لنا، ماما رضيَّة، وماما خديجة. لا أذكر في حياتي ناديتها بغير «ماما» كنَّا ننادي جدَّتي أم أبي بـ«ستي» أمَّا جدَّتي أم أمِّي، لم نُنَادِها أنا أو إخوتي منذ وعينا على الدنيا سوى بـ«ماما رضية» تميزًا لها عن أمِّي. نموذجان ملهمان، فشلا في أن يلهموننا نحن أولادهم. هم رغبوا في إرضاء آبائهم، ونحن عملنا على عكس ما رغب آباؤنا، معتقدين أنَّنا بذلك نحقِّق حريَّتنا. لا أعرف من المخطئ، نحن أم هم. نحن الأبناء الذين لم نقدِّر الحبَّ الذي أحبُّونا إيَّاه وحرصهم المبالغ فيه على مستقبلنا، أم الآباء الذين لم يعرفوا كيف يحبُّوننا، أو أنَّهم أحبُّونا بطريقةٍ خاطئةٍ، فبدلًا من أن نفهمه حبًّا، فهمناه قيودًا على حياتنا، وأنَّهم يحبُّونا حبَّ «عناق الدب» الذي يخنق حبيبه جرَّاء هذه المحبَّة. سواءً كنَّا نحن المخطئين أم هم، في النهاية نحن الأبناء الذي دفعنا ثمن هذا الخطأ، سارت حياتنا كلُّها في طريقٍ خاطئٍ، أمَّا الآباء فنالهم التحسُّر على أبناء كان يمكن لحياتهم أن تكون أفضل بكثيرٍ ممَّا وصلوا إليه. لم أرضَ عن حياتي يومًا ولم أستطع أن أغادرها إلى حياةٍ أخرى ممكنةٍ، كان يمكن أن تكون أفضل أو أسوأ، ما كنت سأعرف ذلك من دون تجريبها، خفت من تجربتها، خفت من فشلٍ جديدٍ، خفت من نفسي، فأخذت أراوح في مكاني والزمن يمضي سريعًا. ظننت أنِّي سأملك دائمًا الفرصة لتغيير حياتي عندما أملك الجرأة على القيام بذلك، لكنِّي لم أنتبه أنَّ الوقت غير مفتوحٍ إلى الأبد، وهو لا ينتظرني، أستطيع أن أتأخَّر بعض الوقت، ولكن هناك حدودٌ لهذا التأخُّر، وعندما نتجاوز الحدَّ، لا نستطيع أن نغيِّر شيئًا، حتَّى ملابسنا التي نلبسها. من كثرة ما ردَّدت كلمة التغيير بيني وبين نفسي، بتُّ أخاف منها، إلى أين يمكن أن تذهب بي هذه الكلمة؟ لأنِّي لا أعرف الجواب، لم أستطع القيام بشيءٍ، أخافني المستقبل لأنَّ نتائجه غير مضمونةٍ. لم أتصوَّر في شبابي أنَّ حياتي

ستكون بهذه الرداءة. لم أفعل ما هو مطلوبٌ من أجل حياةٍ أفضل، لكن إضافةً لما لم أفعله، فإنَّ سوء الحظِّ رافقني منذ ذلك الحين. وهو ما جعلني أخاف من أيِّ تغييرٍ صغيرٍ، لأنِّي أظنُّ أنَّه سيأتي بالأسوأ، لذلك قبلت السيِّئ حتَّى لا أصل للأسوأ. لا أعرف من أين أتاني هذا الخوف من المستقبل؟ هل هو من سوء الحظِّ؟ هل هو من اختياراتي الخاطئة؟ هل هو من إدارتي حياتي بطريقةٍ خاطئةٍ؟ أم بسبب كلِّ هذه الأشياء مجتمعةً وغيرها التي لم أعرف التعامل معها؟

سارت الحياة ولم تنتظرني حتَّى أحسم تردُّدي وأتغلَّب على مخاوفي وأتصالح مع المستقبل. كنت بطيئةً وكان الزمن سريعًا، ظننت أنَّه سينتظرني، كان الزمن أعمًى فلم يراني. كبرت أسرع ممَّا تصورت، كانت الأيَّام صعبةً، تتبخَّر السنوات سريعًا، عندما أنتبه، أجد أنَّ خمس سنواتٍ قد مرَّت، حتَّى أستوعب ما فاتني وأُعدِّل من خططي، تكون خمسةٌ أخرى قد فاتت، ولم تعد خططي السابقة البطيئة صالحةً للزمن الجديد، هكذا دوليك اختفت سنوات عمري التي لم أَعِشها، أجَّلتها لأعيشها فيما بعد، لم أَعِشها في وقتها، ولم أجدها فيما بعد. الحياة غريبةٌ تأخذنا في طرقٍ لم تكن لتخطر على بالنا على الإطلاق، ولو قال لنا عرَّافٌ، إنَّنا سنسير على هذا الطريق لقلنا له: «مش إحنا اللي بنمشي هذا الطريق. أنت بتحكي عن حدا تاني، إحنا مستحيل نمشي هذا الطريق التعيس»، في الواقع نجد أنفسنا في قلب البؤس من دون أن نحتجَّ على ما فعلناه بأنفسنا.

بعد سنواتٍ من التعب والتقنين وتلالٍ من الديون، استطعنا شراء بيتٍ في شارع الجاعونة الموازي لشارع فلسطين في المخيَّم. وكانت حارات هذه المنطقة هي الأضيق بين أزقَّة المخيَّم، لذلك كانت أرخص من غيرها من مناطق المخيَّم الواقعة بين شارعي اليرموك وفلسطين. على عيوب البيت الذي تمرُّ عليه الشمس في النهار مرور الكرام، كان إنجازًا لأنَّنا استطعنا الخلاص من بيوت الأجرة التي سكنَّاها لعشرين عامًا. صحيحٌ أنَّنا انتقلنا من

رعب الأجرة إلى رعب الديون، لكن هناك رعبٌ أكبر من رعبٍ. في رعب الديون نخاف أن يطلب الدائن ماله، فنقع في ورطة تدبير هذا المال من دائنٍ آخر، وعلى الغالب يمكن حلّ مشكلةٍ من هذا النوع، أو يؤجّل الدين، بالكثير من الخجل والإحراج. مع الأجرة الرعب حقيقيٌّ، إذا كان الموضوع متعلّقٌ بشهرٍ فيه شحُّ مالٍ، يمكن تدبُّره بالاستدانة من هنا أو من هناك، على الأغلب من أهلي، لذلك كانت سهلة المنال والسداد. أمّا عندما يريد صاحب البيت بيته، كان الجنون بعينه، أين سنجد مؤجّرًا جديدًا، في مكانٍ بيوت الأجرة فيه قليلةٌ جدًّا؟ وإذا وجدنا، سنخوض معركة رحيلٍ، تحتاج إلى أشهرٍ حتّى نعتاد على المكان والجيران، لذلك، عندما يطلب المؤجّر بيته، يقع قلبي خوفًا من الدوّامة التي سنعيشها خلال الفترة اللاحقة، من بحثٍ عن بيتٍ والانتقال إليه. هذا إذا كان المؤجّر رجلًا محترمًا، أمّا إذا كان حقيراً، فهو يحوّل حياتنا إلى جحيمٍ باستعجاله استرداد بيته. لم أكن أتوقّع أنَّ هذه المنطقة البائسة التي أسكن فيها والقريبة من حيِّ التضامن، ستكون أوّل منطقةٍ تسقط فيها القذائف المدفعيَّة عندما بدأت الاشتباكات المسلَّحة في محيط المخيَّم.

منذ بدأت التظاهرات الاحتجاجيَّة في البلد، وأنا أخاف على ابني باسل الذي كان في السادسة عشرة من عمره، أصبح يبحث عن المظاهرات في كلِّ مكانٍ ليشارك فيها، فهو متحمِّسٌ يريد أن يصرخ ويقول: «لا» لكلِّ شيءٍ، مثل كلِّ مراهقٍ يمرُّ بهذه السنِّ، يريد تغييراً ليس عائلته ومجتمعة فحسب، بل يريد تغيير العالم كلِّه أيضًا. عندما نظَّمت بعض التنظيمات الفلسطينيَّة رحلةً إلى الجولان بمناسبة ذكرى النكبة، ذهب باسل مع أصدقائه إلى هناك وأنا وافقت على ذهابه. لم أتوقَّع أن يقتحموا السياج الإسرائيليَّ ويركضون في حقول الألغام. لقد اعتدنا عندما كنَّا طلَّابًا في الجامعة الذهاب في عيد استقلال سورية الذي يأتي في الربيع إلى هناك، وهذا اليوم الوحيد الذي يُسمح فيه للسوريِّين بالوصول إلى الحدود، وفي باقي الأيَّام هي منطقةٌ

محظورةٌ، يحتاج الذهاب إليها موافقة المخابرات. كان يجري احتفال عيد الاستقلال السوريِّ هناك، خطباء يلقون خطاباتهم من التجمعين على الحدود، يفصل بينهما سياج الأسلاك الشائكة الذي أقامته إسرائيل، والدوريَّات العسكريَّة تجوب المنطقة، بين المجتمعين على طرفي الأسلاك الشائكة التي تفصل بينهما حقل ألغامٍ على مسافةٍ أكثر من أربعمئة متر. تجمُّعٌ يأتي من دمشق في الجهة السورية، وتجمُّع في مجدل شمس المحتلة على الجهة المقابلة القريبة من الحدود، تنتهي الخطب نستمتع بالمشهد الرائع هناك، نتحسر على الجولان وعلى فلسطين ونعود إلى بيوتنا في دمشق، وقد أصبح هذا الاحتفال تقليدًا سنويًّا.

لم تجرِ الأمور هذه المرَّة مثل المرَّات السابقة، كما توقع الإسرائيليون الذين اعتادوا خطاباتٍ لمدَّة ساعتين وتنتهي الحفلة. روى باسل لي ما جرى هناك قائلًا: «شو يا أمي شغلة مثل الكذب. شاب مجنون حامل علم فلسطين نط بالوادي وراح يركض باتجاه مجدل شمس. والصراخ من عنَّا ومن عند أهالي مجدل شمس "انتبه الألغام"... "انتبه الألغام" "ألغام" ما اطلع الشب وما كان بسمع، كأنُه طاير. الناس شافت الشب وصل على الجنب الثاني من الشيك وجنوا، وانفجر الحماس، كلو اتحمس. ركضنا مثل المجانين على الجنب التاني. السيَّارة العسكريَّة الإسرائيليَّة اللي كانت تمشي هناك، تفاجأت، غابت شي ساعة ورجعت معها سيارتين. كنَّا صرنا بمجدل شمس، وأهالي المجدل بسلموا علينا وبضيفونا مي وقهوة وفواكه. ولما وصلت هناك شفت تمثال سلطان باشا الأطرش بنص الساحة. أخذت علم فلسطين من شاب واقف جني، تعربشت زي القرد على التمثال وحطيت علم فلسطين بإيد التمثال. اطلعت على الناس من فوق التمثال كانوا بصفقولي، حسيت إحساس غريب، حسيت حالي عملت شغلة كبيرة. لما رجعت السيَّارات الإسرائيليَّة صارت ترمي علينا قنابل مسيِّلة للدموع وطخ رصاص على الناس، صارت الناس ترجع من الطريق اللي فاتت منو. أربع

استشهدوا وكثيرين انجرحوا. والله ياما ما بتصدِّقي، ما خفت، لا من الجيش الاسرائيلي ولا من الرصاص. حسيت حالي طاير، فرحان، فرحان من كل قلبي»، تكلَّم على تجربته بفرحٍ طفوليٍّ وفخرٍ لم أشهده فيه من قبل. يروي وهو يطير من الفرح. روى ما حدث عشرات المرَّات خلال الأيَّام التالية، روى لأبناء أخواله وخالاته وعمومه وعماته وأصدقاءه ولكلِّ من صادفه. أراد أن يروي للعالم كلِّه أنَّه اقتحم السياج الإسرائيليَّ، وهو عملٌ بطوليٌّ، من دون أن يقول ذلك مباشرة.

بالنسبة لي كانت تجربةً خطرةً، أربعة قتلى والكثير من الجرحى، كان يمكن أن يكون باسل واحدًا منهم، خفت من الفكرة، وجعلتني قلقةً عليه طوال الوقت. وبعد حوالي ثلاثة أسابيع وبمناسبة هزيمة الخامس من حزيران، كانوا يعدُّون في المخيَّم لرحلةٍ ثانيةٍ إلى الجولان. وقد أخبرني باسل أنَّه سيذهب مرَّةً ثانيةً، فظنَّ أنِّي سأوافق مثل المرَّة السابقة، لم يعرف أنِّي وافقت لأنِّي كنت متأكِّدةً ألَّا خطر عليه، أمَّا بعد ما حصل، فالمسألة مختلفة. لم أقل له لن أسمح لك بالذهاب. لأنِّي أعرف ألَّا شيء سيمنعه من الذهاب مرَّةً أخرى، بعد شعور الفرح الذي شاهدته عليه وهو يروي تجربته السابقة، كنت متأكِّدةً أنَّه مستعدٌ للذهاب، لو كلَّفه ذلك حياته. في يوم الرحلة، منذ الصباح قفلت باب الغرفة عليه، ومنعته من الخروج، عندما اكتشف أنِّي قفلت عليه الباب صرخ: «إمي منشان الله افتحي الباب»، لم أردَّ عليه، ضرب الباب، ضرب الجدران، حطَّم الكراسي داخل الغرفة، حاول كسر الباب بكلِّ الطرق لكنَّه فشل. كنت أبكي وأنا أحبس ابني الذي يصرخ، لم أكن أريد فعل ذلك، كنت أتمنَّى تركه يذهب، بل أكثر من ذلك، أن أذهب معه، خوفي عليه كان أقوى من تركه يذهب ويعرِّض نفسه للخطر. في عصر ذلك اليوم جاءت الأخبار الحزينة عمَّن ذهبوا. وقعت مجزرةٌ حقيقيَّةٌ هناك، أكثر من خمسٍ وعشرين شابًّا وفتاةً قُتِلُوا برصاص الإسرائيليِّين على السياج، لم يستطيعوا التقدُّم ولا خطوة، في الفترة

الفاصلة بين يوم النكبة ويوم النكسة، عزَّز الإسرائيليُّون السياج، وأقاموا سياجًا جديدًا متعدِّد المراحل. قال من ذهبوا إلى هناك في الرحلة الثانية، اصطاد الإسرائيليُّون شبابنا الذين حاولوا اقتحام السياج مثل العصافير. ما زاد من غضب باسل منِّي، أنَّ صديقة حمدي الذي اتفق معه على الذهاب معًا إلى هناك، قد قُتِلَ بين من قُتِلُوا وهم يحاولون اقتحام السياج. بعد أن عرفت ذلك، فقدت القدرة على النظر في عيني ابني، كانت نظرات اللوم التي وجَّهها لي تؤلمني.

في المساء، قال لي: «رح أطلع بالجنازة بكرة، ما تقفلي الباب علي»، لم أعرف بماذا أردُّ، سوى هزَّ رأسي بالموافقة، فلن أستطيع منعه من وداع صديقه، الذي ظنَّ أنَّه لو كان معه يمكن أن ينجو من الموت، أو يموتان معًا. لم أتركه يذهب إلى التشييع لوحده، لم أرافقه، ذهب مع أصدقاءه، لكنَّ إحساسي بالذنب، جعلني أشارك في الجنازة تكفيرًا عمَّا فعلت بابني.

في الجنازة المهيبة، كانت الوجوه غاضبةً، لا سيَّما وجوه الشباب الذين ذهبوا إلى هناك، وبعد عودتهم شعروا أنَّهم خُدِعُوا وأُرسِلُوا لهناك لكي يُقتَلُوا، من دون رادعٍ من ضميرٍ لمن رتَّب هذه المجزرة على الحدود. لذلك هزَّ هتافهم الجدران على طول تشييع الجنازة على شارع اليرموك: «بدنا نحطوا بالتابوت للي بعتنا حتَّى نموت»، ردَّدوا هذا الهتاف طوال الطريق إلى المقبرة. كانت جنازةً حزينةً وغاضبةً وحاشدةً، شارك الآلاف من أهالي المخيَّم في وداع هؤلاء الشباب، حتَّى الأمن لم يتدخَّل عندما هتف المشيِّعون ضدَّ النظام. كان الحشد غاضبًا ممن أرسل الشباب إلى موتهم أكثر من الإسرائيليِّين الذين قتلوهم.

بعد أن دفنوا الشهداء في مقبرة الشهداء الجديدة، وعندما عاد الشبَّان من المقبرة، توجَّه الكثيرون منهم إلى مبنى الخالصة التابع للجبهة الشعبيَّة- القيادة العامة التي عدُّوا قيادتها مسؤولةً عن إرسال الشباب إلى موتهم في الجولان. أخذوا يلقون الحجارة على المكان، ردَّ الحرَّاس بإطلاق النار على

الشبَّان، ما زاد في غضب الشباب وأهالي المخيَّم، الذين حاصروا المبنى، وتمكَّنوا من إحراق جزءٍ منه، عندما جاءت أعدادٌ كبيرةٌ من أفراد المخابرات التي أطلقت نيرانًا كثيفةً على شارع الثلاثين وفرَّقت الناس لتنقذ قيادات التنظيم من غضب أهالي المخيَّم.

لم أبحث عن باسل هذه المرَّة، خفت من غضبه منِّي. شاهدته وهو يهتف في التشييع ويبكي، وعرفت أنَّه شارك في رمي الحجارة على مبني الخالصة، وخفت عليه لكنِّي لم أفعل شيئًا رغم قلقي عليه طوال الوقت. عندما عاد في المساء، لم أتحدَّث معه، احتضنته وبكيت وأنا أقول له: «البقية بحياتك يا حبيبي»، وهو لم يرد وشرع في البكاء أيضًا. كانت هذه المرَّة الوحيدة التي تسامحت معه. بعد حادثة الخالصة، كلَّما سمعت أنَّ هناك مظاهرةً تجوب المخيَّم، أركض مثل المجنونة أبحث عنه بين المتظاهرين وأعيده إلى البيت رغمًا عنه. وبعد أن أطلق رجال المخابرات النار على المتظاهرين في المخيَّم وقتلوا أربعة شبَّانٍ، أصبحت أصاب بالرعب عندما أسمع أنَّ هناك مظاهرة في المخيَّم، وانظر حولي ولا أجد باسل. أركض في أزقة المخيَّم بحثًا عن المظاهرة لأعثر عليه بين المتظاهرين، نتشاجر ويرفض مرافقتي إلى البيت، يقول: «ما عدت صغير. أمي أنت بتخزيني بين رفقاتي» ويهرب من المكان، وأنا أشرع في البكاء. جاءت ذروة رعبي عندما دوى انفجار قذيفة مدفع هاون سقطت على بيتٍ في أوَّل حارتنا، صوت الانفجار الذي لا يحتمل أصابني بطنينٍ بأذني وأنا أضع طعام إفطار رمضان على الطاولة، فلم يتبقَ لأذان المغرب الذي يعلن إفطار رمضان ونهاية يومٍ آخر من الصيام سوى ربع ساعةٍ. سقط صحن المخلل الذي أحمله على الأرض، تحطَّم الصحن وانتشر المخلل على الأرض. جلست على أحد الكراسي القريبة منِّي، وضعت يدي على قلبي وقلت «الله يستر» عندما خفَّ الطنين في أذنيّ، بدأت أسمع صراخ المتراكضين في الحارة، أصوات لا أعرفها تقول: «القذيفة انفجرت ببيت أبو إسماعيل»، حزنت على الرجل الطيِّب الذي

اختارت القذيفة بيته من بين كلِّ بيوت الحارة. جاءت بتول من المطبخ خائفةً، وسرعان ما احتضنتني وشرعت بالبكاء. جلست مكاني عاجزةً عن الحركة، ما هي سوى لحظات، حتَّى انفجرت قذائف عدَّةٌ متتاليةٌ أخرى في الحارة. عاد الطنين إلى أذني، ومن جديدٍ لم أعد أسمع شيئًا. انتبهت إلى أنِّي لم أتفقَّد باسل الذي ينتظر الآذان في غرفته حتَّى يخرج ويفطر معنا. أبعدت بتول عنِّي، وركضت مثل المجنونة، فتحت الغرفة، لم أجده، خرج من دون أن أنتبه. خرجت إلى الحارة، الغبار يغطِّي المكان، والصراخ أراه في الأفواه ولا أسمعه بفعل الطنين في كلِّ مكانٍ، قذيفتان انفجرتا بين المسعفين والمتجمِّعين حول بيت أبي إسماعيل. ركضت في ذلك الاتجاه وأنا أصرخ «باسل... باسل...» لم أسمع حتَّى صوتي، الطنين في أذني أصابني بالطرش، لم أسمع صراخ الآخرين، ولم أرَ من الغبار الكثيف الذي خلَّفته القذائف، الجميع يتراكضون في كلِّ اتجاهٍ، وأنا أركض باتجاه بيت أبي إسماعيل أشاهد الجرحى ودمائهم المختلطة بالتراب، وعندما اقتربت من بيت أبي إسماعيل، شاهدت عددًا من الرجال الممدّدين على الأرض، لم أعرف إذا كانوا مصابين أو أنهم فارقوا الحياة، أصرخ «باسل... باسل...» وأرى الآخرين يتحرَّكون حولي صامتين، يفتحون أفواههم يقولون أشياء، لكنِّي لا أسمعها، الطنين اللعين يمنعني من سماع جوابٍ من باسل، لا أعرف إذا كان هو أيضًا يسمعني. أتفقَّد وجوه الجرحى القادرين على المشي والذين تسيل دمائهم، لأتأكَّد أنَّ باسل ليس من بينهم. أتفقَّد الممدَّدين على الأرض فاقدين الوعي، وأخاف أن يكون باسل واحدًا منهم. أمسك الأشخاص الذين أظنُّ أنَّهم بحجم جسد باسل، أتفقَّد وجوههم عن قربٍ، أتركهم لأنَّهم ليسوا هو. عندما أمسكت به، وأدرته باتجاهي وتأكَّدت أنَّه باسل رغم الغبار الذي يغطِّيه، احتضنته وشرعت في البكاء، أخذت أتفقَّد جسده، رأسه، وكتفيه، وصدره، وبطنه، وظهره، حتَّى قدميه. كنت أصرخ ولم يكن يسمعني، وكان يصرخ ولم أكن أسمعه. يبدو أنَّه لم يكن أحدٌ في المكان قادرًا على سماع

الآخرين بسبب الطنين الذي سبَّبته القذائف للجميع، كان البعض يستخدم لغة الإشارة حتَّى يفهم عليه من معه، أو ماذا يفعلون للمحتاجين إسعاف في تلك اللحظات. لأنِّي سأنهار، اتكأت على باسل وعدنا إلى البيت. أكثر من عشرين رجلًا وشابًّا وطفلًا سقطوا قتلى في ذلك اليوم المروِّع، ما جعل الحارة والمخيَّم في حالة حزنٍ شديدةٍ على من فقدوا حياتهم من دون أن يكون لهم أيُّ ذنبٍ فيما يحدث. بقيت دماء القتلى على الجدران، تُذكِّرنا بأنَّ أهلنا وجيراننا سقطوا هنا مضرَّجين بدمائهم، بسبب قذائف غبيَّةٍ أطلقها مجرمٌ، روَّعتنا وسبَّبت الألم لأحبَّتهم الذين تُذكِّرهم الدماء على الجدران بألمهم، التي بقيت علامةً فارقةً على جدران الحارَّة حتَّى بعد أن غادرناها.

كلَّما زادت الصدامات في البلد، كنت أزداد خوفًا من كلِّ شيءٍ، خسرت عملي قبل سنوات، لأنِّي لم أستطع التوفيق بين تربية الأولاد والعمل، ومع بدء الاحتجاجات خسر وليد عمله أيضًا، فقد أُغلِقَ المعمل الذي يعمل فيه أبوابه، وغادر صاحبه البلد، وبتنا نعيش على مساعدات أهلي وأختي في سويسرا على نحوٍ كاملٍ، فالناس أمثالنا ليس لديهم وفرٌ من المال حتَّى ينفقونه عندما يمرُّون بأزمةٍ خانقةٍ، قضينا حياتنا ننتقل من أزمةٍ إلى أزمةٍ، لم أشعر بالراحة يومًا. بحث وليد عن عملٍ جديدٍ، من دون جدوى، لقد توقَّفت الكثير من الأعمال، وبات وليد أكثر خوفًا من قبل بسبب ازدياد عدد الحواجز في البلد، وأصبح أسير المخيَّم، لا يخرج منه، ووجوده في المنزل زاد من الضغط عليَّ، رجلٍ غير قادر على القيام بشيءٍ ويعيش عالةً على المساعدات التي أتلقَّاها، ويلقي الأوامر والانتقادات ويتدخَّل في كلِّ صغيرةٍ. بات الوضع مستفزًّا جدًّا، ولم أكن قادرةً على الكلام في ظلِّ ما تعيشه البلد من أوضاعٍ صعبةٍ وموتٍ يُوزَّع على كلِّ مكانٍ. أوضاعي وأوضاع المخيَّم والبلد تتردَّى معًا، وعندما قصفت الطائرة المخيَّم، وقع الصاروخ الأوَّل عند جامع عبد القادر، أمَّا الصاروخ الثاني فسقط في باحة المدرسة الخلفيَّة

بالقرب من بيت أهلي. حاولت الاتصال بأبي لأطمئن عليه، الخطوط لا تعمل، سرعان ما ركضت باتجاه بيت أهلي، يحتاج الطريق إلى بيت أهلي حوالي العشرين دقيقة، لكنِّي شعرته يطول أكثر من عام، مع أنِّي أركض حتَّى أسابق الزمن. عندما وصلت وجدت أبي ما زال في حالة الصدمة، ولا يسمع بفعل الانفجار القوي القريب، كانت زوجات إخوتي وأختي فاتن التي لجأت قبل أسابيع من الحجر الأسود إلى بيت أهلي، يحاولون تنظيف الغبار الذي يملأ المكان. ساعد أخي أحمد أبي على تنظيف نفسه وغسل له وجهه، والبنات نظَّفن له غرفته أوَّلًا، وجدته يستلقي على السرير بسكينةٍ غريبةٍ، سكينةٍ سبَّبتها الصدمة التي غيَّبته عنَّا وعن المكان، كان معنا وليس معنا، ينظر إلينا يرانا ولا يرانا، حالةٌ غريبةٌ يمرُّ بها، لم أشاهد أبي عليها طوال حياتي. كان يبحث بيننا، كأنَّه يبحث عن أمِّي الغائبة، التي سافرت عند أختي في سويسرا، يبحث عنها لأنَّها الوحيدة التي يرضى أن تراه في حال ضعفٍ، فهو لم يسمح لنفسه ولنا طوال حياتنا معه، أن نشاهده وهو في هكذا حالة أو ما يشبهها، أو نراه وهو يبكي، هذه الأشياء كانت من الكبائر بالنسبة له. أراد أن يقول شيئًا وهناك ما منعه، الصدمة والدهشة أعادته ليتصرَّف مثل الأطفال، بعيونٍ تائهةٍ، كأنَّنا أمامه غرباء فضوليِّين يتلصَّصون عليه. لم يردَّ على أسئلة أحدٍ منَّا بما يشعر، قد يعود ذلك لأنَّه لم يسمعنا، أو لا يريد أن يردَّ، أو لأنَّه شعر أن لا شيء يمكن قوله في هذه الحال.

عندما غادرت بيت أهلي، كان إخوتي يحاولون إقناع أبي بمغادرة المخيَّم، فبعد ما جرى في ذلك اليوم وبعد المهلة التي مُنِحَت للمخيَّم حتَّى ظهر اليوم التالي، ثمَّ البدء بإغلاق المنطقة، قضى سكَّان المخيَّم ليلتهم في جمع الأغراض التي سيأخذونها معهم إلى أماكن لجوءٍ جديدةٍ. قرَّرت الأغلبيَّة الساحقة من سكَّان المخيَّم الرحيل، وأنا منهم، وكان عليَّ أن أعود إلى المنزل لأنتقي ما سنأخذه معنا. تمنَّيت على أبي أن يغادر معنا، قلت «أنت رجلٌ مريض، وإحنا بنحبك، إذا بقيت هون رح نقلق عليك»، قال

إخوتي كلامًا شبيهًا، جال أبي بنظره على المتحدِّثين، ونقلَّ عينيه بين الحاضرين من دون أن يقول شيئًا، كلُّ ما قاله وبصوتٍ واهٍ «ماني طالع من المخيَّم»، حتَّى أخي أحمد الذي قرَّر البقاء في المخيَّم، تمنَّى على أبي الخروج خوفًا عليه وعلى صحَّته، لكنَّه بقي على عناده المعروف، لم يستطع أيٌّ منَّا أن يزحزحه عن موقفه.

في الطريق إلى البيت، كنت أفكِّر بأبي، أكثر ما أفكِّر بنفسي، كيف سارت به الحياة إلى ما نحن عليه. لم يكن حتَّى في أسوأ كوابيسه يتصوَّر أنَّ الوضع سيتردَّى إلى هذا الحدِّ. كلُّنا لم نستطع استيعاب ما يجري حولنا، كانت الأحداث أسرع من ردِّ فعلنا وفهمنا لما يجري. ويبدو أنَّ أبي كان في حالة إنكارٍ لما يدور حوله، فهو مصدومٌ وغير مصدِّقٍ. لم يصدِّق أنَّ ما عمل من أجله كلَّ حياته ينهار فجأةً كبيتٍ من الرمل، الإنجاز الذي يفاخر به في نهاية حياته وبعد تقاعده هو قدرته على لملمة شتاتنا -نحن أولاده وبناته- يتبخَّر، لم يصدَّق ما يجري، ولن يصدِّق فيما تبقَّى من حياته.

ليلة الخروج ساد الصمت في البيت، عندما قال وليد بحزن: «رح نطلع من المخيَّم»، لم يكن يعلن قرارًا بقدر ما كان يقول ما سنفعل، لم يجرِ أيُّ نقاشٍ في المنزل، لأنَّه لم يكن هناك أيُّ معترضٍ على الخروج. أنا موافقة وأولادي كذلك، فلا عمل نقوم به، سوى جمع الأغراض التي سنحملها معنا، لذلك بات القرار ماذا سنأخذ، وماذا سنترك؟ في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، حضَّرت طعامًا من لوازم المنزل، لم يقترب أحدٌ منه، لم ألحَّ لا على وليد الذي غرق في تدخين سجائره، ولا على الأولاد، ولا أنا نفسي كان لديَّ رغبةٌ في الطعام. تراكمت الأغراض التي سنأخذها معنا قرب الباب الخارجيِّ، كانوا أكثر من قدرتنا على أخذهم معنا، بدأنا نخفِّف منهم، تخلينا عن بعض أغراض المنزل، بعض الملابس، بقيت الكميَّة كبيرةً، عدنا إلى تخفيض كميَّتها. قضينا تلك الليلة نكاد نكون صامتين، لا كلام يمكن قوله في تلك اللحظات، نحن ننتظر رحيلنا إلى المجهول في الصباح، نتأمَّل مكاننا، ونتأمَّل حياتنا،

سنغادر المكان، ولا نعرف هل سنعود ثانيةً إلى المكان، مكاننا؟ لم أملك أيَّ إجابةٍ على السؤال، مع أنِّي تمنَّيت أن نعود حتَّى لا نمضي قدمًا في طريق الألم. لم أعرف بماذا فكَّر وليد لحظتها، لكن لم أَرَه حزينًا كما رأيته في تلك الليلة، لم يكن قادرًا على الكلام، ينفض رأسه بين اللحظة والأخرى، لعلَّ ما يعيشه كابوسٌ يستطيع الخلاص منه، وفي أحيانٍ أخرى يزفر بقوَّةٍ كأنَّ شيئًا ثقيلًا يربض على صدره. حياته التي يخسرها والذهاب إلى المجهول في اليوم التالي أصابته بالصدمة، فهو يعرف أنَّ أوضاعنا مستقرَّةٌ بصعوبةٍ، إلى أين سوف نمضي من هذا الوضع الصعب؟ بالتأكيد إلى وضع أصعب. أدركت هذا كما أدركه تمامًا. لم أتوقَّع مواجهة وضعٍ مثل هذا، كنت أسأل أبي وأنا شابَّةٌ، لماذا خرج جدِّي من فلسطين؟ وكيف يترك الناس أماكنهم بهذه السهولة؟ حمل سؤالي نوعًا من السخرية من خفَّة الذين هربوا من فلسطين. كان أبي عاجزًا عن الإجابة، تهرَّب من السؤال بأنَّه كان طفلًا عندما غادروا فلسطين. نحن نفعل ذلك بخفَّة أكثر من الذين هربوا من فلسطين. أتذكَّر جواب ماما رضية عندما سألتها الأسئلة نفسها قالت: «الخوف يا أمِّي، هو اللي خلانا نهرب، الخوف بيعمي يا حبيبتي»، نعم «الخوف» هو ما يفسِّر ما نحن عليه، أنا خائفةٌ على أولادي أريد أن أنجو بهم، وأنا خائفةٌ على نفسي أيضًا. وليد خائفٌ على أولاده، لذلك أردنا الخروج من المخيَّم مع أنَّنا كنَّا نعرف أنَّنا سنعيش أوضاع مذلَّةً، هذا ليس مهمًّا، المهمُّ أن ننجو نحن والأولاد من هذا المكان الذي عشَّش الموت في كلِّ زاويةٍ منه. «الخوف» هو الذي جعل الأولاد صامتين، ينتظرون الخروج من هذه المحنة، إلى وضعٍ أفضل، لا أحد يعرف هل نستطيع الخروج في صباح اليوم التالي أم ينتظرنا موتٌ معمَّم؟ مع الخوف تنمو في الرأس التوقُّعات السوداويَّة كالفطر. أرعبنا ترقُّب اليوم التالي في ظلِّ خوفٍ يشلُّنا جميعًا، وعلى عكس صمت الخوف الذي ساد في المنزل، استمرَّت القذائف المدفعيَّة في السقوط على مناطق عديدةٍ في المخيَّم طوال الليل. وكانت القذائف

تقول لنا لا ضمانة أن يكون هناك خروجٌ آمنٌ في الصباح، في بعض اللحظات كانت قذائف عديدةٌ تسقط معًا على مناطق عدَّةٍ في المخيَّم، يسود الصمت بين الانفجارات المتتابعة، تعود أصوات القذائف لتشقَّ صمت الليل.

كان الليل طويلًا في انتظار صباحٍ غير مضمونٍ، تأمَّلت فيه وليد والأولاد، وتأمَّلت فيه حياتي وأيَّ مساراتٍ متعرِّجةٍ مشيت فيها، تأمَّلت كلَّ شيءٍ تحت ضغط الخوف، فقد لا يكون هناك يومٌ آخر في حياتي، أحيانًا تمنَّيت ألَّا يكون مثل هذا اليوم. عندما زاد احتمال الموت، وجدت نفسي أتمسَّك بالحياة، نتمنَّى موتنا نظريًّا، وعندما يقترب الموت منَّا فعلًا، نشعر أنَّ الحياة أجمل ممَّا تصوَّرنا، وأنَّ ما كنَّا نشكو منه مجرَّد جزءٍ من الحياة، لا يستدعي أن نحذف منها الأجزاء الأخرى وهي الأكثر أهميَّةً. نسوِّغ خوفنا وتمسُّكنا في الحياة بأنَّ هناك مهمَّاتٍ جليلةً تحتاج إلينا حتَّى نقوم بها لأجل من نحبُّ. هي مجرَّد مسوِّغات، بالتأكيد أنا أخاف على أولادي، ولا شكَّ بأنَّ بقائي يجعل حياتهم أفضل، أو هكذا أظنُّ، لكنَّ حياتهم ستستمرُّ -حتَّى لو متُّ- وفي الظروف الصعبة، أحيانًا نتحوَّل إلى عبءٍ على الآخرين، نرفض الاعتراف بهذه الحقيقة، ونقرِّر أنَّ لنا دورًا رئيسيًّا في الحياة، ونحن حقيقةً نعيش على هامشها، ولا لزوم لنا، ونعيق من نحبُّ على الاستمرار في حياتهم. والأسئلة التي تتعلَّق باحتمالاتٍ مأساويَّةٍ لحياتنا لا تنتهي في مثل هكذا أوضاع، ومنذ أخذت القذائف تتساقط في كلِّ مكانٍ في البلد، وإطلاق الرصاص قد يحدث في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكانٍ، ماذا لو فقدت أحد أولادي؟ لم أحتمل التفكير بالسؤال، سرعان ما كنت أطرده من رأسي، لا أتخيَّل الحياة من دونهم، رغم أنِّي شاهدت من فقدن أولادهن في المذبحة التي حصلت في حارتنا يوم سقطت القذائف على المسعفين، وقتلت وجرحت على الأقل واحدًا من كلِّ بنايةٍ في الحارة الضيِّقة. عندما ذهبت لعزاء من فقدوا أولادهم، لم أكن قادرةً على النظر في عيون أمَّهاتهم، شعرت أنَّ عيونهن هاويةٌ أسقط فيها إذا نظرت إليها، فأنا أعرف أنَّ العيون تستطيع أن تقول

ما لا تستطيع الكلمات قوله. كنت أخاف أن أشاهد هاويتي المحتملة في حال فقدت أحد أولادي، أرعبني العزاء، صوت القرآن في كلِّ بيوت الحارة والحارات المجاورة، أصوات عويل النساء المنكوبات بعزيزٍ لا تنتهي، تسكت واحدةٌ لتصرخ أخرى، يتجدَّد الصراخ والنواح الجماعيُّ، الذي يعود ليهدأ، سيل المعزِّين القادمين من كلِّ مكانٍ إلى الحارة يكاد لا ينتهي، وجوهٌ غير معروفةٍ أتت من داخل المخيَّم ومن خارجه، صنع الحزن خيمته الكبيرة فوق المكان ورفض أن يتزحزح، حتَّى بعد انتهاء العزاء، فالدمار الذي خلَّفته القذائف ودماء القتلى الباقية على الجدران، جعلت المكان أكثر حزنًا وكآبةً، ذكَّرتنا كلُّ لحظةٍ بخسائر الحارة الفادحة التي تسبَّبت بها قذائف مجرمةٌ لم تميِّز بين رجلٍ وطفلٍ وشيخٍ وامرأةٍ. إنَّها أدوات القتل العمياء التي تجلب الخراب والقتل والحزن إلى الأماكن التي تسقط فيها. شعرت ليلة الخروج من المخيَّم مربوطةً بيوم المجزرة، يحيط الموت بنا من كلِّ جانبٍ، وهذا الموت الذي بدأ قبل أكثر من عامٍ ونصف، لا يريد أن يتوقَّف في البلد، بل هو يزداد يومًا بعد يومٍ. وفي الصباح سنضيف آلام النزوح إلى أماكن أخرى إلى الآلام التي عشناها. كلُّ يومٍ يزداد الوضع سوءًا، من دون أن نملك المقدرة على دفع هذا الألم المتعاظم في حياتنا. كانت الليلة مفصليَّةً في حياتي، شعرت حياتي بعد المخيَّم، لن تكون نفسها التي كانت في المخيَّم، رفضت الاعتراف بهذا الإحساس، وأقنعت نفسي، أنَّها أزمةٌ عابرةٌ وسنعود إلى أماكننا من جديدٍ. لم أقمع إحساسي السوداويَّ بسهولةٍ، كنت بحاجةٍ إلى قمعه، لأنَّ قمعه منحني الأمل بالعودة إلى حياتي السابقة، أمَّا لو استسلمت لإحساسي، لكنت فقدت كلَّ أملٍ ليس في العودة، بل بالحياة أيضًا، وفقدان الأمل يجعل الحياة أصعب، حتَّى لو كان الأمل تافهًا فهو يساعدنا على تحمُّل ظروفنا الصعبة.

ما إن جاء الصباح، حتَّى أصبحت جاهزةً لأكثر التوقُّعات مأساويَّةً، أو هكذا ظننت على الأقل. عندما بدأ الضوء يبدِّد الليل الشتويَّ الطويل

والبارد، بدأ الناس يغادرون بيوتهم باتجاه الحاجز على مدخل المخيَّم. انتظرنا حتَّى جاء أخي عدنان لأخذ أغراضنا معه في السيَّارة الشاحنة التي تعود لمحلِّهم. وضعنا أغراضنا في السيَّارة التي كان يركبها هو وزوجته وحماته العاجزة وأولاده في الخلف، مع كميَّةٍ هائلةٍ من الأغراض التي تعود إليه وإلى إخوتي الآخرين. وضعنا الأغراض في السيَّارة، غادر هو والأغراض. عندما غادر، هوى شيءٌ في قلبي في فراغٍ رهيبٍ، أصبحت المغادرة حقيقيَّةً، وأنا التي انتظرت أن يأتي حدثٌ ما ويوقف طريقنا إلى المجهول. أغراضنا التي تسبقنا إلى خارج المخيَّم، تقول ما أشاهده ليس كابوسًا في ليلٍ طويلٍ، إنَّه حقيقة الحياة التي نعيشها، وليس من الممكن الهرب منها. نظرت إلى المنزل مرَّةً أخيرةً وحاولت أن أخفي دموعي التي سقطت رغمًا عنِّي. أشحت بوجهي عن البيت وبدأت السير بعيدًا عنه، باتجاه مدخل المخيَّم. الأعداد القليلة التي كانت في الحارة، أخذت بالازدياد عندما وصلنا إلى شارع صفد، فنحن لم نكن قادرين على الخروج من شارع فلسطين الذي بات مغلقًا عند مبنى البلدية، بمقاتلي حي نسرين الذين يقاتلون مع النظام. فكان علينا أن نعبر إلى شارع صفد، ثمَّ إلى شارع لوبية، وهو الشارع الذي كان حتَّى قبل أسابيع واحدًا من أهمِّ أسواق دمشق. الشارع الذي لم يكن يهدأ لا صيفًا ولا شتاءً، والذي يزدحم حتَّى الثمالة بالمتسوِّقين قبل الأعياد، مغلقٌ يعبره سيلٌ من الهاربين باتجاه شارع اليرموك. السير بين الناس جعلني أشعر بالقشعريرة، يا إلهي، سيل البشر لا ينتهي في شارع لوبية، بدأت أشاهد بعض معارفي، تواطأ الجميع على سلوكٍ غريبٍ. عندما أرى أحد أعرفه ويعرفني، وتلتقي نظراتنا، كنَّا نشيح بوجوهنا بعيدًا من دون سلامٍ ونبكي، كان التواطؤ مرعبًا، كأنَّنا جميعًا نشعر بالعار لما نفعل، نشيح بوجوهنا لنقول للآخر تستطيع أن تعدَّ أنَّنا لم نراك في هذا الموقف المذلِّ، وهو يقول لنا ذلك أيضًا عندما يشيح بوجهه عنَّا من دون سلام. لا أعرف إن فعل الآخرون الشيء نفسه، لكنِّي لم أستطع إلقاء السلام على أيٍّ

من معارفي في طريق الجلجلة الذي أخرجنا من اليرموك، وكأنَّ سياطًا غليظةً تضربنا، ونحمل على أكتافنا أحمالًا لا طاقة لنا بحملها. كان الطريق إلى مدخل المخيَّم أطول من الليل الذي سبقه. حكت وجوه الناس قصَّةً واحدةً، الملامح الحزينة أحيانًا، والباكية أغلب الأحيان، كانت تقول إنَّ آلاف البشر الذين يشكِّلون النهر البشريَّ والمقتلعين من بيوتهم، هم تنويعٌ على قصَّة الألم التي بدأت في ذلك اليوم، والتي لا أحد يعرف متى تنتهي، آلاف القصص لأناس يذهبون إلى المجهول، يبكون على حياتهم السابقة، يبكون على المجهول القادم، ألمٌ يتدحرج على إسفلت المخيَّم خارجًا من المكان، آملًا أن يعود إليه ليستأنف حياته من حيث انقطعت، من دون أن يعرف الخارج من المكان أنَّه لن يعود الشخص الذي غادر المكان، دموعه فاصلٌ رهيبٌ في حياته. شعر الجميع نفسه في مهبِّ الريح، يخفي وجهه ودموعه، كأنَّه هو الذي ارتكب الجريمة بحقِّ نفسه، وليس آخرون هم الذين اعتدوا عليه، وهم من عليهم أن يخجلوا من أنفسهم وليس هو. لم أفهم لماذا شعرنا بالعار رغم أنَّنا من يدفع الثمن؟ ولا أفهم لماذا شعرنا بالعار، ونحن نحاول النجاة بحياتنا من جريمةٍ يرتكبها الآخرون بحقنا؟ اقتلاعنا من بيوتنا قسوةٌ لا يمكن احتمالها، لم أدرك ما يجري، وفي كلِّ خطوةٍ أُذهَلُ ممَّا يجري ومن هذه التجربة المريرة غير المتوقَّعة، والقهر الذي تولِّده التجربة التي نمرُّ بها. لم تكن تجربة تَطَهُّرٍ، كالتي مرَّ بها المسيح وصولًا إلى الصلب ليفتدي البشريَّة، كانت تجربة ألمٍ خالصٍ، تجربة ألمٍ مجانيٍّ.

عدت إلى المخيَّم مرَّاتٍ عدَّةً، بعد هذا الخروج المرعب وقبل إغلاقه بالكامل، عدت لأجلب بعض الأغراض، أو بحجَّة ذلك، كنت أحمل لأخي أحمد المحاصر هناك بعض الأشياء التي يحتاجها، وأجلب من المخيَّم، بعض الأغراض التي أحتاجها أو يحتاجها أهلي. في المرَّات الأولى كان أبي في المخيَّم، عندما أزوره أطبخ بعض الطعام، وأحاول بأحاديث ساخرةٍ، إخراجه من حالة الحزن العميقة التي دخل فيها، لم يكن يستجيب لمحاولاتي، كانت

ردوده مقتضبةً جدًّا، وهو الذي كانت ردوده كذلك قبل الكارثة التي حلَّت علينا وعلى البلد. كنت أفهم شعوره الرهيب بالخسارة، انهار عالمه الذي بناه حجرًا فوق حجر. الفرق بيننا نحن أبناءه وبينه، صحيحٌ أنَّ حياتنا انهارت كما انهارت حياته، لكنَّ الأهمَّ، أنَّ أحلامنا بالمستقبل هي التي انهارت، وعلى خطورة انهيار أحلامنا، فهي لم تكن واقعًا قائمًا. أمَّا أبي فقد كان يعيش أحلامه، لقد حوَّلها إلى واقعٍ بعد عمل أكثر من خمسين عامًا. هذا الرجل الذي تقاعد قبل انطلاق الأحداث بأكثر من ثلاثة عشر عامًا، وأمِّي التي تقاعدت من عملها كمعلمةٍ بعده بخمسة أعوامٍ. أقام عالمه حول بيته، كلُّ أولاده حوله حتَّى نحن بناته، وقد ربطهم به. فجأةً انهار هذا العالم، لم يستطع أبي استيعاب ما جرى، لقد كان فوق تصوُّراته، رفض الاعتراف به. زاد غياب أمِّي في تلك اللحظات من ألمه، وهو ما جعله يشعر بوحدةٍ قاتلةٍ، وهو الشخص الذي لا يبوح لأحدٍ بمكنوناته، وأمِّي الشخص الوحيد الذي يمكن أن يبوح لها، لكنَّها ذهبت بزيارةٍ عند أختي في سويسرا، وهي الرحلة التي رفض أن يسافر فيها، مع أنَّ اسمه موجودٌ بالدعوة ذاتها مع أمِّي. غياب أمِّي جعل أبي يفقد توازنه، لم يكن أداءه في أثناء الأزمة، هو ذاته قبلها، أو حتَّى مع وجود أمِّي. بغيابها، عرفت أنَّها عامل التوازن في حياته، وهي الوحيدة القادرة على التعامل مع أزماته، أمَّا نحن أولاده، حتَّى في ظلِّ الخراب الذي ضرب كلَّ شيءٍ، والدمار الذي حطَّم حياتنا، أصرَّ على أن يكون الرجل الصارم والمتماسك أمامهم. مع أنَّ البلد انهارت، أصرَّ هو على أنَّه رجلٌ قويٌّ ونسيجٌ وحده، كانت عنجهيَّةً فائضةً عن الحاجة في تلك اللحظات. احترمت خياره ولم أضغط عليه أكثر، لأنِّي أعرف أنَّ الضغط عليه، يُوَلِّد حالةً معاكسةً، ويجعله أكثر عنادًا. حزنت لحالة أبي، ورغم أنَّ حالتي مزريةٌ، إلَّا أنِّي رأيت حالته أسوأ، وحالة اليأس التي رأيتها في عينيه لم أَرَها في السابق. عندما عدت أوَّل مرَّةٍ إلى بيتي لأجلب بعض الأغراض، شعرت أنِّي غريبةٌ عن المكان، وكأنَّ وداع الرحيل، قد فعل فعله داخلي، وكأنِّي أقف على

أطلاله وليس داخله، أتأمَّل حياتي التي تسرَّبت منِّي، وما الذي فعلته بها، أجد أنَّها كانت حياةً عبثيَّة يائسةً، أبكي وأجهش بالبكاء حدَّ الإنهاك، أحاول أن أغسل وجعي بدموعي، لعلَّ ذلك يساعدني على تحمُّل القادم من الأوجاع.

في تلك المرَّة التي زرت فيها أبي وأغمي عليه، لم يكن التعامل مع عناده بتسامح ممكنًا، عندما أفاق وأدرك أنِّي لم أعد إلى أولادي، طلب منِّي الخروج من المخيَّم، فقلت: «ما رح أتركك على هاي الحال» رجاني أن أذهب من أجل أولادي، لكنِّي رفضت، بذات العناد الذي ورثته منه، قضيت تلك الليلة أراقب تقلُّباته، اتصلت بأمِّي وإخوتي وقلت لهم، أن يتكلَّموا معه من أجل خروجه من المخيَّم، وقلت لهم «عمب يتلاشى، عمب ينتحر» لم تقصِّر أمي، ولم يقصِّر إخوتي في الاتصال، وعندما رفض الردَّ على الهاتف، وهي عادته. أجيب أنا وأعطيه الهاتف ليكلِّم إخوتي، حتَّى لا يهرب من المكالمة. في اليوم التالي قال لي: «ما بدك تروحي عند ولادك؟»، قلت: «لأ، بقيانة معك، أو بتروح معي وبتشوف دكتور» لا خيار أمامه، فقال: «ماشي الحال، رح روح معك» أوصلنا أحمد بسيَّارة أحد أصدقائه إلى قرب حاجز البطيخة. خلال الطريق تأمَّل أبي الشوارع الفارغة التي صدمته، لم يتوقَّع شوارع فارغةً، أظنُّ أنَّ الكثير من الناس بقيت، وأنَّ المخيَّم ما زال حيًّا، رغم الآلاف الذين غادروا في ذلك اليوم الصعب. كان واضحًا من حجم التأثُّر الذي ظهر عليه، أنَّ ما توقَّعه أقلَّ سوءًا ممَّا يراه. وعندما وصلنا إلى حاجز البطيخة، أراد مسلَّحٌ تفتيش الأغراض لأنَّ كلَّ العابرين للحاجز بالاتجاهين، مشبوهين برأي مسلَّحي الحاجز. قبل أن يبدأ، وقف رجلٌ ونادى على الرجل المسلح الذي يريد تفتيش الأغراض، وقال له بلهجةٍ آمرةٍ: «إترك الأستاذ خليل، لا تقرب على غراضه» لم أعرف الرجل، ولم يعرفه أبي الذي يسير كأنَّه غائبٌ عن الوعي. كانت لحظةً قاسيةً عليه. قضى أبي عندي يومًا واحدًا في صحنايا، ثمَّ التحق بإخوتي في قادسيا.

عندما خرجت مع عائلتي من المخيَّم، كنَّا مثل كلِّ الذين خرجوا، لا نعرف ماذا سنفعل ولا إلى أين نذهب؟! كنَّا في غيبوبةٍ تجعلنا لا ندرك ما يجري وتشلُّنا عن التفكير. عندما أصبحنا في مساكن الزاهرة، وكنَّا حائرين إلى أين نذهب؟ جاء اتصال أحمد أخوه لوليد، سأله: «وين رح تروح؟» أجاب وليد: «والله ما بعرف، ما في محل نروح عليه»، قال: «أعطاني صديق مفتاح بيته في صحنايا، بتقدر تأخذ غرفة لحتى تدبر حالك»، جاءت المكالمة إنقاذًا من حيث لا ندري، صحيح أنَّنا سنعيش نحن الخمسة في غرفةٍ واحدةٍ، لكن هذا يبقى أفضل من الجامع وأفضل من التشرُّد. وجدنا تكسي وذهبنا إلى العنوان الذي أعطانا إيَّاه أحمد. كانت الغرفة شبه فارغةٍ، والأغراض التي أخرجناها من المخيَّم، أخذهم عدنان معه إلى قدسيا حيث نزح، واحتاج أيَّامًا عدَّةً ليوصل لنا الأغراض إلى صحنايا، ما اضطرَّنا لاستعارة بعض الأغطية من الجيران، اتقاءً للبرد القارس الذي جاء في ذلك الشتاء الحزين. عشنا أربع عائلاتٍ مؤلَّفةٍ من حوالي عشرين شخصًا في الشقَّة المؤلَّفة من أربع غرفٍ وصالةٍ، منال إحدى أخوات وليد الأربعة وعلي وحسين اثنان من إخوته الستَّة كانوا شركاءنا في المكان. كنَّا العائلات الأكثر تقاربًا في العائلة الكبيرة، هناك تحالفاتٍ داخل العائلات غريبةٌ، تولَّدت أحيانًا بسبب المصالح، وأحيانًا بسبب الحبِّ، وأحيانًا بسبب الكراهية، وأحيانًا بسبب التقارب في طبيعة الأشخاص. لم نكن نشكِّل تحالفًا حقيقيًّا داخل العائلة، لم تخلُ علاقتنا من تضامناتٍ متبادلةٍ في الأفراح والأحزان والمصائب، التي كثرت مع انفجار البلد. منحتنا المسافة بيننا واستقلال كلَّ عائلةٍ فرصة التضامن مع حفظ الخصوصيَّات، وهي ذاتها التي جعلت أحمد يتصل فينا لنكون معه في بيت صديقه، مع أنَّه كان يمكن أن يكون وعائلته أكثر راحةً من دوننا، أو مع عائلةٍ واحدةٍ على سبيل المثال، فإخوته الآخرين كانت قدرتهم الماليَّة أفضل من أحمد، وبعضهم كان يسكن أصلًا خارج المخيَّم، لكنَّهم لم يدعوا أحدًا ليلجأ عندهم، لا من البنات حرصًا على

صلات الرحم كما يدَّعون، ولا من الذكور حرصًا على الترابط العائلي. لا أستطيع الجزم، هل كان ذلك تجاهلًا من الأخوة أم من أزواجهم وزوجاتهم، أم منهما معًا؟ وسَّعت الأحداث التي مرّرنا بها الفروق، ليس بين المتخاصمين فحسب، بل وبين المتحابِّين أيضًا. السكن المشترك مع هذا الكمِّ الكبير من الأطفال في الظروف المأساويَّة، حوَّل حياتنا إلى جحيم فوق الجحيم الذي نعيشه، لا أعرف كيف أصف الحالة التي عشناها في تلك الأوقات. غياب الرجال عن البيت، سواءً يعملون أم لا، كان أوَّل نتيجةٍ لهذا الحشد البشريِّ المرهق والمتعب والمقتلع الذي يعيش في بيتٍ واحدٍ. ماذا سيفعل الرجال في هكذا وضع؟ كانوا يخرجون صباحًا، ولا يعودون إلَّا في آخر الليل للنوم. لم أعرف كيف قضى وليد وقته خارج المنزل وهو الذي لا يعمل، كان يخرج مع نبيل زوج أخته والعاطل عن العمل مثله، يعودان في المساء منهكين، يأكلان وينامان، ويتجنبان النظر في عيوننا، نحن زوجاتهم. لم أسأل وليد، أين تذهب؟ وكنت أشفق عليه في أيَّام البرد القاسية من هذا الهرب من المكان. كان وليد ونبيل يائسين من كلِّ شيءٍ، وخجلين من وضعهما، فلم يكونا قادرين على تدبير مصروفهما الشخصيِّ، لقد أحسَّا بالعجز تمامًا. اتفقت مع منال أن نتجنَّب أيَّ صدامٍ معهما تقديرًا لأوضاعهما، ليس لأنَّنا لا نملك انتقادات عليهما، بل لأنَّ هذه الانتقادات ستكون جروحًا عميقةً في مثل هذا الوضع الذي نمرُّ به، وليس لها جدوى. أحيانًا لم نكن نستطيع الكلام، أنظر إلى منال وتنظر إليَّ ونبكي من دون سببٍ واضحٍ، أو لألف سببٍ وسبب. عندما عرفت أنَّ نبيل قُتِلَ في تفجيرٍ انتحاريٍّ أمام القصر العدلي في دمشق كنت في ألمانيا، لم أستطع أن أكون معها، لم أستطع احتضانها، كان لي عزائي الخاص، بكيت من أجل نبيل، وبكيت أكثر من أجل منال لأنِّي أعرف ماذا يكون نبيل بالنسبة لها. تمنَّيت أن أكون معها أخفِّف عنها، أحتضنها لتبكي على صدري كطفلةٍ، كما بكت في محنتنا وبكينا معًا مرَّاتٍ عديدةٍ، لم يكن الاتصال الهاتفي كافٍ، لتعرف

كم أحبُّها ومدى شعوري بها. أخذتني الأفكار إلى أماكن غريبةٍ، ما الذي ستفعله منال المسكينة مع ثلاثة أطفالٍ، المصائب لا تنتهي في البلد الحزين.

لجأ أخي عامر إلى صحنايا مثلي، لم أَرَه في الفترة التي قضاها هناك سوى لمامًا، كان يمرُّ يسأل عن وليد، إذا وجده يخرجان معًا ويرافقهما نبيل أغلب الأحيان. لم يكن ينالني من مرور عامر سوى سلامه، والوجه الحزين لأخي الذي تربَّينا معًا، أفكِّر فيه بعض الوقت، وسرعان ما أغرق في تفاصيل البيت اليوميَّة. عرفت أنَّه يريد الكلام، حتَّى يخفِّف عن نفسه، كانت عيناه تقولان ذلك، كنت أعرف أخي المتعطِّش للكلام الذي يخفِّف عنه هذه الحالة الكئيبة التي أعرفها جيِّدًا. لم أعرف هل كان قادرًا أن يقول ما يريد قوله لي لوليد ونبيل في الأوقات الطويلة التي يقضونها معًا، لم أكن متأكِّدةً من ذلك، ولم أسأل وليد عن ذلك. عندما جاء لوداعي قبل سفره، كان الموقف غريبًا، لا أعرف إذا كانت غرابة الموقف آتيةٌ من غرابة الأوضاع التي نعيشها، أم من غرابتنا كشخصين تربَّيا معًا. عندما قال لي «سامحيني» لم أفهم عن أيِّ شيءٍ أسامحه، وأيُّ خطأٍ ارتكب بحقِّي، لم يفعل لي شيئًا يستحقُّ الاعتذار، ولا أذكر أنَّه أخطأ بحقِّي يومًا، قد نكون تجادلنا بأصواتٍ عاليةٍ، أو صرخنا على بعضنا، لكن لا أذكر يومًا أساء إليَّ أو أسألت إليه. وكان الاعتذار غريبًا منه. وعندما قلت «ما عملت شي حتَّى أسامحك عليه!»، قال «كان لازم أقلك، إني بحبك»، لم أعرف ما أقول، أدهشتني الكلمة، وأدهشني وقعها السحريُّ عليَّ، لم أتوقَّعها، شعرت بالسعادة عند سماعها، سعادةٌ قصيرةٌ، لأنَّ الحزن سريعًا ما عاد ليحتلَّ الأجواء، لأنَّ عامر سيغادر البلد. عرفت طول عمري أنَّ عامر يحبُّني، لكنَّه لم يقل الكلمة ذاتها، كانت المرَّة الأولى التي ينطقها، أدهشني كيف قالها بطريقةٍ طفوليَّةٍ، شعرت أنَّنا عدنا إلى طفولتنا، ومن هو أمامي عامر الطفل الحزين. عانقته وبكيت، ولأنِّي شاهدت فيه عامر الطفل ضحكت. أصبت بحالة هستيريا، أبكي على عامر الذي عاد إلى طفولته من شدَّة الألم الذي يتعرَّض له،

وأضحك على عامر الطفل الذي أمامي الذي كانت طفولته البريئة مدهشةً ومضحكةً. وبكيت لشعوري أنِّي لن أرى عامر مرَّةً أخرى. لذلك عندما غادر ترك فراغًا، صحيحٌ أنِّي لم أكن أراه كثيرًا، لكنِّي كنت أشعر به إلى جانبي. وبعد أن سافر في رحلة المجهول هذه، شعرت أنَّه ابتعد أكثر من قدرتي على احتمال البعد، خسارةٌ أخرى تضاف إلى سجلِّ الخسائر الذي لا ينتهي.

أصبت بالصدمة، عندما أخبرني وليد أنَّ مجموعةً مسلَّحةً في المخيَّم خطفت أخاه أحمد الذي كان في زيارةٍ للمخيَّم المحاصر. لطمت وجهي، أحمد الطيِّب لا يستحقُّ هذا المصير، فهو الرجل الذي وقف معنا في كلِّ أزماتنا، وقف معنا من دون مقابلٍ، رجلٌ عددته أبي الثاني. قلت «يا الله امتى رح تخلص هاي المصايب؟» منذ أشهرٍ والخطف قائمٌ في البلد، والكثير من المخطوفين وُجِدُوا جثثًا هامدةً في هذه الزاوية أو تلك من البلد. خفت على أحمد من هذا المصير وقلقت على عائلته. وعندما أخبرني وليد مرَّةً أخرى أنَّ الخاطفين يريدون فديةً لإطلاق سراحه، دخلنا في مشكلةٍ أخرى، من أين لأشخاص مثلنا خسروا كلَّ شيءٍ تقريبًا تأمين هكذا مبلغ، عشرة آلاف دولار؟ بدأت مفاوضاتٌ عائليَّةٌ مضنيةٌ من أجل جمع هذا المال. لم يترك وليد أيًّا من أصدقائه ولم يطلب منه المال من أجل أخيه، وكلُّ ما حصل عليه خمسمئة دولار لا غير. لا خيار أمامي، ما بقي معي من ذهبٍ، احتفظت به من أجل أكثر أيَّام حياتي سوادًا، لا لزوم له، لم أتخيَّل أن يُقتَل أحمد من أجل ألف دولارٍ نقصت عن المبلغ، وأنا قادرةٌ على تأمينها، شعرت أنَّ دمه سيكون على يديَّ، إذا احتفظت بالذهب وتركت الرجل الطيِّب يموت من أجل المال. قاربت المهلة على الانتهاء ولا مال إضافيًّا، ذهبت إلى الصائغ في صحنايا وبعت الذهب الذي أحتفظ به وطلبت منه أن يعطيني ثمنه بالدولار، أعطاني ثمانمئةٍ وستين دولارًا، واستدنت الباقي من أبي، بعد أن أخبرته لماذا أحتاج المال، من دون أن أخبره أنِّي بعت ذهبي. لم أستطع تقديم المال بنفسي، وجدت ذلك غير مناسبٍ. أعطيت المال لوليد،

وقلت: «هدون منشان أحمد»، سألني «من وين جبتي المصاري؟»، قلت «كنت مخبية قطعتين ذهب لوقت الضيق، وإحنا اليوم بالضيق»، شاهدته يبكي، اختنقت كلماته وهو يقول: «ما بعرف شو بدي قول»، قلت: «ما تقول شي، المهم أحمد يرجع بالسلامة»، كنت أعرف أنَّ دموعه كانت ممزوجةً بإحساسَي الامتنان والعجز، وهي من المرَّات القليلة التي شعرت بالحزن عليه، والحزن على نفسي وعلى ما وصلنا إليه من أوضاع مزريةٍ.

عاد أحمد إلى المكان الذي اختار أن يشاركنا السكن فيه. عاد إلى ذلك المكان الضيِّق، الذي فيه بدأت الخلافات بالاشتعال بيننا، إنَّه صراع المنكوبين الذين لا يعرفون لماذا يتصارعون، أو أنَّ صراعاتهم هي متنفَّسٌ لتفريغ الشحن الكبير الذي يشعرونه داخلهم، إنَّه نوعٌ من الانفجار الذاتيِّ الذي يحتاج إلى آخر حتَّى يحدث، لا يستطيع المرء وحده افتعال هذا الانفجار بينه وبين نفسه. كانت شجارات الأولاد الأصغر هي فتيل شجارات الكبار، يتصارع الصغار ويصاب الكبار بالعدوى، يعود الأطفال الصغار للتصالح والنسيان واللعب معًا، والندوب تكبر في علاقات الأمَّهات الموجودات في المنزل بسبب هرب الرجال منه. لم يكن هناك حلٌّ لهذه المشكلة، كلَّما تحدثت مع وليد عن الاستقلال في شقَّةٍ منفصلةٍ، على الأقل نحن وعائلة منال، قال وليد: «كيف؟»، قلت: «بمساعدة أختي سمر»، تنهَّد ونظر إليَّ نظرةً حزينةً: «إذا دفعنا أجرة البيت، وماذا عن طعامنا؟» كنت أسكت، لأنِّي أعرف أنَّه يحتاج إلى الاستقلال أكثر منِّي، لأنَّ الهرب من المنزل أصعب من البقاء في المنزل مع مشكلات الأطفال، والشجار مع الأخريات، والعودة إلى الاعتذار المرَّة بعد الأخرى، لتستمرَّ الحياة في القفص الذي وجدنا أنفسنا محبوسين فيه. كنت أقول إنَّ المزيد من الجروح الصغيرة لن يضيف الكثير إلى الجرح الغائر، وأنَّ القليل من «فشة الخلق» لا تضرُّ، على العكس تساعد على الصمود والاستمرار في الحياة الصعبة، التي بلا أمل. للأسف قناعتي هذه لم تكن صحيحةً، لأنَّ الجروح الصغيرة تتراكم فتتحوَّل إلى

كارثةٍ، ويتحوَّل الشخص نفسه معها، وأحيانًا تصيب هذه الجروح أماكن حساسةً، فتأتي أخطر من الجروح العميقة، وتترك ندبةً في الروح أخطر بكثيرٍ من الندوب على الجسد. لم نخرج من تجربة العيش المشترك في الشقَّة الصغيرة كما دخلناها، خرجت بعلاقةٍ أقوى مع منال، وبعلاقةٍ فاترةٍ مع الأخريات. كان النزوح من بيوتنا مدمِّرًا، دخلنا العيش في مؤقَّتٍ جديدٍ، في الوقت الذي ولدنا مؤقَّتين في مكانٍ مؤقَّتٍ، ألفنا المخيَّم كمكانٍ لم نعرف غيره نحن الذين ولدنا لاجئين رغمًا عنَّا. كان الاقتلاع من مؤقَّتٍ شبه دائمٍ إلى مؤقَّتٍ محضٍ، هو دخولٌ في الانتظار حتَّى ينتهي هذا المؤقَّت، لا خطط لنا في الحياة المؤقَّتة، ننتظر الاستقرار حتى نضع الأهداف لحياتنا المستقرَّة، -نحن اللاجئين- حاولنا أن نصنع ثابتًا مؤقَّتًا، فوجدنا أنفسنا مقتَلَعين من جديدٍ. وعودةً إلى الأساس الأوَّل المكوِّن لحياتنا، من نحن؟ من أنا؟ عليَّ أن أعرف من أنا؟ حتَّى أواصل السير في طريق أظنُّ أنَّه مستقبلي. كلَّما اغتربنا أكثر زادت حاجتنا لمعرفة أنفسنا، فلا نعرف إلى أين نسير من دون ذلك، نحتاج للشعور بالانتماء إلى مكانٍ، إلى فكرةٍ، حتَّى نستطيع أن تكون لنا طريق نتبعها نحن العارفين لذواتنا. لا أعرف إذا كان الآخرون يعانون من المشكلة ذاتها عندما يعرفون الأماكن التي ينتمون لها. وأنا أكبر عرفت هويتي من دون أن أنتمي إلى مكانٍ، وعندما جئت إلى ألمانيا، عرفوني بأنِّي «بلا وطنٍ»، لم أغضب عندما عدُّوني بلا وطنٍ، فأنا لم أولد به حتَّى يُغضبَني إنكارهم لانتمائي إلى وطني الذي ولدت بعيدًا عنه، ودلَّني والدايَّ عليه، وعرفت أنِّي أنتمي إلى هناك. لم أشعر أنِّي بحاجةٍ إلى روايةٍ أخرى تؤكِّد للمحقِّق في سلطة الهجرة الألمانيَّة، أنِّي أملك تاريخًا آخر يقول إنَّ لي وطنًا مسلوبًا أنتمي إليه، حتَّى لو وُلِدتُ بعيدًا عنه. لم أكن أقوى على رواية حكايتي، فحكايتي في المنافي ابتلعت حكاية وطني الذي ورثته عن أبي وتنكره عليَّ سلطة الهجرة الألمانيَّة. ما فائدة الحكاية بعد رحلة العذاب الطويل التي عشتها وما فائدة الانتماء إلى مكانٍ لا أعرفه. خسرت المكان

الذي عشت فيه من دون أن أنتمي إليه. لم تكن هذه حالة أبي مع الهجرة السويسريَّة، أبي الذي عاد محطَّمًا عندما أنكر عليه المحقِّق انتماءه إلى البلد الذي وُلِدَ فيه، وأصبح إسرائيل بدلًا من فلسطين بعد ولادة أبي بعشرة أعوامٍ. لم يفهم المحقِّق السويسريُّ إصرار أبي أنَّه وُلِدَ في فلسطين التي ليست على الخريطة عندما لجأ إلى سويسرا، لم يفهم المحقِّق أنَّه بإنكاره ولادة أبي هناك، فهو لا يحطِّم حكايته فحسب، بل ويحطِّم حياته أيضًا، فمن أبي بلا حكايته وبلا جراحه التي حملها من فلسطين وبقيت تؤلم جسده لأكثر من سبعين عامًا من عمره؟ والمحقِّق حاول سلبه جراحه التي حكمت كلَّ حياته اللاحقة، سلبه الحكاية، يعني سلبه كلَّ حياته. لم تكن هذه الحكاية، حكايتي، بل خلفيَّتها. حكايتي كانت ألمي المولود من ألم أبي، ألمي الذي ترك آثاره على جسدي وروحي، اقتلاعي من بيتي وبالتالي من حياتي، لم أعرف أهميَّة الأمكنة للبشر قبل اقتلاعي من بيتي. قد نغادر أماكننا، إنَّها خياراتنا في الرحيل أو البقاء، وقد لا نعود، هذه قصَّةٌ مختلفةٌ عن الإرغام على الرحيل، مختلفةٌ عن الاقتلاع والطرد من المكان، بهذا الطرد تبدأ حياةٌ أخرى لا تشبه ما قبلها، نؤسِّس حياتنا على قواعد جديدةٍ، لم نكن نتوقَّعها قبل ذلك. هذا الذي بدأ عندي في صحنايا بعد خروجنا من المخيَّم، والذي لم أعيه سوى عندما ذهبت في لجوءٍ أبعد وأشدُّ قسوةً وصولًا إلى ألمانيا. فهمت حينها لماذا تشاجرنا على الصغائر في صحنايا، كان علينا أن نتشاجر، لا شيء هناك نفعله سوى أن نتشاجر، حتَّى نحطِّم بعضنا نهائيًّا، ونكمل ما لم تستطيع القذائف فعله.

مضت الأيَّام والأوضاع تسوء في البلد، وأوضاعنا تصبح أسوأ كلَّ يومٍ، يكبر أولادنا والبلد أصبحت بلا مستقبلٍ، حطَّمنا الغلاء أكثر من القذائف، ووليد لم يجد عملًا خلال كلِّ هذه الفترة. عندما أخذ أخي عدنان عائلته وغادروا البلد تهريبًا إلى ألمانيا، أعطاني بطاقة البنك التي تعود إلى تقاعد أبي الذي غادر إلى سويسرا قبله بحوالي عامٍ. لم يبقَ من العائلة في البلد سوى أنا

وأخي أحمد المحاصر في المخيَّم منذ عامين. أخي عامر ينتظر في تايلند إعادة توطين، لم يكن يعرف أين ستقوده، وأختي فاتن وعائلتها لحقت أبي إلى سويسرا بدعوةٍ من أختي سمر، وبدأت بإجراء معاملة لي للالتحاق بهم هناك، لكنَّ معاملة زيارتي رفضتها السلطات السويسرية. أراد الجميع الهرب من البلد بأيِّ طريقةٍ. تعقَّدت أوضاعنا، ابنتي بتول أنهت دراستها في المعهد التجاريِّ، نحن ما زلنا نعيش في ذات الغرفة. باسل ورولا اللذين تتابعا على الشهادة الثانوية ونحن نسكن صحنايا، كانا عبئًا ثقيلًا، عمليًّا لا مدارس ثانويَّة جيِّدةً قبل الإحداث، وجاءت الأحداث لتحطِّم ما تبقَّى من المدارس، ما عنى أنَّ على الطلَّاب الذين يريدون النجاح الالتحاق بالدراسة في المعاهد الخاصَّة، التي باتت مكلفةً للغاية، لكن لم يكن لدينا خيارٌ سوى استدانة المبالغ من أجل دراستهم. كلَّما تراكم علينا المزيد من الديون شعرت بالقهر من أين سنعيد هذه المبالغ المتزايدة، ومتى؟ كان السؤال يؤلمني طوال الوقت، وقد تعرَّضنا في كثيرٍ من الأحيان إلى مطالباتٍ باسترداد ديونٍ في أوقات لم يكن معنا فيها أيُّ مالٍ. ما كان يضعنا في مواقف مؤلمةٍ، صاحب حقٍّ يحتاج ماله الذي استدناه ونحن غير قادرين على سداده، ما يجعله يمطرنا بالشتائم والتهجُّم علينا في بعض الحالات، في هذه اللحظات أرغب أن تنشقَّ الأرض وتبتلعني. مطالبه محقَّةٌ ويحتاج المال للضرورة، وهو وقف معنا وقدَّم لنا المال في ظرفٍ صعبٍ، ونحن غير قادرين على سداده في وقته الصعب. الموقف مدمِّرٌ لنا وله. اللعنة على العجز، فلا شيء أسوأ منه، وعندما يجتمع مع الحاجة، يحوِّل حياتنا إلى جحيمٍ، ونحن اجتمع عندنا الحاجة والعجز، ولم نكن قادرين على سدِّ حاجاتنا، ولم نكن نعرف متى سنخرج من هذه الحفرة. حاول ابني باسل أن يجد عملًا لمساعدتنا في محنتنا، لم ينجح، البلد متوقِّفةٌ والأعمال متراجعةٌ، والدخول في تراجعٍ مستمرٍّ والأسعار في ارتفاعٍ جنونيٍّ.

عندما أسرَّت لي ابنتي بتول أنَّ حبيبها الذي لم أعرف عنه شيئًا قبل ذلك، غادر البلد قبل عامين إلى مصر، ومن هناك ذهب عن طريق البحر إلى ايطاليا ومنها إلى هولندا، وهو يريد خطبتها، ويقدِّم لها معاملة لمٍّ شملٍ هناك حتَّى تسافر عنده. فرحت لهذا الخبر السعيد، أخيرًا هناك شيءٌ ما إيجابيٌّ سيحدث في حياتنا. أخبرت وليد بذلك، فقال: «ما في مشكلة، بس خلينا نشوف الشب» أخبرت بتول عاطف، وهو اسم الشاب الذي يريد خطبتها، أنَّنا موافقون على زواجهما، وأنَّ والدها يريد أن يتعرَّف عليه. وافق الشاب واقترح أن يأتي إلى بيروت ونقابله هناك من أجل استكمال المراسم الشكليَّة، وبعد ذلك تجري بقيَّة المعاملات، وتغادر بتول إلى هولندا عندما تأتي موافقة لم الشمل. لم يوافق وليد على الذهاب إلى بيروت لمقابلة الشاب، بذريعة أنَّ الشاب يجب أن يأتي إلينا، ولسنا نحن من نذهب إليه. كانت حجَّةً واهيةً. والسبب الحقيقيُّ أنَّه لا يستطيع السفر لأنَّه ملاحقٌ بالتخلُّف عن الجيش هذا السبب الأوَّل، والسبب الثاني أنَّنا لا نملك المال لهذه الرحلة المكلفة. غضبت من السلوك الغريب لوليد مع الشاب، لم أفهم لماذا يضع الرجل العراقيل أمام زواج ابنته في زمنٍ عزَّ فيه العرسان. غضبت من الكلام التافه الذي قاله. قلت: «وليد اترك البنت تروح لنصيبها»، قال: «شو بتقصدي؟»، قلت: «ليش بتصَّعب الموضوع على الشب، أنا ما عبفهم؟!»، قال: «أنا ما عبصَّعب شي. أنا بعمل الأصول»، قلت وأنا أشدُّ على أسناني: «أي أصول يا بني أدم. صرنا سنتين عايشين عيشة الكلاب، وجاي هلأ لما إجى نصيب بنتك، بدك تاكل خرا وتتشرَّط؟!»، قال: «الأصول ما بتزعل، وأنا ما عمبعمل غير الأصول. شو بدهم يحكوا عنا الناس»، قلت: «شو هالأصول التافهة اللي بتحكي عنها. لو بتعرف الأصول، ما كان حالنا هذا الحال. لو بتعرف الأصول على الأقل كنت لاقيت شغل وصرفت علينا مثل البني أدمين. مش عامل بوز على الفاضي وإحنا ميتين من الجوع، يا أخي بطل تفاهة، وشي يوم كون زلمة، مش واحد شكلاني. شو بدهم يحكوا

علينا الناس؟ هذا سؤال يا فهيم. ليش في حدا من الناس شايف حدا، حتى خايف من كلام الناس. يعني اللي إحنا فيه، ما بجيب حكي الناس. شو دين ربك أنت؟! من شو مصنوع؟!»، أخذ يصرخ، ويقول: «هذا اللي رح يصير، وهلأ أنا مصرّ أكثر نكاية فيكي»، ضربت كفًا بكفٍ وغادرت الغرفة وأنا أقول: «الله يلعن الساعة اللي شفتك فيها. يا ريتني مت وما شفتك»، تمسَّك الشابُّ بطلبه يد بتول. وقال إنَّه مستعدٌّ للقدوم إلى سورية، بعد أن يتأكَّد من أنَّه غير مطلوبٍ للمخابرات، وبالفعل تأكَّد أهله عبر الواسطات، أن ليس له اسمٌ في قوائم المطلوبين. وفي اليوم الذي أتي الشاب من بيروت، وفي مبنى الهجرة والجوازات على الجانب السوري من الحدود اللبنانيَّة-السوريَّة، اعتقلته المخابرات، وقادته إلى السجن في أقبية المخابرات في دمشق. لم يظهر الشاب بعد ذلك، لقد بذل أهله الكثير من الجهد والمال من أجل معرفة مصيره من دون فائدةٍ. بعد ثلاثة أشهرٍ طلبت المخابرات منهم أن يستخرجوا شهادة وفاةٍ لابنهم من السجل المدني، لأنَّه توفَّى بأزمةٍ قلبيَّة في مكان توقيفه، وكلُّنا نعرف أن من يموتون عند المخابرات يموتوا بسبب التعذيب وليس بالأزمات القلبيَّة. كانت لعنةً وأصابتنا، تسبَّب إصرار وليد على صناعة مكانةٍ اجتماعيَّةٍ وهميَّةٍ لذاته باعتقال الشاب ومقتله في فروع المخابرات، وهو ما حطَّم ابنتنا بتول بفقدانها حبَّ عمرها الذي غامر بالعودة إلى البلد من أجلها وليس من أجل أيِّ شيءٍ آخر. عندما كان معتقلًا أملت بتول أن يخرج من السجن وتلتقي به، ويعودان إلى المكان الذي قرَّرا الذهاب إليه، بخاتمةٍ سعيدةٍ، لحبٍّ كبيرٍ عاشته من دون أن أنتبه. بعدما قُتِلَ في السجن، لم تعد بتول ذاتها بعد الخبر، لم تعد بتول المقبلة على الحياة، ولم تعد تنظر إلى المستقبل بالتفاؤل الذي كان يملأ حياتها رغم كلِّ الخراب الذي تعيشه البلد، موت حبيبها بسببها كما تعتقد، كسر كلَّ الأشياء الجميلة فيها، وحوَّلها إلى كتلةٍ من الحزن المتحرِّك، أصبحت جثَّة تسير على قدمين لا روح فيها، أخذ الحبيب بموته الروح معه، وبقي الجسد البيولوجيُّ

يتحرَّك. كلُّ محاولاتي لإخراجها من هذه الحالة باءت بالفشل، وعندما أخذت القرار بالفرار إلى ألمانيا، للنجاة بباسل من المحرقة المشتعلة في البلد، خوفًا من مصيرٍ مشابهٍ لما جرى مع عاطف خطيب بتول، كان تركها هي وأختها مع أبيها أصعب قرارٍ اتخذته في حياتي. لم تكن تلوم أباها على ما حدث، ولم تلم أيَّ أحدٍ أخر، لامت نفسها فقط، وتمنَّت لو قطعت العلاقة به، وتزوَّج من فتاةٍ أخرى، لكان أهون عليها ممَّا حدث، على الأقل كان تحطَّم حبُّها، وبقي حبيبها حيًّا، أمَّا وقد قُتِلَ عندما عاد ليضُمَّها إلى صدره وحياته، فهي الخسارة التي لن تسامح نفسها عليها.

زاد الموت المأساويُّ للعريس الذي كان يُفترض أن ينقذ واحدةً من أفراد العائلة حياتنا تحطُّمًا، حملت المزيد من الكراهية لوليد في داخلي، لم أكن قادرةً على نقاشه بما حدث، ليس للنقاش معه جدوى أصلًا، فهو لن يعيد الشابَّ إلى الحياة. شعرت أنَّه يحتاج لفتح الموضوع، حتَّى يدافع عن نفسه، ويخرج النار المشتعلة داخله، التي تزيد عندما يرى نظرات الاتهام التي أوجهها له، من دون اتهامه اللفظيِّ، الذي أتجنَّبه عندما يحاول التطرُّق له، وهو ما يزيد من اشتعاله. لم أرغب في منح وليد شعورًا بالراحة، لذلك لُذتُ بالصمت معه، لم أتكلم معه سوى الكلمات الضروريَّة. قادنا طوال حياته من فشلٍ إلى فشلٍ، وفي النهاية قادنا إلى كارثةٍ دمَّرت ابنتنا. طبعًا لم يُرِد وليد هذه النتيجة بقتل الشاب، ولم يتوقَّع هذا الاحتمال، لو عرف ذلك لتخلَّى عن عنجهيَّته الفارغة. بصرف النظر عن نواياه، فهو تسبَّب بقتل الشاب، وأنا لم أستطع أن أسامحه على ما فعله بالشاب وبابنتنا. ضاق البلد عليَّ أكثر فأكثر، بات جحيمه يلسعني في كلِّ وقتٍ، وبتُّ خائفةً على عائلتي أكثر من السابق. ويجب أن يحدث شيءٌ ما في حياتنا يكسر الحلقة المفرغة التي نعيشها في ذلك الجحيم. انصبَّ تفكيري على الفرار من البلد، ولكن كيف يمكن فعل ذلك، في ظلِّ الأوضاع الكارثيَّة التي نعيشها؟ فنحن لا نملك المال، إضافةً إلى أنَّنا مدينين للآخرين بالمال

وغير قادرين على تسديده لهم. وكلُّ المساعدات التي تأتينا، غير قادرةٍ على إخراجنا من الحفرة التي نحن فيها. جاء الفرج من أختي سمر التي لم يهن عليها وعلى زوجها، أن أبقى وحدي في البلد، بعد مغادرة الجميع، ولم يبقَ سوى أنا وأخي أحمد، وهو لا يستطيع الخروج من البلد لأنَّه لا طريق للخروج من هناك، كما أنَّه مطلوبٌ لفروع المخابرات، وخروجه يعني ذهابه إلى السجن، ووقتها لن يعرف أحدٌ مصيره. بعد فشل محاولاتها الحصول على فيزا لي، كما حصل مع فاتن، بقي أمامنا طريق التهريب، وهو ما لا أملك كلفته. جاء الاقتراح أنَّها ستتحمَّل كلفة خروجنا، أنا وابني والباقي يأتي لاحقًا، من دون أن تعطي وعودًا قاطعةً. قالت: «فكري بالموضوع»، لا حاجة للتفكير بالموضوع، إنَّه الفرج، رغم حالة بتول المحزنة، كانت أكثر المتحمِّسين لرحلتنا أنا وأخوها، أصبحت تريد للجميع الهرب من الموت المعشِّش في البلد. قلت: «وأنت يا ماما شو منشانك؟»، قالت: «ماما ما تخافي علي، ما عدت صغيرة، بعرف أدبِّر حالي. المهم إنتو تطلعوا من هون، ما بدي أخسر حدا فيكو»، كلامها جعلني متردِّدةً أكثر بتركها والخروج أنا وباسل، خفت من علاقتها مع أبيها، صحيح أنَّها لا تلومه، قد لا تفعل ذلك أمامنا، أمَّا بينها وبين نفسها تحمِّله المسؤوليَّة، وعند أوَّل صدامٍ، ستخرج كلُّ الكراهية تجاهه. لم يكن موقف رولا مختلفًا عن موقف أختها، فهي تريد لنا النجاة، سواءً استطاعت اللحاق بنا أم لا. كان وليد موافقًا من دون أن أسأله، بلَّغ قراره لباسل قبل أن يبلِّغني إيَّاه، وأنا في هذا الموضوع لم أكن لأستمع إليه، حتَّى لو رفض سفرنا، لكنَّه لم يملك ترف أن يقول لا أصلًا، في ظلِّ الأوضاع الصعبة والمذلَّة التي كنَّا نعيشها في تلك الغرفة البائسة في صحنايا.

شعرت بالراحة لأنِّي سأبتعد عن وليد، وأصابني الضيق لأنِّي سأبتعد عن بناتي، مؤلمٌ أن أنتزع نفسي من بينهن، وأذهب في رحلةٍ محفوفةٍ بالمخاطر، وليس معروفًا عنِّي الجرأة، رحلةٌ لا أعرف إن كنت سأصل إلى نهايتها أم لا؟

لم يكن اتخاذ قرار المغادرة سهلًا عليَّ. كنت متردِّدةً حتَّى وأنا استصدر جواز السفر لي ولابني الوحيد. يتحدَّث الجميع عن الخروج من البلد، لقد فتحت بعض الدول الأوروبيَّة أبوابها أمام اللاجئين السوريِّين بسبب الأوضاع الخطرة التي تعيشها البلد، وهذا ما شجَّع الكثيرين على الخروج، ولا حديث في البلد، سوى حديث الهجرة، وراج التهريب، ليس عبر الحدود فحسب، بل وداخل البلد أيضًا، وأصبح الجميع يعرف الطرق والأسعار والسماسرة الذين يقومون بالمهمَّة. وهذا ما بدأ قبل أن يهرب عدنان وعائلته، الذين سبقوني إلى هناك قبل ستَّة أشهرٍ. كان علينا أوَّلًا أن نتدبَّر رحلة التهريب الداخليَّة إلى الحدود التركية، عبر ثلاث محافظاتٍ، عبر دمشق، وعبر مناطق تسيطر عليها قوًى مختلفةٌ بعضها يعود للسلطة، وبعضها للجيش الحرِّ، وبعضها لداعش وبعضها لجبهة النصرة، وغيرها من الكتائب المسلَّحة التي نمت كالفطر في البلد. الغريب أنَّ هذه الرحلة التي تمرُّ عبر كلِّ هذه المناطق، كان المهرِّب يتعهَّدها من أوَّلها إلى آخرها، مهما كانت المجموعات المسلَّحة التي تسيطر على الطريق، أي أنَّ هؤلاء الذين يتحاربون فيما بينهم بالقذائف والرصاص، متفقين على تقاسم ما ندفعه من أموال للمهرِّبين الذين يعبرون بنا أراضيهم من دون أن يوقفونا سوى للتفتيش الشكليِّ. نحن المطرودين من البلد ندفع لهم ما يتقاسمونه ويستأنفون قتالهم ضدَّ بعضهم. في الرحلة المنهكة من دمشق إلى مدينة إدلب، لم أكن خائفةً على نفسي، اتبعت كلَّ التعليمات التي زوَّدنا بها المهرِّب، خفت أن يأتي ابني بأيِّ فعلٍ يجعلهم يأخذونه، أو يأخذونه من دون سببٍ، لكنَّ مخاوفي هذه المرَّة لم تتحقَّق كما يحدث دائمًا، بعد عشر ساعات من رحلةٍ عبر الحواجز المتعدِّدة، وجدنا أنفسنا أنا وباسل في مدينة إدلب على الحدود التركية. لم يكن تجاوز الحدود إلى تركيا صعبًا، لكن بسبب وعورة الطرق شعرت أنِّي أصبحت عجوزًا. تأمَّلت حياتي في السنوات الأخيرة، حتَّى قبل انفجار الأحداث، فقد كدت لا أتحرَّك إلَّا قليلًا وزاد وزني،

وتحوَّلت إلى شخصٍ سمينٍ إلى حدٍّ ما، كلُّ الذين حولي حذَّروني، وطلبوا منِّي الاعتناء بصحَّتي، لا سيَّما عندما تبيَّن أنِّي أعاني من ارتفاع ضغط الدم، والسمنة غير مناسبةٍ لهذا المرض. بسبب من هذا الوضع شعرت الطريق طويلًا جدًّا، استرحت على الطريق كثيرًا، وكلَّما استرحت كنت أسبِّب قلقًا لباسل، خاف أن يحدث معي أيُّ عارضٍ طبيٍّ ولا يعرف كيف يتصرَّف. شعرت أنِّي غير قادرةٍ على حمل نفسي، وشعرت حقيبة الظهر التي أحملها تزن طنًّا، تضغط على ظهري وصدري. عندما وصلت إلى الطرف الثاني من الحدود، كنت قد استنفذت قواي. ركبنا التكسي من هناك، حاولت التفاهم مع السائق بالإنكليزيَّة، فلم يفهم ما أقول. قال: «ليش بتحكي انكليزي؟ وأنا بحكي عربي» شعرت نفسي غبيَّةً، اتفقنا على الأجرة وانطلق بنا من بلدة الريحانيَّة القريبة حيث قضينا ليلتنا هناك، وهي أوَّل ليلةٍ أقضيها خارج سورية في حياتي. لم أفكِّر يومًا في مغادرة البلد، ولم يكن هذا واردًا في حياتي، فقدت الطموح في فترةٍ مبكرةٍ من حياتي، وغرقت في التفاصيل اليوميَّة حتَّى لا أفكِّر في المستقبل والطموح والأحلام، أحلامي وطموحاتي لم أخترها بنفسي فأهملتها وعملت ضدَّها، ولكنِّي لم أصنع أخرى بخياري الشخصيِّ، إنَّما ركنت للإهمال، وأصبح هو ردِّي على طموحٍ ومستقبلٍ لا أريدهما. خرَّبت مستقبلي كلَّه، لأنِّي لا أوافق على المستقبل الذي رُسِمَ لي. وأنا أغادر البلد في رحلة اللجوء، عادت حياتي أمامي كشريطٍ سينمائيٍّ أتأمَّله، يبدأ بالطفلة الذكيَّة، حبيبة الجميع التي ينتظرها مستقبلٌ باهرٌ، لأنَّها ابنة الشخصين العصاميين اللذين اخترعا حياتهما من العدم، ضدَّ كلِّ الظروف القاهرة التي اعترضت حياتهما. وأنا التي أعيش حياةً مريحةً لم يعرفها أبواي، وقد ورثت منهما إرادتهما وذكائهما، لا بدَّ من أن أكون طفرةً في إنجاز التفوُّق عليهما وهم سعداء بما أُنجزْ. وهو شيءٌ أصابني بالغرور وأنا طفلةٌ، وأصبحت أرى نفسي أفضَّل من الأطفال الآخرين، فما كان يفعله أهلي ليس تشجيعًا، بل نفخًا غير منطقيٍّ في أناي التي تضخَّمت بفعل المديح، وجعلت الآخرين

يتصاغرون أمامي. وهذا ما جعل أهلي يثقون بي ثقةً عمياء وأنا طفلةٌ، لذلك لم أقبل أن يكون أحد أفضل منِّي، ولا أصدِّق ذلك. وهو ما جعلني أتسبَّب في خلافٍ بين أهلي وعمَّتي، بقيت أثاره قائمةً لسنواتٍ طويلةٍ. كان ذلك، وأنا في الصف السادس، عمَّتي بيان إحدى المدرِّسات لصفي، كانت تدرِّسنا مادة الاجتماعيَّات. ودائمًا تعطيني العلامة الكاملة، ليست منحةً منها، إنَّما لأنِّي أستحقُّها، كنت دائمًا الأولى على صفِّي حتَّى ذلك الوقت. وفي أحد الامتحانات، تفوَّقت عليَّ إحدى زميلاتي بالصف، وكانت فتاةً في غاية الذكاء. هي لم ترتكب أيَّ خطأٍ في الامتحان الذي تقدَّمنا إليه في أحد الأشهر، أمَّا أنا فارتكبت خطأً ما جعل علامتي أقلَّ منها بنصف علامةٍ فقط. لم أقبل بالنتيجة، وعددت الموضوع تحيُّزًا من عمَّتي ضدِّي لمصلحة البنت. ذهبت إلى البيت وشكيت عمَّتي لأبي وأمِّي، لأنَّها أعطت زميلتي علامةً أعلى من علامتي مع أنَّها لا تستحقُّها حتَّى تجعلني الثانية في الصف، عمَّتي لا تريدني أن أكون متفوِّقةً. وشرعت في البكاء. كنت أعرف أنَّ ما أفعله كذبٌ، حاولت تبرير تقصيري قبل أن يعرفوا أهلي به، وهم الذين لا يرون أحدًا مثلي. كلُّ ما أردته هو تبرير خسارتي نصف علامةٍ، وبأنِّي لست أنا من أتحمَّل المسؤوليَّة عنها، إنَّما الظلم الذي وقع عليَّ ومنِ منْ؟ من عمَّتي. سارت الأمور أبعد من التبرير. صدَّق أهلي روايتي كاملةً، ولم يراجعوا عمَّتي بالموضوع. قال أبي: «بيان آخر من كنت أتوقَّع منها تظلم بنتي! هالشي ما رح يصير مرَّة أخرى»، كنت أدرس في مدرسة المنصورة القريبة من بيتنا، بينما أمِّي تعمل معلمةً في مدرسة الجاعونة البعيدة عن بيتنا والقريبة من منطقة الدوار. وقرَّر أبي وأمِّي أن أدرس في مدرسةٍ لا تدرِّس فيها أمِّي لأنَّ هذا أفضل لي، حتَّى لا يكون هناك محاباةٌ لي لأنِّي ابنة إحدى الزميلات. فكان أن درست في مدرسة المنصورة كلَّ سنوات دراستي، حتَّى الصف السادس. ذهب أبي إلى مدرستي وطلب أوراقي حتَّى أنتقل إلى مدرسةٍ أخرى، وكانت أمِّي قد تكلَّمت مع مديرة المدرسة التي تعمل فيها على

انتقالي، التي رحَّبت بالفكرة. عندما سألت المديرة أبي عن سبب نقل ابنته المجتهدة إلى مدرسةٍ أخرى، تحفَّظ على الحديث عن السبب، وقال: «بدنا إيَّاها بمدرسة أمها» وجهه المحتقن قال كلامًا آخر. قرأته المديرة ولم تستمرَّ في نقاشه. وعندما حضرت عمَّتي بيان إلى الإدارة وسألت أبي: «ليش يا خيا بدك تنقل بنتك؟»، قال: «ما في سبب، بمدرسة أمها أفضل الها»، لم يستطع أبي ضبط انفعالاته، ومن هذه الانفعالات فهمت عمَّتي أنَّها السبب في هذا النقل، لم تسأل أبي عن السبب، ولم تحرج نفسها في نقاش الموضوع، فهي لم تتوقَّع منه التعامل معها بهذه الطريقة، وهما الأصدقاء المقرَّبون، وهي التي عَرَّفته على زوجته ودعمت هذه العلاقة بكلِّ ما تستطيع. جرح أبي عمَّتي بهذا التعامل الجافِّ معها، فاستسلمت مباشرةً وقالت: «زي ما بدك خيا، هاي بنتك أول وآخر»، وخرجت من غرفة الإدارة. أعطت المديرة أوراقي لأبي، وفي اليوم التالي رافقت أمِّي إلى مدرستها. لم أتوقَّع أن تجري الأمور على هذه الشاكلة، ولم أعرف ماذا عليَّ أن أفعل بعد أن تسبَّبت في أزمةٍ كبيرةٍ بين أهلي وعمَّتي، الذين كانت علاقتهم قبلها على أفضل حالٍ. لم أستطع الاعتراف بأنِّي كذبت، وأنَّ عمَّتي لم تظلمني، إنَّما أنا من حاولت أن أغطِّي على تقصيري، فتسبَّبت بخلافٍ تسبَّب بجرحٍ حوَّل العلاقة الجيِّدة إلى علاقةٍ فاترةٍ وشبه خصامٍ. شعرت بالذنب تجاه عمَّتي التي لم تخطئ بحقِّي ورعتني كما رعت أولادها، لكنَّها لم تَنحَز لي عندما تفوَّقت عليَّ فتاةٌ أخرى، وهي نزاهةٌ تُحسَبُ لها، لكنِّي حوَّلتها إلى عيبٍ فيها. لم أكن قادرةً على الاعتراف بذنبي، نصف العلامة التي خسرتها كان تقصيراً يمكن تعويضه، فاقمته بذنبٍ أكبر بأنِّي افتريت على عمَّتي، والأسوأ أنَّ أبي وأمِّي صدَّقوني من دون أن يراجعوا عمَّتي، ما حول افترائي إلى خلافٍ عائليٍّ. خجلت من نفسي ومن أنانيتي، لم أعرف كيف أتصرَّف وأنا الطفلة التي لا تعرف أن تقرِّر أيَّ شيءٍ، وبقيت طوال عمري أشعر بالخجل من نفسي على تلك الصورة الكاذبة التي رسمتها لعمَّتي عند أهلي وصدَّقوها. كانت هذه

الحادثة انعطافًا حادًّا في حياتي، فحتَّى أكون ما يرغب أبي أن أكون، عليَّ أن أعدِّل صورتي، سواءٌ كنت أملك القدرة على تعديل هذه الصورة، أم أمارس الكذب حتَّى أكون تلك الصورة التي أرادها. عند هذا الانعطاف تزعزعت ثقتي العالية بنفسي التي نفخوها بي وصدَّقتها إلى عكسها، وأصبحت شخصًا لا يثق بنفسه على الإطلاق، ويخاف أن يتخذ قرارًا يؤذي الآخرين. بقيت مستسلمةً لرغبات أبي، في الوقت الذي نمت داخلي مقاومةٌ قويَّةٌ لهذه الصورة المستسلمة أمام رغبات أبي، كرهت ضعفي، وكرهت أبي، ولأنَّ رغبات أبي لم تعد رغباتي، ولم أستطع رفضها علنًا، أخذت أرفضها بتفشيل ذاتي بعدم الرضوخ له ولما يريده منِّي. انتقمت منه كما انتقمت من نفسي المستكينة. وعندما تمرَّدت، اخترت أسوأ طريقةٍ، وأوعر طريقٍ، أن أحطِّم مستقبلي كلَّه، وأتحوَّل إلى حسرة أبي وحسرة نفسي. لا أعرف لماذا عندما أدركت ما فعلته، لم أقف وأراجع نفسي وأعيد بناء حياتي من جديدٍ. لا أفهم لماذا استسلمت لخراب حياتي، مع أنِّي أملك من المؤهِّلات ما يجعلني قادرةً على التصرُّف على نحوٍ آخر. كنت أستطيع ذلك، لكنِّي استسلمت لفشلي، وتعاملت مع هذا الفشل بوصفه انتصارًا على نفسي قبل أن يكون على المحيط الصعب الذي عشت فيه. عندما سافرت تهريبًا إلى أوروبا أنا وابني، كانت الطريق تذهب في الجغرافيا تجاه ألمانيا، في الوقت الذي كان مرجل ذاكرتي يعود إلى دمشق ليستعيد حياتي هناك وأتأمَّلها، كأنَّها حياة شخصٍ آخر، ليست حياتي رغم أنِّي أذكرها جيِّدًا، كأنَّها ذاكرةٌ مستعارةٌ من أحدٍ غيري وحُمِّلت في دماغي، كما تحمَّل البرامج في أجهزة الكمبيوتر. شاهدت حياةً في غاية الغرابة، لا تستقيم مع أيِّ منطقٍ، طرقها المتعرِّجة، كان يمكن تصحيحها ببساطةٍ، لم أفهم لماذا لم أصحِّحها. ولم أفهم هذا الرفض العنيف الذي وُلِدَ داخلي، لكلِّ نصيحةٍ خارجيَّةٍ، مهما كان الشخص الذي يقدِّمها لي، وكأنِّي بتُّ أعدُّ كلَّ كلمةٍ تقال لي، تسعى للتحكُّم بحياتي، وعليَّ عمل عكسها على طول الخط. كأنِّي مبرمجةٌ على التدمير الذاتي المستمرِّ،

تدمير كلِّ صحيحٍ فيها. كما أنَّ هذا التذكُّر لم يدفعني باتجاه إعادة النظر في حياتي، والبدء من جديدٍ، حتَّى لو كنت وصلت ألمانيا وأنا في الخمسين من عمري. كأنِّي استسلمت لصورة المسكينة الحمقاء وسكنت فيها، فهي الصورة التي تسمح لي ألَّا أفعل شيئًا، سوى الانخراط طوال الوقت في بكاءٍ لا ينتهي على حالي البائس الذي لم أحاول إخراج نفسي منه، بل انتظرت الآخرين ليخرجوني. عندما رفض المهرِّب أخذنا مع مجموعاته لأنِّي سمينةٌ، أصبت بالصدمة، لم أكن بتلك السمنة التي يتحدَّث عنها الرجل، فقد كان وزني حوالي المئة كيلوغرام، ولم يكن هو المهرب الوحيد الذي رفض أن نغادر معه إلى اليونان. سألت نفسي لماذا تركت نفسي أصل إلى هذا الوزن، وهذا الشكل؟ ما الذي جعلني أعالج توتُّري بالأكل، حتَّى وصلت إلى ما وصلت إليه من وزنٍ وشكلٍ ونفسيَّةٍ؟ شعرت أنِّي تحوَّلت إلى عبءٍ على ابني باسل، وبأنِّي من يعطِّل انتقاله إلى الطرف الآخر من البحر، والذي سيجعله في أمانٍ نهائيٍّ بعد رحلة الخوف والرعب التي عشتها خوفًا عليه من الأوضاع المجنونة في البلد. كنت أواصل السير باتجاه ألمانيا وأنا أفكِّر بابنتيَ اللتين تركتهما هناك، ألوم نفسي على تركي لهما هناك والمغادرة؟! لم يكن لديَّ خيارٌ، ولم أكفَّ عن لوم نفسي لأنِّي السبب الذي أوصلهم إلى هذا القاع، لو كنت أمًّا أخرى، أو لو قرَّرت أن أكون أمًّا أخرى، لتغيَّر الوضع كلُّه. كنت أبني أوهامًا فوق خيباتي وفشلي، لم أملك ما أفعله سوى لوم نفسي، فهي الطريقة الأسهل للحصول على المزيد من البكاء الذي أصبح سلواي الوحيدة في السنوات الأخيرة. في النهاية وجدنا مهرِّبًا يأخذنا مع مجموعته مع زيادةٍ قليلةٍ في السعر. لم أكن خائفةً على نفسي في رحلة البحر، هذا لا يعني أنِّي لا أخاف، فأنا لا أعرف السباحة. غاب خوفي على نفسي، لأنِّي كنت خائفةً على باسل، الذي لا يعرف السباحة أيضًا. هذا ما جعلني طوال الطريق أردِّد أدعيةً، أرجو ربِّي أن ينجِّينا من الرحلة، فأنا لا أحتمل أيَّ كارثةٍ إضافيَّةٍ. لم يجرِ شيءٌ شاذٌّ خلال الرحلة، سارت بأفضل حالٍ، على عكس ما توقَّعت، لأنَّ

كلَّ شيءٍ في حياتي حصلت عليه بصعوبةٍ، وعندما لا يكون صعبًا أُصَعِّبه على نفسي.

وصلنا إلى جزيرة كوس اليونانيَّة بسلامٍ، سلَّمنا أنفسنا للشرطة اليونانيَّة التي نقلتنا إلى المخيَّم هناك، في انتظار نقلنا منها إلى منطقةٍ أخرى داخل اليونان. في المخيَّم قابلت رفيدة، وهي صديقةٌ قديمةٌ من أيَّام الدراسة الجامعيَّة، مع عائلتها، زوجها وطفلان بنتٌ وولدٌ في سنِّ المراهقة. في البداية، لم أتذكَّرها، مضى على آخر لقاءٍ بيننا أكثر من ثلاثين عامًا، لا أعرف كيف تذكَّرتني، قالت ملامحي لم تتغيَّر رغم الكبر الذي يظهر عليَّ، ورغم وزني الزائد، قالت ذلك على استحياءٍ. وقالت: «أنا بتذكرك كثير، أنت مرتبطة بذكريات الجامعة، وهي أحلى أيَّام حياتي، منشان هيك، بظلني أحكي على أيَّام دراستي كثير، وبحكي عنك، صديقتي اللطيفة واللي بتستحي»، أنا على عكسها، لا أحبُّ تذكُّر أيَّام الجامعة، كأنِّي حذفتها من ذاكرتي، فهي تسبِّب لي الألم لأنِّي لم أكمل دراستي فيها. عندما أخبرتها بأنِّي: «ما كملت دراسة، تركت الجامعة بالسنة الثالثة» فتحت فمها دهشةً، غير مصدِّقةٍ، وبصعوبةٍ قالت: «معقول؟ بتذكر إنك رسبت في تلك السنة، اعتبرتا عثرة وعادي بتتجاوزيها. رسمتلك صورة المهندسة الناجحة في حياة ما بعد الجامعة، ما خطرلي أبدًا إنك ما كملتي دراستك، مو هاي الصورة اللي عندي عن مستقبلك. زعلتيني. شو عملتي بعد هيك»، قلت: «اتجوزت واشتغلت بمعمل بعد ما تجوزت، وبعد كم سنة قعدت بالبيت أربي الولاد»، قالت مذهولةً: «أنت قعدتي تربي الولاد. أنا مو مصدقة؟!»، كنت أتكلَّم على نفسي وكأنِّي أتحدَّث عن شخصٍ آخر، شخصٍ لا أعرفه، جمعت عنه معلوماتٍ سطحيَّةً. عندما قالت لي: «أنت بتحكي عن ميرفت ثانية، ميرفت ما بعرفها. ميرفت اللي بعرفها مستحيل يكون هذا ما وصلت إلُه؟! أنا مصدومة. يا إلهي، معقول، أفضل وأذكى صديقة عرفتها في الجامعة، يكون هذا مصيرها؟! بترجاكي قولي شي تاني»، أعادتني رفيدة إلى صورتي في

سنواتي الجامعيَّة الأولى، الفتاة المؤدَّبة التي جاءت إلى الكليَّة، لأنَّها تريد صناعة مستقبلها، حتَّى لو كما يريده الآخرون، وهي تحتاج إلى أصدقاء وصديقاتٍ جدد، كانت رفيدة واحدةٌ منهن وأطيبهن. لم أعرف كيف أشرح لها ما جرى لي، قلت: «أنا عملت بحالي هيك. بعرف إنك رسمتي إلي صورة الحالمة والطامحة، بس هذا الحلم ما كان حلمي وما كان طموحي، وبدل ما أعدل طموحي ليصير تبعي، وأبدل الحياة لتكون حياتي، رحت لبعيد وحطَّمت حياتي، ما بعرف ليش عملت هيك؟ ما بعرف من وين إجت هاي العدوانيَّة تجاه حالي؟ فجأةً، ما عدت راضية عن حالي، وما عدت راضية عن شي أبدًا. صارت مهمتي في الحياة، تحطيم حياتي. أوَّلها كان قراري بالزواج من شخص تافه. وبس عرفت تفاهته ما وقفت عن تعذيب نفسي بوقف المهزلة، وأبدأ من جديد. بقيت أعاقب نفسي لليوم. طلعت من البلد وأنا متزوجة نفس الرجل، اللي ما قصَّر في إفساد حياتي وحياته وحياة ولادنا. إذا سألتيني ليش ما تركتيه؟ ما عندي تفسير، ما عندي جواب، في شيء جواتي بعاقبني على شيء ما بعرف إذا ارتكبته أم لا؟»، انهمرت دموعي فجأةً، شعرت أنِّي أبكي على كلِّ حياتي. قامت رفيدة، التي تجلس قبالتي على مقعدٍ في حديقة المخيَّم الذي نقيم فيه، وجلست إلى جانبي وحضنتني، وقالت: «يا الله يا ميرفت، والله دايمًا كنت بتصوَّرك قصة نجاح، ما خطر على بالي إنك قصة حزينة لفتاة حساسة»، كانت حشرجة البكاء واضحةً في صوتها، عندما انتهت من جملتها، انفجرت بالبكاء، وأنا تحوَّل بكائي الصامت إلى عويل. ذكَّرتني رفيدة بأنِّي يومًا ما كنت امرأةً أخرى، امرأةً بمستقبلٍ واعدٍ بنظر الآخرين على الأقل، أو بنظرها كصديقةٍ، بكيت على حالي، بكيت من أجل تلك الفتاة التي كنتها في بداية حياتي الجامعيَّة، والتي غادرتها ولم أستطع العودة إليها، نسيتها ورضيت بصورة ربَّة المنزل المستسلمة لقدرها الذي صنعته بيدها. ليس من الجيِّد دائمًا أن نتذكَّر أنَّ حياتنا كانت أفضل في يومٍ ما، ليس لأنَّ الذكرى تشير إلى فشلنا في صناعة حياتنا، بل لأنَّها

تجعل حياتنا القاتمة أكثر ألـمًا، فعندما يطول فشلنا، نقرُّ به ونتعايش معه، ويصبح واقع حياتنا العادي. وعندما نعود لنتذكَّر أنَّنا كنَّا قادرين على تغيير حياتنا قبل سنواتٍ طويلةٍ جدًّا، نشعر بالألم، ويعود الفشل ليصبح مؤلـمًا بعد اعتيادنا عليه. أعطاني اللقاء مع رفيدة دفعًا قويًّا لمزيدٍ من تأمُّل حياتي ومساراتها، أعادتني أحاديثنا إلى أيَّامي الجامعيَّة، والتي لا أتذكَّر متى توقَّفت عن الحديث عنها. أحبَّت رفيدة الحديث عن تلك الأيَّام التي تعدُّها الأجمل في حياتها، كما كان هربًا من الألم الذي عاشته في سنوات الحرب الأخيرة، وهي المهندسة التي تخرَّجت بتفوُّقٍ، ونجحت في عملها في وزارة الكهرباء، بفضل عملها وليس بالواسطة. والتي وجدت حياتها تنهار، وهو ما حدث بعد اعتقال محمد زوجها الطبيب، ليقضي عامين من التعذيب في أقبية المخابرات لأنَّه ضمَّد جروح أحد المتظاهرين، أسعفه آخرون إلى عيادته في جديدة عرطوز، بعد اشتباكٍ قريبٍ من عيادته، لم يسأل الجريح عن اسمه، ولم يعرف إلى أيِّ جهةٍ ينتمي؟ أدَّى واجبه كطبيبٍ بإسعاف جريحٍ لينقذه من الموت. كان الجريح ينتمي إلى الجيش الحرِّ، واعتُقِل مع شخصٍ آخر في الليلة التالية لوجوده في العيادة، وتحت التعذيب اعترفا أنَّ محمد هو الذي أسعفه. اعتقلته المخابرات بتهمة تحويل عيادته إلى مشفًى ميدانيٍّ للإرهابيِّين. أخذوه من عيادته، بحثت هي وأهلها وأهله طويلًا عنه واستعانوا بضبَّاط أمنٍ لمساعدتهم، ولم يستطيعوا أن يعرفوا شيئًا عنه، سوى أنَّه معتقلٌ لدى فرع أمن القوى الجويَّة، وهو جهاز الأمن الأسوأ والأكثر وحشيَّةً في البلاد. لم يعرفوا أيَّ شيءٍ عنه خلال فترة اعتقاله، ولم يستطع أحدٌ زيارته، وعندما أَطلَقوا سراحه، كان قد تحوَّل إلى شبحٍ تمامًا. ذلك الطبيب الطويل الوسيم الذي يتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدةٍ، والذي يبلغ وزنه مئة كيلوغرام يتلاشى، عظامه ناتئةٌ، شاحب الوجه، وزنه لا يزيد عن خمسين كيلوغرام، عيناه زائغة، يرتجف طوال الوقت قالت رفيدة: «لما شفته أوَّل مرَّة ما عرفتُه، كان بشبه جثَّة طالعة من القبر، ما صدقت

هذا محمد، حسيت في شي غلط. سنتين من رعب الانتظار، أكلني الشك، إتخيلت ألف مرَّة أنُه ميت، أبعدت الفكرة عن راسي بصعوبة، كل يوم أسأل حالي، محمد عايش ولا ميت؟ ولما تجي أخبار جديدة عن أموات جدد بين المساجين بفروع المخابرات، أتطلع بأولادي وأدعو الله أن محمد يكون بخير بحسنة هؤلاء الأطفال، منشان ما يتربوا أيتام في زمن صعب. لما شفت محمد أوَّل مرَّة بعد ما طلع من الحبس، حسيت أنُه ما رح يعيش وهو بهذا النحف. مو بس جسمُه كان ضعيف وواهن، وروحُه كانت مكسورة، خايف من كل شي، حتَّى منِّي، محمد اللي طلع من الحبس ما بشبه محمد اللي فات على الحبس بشي. كان بدُه متابعة طبية حتى ترجعلُه صحتُه، خفنا نوديه على المشفى، ونرجع للسين والجيم من جديد. بس عرفُوه رفقاتُه الأطباء قاموا باللازم، جابوا كل المعدات اللازمة للبيت وأشرفوا عليه بالبيت، من البداية احتاج لسيروم حتَّى يرجع جسمُه يتوازن، ما كان قادر على الأكل ولازم يتمرن من جديد عليه حتَّى تتقبلُه معدته. في كثير من الليالي كان بصرخ مرعوب وهو نايم، ما يفيق، بس يصرخ. أفيقُه أنا، يقوم مرعوب وخايف مني. اتركُه يرجع ينام، وأقعد أبكي عليه وعلى حالي. أسأل حالي، أي جهنم عاش فيها محمد في أيام حبسه وأي عذاب شافُه لحتى ما بروح منُه حتى وهو نايم. بعد شي أسبوع بديت صحتُه تتحسن شوي شوي. صارت عضلاته الضعيفة تبني حالها، صار ياكل أحسن من الأول، وما عاد الأكل بسببلُه وجع مثل أول. بس ما كان قادر يحكي شي عن اللي صار معُه بالسجن. جسمُه رجع يصح من جديد، بس نفسيتُه لا، ما تحسنت، خايف كل الوقت، عيونُه بدوروا على شي مو قادر يلاقيه، بدور على اللي بخوفو بزوايا الغرفة، بالأغراض، حتى بوجوهنا، إحنا، أنا وولادُه وأهلُه وأهلي. لما سألته: «شو صار معك بالحبس؟»، قال: «ولا شيء» ويروح يبحبش حولينا إذا حدا سمعنا. من لما شفتُه على هاي الحالة، قرَّرت ما نبقى في البلد، بس تتحسن صحته، رح آخذه مع الأولاد ونترك البلد من غير

رجعة. ما رح أرجع إلها، ما رح أرجع للمكان اللي حطَّمنا، وعملنا كل هاي الجروح والوجع اللي ما رح نقدر نخلص منُه طول عمرنا الباقي. وها إحنا وصلنا هنا زي ما أنت عارفة»، استمعت بكلِّ انتباهٍ، استمعت بدهشةٍ، وعجزت عن قول أيِّ كلمة عزاء لها، ما سمعته منها أعرف أنَّه يحدث في البلد، كنت أرى كارثةً أمامي يمكن أن تكون كارثتي، لأنَّ أحد أفراد عائلتي كان في المكان الخطأ والزمان الخطأ، ما يمكن أن يسبِّب كارثةً لأيِّ عائلةٍ تسكن في ذلك البلد المشتعل. حزنت من أجلها ونزف قلبي، ولأنِّي لم أستطع قول أيِّ كلمةٍ، قمت باحتضانها، وبكينا على أوضاعنا المزرية، التي لم تكن من صنع أيدينا هذه المرَّة. أصبحت كلَّما أصادف محمد يتأمَّل الفراغ على تلك الجزيرة اليونانيَّة، أشعر بالحزن عليه وعلى رفيدة وعلى نفسي، وأسأل نفسي، أيُّ جرمٍ ارتكبناه حتَّى نستحق هذا المصير؟!

لم تطل إقامتنا في الجزيرة اليونانيَّة، بعد أيَّامٍ نُقِلنَا إلى أثينا، ومن هناك، كان علينا أن نكمل طريقنا، وكان عليَّ أن أصل إلى بيت أختي سمر التي انتقلت إلى مسكنٍ جديدٍ في ألمانيا على الطرف المقابل لبازل حيث يسكن والديَّ، سكنت بمحاذاة بازل حتَّى تبقى قريبةً من أمِّي وأبي الذين حصلوا على إقامة اللجوء في سويسرا، وهم ممنوعين من مغادرة سويسرا بموجب قوانين الهجرة السويسريَّة، التي تمنع اللاجئين من مغادرة البلد. والبيت الذي سكنته لا يبعد أكثر من عشر دقائق في السيَّارة عن البيت الذي سكنه أبي وأمِّي في بازل، انتقلت إلى المكان الجديد لأنَّ ألمانيا أرخص من سويسرا بكثيرٍ، ما جعلهم يستأجرون بيتًا أكبر بسعرٍ أقلَّ، كما قدَّرت هي وزوجها، أنَّ الدراسة في ألمانيا أفضل للأولاد، وحان الوقت ليدخل ابنهم البكر المدرسة، ما عجَّل باتجاه خيار الانتقال، رغم بقاء عمل زوجها في سويسرا.

كان علينا أنا ورفيدة أن نفترق من أجل إكمال طريقنا، وقبل أن نفترق، نصحنا أكثر من شخصٍ في أثينا بالتخلُّص من وثائق سفرنا، إذا أردنا

أن ننجح في مغادرة أثينا. وعندما اتصلت أختي سمر، سألتها إن كنت أستطيع أن أرسل وثائق السفر التي تعود لنا بالبريد إلى عنوانها. قالت لا مانع لديها. وقبل أن أذهب إلى مكتب البريد لأرسل وثائقنا. سألتني رفيدة عن وجهتي، قلت: «بدي أبعث وثائق سفرنا لعند أختي»، سألتني: «بقدر أبعث جوازاتنا معك، لأنُه ما بعرف حدا أبعثهم عندُه؟»، قلت: «ما في مشكلة، جيبيهم»، وضعت وثائق سفرنا وجوازاتهم في مغلَّفٍ بريديٍّ بعد أن كتبت عنوان أختي، ذهبت وأرسلتهم من مركز البريد. لم أعرف أنَّ بفعلي هذا أرتكب حماقةً وكارثةً بحقِّ نفسي وحقِّ أختي التي لم تتحمَّل تكاليف قدومنا إلى ألمانيا فحسب، بل وستتحمَّل إقامتي عندها أكثر من عامين بانتظار إقامتي التي تأخَّرت في دائرة الهجرة، بسبب الفعل الكارثيِّ الذي قمت به أيضًا، والذي بقيت أخجل منه طوال إقامتي عندها، وحتَّى الآن.

عندما أرسلت الوثائق مع الجوازات، لم أتصوَّر أنَّ هذه الوثائق سيُتَعرَّف عليها كوثائق سفرٍ من خلال المسح الضوئيِّ للبريد. وعندما أضفت جوازات عائلة رفيدة لم أسأل أختي، هل أستطيع إرسالها؟ عددت أنَّ موافقتها على أن تستقبل وثائقنا، فلن يُغيِّر شيئًا أن أضيف جوازات سفر عائلة رفيدة. ولم يخطر لي أنَّ هذه الإضافة، ستحوِّل أختي سمر من امرأةٍ تساعد أختها وابنها على اللجوء، إلى امرأةٍ تعمل بالتهريب مع هذه الكميَّة من جوازات السفر. وصلت أنا وابني إلى بيت أختي في ألمانيا بعد أسبوعٍ من مغادرتنا مدينة أثينا، لكنَّ الوثائق لم تصل. بعد أيَّامٍ عدَّةٍ، سألت أختي: «ما وصلت الجوازات؟»، قالت: «لا. ما وصلت»، قلت: «غريب، مع إنُه صرلي أكثر من أسبوعين باعثيتهم»، قالت: «معناه صار لازم توصل، إلا إذا كنتي كاتبه العنوان غلط؟»، قلت: «أبدًا، نقلت العنوان حرف، حرف. حتى رفيقتي اللي بعثت جوزاتها بنفس المغلف، تأكدت من العنوان»، فتحت سمر عينيها وسألت: «شو قلتي؟ بعثتي جوازات مين؟»، قلت: «بعثت أربع

جوازات لعائلة رفيقتي»، انفجرت كالبركان: «كيف بتعملي هيك من دون ما تسأليني؟! شو أنت حمارة؟ ما بتفهمي؟ شو أعمل يا ربي أنتف حالي. لك شو اللي خلاكي تعملي هيك؟»، قلت: «مرة مسكينة وجوزها مريض، قلت بساعدهم. شو عملت؟»، قالت وهي ترتجف: «شو عملتي؟! ما بتعرفي شو عملتي؟ عملتي لي مصيبة. بدك تاكلي خرا وتساعدي الناس اسأليني، أنت شو عملتي بحياتك غير المصايب. يلعن دينك ودين الساعة اللي شفتك فيها»، خرجت من الغرفة وصفقت الباب خلفها. قلت لنفسي: «معها حق، أنا ما عملت بحياتي غير المصايب، وهلأ ما بعرف شو صار؟ بس، بعد الكلام اللي سمعتو ما فني ظل ببيتها»، لم يكن ابني باسل في البيت عندما انفجرت سمر في وجهي، وهو ما خفَّف وقعه عليَّ. عندما عاد باسل إلى البيت في المساء، وجدني أجمع أغراضنا، وقلت له: «لازم نمشي من هون، ما لازم نظل عند بيت خالتك»، سألني: «ليش؟» قلت: «من غير ليش، ما عاد إلنا قعده هون»، قال: «طيب، فهميني، شو صار؟ اتخانقتي أنت وخالتي؟»، قلت: «لأ، بس أنا ما عاد بدي ظل هون»، قال: «زي ما بدك، بس ما بعرف وين بدنا نروح، غير على الكامب؟»، قلت: «على الكامب، ببقى أفضل»، لم يجادلني باسل، لقد قرأ وجهي جيِّدًا، كنت مصدومةً، ليس من ردَّة فعل سمر، فحسب، بل من سلوكي نفسه، أصبحت أشعر بالعار تجاهها، لم تقصِّر في أيِّ شيءٍ تجاهنا، وأنا أسبِّب لها المشاكل، خجلت من نفسي. لم يكن مناسبًا أن نخرج من دون أن نُبلِّغ سمر. قلت لباسل: «روح وقول لخالتك، إحنا ماشين»، قال: «حاضر»، غاب حوالي خمس دقائق وعاد هو وسمر. وقفت سمر قبالتي، نظرت في عيني، لم أستطع النظر في عينيها، قالت: «باسل بقول بدكم تمشوا، صحيح؟»، قلت: «صحيح»، قالت: «ليش بدك تمشي، منشان اللي صار الظهر؟»، قلت: «خلص، ما بدي أحكي بالموضوع، بدي أمشي»، قالت: «وين بدك تمشي، ولأيمتا بدك تظلك تهربي من مشاكلك. خايفة باسل يعرف اللي صار. بعدك بتخافي بعد كل الخراب

اللي صاب حياتك والبلد»، قلت: «أنا ما بدي أحكي بالموضوع»، قالت: «بس أنا بدي أحكي. وقدام باسل. ما عاد في شي يتخبا. أولًا، أنا أسفه على اللي قلتلك إياه الظهر، طلعت عن طوري. ثانيًا طلعة من هذا البيت ما في. وخلينا نفكِّر، شو نعمل بالمصيبة الجاي»، نظرت إلى باسل وقالت له: «خالتي، رجع الأغراض محلها، وخذ أمك ومشيها شوية برا»، شرع باسل في إعادة الأغراض إلى مكانها السابق، وغادرت سمر الغرفة، وشرعت أنا في البكاء. لم يطل الأمر حتَّى حصل ما توقَّعته سمر، أتى تبليغٌ من المحكمة لي ولسمر، حتَّى نراجعهم بشأن دعوى مرفوعةٍ ضدَّنا، بأنَّنا نعمل في تهريب البشر إلى ألمانيا، صالح زوج سمر طمأنها، بألَّا تخاف، فليس هناك ما يمنع مساعدة أختها وابنها، وأنَّ خطأ إرسال جوازات سفر الآخرين، لن يغيِّر في الموضوع شيئًا، لكنَّه سيؤخِّر قرار إقامتي حتَّى تنتهي القضية. لكنِّي أنا وسمر لم نطمئن، وعددنا أنَّ ما يقوله صالح، ليس أكثر من التخفيف عنَّا، لتحمُّل ما يخبِّئه المستقبل. أصبحت عاجزةً عن النظر في عيني صالح وسمر، وباتت سمر مشغولةً، في كيفيَّة طمأنتي، فهي اقتنعت في النهاية، أنَّها لن تتضرَّر بشيءٍ، فهي ألمانيَّة الجنسيَّة، وستتعرَّض لبعض الإزعاجات والمراجعات والتحقيقات فقط لا غير. أمَّا أنا كلَّما مرَّ وقتٌ أطول أُصَاب بالرعب، فأنا أحتاج للإقامة، حتَّى يصبح وضعي شرعيًّا في ألمانيا وأستطيع الخروج من الدائرة المغلقة التي أعيش فيها. ارتحت عندما حصل ابني باسل على الإقامة بعد ستَّة أشهرٍ من وصولنا، وخلال هذه الفترة، عمل صالح على جلب ابنتي رولا إلى ألمانيا، مع بيت عمِّه القادمين من سورية عن طريق التهريب أيضًا. ابنتي التي حضرت بعد 6 أشهرٍ من قدومي، حصلت على الإقامة في ألمانيا، وتزوَّجت بعد حوالي ستة أشهرٍ من شابٍّ يعيش في فرانكفورت، وأنا بقيت أنتظر الإقامة، التي لم أحصل عليها سوى بعد انتهاء محاكمتنا أنا وسمر، التي انتهت ببراءتنا من التهمة المذكورة، ما فتح المجال أمامي للحصول على الإقامة.

ظننت بوصولي إلى ألمانيا ستختلف حياتي، أو على الأقل ستختلف أشياء كثيرةٌ فيها، وآخر ما كنت أتوقَّعه أن أبدأ حياتي هنا، بهذا السلوك الكارثيِّ. صحيح أنَّه لم يكن خطأً مقصودًا، لكنِّي دفعت ثمنه غاليًا مثل كلِّ الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي، دفعت ثمنه أكثر ممَّا يستحقُّ. لم يكن الثمن الوحيد هو تأخير إقامتي أكثر من عامين على وصولي، فهذا كان أقلَّ الأثمان بالنسبة لي. الثمن الأكبر كان بقائي أعيش في بيت أختي كلَّ هذه الأيَّام، ليس لأنَّها قصَّرت في حقِّي، بل على العكس، لأنَّها لم تقصِّر هي وزوجها معي ومع عائلتي، رغم الحماقة التي ارتكبتها. صحيحٌ أنَّ سمر انفعلت في البداية، لكنَّها سرعان ما هدأت، وأخذت تُهدِّئ من روعي، وتقول: «كل شيء رح ينحل» في الوقت الذي سامحتني سمر على حماقتي، لم أكن أنا نفسي قادرةً على مسامحة نفسي، لما فعلته معها، أو لما تسبَّبت به من ألمٍ لها، هذا ما عزَّز عدم ثقتي بنفسي، وبأنِّي غير قادرة على القيام بأقلِّ الأشياء أهميَّةً من دون أن أرتكب خطأً يسبِّب إزعاجًا أو كارثةً لمن أحبُّ. وعدت للقيام بالأشياء التي لم أكن أنوي القيام بها، قدَّمت طلبًا للمِّ شمل زوجي، وقد صدرت الموافقة عليه، وأنا أنتظر قدومه، في الوقت الذي سيترك ابنتي بتول وحدها في جحيم دمشق.

الفصل الثالث:
الهرب المستمرُّ
(عامر خليل أحمد خليل)

لا أعرف كيف أنظر إلى حياتي، عندما أحاول تذكُّر موقفٍ ما، أجد مواقف أخرى تفرض نفسها، أحار في الإجابة على سؤال ما هي البداية الحقيقيَّة لحياتي؟ هل هي لحظة الولادة؟ هل هي لحظة تمرُّدي على أبي؟ هل هي لحظة استقلالي عن العائلة؟ هل هي لحظة تركي لدراستي؟ هل هي لحظة انفجار الصراع في البلد؟ هل هي لحظة مغادرة المخيَّم؟ هل هي لحظة مغادرة البلد؟ هل هي لحظة وصولي إلى نيوزيلاندا؟ أستطيع طرح أسئلةٍ لا تنتهي، لكنَّ كلَّ هذه الأسئلة وإجاباتها لن تحدِّد البداية الحقيقيَّة لحياتي، لأنِّي أظنُّ ليس للإنسان بدايةٌ واحدةٌ في حياته، هناك بداياتٌ، وكلُّ بدايةٍ تجعل الحياة مختلفةً بعدها، وقد يكون كلُّ يومٍ بدايةً. لا أقول هذا لأنِّي أعرف حياتي جيِّدًا، على العكس، أقول هذا لأنِّي مرتبكٌ في فهم حياتي، كما عشتها مرتبكًا، ويبدو أنَّ ارتباكي في فهم حياتي، يأتي من ارتباكي في الحياة ذاتها.

تعلَّمت الحياة بصعوبةٍ، هذا إذا كنت تعلَّمتها فعلًا، وحقيقةً لا أعرف إذا كنت تعلَّمتها أم لا؟ لأنِّي عندما أنظر إلى حياتي السابقة، أنظر إليها كغريبٍ، هل حقًّا عشت هذه الحياة، أم أتصوَّر أنِّي عشتها وما هي سوى خيالٍ عندي لا وجود له في الواقع؟ هناك شيءٌ كبيرٌ حدث بوصولي إلى

نيوزيلاندا، لا رغبة في الحياة، ماتت الحياة داخلي في هذا المكان. انتظرت عامين قاسيين حتَّى وصلت إلى هنا، كنت أظنُّ أنَّ الوصول يعني ختام رحلة العذاب. تبيَّن لي أنَّ رحلتي في العذاب لا تنتهي، ولا أعرف إذا كانت الحياة شيئًا غير رحلة في العذاب. كلُّ مرَّةٍ أظنُّ أنِّي أدخل مرحلةً جديدةً لأترك متاعبي القديمة ورائي، أجد نفسي أدخل متاعب أسوأ من السابقة. صحيحٌ أنَّ الحياة لا تقدِّم نفسها بسهولةٍ، وأنا أيضًا لا أعرف كيف أمسك بها، ودائمًا ما تتسرَّب من بين أصابعي. حتَّى في الأوقات التي ظننت أنِّي أقبض عليها بقوَّةٍ، تبيَّن أنَّ قوَّتي واهنةٌ، ولا أمسك سوى بأوهامٍ أخلقها بنفسي ولنفسي، أخاف من التحدُّث حولها مع الآخرين، ليس لأنِّي أخاف عليها، أو لأنَّها لا تستحقُّ الحديث، بل لأنِّي غير واثقٍ من نفسي، غير واثق من أنِّي أستطيع الدفاع عن نفسي وعن أفكاري أو أوهامي، لأنِّي تربَّيت وربَّيت نفسي على إرضاء الآخرين، أقول ما يرغبون سماعه منِّي، وليس حقيقة ما أعتقد. أخاف من إغضاب الآخرين فيما أقول، لذلك عندي لازمةٌ أكرِّرها مع الجميع «معك حق...» وأتابع بقول ما يريد مستمعي أن أقوله، مع أنَّ ما أحمله من أفكار خاصَّةٍ، لا يتعارض مع ما يريد هذا الشخص سماعه منِّي، حتَّى لو كنت مختلفًا معه بالمطلق، لا يعني أنَّ هذا الاختلاف سيغضبه. اتقاءً لأيِّ سوء فهمٍ، كنت أفعل ذلك حتَّى تحوَّل هذا الشكل من إدارة الحديث مع الآخرين إلى عادةٍ وطبعٍ عندي، إرضائهم حتَّى لا أصطدم معهم.

لا أعرف كيف وصلت إلى ما أنا عليه، عندما أفكِّر في حياتي، أجدها طبيعيةً، وحدث فيها شيءٌ غيَّرها، ما هو هذا الشيء ومتى حصل؟ أنا غير قادرٍ على تحديده وتحديد وقت انقلاب حياتي بدقَّة. لكن الأكيد لم يكن ذلك في طفولتي، أظنُّ أنِّي عشت طفولةً سعيدةً، وكلُّ التعقيدات في حياتي جاءت بعد ذلك.

ولدت خلال حرب حزيران 1967، وفي اليوم الثالث منها تحديدًا، وهي الحرب التي لم تستمرَّ سوى ستَّة أيَّامٍ. ولدت عندما كانت إذاعة دمشق تبثُّ بياناتٍ الانتصار وبدء تحرير فلسطين. لقد أسقط الجيش السوريُّ مئةً وخمسين طائرةً لإسرائيل ودمَّر الكثير من القوَّات الإسرائيليَّة خلال اليومين السابقين. وفي اليوم الذي ولدت فيه كانت القوَّات السوريَّة تحرر الأراضي الفلسطينيَّة، وتتجه إلى مدينة صفد لتلتقي هناك بالجيش الأردني، وفق ما قالت إذاعة دمشق. «يوم ولدتك، كانت أحلى بشارة، باليوم اللي ولدت فيه، كان الجيش عبحرر صفد، يعني بلدي الجاعونة قضاء صفد. أنت اجيت بأجمل يوم، يوم تحرير بلدي من اليهود. تمنيت أبوك يكون معنا، لنحتفل بمناسبتين حلوين. بس الوهم ما طول، وحبل الكذب قصير، طلع كلُه حكي بحكي، كذب بكذب. ما لحقنا نفرح، حتَّى بلشنا نبكي على اللي صار. بدل ما نحرر البلاد راحت بلاد ثانية، والقهر صار قهرين»، هكذا روت لي أمِّي لحظة ولادتي. احتفالات أمِّي بتحرير بلدتها وبالانتصارات على إسرائيل وبولادتي، لم تطل أكثر من أيَّامٍ. الفرحة الكبيرة باجتماع الأشياء الجميلة، سرعان ما أخلت مكانها للخيبة والحزن والإحباط. الطفل الذي وُلِدَ في لحظة النصر، تبيَّن في الحقيقة أنَّه ولد في لحظة الهزيمة، وبدل التحرير تبيَّن أنَّ إسرائيل احتلَّت كلَّ أراضي فلسطين الباقية وسيناء والجولان وأراضي أردنيَّةٍ. الولادة التي ارتبطت بالانتصار، سرعان ما ارتبطت بالهزيمة، بعدما تبيَّن كذب بيانات الإذاعة، وأنَّ ما جرى على الأرض معركةٌ مختلفةٌ ونتائج مختلفةٌ، وبدل أن تكون من الأيَّام المشرقة في تاريخنا، كانت من أكثر الأيَّام سوادًا في تاريخ المنطقة الحديث. وبدل أن ترتبط ولادتي بأيَّام فخرٍ، ارتبطت بأيَّامٍ مذلَّةٍ. وقت ولادتي كان أبي يعمل معلِّمًا في السعودية وأمِّي تعيش مع أمِّها في المخيَّم، من كثرة ما سمعت عن مفارقة ولادتي خلال حرب الأيَّام الستة، صرت أشعر أنِّي أتذكَّر تلك الأيام. لم أحبَّ ارتباط ولادتي بهذه الفترة العصيبة الكئيبة والحزينة والمذلَّة، لحظةٌ اختارها القدر

لأحملها معي ما حييت. عند أمِّي أصبحت الهزيمة تلك الحرب التي وقعت عند ولادتي.

بعيدًا عن مفارقة ولادتي في يومٍ مأساويٍّ، فإنَّ طفولتي كانت سعيدةً. أمِّي التي تعمل مدرِّسةً في مدرسة للأونروا في المخيَّم، وأبي الذي يعمل في السعودية، كانا قادرين على تأمين حياةٍ سعيدةٍ بالنسبة لنا في المخيَّم، ولأنَّ قدراتهم الماليَّة أفضل بكثيرٍ من أغلب سكَّان المخيَّم، عملا على تأمين حياةٍ أعلى مستوى لنا، رغم أنَّنا كنَّا نعيش في بيتٍ صغيرٍ مع جدَّتي التي كنَّا نناديها «ماما رضية». أمِّي مرتاحةٌ في عملها، تتركنا نحن أطفالها عند جدَّتي التي لا عمل لها سوى الاهتمام بنا. فهي امرأةٌ أرملةٌ منذ خروجها منذ فلسطين مع طفلتها الوحيدة -أمي-. عاشت من أجل طفلتها ثمَّ من أجلنا، لذلك استحقَّت أن نناديها «ماما» حتَّى لا نخرج إلى الشارع لنلعب، كنَّا نملك الكثير من الألعاب في البيت، ما يجعلنا مشغولين طوال اليوم بهذه الألعاب، وعندما ذهبنا إلى المدرسة، أصبحنا ندعو رفاقنا إلى بيتنا ليلعبوا معنا، بدل الخروج إلى الشارع، الذي هو عمليًّا المكان الوحيد الذي يلعب فيه أطفال المخيَّم، لأنَّ البيوت فيه خاليةٌ من أيِّ ألعابٍ يمكن أن يقضي معها الأطفال وقتهم وهم يلهون بها. التزمنا أنا وأختي ميرفت بتعليمات أبي الصارمة «لا لعب في الشارع». عندما كان أبي في السعودية، ربطني الحبُّ به، انتظره طوال العام وأتخيَّل الألعاب التي سوف يحضرها لي، ولا أكتفي بما يجلب لي تحديدًا، بل يصيبني فضولٌ لمعرفة ألعاب الآخرين، حتَّى ألعاب البنات. عندما يُعطني ألعابي، أذهب لأتفحَّصها وأنساه، وأنسى أنَّه قد أتى بعد عامٍ من الغياب، ولست الوحيد الذي يفعل ذلك، بل إخوتي جميعهم على اختلاف أعمارهم يفعلون ذلك أيضًا. كان أبي ينظر إلينا ونحن غارقون في تفحُّص ألعابنا التي أتى بها حديثًا، يضحك لأنَّه أسعدنا وأدهشنا بما جلبه من ألعاب. كانت الألعاب تتراكم وأنا أطلب المزيد، وتزداد الألعاب تعقيدًا. وكان «الميكانو» هو اللعبة التي سحرتني وليس السيَّارات أو

الطائرات التي كانت تمشي بالبطارية. «الميكانو» كان اللعبة التي أستعمل فيها خيالي، عددٌ كبيرٌ من اللوائح المعدنيَّة المثقَّبة، والدواليب والقطع الأخرى، شبابيك، أبواب، حبال وغيرها الكثير، إذ أستطيع أن أعمل منها سيَّارةً أو شاحنةً، أو بيتًا، أو بنايةً وغيرها الكثير. هناك أشكال في «كاتلوك» اللعبة يمكن تطبيقها، ويمكن استخدام الخيال في هذه اللعبة التي كنت أقضي معها وقتًا طويلًا في بناء أشكال مختلفةٍ من قطعها.

بعودة أبي النهائيَّة من السعودية تغيَّرت حياتنا، وجود أبي البعيد الذي يأتي لزيارتنا مرَّةً بالسنة، كان يجعل ظلَّه المخيِّمَ على البيت وهو بعيدٌ ظلًا جميلًا وخفيفًا لأبٍ يعود إلى عمله في السعودية قبل أن نتعوَّد عليه في الإجازة، كان حضوره وهو غائبٌ عن المنزل مختلفًا عنه عندما بات مقيمًا بيننا طوال الوقت. كان تهديد أمِّي لي بأبي فعَّالًا، عندما كانت تقول: «إذا بتظلك تعمل هيك، رح قول لأبوك ما يجبلك هدية بس يجي من السفر» كنت أصاب بالذعر، خوفًا من خسارتي لعبتي القادمة التي لم أكن قادرًا على توقُّع ما ستكون، وهذا ما يزيد إحساسي بعظمة خسارتي. مع وجود أبي بيننا تراجعت الهدايا كلَّما كبرت، لا حاجة إلى رشوتنا من أجل الحصول على حبِّنا، فهذا واجبنا تجاهه كما يعتقد. طبعًا هذا لا يعني أنَّه قصَّر في واجباته تجاهنا، لكنَّ صورة الأب الملاك التي رسمتها لأبي الغائب لا تتطابق مع صورته الحقيقية، وهذا الانزياح بين خيالي والواقع أصابني بالصدمة. لم أكن أظنُّ أنَّ أبي يشبه الآباء الآخرين، كأن يُوبِّخَ أولاده لتقصيرهم، أو يعاقبهم من أجل ذلك، يفتش في حياتهم عن أخطاء ليراقب سلوكهم، يغضب منهم لأنَّهم لم يكونوا مثاليِّين في تصرُّفاتهم... كنت أظنُّ أنَّ هذه الصفات لا تنطبق على أبي المختلف عن آباء الآخرين. سرعان ما تبدَّدت هذه الصورة، مع بداية العام الدراسيِّ التالي لعودته للبلد، أصبح يتابع وظائفنا المدرسيَّة، ويراقب سلوكنا، يشجِّع ما يرضى عنه، وينتقد ما لا يعجبه في سلوكنا. أنا الطفل الذي كنت حرًّا في خياراتي، ورقابة أمِّي وجدَّتي

رقابةٌ متساهلةٌ مع وظائفي وسلوكي. أخلت المكان لرقابةٍ صارمةٍ من أبي، تفرض علينا ما نقوم به، وأصبح هو من يحدِّد ما يجب علينا فعله وما يجب الامتناع عنه. أصبحنا أنا وأختي ميرفت غير قادرين على القيام بأيٍّ تصرُّفٍ قبل أخذ الإذن من أبي، وفي كثيرٍ من الأحيان يفرض هو ما يجب علينا فعله، حتَّى أصبحنا لا نفعل شيئًا سوى انتظار قراراته وتنفيذها، بوصفها الأفضل بالنسبة لنا. لم أنتبه وأنا طفل، إلى أنَّ ما يقوم به أبي بدافع الحبِّ، هو مصادرة حياتي وعيشها بدلًا عنِّي بتقرير كلِّ تفاصيلها. لم أشكَّ بدوافع أبي النبيلة، عندما كبرت وبعد أن تضرَّرت حياتي تمامًا من هذا الحبِّ القاسي، أدركت حجم الأذى الذي تعرَّضت له حياتي. وأنَّه كأبٍ ما كان عليه أن يصادر حياتنا، بل كان عليه أن يأخذ بيدنا ويساعدنا على مواجهة الحياة بتعليمنا كيف نفكِّر وكيف نتصرَّف؟ لا أن يفكِّر ويقرِّر بدلًا منَّا ويصادر حياتنا. لقد كنت ولدًا مطيعًا ونفَّذت كلَّ ما قرَّره عنِّي، وهكذا تصبح الحياة مريحةً عندما يأخذ الآخرون القرارات عنَّا، وبالتالي حتَّى لو فشلنا في تنفيذها، فنحن نشعر أن الفشل ليس فشلنا، لأنَّنا لم نقرِّر ما نفعل، قرَّره الآخرون، لذلك فهو فشلهم، ولست أنا سوى أداة تنفيذٍ. وهذا ما شعر به أبي عندما كبرنا جميعًا وفشلنا من وجهة نظره، فهو لم يَعُدَّ أنَّنا نحن الذين فشلنا في حياتنا، بل هو الذي فشل، وهذا صحيح إلى حدٍّ كبيرٍ، لأنَّه فعليًّا هو الذي أدار حياتنا ولسنا نحن، لذلك يتحمَّل مسؤوليَّة النتيجة الفاشلة التي وصلنا لها.

حقيقةً لا أعرف إذا كانت حياتي فاشلةً أم لا؟ فقد عشت في عباءة أبي سنواتٍ طويلةً، كنت معجبًا بالرجل العصاميِّ الذي بنى نفسه بنفسه، وبنى سمعةً عطرةً عند الآخرين، الذين يتحدَّثون عنه باحترامٍ شديدٍ، حتَّى تلاميذه الذين علَّمهم في المخيَّم قبل مغادرته إلى السعودية، كانوا يتحدَّثون عن معلمٍ كان كلُّ الطلَّاب الذين درَّسهم يحبُّونه، وهو مدرِّسٌ مختلفٌ عن المدرِّسين الآخرين. واستمرَّ إعجابي به كرجلٍ، لكنِّي لم أعجب به كأبٍ، لا

أعرف كم أثَّرت الحريَّة التي حازها بعيدًا عن أبيه الأميِّ الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة في جعله قادرًا على اتخاذ قراراته ببناء حياته كما يريد. أظنُّ كان لهذه الحريَّة دورٌ كبيرٌ في حياته. أمَّا أنا فلم أملك هذه الحريَّة ولم يمنحني إيَّاها، كان متشكِّكًا دائمًا في قدرتي على التصرُّف الصحيح، ولا أعرف كيف يمكن أن يعيش الواحد منَّا في هذه الحياة من دون أن يرتكب أخطاء، أرادنا ملائكةً لا نخطئ مطلقًا، ولا أعرف من أين جاءته فكرة أنَّ أولاده يمكن أن يكونوا ملائكةً من دون الآخرين. أنجبت أولادًا، وتمنَّيت أن يكونوا ملائكةً، ولكنَّ هذا لا يصلح في الحياة، ما نتمنَّاه شيءٌ، وما نعيشه شيءٌ آخر. ظنَّ أبي أنَّه يستطيع أن يصنع منَّا ملائكةً رغمًا عنَّا، وعندما لم نكن ما أراد، عدَّنا شياطين بحاجةٍ إلى ترويض. ولم يغيِّر نظرته لنا، حتَّى عندما كبرنا وأصبح عندنا أولاد، ليس لأنَّ الأولاد يبقون أولادًا في أعين أهاليهم فحسب، بل لأنَّنا لم نسير الطريق الذي رسمه لنا ولم نصل إلى الهدف الذي أرادنا أن نصل إليه. استعمل معنا أسلوب اللين، لم يضربنا نحن الثلاثة الأكبر بين أولاده، أختي ميرفت وأنا وأختي فاتن. مع إخوتي الأصغر، عدنان وأحمد اختلفت الأساليب، في الوقت الذي طوَّقنا في محبَّةٍ خنقتنا من أجل أن نحقِّق ما يريد. وعندما فشلنا لم يُعِد ذلك إلى فشل طريقته في أن يقرِّر حياتنا عنَّا، بل عدَّ أنَّ ما قام به صحيحٌ، لكنَّ الأسلوب الذي اتبعه معنا بالترغيب كان مفسدًا لنا، لذلك فشلنا. مع عدنان وأحمد أخذ يقرِّر عنهما، لكن لم تكن المحبَّة كافيةً لإجبارهما على سلوك الطريق الذي رآه لهما، فاعتمد معهم أسلوب العنف. ولأنَّ أسلوبه الجديد كان أسوأ من أسلوبه القديم، ومستفزٌّ لإخوتي أكثر، لأنَّه أشعرهم بالظلم والتمييز، فقد دفعهم إلى الفشل أسرع منَّا. لم يقتنع أبي طوال حياته أنَّنا قادرون على صناعة حياتنا، ولم يقتنع أنَّ هذا لا يعطيه الحقَّ في أن يقرِّر كيف علينا أن نعيش حياتنا، حتَّى لو كان أذكى منَّا، هي حياتنا نحن الذين يجب نقرِّر كيف نعيشها. كنَّا نعرف أنَّه يريد لنا الأفضل، ولكن ما رآه أفضل لنا، لم نَرَه نحن

كذلك. أتفهَّم اليوم، بعد أن أصبحت أبًا لصبيٍّ وبنتين، الإحباط الذي أصابه، لأنَّه عدَّ أولاده مشروع عمره الذي فشل به، عاد ليرمِّمه على نحوٍ ما في ختام حياته بجمعنا حوله، وعندما رضي عن الواقع الجديد، جاءت الحرب لتحطِّم عالمه ولتشتِّت ما جمعه حوله ولتخرِّب ما رتَّب لشيخوخته. هذا العالم الذي لم نعمل نحن على إفشاله أو تحطيمه، ولا هو عمل على ذلك، إنَّما تحطَّم بحكم حربٍ اندلعت في البلد، لم نكن نحن كعائلةٍ أو أفراد لنا علاقةٌ بأسباب اندلاعها من بعيدٍ أو من قريب.

أقنعني أبي وأنا طفل، أنِّي سأكون رجلًا مهمًّا في المستقبل، ويبدو أنَّه أقنع نفسه بأنَّ أولاده سيكونون أشخاصًا مهمِّين لمجرَّد أنَّهم أولاده، وبناءً على هذه القناعة، وعلى صورة مستقبلي المشرق الذي يراه، تعاملت مع أبي بخليطٍ من الرهبة والحبِّ. كنت أشعر بالحبِّ لأنَّه يمنحني الثقة بنفسي، وإصراره على رؤية قدراتي المذهلة، التي لم أكن أراها في نفسي، أصابني هذا بالغرور تجاه الآخرين. ولأنَّ مستقبلي الذي يريده يحتاج إلى جهودٍ جبارةٍ منِّي حتَّى أتطابق مع الصورة التي يرسمها لي، فقد شعرت بالتعب من هذا التحدِّي المبالغ فيه لطفلٍ يطرح على نفسه أسئلةً لم يحن أوانها بعد. أرادني أن أكبر قبل أواني، أتعامل كراشدٍ في قضايا لم أدرك أبعادها بعد. وفي الوقت الذي أتعامل مع نفسي كراشدٍ، هو يعاملني كطفلٍ غير قادرٍ على اتخاذ أبسط القرارات التي يتخذها عنِّي طوال الوقت، لذلك لم تتناسب الصورة التي يريدها لي مع تعامله معي. شعرت أنَّه يريد أن أكون على هذه الصورة، ليس لأنَّه يريد لي مستقبلًا باهرًا، بل لأنَّه يريد أن يفخر بابنه المختلف والمتفوِّق والعبقريِّ بين الآخرين، أي أنَّه حرص على الصورة أمام العائلة والغرباء أكثر ممَّا حرص فعلًا على مستقبلي من أجلي أنا. احتاج هذه الصورة من أجله، لا من أجلي. احتاجها ليقول إنَّ إنجازاته لم تقتصر على تجاوزه لواقعه الصعب وتحقيق مستقبلٍ لم يستطع الكثيرون من جيله إنجازه، بل أنَّه استمرَّ في إنجازاته عبر أولاده الذين أكملوا مسيرته في التميُّز،

وصنعوا من أنفسهم رجالًا مختلفين ونساء مختلفاتٍ عن الآخرين، ما يجعله يفخر بنفسه مرَّتين، أمَّا نحن وما نريد فهو تفصيلٌ لا يهمُّه. ما أقنعني به في طفولتي المبكرة، بدأت أشكُّ فيه، وثقتي بنفسي، بدأت تتحوَّل إلى ارتباكٍ، وغروري تحوَّل إلى خجلٍ لأنِّي لم أجد ما يسنده وأنا أكبر تحت ضغط أوامر لا تنتهي، «إفعل كذا...»، «لا تفعل كذا..»، لم أملك أيَّ مساحة حريَّةٍ لاتخاذ قراراتٍ تخصُّ حياتي ودراستي، حتَّى تفاصيل ساعات يومي، لم أكن أنا من يحدِّد ما أفعله خلالها، هو من يقرِّر برنامجي اليوميَّ. ولأنِّي ابنه البكر، كان الحصار أكبر، عدَّ انحرفي عن الطريق الذي يرسمه لي قيد شعره، لن يطيح بمستقبلي المشرق الذي ينتظرني مع كلِّ هذه المصادرة لحريَّتي فحسب، بل أيُّ فشلٍ يعني أنِّي سأكون مثالًا رديئًا لإخوتي الأصغر منِّي أيضًا، وبالتالي سأكون حبَّة الفاكهة الفاسدة في الصندوق التي تتسبَّب في فساد الصندوق كلِّه. صدَّقت ما أنا غير قادرٍ على تنفيذه، الذي لا تسعفني إمكانيَّاتي بإنجازه، ولأنِّي صدَّقت ذلك، كانت الاحباطات التي أصبت بها أكبر من تلك التي كان يمكن أن تصيبني، في حال كانت المحاولة احتماليَّة. فلو كنت أنا من أقرِّر ما أريد فعله، وحاولت وفشلت، لكنت سأتفهَّم الفشل وأتعايش معه وأتجاوزه، أمَّا عندما يعدُّ أبي أنَّ ما أقوم به هو مجرَّد تحصيل حاصلٍ وأنَّه أقلُّ من قدراتي الكامنة، كان الإحباط أكبر، لأنَّني أفشل في أشياء أبذل فيها جهدًا كبيرًا، وهي لا تحتاج إلى هذا الجهد كما يصوِّرها أبي لي. الآن أعرف، أنَّه حاول بذلك أن يجعلني أتفوَّق على نفسي في كلِّ مرَّةٍ، بوصف أنَّ إمكانيَّاتي أكبر ممَّا أقوم به. لم يكن الحال كذلك وقتها، لأنِّي كنت أفهم أنَّ هذا تحويل ما أقوم به من جهودٍ كبيرةٍ إلى تفاهةٍ، يجب أن ينظر إليها على أنَّها نتاج جهدٍ كبيرٍ، وليس مجرَّد لعبةٍ أقوم بها. وكلَّما كبرت متجاوزًا طفولتي زاد إحباطي وشعرت أنِّي غريبٌ عن نفسي وعن كلِّ ما حولي.

بقي الوضع على حاله طوال دراستي حتَّى نهاية المرحلة الثانويَّة، أبي يضغط باتجاه تجاوز نفسي وتحقيق ما لا قدرة لي على تحقيقه، وقناعتي بقدرتي التي زرعها أبي في رأسي آخذةٌ في التراجع. وبعد حصولي على الشهادة الثانويَّة، والحصول على مقعدٍ في كليَّة الهندسة الميكانيكيَّة، طبعًا هذا الإنجاز لم يعجب أبي، لا أعرف لماذا؟! ولا أعرف ما الإنجاز الذي يرضيه؟! صحيحٌ أنَّه كان يريدنا أنا وأختي ميرفت أن ندخل كليَّة الطب. ظنَّ لو استطعت أن أحصل على علاماتٍ تسمح لي بالدخول إلى كليَّة الطبِّ، لم يكن ليرضَ، والسبب الرئيسيُّ قناعته بأنَّه أكثر تفوُّقًا وذكاءً منَّا -نحن أولاده- الذين لم نرث منه شعلة الذكاء. كنت على قناعةٍ بإنجازي، وكنت أعرف أنِّي لا أستطيع أن أذهب أبعد من ذلك، ولم أكن أرغب في دراسة الفرع العلميِّ أصلًا، لأنَّ ميولي كانت أدبيَّةً، وكنت متعلِّقًا بقراءة الروايات. وعندما طلب منِّي أبي أن أعيد امتحان الثانويَّة من أجل علاماتٍ أفضل، رفضت بشدَّةٍ، فأنا بذلت كلَّ جهدي، وكنت متأكِّدًا أنِّي لن أحصل على علاماتٍ أكثر إذا أعدت الامتحان، بل على العكس، كنت متأكِّدًا أنِّي سأحصل على علاماتٍ أقلَّ. تجنُّبًا لهذا الإحراج، رفضت بشدَّةٍ طلبات أبي المتكرِّرة من أجل إعادة دراسة الشهادة الثانويَّة.

كلَّما تقدَّمت في حياتي، تساقطت الأوهام التي زرعها أبي في رأسي عن مستقبلي الباهر. بعدما أنهيت دراستي الإعداديَّة، رأيت نفسي في مكانٍ آخر، رأيت نفسي في العمل الصحفيِّ، في الكتابة الروائيَّة أو المسرحيَّة، رأيت نفسي بشيءٍ ما أدبيٍّ، وليس مهندسًا من أيِّ نوعٍ. سحرتني الروايات التي قرأتها، شعرت أنِّي أعيش حياةً أخرى في كلِّ رواية قرأتها، شعرت بحاجتي لأن أخلق هذه الحيوات لبشرٍ من لحمٍ ودمٍ، أصمِّم شخصيَّاتهم، أمنحهم الطموحات التي تناسبهم، أمنحهم العيون ولون البشرة التي أريد، أدفعهم للعيش في أماكن أختارها، أسير معهم على طرقاتٍ أختارها لهم، وأحداث تجعل حياتهم مليئةً بالمعنى بعكس حياتي الفارغة. أدخلتني الروايات في

دهاليز حياة الآخرين، اكتسبت خبرتي من تجاربهم العميقة، وليس من تجاربي المحدودة في المكان الذي شعرت أنِّي محاصرٌ داخله، ولا يخرجني منه سوى الروايات التي تجعلني أغادر البيت وأطوف في العالم وأنا مستلقٍ في سريري التهم الكلمات من صفحات الروايات. استبدلت الحياة بالكتب، في الوقت الذي لا أدرس فيه، أكون غارقًا في صفحات روايةٍ أقرأها، لم أترك روايةً وقعت في يدي إلَّا وقرأتها. وإذا كانت أوَّل روايةٍ قرأتها هي «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، التي كانت الصاعق الذي فجَّر عالم الروايات أمامي، كامو، دوستوفسكي، غوركي، مورافيا، بلزاك، هيجو، همنغواي، كازنتزاكي، ماركيز، هيسة، تشانبيك، تولستوي، حنَّا مينة، الطاهر وطار، يوسف إدريس، جبرا إبراهيم جبرا، غسان كنفاني، أميل حبيبي... وغيرهم. كنت أبحث في الروايات عن شخصيَّاتٍ تشبهني لأجد في تجاربهم عزاءً لي، لم أجد نفسي في شخصيَّةٍ محبَّبةٍ ومغامرةٍ مثل زوربا، ولا بشخصيَّاتٍ لها قدرةٌ هائلةٌ على التمسُّك بأهدافها، كالعجوز في رواية همنغواي «الشيخ والبحر» كنت أجد نفسي في الشخصيَّات العادية، التي تعيش مفارقاتٍ ليست من صنعها، شخصيَّاتٍ هشَّةٍ، مثل شخصيَّات كاواباتا في روايته «ضجيج الجبل» في قراءة الروايات شيءٌ عجيبٌ، فهناك عشرات الروايات التي قرأتها التي لا أذكر منها أيَّ تفصيلٍ، وكأنِّي لم أقرأها، أتذكَّر عناوينها، ولا شيء غير ذلك. وهناك رواياتٌ تحفر أحداثها في الذاكرة، ومقاطع من رواياتٍ لا يمكن نسيانها. رغم أنِّي فكَّرت كثيراً في الأمر، إلَّا أنِّي لم أجد تفسيراً لهذا التفاوت في تأثير الروايات عليَّ، قد يكون ذلك بسبب من تقاطع شخصيَّات الكتاب مع حياتي أو بعدها عنها، قريبًا من اهتماماتي أم بعيدًا عنها. وأعدُّ قراءة الروايات هي الفترة الأكثر غنى في حياتي، التي أخذت تتراجع، حتَّى أصبحت لا أقترب من كتابٍ بعد زواجي من فرح.

بدأ المستقبل الباهر الذي صوَّره أبي لي قبل دخولي الحياة الجامعيَّة يبهت، وبعدها فقدت الكثير من التقييمات السابقة، ما معنى أن يكون

الشخص مهمًّا؟ وكيف يكون الشخص مهمًّا وشخصٌ آخر غير مهمٍّ؟ وهو مهمٌّ بالنسبة لمن؟ ومن أريد أن أَقنَع بأهميَّتي؟ وما معنى حياتي إذا كنت مهمًّا للآخرين ولا أعنِّي شيئًا لنفسي؟ وأيُّهما أهمُّ صورتي عند الآخرين أم حياتي التي أعيشها؟ ما معنى أن تكون صورتي مثاليَّةً عند الآخرين وحياتي في غاية التعاسة في الواقع؟ الكثير من الأسئلة حول أهميَّة الشخص ومكانته بين أقرانه والمجتمع التي طرحتها على نفسي، حوَّلت الموضوع الذي شغلني أبي به إلى تفاهةٍ. في الوقت الذي نشغل أنفسنا بصورتنا عند الآخرين وما يقولونه عنَّا، وشغلنا الشاغل بأن نحافظ على صورةٍ مثاليةٍ لأنفسنا، نجد أنَّ الآخرين لا يروننا وليسوا مشغولين بنا على الإطلاق، ينامون ملء جفونهم ونحن مشغولون في قضيَّةٍ لا تخطر على بالهم. حتَّى لو أنجزنا الصورة التي نعدُّ أنَّ الآخرين يرونها مثاليَّةً عن أنفسنا، نكون واهمين إذا ظننَّا أنَّ الآخرين سيروننا كما نريد. فالبشر كائناتٌ تعشق الكذب والنميمة، حتَّى لو كنَّا ملائكةً في الواقع، لن نكون في عيون الآخرين سوى شياطين متنكرين في زي ملائكةٍ، وأنَّنا منافقون، ونعمل على تصوير أنفسنا على غير حقيقتنا، وكلام الناس بالسوء عن بعضهم البعض له ألف سببٍ وسببٍ. ومع تجربتي الجامعيَّة زادت غربتي، وبدأت أشعر نفسي غريبًا ليس عن الآخرين، بل وعن نفسي أيضًا. وبدأت اسأل نفسي ما الذي أفعله في هذا المكان الذي لا أشعر بالانتماء إليه؟ ولأنَّ كلَّ شيءٍ بات تافهًا بعد تحطُّم معنى الأهميَّة عندي، سألت نفسي ما معنى أن أكون مهندسًا؟ سأذهب لأكون موظَّفًا مثل أيِّ موظَّفٍ آخر، ولا أجد فرقًا بين الموظَّف المهندس والموظَّف وعامل التنظيفات. وبعيدًا عن قناعاتي الشخصيَّة بالأهميَّة من عدمها، باتت الأهميَّة تتعلَّق بالمال منذ سنواتٍ طويلةٍ، إذا كنت شخصًا أميًّا وحرامي ومعك الكثير من المال تحظى باحترام الآخرين، ولو عرفوا أنَّك حصلت على أموالك عبر السرقة. ولا تجد هذا الاحترام عندما تكون شخصًا عصاميًّا بنيت نفسك بنفسك، وتخرَّجت في الجامعة وتعيش بجهودك ولا تملك المال. في

البلد بات المال مقياس الأهميَّة ولا شيء غير المال. عرفت هذه الحقيقة قبل أن أتزوَّج من فرح، وعرفت كيف يعمل والدها في تجارة السيَّارات المستعملة بعد أن عملت معه. أبوها الأميُّ والأزعر بكلِّ معنى الكلمة والذي راكم ثروته من الغش والفساد ومشاركة ضبَّاطٍ في السلطة في تجارةٍ فاسدةٍ. يُقابله الناس باحترامٍ كبيرٍ يفوق احترام أبي الذي اشتغل طوال عمره على نفسه وذهب ليعمل في السعودية حتَّى يحسِّن من حياتنا، والمشهود له بالنزاهة والذكاء. عندما تضعهما إلى جانب بعضهما، وترى احترام الآخرين، ستجد الأميَّ اللصَّ أكثر احترامًا من الجامعيِّ النظيف. لا أعرف كيف يبني الآخرون أحكامهم؟ ولا أعرف متى انهارت الأحكام المنطقيَّة وتحطَّمت القيم بين الناس؟ ولا أعرف إذا كان هناك قيمٌ أصلًا وانهارت؟ ما أعرفه أنَّ البشر أصبحوا يحكمون على بعضهم، من خلال معيارين، المال والسلطة. إذا كنت تملك إحدى هاتين الميزتين فأنت محترمٌ، وإن لم تملك شيئًا من هذا القبيل فأنت تعيش في البلد كعبدٍ، عليك أن تركض طوال الوقت من أجل تأمين قوت يومك. وإذا كنت تجمع السلطة والمال فأنت الكامل في زمن التفاهة والعار الذي أصبحنا نعيشه.

في سنتي الجامعيَّة الثانية، أصبحت يائسًا ومحبطًا من كلِّ شيءٍ، لا أرى معنى لدراستي، ولا أرى معنى للمستقبل، ولا أرى مستقبلًا أصلًا. بات كلُّ شيءٍ أسود في عيوني. جاء يأسي من حياتي، انتظرت كلَّ هذه السنين لأعرف أنَّ ما عشته لم يكن حياتي، إنَّما الحياة التي أرادها أبي، ولم تكن مجرَّد مراعاةٍ له، لقد تحكَّم في كلِّ تفصيلٍ في حياتي، من دون مقاومةٍ جديَّةٍ منِّي، هربت من مواجهته فقط، وهو ما أقوم به حتَّى اليوم. لم أعرف كيف أواجهه؟ ولم يعلمني هو وأمي كيف أواجه الحياة؟ وكيف أتخذ قراراتي؟ تركت أمِّي الأمر لأبي، كانت تخافه فتجنَّبت المواجهة معه، وكانت أمِّي رضية تنظر إلينا وتتحسَّر من دون أن تتدخَّل، كانت توزِّع حنانها علينا كلَّما شعرت أنَّنا متعبون. لم تكن الحياة التي عشتها حياتي، كانت أيَّ شيءٍ سوى أن تكون

حياتي، خسرت طفولتي التي لم أرتكب فيها أيَّ فعلٍ شقيٍّ كما يفعل الأطفال في كلِّ مكانٍ، كنت مثالًا للسلوك المستقيم، كلُّ هذا من أجل ماذا؟ كيف أتعلَّم الحياة إذا لم أخطئ؟! كيف يمكن لملاك أن يعيش بين الشياطين؟! أيُّ تربيةٍ قبيحةٍ وسيِّئةٍ اختارها أبي لنا، سلبنا إرادتنا، ولم يعلمنا كيفيَّة التصرُّف في الحياة، وبعد ذلك يريدنا أن نواجه قسوة الحياة. لم يعرف كيف يعيش حياته، فأراد أن يعيش حياتنا بدلًا منَّا، لا هو عاشها ولا نحن عشناها. كيف بدَّد حياتنا في تفاهاتٍ أقنعنا أنَّ أهميَّتها لا تعوَّض وهي في الحقيقة مجرَّد تفاهاتٍ. لماذا كان عليَّ أن أقضي ساعاتٍ في فكِّ وتركيب لعبةٍ سخيفةٍ مثل الميكانو في الوقت الذي كان أقراني في الشارع يركضون ويقفزون ويلعبون ويرتكبون الحماقات والأخطاء هنا وهناك ويشتمون بعضهم بأقذر الألفاظ، ويتعلَّمون الحياة في الشارع، وأنا أقضي وقتي مع قطعٍ حديديَّةٍ سخيفةٍ وباردةٍ، أيُّ حياةٍ يمكن تعلُّمها من الأشياء الميتة؟! عددت نفسي متفوِّقًا على تفاهتهم وسوقيَّتهم وأنا أرقى منهم، مع أنَّهم جيراني وأصدقائي وزملائي في صفي المدرسي. لم أعرف أنَّ التعالي الذي علَّمني إيَّاه والدي مجرَّد هربٍ من واقعٍ لا يمكن الهرب منه، ولا يمكن أن نصنع حياتنا إلَّا في الواقع الذي نعيش فيه وليس في أوهام لا وجود لها سوى في رؤوسنا. في الوقت الذي علَّمني أبي الحياة من أوهام الأهميَّة ومن الألعاب السخيفة التي تحبسني في البيت. كان الآخرون يتعلَّمون الحياة في الشارع ويكبرون هناك، لا يمكن تجنُّب الشتائم القذرة في عالمٍ قذرٍ، كانت الشتائم عيبًا في بيتنا، ولكنَّ الواقع الذي كنَّا نعيشه كان معيبًا أكثر من الشتائم، كيف تستطيع أن تكون نظيفًا وأنت تعيش في المستنقع؟! عليك أن تتعلَّم الحياة في المستنقع وتتكيَّف معها، لا أن تعيش في المستنقع وتوهم نفسك أنَّك تعيش في الجنَّة، لا يمكنك العيش في الجنَّة حتَّى في الأوهام من دون مغادرة المستنقع. كان سيأتي اليوم الذي أكتشف فيه، أن حياتي كانت مجرَّد كذبةٍ من اختراع أبي وهذا ما زاد من كراهيتي لحياتي

ولنفسي وأدخلني في لحظاتٍ سوداء، جعلتني أشتم نفسي لغبائي، في الوقت الذي كنت أعدُّ نفسي ولدًا ذكيًّا، كنت مجرَّد أحمقٍ يقاد إلى المجهول.

في الجامعة شعرت ألَّا شيء في هذه الحياة له معنى، على عكس الآخرين الذين ظنُّوا بدخولهم الجامعة دخلوا عالـمًا من السحر، عالمٌ يشعرون فيه بنضجهم ومغادرة طفولتهم، باقترابهم من الفتيات اللواتي أصبحن يجلسن معهم على مقاعد الدراسة، ولسن بعيداتٍ عنهم في مدارس أخرى يصعب الوصول إليهنَّ، كالمراحل الدراسيَّة السابقة. عالمٌ جديدٌ في العلاقات، وفي المرحلة العمريَّة، وفي المعنى الذي يمنح الطلَّاب حماسًا غير عاديٍّ، لا سيَّما في السنة الأولى من الحياة الجامعيَّة. تأتي الخيبات عند البعض سريعًا بعد الحماس، وتتأخَّر عند آخرين. لم أشعر بهذا الحماس، ولم أجد في الجامعة مكاني، غريبٌ في الدروس، غريبٌ بين زملائي، غريبٌ عن كتبي، لا أشعر بالانتماء للمكان. أجبرت نفسي على الدراسة في السنة الأولى، وترفَّعت إلى السنة الثانية بصعوبةٍ. وبدل أن يمنحني الدوام في الجامعة نوعًا من الألفة، زاد من اغترابي. وما كنت أستطيع إجبار نفسي عليه. كرهت حياتي التي أخذت تتحوَّل، أو أخذت أحوِّلها على نحوٍ لا واعٍ إلى شيءٍ آخر، تركت الدراسة في الجامعة، ولم أعد أذهب إليها، صحيحٌ كنت أخرج من البيت على أساس أنِّي ذاهبٌ إلى الجامعة، لكنِّي لا أفعل ذلك. وأنا الذي كنت معادٍ للتدخين، بدأت أطلب السجائر من الآخرين، وسرعان ما وجدت نفسي أنتمي إلى المدخِّنين وبجدارةٍ. كذلك الكحول الذي كنت أمثِّل أنِّي أشربه في حفلات الأصدقاء، فأحافظ على كأسي الوحيد طوال السهرة، أخذت أشرب بطريقةٍ مبالغٍ فيها. حتَّى أنَّ فريد صديقي التاريخي، حاول أن يعمل ككابحٍ لتصرُّفاتي المبالغ فيها، ويخفِّف ممَّا أقوم به من أفعال مؤذيةٍ بحقِّ نفسي. مع أنِّي كنت الشخص الذي يفرمل تصرُّفاته المجنونة عندما كنَّا في الثانوية. كان لوجود غرفةٍ مستقلةٍ لفريد على سطح بيت أهله، ولها مدخلٌ خارجيٌّ، أعطانا مساحةً واسعةً من الحريَّة، لم أكن

أشعرها في بيتنا الذي أحسُّ فيه بالاختناق. كانت هذه الغرفة بيتي الذي أشعر فيه بالراحة، وعلاقتي بأهل فريد جيِّدةٌ، أمُّه وأخوته الشباب والبنات، الذين كانوا أخوةً بالنسبة لي. أمَّا والد فريد فقد قضى بحادث سيَّارةٍ ونحن في الصف العاشر، وهو ما أثَّر في حياتهم ومستقبلهم. عندما توفَّى والده اضطر فريد للعمل هو وأخوته البنات، حتَّى يغطُّوا مصاريفهم بعد وفاة معيلهم. اختار فريد العمل ككهربائيٍّ، عاد ودرس الثانوية العامة من خارج المدرسة، أي أنَّه درس وعمل في الوقت ذاته، وقد استحقَّ الدخول إلى كليَّة الآداب ـ قسم الفلسفة، التي درسها وهو يعمل في مهنته. كنت معجبًا بفريد وحياته، ومقدار الحريَّة في هذه الحياة، دون أن أستطيع أن أكون مثله. شعرت أنَّ الفرق بيني وبينه، ليس الفرق في الظروف، التي تمنحه الحريَّة، مثل غياب سلطة الأب، والاستقلال الاقتصاديَّ، والاستقلال في مكانٍ خاصٍّ، كلُّها عوامل مهمَّةٌ للشعور بالحريَّة، لكنَّها غير كافيةٍ برأيي. المسألة الأكثر أهميَّةً، أنَّ فريد يشعر أنَّه حرٌّ في أعماقه، بينما أنا أشعر نفسي مقيَّدًا في أعماقي بألف قيدٍ وقيدٍ وغير قادرٍ على الإحساس بحريَّتي، وغير قادرٍ على صناعتها والعيش وفق متطلَّباتها. عندما حاولت تقليد فريد، لم ينجح الأمر. طلبت منه أن أعمل معه. حاول ردعي وإقناعي بالعودة إلى دراستي قال: «شو بدك بهالشغلة؟ مانك مضطر تشتغل، عندك دراستك خلِّصها واشتغل بشهادتك، ما حدا لاحقك بعصاية»، قلت: «ما بدي كمل دراسة، بدي اشتغل وطز بالدراسة»، قال: «صلي على النبي يا زلمة. بدك تشتغل وفهمنا، بس ليش ما بدك تكمل دراسة؟!»، قلت: «ما بدي، ومش قادر. حاسس حالي غريب»، قال: «كلنا يا صاحبي بنحس هذا الإحساس، ونعمل بحياتنا شغلات كثيرة ما بدنا إياها، مجبرين عليها حتى نكمل حياتنا. الحياة مو سهلة. ما بدي أتفلسف عليك، بس، جنان الواحد يترك شيء صار بجيبتو تقريبًا، لأنُه حاسس حالُه غريب. حط عقلك براسك وفكِّر بدراستك»، قلت: «يعني ما بدك تشغلني معك؟» قال: «يا زلمة كيف بتفكِّر أنت؟ بدك

مصاري بعطيك؟»، قلت: «أنا ما بدي مصاري، أنا بدي أشتغل، بتشغلني ولا لأ؟ هذا هو السؤال»، قال: «لا تعصِّب، خلِّص، بشغلك. بس بدِّي قلك آخر شغلة. أنا لما اشتغلت، كنت مضطر أعمل هيك، لأنُه بعد موت أبوي ما عاد عنَّا معيل، وأنت بتعرف هذا. لو ظل أبوي عايش ما كنت اشتغلت، لأنُه كان عندي طموحاتٌ ثانيةٌ. بصراحة، إنت مانك مضطر تشتغل»، قلت: «أنت هيك شايف الصورة. يمكن شايفني ما محتاج للشغل. بس أنا شايف أني مضطر للشغل أكثر منك، لما مات أبوك. مضطر للشغل حتى أحس لحياتي معنى، ويمكن إنت شايف هذا فزلكة. بس أنا شايفُه، ضرورة حتَّى ما أجن»، قال: «خلص زي ما بدك. امتى بدك انزل على الشغل»، كان محقًّا في النظر إلى حاجتي للعمل بوصفه ترفًا، فالحاجة الماديَّة هي الصورة الشائعة عن اضطرار المرء للعمل، المال أوَّلًا وأخيرًا. بالنسبة لي المعادلة مختلفةٌ. كان العمل عنوان حريَّتي، فطالما أنا معتمدٌ على أبي بالمصروف، فأنا مضطرٌ لتنفيذ رغباته، من يملك المال يملك القرار، هكذا ظننت. بدأت العمل من الأسبوع التالي، لم أكن معتادًا على العمل الشاقِّ، كانت المرَّة الأولى التي أمسك مطرقةً بيدي وأحطِّم الجدران من أجل صناعة مجاري فيها لتمرير أنبوب البلاستيك، الذي ستمرُّ فيه أسلاك الكهرباء، كان عملًا جديدًا عليَّ، وسرعان ما تورَّمت يداي. كانت المرَّة الأولى التي أعمل فيها، عندما بنى أبي بيتنا الجديد، بعد عودته من السعودية، كان يصطحبني معه إلى البيت في أثناء تعميره ليتفقَّد العاملين في بنائه، وأحيانًا ينجز بعض الأعمال بيده، لكنَّه لم يكن يسمح لي بالعمل. وكانت هناك عادةٌ في المخيَّم وأنا طفل، إذا كان أهل أحد الأصدقاء يريدون تعمير غرفةٍ على السطح، ويحتاجون إلى رفع سيَّارة رملٍ أو بحصٍ أو بلوك. كان الأصدقاء من شبابٍ وأطفال يساعدون بالمهمَّة، لتوفير المال على أصدقائهم، وهذا ما يقوم به الجميع من أجل الجميع. أهلي كانوا يمنعوني من القيام بذلك، لأنَّ هذا العمل لا يناسبني من وجهة نظرهم. لم أكن أفهم كيف يمنعوني من القيام

بعمل كان يمنح من يقوم به السعادة، كنت أرى أصدقائي المتسخة ملابسهم بالرمل، محتفلين بإنجازهم المهمَّة، حتَّى أهاليهم كانوا يشكرونهم على مساعدة أصدقائهم. كنت أحتاج للشعور بهذه المتعة التي كانت ممنوعةً عليَّ. كنت بحاجةٍ لأن أشعر بما يشعر به أقراني، بينما أهلي كانوا يرون غير ذلك. عندما كان يحدث هذا التناقض في السلوك مع المكان، أشعر نفسي غريبًا عن أهلي وعن المخيَّم. ساعدني الإرهاق في الأيَّام الأولى للعمل على النوم مبكرًا، وأشعرني بسعادةٍ لم أشعر بها من قبل. أزاح التعب عن كاهلي ثقلًا لم أعد قادرًا على حمله. شعرت أنَّ يداي المتورِّمتان والمتقرِّحتان هما عنوان حريَّتي. طلب فريد منِّي، أن أتوقَّف عن العمل حتَّى تشفى يدي من تقرُّحاتها، رفضت، وتركتها تشفى في أثناء العمل، وهذا ما كان. إحساسي الأوَّل بحريَّتي سرعان ما أخلى مكانه إلى عاديَّة الأشياء، صحيحٌ استمرَّ ارتياحي للعمل بوصفه خياري لأوَّل مرَّةٍ في الحياة، ولكن لم يكن الوصول إلى الحريَّة بالسهولة التي ظننتها عندما اتخذت قراري. فالاستقلال الماديُّ مهمٌ لممارسة الحريَّة، لكن ما نكتشفه بعد أن نستقل ماليًّا، أنَّ حريَّتنا مقيَّدةٌ بألف قيدٍ وقيد غير الارتباط الماديُّ.

من غير الممكن إخفاء تغيير من هذا النوع في حياتي، وسرعان ما انتبهوا في البيت، أنِّي تغيَّرت، أصبحت أنام باكرًا، أخرج من البيت باكرًا، وأعود متعبًا جدًّا، أتجنَّبهم طوال الوقت. وماما رضية أوَّل من انتبه إلى التغيُّرات، سألتني عن تقرُّحات يدي. قلت: «عاونت صديق في بيتهم» لم تصدِّقني، هزَّت برأسها ولم تخبر أحدًا. ميرفت كانت ثاني شخصٍ يسألني عمَّا يحدث معي؟ بما أنَّ الكليَّتين التي سجَّلنا بهما في مبنى واحدٍ، كنَّا نرى بعضنا كلَّ يوم هناكٍ، وأغلب الأيَّام نذهب معًا إلى الكليَّة، إلَّا إذا كان هناك فرقٌ كبيرٌ في أوقات الدوام بيننا. وكان من العاديِّ، ألَّا نرى بعضنا يوميًّا، لأنَّ أحدنا مشغولٌ خارج الكليَّة. في اليوم الثاني لغيابي وفي المساء أحضرت ميرفت غلايَّة قهوةٍ على صينيَّة مع فنجانين وجاءت إلى غرفتي، قالت:

«سلام، صرلي يومين ما شفتك، قلت أشرب القهوة معك. وين عبتروح، صرلك يومين ما اجيت على الكلية»، وعندما مدَّت يدها لتناولني فنجان القهوة، شاهدت تقرُّحات يدي. وضعت الصينيَّة جانبًا. أخذت يدي ونظرت إليها بدهشةٍ، رفعت عينيها ونظرت إلى وجهي، وعلى وجهها آثار الصدمة. وقالت: «شو هاد؟ شو مسوي؟»، قلت: «ولا شي. بشتغل مع فريد»، قالت: «وشو منشان الكلية؟»، قلت: «قرَّرت أتركها»، نظرت إليَّ مذهولة: «بتكحي جد؟»، قلت: «بحكي جد. ما قادر أكمل في الكلية، وما بدي ظلني أضحك على حالي»، قالت: «شو بدك تعمل مع أبوك؟»، قلت: «ما بعرف، وقتها بحلها الحلال»، عندما عرفت أمِّي، أخذت تندب حظَّها العاثر في ولدٍ مثلي، وحاولت إقناعي بالعودة إلى دراستي، فلا مستقبل لي من دونها. وعندما لم يُجدِ ذلك معي، حاولت أن تقنعني بالتخجيل، أي أعود لدراستي حتَّى لا أحرجها أمام الناس. «منشاني يا أبني، برضاي عليك لا تكسر قلبي، وتبهدلني بين الناس. بكرة أبوك بحملني المسؤولية»، وجدت أمِّي ألَّا فائدة من الكلام معي في هذا الموضوع، عدَّتني ورثت عنادي من أبي. ولم يكن أمامها من خيارٍ، سوى أن تخبر أبي بما يجري، لأنَّ من واجبها فعل ذلك، ولأنَّ من غير اللائق أن يعرف هذا الوضع من أحدٍ غريبٍ. لا أعرف الطريقة التي بلَّغت فيها أبي بما يجري معي، لكن أظنُّ كانت في غاية الحرج، فهي تخافه فعلًا. أمَّا أنا فكنت أستعجل هذه المواجهة، رغم أنِّي لا أعرف كيف سأردُّ عليه. احتجت برغبتي العميقة أن يعرف أنِّي لن أستمرَّ بفعل ما يريد، لم أرد أن يذهب هذا الوضع إلى الصدام مع أبي، سوى لأقول لا لإملاءاته عليَّ. عددتها معركة استقلالي واسترداد حريَّتي. توهَّمت أنَّها معركتي الكبرى، وأنِّي بذلك أسحب حياتي من يده، وأستعيدها.

عندما جاء لمواجهتي، لم يكن صدَّق أنَّ ما قالته أمِّي له حقيقيٌّ. دخل غرفتي وعلى وجهه علامات الغضب والدهشة وعدم التصديق. شعرت بالخوف رغم معرفتي لماذا جاء أبي، وهو نادرًا ما يأتي إليها. لا أعرف من

أين جاء هذا الخوف؟ أعرف أنَّه لن يضربني، حتَّى لو ضربني فإنَّ ذلك لا يُخيفني. كنت أعرف أنَّه لا يملك أيَّ وسيلةٍ للتأثير على قراري. عندما سألني بلهجةٍ غاضبةٍ: «صحيح اللي سمعته؟» تردَّدت كثيرًا في الإجابة بنعم. فكَّرت بالتراجع والعودة إلى حياتي التافهة السابقة والأوامر التي لا تنتهي والتي أنفِّذها طائعًا. حتَّى أكسب بعض الوقت، قلت: «حسب الذي سمعته؟»، قال: «إنك تركت الكلية؟»، قلت: «صحيح»، قال وهو يمنع نفسه بصعوبةٍ عن ضربي: «فيني أعرف ليش يا عبقري؟»، قلت: «ما بحبها، وما بدي كملها، ما حاسس إنها تبعي»، قال وهو يضرب بيده على فخذية: «يا سلام. فعلًا أنت عبقري. بتعتقد الناس بحياتها بس بتعمل اللي بتحبُه؟! لو كانت الحياة هيك، كان خربت الدنيا يا شاطر»، قلت: «الناس تصطفل. أنا بحكي عن حالي. بقرِّر عن حالي، مو عن أي حدا ثاني»، قال: «بتقرر كمان! صار للخرا مرة ويحلف عليها بالطلاق. الحكي معك ما منُه فايدة»، نظر إليَّ منتظرًا إجابةً كأن أتراجع عمَّا أفعل، لذتُ بالصمت، قال بعد قليلٍ من الصمت: «بقدر الواحد يوخذ الحمار على النهر، بس ما بقدر يجبرو يشرب»، كان ذلك إقرارًا منه ألَّا فائدة من الكلام معي. لم يعجبني شكله وهو خارجٌ، كان محتقنًا جدًّا، ووقتها عرفت ممَّا أنا خائفٌ، كنت خائفًا عليه وليس منه. توقَّعت صدامًا كبيرًا مع أبي يمنحني الفرصة للخروج من البيت على أثره، لم يعطِني الفرصة، وفوَّت عليَّ توقُّعاتي، ما أربكني في التعامل مع المشكلة. يتحدَّث معي، أصبح ينظر إليَّ نظراتٍ كاويةً لم أكن قادرًا على احتمالها. فكَّرت في مغادرة المنزل، كان ذلك سيبدو تصرُّفًا طفوليًّا، فهو لم يمنحني السبب لفعل ذلك. كان الصدام أقلَّ بكثيرٍ ممَّا توقَّعت، لكنَّ الآثار اللاحقة للصدام لم أحسب لها حسابًا، كانت أقسى عليَّ من الصدام نفسه، لأنَّها بدت استمرارًا للصدام على نحوٍ صامتٍ، وصراع الصمت مع أبي كان خاسرًا. في الصدام عرفت أنِّي أحبُّه، ولم أكن قادرًا على التراجع، لأنِّي أحبُّه. لن أقبل أن يبقى ممسكًا بحياتي بعد الآن، هذا ليس عادلًا، من حقِّي

أن أستعيد حياتي، وأتمنَّى أن يحدث ذلك من دون أذًى له، هذا لم يكن ممكنًا. وعندما شعرت نفسي أنِّي آذيته لم أحتمل أن أكون ذلك الجلَّاد الذي يفعل ذلك مع والده الذي لم يقصِّر بحقِّه على الأقل من الناحية الشكليَّة، وأنا أعرف أنَّ كلَّ سلوكه ناتجٌ عن الحبِّ، هذا الشكل من التعبير عن الحبِّ، هو شكلٌ مؤذٍ لي. لم أستطع تحمُّل هذا التناقض، ولم أستطع تحمُّل نظرات الألم في عيني والدي، وأنا أعرف أنِّي من تسبَّب بهذا الألم. كان نوعًا من الحصار الناجح، واستمرار اللوم الصامت كان يدمِّرني، فلم أستطع البقاء في البيت فغادرته، وأقمت عند فريد، الذي رحَّب بي على مضضٍ، ولم يرغب أن ألجأ لشخصٍ آخر وهو الصديق الأقرب لي. حَمَّلني المسؤوليَّة عن ألمٍ كان يمكنني تجنُّبه وأجنِّبه لوالدي. كان يحسدني على أبي، ويتمنَّى لو عنده أبٌ مثل أبي. قال لي: «أنت ما بتعرف معنى يكون عندك أب. هذا شي ما بتعرف أهميتُه حتى تفقدُه. اسألني أنا المكوي بهاي النار»، كنت أعرف أنَّ فريد معجبٌ بأبي ويحبُّه، ويحسدني على وجود هذا الأب في حياتي. ما لا يعرفه فريد، هو أنِّي أحبُّ أبي أكثر ما يتصوَّر، وكان لا بُدَّ من هذه المعركة، حتَّى أكون راضيًا عن نفسي وعن العلاقة مع أبي.

خروجي من المنزل زاد الوضع توتُّرًا في بيتنا، وما أراحني أنِّي لم أكن موجودًا في هذه الفترة، التي هربت منها أصلًا. ولم يذكرني أبي في المنزل، خيَّم الحزن على أبي وعلى البيت وأصابه بالجمود، لا أحد يسمع ضحكاتٍ في البيت، أمِّي خائفةٌ على أبي، الذي يحصر أحزانه ولا يعبِّر عنها، ما أخافها أن يتحوَّل هذا الحزن المحصور إلى أمراضٍ جسديَّةٍ لديه. شعر بالفشل وهذا ما حطَّمه، لم يشعر أنَّه أخطأ، حتَّى لو أخطأ فهو بشرٌ، ولا يكافئ بالتعامل معه بهذه الطريقة الحاقدة التي تعاملت بها معه. آلمه تعاملي العدوانيُّ معه والكراهية التي شعر أنِّي أحملها تجاهه، أكثر من فعلي نفسه، شعر أنِّي أعدُّه عدوًا، وهي صورةٌ على العكس تمامًا ممَّا كان يتصوَّره عن نفسه من أبٍ حريصٍ على أولاده ويريد لهم أفضل ما في الكون، لم يتصوَّر أنِّي أحمل

كلَّ هذه الكراهية له. كما روت لي أختي ميرفت عن الفترة التي غبت فيها عن المنزل ومن خلال أحاديثها مع أمِّي، التي قلقت على مصير العائلة كلِّها، بعد هذه الشقاق الكبير الذي حصل لأوَّل مرَّةٍ بهذا الاتساع. أخافتني صورتي عند أبي، صورة الكاره الناكر للجميل. لم أكن كذلك، ولم أرغب في أن تكون صورتي كذلك. ويبدو أنِّي بالغت في ردٍّ فعلي تجاه أبي الذي ظننت أنَّه يصادر حياتي. لم أستطع الذهاب والاعتذار منه، عندما طلبت أمِّي ذلك بعد أسبوعين من خروجي من المنزل. لم أرغب أن تأتي إلى بيت فريد وتطلب منِّي أن أعتذر لأبي حتَّى لا يتفاقم وضعه الصحيُّ، لأنَّ حالته النفسية ما زالت على حالها منذ غادرت المنزل. رفضت طلبها، ولم أكن أحبُّ أن أرفض لها طلبًا، لكن في هذا الموضوع، لم أشعر أنِّي قادرٌ على أيِّ شيءٍ سوى الرفض، لا أعرف لماذا؟ هل هو عدُّ نفسي على صواب؟ أم مجرَّد عنادٍ صبيانيٍّ؟ أم أنِّي أُقدِمُ على ما أرغب به، بصرف النظر سواءً كان صحيحًا أم خاطئًا؟ بكت أمي وقالت: «أنت وأبوك أعند من بعض»، نظرت إليَّ طويلًا، قالت: «شو صرلك؟ جنيت؟ اتركك من أبوك، ليش هيك عبتعمل بحالك؟» هزَّتني أسئلتها، يبدو ما أقوم به من وجهة نظرها لا معنى له. عندما قالت كلماتها، سألت نفسي هل ما أقوم به له معنى؟ لم يكن عندي جواب لا على سؤالي ولا على أسئلتها، ولم أكن أعرف ما الذي أفعله تمامًا، وحده العناد حرَّكني في تلك الأيَّام. لم أنتبه إلى أنَّ معركة استقلالي، كانت تصرُّفًا محرجًا لأهلي، ما معنى أن أسكن عند صديقٍ في الوقت الذي يملك أهلي بيتًا كبيرًا؟ وكيف يسمح لي أهلي بفعل ذلك؟ وكيف أقبل على نفسي هذا الوضع؟ أسئلةٌ محرجةٌ، لم أنتبه لها وأنا في ذروة غضبي وعنادي. لم يحتمل أبي هذه الصورة الرديئة للعائلة التي أرادها مثاليَّةً، لا سيَّما وأنَّ خروجي من البيت أخذ ينتشر في العائلة وبين معارفه، لم يحدِّثه أحدٌ بشيءٍ، لكنَّه كان يشعر ذلك من نظرات الآخرين. عندما طفح الكيل عنده قال لأمِّي: «اذهبي وقولي له، أن يعود إلى البيت ويخلصنا من هاي المسخرة. ويساوي شو ما

بدُه، أنا ما عاد أتدخل بحياتُه. لا بحاكيني ولا بحاكيه»، عندما أخبرتني أمِّي برسالة أبي خجلت من نفسي، فقدت القدرة على العناد، الذي لا معنى له بعد هذه الرسالة. عدت إلى البيت على مضضٍ وأنا أخجل ممَّا فعلت من دون أن أعترف بذلك أو أعتذر عنه.

عادت الحياة في بيتنا إلى طبيعتها، لم يحاول أبي أن يملي عليَّ أيَّ سلوكٍ، أو أن يقنعني بالعودة إلى الدراسة، وعرف أنَّه إذا حاول إقناعي سيزداد نفوري. عدَّ أنِّي يمكن أن أقتنع وحدي، وأعود من دون وساطة أحدٍ، هو مستقبلي ويُفتَرَض أنا أكثر مهتمٍّ به. هذا لم يحدث، لم أغيِّر رأيي في الموضوع، وبعد أن تابعت العمل مع فريد، عرفت أنِّي فعلًا أكره ما كنت عليه، ليس تحديًّا لأبي، كما ظننت في البداية، لكن هذه الدراسة ومستقبلها ليسا لي. كان هذا الاستنتاج غريبًا بالنسبة لكلِّ من عرفني، كيف يكون العمل في مهنةٍ متواضعةٍ أفضل من الدراسة ومن أن يصبح المرء مهندسًا؟ لا سيَّما وأنَّ هذا لم يكن حلمًا لي كما عند الآخرين، بل هو واقعٌ يحتاج إلى بعض الجهد، لأجد نفسي مهندسًا بعد أعوامٍ عدَّةٍ. لم أرَ نفسي كذلك، ولم أعرف كيف أشرح هذا للآخرين، كيف تكون المهنة المنخفضة في التصنيفات الاجتماعيَّة مرضيةً لي، وأنا الذي أستطيع أن أحظى بمكانةٍ اجتماعيَّةٍ أفضل يوفِّرها لي كوني مهندسٌ. لم أكن قادرًا على شرح أنَّ هذه الحياة التي أعيشها ككهربائيٍّ، تجعلني أرى نفسي على حقيقتها أكثر من المهندس الذي سأكونه. حاولت كثيرًا شرح حالتي، من دون أن أستطيع إقناع أحدٍ أن ما قمت به، لم يكن أكثر من حماقةٍ. طبعًا لم يقتنع أحد أنِّي غير قادرٍ على إنهاء دراستي لأنَّها صعبةٌ، وأنا لا أملك الإمكانيَّات لإنهائها. كانت هذه ذريعةٌ أكثر منها حقيقةً، هناك شيءٌ داخليٌّ رفض الدراسة، قد يكون ذلك رفضٌ لطبيعة الحياة التي تفرضها الشهادة على حاملها، مجموعةٌ من الأكاذيب الاجتماعيَّة، التي علينا مراعاتها، لأنَّ هناك تقييمًا اجتماعيًّا لنا، يجب أن يتوافق سلوكنا معه. إنَّه مسألةٌ شكليَّة وسخيفةٌ تجعل المرء يدفع ثمنًا كبيرًا

لشكلٍ لا يقدِّم له أيَّ شيءٍ في واقعٍ اجتماعيٍّ، يزداد فيه وضع الموظَّف هشاشةً وفقرًا. قد يكون زيف الحياة الاجتماعيَّة للطبقة الوسطى المنهارة في زمن دراستي، وحقيقة حياة العمَّال، هي التي جعلتني أتمسَّك بحياتي المهنيَّة وأرفض العودة إلى الدراسة. عندما كنت أعمل مع فريد، وقبل أن نصبح شركاء بعد أن تعلَّمت المهنة، كان دخلي كعاملٍ مهنيٍّ، أكثر من مهندس ميكانيك موظَّفٍ في دوائر الدولة. هل يستحقُّ البرستيج الكاذب كلَّ هذا الجهد، وما معنى المكانة الاجتماعيَّة، إذا كان راتبي لا يكفيني، ولا يصنع لي مستقبلًا. فلتذهب المكانة الاجتماعيَّة الفارغة إلى الجحيم، ومعها حياة التناقض الفارغ لإعطاء صورةٍ مزيَّفةٍ للآخرين، تجعلهم يحترمونني وأنا فارغ الجيوب. وظننتُ أنَّ استقلالي الماليَّ هو الذي منع أبي من التدخُّل في حياتي مرَّةً أخرى، فلو عدت لآخذ مصروفي منه، لعاد يملي عليَّ حياتي. هذا لا يعني أنِّي امتلكت حريَّتي تمامًا كما أردت على الإطلاق، لأنَّ هناك الكثير من القيود الاجتماعيَّة التي تحدُّ من حريَّتنا، حتَّى لو امتلكنا استقلالنا الماليَّ. لكنَّ هذا الاستقلال يمنع الآخرين من إملاء سلوكنا علينا، بوصفهم من يصرفون علينا. لذلك حرصت على الاستمرار في العمل حتَّى لا يعود أبي للتحكُّم بحياتي، التي استمرَّت حساسيَّتي تجاهه حتَّى اليوم.

لم يزعجني ما فعلت، ولم أندم عليه، مع أنَّه أزعج أبي الذي شعر بالحسرة تجاه ما فعلت. صحيحٌ أنَّه التزم بوعده ولم يحاول ثنيي عن قراري وإقناعي بالعودة إلى دراستي، لكنَّ هذا لا يعني أنَّه لم يلمِّح وبكلماتٍ جارحةٍ إلى فشلي بأن أكون ما أستحقُّ. تجاهلت تلميحاته، وأعرف الألم الذي كان يصيبه جرَّاء ذلك. عرفت ذلك جيِّدًا عندما أصبح عندي أولاد، كيف يفكِّر الأب بمستقبل أولاده والخوف الذي يصيبه على مستقبلهم؟ فهمت أبي أكثر، لكنِّي لم أقتنع بالأسلوب التربويِّ الذي اعتمده في مصادرة حياتنا. لم يثق أبي بنا وبقدرتنا على إدارة حياتنا، ولم يجرِ أيَّ تغيُّرٍ على هذه القناعة التي حملها عنَّا ونحن أطفال، وبقيت ذاتها بعد أن أصبحنا آباء

وأمهاتٍ. بقينا في نظره الأولاد والبنات الفاشلين الذي دمَّروا مستقبلهم ولم يعرفوا كيف يديرون حياتهم. وعندما اقتنع ألَّا فائدة منَّا جميعًا، وأنَّنا لن نكون قادرين على الاستغناء عنه، لا سيَّما مع فشل إخوتي عدنان وأحمد فشلًا ذريعًا في الدراسة، أنهيا المرحلة الإعداديَّة بصعوبةٍ، وتوقَّفا عن الدراسة بعدها. ولم يستطيعا أن يكتسبا مهنةً جديدةً، رغم أنَّهما تنقَّلا بين مهنٍ عدَّةٍ من دون أن يتقنوا أيًّا منها، جمعهما هوسهما بالصيد الذي تسبَّب لهما ولنا بالكثير من المشكلات. أبي الذي اقتنع بفشلنا المطلق، عمل على حلِّ مشكلتنا الرئيسيَّة المستقبليَّة، وهي تأمين منزلٍ لكلٍّ واحدٍ منَّا، لأنَّه ظنَّ أنَّ أيًّا منَّا لن يكن قادرًا على تأمين بيتٍ خاصٍّ له، وكان محقًّا. لذلك عليه التصرُّف، لأنَّنا مشروع حياته الوحيد. فكان لا بدَّ من إعادة ترميم العائلة بعد أن تشظَّت، وخيَّبنا كلَّ آماله بمستقبلٍ تعليميٍّ عالي المستوى، فشلنا فيه كلُّنا، ما عدا أختي فاتن الوحيدة التي استطاعت التخرُّج في كليَّة الآداب ـ قسم اللغة الانكليزيَّة، ولحقتها بعد سنواتٍ طويلةٍ أختي سمر التي تخرَّجت في جامعة دمشق. كانت فكرة أبي هذه المرَّة بسيطةٌ، لا يريد التحكُّم بحياتنا من خلال أخذ القرار بدلًا عنَّا، بل هو سيقدِّم لنا ما يعتقد أنَّه ضروريٌّ ونحن نستطيع أن نقبل أو نرفض، وطبعًا لم يكن أيٌّ منَّا يستطيع الرفض. بالاتفاق مع أمِّي، قرَّر إعادة بناء البيت الذي نسكنه، على أن يكون أربع شقَّقٍ، لكلِّ رجلٍ منَّا شقَّةٌ، والرابعة يسكنها هو وأمِّي وهي للبنات أيضًا. في الوقت الذي جعل الطابق الأرضي كلَّه محلَّاتٍ تجاريَّةٍ. قرَّر السكن بالشقَّة الشماليَّة في الطابق الأوَّل من البناية التي بناها. وعندما قرَّر توزيع الشقق الباقية علينا، لم يقبل بأن يختار كلٌّ منَّا شقَّته أو نتفاهم على تقاسمها. اتخذ قراره باختيار الشقق عن طريق القرعة. يسجِّل كلَّ شقَّةٍ على ورقةٍ منفصلةٍ، وكلٌّ منَّا يسحب ورقةً، والشقَّة التي في الورقة هي شقَّته. لم أكن مهتمًّا، لأنَّ كلَّ الشقق تشبه بعضها من ناحية المساحة، وكلُّها في البناية نفسها، ليس لواحدةٍ ميِّزاتٍ على

أخرى، كلُّها مكشوفةٌ من الخلف لأنَّها تطلُّ على فناء المدرسة، وهذا ما يعطيها مجالًا واسعًا، ومن الأمام مطلَّةٌ على الشارع نفسه وكلُّ البنايات في الشارع لها ارتفاع ثلاث طبقاتٍ، أي لا طوابق مرتفعةٌ حتَّى تشكِّل عيبًا. لقناعتي هذه قلت لإخوتي أن يسحبا أوراقهما فأنا راضٍ بأيِّ شقَّةٍ، كلُّها سواءٌ بالنسبة لي. عندما فرز أبي الأوراق. الشقَّة المقابلة لبيت أهلي كانت من نصيب أحمد، والشقَّتين في الأعلى كانتا من نصيبي ونصيب أخي عدنان. قَبِلَ كلٌّ منَّا بنصيبه، وعندما أراد أحمد وعدنان تبادل الشقق رفض أبي بشدَّةٍ ودعمته أمِّي. وكانت الحجَّة أنَّ التبادل سيخلق مشكلاتٍ مستقبليَّةً بين الزوجات، اللواتي كنَّ ما زلن افتراضيَّاتٍ. حاول الاثنان إقناع أبي لكنَّهما لم يستطيعا، وطلبا منِّي التكلُّم معه بهذا الشأن، ولم تكن النتيجة أفضل. قال لي: «أنت ما بتعرف إنُه كثير من المشاكل الكبيرة، ولدت من هاي الأشياء التافهة الصغيرة. وأنا ما بدي وجع الرأس، بكفي اللي شفتُه منكم» خجلت من نفسي، فقد كان هذه المرَّة كلامًا مباشرًا موجَّهًا لي وليس تلميحًا. استغربت أن يصرَّ أبي على القرعة، مع أنَّ إخوتي موافقون على التبادل. بعد سنواتٍ وبعد زواجهما، وخلافات زوجتيهما على الصغيرة والكبيرة، قلت، كان أبي وأمي على حقٍّ في قراءة المستقبل، لو وافقا على التبادل لتحوَّل إلى مشكلةٍ كبيرةٍ بينهما، أو بين زوجاتهم على الأقل.

لم أبقَ في العمل ذاته، صحيحٌ أنِّي بقيت أعمل جزئيًّا في كهرباء المنازل وتمديداتها وتصليحها، لكنِّي انتقلت للعمل في معملٍ للإبر الطبيَّة، مع وليد صديقي في الجامعة، الذي سيصبح فيما بعد زوج أختي ميرفت. شكَّل الانتقال إلى الوظيفة عامل استقرارٍ لي. عندما يعمل المرء في الورشات المتفرِّقة في المنازل، لا يمكنه حساب دخله، هناك أيَّامٌ فيها عمل وبالتالي فيها مالٌ، وهناك أسابيع بلا عملٍ، يعني بلا مالٍ. من الصعب توزيع الدخل في هذه الحالة بين الأيَّام التي يملك المرء فيها مالًا وبين الأيَّام التي لا يملك. وبما أنِّي رجلٌ غير منظَّمٍ، فكانت حالتي الماديَّة في فوضى دائمةٍ، أحيانًا معي

الكثير من المال، وأحيانًا أستدين. جعلت الوظيفة لي راتبًا ثابتًا أتقاضاه في نهاية الشهر، وهو ما رتَّب حياتي الماليَّة على نحوٍ أفضل. وعندما أكمل أبي بناء الشقق السكنيَّة، أصبح وضعي جاهزًا للزواج. صحيحٌ أنِّي مررت بقصص حبٍّ ساذجةٍ وأنا مراهقٌ وفي السنة الأولى من الجامعة، إلَّا أنَّها لم تكن جديَّةً، ولم تعلِّم في روحي، كما كان أصدقائي يتكلَّمون على قصص حبِّهم. وعندما فكَّرت بالزواج، فكَّرت بطريقةٍ عقلانيَّةٍ وحسابيَّةٍ، على غير الطريقة المعروفة عنِّي.

داهمتني فكرة الزواج، عندما تعرَّفت في زيارةٍ إلى بيت عمِّي عمر على أخت زوجته. شعرت أنَّ هذه المرأة المناسبة لي، وأستطيع أن أقول وقعت في حبِّها منذ شاهدتها، كانت فتاةً جميلةً وخجولةً، عيناها اللوزيَّتين ساحرتان، امرأةٌ بطولٍ جميلٍ وبجسدٍ ساحرٍ. عندما شاهدتها توقَّعت أن تكون أيَّ أحدٍ إلَّا أخت زوجة عمِّي، فلم يكن هناك أيُّ شبهٍ بينهما لا في الشكل ولا في التعامل. لم أعرف كيف أتعامل معها، ولم أعرف كيف يمكن أن أحصل على موعدٍ، ولم أجرؤ أن أطلب ذلك من عمِّي أو من زوجته، للتعرُّف عليها. قلَّبت أفكاري كلَّها، لم أجد وسيلةً من الممكن أن أصل بها إليها، سوى الطلب من أهلي أن يتقدَّموا لطلب يدها لي. عندما أخبرت أمِّي، لم يعجبها الأمر، فأحالته إلى أبي، الذي استفزَّه الموضوع، فهو لا يرغب في أن يكون أحد أبناءه زوجًا لابنة رجلٍ يشكُّ الجميع في مصدر ثروته، ويعتقد جازمًا، أنَّ ثروته جاءت من الحرام والغشِّ، فلا يمكن لعاملٍ عاديٍّ أن يجمع كلَّ هذا المال، وبهذه السرعة من العمل النظيف. لم يقل لي هذا مباشرةً، حافظ على وعده بأنِّي سأفعل ما أشاء في حياتي، نقلت أمِّي كلامه لي، قلت لها: «أنا بدي أتجوز البنت، مو أبوها»، وكان لأبي رأيٌ آخر، أنَّ الشخص مهما شذَّ عن أهله، لا بد من أن يتأثَّر في البيئة التي تربَّى بها، وهي لن تكون ملاكًا كما أظنُّ أنا. لم أجادل أبي، ولم يقف هو في طريقي، ولم يأخذ أيَّ موقفٍ من زوجتي، عاملها على نحوٍ حسنٍ جدًّا. لكنَّ الطلب

الوحيد الذي تمنَّاه عليَّ، والذي قاله لي مباشرة: «أتمنى تروح تخلص عسكريتك قبل ما تتجوز. الزواج مسؤوليَّة، ما رح يخليك ترفع راسك، خلصها هلأ، أحسن الك»، قلت باستهتار: «ما عليك يابا، أنا بدبر حالي مع العسكرية»، تقدَّم أبي لطلب يد فرح، وجاءت الموافقة سريعًا، وأنا الذي كنت خائفًا من رفضهم لي.

فرحت بما حصلت عليه، أنا قرَّرت وحصلت على ما قرَّرته، ويبدو أنَّ مسألة القرار أصبحت عقدةً بالنسبة لي، وصرت أرى في أتفه الأشياء الحاجة إلى قرارٍ حاسمٍ. وكأنِّي لا أميِّز بين الأشياء المهمَّة والأشياء التافهة بسبب هذه العقدة التي عانيتها تجاه مصادرة قراري سابقًا. لكنَّ الصورة الجميلة للزواج سرعان ما تبدَّدت. أن تُعجَبَ بامرأةٍ تراها لمرَّةٍ واحدةٍ أو لمرَّاتٍ عدَّةٍ، وتقرّر أن تتزوَّجها بناءً على هذه المرَّات المحدودة وقبل أن تعرفها، هو قرارٌ أحمق، لا سيَّما أنَّنا في مثل هكذا قراراتٍ نفكِّر بربط مصيرنا مع هذا الشخص طوال حياتنا. وتلك المرأة الجميلة التي بدت امرأةً ساحرةً في ذلك اللقاء اليتيم في بيت عمِّي، أصبحت مرتبكةً خلال فترة الخطوبة، التي لم تكن طويلةً كما اشترط والدها، شهران لا غير، وهي مدَّةٌ لا يستطيع المرء أن يعرف نفسه التي يرافقها طوال الوقت. وخلال هذه المدة القصيرة لم ألتقِ بها لوحدنا سوى ثلاث مرَّاتٍ، ولم أستطع أن أدير حوارًا جديًّا معها حول مستقبل حياتنا، كانت سعيدةً بالهدايا والأجواء الساحرة للخطبة والعرس، ولم تكن ترى شيئًا غير ذلك. أرادت أن تشتري أفضل ما في السوق، وتقيم أفضل حفلة عرس و... و... ليس لأنَّها تريد هذا، بل لأنَّها تريد تكريس مكانتها ومكانة أهلها في عيون الآخرين. تركتها تفعل ما تشاء، وقلت هي فترةٌ وتمضي وسرعان ما تعود الحياة لطبيعتها، وتنتهي الفقاعة، وتخرج هي من ارتباكها ونعيش مثل كلِّ الناس، حياةً متواضعةً وسعيدةً. لم يحدث هذا، فالمرأة التي ظهرت مختلفةً عن أختها في كلِّ شيءٍ يوم قابلتها أوَّل مرَّةٍ، أو هكذا أردتها أن تكون، هذه رغباتي وليس واقع تلك المرأة. هي

تشبه أختها في العمق وإن اختلفت قليلًا من ناحية الشكل. أي لها ذات الاهتمامات والأفكار والأحكام والنظرة إلى الأشياء. ويبدو أنَّ ذلك يعود إلى ما عدَّه أبي تأثير البيئة التي تربَّوا فيها، والتي لم أكن أعترف بها قبل زواجي، لأنِّي ظننت أنَّ العائلات في المخيَّم تعيش على نحوٍ متقاربٍ والفروق بينها فروقٌ طفيفةٌ، كنت ساذجًا، وخبرتي في الحياة متواضعةٌ. من جانبٍ آخر جمَّلت الأمر لنفسي، لأنَّ الموضوع لم يكن كلُّه إعجابٍ ساحقٍ بالفتاة، لقد كانت لي حساباتي الانتهازيَّة في هذا الزواج، وهي لا تختلف عن حسابات عمِّي عمر الذي كنت أنتقده عليها. لم أختلف عنه، وكنت قادرًا على إخفاء حساباتي على نحوٍ أفضل منه. جمع والد فرح ثروةً كبيرةً، مشروعةً أم غير مشروعةٍ لم يكن سؤالًا يعنيني، وعندما قلت لأبي: «أنا بتجوز البنت مش أبوها» لم أكن صادقًا تمامًا، لو لم يكن والدها أبو السعيد صاحب مكاتب السيَّارات العديدة الموجودة في المنطقة الفاصلة بين المخيَّم والحجر الأسود، وهي من أكبر أسواق السيَّارات المستعلمة في مدينة دمشق، ولو لم يكن يملك بناياتٍ ومزارع موزَّعةً عديدةً في محيط دمشق، لما فكَّرت في تلك الفتاة، لا سيَّما أنَّ والدها شخصٌ مُنفِّرٌ للغاية. فهو صاحب لسانٍ قذرٍ، ليس على لسانه سوى الشتائم، يحاول أن يُظهِرَ طيبةً، لكنَّه سرعان ما ينقلب على الوجه الآخر، لا يثق بأحدٍ، حتَّى بأولاده، ليس له حديثٌ سوى المال، ما ربح وما خسر، ما اشترى وما باع، ولا يخلو حديثه في كلِّ أربع أو خمس جملٍ من شتيمةٍ بهذا الاتجاه أو ذاك. يقضي وقته في التدخين، يدخِّن في اليوم حوالي مئةٍ وعشرين سيجارةً، أي ما يعادل ستة علبٍ من سجائر الحمراء الطويلة السوريَّة، وهي السجائر ذات رائحةٍ نفَّاذةٍ. منذ يستيقظ في الصباح حتَّى ينام لا تغادر السيجارة يده، وغالبًا ما يشعل السيجارة من أخرى، جلُّ نهاره موزَّعٌ بين السعال والشتائم تتخلَّلهما بعض الكلمات عن العمل والمال. زوجته أم سعيد امرأةٌ في غاية الطيبة، تخاف منه، قليلة الكلام، حاولت رغم خوفها أن تحمي أولاده منه، نجحت أحيانًا وفشلت

أغلب الأحيان، لأنَّه رجلٌ لا يمكن أن يردَّه شيءٌ، رجلٌ يتَّسم بالوقاحة والتهوُّر، فلا شيء ولا أحد يردعه عمَّا يريد فعله. هو رجلٌ لا يعرف الخجل، رجلٌ يمكن أن يُقَال عنه أنَّه نموذجٌ للرجل القذر. لم يتمرَّد أحدٌ من أولاده عليه، باستثناء ابنه سعيد الذي تزوَّج المرأة التي أحبَّ بالرغم من إرادة أبيه، لم يتركه بحاله، وكان يلاحقه ويلاحق زوجته بالشتائم في الشوارع، لم يعرف المسكينان ما الذي يفعلانه؟ ولم يكن أمامهما، سوى الفرار من البلد إلى السعودية، التي ذهبا إليها بعقد مدرِّسةٍ لزوجته، وهي المهنة التي عملت فيها في البلد. واستطاع هو أن يجد عملًا في مختبرٍ للتحاليل الطبيَّة، فهي دراسته التي أنجزها بعد الثانوية، ليعيشا بسلامٍ بعيدًا عن مضايقاته. كان الأولاد الآخرون والبنات الأخريات يصابون بالرعب منه. ينفِّذون أوامره بحرفيَّتها، وإذا أخطأ أيٌّ منهم، تلاحقه الشتائم واللعنات واللسان الحادُّ طوال الوقت. وهذا يصيب الأولاد أكثر من البنات لأنَّهم وفي فترةٍ مبكرةٍ من حياتهم، أخذهم ليعملوا معه، وهذا حطَّم شخصيَّتهم، لم يكن يردعه رادعٌ من شتيمتهم أمام الآخرين، وأيُّ أحدٍ يتدخَّل من أجل التخفيف من غضبه، كان يشمله بالشتائم. لم تكن شتائمه ولعناته المخيفة تعني له شيئًا، كانت عادةً مثل تدخينه، وهي لا تعني أنَّ على الآخرين تعديل سلوكهم لأنَّهم نالوا الشتائم واللعنات، فهو بعد قليلٍ سرعان ما يعود للتعامل معهم على نحوٍ طبيعيٍّ، يضحك ويسخر كأنَّ شيئًا لم يكن. طبعًا لم أكن أعرف هذا قبل زواجي، كنت أعرف الشيء الرئيسيَّ عنه، لأنَّ الرجل لا يخفي طبيعته، كما أنَّ عمِّي عمر كان قد مضى على زواجه أكثر من عشر سنواتٍ عندما تزوَّجت أنا من ابنته. عرفت وتجاهلت، يملك الرجل ثروةً طائلةً، يمكن أن تحمي مستقبل أولادي. لم أعترف بذلك حتَّى بيني وبين نفسي، لكنَّ حقيقة الأمر كانت، أنِّي اتخذت لنفسي زوجةً، لطيفةً وجميلةً وفهيمةً ومدعومةً بتركةٍ كبيرةٍ قادمةٍ ولو بعد حين. كان هذا في الخلفيَّة البعيدة لقراري، وكانت خلفيَّةً واعيةً وليست خلفيَّةً غير واعيةٍ. غلَّفتُ ذلك بالزهد المعروف

عنِّي، فعندما تركت دراستي، زهدت بكلِّ شيءٍ، لم أكن أرغب في شيءٍ، وعندما بدأت العمل رغبت في التخلُّص من العلاقة الماليَّة مع أبي. كلُّ ذلك أظهرني بمظهر الزاهد، وقد أحببت صورتي هذه، وحافظت عليها. المشكلة أنَّ المرأة التي ظننت أنَّها ستكون مختلفةً، سرعان ما تكشَّفت عن شخصٍ باهتماماتٍ تافهةٍ، وأنَّها امرأةٌ مملَّةٌ، من المستحيل أن نصنع معًا العائلة التي تصوَّرتها. لكنِّي لم أكن قادرًا على الاعتراف بهذا، حتَّى لا أعترف أنَّ قراري بالزواج، كان أحمقًا، رغم أنَّه من القرارات القليلة التي اتخذتها بخياري، ليس تحت الضغط ولا تحديًّا لقرارات أبي. شعرت أنَّ الاعتراف بهذا الفشل، يعني اعترافي بعدم قدرتي على إدارة حياتي. فإذا كانت كلُّ القرارات التي اتخذتها قراراتٍ خاطئةً متى سآخذ قرارًا صحيحًا؟! كان عليَّ أن أسكت، أعضَّ على جرحي، وانتظر الفوز في النهاية، على الأقل فوز أولادي، أمَّا أنا فلا أريد شيئًا لنفسي.

ظننتُ بناء العائلة سيصنع لي السعادة، اكتشفت أنَّ السعادة مرتبطةٌ بالشخص، وليس بما يقوم به، أي أنَّ هناك أشخاص سعداء، سعداء بكلِّ ما يقومون به، والأزمات لا تمنعهم من الإحساس بسعادتهم، بل تعطيهم الحماسة الإضافيَّة لهذه السعادة، لأنَّ الحياة صعبةٌ، فهي تستحقُّ أن نستريح منها ببعض السعادة التي نصنعها كأفرادٍ يملكون حياتهم بصرف النظر عن الشروط التي يعيشون فيها. أنا لا أنتمي إلى هذه الفئة من البشر، لست سعيدًا ولا أعرف صناعة السعادة، وكلَّما ظننت أنَّ فعلًا ما أو إنجازًا ما سيجلب لي السعادة، أكتشف أنِّي واهمٌ، ما أوصلني إلى قناعةٍ أنَّ الحياة هي سلسلةٌ من حوادث الملل التي لا تنتهي. ويبدو أنَّ علاقاتي أثَّرت في هذه الفترة من حياتي، فقد أصابني عملي في المعمل مع أختي ميرفت ومع زوجها وليد لسنواتٍ طويلةٍ، بحالة تشبه حالة الإصابة بمرضٍ عن طريق العدوى. رغم أنَّنا لا نشبه بعضنا نحن الثلاثة، إلَّا أنَّ هناك شيءٌ مشتركٌ وسمنا بصفةٍ معيَّنةٍ، وجعلنا حزبًا واحدًا بنظر الآخرين. لقد فشلنا

نحن الثلاثة بدراستنا، وفشلنا بأن نكون مهندسين، أي أصحاب مهنةٍ واحدةٍ وإن باختصاصاتٍ مختلفةٍ. وظهر للبعض أنَّ فشلنا سبب صداقتنا، وظهر لآخرين العكس أنَّ صداقنا هي سبب فشلنا، وفي الحالتين الفشل كان بسبب العدوى. طبعًا لم يكن الأمر كذلك، لا هذا ولا ذاك، كلٌّ منَّا فشل لأسبابه الخاصَّة، وصداقتنا ليس لها علاقةٌ بالموضوع لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ. صحيحٌ أنَّ العمل في مكانٍ واحدٍ جعلنا أقرب لبعضنا البعض، لكنَّا لم نكن متقاربين بالصورة التي يراها الآخرون. لا سيَّما بعد زواج وليد وميرفت، الذي كان زواج التحدِّي الناجح من وجهة نظرها، لذلك دعمته، لأنِّي وجدت أنَّهما يقومان بما هو منطقيٌّ، ومن حقِّ ميرفت أن تقرِّر مع من ستعيش حياتها، حتَّى لو كان ذلك لا يعجب أبي، فهذه حياتها وهي حرَّةٌ فيها. وكان وليد الشخص المناسب لها، لم تكن خطبةً تقليديَّةً كما فعلت أنا فيما بعد، بل علاقة حبٍّ شهدتها أروقة ومقصف الجامعة وطرق دمشق التي لطالما مشوها معًا يخطِّطون لمستقبلٍ، لن يروه في أيِّ يومٍ من حياتهم التالية. زواج الأحلام شيءٌ، وزواج الواقع شيءٌ آخر. خطَّطوا لزواج الأحلام، لكنَّهم وجدوا أنفسهم في زواج الواقع الذي لا يرحم. لم يكونا جاهزين للتجربة، وظنَّا أنَّ الحبَّ سينتصر على كلِّ الصعوبات. لم يعرفا أنَّ الحب ليس سلاحًا، ولا يمكنهما المحاربة به، يمكن المحاربة من أجله بأسلحةٍ أخرى، لكنَّه هو بالذات لا يصلح سلاحًا في معركة الحياة، لأنَّه سرعان ما ينكسر، وهذا ما جرى معهما بالضبط. شعر وليد أنَّ حمله ثقيل وأكثر من قدرته. قاوم بعض الوقت، وبعد أن أنجب ابنته الأولى سرعان ما دخل في حالةٍ من الكآبة والإحباط، وشعر بالندم على الخطوة التي أقدم عليها، والتي عرف أنَّها أكبر منه، لكن بعد فوات الأوان، وهو الندم الذي لم يستطع الإعلان عنه. أمَّا ميرفت فذهبت برحلةٍ معاكسةٍ، فنحن من عانينا من مبالغة حضور أبي في حياتنا، ومصادرته لقراراتنا، التي كان يأخذها بدلًا منَّا، وهو ما وجدنا أنفسنا مخنوقين بسببه، ما جعلنا نكره حياتنا في هذه

الشروط. وجدت نفسها في الحالة النقيضة، أمام زوجٍ منسحبٍ من كلِّ شيءٍ، لا يتحمَّل مسؤوليَّة أيِّ شيءٍ، وعليها أن تتحمَّل كلَّ التبعات والمسؤوليَّات عن الوضع الذي أصبحا يعيشانه. وجدت نفسها تعيش في حياة لم تتوقَّعها، لذلك شعرت أنَّ الحب سرعان ما هرب من حياتهما، أو كان وهمًا عاشوه قبل الزواج. طبعًا، كان يمكنها التراجع عن خيارها، وتنفصل عن زوجها وتعيد ترتيب حياتها من جديدٍ، لكن ما ردعها، هو رفضها الاعتراف بأنَّ قرارها بالزواج من وليد، لم يكن خطأً فحسب، بل الحماقة ذاتها. عدَّت أنَّ الخيار الذي اتخذته، هو قرارها بتحدٍ سافرٍ لأبي، كان يمنعها من الإقدام على الطلاق والعودة إلى بيت أهلي ذليلةً محطَّمةً، بسبب قرارٍ أحمق اتخذته في لحظة غضبٍ، حطَّمت حياتها لأنَّها ببساطةٍ لم ترغب في الاعتراف بأنَّ قرارها بالزواج خاطئٌ. ووليد نفسه لم يفكِّر في الإقدام على هذه الخطوة. شعرت في كثيرٍ من الحالات كأنَّهما يستمتعان بحالة التعذيب المتبادلة التي يعيشانها. كثيرًا ما تدخَّلت في خلافاتهما لأنِّي أقرب شخصٍ لهما، تدخَّلت سواءً عندما طلبا ذلك بعد أن استعصت الخلافات بينهما، أو عندما يصلني خبر خلافٍ بينهما، أتدخَّل من تلقاء نفسي، كنت أعرف الكمَّ الكبير من البراءة المخفيِّ وراء هذه الخلافات العقيمة، ولأنَّهما كذلك، كان عليهما الانفصال، لم أقل لهما هذا في يومٍ من الأيَّام، كنت على قناعةٍ أنَّ هذا الحل الأفضل لهما، لم يجرؤ أحدهما على اتخاذ هذا القرار الكبير. أنا مثلهما لم أعترف أنَّ قراري بالزواج من فرح كان أحمقًا، فبقيت أعيش معها على مضضٍ، رغم أنَّ كلَّ يومٍ تزيد الفجوة بيننا. حاولت مساعدتهما بكلِّ ما استطعت، كنت أعرف كم هما شخصان طيِّبان عاكستهما الحياة أكثر من اللازم. ولم تمنحهما ولا فرصةً واحدةً ليظهرا مواهبهما وقدراتهما وذكائهما، وهما مثالٌ حيٌّ عن سوء الحظِّ في الحياة.

عندما كنت أرى بؤس أختي ميرفت الفتاة الواعدة أسأل نفسي، هل أشبهها؟ كنت أجيب، نعم ولا. أشبهها ليس لأنَّنا تربَّينا في المنزل ذاته، ولا

لأنَّنا من الأبوين ذاتهما، أشبهها في روح الرفض التي وُلِدَت عندنا في مقاومة مصادرة حياتنا من أجل خيرها ومستقبلها. من المؤكَّد لو تعامل أبي معنا بطريقةٍ أخرى لاختلفت مصائرنا، ولكان مصير ميرفت مختلفًا أكثر منِّي، لأنَّها فتاةٌ فائقة الذكاء، كان لها مستقبلٌ كبيرٌ، أيًّا كانت الدراسة التي ستدرسها باختيارها. لم تؤثِّر مصادرة حياتها على مستقبلها فحسب، بل أثَّرت في طبيعتها أيضًا، تحوَّلت الفتاة الواثقة من نفسها إلى شابَّةٍ متردِّدةٍ، ليس واثقةً ممَّا تريد، ولا واثقةً من إمكانيَّاتها، تتعثَّر بكلِّ شيءٍ، وهي لا تشبه نفسها عندما كانت فتاةً صغيرةً بأيِّ شيءٍ. يتغيَّر البشر، هذا صحيحٌ ولكن لا يمكن لفتاةٍ مثل ميرفت أن تتحوَّل إلى المرأة التي أصبحت عليه بعد ذلك. أشبهها في كلِّ هذا، وإذا كانت ثقتي بنفسي مهزوزةً، لكن أقلَّ منها، ولكنَّ الفرق الذي بيننا، ليس في طريقة الحياة التي عشناها، ولا طريقة التمرُّد عليها التي دمَّرت مستقبلنا المتوقَّع. الفرق الوحيد أنَّ ميرفت رضيت بحياتها، وأصبحت قانعةً بالمصير البائس المتوقَّع مبكرًا، لم تحاول التمرُّد عليه ولا تغييره، استسلمت له نهائيًّا، وفقدت كلَّ قدرةٍ على المقاومة. أما أنا لم أرضَ يومًا عمَّا عشته، ولم أرضَ عمَّا فعلته في حياتي، وحاولت تغيره المرَّة بعد المرَّة، صحيحٌ أنِّي فشلت، لكنِّي بقيت أحاول حتَّى جاءت الحرب، التي جعلتني استسلم، بطريقةٍ أسوأ من الطريقة التي استسلمت فيها ميرفت.

كيف نجعل حياتنا مهمَّةً؟ رغم أنِّي تأمَّلت هذا السؤال كثيرًا، لكنِّي لا أملك إجابةً عليه، يملك الكثير من الناس حياةً في غاية التفاهة، لكنَّهم يعتقدون أنَّ حياتهم في غاية الأهميَّة، وهم مركز الكون وليس مركز المحيطين بهم فحسب. أما أنا تبدَّدت كلُّ الأوهام في أن تكون حياتي مهمَّةً في مرحلةٍ مبكرةٍ من حياتي. لأنِّي لم أعرف بالضبط ما الذي يعنيه أن تكون الحياة مهمَّةً، لم أرَ حياةً مهمَّةً، إنَّها حيواتٍ أكثر أو أقل، لا حياة مهمَّةٌ، كلُّ الحيوات تافهةٌ في نهاية المطاف بالنسبة لي. قلت هذا في لحظات الغضب،

تحوَّل قولي مع الوقت إلى قناعةٍ بعد ما شاهدته من تجارب في هذه الحياة البائسة. يخترع الناس أهميَّةً لحياتهم، والآخرون يقنعون صاحب أيَّ نفوذٍ في الحياة بأنَّه مهمٌّ لأنَّ لهم مصالح معه، أمَّا في قناعتهم الشخصيَّة العميقة فهو شخصٌ تافهٌ، تجعلهم مصالحهم يصوِّرون له حياته على أنَّها مهمَّةٌ، وأصحاب الحياة يصدِّقون هذه الأكاذيب. لم أظنَّ حياتي مهمَّةً يومًا، ولا أحد يستطيع إقناعي أنَّها كذلك، سواءٌ أكان له مصالح عندي أم لا. وُلِدَت هذه القناعة عندي من إصرار أبي على أنَّ مستقبلي مهمٌّ وأنا شخصٌ مهمٌّ، كثرة الكلام عن ذلك في صغري، أوصلني إلى قناعة أنَّ الحديث عن الأهميَّة في حدِّ ذاته تفاهةٌ، لذلك ليس مهمًّا أيَّ شخصٍ أكون في الحياة، وأيَّ عملٍ أعمل، المهم ألَّا يقع ذلك في دائرة الأهميَّة التافهة التي أظنُّها. تركت دراستي وعملت كهربجي، لاعتقادي أنَّ هذه هي الحياة الحقيقيَّة وتلك التي يمكن أن أشغلها في حال أكملت دراستي هي حياةٌ غير حقيقيَّةٍ، هل ندمت على أنِّي فعلت ذلك لأنِّي لم أكمل حياتي كمهندس ميكانيك؟ لم أندم على ذلك إطلاقًا، ولم أرَ حياة زملائي في الجامعة الذين أكملوا دراستهم أفضل من حياتي. ولم أرَ سوى فارقٍ شكليٍّ بين حياتهم وحياتي أنا العامل وهم الموظَّفون. وسرعان ما تحوَّلت إلى موظَّفٍ مثلهم، ولأنِّي أعمل في القطَّاع الخاصِّ، لم يختلف راتبي عن راتبهم، حتَّى أنَّ زملائي في العمل أصرُّوا على أن يلقِّبوني بالمهندس، رغم أنَّه لقبٌ لا أحبُّه ولا أستحقُّه. فضَّلوا ذلك لأنَّهم ظنُّوا أنَّ من حقِّي أن أحصل عليه، وأنا نفسي درست في كليَّة الهندسة، وأفهم في «مهنتي أكثر من المهندسين» كما يقولون. لم يغريني هذا الكلام بإعطاء أهميَّةٍ لنفسي، ولم يقنعني أنِّي أكثر أهميَّةً في مهنتي من المهندس. لأنِّي أعرف أنَّ المهندس أكثر معرفةً منِّي بحكم دراسته، وبحكم ما عرفته من سنوات الدراسة القليلة التي قضيتها في الجامعة. قناعتي بعدم أهميَّة شيءٍ، جعل حياتي أصعب، بدل أن يجعلها أسهل، لأنَّ أيَّ إنجازٍ أصبح لا معنى له، ويقع في إطار التفاهة. وكلَّما غيَّرت حياتي، ظننت هذا التغيير

سيجعل حياتي أفضل، لكن سرعان ما أعود إلى المربَّع الأوَّل، لأجد التغيُّر تافهً، كغيره من التغيُّرات التي صنعتها سابقًا، والتي لم تشكِّل أيَّ فرقٍ في حياتي، هذه الحياة التي تعود المرَّة بعد الأخرى إلى المربَّع الأوَّل، كلُّ شيءٍ تافهٌ في حياتي التي لا يمكنها مغادرة هذا المربع الذي يظهر كأنَّه لعنة حياتي.

تستمرُّ الحياة مهما كانت وجهة نظرنا فيها، لا تنتظرنا، تقضم أعمارنا يومًا بعد يومٍ، من دون أن ننتبه، وعندما ننتبه يصبح لا معنى لهذا الانتباه، كما نصبح غير قادرين على فعل شيءٍ تجاه ما حدث. وعلى هذا المنوال سارت حياتي. تزوَّجت وبعدها رزقت ببنتين وولد. وسكنت في البيت الذي أعطتني إياه قرعة أبي، بقيت أعمل في وظيفتي في المعمل، حتَّى إغلاقه في بداية الأحداث في البلد.

بعد سنواتٍ من زواجي، استبدلت عملي المسائيَّ في ورشات البناء ككهربائيٍّ، بالعمل في مكاتب بيع السيَّارات المستعلمة التي كان حماي يملكها ويعمل بها هو وأولاده. طلب منِّي المرَّة بعد المرَّة العمل معهم، وكذلك أولاده، فعملت معهم، في أثناء حياة حماي، لكن سرعان ما تركت العمل مع أولاده بعد وفاته. لم أرغب في الظهور وكأنِّي أراقب ميراث زوجتي. اقتصر عملي على وظيفتي، وبعد موت والد فرح، أصبح لها نصيبها من مردود محلَّات بيع السيَّارات المستعملة العائدة لوالدها، التي تقاسم الورثة عائدها بعد وفاته. جعلتني السنوات التي قضيتها في مكاتب بيع السيَّارات المستعملة، أعرف أنَّ الغشَّ في هذا القطاع لا يمكن تصوُّر حدوده. لم يكن هناك أيُّ ضمانٍ بإعادة السيَّارة المغشوشة بعد أن يشتريها الشخصُ، لذلك كان الكثيرون ممَّن يريدون شراء سيَّارةٍ، يصطحبون معهم ميكانيكيًّا حتَّى لا يتعرَّضوا للغش، لأنَّ سوق السيَّارات المستعملة معروفٌ بحالات الغشِّ التي لا تنتهي. يمكن للميكانيكيِّ اكتشاف الأعطال العاديَّة والظاهرة، ولم يكن قادرًا على معرفة الأعطال العميقة والمخفيَّة على نحوٍ جيِّدٍ من

ميكانيكيِّين دهاةٍ، كان يُطلَقُ عليهم في أوساط المكاتب تعبير «ميكانيكي بندوق» وهذا يعني أنَّه ذكيٌّ وعارفٌ لمهنته جيِّدًا، وعنده قدراتٌ هائلةٌ على الغشِّ بجعل السيَّارة تسير بأقلِّ الإصلاحات الممكنة، ولكنَّها ليست إصلاحاتٍ جيِّدةً، إذ تبدأ السيَّارة بالتهاوي بعد أسبوعٍ من شرائها. وهؤلاء الميكانيكيُّون لا يقدِّمون خدمة فحص السيَّارات في مكاتب البيع، لأنَّهم ببساطةٍ هم من أنجز «تسكيجها» وفق المصطلح المستخدم في السوق. لم أستطع العمل في هذه السيَّارات، ولم يكن مردودي الماليُّ من العمل في السيَّارات أفضل منه في ورشات تمديد الكهرباء. دفعني الفضول لهذا العمل أكثر ممَّا دفعني المال، وأردت أن أعرف كيف يعمل هذا العالم المبنيُّ على الكذب والغشِّ؟ لم تكن المسألة صعبةً، عندما تعمل في وسطٍ فاسدٍ، الجميع يشجِّع الجميع على ذلك، عندما تترك ضميرك في البيت وتأتي إلى السوق، فإنَّ المنافسة في سوق السيَّارات، لا تكون لمن يقدِّم خدمةً أفضل، بل لمن هو قادرٌ على الغشِّ أكثر، فكلَّما كنتَ أنجح في الغشِّ، حصلت على مالٍ أكثر، وكلَّما ارتفعت مكانتك في السوق، وحياة البشر التي تغامر فيها بغشِّك ليست مهمَّةً، فهذه السيَّارات ستمشي على الطريق، وتحمل بداخلها بشرًا لهم أرواحٌ. أعطال السيَّارة المخفيَّة لا تشكِّل خطرًا على الركَّاب فحسب، بل وأرواح المارَّة في الشارع أيضًا. لا يهمُّ أصحاب الضمير الميت مصائر الناس الذين يبيعونهم سيَّاراتهم المغشوشة. فهمت بعد ما شاهدته في سوق السيَّارات المستعملة، لماذا نسبة حوادث السيَّارات القاتلة مرتفعةٌ في البلد؟ هناك سيَّاراتٌ تمشي كقنابل موقوتةٍ على الطرقات في البلد، سرعان ما تنفجر، لأنَّها لا تصلح أصلًا للسير على الطرقات. إذا كنت شريفًا وما زال عندك ضميرٌ لن تجد مكانًا لك في هذه المهنة، فهي ليست مهنةً للشرفاء. لم أستطيع العمل على سيَّارةٍ مغشوشةٍ، لم أكن قادرًا على بيع سيَّارةٍ مغشوشةٍ، لم أتقبَّل فكرة أنِّي يمكن أن أتسبَّب بمقتل أو جرح شخصٍ ما، حتَّى خسارة أحدٍ المال، وأنا أعرف أنَّ واحدةً من هذه النتائج حتميَّةٌ. إذا لم أكن متأكِّدًا

من أنَّ السيَّارة التي أعمل على بيعها تعمل على نحوٍ جيِّدٍ، أو أنَّ أعطالها لا تتسبَّب في حوادث مميتةٍ، أو تجعل صاحبها يخسر خسارةً فادحةً، ما كنت أسهم في بيعها، لذلك إنَّ عدد السيَّارات التي بعتها يُعدُّ على الأصابع. كان حماي يقول: «والله يا عامر، أنت مش نافع لهالشغلة، قلبك ضعيف»، كان يُفسِّر رفض الغشِّ بالجبن، وهو ما دلَّ على أيِّ طريقٍ سلك عندما بنى ثروته في سوق السيَّارات المستعملة؟ وعلى رغم الغشِّ الهائل فيها، فليس من السهل أن تبني ثروةً من أعمال الغشِّ. ولا أظنُّ أنَّ حماي جمع ثروته من هذه السوق. لم أعرف أيَّ طريقٍ سلك لجمع هذه الثروة، وزادت حيرتي، بعد أن اشتغلت بعض الوقت في هذا السوق، الذي فهمته لحدٍّ ما، لكنَّه لم يفسِّر لي، كيف جمع حماي ثروته؟ أصحاب المكاتب الذين يكسبون من هذا الغش، يتقاضون نسبتهم مناصفةً بين البائع والشاري، لم يكن البائعون يعملون عند أصحاب المكاتب، فهم يقدِّمون أنفسهم بوصفهم مستقلِّين يبيعون سيَّاراتهم ويلجؤون لهذا المكتب لإنجاز الإجراءات الإداريَّة، لكنَّ هذا محض كذبٍ وتلاعبٍ بالزبائن. والزمن الأقصى لتجريب السيَّارة هو يومان، وبعدها لا أحد يتحمَّل مسؤوليَّة ما يحدث لها، سوى الشاري الذي انتقلت إلى اسمه، إلَّا في حال كانت السيَّارة تدور بين التجار أنفسهم، فهي لا تنقل في دائرة المرور، حتَّى يشتريها زبونٌ خارجيٌّ. وتقديم البائعون لأنفسهم كمستقلِّين عن أصحاب المكاتب يُعطي المساحة لأصحاب المكاتب لنفي أيِّ علاقةٍ معهم، وأنَّهم مجرَّد وسطاء، لا يعرفون شيئًا عن السيَّارة التي اشتراها الزبون. وكثيرًا ما كان حماي يزايد على الشارين بالقول: «رجعلُه الكمسيون يا ولد»، يقول الشاري: «ما بحكي هيك، منشان ترجعلي الكمسيون»، يقول وقتها: «علي الحرام، هذه المصاري ما بتفوت بيتي، أنا ما بأكل مال حرام. الله يلعن الغشَّاشين وعيشتهم، خربوا السوق الله يخرب بيتهم»، لو لم أكن أعرف كيف تسير العمليَّة في السوق لكنت صدَّقته وصدَّقت تعاطفه مع المشتري وصدَّقت كلماته. عندما يقبل المشتري بأخذ

الكمسيون بعد أيمانٍ لا تنتهي من حماي. ينظر إليه بحزنٍ شديدٍ، يربِّت على كتفه، ويقول له: «عمي، الله بعوضك» لم يكن يمثِّل، كان يقوم بدوره تمامًا، مقتنعٌ أنَّ ما يقوم به هو التضامن مع هذا المسكين، وكأنَّه لم يكن هو من أدار العمليَّة كلَّها من بدايتها إلى نهايتها، ما أعطاه مصداقيَّةً عند الزبائن، لأنَّ المكاتب الأخرى لا تعترف بالغش إذا حصل، وإذا اعترفت، فإنَّها لا تعيد حتَّى الكمسيون للشاري. كانت حركةً ذكيَّةً من حماي في سوق متوحِّشٍ للمال، لكنَّ هذه الحركة الذكيَّة، لا تجعل الآخرين محصَّنين ضدَّ غشِّه، بل على العكس تجعلهم قابلين للوقوع فيه المرَّة بعد الأخرى، في الوقت الذي يبدو بريئًا، تحت حجَّةٍ كان يكرِّرها دائمًا: «السيَّارات مثل النسوان، أنت وحظَّك، في مرة شريفة وفي مرة عايبة، وفي سيَّارة خلنج وفي سيَّارة مضروبة، ما بتعرف المرة المنيحة أو السيَّارة المنيحة، إلَّا لما تجرِّبها. ولما تجرِّبها بكون السبت فات بطيز اليهودي»، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول هذا المثال، يطلق الضحكة المجلجلة السخيفة ذاتها.

مع الأولاد تصبح الحياة أكثر صعوبةً، عندما يكونون أطفالًا صغارًا، يمكن السيطرة عليهم، وكلَّما كبروا ازدادت مشكلاتهم، وأصابنا المزيد من وجع الرأس. في الوقت الذي أعطانا السكن الجماعيُّ كعائلةٍ في البناء ذاته، ميزة ألَّا غرباء بيننا، وعندما يحتاج أحدنا إلى مساعدةٍ يجد الجميع حوله. هذه الميزات لا معنى لها مع العيوب التي يتسبَّب بها السكن الجماعي من مشكلاتٍ بين العائلات المؤلِّفة لهذه العائلة الكبيرة، لا سيَّما مع الخلافات النسائيَّة المعلنة والمبطَّنة، التي تنتقل أوتوماتيكيًّا إلى الأطفال المنحازين إلى أمَّهاتهم، وبعد ذلك إلى الأزواج الذين تنجرح ذكورتهم. وبذلك يصبح الوصول إلى الجيران الأقارب ممكنًا في أيِّ وقتٍ، ما يفتح المجال واسعًا للنميمة التي لا تنتهي. تستطع أيٌّ من الزوجات قضاء الوقت الذي تشاء عند الأخرى وبملابس المنزل، من دون أن تحتاج لتوصيل زوجها أو ابنها الذي قد يكون غارقًا في النوم منذ ساعاتٍ، في الوقت الذي تستمرُّ بأحاديث

النميمة والمؤامرات الصغيرة. فما يفصل أبعد بيتٍ عن الأخر، ستون درجةً في البناء نفسه، وهو ما حرَّرهنَّ وجعلهنَّ قادراتٍ على التنقُّل في أيِّ وقتٍ شئن بين بيوتهنَّ، لينقلن أكثر الأخبار تفاهةً. لا تصل الخلافات دائمًا إلى الرجال، ولكن عندما تصل وتصبح علنيَّةً، تصبح المواجهة واجبةً، وأسوأ أنواع المواجهة هي مواجهة الرجال بسبب كلام النساء عن شرف الأخريات، فلا يمكن التأكُّد من حقيقة الكلام، وكلُّهنَّ يكذبن، أو يقلن كلامًا ملتبسًا لا تفهم دلالاته الحقيقيَّة. من العبث المواجهة بين الرجال عن كلامٍ قالته نساؤهم، فلا أحد متأكِّدٌ ممَّا قيل بالضبط، فهم ينقلون الكلام عن زوجاتهم، اللواتي ينقلن الكلام عن أخريات، وقد يكون منقولًا عن أخرياتٍ أو آخرين أيضًا، ما يجعل الكلام لا معنى له، لا يمكن التأكُّد من مصدره، ولا يمكن معرفة ما قيل بالضبط. وعندما تُدخَلُ النساء للتأكُّد من الأحاديث يتحوَّل الوضع إلى فوضى عارمةٍ، ووضعٍ يدفع إلى الجنون. لم يكن أبي قادرًا على التدخُّل في مثل هكذا حالاتٍ، يعتقد أنَّ كلام النساء أتفه من أن يتدخَّل للتعامل معه. ولأنَّه لا يريد ترك العلاقات بين أبنائه تتفاقم بسبب هذه التفاهات، يكلِّفني بهذه المهمَّة، التي أشعر أنَّها نوعٌ من التعذيب القاسي، لا سيَّما مع عناد إخوتي، اللذين يتشاجران على أتفه الأسباب شجارًا كبيرًا، بعد يومين يعودا إلى ما كانا عليه من تفاهمٍ، لا سيَّما أنَّهما يعملان معًا في الورشة ذاتها والمهنة ذاتها. ويصبح الوضع حالةً من الجنون المطبق، عندما تكون زوجتي طرفًا في هذه المشكلات، لا أستطيع التعامل معها بذات الطريقة، لأنِّي أتحوَّل بالنسبة إلى إخوتي، مجرَّد ناطقٍ باسم زوجتي ومنحازًا لها. عندها أشتمهم وأشتم زوجتي وأشتم حالي وأشتم الساعة التي وُلِدتُ فيها في هذه العائلة. عندها تبدأ حدَّة المشكلة بالانخفاض وصولًا إلى العودة إلى الوضع السابق. المفارقة أنَّ زوجاتنا يتذمَّرن وينتقدن السكن معًا، وعندما تنفجر مشكلةٌ كبرى بيننا جميعًا، ويصبح الحديث عن الخروج للسكن المستقلِّ خارج بناء العائلة، كانت الزوجات -بما فيهنَّ زوجتي-

يقلن الجواب ذاته: «أنا ما بطلع من بيتي» يحمل هذا الكلام معنيين، الأوَّل: أنِّي لست المخطئةَ، وبالتالي أنا لا أخرج من بيتي على الأخريات الخروج، وهذا المعنى الشكليُّ للعبارة. والمعنى الثاني والعميق للحالة: أنِّي لن أخرج من بيتي، بمعنى أنَّها لن تخرج من شبكة العلاقات والمشكلات التي تعيشها، فماذا يفعلن من دون هذه العلاقات التي تشكِّل حياتهنَّ؟! وإذا خرجن من هذا المكان، فإنَّ حياتهنَّ ستفتقد إلى الإثارة والتحدِّي والنميمة والمناكفات التي يوفِّرها العيش المشترك. أعرف هذا من زوجتي التي تعدُّ نفسها الأرفع مكانةً اجتماعيَّةً بينهنَّ، بصفتها بنت العائلة الأغنى والأعلى تعليمًا، بما أنَّها خرِّيجةٌ جامعيَّةٌ، في الوقت الذي لم تتجاوز الأخريات تعليمهنَّ الثانويَّ، ما جعلها تنظر إلى الأخريات بمنطق التعالي. عندما حاولت إقناعها بخروجنا من المنزل والسكن في مكانٍ آخر للخلاص من المشكلات التافهة التي نقع فيها المرَّة بعد الأخرى، بالطريقة السخيفة ذاتها، رفضت بشدَّةٍ قائلة: «لن أخرج من بيتي»، منحها السكن الجماعيُّ تعالٍ اجتماعيٍّ، أقرَّت به زوجات إخوتي، وهذا ما عدَّته ميزةً لها، جعلها قادرةً على ممارسة عُقَدِ التعالي، عندما تكون على وئامٍ مع الأخريات. وكانت تعزِّز هذا التعالي عندما يقع الخلاف، بأنَّها «ما بتنزل لمستواهم»، مع أنَّها تمارس ما يمارسنَ، والتعالي مجرَّد ورمٍ في شخصيَّتها، لا تستطيع ممارسته سوى على تلك النساء المسكينات. عرفتُ من سلوكها كيف تتحوَّل عُقَدُ النقص إلى تعالٍ مرضيٍّ، بوصفها امرأةٌ تختلف عنهنَّ، ليس لصفاتٍ أنجزتها بجهدها، بل بادعاءات أنَّها ابنة عائلةٍ غنيَّةٍ ومعروفةٍ. من الصحيح أنَّ العائلة كانت غنيَّةً ومعروفةً، لكن لم تكن تعرف معنى أنَّ عائلتها معروفةٌ، وليست كلُّ شهرةٍ لعائلةٍ بالضرورة شهرة حسنةٌ، وأنَّ المال لا يغطِّي الشهرة السلبيَّة لمصدره القذر، وبذلك لا يصبح المال ميزةً، على العكس يتحوَّل إلى عيبٍ، لأنَّه مالٌ غير نظيفٍ. لكن بتحطُّم القيم والمفاهيم عن الضمير والأخلاق والأمانة، ليس هذا مهمًّا، المال هو من يمنح المكانة،

وأصبح افتخارها بعائلتها الغنيَّة محقًّا، بعد أن أصبح المال المجرَّد، بصرف النظر عن الطريقة التي يحصَّل بها، سواءً مشروعةً وشريفةً أم قذرةً وملوَّثةً، الأمر سيان، أصبح المال القيمة العليا في مجتمعٍ يتحوَّل الجميع فيه إلى محتاجين أو محتالين.

حاولت التكيُّف، حتَّى حاولت الاستسلام من دون أن أنجح في ذلك، هناك شيءٌ منعني، في بيتي وفي عملي وفي الشارع وفي علاقات البشر. لا يعقل أن ينحدر كلُّ شيءٍ إلى نوعٍ من الزيف، ليُخفِ طريقةً من العيش لا يمكنني قبولها. أصبحت أعدُّ الشيء الخاطئ فيَّ أنا شخصيًّا، وليس في هذا العالم الغريب الذي أعيش فيه. الكلُّ يريد سرقة الكلِّ، لأنَّ السرقة باتت غير مدانةٍ، طالما غيَّرنا اسمها احتيالًا على الواقع، كأن تصبح رشوة الموظَّف تحمل اسم «إكراميَّة» والسرقة تحمل اسم «عمولة» واستغلال الوظيفة يصبح «شطارة» وغيرها من التسميات المستحدثة، التي فلسفت الفساد الذي اخترق البلد حتَّى العظم. لا أحد فينا لم يسهم ويتورَّط في ذلك، سلبًا أو إيجابًا، لأنَّ البلد تعمل بهذه الطريقة، ومن دون التعامل مع هذا الواقع، لن تستطيع القيام بأيِّ شيءٍ فيها، بما فيه الحصول على حقِّك، الذي يجب عليك الذهاب إليه بطرقٍ ملتويةٍ والتفافٍ على القانون. فأنا لا أستطيع الحصول على أوراق أيِّ معاملةٍ، من دون أن أدفع رسومها مرَّتين، الأولى الرسوم الرسميَّة التي حدَّدتها الدولة، والتي تذهب إلى خزينة الدولة، والثانية الرسوم التي يحدِّدها الموظَّف، والتي تذهب إلى جيبه. ولم يبقَ مكانٌ في البلد لا يعمل بهذه الطريقة. وإذا تصادف أنَّ هناك موظَّفٌ يرفض الرشاوى في دائرةٍ حكوميَّةٍ، يصبح شاذًّا وغريبًا وأهبلًا. يحاربه الكلُّ حتَّى يذهب إلى مكانٍ آخر، أو يصبح جزءًا من الفساد، لأنَّ كلَّ موظَّفٍ نظيفٍ في دائرةٍ حكوميَّةٍ فاسدةٍ، يُذكِّر الآخرين أنَّ النظافة ممكنةٌ، أمَّا عندما ينضمُّ إليهم، فيصبح الجميع سواسيةً. وهناك قولٌ متداولٌ في البلد يقول: «إذا عمَّ الظلم أصبح عدالةً» وهذا جزءٌ من كلامٍ كثيرٍ وتبريراتٍ لا تنتهي للفساد

والسرقة التي سادت قيمها وباتت حقيقةً واقعةً تحرِّك البلد، وتطحن الملايين الذين يُفقَّرون ويقتربون من الجوع، في ظلِّ تحطُّم القيم والنهب الشرس والأنانيَّة في كلِّ شيءٍ.

رغم أنِّي لم أتوقَّع أن تنتقل عدوى الثورات العربيَّة إلى البلد، كما توقَّع آخرون. أظنُّ أنَّ البلد كانت بحاجةٍ إلى هذه الثورة منذ زمنٍ بعيدٍ، وأنَّها جاءت متأخِّرةً جدًّا، لأنَّ الخراب في البلد أعمق ممَّا يمكن إصلاحه. كنت متشائمًا دومًا، وكما يقول أصدقائي، فإنِّي لا أرى سوى «نصف الكأس الفارغ» قد يكون هذا صحيح، هناك شيءٌ داخليٌّ أخافني من الاحتجاجات التي اشتعلت في درعا، بسبب اعتقال الأمن للأطفال وتعذيبهم. علت الأصوات المطالبة بالحريَّة، لكن أيُّ حريَّةٍ؟ هل كنَّا نعرف الحريَّة؟ الأحكام العرفيَّة وقوانين الطوارئ فُرِضَت على البلد قبل أن يولد أبناء جيلي بسنواتٍ. أنا الذي ولدت في عام الهزيمة، شعرت الهزيمة تسكنني، ولست قادرًا على الانتشاء بشعارات الحريَّة. أرغب في الفرح، أريد أن أفرح لأيِّ سببٍ، لكنِّي لا أستطيع، كأنَّ الفرح محرَّمٌ عليَّ. فَرِحَ أصدقائي احتفاءً بالحريَّة القادمة. أمَّا أنا فلم أستطع رؤية أيِّ شيءٍ قادرٍ على تغيير البلد، ليس لعمق تحليلي ولمعرفتي بخفايا الأمور أكثر من غيري، بل لتشاؤمي ممَّا يجري، وهذا التشاؤم هو طبعٌ عندي وليس قدرةً تحليليَّةً لواقعٍ ستكون نتائجه سلبيَّةً بناءً على معرفتي وتحليلي. القصَّة ببساطةٍ سكنتني فكرة أنَّ العالم كلَّه - وليس البلد فقط- يسير باتجاه الأسوأ من قبل الاحتجاجات. ولذلك في كلِّ الحالات الشخصيَّة والعامَّة، أصبحت أتوقَّع الأسوأ دائمًا، من دون دليلٍ على ذلك، وكأنِّي كنت احتاط وأقرِّر مسبقًا الأسوأ، وأحيانًا أنجزه بنفسي، أي أحقِّق نبوءتي، مع أنَّ لا شيء يدعمها في الواقع غير قيامي بتحقيقها، ومن دون ذلك، لن تظهر في الواقع. كان الميكروباص الذي يقلُّنا إلى العمل يمرُّ من مناطق فيها مظاهراتٌ ضدَّ النظام، وتنتشر عناصر المخابرات لقمعهم، تمنَّيت أن يستجيب التاريخ لصرخات المحتجين، ليشعروا أنَّهم يحطِّمون

قيودهم. تمنَّيت أن تتحقَّق أحلامهم، لأنَّ حجم الأحلام الذي تحطَّم في البلد أكبر من قدرة الناس على الاحتمال، ولم تكن بحاجةٍ لتحطم حلمٍ كبيرٍ جديدٍ. شخصيًّا لم أتوقَّع الأفضل، لكن طبعًا لم أتوقَّع بشاعة الدمار الذي حصل رغم تشاؤمي. ظنَّ الناس أنَّهم على مسافة خطوةٍ من أحلامهم بالانعتاق من سلطةٍ غاشمةٍ جلست على صدورهم وخنقتهم لنصف قرنٍ. شارك الشباب في حلم الانعتاق بقوَّةٍ، لأنَّهم لا يملكون ذاكرةً عميقةً عن وحشيَّة النظام، وهم وجدوا حلم الحريَّة سهلًا، مثلما جرى في تونس ومصر حيث أُطيحَ بالرئيسين خلال أيَّام. سأل الشباب في البلد أنفسهم، ولماذا لا يحدث عندنا مثلما حدث في تونس ومصر؟! في ذلك الوقت ظهرت الحريَّة كثمرةٍ ناضجةٍ، تحتاج من الشباب شحن حناجرهم ورفع أيديهم من أجل قطفها. أمَّا الآباء الذي عاصروا وحشيَّة النظام السابقة ولهم ذاكرةٌ من الخوف، حلموا بالانعتاق، لكنَّ الوحشيَّة التي قبعت في خلفيَّة الذاكرة خدشت الحلم، وأخافت الرجال الأكبر سنًّا، سواءً عبَّروا عن مخاوفهم أم لا. لا شيء يمكنه أن يوقف اندفاعة الشباب الحالم إلى الحريَّة التي باتت في متناول أيديهم. ما كان إطلاقًا محدودًا للنار لقمع المتظاهرين، بات إطلاقًا للنار لإبادتهم. وما كانت مظاهراتٍ، تحوَّلت في الكثير من المناطق في البلد إلى اشتباكاتٍ مسلَّحةٍ. وما كان يُردُّ عليه بإطلاق النار من الأسلحة الفرديَّة، بات يردُّ على الاشتباكات المسلَّحة بالمدفعيَّة والطائرات. وزادت الحواجز على طريق المعمل الذي أعمل فيه، والذي يقع على مسافة كيلومتراتٍ عدَّةٍ من مطار دمشق، وزادت الاشتباكات في محيطه. فقد أصرَّ صاحب المعمل على الاستمرار في العمل، وعدَّ ذلك واجبًا وطنيًّا. بعد عامٍ ونصف من انطلاق الأحداث، حصل اشتباكٌ بين مجموعاتٍ مسلَّحةٍ وقوَّات النظام في محيط المعمل. لجأت المجموعة المسلَّحة إلى المعمل وتحصَّنت هناك، ما جعل طيران النظام يقصف المكان، وهو ما تسبَّب بحريقٍ هائلٍ أتى على نصف المعمل، الذي توقَّف عن العمل في ورديات الليل قبل ذلك، وقُتِلَ

الحارسان اللذان يعملان ليلًا. بعد هذه الخسارة التي أصابت صاحب المعمل، لن يبقَ للواجب الوطنيِّ أيُّ معنى بالنسبة له. ترك البلد وعاد إلى عائلته التي تقيم في لندن، فهو يحمل الجنسيَّة البريطانيَّة، وترك العمَّال الثلاثون الذين يعملون في معمله، وقد كنت أنا ووليد زوج ميرفت منهم، لمصيرهم المجهول في بلدٍ دخلت مرحلة الدمار. طبعًا وقبل قصف المعمل الذي احترق جزءٌ منه، كان سوق السيَّارات في المخيَّم قد أغلق بسبب المظاهرات والاشتباكات في منطقة الحجر الأسود، بالتالي حصَّة فرح من أرباح مكاتب السيَّارات، تبخَّرت أيضًا، فأصبحنا بلا دخلٍ. عشنا هذا الوضع قبل الخروج من المخيَّم بأكثر من ستَّة أشهرٍ، ولأنِّي لم أعد أملك عملًا، أصبحت أقضي كلَّ وقتي في المخيَّم، أشاهد بعض الأصدقاء القدامى، نثرثر قليلًا، أتفقَّد المخيَّم هنا وهناك، وأذرع طرقاته أحيانًا بفعل الفراغ، وأحيانًا بفعل الفضول. شاهدت كلَّ شيءٍ يتداعى، مشاهد اللاجئين وصراعاتهم التي أراها من شبَّاك مطبخي تبعث على الحزن، يطلُّ شبَّاك مطبخي على المدرسة، التي أخذ اللاجئون القادمون من المناطق المجاورة للمخيَّم التجمُّع فيها، والتي قُسِّمَت صفوفها بين العائلات بالشراشف والبطانيَّات، وهو ما أعاد إلى أبي ذكريات النكبة، فهي تذكِّره كما قال بفترة لجوئهم الأولى إلى دمشق، حيث قسَّمت العائلات الفلسطينيَّة التي سكنت الجوامع في دمشق أيضًا بالبطانيَّات والشراشف، وهو ما أعاده إلى طفولته الحزينة حين كانت جراحه التي حملها من فلسطين ما زالت تؤلمه، وهو طفلٌ بين خمسة أطفالٍ لعائلةٍ فلسطينيَّةٍ ضائعةٍ في دمشق بعد أن ضاعت ديارها في فلسطين.

كلَّما اشتدَّ القصف على المناطق المحيطة بالمخيَّم، الحجر الأسود والتضامن والقدم، زاد عدد اللاجئين في المدارس وبيوت المخيَّم. كانت أختي فاتن وعائلتها قد لجأت إلى بيت أهلي. أصبح المخيَّم يعجُّ باللاجئين، لاجئون يستقبلون لاجئين، أخوتهم أو أقاربهم أو أصدقائهم، وأصبح كلُّ بيتٍ في

المخيَّم فيه لاجئين، عداك عن الجوامع والمدارس. عندما اتصل عليَّ صديقي وزميلي في العمل وكانت المنطقة التي يعيش فيها في حي التضامن تتعرَّض للقصف الشديد، طلب منِّي أن أؤمِّن له شقَّةً صغيرةً ولو بالأجرة إذا أمكن، لأنَّ أختيه اللتين تعانيان من الشلل لا يمكن أن تسكنا في المدرسة أو الجامع مع الآخرين، هذا مستحيلٌ بسبب وضعهما الصحيِّ. تكلَّم معي وفي صوته بحَّة بكاءٍ يكتمها بصعوبةٍ. حِرتُ ماذا أفعل؟ وأخذت أسأل هنا وهناك. كان من الصعب إيجاد مكانٍ في ظلِّ هذا الازدحام، وعندما أسأل أحدهم، عن بيتٍ للإيجار أرى نظرات الاستغراب. وسمعت مرَّاتٍ عدَّةً الجواب ذاته: «سمعت حدا أجَّر لاجئ بالمخيَّم»، كان جواب: «لا» وفعلًا لم يكن أيٌّ من اللاجئين قد استأجر في المخيَّم، وكلُّ اللاجئين الذين فُتِحَت لهم البيوت، فُتِحَت لهم تبرُّعًا. وعندما سألت عمِّي منير. قال لي: «جهِّز مكتبي للسكن، وخليهم يسكنوا فيه، وخذ هذا المفتاح» وهذا ما كان، وانتقل عمِّي على مكتب صديق له في المخيَّم. وقد سكن المكتب بعد رحيل علي وأهله من المخيَّم، منذر ابن عمِّي سعد الذين لجأوا من مدينة دوما إلى المخيَّم بعد تردِّي الوضع هناك. عندما سلَّمت المفتاح إلى علي سألني «كم الأجرة؟»، قلت: «يا رجل، شو اللي بتحكي عليه، أجرة شو. بس بدنا سلامتك»، قال: «ما بصير. لازم أدفع أجرة»، قلت: «صلي على النبي، أجرتك مدفوعة. إحنا أخوة، عيب هالحكي»، لم يستطع أن يقول أيَّ شيءٍ، احتضنني وبكى، وحاولت أن أمسك دموعي، لكنِّي فشلت وبكيت معه.

مع تزايد اللاجئين تزايدت الأحزان في المخيَّم، باتت الوجوه المتجهِّمة التي تسير في شوارع المخيَّم بلا هدفٍ لقتل الوقت تُشاهَد في كلِّ مكانٍ، أيُّ همومٍ يحمل هؤلاء النساء والرجال؟ هل خسروا بيتهم؟ هل خسروا أحد أبنائهم؟ هل اعتُقِلَ أحد أحبَّتهم؟ أسأل نفسي هذه الأسئلة وغيرها، وكانت الوجوه الجواب الذي لن يخطئ قراءته أحدٌ، إنَّهم هاربون من الموت الذي يهدِّدهم في مناطقهم، فكان لجوؤهم إلى المخيَّم لاعتقادهم أنَّه أكثر أمنًا،

وقد يكون فوق هذه المأساة المؤكَّدة، مآسٍ أخرى عن مقتل ابنٍ أو أخٍ أو اعتقالهم، وغيرها من المآسي التي خيَّمت على البلد وبدَّدت كلَّ حلمٍ أو أملٍ بالتغيير. ومع اشتداد المعارك في بعض المناطق وقناعة البعض ممن خسروا أعمالهم أو يخافون على أطفالهم وحياتهم، بضرورة مغادرة البلد، إلى الأماكن التي يستطيعون الذهاب إليها، أصبحوا لاجئين بإرادتهم قبل أن يصبحوا لاجئين رغمًا عنهم. فكانت مصر ولبنان وتركيا وجهتهم على الأغلب، سوريُّون وفلسطينيُّون، وكانت مصر بعد الثورة، قد سمحت للفلسطينيِّين بالدخول إليها، بعد سنواتٍ طويلةٍ من المنع المشدَّد لدخولهم البلد. وهذا اللجوء المبكر للكثير من الأصدقاء والأقارب، جنَّبهم ذلَّ ذلك اليوم الفظيع في حياة كلِّ من سار خطواته خارجًا من المخيَّم بعد يوم طائرات الميغ. لم يتخيَّل أحدٌ لجوءً بهذه المأساويَّة، رفض الفلسطينيُّون الفكرة، وكانوا في حالة إنكارٍ لإمكانيَّة أن تتكرَّر مأساتهم مرَّةً أخرى، لا سيَّما مع الأولاد الذين وُلِدُوا في المخيَّمات، الذين زاودوا على أهاليهم بأنَّهم لو كانوا مكانهم لما غادروا فلسطين تحت أيِّ ظرف، وعندما تعرَّضوا هم وأولادهم لخطر الموت، سرعان ما هربوا من المكان. صحيحٌ أنَّ البعض لم يغادر، رغم كلِّ الظروف الصعبة التي مرَّ بها، لكنَّ الأكثريَّة الساحقة غادرت في مسيرة الذلِّ التي تعرَّض لها سكَّان المخيَّم، فلسطينيِّين وسوريِّين، في ذلك اليوم الحزين والمؤلم الذي شهده المخيَّم.

على مدار الأشهر القليلة التي سبقت الخروج من المخيَّم، ازداد عدد المسلحين في المخيَّم، وبعض الجهات الفلسطينيَّة المرتبطة بالأجهزة الأمنيَّة أقامت الحواجز وسط المخيَّم، وبعد ذلك أقامتها على أطرافه تجاه المناطق التي تُصدر اللاجئين إلى المخيَّم. وزاد الوضع توتُّرًا بين مسلَّحي المخيَّم التابعين للمخابرات، ومسلَّحي المناطق المجاورة المحسوبة على المعارضة، وهو ما كان ينذر بحدثٍ ما. وجاء الحدث غريبًا، حيث دخل المسلَّحون المحسوبون على المعارضة، وانسحب مسلَّحو الفصائل الفلسطينيَّة الموالية

للنظام، من دون أيَّ اشتباكٍ يذكر، صحيحٌ أنَّ القذائف نزلت بكثافةٍ على المخيَّم في ذلك اليوم، لكن لم يجرِ أيُّ اشتباكٍ مباشرٍ بين الجهتين، حتَّى مقاتلو القيادة العامَّة المحسوبين على النظام الذين حوصروا في مبنى الخالصة، المبنى الكبير التابع لهم بالقرب من شارع الثلاثين، قد خرجوا بسلامٍ من حصارهم، من دون أن يقترب منهم أحد. كان الوضع مريبًا وغير مقنعٍ، ما جرى تسليمٌ واستلامٌ، والسكَّان لم يكونوا جزءًا من هذه الصفقة، لذلك وقعت القذائف على رؤوسهم، ما جعلهم يفرُّون من المكان، الذي توعَّدته السلطة بحصارٍ خانقٍ، وأعطت السكَّان فرصة يومٍ واحدٍ لمغادرة المكان، وبعد ذلك ستحاصر المكان حصارًا تامًّا. كلُّ ذلك جاء بعد أن حلَّقت الطائرات الحربيَّة فوق المخيَّم وقصفت المكان. كان الأهالي قد اعتادوا على سقوط القذائف المدفعيَّة على مباني المخيَّم، وعلى طائرات الهليكوبتر في سمائه وهي تطلق النار على المناطق المحيطة به، كانت تفعل ذلك خلال عامٍ سابقٍ على قصف الطائرة الحربيَّة للمخيَّم في ذلك اليوم المشؤوم. الذي كان بمنزلة رسالةٍ واضحةٍ لا تحتاج قراءةً.

قبل أشهرٍ من الرحيل، طلبت فرح منِّي أن نغادر المخيَّم، الذي «ما عادت العيشة فيه تطاق» على حدِّ تعبيرها. رفضت فكرة الخروج من المخيَّم، لأنَّ كلَّ الأماكن في دمشق أوضاعها متقاربةٌ، طالما لم تسيطر المعارضة المسلحة عليها. لم يكن هذا الكلام دقيقًا، لأنَّ المخيَّم قبل الرحيل، كان أقرب إلى منطقةٍ تتوسَّط قوَّات النظام في الزاهرة ومنطقة القاعة، والتشكيلات المسلَّحة في الحجر الأسود والتضامن، ما جعله عرضةً لسقوط القذائف العابرة فوقه من الطرفين على رؤوس الناس فيه، وهو ما تكرَّر كثيرًا، لذلك كان المخيَّم أخطر من أماكن أخرى، رغم أنَّ الاشتباكات فيه أقلُّ، أو هو بعيدٌ عن الاشتباكات. كما أنَّ ابنتي تغريد أيَّدت أمَّها في طلب الخروج من المخيَّم، أو قد تكون هي التي أقنعت أمَّها بهذا الخيار، بحجَّة صعوبة وصولها إلى جامعتها بالقرب من الكسوة، حيث كان تدرس الهندسة

المدنيَّة في جامعةٍ خاصَّةٍ. لم أرغب في الخروج من المخيَّم حتَّى تتضح الصورة، التي تزداد ضبابيَّةً بدل أن تتضح. في بعض الأوقات كانت تغريد، وأحيانًا كلُّ الأولاد مع أمِّهم يقضون الوقت، عند سميرة أخت فرح المقيمة في صحنايا، بذريعة أنَّ الوضع صعبٌ على الطريق، والأفضل أن يبقوا هناك، لم أكن أمانع، تجنُّبًا للشجار الذي ازداد مع خسارتي عملي وتصاعد الوضع في البلد. فكانوا يقضون الكثير من الوقت عند أختها والقليل من الوقت في المخيَّم. لكن في ذلك اليوم المشؤوم كانوا جميعًا في المخيَّم. فقد كانت جامعة تغريد قد أوقفت الدوام تحضيرًا للامتحانات بعد أسبوعين.

بعد التوتُّر الذي ساد بين المسلَّحين التابعين للقيادة العامة، ومسلَّحي المعارضة في الحجر الأسود، دخلوا إلى المخيَّم، وهرب رجال جبريل من دون أيِّ عقباتٍ أو اشتباكاتٍ، لدرجةٍ لم يفهم أحدٌ ما جرى. وعندما قصفت الطائرة الحربيَّة المخيَّم في مكانين منهم المدرسة المجاورة لبيتنا، لم يفهم أحدٌ ما يجري، إلَّا بعد أن هدأ غبار القصف. سمعتُ صوت الطائرات الحربيَّة، لأوَّل مرَّةٍ في سماء المخيَّم، ثمَّ انفجارًا هائلًا، لكنَّه بعيدٌ عن البيت، وهو الانفجار الذي عرفت فيما بعد أنَّه وقع أمام جامع عبد القادر بين اللاجئين المتجمِّعين أمامه محدثًا مذبحةً حقيقيَّةً بينهم. خرجت إلى البرندة أبحث عن الطائرة في سماء المخيَّم، وأستطلع مكان الانفجار، لم أشاهدها ولم أعرف أين وقع. عدت إلى الصالة وجلست على الصوفا المقابلة للتلفزيون أتابع الأخبار. كنت جلست للتوِّ عندما سمعت صفيرًا قويًّا تلاه انفجارٌ هائلٌ، رماني من الصوفا إلى الأرض وحطَّم الزجاج والأبواب المغلقة جرَّاء الضغط الهائل الذي تسبَّب به. فقدت سمعي لبعض الوقت من قوَّة الانفجار، تحسَّست جسدي بحثًا عن إصابةٍ لا أشعر بها، لم أجد شيئًا. وقبل أن أقوم من مكاني، كانت بناتي تغريد ولبنة وابني مهدي، قد جاؤوا راكضين واحتموا بي وهم في حالة رعبٍ وبكاءٍ هستيريٍّ. احتضنتهم لأخفِّف من خوفهم ورعبهم ومن خوفي. شعرت بالعجز، لا أستطيع فعل شيءٍ لهم

يخفِّف هذا الرعب الذي عاشوه، وأنا نفسي كنت خائفًا مثلهم. انتبهت أنَّ فرح ليست معنا. سألت تغريد وأنا أصرخ لأنَّ الطنين في أذني كان يمنعني ويمنعها من السمع جيِّدًا: «وين أمك؟» قالت بصراخٍ من بين دموعها، سمعتها بصعوبةٍ: «ما بعرف»، أزحت الأولاد عنِّي وذهبت إلى غرفة نومنا، وجدت فرح ممدَّدةً على الأرض، مغمًى عليها، والأشياء حولها محطَّمةٌ، بحثت عن دمٍ على جسدها فلم أجد. أزحت الشرشف عن السرير بكلِّ ما عليه من حطام، رفعتها عليه، وقلت لتغريد التي لحقتني مع أخوتها وهم يبكون: «أعطيني كأس ماء»، ذهبت وأحضرته، وأنا أربِّت على خدِّ فرح، وأناديها: «فرح... فرح... فرح» لكنَّها لم تجب. عندما أحضرت تغريد كأس الماء، رششت بعض الماء على وجهها، أخذت تستفيق، عندها بدأت ارتاح. أفاقت وهي تغمغم كلامًا غير مفهومٍ. وتسأل: «شو صار؟»، «أنا ميتة؟»، قلت: «أنت بخير... أنت بخير»، خلال هذه الفترة التي لا أعرف كم طالت، لم أنتبه إلى أنَّ الهواء الذي يعصف في البيت حوَّله إلى ثلَّاجةٍ، فنحن في الشتاء. تجمَّعنا كلُّنا في غرفة البنات التي لا شبابيك لها، ما جعلها الغرفة الأكثر دفئًا في البيت بعد أن تحطَّمت النوافذ. تركتهم ونزلت لأطمئن على أبي. وجدت أحمد قد أجلسه على الصوفا، والصدمة ظاهرةٌ على وجهه، ينظر إلينا ولا يرانا، ينظر عبرنا لا إلينا، في عينيه فراغٌ مخيفٌ، فراغٌ لم أَرَه يومًا في عيون أبي الصارمة، هذه ليست عيون أبي، التي طالما كانت حيويَّةً وبرَّاقةً، حتَّى عندما دخل شيخوخته، انطفأ شيءٌ فيها، هناك لمعةٌ أعرفها ليست موجودةً، لمعة الإرادة التي امتلكها طوال عمره، شاهدتها تنطفئ في ذلك اليوم. تحدَّثت معه لم يسمعني، كما لم يسمع إخوتي. وعندما اتصلت أمِّي وأختي سمر من سويسرا، قال كلماتٍ معدودةٍ وعاد إلى صمته. لم يقل سوى: «أنا بخير... أنا بخير»، أعاد الهاتف المحمول لأحمد ليبعده عنه. نقلنا أبي إلى غرفة الضيوف في شقَّته، وهي الغرفة التي تقع أسفل غرفة البنات عندي، أي أنَّها الغرفة التي ليس فيها شبابيك، لذلك، لم تبرد مثل باقي

البيت. رتَّبنا ما استطعنا ترتيبه، وجمعنا الأشياء المحطَّمة. جلب أحمد وعدنان من المحل ألواحًا من الخشب وثبَّتوها مكان الزجاج الذي تطاير، حتَّى تحمي أبي من البرد. وبعد ثلاث ساعاتٍ من التنظيف، أصبح الوضع في الشقَّة مقبولًا. عدت إلى شقَّتي بين الحين والآخر، لأطمئن على وضع فرح وصحَّتها. نظَّف الأولاد الشقَّة بعض الشيء، وقلت لهم: «لا تشغلوا بالكم كثيرًا بالتنظيف، رح نمشي بكرة»، منذ اللحظة التي وجدت نفسي ممدَّدًا على الأرض، وركض أولادي نحوي، قرَّرت أنَّنا لن نبقى، لا في المخيَّم ولا في البلد كلِّها. تحسَّنت فرح ببطءٍ، لم تقل شيئًا، تكفَّلت نظرات اللوم في عينيها بالغرض. أخبرني عدنان أنَّ أبي يرفض الخروج من المخيَّم. سألته: «وأنت؟»، قال: «أنا رح أطلع»، وطلب منِّي التكلُّم مع أبي، لعلَّه يقتنع منِّي. رغم معرفتي بعناد أبي عندما يقرِّر شيئًا، إلَّا أنِّي قلت لنفسي، أجرِّب لعلِّي أستطيع التأثير عليه هذه المرَّة. مساءً بعد أن انتشرت بين سكَّان المخيَّم التحذيرات الشفهيَّة عن العواقب القادمة. أصبح الحديث الملحُّ بين الجميع في المخيَّم كلِّه وليس في بيتنا فحسب، حديث الخروج أو البقاء. لم يتوقَّع أحدٌ ما جرى، وبما أنَّه وقع يجب علينا التعامل معه. نزلت عند أبي أطمئن عليه، وردًا على السؤال عن صحَّته، هزَّ رأسه بحياديَّةٍ. قلت: «شو رأيك تطلع معنا، إحنا وخال الولاد معنا ميكرو في معنا محل، فيك تطلع معنا إذا بتحب؟»، نظر إليَّ نظرةً أعرفها جيِّدًا، لكنَّها افتقدت بريق الغضب هذه المرَّة، لم يردَّ بشيءٍ. قلت: «أبي أنت رجل كبير وصحتك على قدها، ما رح تتحمَّل الحصار...»، رفع يده مقاطعًا، سكتُّ. قال: «هي كلمة وحدة. ما رح أطلع. انتهى»، عرفت أنَّ أيَّ كلامٍ أقوله بعد ذلك لن يكون مجديًا، توقَّفت عن المحاولة، وقلت باستسلام: «أنت اللي بتقرّر»، حزنت لأنِّي سأترك أبي في مكانٍ خطرٍ، لم أكن قادرًا على إجباره على المغادرة. شعرت بحبٍّ يجتاحني تجاهه، لم أشعر بمثله من قبل، حبٌّ مشوبٌ بالخوف على الرجل الذي تجاوز كلَّ أزماته، وصولًا إلى كارثةٍ لا أحد يعرف هل سنتجاوزها أم لا؟

عندما قال عدنان وهو في بيتي خوفًا على أبي: «ما رح نتركوا. بناخذوا غصب عنُه»، قلت: «استنى.. أبوك طول عمرُه واقف على رجليه. ما رح نجي إحنا ونكسروا بآخر عمرُه. هاي غصب عنُه بتنساها. هو بقرّر حياتُه» قلت هذه الكلمات، وأنا أعرف معنى أن يصادر آخرون قرار المرء. لم أقبل أن يُصادر أبي قراري، ولن أقبل أن نصادر قراره في شيخوخته. صرخ عدنان وشتم، لكنَّه رضخ لقرار أبي بالبقاء.

لم أنم تلك الليلة، جاءتني أفكارٌ ومخاوف من كلِّ اتجاهٍ تفوق قدرتي على الاحتمال، كان خوفي الأكبر من المجهول الذي لا أعرف أيَّ أسئلة سيطرحها عليَّ حتَّى أحاول الاحتياط والتخطيط لها والبحث عن إجاباتٍ أوليَّة. كان المجهول هاويةً لا معالم لها، تهدِّد بخسارةٍ كلِّ الأشياء وتُفقِدُ اللغة معناها، يتعطَّل التفكير، ويحتلُّ الحزن والصدمة كلَّ شيءٍ. لا أعرف كيف فكَّر الآلاف من أهالي المخيَّم بمصائرهم المجهولة التي تنتظرهم في اليوم التالي. أمَّا أنا كان الفراغ كلُّ شيءٍ في رأسي، كلُّ حياتي السابقة أمامي تتداعى من دون أن أستطيع الإمساك بما هو رئيسيٌّ فيها، ذكرياتٌ مختلطةٌ من أزمنةٍ مختلفةٍ لا رابط بينها، حلوها مع مرِّها، ألمها مع فرحها، يأسها مع أملها. أمَّا بشأن اليوم التالي لا شيء سوى الفراغ، ماذا سأفعل غدًا بعد مغادرة المخيَّم؟ لا شيء، قرار مغادرة البلد الذي اتخذته، لم يكن له معنى، لأنِّي لم أعرف إلى أين سوف أذهب؟ كان اليوم التالي مظلمًا. في الأيَّام العادية لم أكن واثقًا من الغد، لكنِّي كنت أستطيع تقدير ما الذي سيأتي الغد به. في ذلك اليوم وأنا أمام المجهول لازمني شعور بالخوف، لا شيء غير الخوف من اليوم التالي، أخافني الخوف في تلك الليلة أكثر من الصاروخ الذي طرحني أرضًا. لم يخطر ببالي يومًا أنَّ المستقبل يمكن أن يكون مرعبًا بهذا الشكل، ومظلمًا إلى حدِّ اليأس. حاولت مرارًا وتكرارًا إبعاد هذه الأفكار عن رأسي، لم أنجح. كانت فرح تعيدني بين الحين والآخر إلى واقعي، بسؤالها عن مكان غرضٍ ما؟ أو هل تضع هذا الغرض أو ذلك مع الأغراض

التي سنأخذها في اليوم التالي؟ كان عندي جوابٌ واحدٌ «تصرفي» استسلامي لفكرة أنِّي ذاهبٌ إلى أيَّامٍ سوداء لم تغادر مخيِّلتي في ذلك اليوم وفي الأيَّام التالية، منذ تلك اللحظة فقدت قدرتي على المقاومة وعلى محاولة اختراع مصيرٍ آخر.

في صباح اليوم التالي، حضر إبراهيم أخو زوجتي الذي اتفقنا أن نخرج معه في الميكروباص خاصَّته. كنَّا قد جمعنا الأغراض التي قرَّرنا أخذها معنا في زاوية البيت بالقرب من الباب الخارجي. حضر إبراهيم من بيته القريب من مشفى فلسطين، عندما وصل كنت انتظره في الحارة التي يقع فيها بيتنا. حوالي الساعة الثامنة عندما فقدت قادرتي على البقاء في البيت، نزلت ومعي بعض أغراضنا التي حزمناها في الليل. باكرًا بدأ سكَّان المخيَّم في المغادرة، ومع انبلاج ضوء الصباح، الكثير من الناس كانوا يسيرون إلى خارج المخيَّم. وعندما فتحت الباب وخرجت من البيت، وجدت العشرات من سكَّان الحارات الداخليَّة، رجالًا ونساءً وأطفالًا وشيوخًا وعجائز مثقلين بالأغراض، وسيَّاراتٍ من كلِّ الأشكال، وعرباتٍ تُجَرُّ على الطريق، كلُّها تسير باتجاهٍ واحدٍ، باتجاه شارع اليرموك في طريقهم إلى المجهول. كان عدنان يحزم أمتعته في الشاحنة المتوقِّفة أمام المنزل، وفيها حماته المقعدة، التي كانت تقيم عندهم منذ أشهرٍ لأنَّ المنطقة التي تسكن فيها في الحجر الأسود، منطقة اشتباكاتٍ مسلَّحةٍ. تبادلنا السلام وبعد قليل نزلت عائلته. صعدت زوجته إلى جانب أمِّها، وصعد الأولاد في صندوق السيَّارة الخلفيِّ. سألني: «بدك شي، رح روح آخذ غراض ميرفت وأتيسر»، قلت: «بدي سلامتك.. الله يحميك. طمنا عنك وعن الطريق»، قال: «أكيد» صعد إلى السيَّارة، ألقى الجميع عليَّ السلام وغادروا، وكان عدنان أوَّل المغادرين. بعد قليل وصل إبراهيم، كان يسير عكس اتجاهات البشر. نزل من الميكرو وبقيت عائلته في السيَّارة، سلَّم عليَّ بأن رفع يده، الرعب والحزن في تعابيره تسبق أيَّ شرحٍ منه. لم يستطع قول شيءٍ. بادرته أنا قائلًا «صباح الخير»،

نظر إليَّ والدموع في عينيه وأشاح بوجهه بعيدًا. قلت: «خير ابراهيم. صاير شي؟»، قال ومسحة البكاء في صوته: «أي خير يا عامر. هذا يوم القيامة، روح شوف الناس على اليرموك»، قلت: «طول بالك يا رجل»، قال: «ليش هيك عبصير معنا. شو عاملين لالله»، لم أعرف ماذا أقول له، حاولت تغيير الموضوع، قلت: «يلا. فرح والأولاد نازلين»، أخرجت هاتفي المحمول لأتصل، وقبل اتصالي خرج الأولاد مع أمِّهم من الباب يحملون ما تبقَّى من الأغراض التي حزمناها ليلًا. رتَّبنا الأغراض في الكرسيِّ الأخير للميكرو ليتسع لنا جميعًا. ما زالت الناس تسير باتجاهٍ واحدٍ، عندما قاد إبراهيم الميكرو باتجاه شارع اليرموك، ووصلنا عند المفرق الواصل بين شارع المدارس التي يطلُّ عليه بيتنا وشارع اليرموك، الذي يقع بيت جدِّي عند زاويته. عرفت من أين جاء رعب إبراهيم. المشهد لا يصدَّق، المشهد الأكثر إيلامًا الذي شاهدته في حياتي. نهرٌ من البشر يسير باتجاهٍ واحدٍ، إنَّه يسير خارجًا من المخيَّم كأنَّه يسير إلى موته، جثثٌ تسير خارجة من المخيَّم، رجالٌ ونساءٌ وأطفال منهكون، ليس ممَّا يحملون بأيديهم أو على ظهورهم، بل منهكين من المجهول. شعرت أنَّ الجميع أصيب بالعمى، لا أحد يرى الآخرين سواي. ينظرون إلى بعضهم وأمامهم، وأحيانًا على الجانبين، ولا يرون، ينظرون بعيونٍ فارغةٍ، عيونٍ مطفأة لا ترى، غارقون في المجهول الذي يسيرون إليه، يتمنَّون موتهم قبل الوصول إلى ساحة البطيخة في أوَّل المخيَّم، وأنا تمنيت الموت قبل الوصول إليها أيضًا. كنَّا جثثًا مذلَّةً ومهانةً وحزينةً تسير باتجاه المجهول، جثثٌ لا تريد أن ترى بعضها البعض في الطريق إلى جهنَّم اليوم التالي. لم تكن الجثث المذلَّة والمهانة قادرةً على حمل آلامها، لذلك لم ترغب في رؤية آلام الآخرين إلى جوارها، غرقت كلُّ جثَّةٍ في آلامها ودفنت رأسها عن آلام القريبين منها، لعلَّها تسير هذا الطريق الكاوي إلى المجهول من دون مزيدٍ من الآلام التي فاقت كلَّ احتمالٍ. عندما شاهدت نهر الجثث الخارج من المخيَّم، أصبت بعدوى الرعب الذي شاهدته على وجه إبراهيم

عندما وصل ليقلَّنا، بعدما شاهد هؤلاء بين بيته ومفرق بيتنا. لم يكن هذا لأنَّ الكتل البشريَّة على شارع اليرموك كانت أكبر منها في الحارات الداخليَّة، بل لأنَّ اجتماع هذا الكم الهائل من آلام البشر التي تسير بلا هدًى، فجَّر الألم، فزيادة الأعداد في شارع اليرموك، لم يكن زيادةً لعدد المتألِّمين، بل كانت انفجارًا للألم، فروعٌ من الحارات تحمل المتألِّمين ليأتوا إلى شارع اليرموك حيث ينفجر الألم، ويصابون بعدم الرؤية كما شعرت أنا. نظرت إلى إبراهيم الذي يقود الميكرو، ونظرت إلى ابنه الذي في الثانية عشرة من عمره بوجهه الجميل والذي يجلس بيني وبين أبيه في مقدِّمة الميكرو. أغمضت عينيي، عدت وفتحتها. دُهِشتُ أنِّي فقدت الرؤية، لم أعد أرى إبراهيم ولا ابنه الذي يجلس بجواري. تحسَّست الطفل بيدي، ما زال مكانه، لكنِّي لا أراه ولا أرى أباه إلى جانبي، أسمع أصواتًا، صوت السيَّارة، صوت بكاء أطفالٍ، صوت عويل امرأة، صوت بكاء رجلٍ، صوت نشيجٍ، أصواتًا كثيرةً تأتيني من كلِّ جانبٍ، لكنِّي لا أرى شيئًا، أصبت بالعمى. سألت إبراهيم «هل تراني؟» لم يفهم سؤالي، فأجاب: «والله يا عامر انعمى قلبي. ما عاد شايف قدامي»، شعرت أنَّ إبراهيم أصيب بالعمى أيضًا، جاء العمى من خليط الرعب والحزن الذي ضربنا جميعًا كقنبلةٍ نوويَّةٍ، اخترقت اليرموك سكَّانا وغرفًا وبيوتًا وأزقَّةً وحاراتٍ وشوارع، ما جعل الجميع يصابون بالعمى في المكان. لم أعد أشعر بشيءٍ، حتَّى الأصوات اختفت، بكيت من الحزن هذه المرَّة، لا من الخوف، بكيت كما لم أبكِ من قبل. وعندما قال: لي إبراهيم «وصلنا» فتحت عيني، كان المخيَّم قد اختفى، وأصبحنا في صحنايا.

لم أعرف قسوة الخروج إلَّا بعد أن جرَّبته، الفكرة بسيطةٌ وتنفيذها بسيطٌ، لكن أن تجد نفسك فجأةً تعيش في الفراغ. هذا الذي لم تتصوَّره يقع، وبعده تتصوَّر كلَّ شيءٍ إلَّا الفراغ الذي يحدثه اللجوء، ويصبح الفراغ ضيِّقًا عندما تلجأ عند أحدٍ تعدُّ نفسك ثقيلًا عليه، هذا ما شعرت به في

الأسابيع القليلة التي سكنَّا فيها عند أخت فرح في صحنايا. لم تتذمَّر سميرة ولا زوجها منَّا إطلاقًا، لكنِّي شعرت نفسي ثقيلًا على المكان المزدحم، وكلَّما عزمنا على المغادرة، بذريعة أنَّنا وجدنا بيتًا، كانا يتمسكَّان بنا، بذرائع شتى، حتَّى نخجل من لطفهم ونبقى. لم أمرَّ بهكذا تجربةٍ من قبل، كنت أتذمَّر وأنا أعيش في بيت أبي، هنا لا أملك حقَّ التذمُّر من الوضع الصعب الذي نمرُّ به. كان عليَّ أن أغادر البيت أطول فترةٍ ممكنةٍ، أذهب إلى بيت عمَّتي بيان لقتل الوقت، أجد البيت مزدحمًا، فعندها من اللاجئين ما يكفي، عمِّي عبد الرحمن وعائلته، وعم أولادها وعائلته، وأولادها. أقضي القليل من الوقت، أشعر بالضيق، فأغادر. أذهب عند أختي ميرفت باحثًا عن وليد، لقتل الوقت، عندما أجده، نذهب غالبًا أنا وهو ونبيل زوج أخته نذرع شوارع صحنايا، أو البساتين المجاورة للبلدة، نتحدَّث في كلِّ شيءٍ ولا شيءٍ لقتل الوقت الذي نشعر أنَّه يطول أكثر من قدرتنا على الاحتمال. دخَّنا كما لم ندخِّن من قبل، التدخين بالعدوى، السعال بالعدوى، والبكاء بالعدوى، كانت أيَّامًا صعبةً علينا، أيَّامًا اكتشفنا فيها هشاشتنا، كما اكتشفنا هشاشة بعضنا. لم نعد نملك ترف الثرثرة، كنت أستمتع بالوقت عندما أجتمع أنا وميرفت أختي وصديقة عمري، ونثرثر عن كلِّ شيءٍ، عن الذكريات جميلها وقبيحها، عن حماقاتنا، وعن أحلامنا الحمقاء وجمالها وسخافتها، عن تمرُّدنا، عن أخطاء لا تنتهي، نثرثر عن الآخرين وعن تصيِّد أخطائهم، وعن صفاتهم الشخصيَّة. هذا الترف قائمًا، في الشهر الذي قضيته في صحنايا، لم أتبادل أنا وميرفت سوى كلماتٍ معدودةٍ، لم أكن قادرًا على زيارتها، والحصول على حيِّزٍ من الخصوصيَّة نستطيع أن نتحدَّث ونحن مرتاحين، ولم تكن هي تستطيع فعل ذلك. كنت أحتاج إلى الثرثرة مع ميرفت، كما لم أحتاجها في حياتي من قبل، لم يكن ذلك ممكنًا، لأنَّ ازدحام المنازل التي نسكنها يمنع أيَّ خصوصيَّةٍ للشخص الواحد، فكيف في خصوصيَّة اثنين. عندما ودَّعتها، بعد حوالي شهرٍ، كنت أشعر بالخجل من أجلها، لم أعرف ما أقول لها سوى:

«سامحيني»، قالت: «ما عملت شي حتَّى أسامحك عليه!»، قلت: «امبلى عملت. كنت أناني. كان لازم أقلك، إنِّي بحبِّك»، الدهشة التي أصابتها منعتها من الكلام، عانقتني وبكت وضحكت ودموعها على خدِّها، بكت وضحكت بالتناوب. لم أعرف من أين جاءتني الكلمات، وعندما عانقتني بكيت، لم أستطيع أن أقول أيَّ شيءٍ آخر، كانت الذكريات الجميلة التي مررنا بها هي الحاضرة. عانقتني كما كانت تعانقني عندما أحزن ونحن أطفال، لم أكن بحاجةٍ إلى أيِّ شيءٍ في العالم أكثر من هذا العناق الذي يعيدني طفلًا.

اتخذت أنا وفرح القرار بالرحيل، بحثت عن أفضل الطرق وأكثرها أمنًا من أجل أولادي، وكان على ابنتي تغريد أن تقطع دراستها الجامعيَّة وهي في السنة الثانية، لا مستقبل في البلد بشهادةٍ أو من دونها، ولن نعود قادرين على دفع أقساط الجامعة في السنة التالية. كان هناك ثلاثةُ طرقٍ للجوء إلى الدول الأوروبيَّة. الأوَّل عن طريق مصر، وكانت قد بدأت الزوارق المهترئة بتهريب اللاجئين السوريِّين والفلسطينيِّين من هناك إلى إيطاليا ومنها إلى الدول الأوروبيَّة الأخرى. هي رحلةٌ محفوفةٌ بالمخاطر، لأنَّها رحلةٌ تدوم أسبوعًا إلى عشرة أيَّامٍ في زورقٍ تالفٍ، وأنا لم أكن على استعدادٍ للمغامرة بحياة أولادي. الطريق الثاني، عن طريق تركيا والتهريب بالبحر وصولًا إلى اليونان، في زوارق مطَّاطيَّةٍ لا أمان فيها. كنت أخاف البحر، فلا أحد فينا يعرف السباحة، وفي المرَّات النادرة التي زرت أبي عندما عمل لمدَّة عامٍ في اللاذقية وكنت طفلًا، لم أقترب من البحر الذي كان يخيفني رغم محاولة أبي إقناعي بأنَّ الماء لا يخيف. أمَّا أنا فكنت أخاف الماء في الحمَّام، فكيف الحال في البحر؟! الطريق الثالث، كان عبر ماليزيا، ومن هناك بالطائرة ترانزيت في إحدى العواصم الأوروبيَّة، ونسلِّم أنفسنا في المطار ونطلب اللجوء. اخترت الثالث لأنَّه أكثر أمانًا من الخيارات الأخرى، رغم أنَّه أكثر كلفةً.

لم يكن الأمر بالسهولة التي تصوَّرتها، عندما وصلنا إلى كوالالمبور، وجدنا المدينة غاليةً جدًّا، لم نتمكَّن من تدبُّر أمرنا، ظننَّا أنَّ العشرة آلاف دولار التي أخذناها معنا مبلغًا كبيرًا، نستطيع أن نصل به إلى وجهتنا. لم نلبث أن فقدنا نصفها في احتيال المهرِّبين علينا، وتبخَّر المبلغ في المصاريف الكبيرة. فلم نعد قادرين على المحاولة عبر المطار، لأنَّنا لم نعد نملك المال الكافي، فكان الخيار بين العودة إلى دمشق أو الذهاب إلى تايلاند والتسجيل في المفوَّضيَّة العليا للاجئين من أجل إعادة التوطين. ولأنَّنا لم نرغب في العودة، قرَّرنا الذهاب إلى تايلاند. كان من المتوقَّع بعد أن سجَّلنا كعائلةٍ في مفوَّضيَّة اللاجئين من أجل إعادة التوطين، أن ننتظر من خمسة إلى ستة أشهرٍ. وكنت قد استعنت بأختي سمر، التي تعهَّد زوجها إرسال ألف يورو كلَّ شهرٍ، وهو ما يكفي مصاريفنا في فترة الانتظار ريثما نحصل على إعادة التوطين. لم تكن حساباتنا صحيحةً. بعد أن وصلنا إلى بانكوك، بحوالي سبعة أشهرٍ، اندلعت المظاهرات ضدَّ الحكومة هناك، ما جعل الوضع في البلد أسوأ. كنت أراجع مكتب مفوَّضيَّة اللاجئين وأرجوهم كلَّ يومٍ، فالأوضاع تسوء يومًا بعد يوم، والفيزا السياحيَّة التي حصلنا عليها لثلاثة أشهرٍ انتهت، وبات وجودنا في البلد غير قانونيٍّ. سكنَّا منطقة بان بات الفقيرة في بانكوك العاصمة القريبة من مترو الأنفاق. وكانت المسافة بين مكان سكني والمفوَّضيَّة تحتاج إلى ساعتين للوصول بسبب الزحام. كنَّا خائفين من المظاهرات، وخفنا أن يتحوَّل الوضع في بانكوك مثل الوضع في دمشق، ولعنت حظِّي العاثر الذي قادني إلى ذلك المكان. لم أختر سوى البلد التي ستواجه مظاهراتٍ بعد وصولنا بأشهرٍ عدَّةٍ. مرَّ الوقت بطيئًا، والخوف يأكلنا، ولا نريد العودة إلى دمشق ولا بأيِّ ثمنٍ. الأولاد يحتملون الانتظار، بدأوا يطالبون بالعودة إلى دمشق، لقد بات الوضع في بانكوك مثل الوضع في دمشق بالنسبة لهم. لكن بالنسبة لنا أنا وفرح ما الذي سنعود إليه في دمشق؟ الجواب هو لا شيء. وبالتالي يجب علينا انتظار الفرج من

المفوَّضيَّة، لأنَّه ليس لنا خيارٌ آخر. الجواب الدائم لدى الموظَّف في المفوَّضيَّة: «لا جديد في ملفِّكم، ننتظر إجاباتٍ من دولٍ عدَّةٍ» عندما انقلب الجيش في مايو من العام التالي لوصولنا إلى تايلاند، أي بعد عامٍ وثلاثة أشهرٍ من وصولنا. وبعد أن استقرَّ الوضع في بانكوك، أخذت الشرطة تلاحق اللاجئين المخالفين المنتهية إقامتهم، وأصبحنا نهرب من مكانٍ إلى آخر حتَّى لا يعتقلونا ويجبرونا على العودة إلى دمشق. كان جيراننا من التايلنديين متعاطفين معنا، ولأنَّنا كنَّا نسكن في أماكن فيها الكثير من الأزقَّة، كان الخبر يصل إلينا من المتعاطفين معنا، قبل أن تصل الشرطة، نختبئ عند أحد الجيران بينما تغادر الشرطة. أصبحنا متوتِّرين طوال الوقت، خائفين من الشرطة التي تلاحقنا باستمرارٍ. عندما أخبرنا الموظَّف في المفوَّضيَّة، أن نيوزيلندا قبلت ملفَّنا، ونستطيع المغادرة خلال أسبوعين، كنَّا قد قضينا عامًا وعشرة أشهرٍ في تايلند، كنَّا قد استنفذنا كلَّ قوانا، ولم نعد نملك القدرة على الرفض، خوفًا أن تقبض الشرطة علينا. كنَّا نأمل الذهاب إلى دولةٍ أوروبيَّةٍ، لكنَّنا وجدنا أنفسنا نركب الطائرة إلى نهاية العالم في نيوزيلندا.

كانت المغادرة إلى نيوزيلندا نهايةً للعذابات في بانكوك، لكنَّها كانت البداية لعذاباتٍ أخرى. اختاروا لنا مدينة أوكلاند مكانًا لإقامتنا، وعندما شاهدناها على خرائط غوغول، وجدناها مدينةً كبيرةً وجميلةً، ولا أعرف لماذا ظننا أنَّهم سيختارون إقامتنا في وسط المدينة ذاتها، قد يكون ذلك لأنَّنا تعبنا من الرحلة الطويلة للجوئنا. فقد خرجنا من دمشق بحثًا عن اللجوء، قبل أن يُقدِمَ أيُّ شخصٌ في العائلة على هذا الخيار، وصل أهلي جميعًا إلى أوروبا ما بين سويسرا وألمانيا ما عدا أخي أحمد المحاصر في المخيَّم والمطلوب للمخابرات، وأنا بانتظار إعادة التوطين. كنت أشعر بالقهر عندما يصل أحد أفراد العائلة إلى أوروبا وأنا أنتظر يائسًا في بانكوك. ندمت لأنِّي لم آخذ الطريق عبر تركيا الذي سلكه إخوتي، لكن ما الذي يفيده الندم بعد أن استهلك الطريق للوصول إلى نيوزيلندا عامين من أعمارنا. شعرت بالراحة

بعد وصولنا إلى هناك، انتهى رعب ملاحقة الشرطة وخطر العودة فاشلًا إلى دمشق، لأنِّي لن أحتمل فشلًا جديدًا في حياتي، كان خوفي من العودة إلى دمشق أكبر خوفٍ عرفته في حياتي، حتَّى أكبر من خوف القذائف التي تسقط على المخيَّم. لم تكن أوكلاند المكان الذي سنسكنه، بل كانت مانغويل وهي قريةٌ صغيرةٌ إلى شمالها، تبعد عنها حوالي مئةً وخمسين كيلومترًا، ولا يتجاوز عدد سكَّانها الألف شخصٍ. احتفلنا بالطبيعية الساحرة في محيط القرية وشاطئ البحر الجميل القريب منها. كنَّا في فترة نقاهةٍ من توتُّر الأعصاب الذي عشناه في العامين المنصرمين من التشرُّد والخوف والقلق من المجهول. شعرت أنَّ حالة فرح قد تحسَّنت أيضًا، لكنَّ الأولاد سرعان ما ضجروا من المكان المملِّ، الذي لا يستطيعون عمل أيَّ شيءٍ فيه. عندما التحق مهدي ولبنة بدراسة اللغة في المدرسة التي تقع في البلدة القريبة من القرية، التي تبعد حوالي ثلاثين كيلومترًا، تحسَّنت أوضاعهم وقلَّ تذمُّرهم، وأصبحوا يقضون أغلب أوقاتهم هناك، ما جعل الوضع أكثر احتمالًا بالنسبة لهم. كانت المشكلة في تغريد التي تشكو طول الوقت، والتي رفضت أصلًا الخروج من دمشق، واستمرَّت في الشكوى طوال الوقت في بانكوك، وكانت توتِّرني، وتشاجرت معنا أنا وأمها مرَّاتٍ عدَّةً، لأنَّها تريد العودة إلى دمشق وهو مطلبٌ غريبٌ بالنسبة لي وعندما سألتها: «شو رح تعملي بالشام؟»، كان جوابها: «وشو عبعمل هون؟!» لم تنته الشجارات مع تغريد إطلاقًا ما زاد من إحساسي بالقهر، قلت لنفسي حتَّى أولادي الذين خضت الرحلة من أجلهم لا يقدِّرون ما فعلت. بعد أسابيع وبعد أن خبت فكرة النجاة والانبهار بالطبيعة في المكان الذي وصلنا إليه، انتبهت إلى عزلة المكان. ففي عزلة بانكوك المدينة المزدحمة، لم أرَ المدينة التي عشنا فيها حوالي العامين، لأنَّها معبرٌ طال المكوث فيه، وكان طريقي محدودًا بين المحطَّات المضطر للذهاب إليها. لذلك لم أعرف المدينة ولم اسعَ للتعرُّف عليها. كان الوضع مختلفًا في مانغويل، اكتشافي لجمال المكان أشعل فيَّ

إحساس الغربة أكثر، داهمني إحساس العزلة واللا معنى. أخذت الأسئلة تطرح نفسها وتصبح أكثر إلحاحًا. ما الذي أفعله هنا؟ ولماذا خضت كلَّ هذه الرحلة الشاقَّة؟ وماذا أستطيع أن أعمل في مكانٍ لا عمل فيه؟ الأمان الذي شعرت به أطلق شيطان الأسئلة التي لا تنتهي، وكان السؤال الأهمُّ، هل يستحقُّ الأمان كلَّ هذا الثمن؟ هل يستحقُّ الأمان موتنا أحياء للوصول إليه؟ كوت هذه الأسئلة حياتي، شعرت نفسي أتقلَّب على الجمر، كلَّما استدرت إلى جانب أوجعني أكثر من الآخر. هناك إمكانيَّةٌ للتراجع، إنَّها معركةٌ خسرتها قبل أن تبدأ، شعرت بمزيدٍ من القهر والألم. كان عليَّ أن أتعايش مع هذا الألم من أجل الأولاد على الأقل، ولعدم وجود خيارٍ آخر. حتَّى هذه التضحية لن أستطيع أن أدَّعيها، فهي تحطَّمت أيضًا، وعرفت أنَّ هناك تضحياتٌ غير مجديةٍ، ولا معنى لها سوى في أعين من يعتقدون أنَّهم قدَّموها. أمَّا من قُدِّمت لهم فهم يعدُّونها نوعًا من العقاب، وليس شيئًا يمكن أن يكون المرء ممتنًّا للشخص الذي ضحَّى من أجله. كانت هذه حالي مع ابنتي تغريد، التي كانت الرحلة المضنية للوصول إلى نيوزيلندا بالنسبة لها مجرَّد عقابٍ أنزلته بها، وعدَّت نفسها من ضحَّى بنفسه من أجلنا، وبعد وصولنا إلى هنا، لم تعد هذه التضحية لازمةً، كانت الجنَّة الموعودة معادلةً للجحيم بالنسبة لها، وهذا جعلها تتمرَّد وتقرِّر العودة إلى دمشق، رغم اعتراضي واعتراض أمِّها على هذا الخيار. وعندما قالت فرح لي: «ساوي شي، منشان تمنعها ترجع؟» قلت لها: «ما عندي شي أقدر أسويه، ولا حتَّى بقدر أمنعها»، لم أستطع مواجهة المشكلة، كنت منهكًا وغير قادرٍ على إقناع نفسي بشيءٍ، فكيف بإقناع غيري؟ كان قرارها بالعودة إلى دمشق قاسيًّا عليَّ، أطاح بكلِّ شيءٍ فعلته من أجلها، وأصبح لا معنى له. والأقسى أنِّي عرفت أنَّها ذاهبةٌ لتتزوَّج هناك من شابٍ ابن ضابط مخابرات، غارقٍ في دم الناس حتَّى الركب. وبذلك لم تحطِّم معنى التضحية التي قمت بها من أجلها فحسب، بل حطَّمت معنى الصح والخطأ الذي يفترض أنِّي ربَّيتها

عليه أيضًا. حطَّمني ما فعلت، لم أعرف يومًا أنَّها قادرةٌ على بناء سعادتها على جثَّتي، فعلت ذلك ولم يرفَّ لها جفنٌ. عندما جاءت لتودِّعني لم أكن قادرًا على معانقتها. شعرت بأنَّها غريبةٌ عنِّي، لم أعرف هذه الفتاة التي تقف أمامي من قبل، ليست الفتاة التي تربَّت في بيتي وكبرت أمام عينيَّ ومنحتها كلَّ شيءٍ. سألت نفسي: «لهاي الدرجة كنت تافه وما قدرت أترك أثر بحياة بنتي؟»، كنَّا نعيش في بيتٍ واحدٍ، وغير ذلك لم يكن أيَّ شيءٍ مشتركٍ بيننا، كنت غريبًا في بيتي من دون أن أعرف. سافرتْ من دون أن أعانقها، وعندما سمعت أنَّها تزوَّجت في دمشق وفي عرسٍ كبيرٍ في الوقت الذي تُلقى القنابل على البشر في طول البلد وعرضها، شعرت بقلبي يتوقَّف، وأنَّ كلَّ شيءٍ فقد معناه، وأنا نفسي تحوَّلت إلى جثَّةٍ تتحرَّك.

سار كلُّ شيءٍ في حياتي في طريقٍ خاطئٍ، دارت الدنيا بي، لأصل إلى حدود الكوكب، وهو أوَّل مكانٍ يستقبل اليوم الجديد، وأوَّل مكانٍ يحتفل بالعام الجديد في هذا العالم الذي نعيشه. وإنَّه بداية الزمن في عالمنا، يصنع المستقبل قبل الآخرين، وكنت أظنُّ أنِّي سأصنع مستقبلًا جديدًا في هذا المكان، كنت واهمًا، لأنَّ حياتي بقيت عالقةً هناك، في المكان الذي هربت منه. وعرفت في أقصى مكانٍ في العالم، ألَّا مستقبل لي وأنَّ كلَّ ما أملكه هو ماضٍ غير مشرِّفٍ، وأنَّني كتلة لحمٍ تتحرَّك بلا معنًى.

الفصل الرابع:
الحصار المرُّ
(أحمد خليل أحمد خليل)

لم يكن من الخطأ الاستفادة من الوضع الذي خلقته الثورة على النظام، أيَّدتُ الثورة على النظام الذي لم يترك شيئًا في حياتنا من دون أن يتدخَّل فيه، لذلك كنت سعيدًا عندما لم يبقَ للدولة سلطةٌ على الناس. وكان أوَّل ما فعله الكثيرون، هو مخالفات البناء على نطاقٍ واسعٍ، وهذا ما زاد عملنا، أنا وأخي عدنان، في الورشة. فقد زادت الطلبات على الأبواب، لأنَّ هناك عشرات آلاف الشقق المخالفة بناها الناس في الأشهر الأولى للثورة، أرادوا الانتهاء من بنائها قبل أن يسقط النظام أو يستعيد سيطرته على الوضع إذا فشلت الثورة. في تلك الفترة، كان الجميع يبني، المؤيِّد للنظام والمعارض له، اختلفوا على كلِّ شيءٍ، واتفقوا على البناء بأسرع ما يمكن. أراد الكثيرون استغلال الوضع والاستفادة منه بأكبر قدرٍ ممكنٍ وبأقصى سرعةٍ. لم نكن نحن كعائلةٍ، خارج هذا الوضع، وعندما سأل أبي، عمَّا نفعل في المال الذي معنا، وكان يعني المال المتبقِّي من تعويض أمِّي التي عملت في الأونروا لسنواتٍ طويلةٍ. لم يكن هناك اقتراحاتٌ كثيرةٌ عمليَّةٌ، هناك من اقترح تحويلها إلى الدولار أو اليورو، لتبقى جاهزةً للاستخدام في حال احتجنا التحرُّك من المخيَّم. اقترحت على أبي، أن نشتري بالمال المتبقِّي قطعة أرضٍ نحفظ المال فيها، وقلت له: «والله يابا، الأرض لا

بتروح ولا بتجي، ولا حدا بقدر يحملها ويهرب» أعجبته الفكرة، وكنت أعرف صديقًا لي يعمل سمسارًا للأراضي في الغوطة، وكان حدَّثني عن أرضٍ في بلدة دير العصافير يريد أصحابها بيعها. أخبرت أبي بذلك، وقال: «ما في مشكلة، بنشوف الأرض»، فعلًا ذهبنا وشاهدنا الأرض، وقد أعجبت أبي وسرعان ما اشتريناها. وعرفنا أنَّ الناس هناك تحفر آبارًا في أراضيها، فقد كان حفرها ممنوعًا في المنطقة قبل انطلاق الاحتجاجات، وغياب السلطة عن المكان جعلها فرصةً لحفر الآبار هناك. بنينا غرفتين وحفرنا بئرًا وأقمنا سورًا حول المكان. ظننتُ أنَّه مهما طال الصراع، سينتهي سريعًا وسيسقط النظام، الذي رأيت أنَّه يترنَّح في ذلك الوقت. انتهينا من البناء والصراع ازداد اشتعالًا في محيط دير والعصافير وداخلها، ولم نعد نستطيع الوصول إلى هناك. وفي الوقت ذاته اشتعل الصراع المسلَّح في محيط المخيَّم، التضامن والحجر الأسود. وحركة البناء التي اشتعلت في البلد كما اشتعلت الثورة، سرعان ما خمدت، أخذت الاشتباكات المسلحة تتمدَّد في البلد من مكانٍ لآخر. توقَّف عملنا مع خمود حركة البناء، وليس هناك ما أقوم به، سوى الجلوس أمام الورشة وانتظار سقوط النظام، وعندما يحدث قصفٌ على يلدا أو التضامن، أذهب بالشاحنة الصغيرة التي تعود للورشة من أجل نقل الهاربين من القصف إلى مراكز الإيواء في مدارس وجوامع المخيَّم. جذب التجمُّع أمام الورشة بعض أصدقائنا من الجيران وغيرهم، وكان جارنا خالد من بين من جذبهم هذا التجمُّع، فأهله جيراننا منذ بنى أبي البيت أوَّل مرَّةٍ. وبسبب ازدياد الاشتباكات المسلَّحة في محيط المخيَّم، عزَّز مكتب الجبهة الشعبيَّة المقابل لبيتنا وورشتنا والمجاور لبيت خالد حراساته، زاد حرَّاسه وباتوا يحملون جعب مخازن الطلقات على صدورهم ويقفون خارج المبنى مع أنَّ هذه المظاهر لم نشهدها قبل الثورة على النظام، لأنَّ الحراسات كانت داخل المبنى، لا أحد من الجيران أو المارَّة يشاهدها. استفزَّ المشهد الجيران والمارَّة، وكان جارنا خالد الأكثر استفزازًا، لقد كان عضوًا في الجبهة

الشعبيَّة لسنواتٍ طويلةٍ، وعمل سكرتيراً لمجلَّتها «الهدف» وقبله أبوه من كان عضوًا في الجبهة الشعبيَّة، وهو عنصرٌ من المجموعة التي هَرَّبت جورج حبش من السجن عندما كان معتقلًا في سورية، وهو الذي اقترح على الجبهة استئجار المبنى المجاور لبيته، وكان الوسيط مع أصحابه، ثمَّ اشترته الجبهة من أصحابه، وأقاموا على أرضه بناءً من أربعة طوابق، وأصبح مقرَّهم الرئيسيَّ في المخيَّم. ترك خالد العمل مع الجبهة قبل سنتين لخلافٍ معهم، وعندما انطلقت الثورة في البلد، أيَّدها بقوَّةٍ، ولأنَّه بلا عملٍ، ونحن أصبحنا بلا عملٍ، بعد موجة البناء الجنونيَّة التي شهدتها البلد في السنة الأولى من الأحداث وتوقَّفت. كان يأتي ويجلس معنا، وعندما عزَّزت الجبهة الشعبيَّة حراساتها على المكتب، سخر منهم، لا سيَّما من مسؤول الأمن لديهم، الذي يعرفه جيِّدًا منذ كانا معًا في الجبهة، ولهذا المسؤول الأمنيِّ، ابنٌ شابٌّ يعمل في الحراسات مع أبيه، يحمل اسم خالد أيضًا. أصبح خالد كلَّما شاهدهم يخرجون مدجَّجين بسلاحهم يسخر منهم قائلًا: «شو يا شباب، إسرائيل رح تعمل إنزال هون؟»، «الله يعطيكم العافية، شو الشباب بدهم يحرُّروا فلسطين؟»، وعندما التقى المسؤول الأمنيَّ للجبهة قال: «شو يا رفيق أبو خالد، عندك معلومات على هجوم إسرائيلي على مكتبكم؟ الله يرحمك يا وديع حداد، لو تجي وتشوف مين إجا وراك»، كظم أبو خالد غيظه وقال: «الله يسامحك يا خالد، بتتمسخر علينا؟»، قال خالد: «ما عاذ الله، ليش أنا بدي أتمسخر عليكوا. أنتو هون بتتسلحوا ضد الشعب السوري، مين اللي بدو يهجم عليكوا بالمخيَّم؟ مو عيب هاي المناظر؟»، قال أبو خالد: «خلص خالد، زودتها كثير، إحنا محترمينك، منشان تاريخك وتاريخ أبوك. لهون بكفي»، قال خالد: «شو رح تعمل؟ رح تطخني مثلاً؟»، قال أبو خالد: «حل عن ربي، مش فاضيلك»، لوح بيده مستنكرًا ودخل إلى المكتب.

مساء اليوم التالي، كنت في البيت وسمعت صراخًا في الشارع، ميَّزت صوت جارنا خالد، خرجت إلى البرندة، لأستطلع ما يجري، كان خالد يقف ويحمل مطرقةً بيده وإلى جانبه بعض ألواح الخشب التي يبدو أنَّه يعمل فيها، وهو يشتم خالد ابن المسؤول الأمنيِّ للجبهة الذي يجلس في سيَّارةٍ تابعة للجبهة أمام المكتب، وكأنَّها مناوبته في الحراسة. قال: «بدي العن أبوك، على أبو أبوك. أنت مو مربى، أبوك ما عرف يربيك»، ويرد عليه ابن المسؤول الأمني: «إنت اللي مو مربى. بتضب لسانك أحسن ما أنا اللي أربيك»، مشى خالد باتجاهه، وهو يقول: «رح شوف مين بدو يربي الثاني؟»، يخرج ابن المسؤول مسدسه من شبَّاك السيَّارة بعد أن يلقمه، ويطلق النار على خالد، الذي سقط وسط الطريق. لم أصدِّق ما يجري، ركضت مثل المجنون، وأنا أقول: «اتصلوا بالإسعاف»، وصلت عنده، كانت الطلقة قد أصابت قلبه مباشرةً. عندما وصل جارنا الطبيب سعيد، ووضع يده على رقبته، وبحث عن النبض في ساعده فلم يجده. قال بصوتٍ حزينٍ «لقد مات، الله يرحمه»، نظرتُ إلى خالد الذي كان يجلس في السيَّارة، كان قد اختفى، واختفى معه كلُّ من كان في المكتب. تجمَّع الجيران، حطَّم الشباب الباب الحديديَّ بعمود حديدٍ لا أعرف من أين أتوا به. دخلت المكتب مع الذين دخلوا، دخلت إلى غرفة الحرس، وجدت ثلاثة بنادق آليَّةٍ من نوع كلاشنكوف مع بعض المخازن، وجهازي كمبيوتر. وضعتهما في بطانيَّةٍ أخذتها من سرير الحرس، أغلقت البطانية على الأغراض وخرجت من المكان. وضعت الأغراض في سيَّارة البيك آب خاصتنا. سألت عامر الذي نزل هو وعدنان بعد إطلاق النار وكلِّ الجيران، عن مفاتيح مكتب عمِّي منير، كنت أعرف مسبقًا أنَّ عمِّي أعطى مفاتيح مكتبه لعامر ليسكن فيه عائلة صديقٍ لعامر لجأت من التضامن لأنَّ عندهم ابنتين مشلولتين، قلت: «وين مفاتيح مكتب عمِّي منير؟» قال عامر: «عند أبوك» صعدت إلى شقَّة أبي، جلبت المفاتيح من المكان الذي عُلِّقت عليه، من دون أن أقول لأبي، الذي

نزل ليستطلع ما يجري كالآخرين. وعندما نزلت قلت لعدنان: «أعطيني مفتاح السيَّارة»، قال: «وين رايح؟»، قلت: «خمس دقائق وبرجع»، أخذت المفتاح وانطلقت إلى مكتب عمِّي الذي لا يبعد أكثر من أربعمئة مترٍ، فتحت المكتب ورميت الأغراض التي في البطانيَّة، على سقيفة المكتب الصغيرة وعدت إلى المكان فورًا. وكانت الفوضى ما تزال على حالها، وقد حضر أحد حرَّاس المبنى، وأراد إخافة الناس ليغادروا المكتب. أخرج مسدَّسه ووجَّهه إلى المتجمهرين مهدِّدًا، كنت عائدًا من ورائه، أمسكت يده وأخفضتها، وأنا أقول: «شو بتعمل يا أخو الش...» قبل أن أكمل شتيمتي، خرجت طلقةٌ من مسدَّسه باتجاه الأرض، وأصابت الطلقة إليتي، شعرت أنَّ سيخًا من النار يعبر في لحمي، صرخت، تركته ونظرت إلى جرحي. كان بنطالي ممزَّقًا والدم يُغرِقُ رجلي، وأشعر بألمٍ حارقٍ في أعلى فخذي، لم أعرف مستوى الإصابة. عندما حضر الدكتور سعيد الموجود في المكان، وعاين الجرح، قال: «لا تخاف، الجرح سطحي»، دخلت إلى البيت بمساعدة عدنان، ولحق بنا الطبيب الذي عالج الجرح وضمده، وقال: «عليك العافية» وذهب.

أحزنني موت خالد بهذه الطريقة المأساويَّة برصاص رفاقه السابقين. في المخيَّم أصبح الحزن الجديد يدفن الحزن القديم، والحزن الكبير يدفن الأحزان الصغيرة. وجاء الحزن الكبير يوم دخل مسلَّحو المعارضة إلى المخيَّم، وقصفت طائرة الميغ المكان. في ذلك اليوم المشؤوم، قرَّر الجميع الهرب من المخيَّم، ولم يبقَ سوى أقليَّةٍ قليلةٍ من سكَّانه، ومع تشديد الحصار أخذوا يتناقصون. وقبل الإغلاق الكامل للمخيَّم من الحواجز المحيطة به، حاجز البطيخة على مدخل المخيَّم من عند الزاهرة، وحاجز علي الوحش عند ببيلا، وحاجز الكابلات عند السبينة، أعاد أكثر من قرَّر البقاء في المخيَّم النظر في قراره، وغادروه، لأنَّ الأوضاع ازدادت سوءًا يومًا بعد يومٍ، وبعد

أقلَّ من ستَّة أشهرٍ، حوَّلت الحواجز المخيَّم إلى سجنٍ مغلقٍ، ممنوعٌ عليه الطعام والماء والكهرباء.

عندما قصفت الطائرة الحربيَّة فناء المدرسة خلف بيتنا، كنت أجلس أنا وأخي عدنان وبعض الأصدقاء أمام الورشة المغلقة، فلا عمل نقوم به منذ أشهرٍ. فكان من الطبيعي أن نجلس أمام المحلِّ الذي هو جزءٌ من بيتنا. سابقًا كنَّا نفتح أبواب المحلِّ ونجلس أمامه، حتَّى هذا لم نعد نفعله، أصبحنا نجلس أمام أبواب المحلِّ المغلقة. عندما سمعنا صوت الانفجار الهائل الذي هزَّ الأرض من تحتنا، وقبل أن يصلنا الغبار، ركض كلُّ واحدٍ منَّا باتجاه بيته، رغم أنَّ الانفجار في المكان، لكنَّنا لم نعرف أين سقط الصاروخ بالتحديد؟ ركض كلُّ واحدٍ ليطمئن على أولاده. كانت بنايتنا هي الفاصل بيننا وبين الصاروخ الذي انفجر في الفناء الخلفيِّ للمدرسة التي تطلُّ عليها بنايتنا. كان بيتي الأقلَّ تضرُّرًا من بيت أهلي وبيت أخي عامر المطلَّين على المدرسة. هزَّ الانفجار الهائل المنطقة كلَّها ونشر الغبار في كلِّ مكان. عندما وصلت إلى بيتي في الطابق الأوَّل، وجدت البنات ومهند يحيطون بأمِّهم، والجميع يبكون. عندما دخلت ووجدتهم بخيرٍ، زفرت الهواء وكأنِّي أُخرِجُ جبلًا هائلًا من صدري. احتضنتهم وأنا أحاول تهدئتهم، قلت: «خلص حبايبي، إنتو بخير لا تخافوا. إنتو شاطرين»، لم يكونوا يسمعوني، لكنَّ دخولي إلى البيت أشعرهم ببعض الأمان، بعد الصدمة التي سبَّبها لهم الانفجار، وهو أقوى انفجارٍ يسمعونه منذ بداية الثورة. بعد أن تأكَّدت من سلامتهم، ركضت إلى شقَّة أبي المقابلة. كان الباب مغلقًا، عدت إلى شقَّتي وأحضرت المفتاح الاحتياط الموجود عندي. فتحت الباب ودخلت، وجدت الغبار يملأ المكان، والرؤية سيِّئةٌ، ناديت: «يابا... يابا... يابا...» لم أسمع أيَّ إجابةٍ، وهذا ما أخافني، تقدَّمت قليلًا في الصالة شاهدته من بين الغبار ممدَّدًا إلى جانب الصوفا، والزجاج والأشياء المحطمة من حوله. ركضت إليه، هززته وأنا أقول: «يابا... يابا رد عليّ»، عيناه مفتوحةٌ، ويتنفَّس،

أغمض عينيه وفتحها، فحصت جسده، بحثت عن دماء، لم أجد. أزحت قطع الزجاج من على الصوفا إلى جانبه، رفعته وأجلسته على الصوفا. نظرت في عينيه الغائمتين، اتكأ بصعوبةٍ على يد الصوف إلى جانبه، نظر إليَّ نظرةً غريبةً، كأنَّه لم يَرَني وأنا أمامه، أحكي معه لا يسمعني ولا يردُّ، خفت عليه، حضنته وشرعت في البكاء. شعرت للحظاتٍ أنِّي خسرته، لحظاتٌ قاسيةٌ وصعبةٌ، شعرت بِيُتمٍ عابرٍ أرعبني. بعد أن هدأ الغبار، نفضت الغبار عن أبي قدر الإمكان، ونقلته إلى الغرفة الأنظف في البيت، وأخذت أنظِّف البيت. جاء عامر وعدنان ثمَّ زوجاتنا وأولادنا ليطمئنوا على أبي. أزلنا أنا وإخوتي الحطام من المكان، وبعدنا نظَّفت النساء البيت. وشرعت أنا وعدنان في إغلاق ما يمكن إغلاقه من النوافذ والأبواب المحطَّمة، بالاستعانة بما هو موجود بالورشة، اتقاءً لبرد الشتاء. سأله عامر عن حاله، لم يردَّ، وكذلك الحال مع عدنان. عندما جاء الأطفال، ابتسم لهم فقط. نظر إلينا من دون أن يرانا، وكنَّا نحدِّثه ولم يكن يسمعنا. لم يكن هذا بتأثير الانفجار فحسب. بالتأكيد أثَّر الانفجار في سمعه، وأصبح أصمًّا مؤقَّتًا بسبب قوَّته، أخافتني نظرته الغريبة، أوَّل مرَّةٍ في حياتي أرى هذه النظرة في عيون أبي. نظرةٌ لا أعرف كيف أصفها، نظرةٌ أكثر من نظرة صدمةٍ ودهشةٍ، وأكثر من نظرة خسارةٍ وحزنٍ، نظرةٌ غريبةٌ تشير إلى رعبٍ يأتي من مكانٍ عميقٍ أبعد من تأثيرات الانفجار. بقي لساعاتٍ على هذه الحالة، نتحدَّث معه ولا يجيب، نسأله إذا كان يريد الطعام، لا يفهم، نشير بأيدينا، أحضرنا له الطعام، لم يتناوله، حاول عامر إطعامه، رفض. لم نعرف كيف نتعامل معه. طلبت منه أن ينتقل إلى شقَّتي، لم يجيب. كرَّر عامر وعدنان الطلب، لا إجابة أيضًا. لم يتكلَّم أبي سوى في المساء، عندما تحدَّث معه عامر من أجل الخروج من المخيَّم، كان عامر وعدنان قرَّرا مغادرة المخيَّم، وحاولا إقناع أبي بالذهاب معهم. تمنَّيت أن يفعل ذلك، لأنِّي ظننت بأنَّ صحَّته وعمره لا يتناسبا مع أوضاعٍ صعبةٍ سيعيشها المخيَّم بعد الحصار. لم أحاول أقناعه

بالخروج، كان مزعوجًا من إلحاح إخوتي بطلبهم مرافقته في الخروج، وعندما ألحَّت ميرفت وفاتن أيضًا، أصبح الإلحاح لا يطاق بالنسبة له، قال لهم: «روحوا إنتوا وما تشغلوا حالكم فيني، أنا ما رح أطلع من بيتي»، وعندها قلت: «أنا بقيان معك»، قال لي: «مش ضروري تبقى، بتقدر تروح معاهم، وأنا بدبر حالي»، قلت: «ما رح أطلع من المخيَّم، إن بقيت أنت أو طلعت، أنا مش طالع من المخيَّم، ما إلي مكان ثاني أروح عليه»، عاد للقول: «لازم تروح مع أخواتك، شو ذنب ولادك؟»، قلت: «ما رح أطلع. ذنب أولادي إنِّي أبوهم، وذنبي إنَّك أبوي. ما رح أطلع، حتى لو طلعت أنت، أنا ما عاد أناقش في الموضوع»، لم أودِّع إخوتي في المساء، ولا في صباح اليوم الذي غادروا فيه المخيَّم، ليس موقفًا ممَّا يفعلون، فلم يكن لي اعتراضٌ على خروجهم من المخيَّم. الأمر ببساطةٍ هو أنِّي لا أحب الوداع، ولطالما تجنَّبته عندما استطعت ذلك. كنت سعيدًا ببقاء أبي، وغير سعيدٍ في الوقت ذاته، سعيدٌ لأنَّه اتخذ الموقف الصحيح برأيي، ما كان يجب على أحدٍ الخروج، وليحدث ما يحدث يجب ألَّا نترك المكان. من جهةٍ أخرى لم أكن سعيدًا، لأنِّي خائفٌ عليه، فما جرى يوم القصف والصدمة التي تعرَّض لها، وهو الرجل الكبير والمريض، يشير إلى أنَّه لن يتحمَّل الأوضاع الصعبة في المخيَّم، لذلك رغبت أن يغادر مع إخوتي، لأنِّي خفت أن يحتاج شيئًا، ولا أستطيع مساعدته، ما سيجعلني ألوم نفسي على شيءٍ من هذا القبيل ما تبقَّى من حياتي. في الأيَّام الأولى للحصار، كان الوضع محمولًا، استمرَّ الكثيرون بالقدوم إلى المخيَّم، جالبين الأغراض التي نحتاجها. بدأ التشديد بمنع دخول المواد، ومنع دخول بعض الناس وإهانتهم على الحاجز حتَّى لا يعودوا مرَّةً أخرى إلى المخيَّم. زاد توتُّر أبي مع مرور الأيَّام، قبل انفجار الوضع كان قليل الكلام، وبات كلامه نادرًا بعد انفجار الاحتجاجات. ومع القصف المجاور لمنزلنا أُصيب بالصدمة، التي استمرَّ تحت تأثيرها غير مصدِّقٍ لما حصل، وبقي غير مصدِّقٍ حتَّى بعد خروجه من المخيَّم، ما حصل شيءٌ أكبر من

قدرته على الاستيعاب، وهو غير قادرٍ على الإقرار به حتَّى يفكِّر بطريقةٍ صحيحةٍ. شعر بالوحدة، رغم أنَّنا أنا وعائلتي حوله، شعر أنَّ هناك أشياء كثيرةٌ تنقصه، أشياء يعرفها، ولكنَّه غير قادرٍ على تحديدها، لم يكن يخرج من البيت إلَّا نادرًا، فلم يبقَ أحدٌ من معارفه، كلُّهم غادروا المخيَّم. وعندما كانت ميرفت تزور المخيَّم، تأتي لتطمئن عليه، تقول لي: «صحَّة أبوي عبتتراجع، وعبينحف بسرعة»، كنت قد لاحظت ذلك عليه، فلا يأكل كما في السابق، ولا يلعب مع أولادي. وبدأ ينسى أخذ دواء السكَّري والضغط الخاصَّين به، ما جعله في حالة دوارٍ وإحساسٍ بالضيق بسبب الضغط العالي. في إحدى زيارات ميرفت، فقد أبي وعيه وهي عنده. وعندما استعاده، كانت قد اتصلت بالجميع، الذين عادوا واتصلوا به من أجل الاطمئنان عليه، والضغط عليه من أجل الخروج من المخيَّم، لأنَّ بقاءه انتحارٌ. عندما قال لميرفت: «روحي روحي منشان ولادك»، قالت: «ما بقدر أروح وأتركك بهذا الوضع. أنا باقية هون، إذا بدك أروح عند ولادي بتجي معي برة المخيَّم لحتى يشوفك دكتور»، لم تغادر ميرفت في تلك الليلة المخيَّم، بقيت إلى جانب أبي، الذي رجاها طوال الوقت أن تذهب، لكنَّها هذه المرَّة عالجت عناده بعنادها. فلم يستطع أن يحتمل الضغوط من جميع الأطراف، فقرَّر المغادرة، وأنا لم أتدخَّل في الأمر، لا سلبًا ولا إيجابًا. حملت مشاعر متناقضةً تجاه مغادرته، شعرت بالارتياح من جانبٍ، وشعرت بالفراغ من جانبٍ آخر، كلُّ شيءٍ يتغيَّر أسرع من قدرتنا على الاستيعاب، وعندما نستوعب يصبح الوقت متأخِّرًا. كانت الأحداث التي نعيشها أسرع منَّا، تتركنا وراءها حائرين، وردَّات فعلنا أبطأ منها، دائمًا تسبقنا راميةً في وجوهنا مشكلاتٍ جديدةً قبل انتهائنا من القديمة. لا أعرف إذا كان أحدٌ ما قد تعامل مع الأحداث التي شهدتها البلد بطريقةٍ صحيحةٍ؟ ولا أعرف ما الطريقة الصحيحة حتَّى أقيس عليها. كلُّ شيءٍ كان أسرع ممَّا توقَّعت حتَّى حياتي.

عشت حياتي محتجًّا، فمنذ طفولتي شهدت تمييزًا ضدِّي من أهلي، لا أعرف لماذا عندما يأس أبي وأمِّي من إخوتي الكبار لم يعطونا أنا وأخي عدنان الفرصة. لم نكن نستحقُّ التعامل بهذه الطريقة، فضَّلوا أخوتنا الكبار علينا في كلِّ شيءٍ، وعندما جاء دورنا، تخلَّوا عن كلِّ شيءٍ. الشعور بالتمييز يجعل المرء يرتكب الحماقات ردًّا على هذا التمييز، الذي جعلنا نندفع لتخريب حياتنا، لأنَّنا لم نُنصَف منذ البداية. ولدت بعد عودة أبي من السعوديَّة، وأخي عدنان الذي يكبرني بعامين، لم يعِ الفترة التي كان فيها أبي في السعوديَّة، وهي فترة أحلام إخوتي الكبار، الذين لبَّى أبي فيها كلَّ طلباتهم. عاد من السعودية ليعمل في البلد، فتغيَّر الوضع الماليُّ، في الوقت الذي حصل إخوتي على كلِّ ما يريدون، كان علينا نحن الصغار أن نخضع للتقنين من أجل إنجاز البناء والظروف الصعبة التي جاءت بعد ذلك. ولم يقف الأمر عند الاحتياجات، بل حتَّى في التعامل، لم يعاملنا لا أبي ولا أمِّي مثلما عاملا إخوتي الكبار، لم أفهم لماذا هذا التمييز بين الأولاد؟ ولماذا يحبُّ الآباء بعض أولادهم أكثر من غيرهم من الأولاد؟ لم أكن مخطئًا في إحساسي، لأنَّ أخي عدنان كان عنده الشعور ذاته بالتمييز ضدَّه، وهو ما جعلنا أقرب لبعضنا، ووحَّد شعورنا بأنَّنا لا ننتمي إلى هذه العائلة، إنَّها عائلةٌ وجدنا أنفسنا فيها خطأً. كانت جدَّتي راضية لأمي هي الوحيدة التي تعاملنا كعائلةٍ لها ولا تمييز بيننا وبين أخوتنا الآخرين. وتعاطفت أكثر مع أخي عدنان، بسبب عناده الشديد منذ كنَّا أطفالًا. وهي الوحيدة القادرة على إقناعه بأن يقوم بما لا يريده. أمَّا غيرها حتَّى أبي لم يكن قادرًا على إقناعه بذلك. منذ كنَّا صغارًا نشأ عند عدنان كراهيةٌ غريبةٌ تجاه أبي، زادت هذه الكراهية من عناده الذي لا يحتمل بالنسبة لأبي. لم يعرف أبي كيف يتعامل معه ومع عناده، وأصبح كلَّما غضب من عدنان يضربه ضربًا مبرحًا، فهو الوحيد القادر على إخراج أبي الهادئ عن طوره، ما جعل عدنان أكثر إصرارًا على ما يريد، وعلى استفزاز أبي أكثر. عندما اشترى عدنان زوجي حمامٍ

ليربِّيهما على سطح منزلنا، وأخذ يبني عشًّا لهما هناك، ركل أبي العشَّ وأطلق الحمام وضرب عدنان، لأنَّه كان قد قال له: «لا تشتري الحمام»، ولم يسمع كلمته، اشترى زوج حمامٍ من مصروفه وبنى لهما عشًّا. لم يثني ما فعله أبي عدنان، أعاد الكرَّة مرَّةً أخرى، فضربه أبي من جديد وأطلق الحمام. حاولت أمي وجدَّتي إقناع أبي بالسماح له بتربية الحمام، على أساس أنَّه سيملُّ بعد أيَّامٍ عدَّةٍ ويتركهم. أصرَّ أبي على أنَّ قراراته يجب أن تنفَّذ في البيت، وهذا ما كان. حمل عدنان الحمام خاصَّته وأخذ يربِّيه عند صديقه، وأصبح يقضي وقتًا طويلًا عنده، ما تسبَّب له بالمزيد من العقاب من أبي. عندما أحضر عدنان الحمام إلى البيت فرحتُ، وأصبح هناك شيءٌ حيٌّ نلعب معه. قبل أن يشتري الحمام، قال لي: «لميت خرجيتي ورح اشتري جوز حمام، أخوه لعلي رفيقي بدو يبيعني الجوز بعشرين ليرة»، قلت: «معي خمس ليرات، إذا أعطيتك إياهم بتلعبني بالحمامات»، قال: «بلعبك فيهم حتَّى لو ما أعطيتني الخمس ليرات»، أعطيته الخمس ليرات عن طيب خاطر. وعندما أحضر الحمام عددت نفسي شريكًا له، وشاركت بحماسٍ ببناء العشِّ. عندما صعد أبي إلى السطح غاضبًا، توقَّعت أن أتعرَّض للضرب مثلما حدث مع عدنان، وخفت أن يقول عدنان أنِّي شريكه في الحمام، عندما سأله أبي «من وين المصاري؟»، قال عدنان وهو يحاول تجنُّب ضربات أبي: «والله جمعت خرجيتي» لم يقل شيئًا عنِّي، وهو ما جنَّبي عقاب أبي. عندما شاهدت عدنان يتعرَّض للعقاب ويحميني بعدم الاعتراف بأنِّي شريكه في «الجريمة» حزنت من أجله، وخفت من أبي، وحزنت على الحمامات اللواتي جلبن الفرح لي. لم أنجُ من عقاب أبي بالضرب، كان نصيبي أقلَّ منه، لأنَّ عدنان تحمَّل القسم الأكبر من هذا العقاب، لأنَّه امتلك قدرةً هائلةً على استفزاز أبي حتَّى في أسوأ الظروف، وكان عناده مستفزًّا بالفعل، حتَّى لنا نحن أخوته، عندما يصرُّ على شيءٍ يجب عليه تنفيذه، حتَّى لو عرف أنَّ ما يريده خطأٌ ولا يحتمل أيَّ صوابٍ، وهذا ما جعله يعاني من

مشكلاتٍ مع الجميع، وليس معنا فقط. كلَّما حاول أبي أو أمِّي معالجة هذا العناد عنده، ازداد عناده، وأصبح يقوم بالأشياء فقط لأنَّها تزعج الآخرين لا سيَّما أبي، كبر وتوقَّف أبي عن ضربه، لكنَّ عناده بقي على حاله حتَّى بعد أن أصبح رجلًا. منذ مراهقتنا أصبحنا صديقين مقرَّبين، وكان بمنزلة الحامي والملهم بالنسبة لي، وجعلني هذا الإلهام أشعر أنِّي عشت حياتي بطريقةٍ مختلفةٍ عن الحياة التي نعيشها في المنزل، كنَّا مختلفين عن الآخرين في المنزل. لقد فتح الحمام لنا عالـمًا مرتبطًا به، عالـمًا لا يشبه العالم الذي نعيشه في بيتنا. كان عدنان يأخذني معه عند صديقه علي (أبو صطيف) الذي يربِّي الحمام عنده، عدد حمامات عدنان يزيد أحيانًا وينقص أحيانًا، كان يدفع لصديقه جزءًا من مصروفه من أجل طعام الحمام، فالحمام لا يتوقَّف عن الأكل، وعندما يعجز عن الدفع، يبيع بعض الطيور، وعندها يصاب بحزنٍ شديدٍ جرَّاء مفارقته حماماته اللواتي يحبُّهنَّ، وكنت أحزن أيضًا لأنِّي أعدُّ نفسي شريكًا رغم تواضع إسهاماتي الماليَّة معه. اكتشفتُ أنَّ الحمام عالمٌ خاصٌّ، وهو حالة إدمانٍ مثل المخدِّرات. لذلك عاش أبو صطيف حياته من أجل طيوره حتَّى في الحرب، وهو ما جعل حياته مرتبطةً بهم وقادته إلى مصيرٍ غريبٍ. منذ تعرَّفنا على الصيد، أقلعنا أنا وعدنان عن تربية الحمام عند أبي صطيف، أمَّا هو فظلَّ وفيًّا للحمام حتَّى آخر يومٍ في حياته. لم يكن في حياته سوى العمل والكحول والحمام، يعمل في العمار من أجل جلب الطعام للحمام، ولتغطية حاجاته المتواضعة، يقضي ما تبقَّى من يومه، يستمع إلى الأغاني الحزينة وهو يتأمَّل الكشَّة، يسبُّ ويلعن ويكفر، وعندما يصطاد أحد كشَّاشي الحمام الآخرين أحد طيوره، يكون على حربٍ معه، يلطم وجهه لأنَّه يعرف أنَّها ستُذبح على يد عدوِّه، وكان يشعر أنَّه فقد أحد إخوته، وعندما يصطاد لأعدائه حماماتهم يفرح كطفلٍ، لكنَّه لا يذبح حماماتهم، إنَّما ينسل أجنحتها ويعيد تربيتها مع كشَّته، وهي عمليَّةٌ يقتلع فيها الريشات الكبيرة لأجنحة الحمامة، حتَّى تصبح غير قادرةٍ على

الطيران، وعندما تنمو هذه الأجنحة، تكون الحمامة قد اعتادت مكانها الجديد. كان يعمل من أجل طيوره، يشعر بالطرب عندما يسمع خشخشة خلاليل الحمام وهنَّ يمشين، يتغزَّل فيهنَّ كأنَّهنَّ نساءٌ جميلاتٌ، يستطيع أن يعرف نوع الحمامة وهي في السماء. «هذا شخشلي.. وهذا مقمبر مفتل.. وهذا اسطنبولي.. وهذا كشميري...» لا شيء يعنيه في الحياة سوى الحمام، وسجائره، وكأس العرق والأغاني الحزينة التي تصدح على سطحه، وما عدا ذلك يستطيع الاستغناء عن كلِّ الأشياء الأخرى في الحياة. ساعات المساء مقدسة بالنسبة له، لا يقضيها إلَّا مع الكشَّة والصفير وكأس العرق والسجائر التي يشعلها ويمجُّها بقوَّةٍ مع كلِّ انعطافةٍ لكشَّة حمامه في السماء. ويكون في المسجِّلة شريط أغاني لإلياس خضر أو سعد الحلي أو علي العيساوي، وأغاني بكائيَّةٍ مثل، مجروحين ومخطوبة غصب يا فلان، ويا حسافة، وغيرها من الأغاني الحزينة. لم تعنِ الحرب لأبي صطيف شيئًا، بقي يكشُّ حماماته، وعندما كانت تنفجر قذيفةٌ وتفزع كشَّة الحمام، يسبُّ ويشتم، «أخوات الشرموطة اللي بخوفوا الحمام» عندما خرج الناس من المخيَّم بعد قصف طائرة الميغ، بقي هو من أجل الحمام، وعندما فُقِدَ طعام الحمام داخل المخيَّم، أصبح يذهب ويحتمل ذلَّ الوقوف على حاجز البطيخة من أجل شراء طعام الحمام والعودة إلى المخيَّم. زرته بين الحين والآخر، بعد خروج سكَّان المخيَّم، وكنت أُدهَش من متعة الرجل في كشِّ الحمام، التي لم تتغيَّر، منذ شاهدته أوَّل مرَّةٍ. لم يغيِّرها لا سنُّ الرجل الذي ليس مراهقًا، ولا الحرب المشتعلة التي اقتلعت سكَّان المخيَّم، التي لا تعنيه طالما أنَّ حماماته ما زلن على قيد الحياة. شاهدت أبا صطيف يتأمَّل الحمام ويكشُّها، كانت كشَّاتٌ قليلةٌ أخرى من الحمام ما زالت موجودةً في سماء المخيَّم، وهذا يعني أنَّ أبا صطيف ليس المجنون الوحيد بالحمام في المخيَّم. حمامٌ في السماء، حمامٌ في الأرض، الحمام في كلِّ مكانٍ، والشيء الوحيد الجديد هو أنَّ أبا اصطيف يسمع الأغاني الحزينة ذاتها، ولكن هذه المرَّة

من الهاتف المحمول، ليس من المسجِّلة، فالكهرباء ليست متوافرةً. يطير الحمام عاليًا وأبو صطيف يُصفِّر ويُعلِّم على كشَّاشين الحمام الآخرين ويشدُّ الطيور لتهبط بألفةٍ. يصبُّ كأس العرق بلا ثلجٍ ويشعل سيجارةً ويسرح في السماء. بعد شهرين من خروج الناس من المخيَّم، والحصار الخانق يزداد، عجز أبو صطيف عن تأمين الطعام للحمام عبر الحاجز، لأنَّهم اتهموه آخر مرَّةٍ أنَّه يهرِّب الطعام إلى المخيَّم للتجارة، لا للحمام. شاهدت أبا صطيف مع خمسة أكياس الخيش وقد جمع فيها الحمام. ألقيت السلام عليه، وسألته: «خير أبو صطيف؟»، قال: «من وين بدو يجي الخير خيا، الحمام رح يموت من الجوع وعلى الحاجز، بقولوا لي بتهرِّب أكل. أنا بهرب أكل خيّا أحمد؟!»، قلت: «طيب، شو بدك تعمل هلأ؟»، قال: «بدي هج. في واحد صاحبي منيك من سكَّان جرمانا، عندو حمام. قلي أبو صطيف شو رأيك تجيب كشتك، وتحطهم عندي وبسكنك بغرفة السطح. بعرف أنُه بدو يقوي كشته على حساب كشتي. بس شو بدي أعمل خيّا أحمد. الحمام رح يفطس إن بقيت هون»، قلت: «الله يوفقك حبيبي أبو صطيف»، بقي أبو صطيف في المخيَّم من أجل الحمام، وغادره من أجل الحمام، وبعد حوالي الشهرين من مغادرته المخيَّم، أخبرني أخي عدنان أنَّ قذيفةً انفجرت على السطح الذي يعيش عليه هو والحمام في جرمانا، قتلته وقتلت جزءًا من كشَّة الحمام، وشردت البقية، لأنَّه ليس هناك من يجمعها ويقدِّم لها الطعام. وبعد أن استشهد أبو صطيف، وفي الحصار الطويل للمخيَّم، اختفت كشَّات الحمام من سمائه، وأصبح من النادر أن تعبر حمامةٌ شاردةٌ سماءه، بعد أن كانت سماء المخيَّم تعجُّ بكشَّات الحمام قبل الرحيل. صرت كلَّما نظرت إلى السماء وشاهدت حمامةً عابرةً، أسأل نفسي هل عرفت هذه الحمامة أبا صطيف، وأترحَّم عليه.

عندما قال لي عدنان أوَّل مرَّةٍ: «أنا وحسن رايحين على الصيد، تروح معنا؟ معنا بارودة»، قلت بفرحٍ طفوليٍّ وحماسٍ ودهشةٍ: «إي. رح روح»

تخيَّلت أنَّهم احضروا بندقيَّة صيدٍ حقيقيَّةٍ كالتي سمعتها مرَّاتٍ عدَّةً تدوي في البساتين المحيطة في المخيَّم، عندما كنَّا نتجوَّل هناك. لم أتصوَّر أنَّ البندقية التي يتكلَّم عليها عدنان، مجرَّد بندقيَّة خُردقٍ لا صوت لها، مثل تلك التي كنَّا نلعب بها في ساحة العيد مقابل ليراتٍ قليلةٍ ندفعها للرجل الذي ينشغل في إبعاد الأطفال الآخرين عن مسار طلقة البندقيَّة، خوفًا أن يتأذَّى أحدهم، عندما كانت تتحوَّل الساحة بجانب الروضة القريبة من جامع عبد القادر الحسيني ومن اللحَّام أبي حشيش إلى ساحة عيدٍ في العيدين الصغير والكبير. خفتت فرحتي بالبندقيَّة، لكنِّي لم أحبط، ذهبنا إلى البساتين القريبة من المخيَّم، وأطلقنا الكثير من الخردق على العصافير، فشلنا في صيد أيًّا منها، كانت هذه جولتنا الأولى في الصيد. لم نكن قد تركنا تربية الحمام بعد، كانت بداية هوايةٍ سترافقنا حتَّى انفجار البلد. لم نستطع أن نحصل على بندقيَّة صيدٍ لسنواتٍ تاليةٍ، كلُّ ما كنَّا نستطيع فعله، هو الذهاب في زيارةٍ إلى بيت حسن وتأمُّل بندقيَّةٍ الصيد الجميلة التي تعود إلى والده الصيَّاد، وعادةً ما يكون حريصًا على إخفاء طلقات البندقيَّة خوفًا من عبث أطفاله، الذين ورثوا هوس الصيد عنه كمرضٍ وراثيٍّ. لذلك اشترى لهم تلك البندقيَّة اللعبة كالتي كنَّا نلعب بها في ساحة العيد. حتَّى في هذه البندقيَّة، أخذ الأخوة يصطادون بعضهم البعض، ولم يتوقَّفوا عن ذلك سوى بعد أن كاد أحدهم أن يقتلع عين الآخر، بالبندقيَّة التي لم يكونوا يحملونها على محمل الجدِّ، لكنَّها تبيِّن أنَّها في غاية الخطورة، إذا ما أصابت العين. كان حسن يستعرض أمامنا بندقيَّة والده، ونحن ننظر إليها ونلمسها، كأنَّنا نلمس حجر الكعبة الأسود، فلها هيبةٌ وجلالٌ. وكلَّما ذهبنا إلى هناك أشار عدنان إلى الدرَّاجة الآليَّة الكبيرة التي تقف أمام بيت حسن، التي يستخدمها والده في رحلات الصيد وفي التنقُّل، ويقول: «سأشتري مثل هذا المتوور ومثل جفت أبو حسن، ورح نروح على الصيد مع بعض»، ضحكت وقلت: «من وين؟»، قال: «بتضحك ما، بكرة بتشوف،

والله يا عرص لما أشتريهم، ما رح آخذك معي»، قلت: «من هلأ بتهدد، مو لتشتريهم أول»، عندما ترك عدنان المدرسة، واشتغل بعض الأعمال المتفرِّقة، اشترى بندقيَّة دكٍّ قديمةٍ، كادت تنفجر فينا مرَّاتٍ عدَّةً ونحن في الصيد، ولم تعمل في الكثير من الأحيان، ما جعل رحلات الصيد في بعض المرَّات مملَّةً ومزعجةً. بقي عدنان يجمع المال من أجل الهدف ذاته، البندقيَّة الجيِّدة، وتنفيذ ما وعد به. وخلال الأعوام الثلاثة التالية استطاع جمع ثمن البندقيَّة، في البداية لم يرغب أحدٌ في بيعه البندقيَّة لصغر سنة، هذا ما كان يبدو عليه، لكنَّه كان قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره، في الوقت الذي يظهر وكأنَّه ما زال في الخامسة عشرة، والكثيرون ظنُّوا أنِّي أكبر منه سنًّا. وفي النهاية حصل على بندقيَّةٍ من ماركة بريتا وهي الماركة ذاتها لبندقيَّة أبي حسن وبعينين فوق بعضهما مثلها تمامًا. عندما عاد بها إلى البيت كان سعيدًا وكأنَّه وجد كنزًا، عندما ناداني إلى غرفتنا وأخرج البندقيَّة من الحقيبة التي كانت فيها، لم أصدِّق أنَّه استطاع الحصول على البندقيَّة، سألته: «قديش دفعت؟»، قال: «شو بدك قديش دفعت. المهم، شو رأيك فيها؟»، قلت: «بتجنن، حلوة كثير»، قال: «في عنَّا مشكلة»، قلت: «شو المشكلة؟»، قال: «وين بدنا نخبي البارودة. إذا شافها أبوك رح يذبحنا وما رح يخليها معنا. هديك البارودة ما مشكلة لو راحت ما إلها قيمة. بس هاي إذا راحت، مصيبة»، منذ ذلك اليوم كان إخفاء البندقيَّة شغلنا الشاغل، بالنسبة لعدنان أن يفقد روحه أهون عليه من فقدانها. وبعد خمس سنواتٍ اشترى الدرَّاجة الآليَّة التي رغب فيها، وحقَّق حلمه الذي كان يحلِّق معه في كلِّ يوم جمعة عندما نذهب إلى الصيد.

تعلَّقتُ بالصيد كما تعلَّق عدنان به، وكنَّا شركاء في كلِّ ما يتعلَّق به، منذ أوَّل بندقيَّةٍ اشتراها، وحيرتنا في البحث عن مخبأٍ لها بعيدًا عن أبي، مرورًا بحادثة انفجار البندقيَّة في صديقنا محسن، وهو الانفجار الذي أُوقِفَ عدنان بسببه في السجن للاشتباه بأنَّه تسبَّب بمقتله، والذي لم يقضِ

فيه وقتًا طويلًا، رغم أنِّي كنت أذهب كلَّ رحلات الصيد معهم، إلَّا أنَّ هذه الرحلة لم أكن فيها، فقد كنت مناوبًا في خدمتي العسكريَّة في ذلك اليوم، ولم أتمكَّن من الهرب لمرافقتهم. عندما عدت إلى البيت وعرفت أنَّ محسن قد مات، حزنت على الرجل صاحب المواقف الصلبة، وعندما زرت عدنان في السجن، كان مدمَّرًا بسبب وفاة محسن، ليس لأنَّه يتحمَّل مسؤوليَّة الحادث، بل لأنَّ محسن كان الصديق الأقرب له، حتَّى أقرب منِّي. تغيَّر عدنان بعد مقتل محسن، لكنَّه لم يتوقَّف عن الذهاب إلى الصيد، وكان في كلِّ رحلة صيدٍ، ناجحةٍ أو فاشلةٍ، يتذكَّر محسن ويترحَّم عليه، حتَّى آخر رحلة صيدٍ ذهبنا فيها معًا. كان هناك الكثير من الأصدقاء المشتركين بيني وبين عدنان، لا سيَّما أصدقاء رحلات الصيد. اختلفت مع عدنان على كثيرٍ من الأشياء، لكن سرعان ما كنَّا نتجاوز خلافاتنا، لأنَّ علاقتنا أقوى من أيِّ خلافٍ، وبحكم هذه العلاقة القويَّة، تعامل أبي معنا على أساس أنَّنا مشكلةٌ واحدةٌ، وبحث لها عن حلٍّ واحدٍ، لم يكن هذا يزعجنا. ظنَّ أبي أنَّنا شبابٌ طائشون، طالما نتنقل من عملٍ إلى آخر، فنحن بحاجةٍ لأن نهدأ ونُعالج من هذا الطيش. وأصبح هو رجلًا متقاعدًا وسرعان ما لحقت به أمِّي بتقاعدها، فقد عَدَّ أنَّ مهمَّته النهائيَّة في الحياة أن يجعلنا رجالًا صالحين، كإخوتنا الباقين. فعرض علينا افتتاح مكبسٍ للخشب، وهو مشروعٌ كنَّا عرضناه على أبي قبل ذلك ورفضه، لأنَّه لم يكن متأكِّدًا من أنَّه مشروعٌ ناجحٌ، ولم يكن المال اللازم لهذا المشروع متوافرًا عندما تقاعد، لأنَّ تقاعده عبارةٌ عن راتبٍ شهريٍّ، فهو عمل مدرِّسًا في المعهد التجاريِّ التابع للحكومة، عندما تقاعدت أمِّي، لم تحصل على راتبٍ تقاعديٍّ، إنَّما على مكافأة نهاية الخدمة، لأنَّها تعمل مدرِّسةً في مدارس الأونروا وليس في المدارس الحكوميَّة. ويبدو أنَّ أبي درس المشروع، وتبيَّن له أنَّه مشروعٌ ناجحٌ، فلا محل مماثلًا له في المخيَّم، الذي أصبح مدينةً بكلِّ معنى الكلمة. لم يقدِّم العرض من دون شروطٍ، وكان شرطه الأوَّل، أن تكون أمِّي شريكًا معنا بالثلث مقابل المال الذي

تدفعه والثلثين لعملنا، كما هو سائدٌ في البلد في الشراكة بين المال والعمل، معادلة الثلث للمال مقابل الثلثين للعمل. شرطه الثاني، أن يمسك هو حسابات المحلِّ، من دون مقابلٍ، فهو لا يثق بأنَّنا نستطيع إدارة حياتنا الماليَّة، وهي اختصاصه الذي دَرَسه ودَرَّسه، وهو ما يجعله مستمرًّا بالعمل على نحوٍ أو آخر، حتَّى لو بالمجان. لم يحمل عدنان كلام أبي على محمل الجدِّ، وعندما سألته: «شو رأيك؟»، قال: «يا زلمة، اتركني من أبوك، طول عمري هربان منُه، هلأ بدك ياني أسلمُه رقبتي؟»، قلت: «طول بالك، لا تستعجل. خلينا نفكر، هي فرصة، ما رح نقدر نعمل الورشة بشغلنا، وهاي أبوي بعطينا الفرصة»، قال: «أي فرصة، ليش أبوك، رح يخلينا نتنفس، رح يظل قاعد فوق روسنا ويلقي أوامر، أعمل هيك، وساوي هيك»، قلت: «بسيطة، زي ما هو حط شروط علينا، إحنا بنحط شروط عليه»، قال: «إنت أجدب، أبوك بدو يرد على شروطك؟»، قلت: «إحنا ما خسرانين شي، زي ما هو حط شروطُه وأمِّي موافقة عليها، إحنا كمان بنحط شروطنا، اتفقنا، أهلًا وسهلًا، ما اتفقنا كل واحد بطريقُه»، قال: «ما فهمت، شو يعني؟»، قلت: «يا أجدب، هو بحاول يتعامل معنا، شركاء، مثل الشركاء الغرباء، أصحاب المصالح وأصحاب الأعمال. طالما هو تعامل هيك، خلينا إحنا ننسى إنهم أبوي وأمِّي، ونتعامل معهم شركاء»، قال: «والله يا أحمد، أنا مقتنع إنُه أبوك الله ما بغيرُه، ما رح يقبل هذا الحكي»، قلت: «إحنا شو خسرانين. والله أنا كمان تعبت من الشغل عند الناس، بظل أبوك، أحسن من كثيرين اشتغلنا عندهم»، قال: إحكي معُه، إذا وافق على شرط، إنُه لا يتدخل بالشغل غير بالحسابات، بفكر نشتغل»، قلت: «بنحكي معُه، وبنشوف»، كنت أظنُّ أنَّنا عندما نقول لأبي أنَّ لنا شروطًا، سيغضب ويقول: «انقلعوا من وجهي، وبتشرطوا كمان؟!»، خيَّب أبي توقُّعاتنا، قال: «هذا حقكم»، وناقشنا بما له، وما لنا، وما عليه، وما علينا. دُهِشنَا، هل حقًّا هذا الرجل الذي أمامنا، هو أبي الذي عرفناه طوال السنوات الماضية؟ نظرنا إلى

بعضنا أنا وعدنان نظرة استغرابٍ، وبعد أن غادرنا غرفة أبي. قال عدنان: «أنا ماني مصدِّق إنُه هذا أبوي»، دهشتنا جاءت من معرفتنا أنَّ أبي يلتزم بكلامه، معنا ومع الغريب، وطالما قال إنَّه: «لن أتدخَّل»، فهو لن يخرق هذا الاتفاق، فهو رجلٌ عنيدٌ بالأشياء السلبيَّة والإيجابيَّة أيضًا. سألت عدنان: «شو رأيك؟»، قال: «والله أبوك ما خلا فيها حكي. طبعًا موافق»، وكانت الشراكة التي غيَّرت صورة أبي ليس عندي فحسب، بل وعند عدنان أيضًا، فصورة الأب القاسي والظالم، حلَّت محلَّها صورة الشريك اللطيف، الذي من الممكن استشارته، والذي يمكن أن يقدِّم النصيحة المجدية. تجنَّبنا سؤاله في البداية بأيِّ شيءٍ يتعلَّق بعملنا، سوى بقضايا الطلبات وأجورها، والمواد، واستهلاكها، وشرائها. مع الوقت واجهتنا مشكلاتٍ تمسُّ العمل، لكن لم نعرف كيف نتعامل معها؟ مثل مسألة عدم تسديد بعض الزبائن لالتزاماتهم أو ديونهم، وكنَّا أحيانًا نتشاجر معهم لتسديد ما عليهم، لم يكن أبي يتدخَّل. وعندما قال عدنان بنوعٍ من الشكوى: «والله يابا، مش عارفين شو نعمل مع هالمشكلة؟» قال له، وكنت أسمع ما يقول: «بتحب تعرف شو رأيي؟»، قال عدنان: «طبعًا»، قال: «ما في مشكلة. الدنيا عسر ويسر، دايمًا هناك نسبة هدر، الناس بتخسر وبتربح في شغلها، ويمكن ما تقدر تسدِّد اللي عليها لما بتخسر، وهذا طبيعي، بس تتعامل مع شغِّيلة إمكاناتهم بسيطة، عادي إنَّك تحسب نسبة هدر، ومادام شغلك ربحان مع هذا الهدر، لازم ما تتطلَّع عليه ولا تفكِّر فيه، لأنُه دايمًا رح يصير، إحنا بشر في النهاية. وأنا شايف الورشة شغَّالة منيح، منشان هيك لازم تستنَّى على الخسران، وتقبل إنَّك ما تقدر تلم كل مصاريك من عند الناس. هاي هي الحياة ما فيك تاخذ منها كل شي، وهاي هي التجارة»، لا أعرف لماذا نظرنا أنا وعدنان إلى بعض وأبي يتكلَّم، وكأنَّنا نستمع إلى رجلٍ لا نعرفه، ونتعرَّف عليه من جديدٍ. سألت نفسي هل كنَّا نعرف أبي فعلًا؟ هل كنَّا نسمع ما يقول؟ لا شكَّ بأنَّ أبي تغيَّر، كلُّنا نتغيَّر، لكن لا أشعر أنَّه تغييرٌ بالقدر الذي

نشعره، يبدو أنَّنا صرنا نراه بطريقةٍ أخرى، ونسمعه بعد أن كنَّا نصمُّ آذاننا عمَّا يقول. لم تنتهِ الخلافات معه، لكن لم نعد ننظر إليها كما كنَّا ننظر إليها من قبل. نجحت الورشة، وكان محقًّا بأن يفرض علينا نفسه محاسبًا للورشة، لأنَّه انتبه لأشياء ما كنَّا لننتبه لها لولا وجوده. أعطانا المال وقت ما احتجناه، قيَّده على كلِّ واحدٍ منَّا كدينٍ على حصَّته، وعندما يأتي موعد الحساب، يخصم كلَّ المبالغ التي آخذناها. وضمن حساباته، اقتطع مبلغًا صغيرًا للطوارئ، وعندما تخرب ماكينة، لا نضطر إلى دفع أجرة إصلاحها من دخلنا، بل يُدفَعُ من مبلغ الطوارئ. كان يتدخَّل في حسابات الورشة من بضاعةٍ، ودفعاتٍ زبائن، ودفعات تجَّارٍ، واهتلاك آلاتٍ، وتخطيط للتوسُّع، كلُّها من صلاحياته المحاسبيَّة، عندما يعطينا حصَّتنا من الأرباح، لا يسألنا عمَّا سنفعله بها. كان يعطينا حصَّتنا، ويقول: «الله يعطيكم ألف عافية»، ما كان للورشة أن تنجح لولا وجوده، لأنَّنا أنا وعدنان أسوأ من بعض في قضايا المال وحساباتها. نجح أبي في النهاية في تقريبنا منه، نجح فيما فشل فيه طوال حياتنا، قد يكون ذلك حمانا من مصائر رديئةٍ، لم نكن نتخيَّلها، فأنا لم أعد قادرًا على العمل عند الناس، ومن دون الفرصة التي قدَّمها لي أبي، لم أكن أعرف ما الذي يمكنني فعله. لا سيَّما أنِّي شاهدت فشل عدنان أمامي، عندما أصرَّ على الذهاب إلى ليبيا، فشل وعاد خائبًا، حتَّى أنَّ أبي أرسل له ثمن بطاقة الطائرة في رحلة العودة إلى دمشق. لسنا قادرين على العمل عند الآخرين، ولسنا قادرين على إطلاق عملنا الخاص، لذلك ما فعله أبي كان إنقاذًا لنا من مصيرٍ مجهولٍ.

ربطتني الورشة بالمكان وقيَّدت حريَّتي، قبل ذلك كنت أستطيع ترك العمل وأصبح عاطلًا عن العمل حتَّى تنتهي نقودي، لأعود إلى العمل من جديدٍ، لست قادرًا على فعل ذلك. يمكنني فقط عندما أعمل عند الآخرين، لكن عندما يكون العمل لي لا أستطيع، لأنَّ العمل ينهار، وإذا انهار لا يمكن استعادته، على عكس العمل عند صاحب عمل، أستطيع تغيير صاحب

العمل ولا ينهار عملي، لأنَّه عمله الخاصُّ وليس عملي. وزادت قيودي عندما وقعت في حبِّ سهيلة، وهي أخت صديقي ماهر، كلَّما تصادفنا، سواءً في بيتهم أو في الطريق، أشعر أنَّ شيئًا في صدري يتحرَّك، أخجل وأشاهد خجلها. هناك إشاراتٌ تقول إنَّها تحبُّني، وأنا أشعر أنِّي أحبُّها. أعرفها منذ زمن، لم أنتبه أنَّها كبرت، كنَّا أنا وماهر مراهقين في الصف التاسع، وكنَّا نذهب إلى مدرسة البنات، لنلاحق من نعتقد أنَّنا نحبُّهم، وإعدادية البنات هي الهدف. كانت سهيلة في الصف السادس عندما تعرَّفت على ماهر، ولم يكن بمقدوري النظر إليها لسببين: الأوَّل، كنت أعدُّ البنات في المرحلة الابتدائيَّة طفلاتٍ بالنسبة لي وهكذا كنت أعامل سهيلة. الثاني، أنَّها أخت صديقي، من العيب أن أفكِّر فيها. تركت المدرسة بعد الإعداديَّة وماهر ذهب إلى الثانوية، ولم نعد نلتقي كثيرًا، ولم أصادف سهيلة لسنواتٍ طويلةٍ. وعندما قابلتها لأوَّل مرَّةٍ بعد انقطاع حوالي ستِّ سنواتٍ أصبحت في الثالث الثانوي كما يشير لباسها المدرسيُّ الكاكي وثلاث شاراتٍ حمراء على الكتف. في أوَّل مرَّةٍ صادفتها في شارع صفد، قالت: «مرحبا» بابتسامةٍ ساحرةٍ وخدودٍ تعلوها الحمرة، لم أعرف أنَّ هذا السلام لي، تلفَّتُّ حولي، لم أجد غيري، ردَّدت بارتباكٍ: «أهلين.. أهلين.» صرت أنظر خلفي بارتباكٍ كلَّما سرت خطواتٍ عدَّةً. وأخذت أسأل نفسي: «معقول يكون السلام إلي؟! معقول سلَّمت عليّ؟! لازم تكون بتعرفني حتَّى تسلم عليّ» أعود وأقول لنفسي: «شكلي بتوهم، من وين بعرف هيك بنت حلوة؟!» وأضيف: «انسَ الموضوع» وكلَّما كرَّرت هذه الكلمة ألحَّت الفتاة عليَّ أكثر، ولم تفارقني صورتها المطبوعة في مخيِّلتي لأسابيع بعد هذه الـ«مرحبا» وأخذت أذهب كلَّ يومٍ إلى شارع صفد في وقت انتهاء اليوم الدراسي، ولكنِّي لم أصادفها ولا مرَّةً. اقتربت من المدرسة أكثر وداومت على الذهاب إلى هناك ومن طرقٍ عدَّةٍ مختلفةٍ تؤدِّي إلى ثانوية اليرموك للبنات، من دون فائدةٍ. أحبطتُ وتراخت همَّتي، تباعد إلحاح صورتها، وخفت أن

أنساها، فصرت أستحضرها كلَّ يومٍ، لعلَّ مصادفةً أخرى تجمعنا قريبًا، لم تأتِ هذه المصادفة وطال انتظاري حتَّى نسيتها. التحقت بالخدمة العسكريَّة وأنهيت الدورة التدريبيَّة، وفُرِزتُ إلى وحدةٍ عسكريَّةٍ تسمَّى «لواء حطين» المتمركز بالقرب من مدينة قطنا، كنت أذهب إلى قطعتي العسكريَّة بالباصات التي تنقل العساكر من المخيَّم إلى القطعة مباشرةً. تأتي الباصات صباحًا وتعيدنا بعد انتهاء الدوام إلى المخيَّم. وعندما التحقت بقطعتي كان ذلك في نهاية الشهر السادس من العام، حين تكون المدارس قد دخلت في عطلتها الصيفيَّة. في تلك الأيَّام كنت أصحو الساعة السادسة صباحًا، حتَّى أستطيع اللحاق بالباصات الذاهبة مباشرةً إلى قطنا، وهي تحتاج إلى نصف وقت المواصلات العادية، رغم ذلك تحتاج بين جمع العساكر ووقت الطريق إلى أكثر من ساعةٍ للوصول. كانت من أسوأ أيَّام حياتي، فأنا أكره الصحو مبكرًا، لا شيء يدفعني للاستيقاظ في هذا الوقت المبكر سوى رحلات الصيد. ولم أكن أستطيع التأخُّر عن الباص لأنِّي في هذه الحالة، سأدفع أكثر من خمسين ضعفًا أجرةً للتكسي، حتَّى ألحق اجتماعي الصباحي في قطعتي العسكريَّة، وعشرة أضعافٍ إذا وجدت أربعة عساكر آخرين متأخِّرين مثلي. أكاد أزحف مغمض العينين بين بيتنا وشارع اليرموك صباحًا لألحق تلك الباصات، وبعد ثلاثة أشهرٍ عاد طلَّاب المدارس والجامعات مع بداية عامٍ دراسيٍّ جديدٍ. ازدحمت الشوارع أكثر، وزاد قرفي من الذهاب إلى وحدتي. في صباح يومٍ باردٍ من شهر تشرين الأوَّل/ أكتوبر، كنت أجرجر قدميَّ إلى شارع اليرموك، وعندما وصلت هناك، فاجأتني فتاةٌ تسير مبتسمةً في الاتجاه المعاكس، ما بين الصحو والنوم، شاهدت صورتها، وتخيَّلت نفسي أستدعي صورتها، لكن عندما قالت: «مرحبا» سمعت الصوت ذاته، إنَّها في الشارع وليست في الذاكرة. ارتبكت، ولم أعرف كيف أردُّ. إنَّها هي بلحمها ودمها، بخدَّيها الحمراوين ذاتهما، بشعرها البنيِّ ذاته، بعينيها الواسعتين ذاتهما، تحمل بعض الكتب والدفاتر. لم أعرف ما أقول

وخرجت: «أهلين» من فمي متلعثمةً. وقفت أتابعها بعينيَّ، وقفتْ مقابل شارع المدارس مع مجموعةٍ أخرى من الشباب والفتيات. مرَّ الباص الأوَّل الذاهب إلى قطنا، تركته ولم أركب فيه. فكَّرت في أنِّي يجب أن أعرف شيئًا عنها، وعندما مرَّ الباص الثاني وكان الأخير الذي يذهب إلى قطنا، ركبت فيه، وبقي نظري معلَّقًا بها، مرَّ الباص بهم، من دون أن أعرف شيئًا عنها. بقيت طوال اليوم أطير من فرحٍ لم أعرفه من قبل، بعد أن فقدت الأمل، ها هي تظهر أخيرًا. قرَّرت في اليوم التالي أنِّي لن أغادر حتَّى أعرف شيئًا عنها، حتَّى لو كلَّفني ذلك الفرار من الجيش. أخذت من عدنان بعض النقود حتَّى أكون مستعدًّا لركوب تكسي، بعد أن أعرف أين تذهب؟ صحوت باكرًا، انتظرتها على شارع اليرموك في المكان الذي التقينا به في اليوم السابق، كان صباحًا باردًا، مرَّت الدقائق بطيئةً، وخفت ألَّا تأتي، وأن تكون مصادفةً يتيمةً مثل المرَّة السابقة، مرَّ الباص الأوَّل والثاني اللذان يذهبان إلى قطنا، واختفى العساكر بلباسهم الأخضر من الشوارع، فالجميع صار في طريقه إلى وحدته، ما عداي، كنت أقف مثل الأهبل في انتظار أن يحدث المستحيل وتظهر. بعد حوالي ثلث ساعة، شعرتها دهرًا، خرجت من حارة حديقة الألعاب وهي تسير باتجاه شارع المدارس، حيث يتجمَّع الشباب والفتيات ذاتهم كما اليوم السابق، ما إن وصلت إلى هناك، حتَّى جاء باصٌ مكتوبٌ عليه UN ركبوا جميعًا، عرفت الباص من سائقه، وهو الباص ذاته الذي كنت أستقلُّه عندما درست في معهد المهن التابع للاونروا في المزَّة، والذي نسمِّيه «VTC» سارعت إلى أخذ تاكسي مع عسكريِّين متأخِّرين، وأنا سعيدٌ، لقد أصبحت أملك طريقًا للقمر. تحوَّل استيقاظ الصباح إلى متعةٍ لأنِّي يمكن أن أراها، وهو ما أثار استغراب أمِّي، فبعد تململي طويلًا من الاستيقاظ، أصبحت أستيقظ مبكرًا وأنا سعيدٌ، أحلق ذقني وأرتِّب هندامي وأنثر بعض العطر على ملابسي. انتظر الابتسامة ذاتها والخجل ذاته، وكلمة «مرحبا» ذاتها. السلام يكفيني، وكان عليَّ التقدُّم خطوةً إلى الأمام. كلُّ يومٍ

أقرِّر في المساء أن أطلب موعدًا منها في الصباح التالي. وفي الصباح، أجبن عن القيام بذلك خوفًا من أن ترفض وأصاب بالحرج. كان عليَّ أن أملك قوَّةً هائلةً لأوقفها وأقول لها بعد السلام: «أنا حابب أشوفك، بكرة عندي إجازة، رح أستناكي الساعة تنتين عند مطعم علاء الدين عند المعهد، بتخلصي دوام الساعة تنتين ما؟» هزَّت رأسها، وركضت خجلةً تجاه المكان الذي تقف فيه عادةً، أخذت أرتجف، لا أعرف لماذا، وما هذا الخوف الذي أصابني؟ هل هو خوفٌ من خطوةٍ خاطئةٍ قد تجعلني أخسرها؟ لم أفهم هزَّة رأسها هل هي موافقةٌ على الموعد، أم هو ردُّ فعلٍ من أجل التخلُّص من الموقف المحرج؟ لم أنم تلك الليلة، وأنا أتقلَّب، بين احتمالين: من المؤكَّد أنَّها ستأتي، وبين لا شيء يجعلها تأتي. قرَّرت الذهاب وانتظارها، سواء أتت أم لم تأتِ. كنت عند مطعم علاء الدين عند الساعة الواحدة والنصف وأنا في غاية التوتُّر، وكلَّما اقتربت الساعة من الثانية، زاد توتُّري، وعندما تجاوزت الساعة الثانية، أصبحت أرتجف، الدقائق العشرة التي تحتاجها للوصول إلى المكان من المعهد انتهت. بدا الوقت مفتوحًا، تمرُّ الدقائق وهي لا تظهر، مضى نصف ساعةٍ، ثلاثة أرباع الساعة، ساعةٌ، وقتها، أدركت أنَّها لن تأتي، وأنِّي سأنتظر بلا جدوى. تركت المكان، وسرت باتجاه موقف الباص لأعود إلى المخيَّم، عندما سمعت صوتًا نسائيًّا ينادي: «أحمد» نظرت خلفي، هي بلحمها ودمها، دُهِشتُ من معرفتها باسمي. في لحظةٍ تحوَّل الإحباط الشديد إلى سعادةٍ غامرةٍ. قلت: «خفت ما تجي»، قالت: «أنا خفت ما تستنَّى» عدنا إلى الزقاق القريب من المطعم، ومشينا إلى الشارع الخلفيِّ مبتعدين عن الأوتستراد المكشوف. قالت: «أنا آسفة على التأخير، كان لازم أتخلَّص من رفيقتي، اللي أصرَّت تجي معي»، قلت: «ولا يهمك. كيف عرفتي أسمي؟» قالت: «إنت عنجد بتسأل؟!»، قلت: «أكيد، عنجد بسأل؟» قالت: «زعَّلتني منَّك. أنا طول الوقت مفكرتك عارفني، وأنت طلعت مش عارف مين أنا»، أصابني كلامها بحيرةٍ شديدةٍ، قلت بدهشةٍ: «أنا بعرفك؟!»

قالت: «طبعاً، بتعرفني. أنا سهيلة»، لم أصدِّق أنَّ سنواتٍ عدَّةً حوَّلت تلك الطفلة إلى هذه الشابَّة الجميلة التي لا تشبه تلك الطفلة، امرأةٌ بكامل أنوثتها تمشي إلى جانبي، وقد تركت تلك الطفلة وراءها. لم أصدِّق أنَّ ستَّ سنواتٍ فقط تفعل كلَّ هذا التغيُّر. عندما قالت اسمها، ضربت رأسي بقبضة يدي وأنا أقول: «العمى أنا شو حمار. كل هذا الوقت وما عرفت مين أنت؟» قالت: «سلامتك، لا تقول هيك عن حالك» مشينا وتحدَّثنا، وجلسنا في مقهى نراه لأوَّل مرَّةٍ، لم أكن أصدِّق نفسي، فرحت كما لم أفرح في حياتي، وشاهدت الفرح في عينيها. لم نشعر بالوقت، أصبحت الساعة السادسة، وكانت قد تأخَّرت عن البيت كثيراً. لم أرغب في تركها أبدًا، وددت لو بقينا معًا إلى الأبد. وكانت هذه بداية حبِّي الذي انتظرته طويلًا.

بعد انتهائي من خدمتي العسكريَّة، وبدأنا في الورشة التي اقترحها أبي، كان يجب أن أفعل شيئًا بشأن العلاقة مع سهيلة، فهي لم تعد تستطيع الانتظار، لأنَّ العرسان يطلبونها، وهي ترفضهم وليس عندها أسبابٌ مقنعةٌ أمام أهلها. أعاد أبي إعمار بيتنا، وبنى لكلِّ واحدٍ منَّا شقَّةً، وزَّعها علينا عن طريق القرعة، ولم يقبل أن نتبادل أنا وعدنان شققنا، وقال عليكم الالتزام بالقرعة، وهذا ما كان. وعندما أصبح عملنا جيِّدًا، بدأت أقول لأبي: «بدي أتجوَّز، رح جن»، قال: «استنى أخوك عدنان ليتجوَّز»، قلت لعدنان: «ما بدك تتجوَّز؟»، قال: «لأ، مو هلأ»، قلت: «قول لأبوك، ما بدك تتجوَّز، وما عندك مشكلة أتجوَّز قبلك»، قال: «تكرم عينك» وبعد أن قال عدنان لأبي ما طلبت منه قوله. بدأت أنق، وأتصنَّع الجنون، ولم يكن أمام أبي وأمي سوى الموافقة على زواجي قبل عدنان خوفًا من جنوني.

بعد ضربة طائرة الميغ، لم تعارض سهيلة البقاء في المخيَّم بعد خروج الناس، كانت تقضي الوقت مع أبي عندما أغيب عن البيت، ترى طلباته وتنظِّف له البيت، وتجلس للتحدُّث معه. ساعدها هذا على احتمال الأوضاع الجديدة في المخيَّم، وساعد أبي الذي كانت سهيلة صديقته الوحيدة

أيَّام الحصار الأولى قبل خروجه من المخيَّم. مع الوقت تراخت عزيمة الذين قرَّروا البقاء في المخيَّم، وأخذوا يغادرون من دون عودة، لا سيَّما أولئك الذين ظنُّوا أنَّ الوضع سيكون لأيَّامٍ أو أسابيع لا غير وينتهي. على عكس توقُّعاتهم، ازداد الوضع سوءًا كلَّ يومٍ، وظهر أنَّ الحصار سيكون أطول وأقسى من أيِّ تصوُّرٍ. وعندما غادر أبي مع أختي ميرفت، تمنَّت سهيلة أن يعود لأنَّ مغادرته تركت عندها فراغًا كبيرًا، فهو الشخص الوحيد الذي كانت تراه وتتحدَّث معه في الحصار. لم تخف سهيلة على نفسها، كانت خائفةً على الأولاد. عبَّرت عن ذلك بطريقةٍ غير مباشرةٍ. كانت تقول: «شو ذنب أولادنا؟» شعرت بوطأة الوضع عندما بدأ شحُّ الطعام في المخيَّم مع الحصار الخانق، شعرت أنِّي لن أستطيع تأمين حاجات أولادي، ولأنِّي كرهت الشعور بالعجز تجاههم، قرَّرت أن يغادروا مع أمِّهم، كان ذلك قبل إغلاق المخيَّم بالكامل بحوالي شهر. فجأةً ومن دون إنذار قلت: «سهيلة، لازم تطلعي إنت والأولاد من المخيَّم»، قالت: «شو بتقول؟!» قلت: «زي ما سمعتي. إحنا رايحين على حالة أصعب»، قالت: «إنت طالع معنا؟»، قلت: «لا، أنا باقي بالمخيَّم»، قالت: «شو بدنا نعمل من دونك برة المخيَّم؟»، قلت: «الوضع أفضل الكم برة المخيَّم، وزي ما إنت بتقولي شو ذنب أولادنا»، على مدى يومين حاولت إقناعي بالخروج معهم من المخيَّم، حتَّى أنَّها هدَّدت ألَّا تخرج إذا لم أخرج أنا. كنت أعرف أنَّها ستخرج في النهاية من أجل الأولاد على الأقل. يوم الخروج، اتصلت بأخي عدنان كي يأتي إلى حاجز البطيخة من أجل اصطحاب سهيلة والأولاد. أعطيتها ما معي من مال، لفَّته على خصرها خوفًا من سرقته على الحاجز. لم أستطع مرافقتهم إلى حاجز البطيخة، قلت لصديقي مصطفى أن يوصلهم. عانقت الأولاد، نظرت إلى سهيلة الباكية، عانقتها بقوَّةٍ، وعندما بدأت دموعي تتساقط. قلت: «سهيلة، خلص روحي»، كانت تبكي هي والأولاد عندما أدار مصطفى محرِّك السيَّارة وانطلق. هوى قلبي، وكنت على يقينٍ أنَّ هذه آخر مرَّةٍ

أراهم فيها، دخلت المنزل، تدفَّقت دموعي، وبكيت كالأطفال، وجدت نفسي أصرخ بأعلى صوتي «لااااااا».

عندما خرجوا من المخيَّم، شعرت نفسي متحرِّرًا ومقيَّدًا في الوقت ذاته، متحرِّرٌ من الخوف عليهم من قذيفة هنا أو اشتباكٍ هناك في المخيَّم، فقد أصبحوا بأمانٍ من هكذا أحداث عند أبي في قادسيا. ومقيَّدٌ، لأنَّ أيَّ تصرُّفٍ أحمق منِّي أقوم به داخل المخيَّم، سيدفعون ثمنه خارج المخيَّم، فالمخابرات لا تتورَّع عن معاقبة أهالي من تريد معاقبته إذا لم تصل إليه. لذلك، حرصت على عدم الظهور وأنا أحمل السلاح من دون أن أغطِّي وجهي. وبسبب الأوضاع الجديدة في المخيَّم، شعرت أنِّي أستطيع حلَّ مشاكل منزل بيت جدِّي الذي يختلف أعمامي عليه منذ سنواتٍ طويلةٍ، وعندما قلت لأبي على الهاتف: «شو رأيك أحل مشكلة بيت جدِّي؟» قال: «حلها إذا فيك»، وعدَدت كلامه موافقةً من أبي على ما سأقوم به، حتَّى لو كان ما قاله أبي لا يقصده تمامًا. ذهبت إلى بيت جدِّي، طلبت من فؤاد مغادرة المحل، وهو الرجل الذي تركه عمِّي عمر في محلِّه عندما غادر المخيَّم، وكان يبيع فيه الخضروات. قال الرجل: «حاضر عمِّي أحمد» ذهبت على محل أبو إسماعيل وهو الرجل الذي استأجر المحلَّ من جدِّي منذ وقتٍ طويلٍ. وطلبت منه تسليم المحل، أخذ الرجل يبكي، ويقول: «بتهدِّدني بالسلاح!»، وكنت يومها أحمل الكلاشنكوف معي. عاد عمِّي عمر إلى المخيَّم بعد أن أخبره فؤاد بما جرى بيني وبينه، وقد تشاجرت معه في ذلك اليوم. قال: «ما الك علاقة بالمحل»، قلت: «إلي علاقة ونص، واللي ما حليتوه انتوا بعمركو، بدي أحلُّه أنا»، قال: «هذا اللي بتعملُه عيب يا أحمد»، قلت: «ليش إنت بتعرف العيب»، أخذ عمِّي يبكي. قلت: «هلأ بتبكي زي النسوان»، لم يردَّ عليَّ، أدار ظهره وخرج من عندي ومن المخيَّم، شعرت أنِّي أنجزت عملًا لم يستطع أعمامي إنجازه مع عمِّي عمر. كما أنَّ أبا إسماعيل أخبر أعمامي بأنِّي أهدِّده ليترك المحل. وعندما وصل الخبر إلى عمِّي منير في مصر، وكنت

قد بعثت له من أجل أن يوافق على ما أفعله لحلِّ مشكلة البيت في ظلِّ الظروف الجديدة، التي أستطيع أن أستغلَّها وأحسم خلاف أعمامي. وكنت أظنُّ أنَّه سيدعمني بهذه المهمَّة ليفاجئني برسالةٍ قاسيةٍ تقول:

«مرحبا عمِّي. كيفك؟ إن شاء الله تكون في أفضل حال. لم يسرَّني ما سمعت. أظنُّ أنَّ الظلم المعمَّم في البلد يكفي، ولا نحتاج إلى مظالم إضافيَّةٍ. أيُّ واحدٍ يستطيع أن يدخل أيَّ بيتٍ بالقوَّة ويخليه تحت حجَّة أنَّه على حقٍّ. هكذا يتحوَّل العالم إلى غابةٍ، القوي يأكل الضعيف، والضعيف لا يجد من يحميه من توحُّش القويِّ، هذا عالمٌ لا أتمنَّى شخصيًّا أن أعيش فيه. أنت لست جزءًا من نزاعنا كإخوةٍ، وأنت لا صفة لك للمطالبة بما تطالب. ولا تستطيع إجبارنا على حلِّ مشكلتنا رغمًا عنَّا، وفق مزاجك الشخصيِّ، ورؤيتك السطحيَّة للحقِّ وأصحابه. هي مشكلتنا ونحن نحلُّها. ولا حقَّ لك بأن تطالب أبا إسماعيل بالخروج من المحل. وليس لك الحقُّ أن تهين عمَّك عمر. باسم أيِّ حقٍّ تتكلَّم. أنا لم أسمع بأيِّ قانونٍ أو شرعيَّةٍ أو دين يسمح لمن لا حقَّ له أن يطالب بحقوق الآخرين بالرغم من إرادتهم. من قال لك إنَّك ملاكٌ بعثك الله من أجل إحقاق الحقِّ؟ أيَّ منطقٍ هذا الذي يجعل شخصًا لا صفة له أن يهدِّد ويتوعَّد الآخرين بالويل والثبور إن لم يقدِّموا له تنازلًا عن حقوقهم، وتسليم مكان رزقهم، لأنَّه قرَّر أنَّ من حقَّه القيام بذلك؟ من أعطاك هذا الحقَّ، أيُّ قانونٍ وأيُّ دينٍ وأيُّ شريعةٍ وأيُّ ضميرٍ وأيُّ أخلاقٍ؟ ومن أعطاك الحقَّ بأن تمنع أو تسمح من يدخل ومن يخرج من المخيَّم؟ تريد أن تحطِّم محلَّاتٍ وتخلي بيوتًا وتحطِّم أسنان البشر، وتجبر الناس على كتابة وثائق تنازلٍ، وأن يأتي الآخرون صاغرين ويأتمرون بما تقول، وتعتقد أنَّ هذا الحقَّ؟ هل تعتقد أنَّك أصبحت مكان الله؟ ينطبق على هذا السلوك كلُّ أنواع الوصف السيِّئة، إلَّا وصف إحقاق الحقِّ. هذا السلوك بلطجةٌ، سرقةٌ، تشبيحٌ، ابتزازٌ، تهديدٌ... الخ. أنا لا أريد الحقَّ الملوَّث بكلِّ هذه الجرائم. لأنَّ الجرائم ليست الطريق إلى الحقوق منذ خلق الله

الأرض. تستطيع أن تفعل ما تشاء باسمك الشخصيِّ. لكن لا تفعل شيئًا باسمي. مرَّةً أخرى الجرائم لا تؤدِّي إلى الحقوق. لا أريدك أن تقترب من حقِّي الذي عند الآخرين، إذا كان لي عندهم حقٌّ. إذا كان عندك واعزٌ من ضميرٍ أو دينٍ أو أخلاقٍ، أوقف هذه المهزلة. لم يطلب أصحاب الحقِّ أن تأتيهم بحقِّهم الذي لا صلة لك به. ويفترض بالإنسان المؤمن أن تمنحه القوَّة الكثير من التواضع، لا أن يتفرعن أمام أوَّل إحساسٍ تافهٍ بالقوَّة. مرَّةً أخرى أتمنَّى ألَّا تسير بهذا الطريق، لأنَّه بالتأكيد طريق يؤدِّي إلى الجريمة. وكنت أتمنَّى في هذه الأوقات أن أكون بالبلد. حتَّى تقول لي أنَّك ستمنعني من دخول المخيَّم. وإلَّا حكمت عليَّ بالإعدام. وكنت أتمنَّى أن أجرِّب فعلًا هل تستطيع إطلاق النار عليَّ. كما قال لك أبوك «اتق الله» ولا كلام بعد هذا الكلام..»

عمُّك منير

خفت من رسالة عمِّي منير التي جاءت عبر برنامج الماسنجر، لأنَّ الاتصالات مع الخارج من المخيَّم أصبحت صعبةً. صدمتني وأربكتني، ولم أعرف كيف أردَّ عليها، استعنت بصديقي مصطفى، وكتبنا الردَّ الذي يقول: «أنا لا أتكلَّم من منطلق قوَّةٍ أبدًا، ولا أستعمل الأسلوب الذي سخَّرته لك مخيِّلتك أو مخيِّلة من نقل لك الموضوع. أنا لا أهدِّد ولا أتوعَّد ولن أفعل. أمَّا طريق الجريمة الذي لا تفتأ تكرِّر الحديث عنه. فهو ما أعدُّه تهديدًا ووعيدًا عجزت بالسبل والوسائل كافَّةً عن إنجاز تقدُّمٍ واحدٍ بموضوع بيت جدِّي، وكلُّ ما حصلنا عليه من محاولاتك مزيدًا من الأحقاد والتباعد بوجهات النظر، وعلى فكرة تصرُّفي ليس رغمًا عن إرادة أبي أبدًا، ولا تنسى إنَّكم وكَّلتموني يومًا بحلِّ هذه المشكلة، انزعاجك هذا ليس بسبب أبي إسماعيل، إنَّما بسبب معرفتكم التامَّة إنَّكم بالرحى نفسه معه. كلُّ ما فعلته هو إنذاره، وهو من تطاول وهدَّد وتوعَّد. كان أملي أن تقفوا ضدَّ

تهديده لي. لكن كالعادة نصرة الغريب أهمُّ من نصرة القريب. وإنذاري له يُعدُّ أخلاقًا وأدبًا. اترك أمور الكلام بالله لأهل الله لو سمحت. لم أمنع أحدًا من الدخول أو الخروج ولم أهدِّد أحدًا ولن أفعل يومًا ولست مجرمًا كما سمَّيتني لأطلق النار على أحد. شكرًا لتفهُّمك ودعمك وعنايتك بألفاظك الموجَّهة لي.»

حماك الله

ابن أخوك

أحمد

لم أكن مقتنعًا بما كتبت، حاولت تقوية نفسي بهذا الجواب، لكنَّ الخطأ الذي ارتكبته كان يؤنِّبني. وعندما مرض عمِّي عمر بعد شجارنا بأسبوعين، قلت لنفسي، أنَّه يدَّعي المرض مثل المرَّات السابقة، وعندما مات بعد شهرين بسرطان الرئة الذي أصابه ولم يمهله الكثير من الوقت، ولم يمهلني لأعتذر منه. وعندما جلبوا جثمانه لدفنه في المخيَّم، تسلَّمته أنا وأصدقاءه الباقين في المخيَّم، أوصله عمِّي سعد وأبي وإخوتي خارج المخيَّم إلى حاجز البطيخة، حملته وأنا أبكي، وسألت نفسي: «هل ما تشاجرنا من أجله يستحقُّ الشجار؟» عندما أنزلته بيدي إلى القبر وهو في الكفن، شعرت أنَّ وزنه قد نزل إلى النصف تقريبًا، خلال الفترة القليلة التي انقضت منذ شجارنا، وسألت نفسي: «هل هذا عمِّي الذي تشاجرت معه؟» بكيت وأنا أضع رأسه على أرض القبر وأنا أقول له: «منشان الله سامحني عمِّي. إذا كنت بتسمعني، أنا بدي أعتذر وأقلك أنا كنت حمار. منشان الله سامحني»، بقيت طوال الوقت أفكِّر لماذا فعلت ذلك؟ ولم أكفَّ عن لوم نفسي طوال الوقت، وكنت أتذكَّر عمِّي كلَّما اقترب الموت منِّي خلال الحصار، وعرفت أنَّنا يمكن أن نغادر هذه الدنيا في أيِّ لحظةٍ. حتَّى يكون الدرس أقسى، سرعان ما أشتدَّ الحصار على المخيَّم. ولم تعد الحواجز تسمح

بدخول أيِّ مساعداتٍ غذائيَّةٍ للمخيَّم، كانت في السابق تجعل المحاصرين يعيشون حدَّ الكفاف. في أيَّامٍ سابقةٍ جرى تقييد دخول المساعدات لأيَّامٍ أو أسابيع عدَّةٍ، ثمَّ يُسمح لدخول المساعدات من جديدٍ. ظننَّا جميعًا في المخيَّم، أنَّ الحصار مؤقَّتٌ مثل كلِّ مرَّةٍ، وكنَّا مخطئين. امتد الحصار ككابوسٍ لا ينتهي. وبدأت آثاره منذ الأيَّام الأولى. فعندما أغلقت الحواجز المخيَّم، كان بعض المحاصرين قد خرجوا لشراء بعض الاحتياجات. في ذلك اليوم، تركت جارتنا سعدة ابنتها ذات العشرة أشهرٍ، مع زوجها ممدوح وغادرت عبر حاجز البطيخة لشراء الخبز وبعض الخضروات من السوق المستجد إلى جانب الفرن الآلي في الزاهرة. ولأنَّها لن تستطيع حمل ابنتها والأغراض التي ستشتريها معًا، ولم يكن زوجها قادرًا على الذهاب للتسوُّق، لأنَّ القنَّاص أصابه بطلقةٍ حطَّمت ساقه. لم يخطر على بالها، أنَّ الحاجز الذي ستقطعه، سيغلق في طريق عودتها. منع المسلَّحون على الحاجز كلَّ الذين غادروا من العودة إلى المخيَّم في ذلك اليوم. تجمَّع الممنوعون من الدخول عند حاجز البطيخة، صرخت سعدة مع الذين صرخوا، بكت، ورمت نفسها على قدم أحد المسلَّحين راجيةً أن يسمح لها بالدخول من أجل ابنتها الرضيعة. أجاب المسلَّحون بإطلاق النار في الهواء لتفريق الناس. لم تغادر الحاجز حتَّى أجبرها أخوها الذي أتى ليصطحبها، وهي ذاهلةٌ تفكِّر في ابنتها التي تركتها مع زوجها.

عندما عرف ممدوح، أنَّ زوجته لن تعود، نظر إلى ابنته الباكية من الجوع، ولم يعرف ماذا يفعل لها. طلب المساعدة من الجيران، الذين بحثوا له عمَّن يرضع الطفلة. شعرت بعض النساء المرضعات في المخيَّم بالشفقة عليها، أربعٌ منهنَّ حاولن إرضاعها، رفضت الطفلة أن ترضع من أيٍّ منهنَّ. أحضروا لها أنواع الحليب المتوافرة في المخيَّم ممَّن لديهم أطفال رُضَّع ويملكون الحليب، لم تقبل رضاعة أيَّ نوعٍ. حاروا فيما يفعلون لها. أخذ

أبوها يجبرها على شرب الحليب بالملعقة، سرعان ما تتقيَّؤه. بعد ثلاثة أيَّامٍ ماتت الطفلة التي رفضت الرضاعة سوى من ثدي أمِّها.

طال الحصار، ونفذ طعام المحاصرين، أصبحنا نتَّصل بمن يملكون بيوتًا في المخيَّم وغادروه ونسألهم، إذا تركوا طعامًا في بيوتهم قبل أن يغادروا المخيَّم. وعندما نفذ الطعام عندي، ذهبت إلى بيت جدِّي حيث ثلاث شققٍ كانت مسكونةً من عمِّتي وداد وعمِّي عمر وعمِّي سعيد، لم أسأل أحدًا، إذا كان هناك طعام، ذهبت وحطَّمت الأبواب، وأخرجت كلَّ الطعام الموجود في الشقق الثلاثة، وكانت كميَّاتٍ وفيرةً من السكَّر والرز والعدس والزيت وغيرها من الطعام الناشف الذي ما زال صالحًا للاستعمال، كما وجدت كميَّةً من المازوت في الخزانات على السطح. بمساعدة مصطفى نقلت كلَّ الطعام إلى بيتنا، كما نقلت المازوت أيضًا. قسَّمنا الطعام إلى ثلاثة أقسامٍ متساويةٍ، أخذ هو قسمًا، وأنا أخذت قسمًا، والقسم الثالث قسَّمناه إلى حصصٍ وزَّعناها على الأصدقاء والأقارب الباقين في المخيَّم. قدَّرنا أنا ومصطفى، أنَّ الحصار، لن يطول أكثر من شهر، ولا بدَّ من أن تصل المساعدات، طالما الجميع يتدخَّل، الأونروا ومنظَّمة التحرير، وبعض الدول الأخرى. مثل الجميع أخذت أقنِّن طعامي حتَّى يكفيني ما أحتفظ به لحين قدوم المساعدات. أخذ وزني ينقص، وكلَّما اقتربت كميَّة الطعام من نهايتها، أزيد التقنين، لعلَّ الفرج يأتي، لكنَّه لم يأتِ. صرت أسمع صوت معدتي الفارغة يعلو يومًا بعد يومٍ. عندما سألني مصطفى، إذا كان عندي بعض الطعام لأنَّ طعامه نفذ، ولا طعام عنده له أو لأبيه المريض، كان كلُّ ما بقي عندي من الطعام بعض الفاصولياء اليابسة، التي نقعتها في اليوم السابق حتَّى أطبخها، لم أقترب منها، طالما عندي قدرةٌ على الصمود في مواجهة الجوع. قلت له: «في شويَّة فاصوليا، ناقعهم وبدي أطبخهم»، قال: «منشان الله، اطبخهم طعميني، صرلي يومين ما أكلت»، أشعلت البريموس القديم الذي حصلت عليه من سقيفة بيت أهلي، وأعدته إلى الخدمة بمازوتٍ

مخلوطٍ ببنزين، كما كنَّا نفعل أيَّام خدمة الجيش. وكنت أحتفظ ببعض المازوت الذي جلبته من بيت جدِّي، سحبت بخرطومٍ كميَّة البنزين الباقية في الدرَّاجة الآليَّة التي تركها عدنان، والتي كنت أستعملها في التنقُّل في المخيَّم، حتَّى نفذ البنزين من المخيَّم، ولكنِّي احتفظت بحوالي لترين لأخلطهما مع المازوت، حتَّى يشتعل البريموس. قنَّنت استخدامهم لأنِّي في كثيرٍ من الأحيان أطبخ على الخشب الذي بقي في المحل، حتَّى أحافظ قدر الإمكان على ما تبقَّى من المازوت والبنزين الذي لا أعرف متى سأحصل على المزيد منه. فقد استخدمت المازوت في قناديل قديمةٍ من أجل الإضاءة في الليل، عثرنا عليها في أثناء بحثنا عن الطعام في الشقق المهجورة، وحين لا توجد الكهرباء التي كنَّا نشتريها لساعاتٍ من مولِّداتٍ تعود للمسلَّحين، والتي تعمل لساعتين أو ثلاثة في اليوم حتَّى نتمكَّن من شحن هواتفنا والكمبيوترات المحمولة، ونشاهد التلفزيون الذي نفتقده في فترة انقطاع الكهرباء. قلت لمصطفى: «هذا الأكل رح يكفِّينا يومين، رح قسُّمه بيني وبينك، وأقسِّم حصَّتي على يومين»، قال: «أنا ما بنفع أساوي مثلك، لأنِّي رح آخذ الأكل لأبوي. بس شو رح ساوي بس يخلصوا؟» قلت: «وقتها بحلها الحلَّال»، قال: «والله يا أحمد ما رح أستنا. بدي لاقي حل قبل اليومين»، قلت: «وين بدك تلاقي حل بيومين؟!» قال بتردُّدٍ: «بفكِّر أنضم للنصرة، يا أخي المسلَّحين عندهم أكل والناس ميتة من الجوع. وأبوي رجل مريض، ما خرج الجوع»، التفتُّ إليه، هززت رأسي متفهِّمًا وقلت: «بس أنت بتعرف يا مصطفى، أوَّل ما تنضم للنصرة، رح يعرفوا برة المخيَّم، أنت بتعرف المخيَّم مليان مخبرين، كل شي بصل لبرة، في مخبرين كثير مع الفصائل. وأنت مرتك وولادك برة المخيَّم، ما بتعرف المخابرات شو ممكن تعمل؟»، قال: «يا خيا ما في حل غير هذا، في عندك حل ثاني؟ مرتي وولادي راحوا على لبنان مع أهلها»، ضحكت، وقلت: «لو في حل ثاني، كنت شفتني على هاي الحال! على كل حال منيح اللي مرتك وولادك صاروا برة البلد. هذا بخلي

الوضع أهون»، قال: «شو رأيك روح أنا وياك على النصرة ونخلص من هالحالة؟»، ارتعبت من فكرة الانضمام للنصرة، ليس خوفًا على نفسي، بل خوفًا على زوجتي وأولادي خارج المخيَّم، ماذا لو عرفت المخابرات بانضمامي إلى النصرة؟ ما الذي سيفعلونه معهم؟ ما الذي سيفعلونه مع أبي ومع إخوتي؟ كان كابوسًا أرى نفسي فيه أتسبَّب بالأذى لهؤلاء. نظرت له، ابتسمت ابتسامةً ساخرةً وقلت: «لا عمي مصطفى، روح لحالك، ما رح أغامر بعيلتي. إذا إنت عيلتك برة البلد، أنا عيلتي وأبوي وإخواتي، بعدهم بالبلد، وأنت بتعرف شو بتعمل المخابرات»، قال: «كنت حابب نظلنا مع بعض»، قلت: «الله يسرلك عمي مصطفى، بتروح على النصرة، بتروح على الأكناف، بتروح على أحرار الشام، أنت حر، والله يسرلك. بس أنا ما رح أروح مع حدا»، لم ينتظر طويلًا لينضمَّ إلى جبهة النصرة.

طال الحصار، ويومًا بعد يومٍ تحوَّل المحاصرون إلى هياكل عظميَّةٍ، فلا طعام في البيوت المهجورة، الذي يجد بعض الرز أو السكر، يكون كمن وجد كنزًا. تاجر المسلَّحون في المخيَّم بالمواد الغذائية، التي صعدت أسعارها إلى السماء، وهناك من جنى أموالًا طائلةً من وراء التجارة بجوع الناس في المخيَّم. كان المحاصرون يتدبَّرون أمرهم ويشتروا القليل الذي يجعلهم يستمرُّون في الحدِّ الأدنى من الحياة. وبعد وقتٍ قصيرٍ، حتَّى هذه التجارة الانتهازيَّة توقَّفت، ف في المخيَّم أيُّ طعامٍ. وبدأ المحاصرون، يبحثون في محيط المخيَّم الآمن عن خضرواتٍ تصلح للأكل، وهذه انتهت أيضًا، وأخذ المحاصرون يلاحقون القطط والكلاب إذا وجدوها لأنَّ هذه الحيوانات اختفت من المخيَّم، لا لها طعام أيضًا. الكلُّ يبحث عن الطعام، ومن عنده أولاد رأى أولاده يهزلون أمامه، ولا يجد ما يُفضِّل به أولاده على نفسه. قبل حصار المخيَّم، كان وزني أكثر من مئة كيلو غرامٍ، أي كنت بدينًا، مع الحصار أخذ وزني بالنقصان، ومع اشتداد الحصار، أخذ وزني ينخفض بسرعةٍ. قبل اندلاع الاحتجاجات في البلد، حاولت تخفيض وزني لكنِّي لم أتمكَّن من ذلك،

فأنا أحبُّ الطعام جدًّا، وزوجتي تطبخ طعامًا لذيذًا، وإرادتي ضعيفةٌ تجاهه، وبدل أن تسفر محاولاتي عن انخفاض وزني، زاد وزني، واقتنعت أنَّ تخفيض وزني مهمَّةٌ مستحيلةٌ. في قلب الحصار، عرفت أن تخفيض الوزن ممكنٌ، ويمكن أن ينخفض الوزن حدَّ الموت، من دون طعامٍ. كنت أظنُّ أنَّ الكلام عن الموت جوعًا فيه مبالغةٌ، لأنَّ الإنسان مهما ضاقت عليه، يمكن أن يجد شيئًا ما يأكله. عندما مات الأخرس، تذكَّرت ابن عمي فراس الأعمى، ماذا سيفعل لو بقي في المخيَّم؟! لم أكن أعرف فراس من قبل، تعرَّفت عليه عندما لجأ عمِّي سعد وعائلته من دوما إلى المخيَّم.. تعرَّفت عليه في هذه الظروف الصعبة، عندما اصطحبته أوَّل مرَّةٍ إلى بيتنا، كان خجولًا، وبعد الزيارة أصبح سعيدًا بصحبتي، ظهر ذلك على وجهه كلَّما ألتقيه. جعلتني الأوقات التي قضيناها معًا، أعرف كم هو شخصٌ حسَّاسٌ وفهيمٌ، شعرت أنَّه الوحيد الذي فهمني في هذه الحياة، حتَّى زوجتي لم تفهمني، بينما هو استطاع ذلك. أحببته وأحببت الحديث معه، وكان يشفي غليلي. وعرفت أنَّه رجلٌ له آراء سديدةٌ في الحياة، لولا فقدانه البصر لكان لهذا الرجل شأنٌ كبيرٌ في الحياة. ولأنَّ الحياة ظالمةٌ مع الجميع، كان ظلمها معه مضاعفًا. تعب الرجل وتفوَّق على نفسه، وأنهى دراسته الجامعيَّة من دون جدوى. على العكس، كانت ثقافته مؤذيةً له، يبدو كلَّما عرف الإنسان أكثر، تعب أكثر، وهكذا حال فراس. تدلُّ المآسي على بعضها. الأخرس الجائع ذكَّرني بالأعمى المهجَّر، ويعود الأعمى ليستدعي الأخرس الجائع، الذي كان قصَّةً محزنةً في المخيَّم المحاصر. شاهدت الموت جوعًا بعيني، وعرفت علاماته على جسدي الهزيل بعد ذلك. كان خير الله المعروف بـ«الأخرس» يملك دكَّانًا على شارع اليرموك بالقرب من مبنًى صامدٍ قبل الحصار، يبيع كلَّ شيءٍ، من أنابيب الغاز المفقودة، إلى السجائر الفرط لطلَّاب المدارس. كان يمكنه تأجير دكَّانه، وهو ما سيعود عليه بدخلٍ أكبر ممَّا يحصل عليه من عمله فيها، لم يفعل ذلك، عدَّ عمله أهمَّ من أيِّ مالٍ يتلقَّاه أجرًا للدكان

التي يملكها، وهو شديد الفخر بعمله. تفاهم مع زبائنه بلغة الإشارة، والكثيرون كانوا يشترون من عنده لأنَّهم يقدِّرون كفاحه وإرادته في صناعة حياته بجهده، وألَّا يكون عالةً على الآخرين لعاهته، صنع حياته لأنَّه يحب الحياة، هذا الحبُّ هو ما أبقاه في المخيَّم حيث حياته التي لا يمكنه عيشها في مكانٍ آخر، فبقي خلال الحصار، عانى وجاع ومات. يا الله المعادلة بهذه البساطة مات لأنَّه يحبُّ حياته في المكان. اللعنة على المكان، اللعنة على الجوع، واللعنة على الموت. كان رجلًا طيِّبًا، اشترينا ونحن أطفال عندما كنَّا في المدرسة الإعداديَّة دخان فرطٍ من عنده، أي يبعنا بالسيجارة الواحدة، كنَّا نعذِّبه، ونقلِّده في نطق الكلام غير المفهوم. يركض وراءنا ويشتم بأصواتٍ غير مفهومةٍ، مجرَّد أصواتٍ عاليةٍ، لا معاني لها ولا تتطابق مع حروف اللغة، كنَّا نعرف أنَّه يشتم بلغته لأنَّنا آذيناه. لم يغادر المخيَّم، مع أنَّ عائلته غادرت، وله ابنٌ على حاجز البطيخة مع جماعة جبريل الذين يحاصرون المخيَّم. اتصل أقارب الأخرس بابنه لعلَّه يساعده بالخروج من المخيَّم، أو إدخال بعض الطعام لوالده الذي يموت من الجوع. لكنَّ الولد لم يبالِ، ولم نعرف لماذا فعل ذلك، هل هو خوفٌ من الذين يعمل معهم، أم هو لا يريد مساعدة والده؟ قبل أن يناديني أبو فرج من أجل مساعدته في نقل الأخرس بعد وفاته، لم أكن قد شاهدت أيَّ جثَّةٍ من الذين توفَّوا بسبب الجوع، حتَّى أنِّي لم أشاهد الصور التي نُشِرَت على الإنترنت، لم أرغب في رؤية هذه المشاهد. شاهدت أشخاصًا قُتِلُوا بسبب القصف أو بسبب القنص، وهناك من تحوَّلوا إلى أشلاء، كانت المشاهد مؤلمةً ومخيفةً. بينما كان مشهد خير الله الأخرس مرعبًا. صُعِقتُ عندما شاهدته، كنت قد شاهدته قبل أشهرٍ في المخيَّم، بعد خروج الناس منه، حافظ على دوامه في الدكَّان لبعض الوقت، وبقي فيها، حتَّى باع كلَّ ما فيها، ولأنَّه ليس عنده ما يبيعه، كان يذهب ويجلس إلى جانب محلِّه، وكأنَّه يحرسه من القذائف. عندما شاهدته، كانت ملامحه قد انكمشت، لونه الشاحب، وعيناه الغائرة

المغمضة نصف إغماضةٍ من التعب السابق على الموت، عظام الوجنتين الناتئة، الخدود الغائرة، شعرات ذقنه البيضاء الخفيفة متناثرةٌ، فمه نصف المفتوح وشفتاه المتشقِّقتين، وجهه يصرخ: «أنا جائع» هكذا سمعته يصرخ رغم أنَّه ميِّت. عظام الكتفين الناتئة، أضلاع القفص الصدريِّ الظاهرة، المعدة الملتصقة بالظهر، الساعدان والساقان العظميان حيث لا لحم يكسوهما. أرعبتني جثَّة الرجل، رجلٌ في كامل صحَّته، يستنفذ الجوع كلَّ طاقته، ويدفعه إلى الموت، إنَّه موتٌ مؤلمٌ وبطيءٌ ومرعبٌ. الموت بطلقةٍ، قذيفةٍ، برميلٍ متفجِّرٍ، مهما طال فهو موتٌ قصيرٌ، موتٌ سريعٌ يقضي على الحياة لسببٍ خارجٍ عن الجسد ذاته، لا يقتل الجسد نفسه، يقتله جسمٌ غريبٌ يدمِّر أجزاءً منه فيموت الشخص. أمَّا الموت جوعًا فهو موتٌ بطيءٌ قاسٍ، لا شيء خارجيٌّ يدمِّر أجزاءً من الجسد، الجسد يضعف، يخبو، يهبط، يسقط، ينهار، ويتوقَّف عن القدرة على حمل ذاته، فلا شيء يمدُّه بالقوَّة، يأكل نفسه، إنَّه أبشع أنواع الموت. في جنازة الأخرس، كنَّا جائعين نشيِّع جائعًا قتله الجوع، ننظر إليه وكأنَّه مصيرنا بعد أيَّامٍ إذا لم نجد ما نأكله. بعد أن نقلنا جثَّة الأخرس ودفنَّاه في المقبرة الجديدة، بقيت أهجس بصورته التي لم تفارقني، أصبحت أتفقَّد جسدي بين الحين والآخر، أنظر إلى نفسي بالمرآة في البيت كلَّ ساعةٍ تقريبًا، لا لأرى نفسي، بل لأعرف كيف شكل جسدي الهزيل وهل يشبه جثَّة الأخرس التي لا تريد مغادرة رأسي؟

سألت نفسي في ظلِّ الخوف الذي زاد عندي كلَّما شاهدت الموت يقترب مني، أيَّ مخيَّمٍ هذا؟ ليس كما كان، ليس مكاني الذي قرَّرت البقاء فيه. هذا مكانٌ ضائعٌ، مدينة أشباحٍ، فراغٌ وراء فراغٍ، تسقط القذائف العمياء التائهة في كلِّ مكانٍ، ترعب القلائل الذين بقوا في المخيَّم. عندما لا يجد القنَّاصة الموجودين على الأبنية العالية في مدخل المخيَّم بشرًا يقنصونهم، يتسلَّون بقنص القطط القليلة الجائعة. هل القنَّاص رجلٌ مثلنا؟ أسأل نفسي أحيانًا، وأعود للقول لنفسي، وأيُّ معنًى لمثل هذا السؤال في

حفلة القتل الجارية في البلد منذ سنواتٍ؟ يدفع الأبرياء ثمن الحصار، يتوافر للمقاتلين كلُّ شيءٍ، يُخزِّنونه لأنفسهم، ولا يرون هؤلاء المساكين أصلًا. الجوع من نصيب البعض في الحصار، وليس من نصيب الجميع. لا أحد يستطيع الكلام، المسلَّحون أقوياء وأغبياء ولن يتردَّدوا باستخدام السلاح ضدَّ المساكين، والحجج أكثر من أن تُعدَّ، حتَّى أنَّهم يملكون حججًا لارتكاب الجرائم بحقِّ الآخرين، أكثر من حجج النظام المجرم نفسه، فسلاح التكفير يمكن أن يودي بأيِّ رأسٍ في المكان البائس. أصبح المخيَّم خالٍ من الحياة، المكان المزدحم والسوق العامرة تحوَّلت إلى هباءٍ. يسير الباقون في المخيَّم كأنَّهم أشباحٌ، صور بشرٍ لا يرون بعضهم، بقايا بشرٍ عاشت في هذا المكان منذ زمنٍ غابرٍ، الأعوام التي مرَّت على إغلاق وحصار المخيَّم تعادل قرونًا. وفي الحصار الطويل شعرت أنِّي أصبحت عجوزًا أكثر من أبي، ومثل الجميع لا أعرف ماذا أفعل؟ تحوَّلنا إلى معتقلين، الجميع ينتظر. من ينتظر فكَّ الحصار. من ينتظر انتهاء المعارك في البلد. من ينتظر الفرصة ليهرب خارج المخيَّم. من ينتظر علبة دواءٍ وعدوه بها الذين في الخارج وينتظر أن يجدوا وسيلةً لتوصيلها إليه داخل الحصار. من ينتظر تهريب بعض الخبز. من ينتظر شحن الموبايل ليتحدَّث مع أهله خارج المخيَّم ليطمئنهم عنه، أو ليطلب منهم للمرَّة الألف أن يجدوا له مخرجًا. من ينتظر الفرج، لكن من دون أن يعرف ماذا يعني الفرج. من ينتظر تشغيل محرِّك الكهرباء الذي يُخرِجُ الماء من البئر، لأنَّه يريد أن يغسل ملابسه. من ينتظر الموت بقذيفةٍ طائشةٍ، لأنَّه ليس هناك ما يستحقُّ الحياة بعد الكمِّ الهائل من الخسائر التي نزلت به وغيرهم. كنت أسأل نفسي ما الذي أنتظره في المخيَّم؟ ولماذا بقيت أصلًا؟ ما الذي أفعله هنا؟ ما الذي أحميه وأحافظ عليه؟ في الكثير من الأحيان شعرت نفسي قد تورَّطت في فكرة الصمود في المخيَّم الحمقاء، وبتُّ ضحيَّة تعهُّدي في البقاء، هذا الوعد الذي لا أستطيع التراجع عنه. عليَّ

أن أبقى، ما الذي سأفعله خارج المخيَّم؟ أقول هذا لنفسي مواسيًا ومحاولًا شحذ همَّتي في متابعة الصمود العبثيِّ.

اشتدَّ الجوع عليَّ، كما أشتدَّ على الآخرين، رغم أنَّ مصطفى مرَّر لي بعض الطعام بين فترةٍ وأخرى، وسرعان ما ينتهي رغم التقنين الشديد عليه. عندما عرفت أنَّ هناك من يبع العدس في بلدة بيت سحم القريبة من المخيَّم، ذهبت إلى هناك لأشتري بعضًا منه، وأنا في طريقي إلى هناك التي تمرُّ من بلدة يلدا شاهدت حمارًا فتيًّا في المنطقة الفاصلة بين المخيَّم ويلدا مربوطًا بحبلٍ في نهايته قطعة خشبٍ مسنَّنةٍ ومثبَّتةٍ في الأرض، لا تمنعه من أكل الحشيش الذي حوله. وأنا في بيت سحم سمعت انفجار بعض القذائف خلفي، حيث قدَّرت أنَّ القذائف سقطت في يلدا أو المخيَّم. اشتريت ثلاثة كيلو غرامات من عدسٍ غريب الشكل بمبلغٍ كبيرٍ، وعدت من الطريق ذاتها لأجد الحمار قد قُتِلَ لإصابته البليغة بشظايا قذيفةٍ سقطت بالقرب منه. خطرت لي الفكرة سريعًا، اتصلت فورًا بمصطفى، قلت له: «بتقدر تجيب سيَّارة بيك أب؟» قال: «ليش بدك السيارة؟» قلت: «في حمار ميت بقذيفة»، قال بسخريةٍ وهو يضحك: «شو بدك تعمل للحمار، تسعفوا؟» قلت: «شو صايرك مصطفى، بدنا نأكل الحمار، الناس ميته من الجوع. فيك تجيب سيَّارة؟» قال: «استنى شوية» وبعد قليل عاد للاتصال وقال: «وين إنت؟» قلت: «آخر طريق المخيَّم من جهة طريق يلدا» فعلًا، بعد عشر دقائق جاء في سيَّارة بيك أب مع شخصين آخرين. رفعنا الحمار الميت إلى صندوق السيَّارة الخلفي، جلست أنا ومصطفى في صندوق السيَّارة وانطلقنا عائدين إلى المخيَّم. في الطريق لم أستطع منع نفسي عن الضحك. سألني مصطفى: «ليش عبتضحك؟» قلت: «الحمار ذكَّرني بقصتي مع الحمير، ويمكن هي اللي خلتني أوَّل ما شفتُه أدقلك» قال: «وشو هالقصة، هات لأشوف؟» عدت للضحك وقلت: «قبل ما تخرب البلد، بتعرف كنَّا صيَّادين أنا وأخوي وصحابنا، وبعتبر حالي خبير باللحم. مرَّة

أكلت لحمة مشوية من عند محل مهرهر قريب من باب سوق الحميدية الرئيسي. وصرت، كل ما تجي سيرة اللحمة، أقول روحوا عند هاي الملحمة وذوقوا اللحم الطيِّب. كل ما شفت عمي منير أقلوا: عمي جرب كول عندو ما بتخسر شي، هو المحل بطريقك وجنب القصر العدلي. هو يقلي، هذا محل جربان كيف بتوكل منو؟ كنت أتمسخر عليه وأقلوا أنت شو بفهمك باللحمة. بعد شي سنة ونص، مسكوا صاحب الملحمة وحبسوه لأنُه ببيع لحم حمير، ويمكن أنا ماكل من عندو شي حمارين»، انفجر مصطفى بالضحك وأنا معه. عندما وصلنا المخيَّم، أنزلنا الحمار أمام بيتنا. لم يكن من الممكن الاحتفاظ باللحم، فإذا لم يُؤكل بأسرع وقتٍ سوف يفسد، لأنَّه لا كهرباء لوضعه في الثلَّاجة. بدأت أسلخ الحمار، عندما شاهدني جارنا وجيه، وكان يعمل جزَّارًا في السابق، قال: «شو بتعمل بالحمار؟» قلت: «شوفة عينك. عبسلخوا بدي وزعوا على الناس»، قال: «أنا بساعدك» ذهب وأحضر سكِّينًا من بيته وبدأ بسلخ الحمار بحرفيَّة اللَّحام. كلَّما مرَّ رجلٌ وسأل ماذا نفعل، قلنا: «إنَّه للتوزيع» ظننت أنَّ الناس ستأنف من أكل لحم الحمار، سرعان ما انتشر الخبر، وأصبح الحمار لا يكفي الذين ينتظرون حصص التوزيع. بعد ساعتين من العمل، كان الحمار قد تحوَّل إلى أجزاءٍ، أخذت حصَّتي من إبط الحمار، وأخذ وجيه جزءًا من الفخذ، ووزَّعنا الباقي على المتجمهرين. بعد ذلك وضعنا أحشاء الحمار في جلده ووضعناهم في كيسٍ كبيرٍ، وطلبنا المساعدة في رمية بعيدًا عن المكان حتى لا تنتشر الراحة الكريهة والذباب، نقله أحد الموجودين على درَّاجته إلى مكانٍ آخر، واحتفظنا للرجل بحصَّته لحين عودته. كان احتفالًا باللحم بعد أن غاب الطعام طويلًا، صحيحٌ أنَّه لحم حمار، لكنَّ لحمه لذيذٌ، أعرف ذلك من تجربتي السابقة مع لحم الحمير، والجوع الذي كنَّا نعيشه منذ زمنٍ بعيدٍ جعله وليمةً من الجنَّة في تلك الأوقات، التي كنَّا عندما نلتقي بآخرين نسمع أصوات أمعائنا التي تصرخ من الجوع. منذ ذلك اليوم ارتبطت أنا

والحمار عند المحاصرين، وكلَّما رآني أحد الذين حضروا حفله السلخ أو أحد الذين عرفوا ما فعلت يسألني مازحاً: «ما في حوليك شي حمار جديد؟» كنت أضحك وأتابع طريقي. كلُّ وجبةٍ، مهما كانت وحرصت عليها، ستنتهي وأعود إلى الجوع من جديد. كلَّما انخفض وزني أكثر أعود للخوف من أن يكون مصيري مثل مصير الأخرس، وعندما انخفض وزني كثيرًا، أصبحت أستطيع عدَّ عظامي، وبدأت أتحوَّل إلى شبحٍ مع فقدان جسدي للحم، بدأت عظامي تؤلمني، أصبح المشي مؤلمًا، وكأنِّي لم أعد أمشي على كعبٍ من اللحم، بل أمشي على العظم مباشرةً، وهذه الأوجاع جعلت حركتي أصعب. سادت لغة المعدة في اللقاءات مع الآخرين، وكانت أصوات المعدة العالية، تدلُّ على أنَّ من يمرُّ بجانبك هو شريكك في الجوع، وعند كلِّ تجمُّع أشخاصٍ، تشاهدهم يزدادون نحولًا، ووجوههم أكثر شحوبًا، والأمعاء تصرخ بصوتٍ موحَّدٍ، وتداعيات الجوع من هذيانٍ وصراخٍ وبكاءٍ في كلِّ مكانٍ.

لم يؤدِ الجوع إلى الموت فحسب، بل أدَّى إلى الجنون أيضًا، جُنَّ مشعل من الجوع، كنت أنا ومشعل في صفٍ واحدٍ في مرحلة الدراسة الإعداديَّة، لم يكن صديقي، لكنَّ بقاءنا مع بعضنا ثلاث سنواتٍ في الصف ذاته طيلة المرحلة الإعداديَّة، جعلنا على معرفةٍ ببعضنا بقيت مستمرَّةً في السلام والسؤال عن الأوضاع كلَّما التقينا في الشارع، لا سيَّما أنَّه يسكن في الحارات القريبة من بيتنا. أكمل مشعل تعليمه، وانتسب إلى دار المعلِّمين، وأصبح مدرِّسًا في مدارس المخيَّم. وهو مدرِّسٌ جيِّدٌ ويحبُّ عمله، والطلَّاب يحبُّونه. عندما قرَّر البقاء في المخيَّم، سرعان ما طرح فكرة أن تستعيد المدارس دورها، وأن يتعلَّم الأطفال الذين بقوا في المخيَّم. وفعلًا بدأت الصفوف تنتظم، والتحق أساتذةٌ آخرون بالمدرسة التي اختارها، وهي المدرسة الأولى في شارع المدارس، وكنت أستطيع رؤية هذه المدرسة والأولاد الذين يدرسون من شبَّاك مطبخي. شكَّل المتطوِّعون إدارةً للمكان، فتحوا مستودع المدرسة وأخرجوا المواد والكتب اللازمة، وقسَّموا الأطفال الذين سجَّلوا

للدراسة إلى الصفوف المناسبة لهم في العمر، وانتظمت الدراسة. نال مشعل احترامًا واسعًا بين المحاصرين جرَّاء ما بذله من جهدٍ من أجل تعليم الأطفال. مع حصار الجوع، بدأت أعداد الطلَّاب تتراجع، والمدرِّسون غير قادرين على إعطاء الدروس مع جوعهم. ومع اشتداد الجوع وموت الناس بسببه، توقَّفت الدراسة نهائيًّا في المدرسة، ولم أعد أرى أطفالًا فيها، ولم أعد أسمع أيَّ صوتٍ لهم يأتي من جهة المدرسة، لقد أُغلِقَت المدرسة. في فترة الجوع القاسية، كنَّا نحاول تجنُّب أيَّ جهدٍ، لأنَّ أجسادنا لم تعد تملك طاقة. كنت ألتقي مشعل بين الحين والآخر، نتبادل كلماتٍ قليلةٍ وكلُّ واحدٍ يذهب في طريقه، وفي المرَّات الأخيرة التي قابلته فيها، نحف مشعل وشحب لونه مثل كلِّ المحاصرين. بعد ذلك قابلت مشعل، وكان يلبس ثيابًا يقلِّد فيها الرئيس الليبيَّ المقتول معمَّر القذَّافي، بقبَّعته وعصا المارشاليَّة، ولباسه المكويِّ جيِّدًا، ويتكلَّم باللهجة الليبيَّة، لكنَّ نفسيَّته أصبحت أفضل رغم استمرار الجوع، ولماذا قلَّد القذَّافي وليس رئيسًا غيره؟ لا أحد امتلك تفسيرًا لما حدث مع مشعل. عندما التقيت به وسألته: «كيفك مشعل؟» قال مقلِّدًا اللهجة الليبيَّة: «أنا العقيد، اش تبي؟» قلت مقلِّدًا: «ما أبي شي؟ بس كيف كويت البنطلون وما في كهرباء بالمخيَّم؟!» ضحك مشعل: «مثل ما كانوا يكووا الملابس زمان. حطيت البنطلون تحت الفرشة اللي بنام عليها يومين»، كان من الواضح أنَّ الرجل فقد عقله بسبب الجوع، وبات الجميع يعرف ذلك. لكنَّ أعضاء جبهة النصرة، وجدوا فيما يفعله مشعل سخريةً منهم، ولم يغفر جنونه له عندهم، اعتقلوه وضربوه ضربًا مبرحًا، وأفرجوا عنه في المساء. في اليوم التالي، جاءني بوجهٍ متورِّمٍ، يلبس اللباس ذاته ويحمل العصا ذاتها ويحمل القرآن في يده الأخرى. دقَّ الباب، استغربت منظره، وحجم الضرب الذي تلقَّاه، وكنت عرفت أنَّ رجال النصرة اعتقلوه وضربوه، لكنِّي لم أتخيَّل حجم الضرب الذي تعرَّض له، والذي ترك علاماتٍ فظيعةً على وجهه. لم يزرني مشعل من قبل. عندما جاء وطرق بابي فتحت

الباب، وقلت له: «تفضَّل» دخل إلى البيت. قلت: «اعذرني، ما عندي شي أضيفك إيَّاه»، قال: «أنا ما جاي أتضيَّف. بدي منك شغلة وحدة. تحط إيدك على المصحف، وتحلف، إنَّك مو إنت اللي حاولت تغتالني»، كان منظره محزنًا بوجهه المتورِّم، لم يكن مشهده مضحكًا كما كان قبل أن يتعرَّض للضرب، وجهٌ متورِّمٌ على جسدٍ نحيلٍ، لم أرَ جسده ولا أعرف هل حطَّموا عظامه، وأيُّ علامات تعذيبٍ طُبِعَت على ما تبقَّى من جسده؟! لم أجادله، وضعت يدي على المصحف وقلت: «والله العظيم مو أنا اللي حاولت اغتيالك»، عندما خرج من عندي شعرت بالقهر وتساءلت، أيُّ نوعٍ من البشر الذين ضربوا مشعل هذا الضرب المبرح. عرفت بعد ذلك، أنَّه طلب من الكثيرين أن يحلفوا اليمين على أنَّهم لم يغتالوه، لكنَّه لم يذهب إلى مقرِّ جبهة النصرة ليقول لهم لماذا فعلوا به ذلك؟ منعه جنونه من فعل ذلك وحماه منهم. بقي مشعل يلبس الثياب ذاتها، ويتكلَّم باللهجة الليبيَّة ذاتها، لكنَّه بات يتجنَّب المرور بالقرب من مقرِّ النصرة. بعد أيَّامٍ ذهب ليلتقط بعض الحشائش بالقرب من شارع الثلاثين، لم يمهله القنَّاص قطع الشارع إلى الجهة الأخرى حيث الحشائش، فأرداه قتيلًا بطلقةٍ في رأسه في منتصف شارع الثلاثين. ولأنَّ لا أحد يستطيع جلب جثَّته من منتصف الشارع من دون أن يتعرَّض للقنص، احتاج سحب الجثَّة من منتصف الشارع إلى حبالٍ مربوطةٍ في نهاياتها بكلَّاباتٍ حديديَّةٍ مزَّقت جسده النحيل قبل أن يستطيعوا إخراج الجثة من الشارع. لقد قتل القنَّاص المتمركز فوق البنايات العالية في أوَّل المخيَّم الكثير من الأهالي الذاهبين لالتقاط الحشائش من تلك الحقول المكشوفة. عندما قالوا لي: مشعل مات برصاص القنَّاص، بكيت عليه، وبكيت على نفسي وعلى الحالة التي وصلنا إليها. شعرت بضعفي، وعدت لأتأمَّل نحولي، وعاد خوفي من الموت يكبر. تداعت قدرتي الجسديَّة، وشعرت أنِّي لم أعد أقوى على الحركة. الجوع يأكلنا، حرب الجوع أسوأ من حرب القذائف، فنحن نرتاح بين قذيفتين، بين

صاروخين، بين برميلين متفجرين، لا يمنحنا الجوع ولا لحظة راحةٍ واحدةٍ، ولا يمكن الاختباء منه، ولا الاحتيال عليه، نحمله معنا أينما ذهبنا. أصبح الجوع يقتل أكثر من القذائف، كلُّ يومٍ أسمع أنَّ رجلًا أو امرأةً أو طفلًا ماتوا من الجوع، لا أحبُّ إحصاء أعداد الذين يموتون جوعًا ومعدتي تصدر أصواتها وجسدي ينحل، لكنَّ الجميع يحصي القتلى، قتلى من الجوع، قتلى من القنص، قتلى من قذائف الهاون، قتلى من البراميل المتفجِّرة. منذ زمنٍ طويلٍ لم أعد أسمع عن أحدٍ مات موتًا طبيعيًّا، اختفى الموت الطبيعيُّ من المخيَّم. عندما تجاوز عدد الذين ماتوا من الجوع المئة، كان الطعام قد اختفى منذ أشهرٍ، وأصبحنا نحن المحاصرين، نرى الطعام في كلِّ شيءٍ، حتَّى صرنا نرى الشمس رغيفًا من الخبز. كلُّ يومٍ وعدٌ جديدٌ بدخول المساعدات، مرَّة المساعدات قادمةٌ من حاجز البطيخة، ننتظر، لا يصل شيءٌ سوى القنص. مرَّةً المساعدات قادمةٌ من حاجز الكابلات في السبينة، ننتظر، لا يصل شيءٌ سوى القذائف. مرَّةً المساعدات قادمةٌ من حاجزٍ على الوحش في ببيلا، ننتظر، لا تصل سوى البراميل المتفجِّرة. لم نعد نصدِّق الوعود، وليس أمامنا خيارًا سوى المزيد من انتظار الوعود الكاذبة، لعلَّها تكون مرَّةً وعدًا صادقًا. ناشدت الأمم المتحدة السلطات السوريَّة من أجل دخول المساعدات، لأنَّنا مهدَّدين بالموت جوعًا، وكذلك فعلت الكثير من الدول، ومع كلِّ مناشدةٍ يرتفع أملنا، ومع كلِّ وعدٍ يخبو الأمل. لذلك عندما دخلت أوَّل دفعة مساعدةٍ بعد سبعة أشهرٍ لم نصدِّق ما نرى، وكنَّا قد نسينا شكل الطعام، مع أنَّنا نهجس فيه كلَّ لحظةٍ، تُذكِّرنا أمعاؤنا أنَّنا جياعٌ دائمًا. لم نشبع مع المساعدات التي دخلت المخيَّم، صحيحٌ توقَّف الموت جوعًا، أمَّا الجوع نفسه فإنه سيرافقني بقيَّة حياتي.

مع اشتداد الجوع، لم أعد قادرًا على الهرب من القذائف، التي انتظمت منذ حصار المخيَّم في وجباتٍ من قذائف الهاون تأتي من ثكنة سفيان الثوريِّ ومن قرب مخفر شرطة القدم. كانت تأتي ثلاث وجباتٍ يوميًّا

من قذائف الهاون من المكانيين على نحوٍ دائمٍ، وجبة الفطور في الصباح، ووجبة الغداء في الظهيرة، ووجبة العشاء في المساء، في كلِّ وجبةٍ تسقط خلالها عشرات قذائف الهاون المتفرِّقة على المخيَّم. هذه الوجبات الثابتة، أحيانًا يضاف إليها قصفٌ من أماكن أخرى، أظنُّ أنَّها كانت تأتي من فروع المخابرات في القزَّاز عند المتحلِّق الجنوبي، ما يجعل الوجبة أكثر دسامةً عندما يكون فيها بعض الصواريخ. ولا يقتصر القصف على الوجبات الثلاث، بل هناك قصفٌ من نوعٍ آخر، صواريخ بأنواعها، كاتيوشا وصواريخ فيل والبراميل المتفجِّرة وغيرها من أشياء تنفجر في المخيَّم لا أعرف ما هي. أُلقِيَت البراميل التي تحتوي عشرات الكيلوغرامات من المواد المتفجِّرة على المخيَّم بين الحين والآخر لتذكيرنا، بأنَّ القذائف قادرةٌ على فعل أيِّ شيءٍ في المخيَّم، والبراميل المتفجِّرة سلاحٌ مرعبٌ لا أعرف أيَّ مجرمٍ اخترعه، لأنَّه أينما سقط في المخيَّم، كنت أشعر أنَّه سقط فوق بيتنا من قوَّة الانفجار. خبرت رعب البراميل المتفجِّرة عن قربٍ، عندما ألقت طائرة الهليكوبتر البرميل المتفجِّر على بعد أربع بناياتٍ من بيتنا، شعرت أنَّ الانفجار اقتلع البيت بطوابقه الأربعة واقتلعني وألقانا في مكانٍ آخر. ملأ الغبار المكان على بعد عشرات الأمتار، صُمَّت أذني وخنقني الغبار، تفقَّدت جسدي، وجدته سليمًا، ضربت وجهي لأرى أنِّي صاحٍ ولا أعيش كابوسًا. عندما هدأ الغبار قليلًا واستعدت سمعي، خرجت من البيت أتفقَّد المكان الذي وقع فيه البرميل. الجميع يصرخ، وجارنا العجوز أبو العبد، يقول: «أنا شفتُه، فات على البيت قبل شوي سقوط البرميل» قلت: «عمي أبو العبد، مين شفت فايت على البيت؟» قال: «مين يعني؟ وجيه» عندما نطق الاسم التفت إلى البناية التي يسكنها وجيه والبناية التي وراءها، وقد حوَّلهما البرميل الذي انفجر فوقهما إلى ركامٍ. فجأةً، شعرت بالشلل، لأنَّه إذا كان وجيه في الداخل، فهو في مركز الأنقاض التي خلَّفها البرميل.

ظنَّ وجيه أنَّه يملك أكثر مكانٍ آمنٍ في المخيَّم، في صدر مدخل بيتهم غرفةٌ خلف المحلات التجاريَّة التي فتحوها في بنايتهم، تستند هذه الغرفة على البناية التي خلفها، لا يوصل شيءٌ إليها سوى مدخل البناية، وكانوا يستخدمون هذه الغرفة كمخزنٍ، ظنَّ وجيه أنَّه سيكون في هذه الغرفة آمنًا من القذائف والصواريخ، وفي حال سقوط قذيفةٍ أو صاروخٍ، لن يشكِّل خطرًا عليه، فهو محميٌّ من كلِّ الاتجاهات بما لا يقلُّ عن خمس إلى ستِّ جدرانٍ، والمدخل هو المكان الأضعف، ولكن من الصعب أن تسقط عليه قذيفةٌ أو صاروخٌ مباشرةٌ، لأنَّ ضيق الشارع يمنع الصاروخ أو القذيفة من إصابته مباشرةً. نظَّف وجيه الغرفة وأعاد تأثيثها لتصلح للسكن، واستقرَّ في غرفته المنيعة التي أحسَّ فيها بالأمان. وجيه مثلي، خرجت عائلته وأهله وإخوته الذين يسكنون في بنايةٍ واحدةٍ مثلنا، وبقي هو ليحرس المكان. وعندما سألته مرَّةً مازحًا: «شو بتعمل يا وجيه، إذا وقع صاروخ، وهدم الدرج، وسكر عليك الباب» ضحك وهزَّ رأسه، كأنَّه يتوقَّع هذا السؤال، وينتظر من أحدٍ أن يسأله، قال: «لا تخاف عليّ، أنا مجهِّز حالي. أنا حاطط مطرقة كبيرة بالغرفة، إذا صار زي ما بتحكي، بهدم الحيط وبطلع من البناية الثانية اللي ورانا»، تذكَّرت كلام وجيه وأنا أنظر إلى البنايتين وما حولهما وقد حوَّل البرميل المتفجِّر كلَّ المنطقة إلى ركامٍ وحطَّم كلَّ الاتجاهات التي يمكن أن يخرج وجيه منها، لقد حسب حساب الاحتمالات كافَّةً، لكنَّه لم يحسب حساب البرميل الذي سقط عليه. اتخذ الاحتياطات ليتجنُّب أذى القذائف والصواريخ وكانت احتياطاته معقولةً، لكنَّها جعلت موته أصعب، ولم يقتله البرميل مباشرةً. بعد أن هدأ كلُّ شيءٍ، جاء صوتٌ ضعيفٌ من وسط الركام، صوت صراخٍ بعيدٍ. صمت الحاضرون، وأنصتوا للصوت القادم من تحت الأنقاض، كان صوت إنسانٍ. صوت وجيه القادم من تحت الأنقاض أصاب الحاضرين بالرعب، من الطريقة التي سيموت بها الرجل، لم يكن باستطاعة أحدٍ منَّا فعل شيءٍ، لم تكن هناك معدَّاتٌ لرفع الأنقاض، ولا

يمكن رفع هذه الأنقاض بالعمل اليدويِّ. أصاب الرعب الموجودين واستسلموا لمصير الرجل. في الأيام التالية، باتت حياة وجيه وموته هاجسي، ومزار للفضوليِّين. كنت أشاهد الركام الذي أحدثه البرميل فوق وجيه من برندة بيتي، وأشاهد بين الحين والآخر رجلًا أو امرأةً يمرُّون من المكان بالقرب من الركام، يقفون من دون حراكٍ للحظات، يصغون ليتأكَّدوا هل ما زال وجيه يصرخ؟! قضيت وقتًا طويلًا أراقب المارَّة وهم يفعلون ذلك، وأتساءل لماذا يفعلون ذلك، هل ليتأكَّدوا أنَّه مات وارتاح، أو لعلَّ معجزةً تحصل ويخرج من تحت الأنقاض؟! رغم تساؤلاتي الغبيَّة، كنت أفعل ما يفعلون، كلَّ يومٍ أتفقَّد صوت وجيه مرَّاتٍ عدَّةً، حتَّى بعد أن اختفى صوته نهائيًّا بعد ثلاثة أيَّامٍ من سقوط البرميل، وبقيت طيلة المدَّة التي قضيتها في الحصار، أتفقَّد صوته كلَّما مررت بأنقاض بيته. أقف هناك من دون حراكٍ وأصغي لعلِّي أسمع صراخه يأتي من عمق الركام. لم أفعل ذلك وحدي، كلُّ الذين شاهدتهم من برندة منزلي مرُّوا من المكان، وفعلوا ما فعلت، يقفون وينصتون لعلَّهم يسمعون صوته، وهذا ما أصبح عادة المارِّين بالمكان.

مع استمرار القصف بالبراميل المتفجِّرة، دُفِنَت عائلاتٌ وأشخاصٌ تحت الأنقاض ولم يستطع أحدٌ أن يفعل شيئًا لهم، هناك من بقي حيًّا تحت الأنقاض وسمع الآخرون أصواتهم مثل وجيه، وهناك من ماتوا فورًا، ولم يسمع أحدٌ لهم أيَّ صوتٍ. في كلِّ الحالات كان الركام قبرهم، ولم يستطع أحد أن يدفنهم بطريقةٍ لائقةٍ بعد موتهم. بعد أن دفنت الأنقاض وجيه، لم أعد أفكِّر بالأخرس، صحيحٌ أنِّي بقيت أنظر في المرآة وأقارن نحولي، بجسد الأخرس الذي مات من الجوع. بعد حادثة وجيه أصبحت مرعوبًا أكثر من أن أقضي تحت الأنقاض، وأُحاصر من الجهات جميعها وأموت ببطءٍ من الجوع والعطش والعتمة. وأخذت أبحث عن أنسب مكانٍ أنام فيه، يكون من السهل الوصول إليَّ إذا تكرَّر معي ما حصل مع وجيه. فكَّرت في النوم في حديقة المدرسة، كان ذلك مستحيلًا بسبب برد الشتاء. وبعد تفكيرٍ

قرَّرت النوم في الغرفة التي على سطح البناية، رغم أنَّها باردةٌ، لكنَّها تبقى أفضل من النوم في العراء، إذا تحطَّم البناء أبقى على سطح الركام حيًّا أو ميِّتًا، وكأنَّ البرميل المتفجِّر لن يمزِّق جسدي بفعل انفجاره! ما كنت أخاف منه هو الموت البطيء تحت الأنقاض، وإمَّا أن يتمزَّق جسدي وأموت فورًا، شعرت أنَّ هذا الخيار أقلُّ سوءًا.

فكَّرت في الخروج من المخيَّم والطلب من أهلي إيجاد مخرجٍ لي من الحصار، لكنِّي كابرت، وعندما اشتدَّ الجوع بدأت ألمِّح لأهلي من أجل إخراجي من دون أن أذهب إلى الحبس. عندما زارني مصطفى وأحضر لي القليل من الرز. قلت له: «بفكر أطلع من المخيَّم، بس مش عارف كيف؟» قال: «أنت عارف ما في غير طريق واحد» قلت: «شو هو؟»، قال: «المصالحة، بتروح بتقدم المعلومات اللي عندك للمخابرات، وبترجع تخدم على حاجز البطيخة، زي ما صار مع الشباب اللي عملوا مصالحة»، قلت: «بس أنا ما كنت مع حدا من الفصائل!»، قال: «أنا بعرف. بس المخابرات رح تصدقك؟ المخابرات بتقول كل اللي بالمخيَّم إرهابيين، وأنت منهم»، قلت: «والله ما بعرف شو بدي أعمل؟!» قال: «وأنا كمان مش عارف شو أعمل، أبوي وضعوا صعب، وبدو عمليَّة. اتصل مع عمامي برة، عشان يطلعوه. قالوا، صعب، المخابرات بتعرف إنُه ابنك مع النصرة، وإذا طلعت رح تروح على السجن. أبوي عم يموت وما بعرف شو أعمل؟»، قلت: «الله يكون بعونك» بعد أيَّامٍ عرفت أنَّ مصطفى عمل مصالحة وهو بضيافة المخابرات، وكأنَّه في زيارته الأخيرة لي، فكَّر في مفاتحتي بأنَّه يريد أن يقوم بالمصالحة، لكنَّه خاف أن أفشي سرَّه، فغيَّر رأيه ولم يخبرني. ليست مصادفةً أن يقوم بالمصالحة، بعد أيَّامٍ من حديثنا عنها. وبعد ذلك عرفت أنَّ مصطفى قد أخذ مكانه على حاجز البطيخة الذي يحاصر المخيَّم. وأخبر والده أنَّه بات بإمكانه الخروج من المخيَّم للذهاب إلى المشفى. عندما

وصل أبو مصطفى إلى حاجز المخابرات اعتقلوه، ولم يعرف أحدٌ عنه شيئًا، ومن المؤكَّد أنَّ شرايينه المغلقة لم تحتمل السجن فمات.

عندما أخبرني أخي عدنان أن فرع فلسطين للمخابرات اعتقل زوجتي سهيلة، لم أفهم ما يجري، لماذا سهيلة بالذات؟ ألف سؤالٍ دار في رأسي، من الذي وشى؟ وما هي الوشاية؟ هل تتعلَّق بي أم بها؟ هل تتعلَّق بشيءٍ يجري داخل المخيَّم، أم شيءٍ حدث معها خارج المخيَّم؟ هل هي المسؤولة عن اعتقالها أم اعتقلت بسبب بقائي في المخيَّم؟ وقد تكون اعتقلت لسببٍ أو آخر، أو لتشابه أسماء، فحجم الاعتقالات التي عرفته البلد، يجعل كلَّ شيءٍ ممكنًا حتَّى الاعتقال من دون سببٍ. والأسئلة الأسوأ هل عذَّبوها؟ هل اغتصبوها؟ كانت صور اغتصابها المفترض تلاحقني، كلَّما حاولت إبعادها من رأسي. هل تسبَّبوا لها بعاهةٍ؟ أيُّ خوفٍ تعيشه؟ هل ماتت؟ وعندما يخطر ببالي هذا السؤال، سرعان ما أبعده عن رأسي. ماذا سأفعل إذا اغتصبوها، وكيف سأتعامل معها بعد ذلك؟ هل أستطيع تحمُّل الوضع إذا اغتُصِبَت؟ هل سأبقى أعيش معها؟ أعرف أنَّ ذلك ليس ذنبها، وقد يكون ذنبي، ولماذا أعاقبها على ما لا ذنب لها فيه؟ شلَّتني الأسئلة، ولم أعد أعرف كيف أفكِّر، وليس عندي أيَّ بداية خيطٍ لتفسير ما جرى، ولم يستطع لا أهلي ولا أهلها الوصول إلى معلومةٍ عن سبب اعتقالها، رغم أنَّهم وسَّطوا أناسًا لهم نفوذ ودفعوا لهم المال. مرَّت الأيَّام، لا خبر عن سهيلة، وكلَّما طال غيابها وسمعت بكاء أولادي على غياب أمِّهم عندما أتحدَّث معهم على الهاتف، تعلق كلماتي بحلقي، وأصبح عاجزًا عن الكلام، فأنا لست قادرًا على تهدئتهم أو فعل أيَّ شيءٍ لهم. أنا محاصرٌ في المخيَّم، وغير قادرٍ على فعل شيءٍ، تجنَّبت العمل مع أيٍّ من الفصائل المسلحة في المخيَّم خوفًا على عائلتي خارج المخيَّم، وها هم يعتقلون سهيلة من دون ذنبٍ لها، شتمت المخابرات والحرب ونفسي، وسهيلة. لم يطل اعتقال سهيلة، وخرجت بعد عشرة أيَّامٍ، كانوا أطول عشرة أيَّامٍ في حياتي. عندما خرجت، عرفت من

صوتها أنَّها متعبةٌ، لم أعرف ما أقول لها، قالت لي أختي فاتن «سهيلة منهارة» وبدل أن تكون هذه الكلمات دافعًا لمزيد من التضامن معها، زادت من شكوكي، وأعادت أسئلة الاغتصاب القاسية لتطرق رأسي، هل اغتصبوها؟ وإن حدث ذلك، ما الذي عليَّ فعله؟ شلَّت فكرة الاغتصاب تفكيري. عندما كنت أسمع عن حادثة اغتصاب امرأةٍ، كنت أشعر بالتضامن معها، فهذا ليس ذنبها، إنَّها جريمة مُغتَصِبِها. وكنت أحزن على زوجها، وأقول عليه أن يقف معها في محنتها. وعندما وقعت في الموقف ذاته، شعرت بالغضب، وبأنَّ هناك شيءٌ داخليٌّ لا يقبل مسامحتها، ويعدُّها المسؤولة عمَّا جرى، رغم أنِّي أعرف ألَّا ذنب لها، حتَّى بعد أن عرفت أنَّ هذا التوقيف كان بسبب اعترافات مصطفى عنِّي، وعن قطع السلاح التي أخذتها من مكتب الجبهة الشعبيَّة يوم مقتل جارنا خالد، الذي لا يعرف أحدٌ به سوى مصطفى وأخي عدنان. في التحقيقات سألوها عن أشياء كثيرةٍ كما حكت لي، لكن تركيزهم كان على السلاح الذي لا تعرف عنه شيئًا. قالت: «عذَّبوني، وأهانوني، وقالوا بدك تحكي كل شي بتعرفيه، وإلَّا ما بتعرفي شو بنتظرك.. بكيت، ترجَّيتهم، بوست رجليهم...» وشرعت بالبكاء، لم أجرؤ على سؤالها، ذلك السؤال الذي جال ويجول في رأسي منذ اعتقالها، ويعذِّبني، وهي لم تأتِ على ذكر شيءٍ له علاقةٌ بالموضوع، لم أرغب في معرفة إذا حدث ذلك أم لا، وهي لم تقل إنَّ هناك من اقترب منها لغير الضرب. صحيحٌ أنَّ السؤال بقي يُعذِّبني، لكنِّي شعرت بأنَّ البقاء في حالة الشكِّ بأنَّ ذلك لم يحدث، أفضل لاستمرار علاقتنا، من التأكيد والاعتراف بأنَّ ذلك حصل، لأنِّي شعرت، حتى لو أنِّي تضامنت معها، فإنَّ التضامن سيتراخى مع الوقت، وسيتحوَّل عندي إلى شعورٍ بالعار. ويبدو أنَّها فهمت ذلك، وتعاملت بحذر مع هذا الموضوع، لم ترغب في قول ماذا حدث بالضبط، وأنا لم أرغب بمعرفة ذلك، وعلى أساس هذا التواطؤ تجاوزنا فترة سجنها.

كانت تحتاج إلى أحد يقف معها في محنتها، كما كنت أقول سابقًا، كنت جبانًا، ولم أستطع تنفيذ ما كنت أطالب الآخرين بالقيام به.

بعد اعتقال سهيلة، أصبحت أكثر حذرًا في المخيَّم وعرفت من خلال هذا الاعتقال أنِّي مطلوبٌ للمخابرات، وأنِّي في حال خرجت من المخيَّم سأُعتَقَلُ. وهذا غيَّر الكثير، فلم أعد أستطيع الخروج من المخيَّم، طالما هناك أمر اعتقالٍ بحقِّي. كنت أظنُّ أنِّي باقٍ في المخيَّم بخياري، وبعد اعتقال سهيلة بتُّ مجبرًا على البقاء تجنُّبًا للاعتقال، إذا أردت الخروج من المخيَّم عليَّ القيام بالمصالحة وهذا يفرض عليَّ بعد أن أقدِّم كلَّ ما عندي من معلوماتٍ، وأن أحاصر المخيَّم مع الذين يحاصرونه، كما فعل الحقير مصطفى. لم أتصوَّر نفسي على الحاجز أحاصر الجائعين في المخيَّم، فلم أفكِّر بالمصالحة عندما قال أخي عدنان إنَّ هناك من يستطيع أن يتدبَّر هذه المصالحة. قلت له: «مستحيل أعمل هيك» ولم أعد أفكِّر في الخروج.

لم يفهم أحدٌ ما جري في المخيَّم بين الفصائل، أشخاصٌ ومجموعاتٌ ينتقَّلون من هذا الفصيل إلى ذاك، فصائل الجيش الحرِّ التي في الحجر الأسود سرقت الكثير من البيوت في منطقة غرب اليرموك، وحملت الكثير من مفروشات الشقق هناك إلى أرضٍ فارغةٍ خلف مخفر الحجر الأسود الذي بات مقرَّهم، مع شمس الصيف وشتاء السنة التالية، تلفت كلُّ المفروشات. تعاظم فساد عناصر الجيش الحرِّ في الحجر الأسود، وساد الاعتقاد أنَّهم يعملوا مع مخابرات النظام أو مخترقين منه. وهو ما جعل الفصائل الأخرى في المخيَّم، تتحالف مع بعضها وتطردهم من المخيَّم.

مبكرًا، هربت الفصائل الفلسطينيَّة التابعة لمنظَّمة التحرير من المخيَّم مع الناس في اليوم التالي لقصف طائرة الميغ، وكأنَّها اتخذت قرارًا بالهرب في اجتماعٍ لتنسيق العمليَّة، وهذه الفصائل لم يكن لها دورٌ بين الناس. والدور الرئيسيُّ كان للفصائل المؤيِّدة للنظام، التي شكَّلت مجموعاتٍ مسلَّحةً انتشرت في المخيَّم، وزادت الأوضاع توتُّرًا مع المناطق المحيطة التي فيها

الجيش الحرِّ مثل التضامن والحجر الأسود. قادة الفصائل القادمون من خارج المخيَّم والقادة المحليِّين من أبناء المخيَّم فرُّوا مع الناس، من بقي من كوادر هذه الفصائل لم يكونوا من القيادات وبقوا بقرارٍ فرديٍّ منهم. بقي من الجبهة الديمقراطيَّة أبو أحمد المغربي، وجمع حوله بعض الشباب من الجبهة ومن خارجها. عندما شاهد أبو أحمد قريبه محمد المغربي القيادي في حركة فتح يُحمِّل أغراضه في سيَّارةٍ للرحيل من المخيَّم، ذهب لعنده، أمسك بالأغراض ورماهم في الشارع وقال له: «يلعن دينك وين رايح، إذا إنتو القيادات هربانين، شو تعمل الناس. استحي على حالك» لم يستطع قريبه قول أيَّ كلمةٍ، أنزل أغراضه بصمتٍ، لكن في اليوم التالي عاد محمد وخرج من المخيَّم خلسةً ومن دون أغراضٍ.

لم أعرف حجم المجموعات المقاتلة في المخيَّم، ظهرت مجموعاتٌ واختفت أخرى، مثل المنشقِّين عن القيادة العامة والذين أطلقوا على أنفسهم «القيادة العامَّة الحرَّة» وتشكَّلت مجموعة «جيش التحرير الفلسطينيِّ المنشقِّ» بقيادة العقيد الركن خالد حسن الذي قُتِلَ في الاشتباكات التي جرت عندما اقتحمت داعش المخيَّم، ومجموعة «الزعطوط» ومجموعة «أحرار اليرموك» وغيرها من مجموعات الجيش الحرِّ، أي فلسطينيِّين منضمِّين إلى مجموعاتٍ مسلَّحةٍ سوريَّةٍ. كانت «العهدة العمريَّة» التي تزعَّمها أبو هاني شموط ونائبة أبو هاشم من أكبر المجموعات، والتي دعاني أبو هاشم للعمل معهم، فقد كنت أعرف الرجل الذي يملك مكتبًا عقاريًا في المخيَّم، وكان صديقًا لعمِّي عمر، وقد قابلته كثيرًا عندما كنت طفلًا وعملت في إحدى العطلات الصيفيَّة عند عمِّي. لكنِّي رفضت العمل معهم حتَّى لا تتأذَّى عائلتي خارج المخيَّم. وقد خطفت جبهة النصرة أبو هاشم وقتلته كما قيل، أمَّا أبو هاني شموط، أجرى مصالحةً فيما بعد، وخرج من المخيَّم وعمل مع أجهزة المخابرات، ثمَّ عمل مع الروس بعد دخولهم على البلد. وكان لجبهة النصرة الكثير من

المجموعات، وكنت أعرف أبا حمزة سليمان، مسؤولهم العسكريَّ، فهم كانوا جيران بيت جدِّي، وقد كان يتمركز في بيت جدِّه القريب من بيت جدِّي، وعندما منعتني مجموعته من دخول بيت جدِّي، خرج من المقرِّ عندما أرادت المجموعة اعتقالي لاعتقادهم أنِّي أدخل المبنى من أجل السرقة. وعندما شاهدني عرفني، وكنت لم أراه منذ زمنٍ طويلٍ، قال لهم: «اتركوه، هذا بيت جدُّه» هذه المرَّة الوحيدة التي قابلته. وفي البداية كانت أكناف بيت المقدس أكبر المجموعات كما كان يشاع، لكنِّي لم أعرف أحدًا من قيادتها، لا أبا أحمد المشير قائدهم العسكري، ولا أبا همام نضال الذي كان يعمل مرافقًا مع خالد مشعل زعيم حركة حماس قبل الأحداث.

لم يكفِ الموت القادم من خارج المخيَّم عبر القصف والقنص، فقد كانت الاغتيالات تستهدف الجميع، اغتالوا محمد قاسم طيراوية من حركة فتح وأبو العبد عريشة الجهاد الإسلامي. اختطفوا فؤاد العمر أبو باسل من القيادة العامة من المخيَّم، بعد أيَّامٍ أُعلِنَ عن وفاته تحت التعذيب في السجون السوريَّة. بينما اعتقَلَت جبهة النصرة أبا هاشم من العهدة العمريَّة، وصَفَّته فيما بعد. واغتيل يحيى حوراني «أبو صهيب» من حركة حماس. والكثير غيرهم أطلق مجهولون الرصاص عليهم في شوارع المخيَّم بعمليَّات اغتيال، لم يعرف أحدٌ من ورائها. ولم يقف التناحر الداخليُّ على عمليَّات الاغتيال. فقد استخدمت المجموعات المسلَّحة السيَّارات المفخَّخة في محاولةٍ لاغتيال قيادات المجموعات الأخرى، وانفجرت العديد من السيَّارات المفخَّخة، التي كان المدنيُّون ضحيَّتها، الذين بات الموت يأتيهم من داخل المخيَّم كما يأتيهم من خارجه.

حصلت انشقاقاتٌ واندماجٌ ومبايعةٌ وتحالفاتٌ بين المجموعات المسلَّحة في المخيَّم، اليوم ترى هذا الشخص مع هذه المجموعة، وفي اليوم التالي مع غيرها. ويومٌ ترى هذه المجموعة متحالفةً مع أخرى، يقاتلون معًا على محاور الاشتباكات، وفي اليوم التالي، يشتبك الطرفان مع بعضهم. كان

انشقاق جبهة النصرة أكبر الانشقاقات بين المجموعات المسلَّحة بعد إعلان البغدادي الدولة الإسلاميَّة في العراق والشام، وعَدِّ جبهة النصرة جزءًا من هذه الدولة وحلِّها، وهذا ما لم تقبله جبهة النصرة. فانشقَّ الذين أيَّدوا البغدادي وتجمَّعوا في الحجر الأسود. وبعد أن شعروا بالقوَّة حاول مقاتلو داعش اقتحام المخيَّم ردَّ أكناف بيت المقدس، الذين معهم مقاتلي داعش إلى الحجر الأسود. ظهر وكأنَّ المعركة انتهت، لكن بعد أسابيع عدَّةٍ، هاجمت داعش المخيَّم بأعدادٍ أكبر من المقاتلين، لم تتدخَّل جبهة النصرة في القتال، وترافق الهجوم مع قصفٍ شديدٍ من جيش النظام للمخيَّم بكلِّ أنواع القذائف. أوَّل ما دخل مقاتلو داعش على المخيَّم، ألقوا القبض على مقاتلَين من الأكناف، وقطعوا رأسيهما على الفور، ما أرعب السكَّان، على مدار أربعة أيَّامٍ تحوَّل المخيَّم إلى جحيمٍ، هربت من بين من هربوا في اليوم الثاني للمعارك إلى يلدا، وهو اليوم الذي سيطرت فيه داعش على المنطقة التي أسكن فيها. وقد سيطروا على أغلب المخيَّم بعد معارك داميةٍ، ما حصر مقاتلي الأكناف، بينهم هم القادمون من الحجر الأسود، الذين احتلُّوا المنطقة الجنوبيَّة من المخيَّم وبين النظام الذي يحاصر المخيَّم من الشمال عبر حاجز البطيخة وحي نسرين في منطقة التضامن. أجرى مقاتلو الأكناف مفاوضاتٍ مع النظام الذي سهَّل لهم الانتقال عبر حواجزه إلى مكانٍ آخر. بعد هدوء الوضع عدت إلى بيتي، وكانت داعش قد فرضت قوانينها، من احتشام المرأة، وبدأت بجلد المخالفين بسبب التدخين أو عدم الصلاة وغيرها، ما جعل الوضع لا يطاق.

عندما عرفت أنَّ عدنان سيذهب هو وعائلته وسيلحق بمن يفرُّون إلى أوروبا قلت له: «خذ سهيلة والأولاد معك»، قال: «سأحاول» ظننت أنَّه سيفعل كلَّ شيءٍ من أجل أخذهم معه، لكن بعد أسبوعين عرفت أنَّه غادر من دونهم. لم أتوقَّع أن يفعل ذلك، فقد كنَّا أخوةً وأصدقاء وشركاء في كلِّ شيءٍ. غضبت عندما عرفت ما فعل. كتبت له: «توقعت النذالة من كل

الناس إلَّا منك، بس أنت طلعت أنذل الكل. وبحياتي ما رح قلك مرحبا يا حقير»، غادر عدنان بعد عامر بحوالي ستة أشهرٍ، ولحق أبي به، الذي استقدمته أختي سمر عبر فيزا زيارةٍ لينضمَّ لأمِّي هناك. وعندما أرادت سناء أخت سهيلة وعائلتها الذهاب في رحلة اللجوء، اقترحت سهيلة على أختها أخذ ابنتنا هبة ذات الثلاثة عشرة عامًا معها، وعندما تصل إلى هناك، تستطيع أن تتقدَّم بطلب لمٍّ شملٍ لجميع العائلة لأنَّها أقلُّ من السنِّ القانونيِّ. وعندما سألتني: «شو رأيك؟» قلت: «ما فيها رأيي، طبعًا موافق»، كنت أعرف أنَّ إرسال هبة مع خالتها فيه مخاطرةٌ، ولكن لم يكن هناك خيارٌ آخر، وكلُّ شيءٍ أصبح في البلد مخاطرةٌ، ولا أحد يعرف، ما الذي يمكن أن يحدث معه، بات الهرب على الرغم من مخاطره هو الحلُّ الأمثل. تدبَّرت سهيلة المال، بأن باعت جزءًا من الذهب الذي بقي معها، والذي احتفظت به للحظةٍ مثل هذه. وذهبت هبة مع خالتها، ورغم المخاطر التي تعرَّضوا لها، وبعد رحلةٍ صعبةٍ وصلت إلى ألمانيا. وعندما وصلت ابنتي إلى ألمانيا، كانت أختي سمر قد انتقلت للسكن في ألمانيا، وعلى الحدود السويسريَّة لتبقى قريبةً من أمِّي وأبي، اللذين استقدمتهما في زيارةٍ إلى سويسرا، وبعد أشهرٍ استقدمت عائلة أختي فاتن إلى هناك أيضًا، قبل أن تنتقل إلى ألمانيا. وفي محاولتها الثالثة لاستقدام أختي ميرفت، رُفِضَ طلب الزيارة، ف هناك من خيارٍ، سوى أن تذهب ميرفت برحلة تهريبٍ أيضًا، ولأنَّ ابنها قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره، قرَّرت أخذه معها، لأنَّه لن ينطبق عليه لمُّ الشمل، فهو أكبر من السنِّ. بمغادرة ميرفت، لا أحد غيري من العائلة في البلد، شعرت بالخذلان من الجميع وبالوحدة أكثر وأنا في الحصار. لما أفعله معنًى، ولم تعد البطولة التي ظننت أنِّي أقوم بها نيابةً عن إخوتي في حماية أملاك العائلة أيَّ معنًى، ولا أحد منهم ينتظر العودة إلى المخيَّم، غادر الكلُّ البلد وأنا عالقٌ في حصار المخيَّم. كنت أتحايل على الوقت، وأحلم بساعةٍ قادمةٍ تنصفني فيها عائلتي للتضحية التي قمت بها.

كلُّ الذين بقوا في المخيَّم وأنا منهم، عشنا وحلمنا بلحظة عودة السكَّان، هذه العودة التي لم تكن لولا صمودنا في الحصار الطويل. كنَّا نعتقد أنَّنا الحكاية التي سنرويها عن المخيَّم بعد مرور الحصار الصعب، وبعد أن ينتهي الصراع. ظننت أنَّنا كنَّا نصنع معجزةً بهذا الصمود، رغم الحصار والجوع وانعدام أبسط مقوِّمات الحياة اليوميَّة عندنا. فجأةً كلُّ شيءٍ أصبح بلا معنًى، لا معنى للبطولة، ولا معنى للتضحية، ولا معنى للجوع، ولا معنى للخوف، ولا معنى للهرب من القذائف والصواريخ والبراميل المتفجِّرة، لا معنى للبقاء، ولا معنى للبلد. أدركت أنَّ ما قمت به لا معنى له أيضًا، لأنِّي تفصيلٌ صغيرٌ في أحداثٍ هائلةٍ أصابت البلد، جعلت كلَّ ألمٍ شخصيٍّ أصغر من جبال الألم التي راكمتها البلد خلال سنوات الصراع الدمويِّ. ولأنَّ ما أحرسه لا معنًى له، أصبحت كلَّما تكلَّمت على الهاتف مع أحدٍ من أهلي خاصَّةً، أمِّي وأبي أشكو من الوضع الخطير، وأطلب أن يعملوا على إخراجي من المخيَّم بأيِّ طريقةٍ، من دون أن أذهب إلى المصالحة المذلَّة. وأعرف أنَّ شكواي تؤثِّر بأمِّي وأبي وهذا ما سيجعلهم يعملون على إخراجي من المخيَّم. وبدأ البحث عن خياراتٍ، لم يكن هناك إمكانيَّةٌ للخروج من المخيَّم والبقاء بالبلد، سوى عن طريق المصالحة، والخدمة على الحواجز، هذا لا أقبله على نفسي، لذلك بدأ أهلي في البحث عن خيار الخروج من المخيَّم إلى خارج البلد مباشرةً. وجد أقارب صالح زوج أختي سمر، أحدًا من الأشخاص الذين يملكون صلاتٍ قويَّةً مع المخابرات، ليخرج لهم معين ابن عمِّه والمحاصر مثلي في المخيَّم مقابل ثلاثة آلاف دولار. اتصل صالح بي واقترح أن نخرج معًا، كان معين مطلوبًا للمخابرات أيضًا ولا يريد أن يجري مصالحة، ويشوِّه سمعته وسمعة عائلته، فوجدت له عائلته هذا المخرج. قابلت معين واتفقنا على الخروج معًا، عندما يحدِّدون لنا الساعة. قبل يومٍ من الخروج، جاء معين لزيارتي، وقال: «بكرة طالعين» قلت: «إن شاء الله»، اتصل صالح من ألمانيا وقال الكلام ذاته. كنت متحمِّسًا للخروج

منذ اللحظة التي أخبروني أنَّنا سنخرج فيها أنا ومعين، أي سأخرج مع رفقةٍ وليس وحدي. وعندما أخبروني أنَّ الخروج في اليوم التالي خفت. وبدأت الهواجس تفعل فعلها، ماذا لو كانت خديعةً؟ ماذا لو اعتقلوني؟ ولماذا عليَّ أن أصدِّقهم؟ الخوف جعل الأسئلة لا تنتهي. اتصلت بصالح، وقلت له: «غيَّرت رأيي ما عاد بدِّي أطلع»، حاول إقناعي، وأعطى الهاتف لأختي سمر لتحاول بدورها، من دون فائدةٍ. سيطر الخوف عليَّ، ولم أعد أرى سوى التعذيب في المعتقل. في المساء عاد معين لزيارتي، ويبدو أنَّ صالح طلب منه أن يحاول إقناعي. سألني: «ليش بطلت تطلع؟» قلت بصراحةٍ: «أنا خايف»، سألته: «إنت مش خايف؟»، قال: «طبعًا، أنا خايف، يمكن أكثر منك. بس أنا كمان هون خايف. لإيمتى بدي ظلني كل ما أسمع انفجار، أتفقَّد حالي انصبت ولا لأ، ولإيمتى، كنت بس أسمع صافرة القذيفة، آخذ نفسًا إنَّها مش رح تسقط على راسي. واسمع البرميل انفجر لأعرف أنَّه انفجر بعيد عنِّي. لإيمتى بدي ظلني عايش بالخوف»، قلت: «يمكن تكون الطلعة أخطر من العيش في الحصار، على الأقل بتحاول تهرب من القذائف من مكان لمكان. أمَّا هناك في السجن، ما شايف غير الموت»، قال: «يمكن معك حق. بس أنا تعبت من الحصار، وبعرف إنُه اللي بعملُه مغامرة، بس الحياة بالمخيَّم كمان مغامرة. يمكن أموت بهاي الطلعة، بس هاي فرصتي الوحيدة، لحياة من دون خوف، تعبت من الخوف. يا بخلص يا بموت يا بنحبس. أما أبقى في المخيَّم، من دون أمل ما عاد قادر أتحمَّل»، قلت: «يمكن معك حق، أنا ما قادر آخذ قرار، الخوف شلني»، قال: «هذا قرارك، بفهم خوفك. بس أنا حسمت أمري مهما كانت النتيجة»، ودَّعته وتمنيت له التوفيق. لم أسمع عنه أيَّ أخبارٍ خلال أسبوعٍ، أخذتني الهواجس بشأن مصيره، وتوقَّعت أن يكون الوسيط كاذبٌ، وأنَّ معين يقبع في السجن بعد أسبوعٍ من آخر محادثةٍ معه. عندما قالت أختي سمر: «معين صار بتركيا»

أصابني الخرس، ضربت نفسي وصرخت، شتمت نفسي وبصقت على نفسي، وخجلت من جبني.

وَجَبَ عليَّ انتظار مفاوضاتٍ جديدةٍ مع رجل المخابرات ذاته، ولم أعد أجرؤ على الإلحاح من أجل الخروج، وعندما كانت تزيد أسئلتي تقول أختي سمر: «استنى على الساكت، لو سمعت الكلام، كنت صرت هون» تقصد في ألمانيا. كنت أصمت، لأنَّها محقَّةٌ، لو لم أجبن، لكنت غادرت مع معين. بنجاة معين صرت أكثر اقتناعًا بنجاح عمليَّة خروجي من المخيَّم، لكنَّ خوفي استمرَّ كما السابق، والأسئلة ذاتها عن غدر الرجل بنا عادت إلى رأسي بقوَّةٍ. قلت لنفسي: «هذه المرَّة مش رح أتراجع، حتَّى لو بموت» بعد انتظارٍ شعرته دهرًا، في الشروط المتجدِّدة التي تفرضها داعش على أهالي المخيَّم، والتي قيل إنَّ أبا صيَّاح فرامة أمير داعش هو الذي يتابعها بنفسه، مثل فرض دورة تثقيفٍ شرعيٍّ للرجال، وحار الرجال في المخيَّم، هل يلتحقوا بها، ويحسبون على داعش، أم يرفضون ذلك، ويتعرَّضون لغضب داعش؟ في كلِّ يومٍ يُجلد شخصٌ ويُصلَب آخر لأسباب تافهةٍ، ما أرعبنا جميعًا في المخيَّم. لم أصدِّق عندما اتصل صالح وأعطاني رقم هاتفٍ جوالٍ، وقال لي: «شو بقلك الرجل بتعمل، لا تعمل شي لا زيادة ولا نقصان» قلت: «حاضر. إيمتي رح يتصل؟» قال: «ما بعرف، بس يترتب الوضع، بيتصل» في الأيَّام التالية، لم أفعل شيئًا سوى حراسة هاتفي المحمول والتحديق به، والحرص على شحنه قبل أن تبلغ بطاريَّته منتصفها. رنَّ هاتفي، وظهر الرقم، الذي حفظته على هاتفي باسم «الفرج» قال الرجل على الطرف الثاني: «بكرة الساعة وحدة الظهر، بتكون قريب من حاجز علي الوحش عند ببيلا، وبس يجيك اتصال بتتحرك باتجاه الحاجز»، لم أنم تلك الليلة، زاد خوفي كلَّما اقتربت من الموعد المحدَّد. لماذا حاجز علي الوحش؟ هذا الحاجز الذي قالوا للناس في المخيَّم قبل عامين إنَّكم تستطيعون الخروج منه، وذهب المئات إلى هناك للخروج من الحصار، ولم يظهر أحدٌ منهم بعد ذلك. لقد قتل

مسلَّحو الحاجز كلَّ الذين ذهبوا إليه للخروج منه. وبعد تلك المذبحة أصبح الحاجز عنوانًا للرعب بالنسبة لسكَّان المخيَّم، ويفسِّر أهالي المخيَّم وحشيَّة الحاجز، بأنَّ من يقفون عليه هم من كتائب الشيعة العراقيِّين الذين جاءوا للانتقام من السنَّة. في اليوم التالي عندما رنَّ هاتفي وأنا أنتظر بالقرب من الحاجز وظهر اسم «الفرج» على هاتفي سقط قلبي، وشعرت فجأةً بفقدان الأمان، مع أنِّي لم أعرف الأمان طوال السنوات المنصرمة التي قضيتها في حصار المخيَّم. المسافة التي تجاوزتها إلى ما بعد الحاجز، كانت لحظة رعبٍ، تعادل كلُّ الرعب الذي عشته في الحصار. عندما فتحت خطَّ الهاتف، قال الصوت: «أنت أحمد؟» قلت: «أنا أحمد» قال: «أنت شو لابس؟» قلت: «لابس جاكيت أسود وبنطلون جينز وبوط رياضي أبيض وحامل شنته ظهر كحلي»، قال: «كثير منيح، فيك تجي على الحاجز، أنا في انتظارك» سرت باتجاه الحاجز، الذي يقف عليه ثلاثةٌ من المسلَّحين، يرتدون اللباس العسكريَّ ويلفُّون رؤوسهم بمناديل سوداء، ويحملون البنادق وراء دشمةٍ من أكياس الرمل التي تحيط بالمكان الذي يقفون فيه بالقرب من غرفتين أقيمتا على عجلٍ على الشارع مباشرةً. كانت تقف سيَّارتان عسكريَّتان وسيارة دفعٍ رباعيٍّ سوداء بالقرب منهما، تغلق أكياس الرمل جزءًا من الشارع وتضيِّق الطريق لتفرض على السيَّارات المرور من المكان الضيِّق للتفتيش. وقف شابٌّ يلبس اللباس المدنيَّ إلى جانب المسلحين، مشيت باتجاه الحاجز والشابُّ باللباس المدنيِّ ينظر باتجاهي. نظر أحد المسلَّحين باتجاهي وأشار إليَّ بيده وهو يتحدَّث إلى الشاب، رفع الشاب يده بإشارةٍ للمسلَّح أن يهدأ، شاهدت هذا وأنا أسير باتجاه الحاجز من دون سماع الحوار الذي دار بينهما. عندما أشار المسلَّح بيده إليَّ خفت وشعرت أنَّ قدميَّ لم تعد تحملني، فكَّرت أن أستدير وأطلق رجلي للريح، لم أكن قادرًا على فعل ذلك، تابعت السير باتجاه الحاجز وأنا أشعر أنِّي أسير باتجاه موتي. عندما وصلت إلى الحاجز، اقترب منِّي الشاب، وسألني: «أنت

أحمد؟» هززت رأسي بالموافقة على ما يقول، فلم أكن قادرًا على الكلام. أمسك بي من ذراعي، وسرنا باتجاه السيَّارة السوداء، ركبت في المقعد الخلفيِّ، وركب الشابُّ إلى جانب السائق الذي كان ينتظر في السيارة التي انطلقت قبل أن نغلق الأبواب. أخيرًا، أنا خارج المخيَّم، لم أكن أعرف الطريق الذي سأسلكه، ما أعرفه أنِّي في النهاية سأكون في مدينة إدلب. لم أكن واثقًا من الوصول، فأنا لم أعد واثقًا من شيءٍ بعد التجربة القاسية التي مررت بها. لم تبتعد السيارة عن المخيَّم، بعد حوالي الربع ساعة توقَّفت السيارة في وسط جرمانا، بالقرب من ساحة السيوف، وطلب منِّي الشاب النزول، وقادني إلى بنايةٍ مقابل مشفى الراضي. فتح شقَّةً في الطابق الثاني، مؤلَّفةً من غرفتين وصالة. قال: «رح تستنى هون، ما تطلع، وإذا حدا دق الباب، لا تفتح. في عندك أكل بالبراد. وهاي تلفزيون عليه كل المحطات، فيك تتفرَّج عليه لما تكون الكهربا جاي. أنا رح طل عليك إذا بدك شي، رح أفتح الباب من دون ما دق، لا تخاف لما الباب ينفتح» قلت: «شكرًا» عندما غادر الشاب، سارعت إلى البراد، وبدأت آكل بجنونٍ، خبز، جبنة، لبنة، خيار، بندورة... كلُّ ما في البراد. كان عندي جوعٌ متراكمٌ. عندما بدأ الحصار على المخيَّم كان وزني أكثر من مئة كيلو، خرجت من المخيَّم وزني أقل من ستين كيلوغرام، شعرت نفسي خسرت شخصًا آخر كان يعيش معي في جسدي. أتعبني الطعام، استلقيت لأرتاح، قبل أن أشرع في حمامٍ ساخنٍ، لم أحظَ به من سنوات. في جرمانا عرفت أنَّ آخر أوقات الانتظار هي أصعبها، انتظرت سنواتٍ في المخيَّم، هذه السنوات أقصر من الأيَّام التي انتظرتها في جرمانا، نفاذ صبرنا يجعل الانتظار مساوٍ للجحيم. خمسة أيَّام في جرمانا، كان الخوف يهدأ قليلاً، ثمَّ يعود للارتفاع إلى أقصاه. عندما أسمع صوت انفجارٍ قريبٍ يأتي من قصف المناطق القريبة في الغوطة، انتفض في مكاني، وكذلك الحال عندما يصدر صوت إغلاقٍ قويٍّ لباب الجيران. مرَّ الشابُّ بعد يومين، جلب بعض الطعام، وسألني إذا كنت أحتاج شيئًا، أجبت بالنفي.

عندما خرج قال: «خليك جاهز على طول، ممكن تمشي بأي وقت خلال اليومين التلاتة الجايين»، وفعلًا بعد ثلاثة أيَّامٍ، فتح الشاب ذاته باب الشقَّة وسألني: «أنت جاهز؟» قلت: «جاهز»، نزلنا وكانت السيارة ذاتها في انتظارنا، لكنَّها هذه المرة بلا سائق، الشاب ذاته يقودها، بعد مغادرتنا لجرمانا، مرَّت السيَّارة في منطقة 86 في المزة، وأخذنا شابَّين آخرين من شقَّةٍ هناك كان من الواضح أنَّ حالهم من حالي، وأكملت السيَّارة طريقها باتجاه حمص، أبرز السائق تصريحًا مكتوبًا على الحواجز، وعندما يراه العسكريُّون على الحواجز سرعان ما يفتحوا الطريق للسيَّارة لتمرَّ من دون تفتيش. لم نجرؤ نحن الثلاثة طوال الطريق على تبادل الحديث. سارت السيَّارة كالبرق، ولأنَّنا لم نتأخَّر على الحواجز، وصلت السيَّارة إلى حماة بعد حوالي ساعتين ونصف. في مكانٍ ما في سهل الغاب لم أعرف أين يكون بالضبط، توقَّفت السيَّارة إلى جانب بيتٍ عربيٍّ من غرفٍ عدَّةٍ، وأمامه سيَّاراتٌ عدَّةٌ مختلفة الموديلات. قال الشابُّ: «انزلوا هون»، نزلنا، أدخلنا إلى غرفةٍ من غرف البيت، ليس فيها سوى فرشاتٍ مصفوفةٍ إلى جوار الحيطان، فيها شابٌّ آخر، نظر إلينا وقال: «رح تستنوا كم ساعة. ارتاحوا في أكل بالبراد إذا جوعانين» قلت: «شكرًا» نزعت حذائي، وجلست إلى إحدى الفرشات. جاء الشابَّان وجلسا إلى جانبي. بعد أن خرج الشاب الذي جاء بنا إلى المكان، سألت الشابين: «من وين الشباب؟» قال أحدهم بتردُّدٍ: «من دوما، والأخ من وين؟» قلت: «أهلًا وسهلًا. أنا من اليرموك» قالوا معًا: «أهلًا وسهلًا» سألت: «رايحين بس على تركيا، ولا مكملين؟» قال أحدهم: «إن شاء الله مكملين على ألمانيا»، قلت: «وأنا رايح هنيك» سأل أحد الشباب: «شو رح نعمل؟»، قلت: «علمي علمكم. اللي بقولولي اعملُه، بعملُه. مسلم أمري لله»، قالا: «ونِعمَ بالله» انتظرنا حتَّى تجمَّع المزيد من الأشخاص، وبعد حوالي الساعتين، وصل ميكروباص يقوده رجلٌ ستِّينيٌّ. دخل رجلٌ أربعينيٌّ بصوتٍ جهوريٍّ إلى البيت، وقال: «معكم عشر دقايق، بتكونوا جاهزين. رح تركبوا

مع أبو محمد، اللي رح يوصلكم للحدود عند إدلب، وبعد هيك، كل واحد فيكو بدبر حالو. ماشي» رد بعضنا: «ماشي» حملنا أغراضنا وصعدنا إلى الميكروباص، وكنَّا اثنا عشر شخصًا مع السائق، أي بعدد مقاعد الميكروباص. جلست في المقعد الأخير، ولحق الشابَّان من دوما بي وجلسا إلى جانبي. تحرَّك الميكروباص في منطقةٍ لا أعرفها، بعض الأحيان نقف على حاجزٍ للشبِّيحة أو اللجان الشعبيَّة التابعين للنظام، وبعض الأحيان على حاجزٍ لجبهة النصرة أو لداعش. وعلى كلِّ حاجزٍ ينزل أبو محمد ويتكلَّم مع الحاجز، ويعود ليتابع طريقه. وعندما قطعنا آخر حاجزٍ للنظام قال: «هذا آخر حاجزٍ للجان»، عندما سمعت ما قال تنفَّست الصعداء، وشعرت بالارتياح، لأنِّي أصبحت خارج قبضة النظام، فلم أعد مهدَّدًا بالسجن. انتبه الشابُّ بجانبي، وظهر عليه الارتياح نفسه، سألني: «الأخ مطلوب؟»، نظرت إليه وقلت: «نعم يا سيدي مطلوب»، سأل: «مع مين كنت تقاتل؟»، قلت: «ما كنت أقاتل مع حدا، في البلد كل الناس مطلوبة. على كل حال، هلأ فيني أقول، أهلًا وسهلًا بالشباب. أنا اسمي أحمد»، مددت يدي إلى الشابِّ جانبي، الذي مدَّ يده بدوره وقال: «أنا فريد وهذا صديقي مازن. وإحنا كمان مطلوبين، وارتحنا لما خلصنا من مناطق النظام»، لا أعرف لماذا لم أقل لهما اسمي، إلَّا عندما تجاوزنا مناطق النظام، هل كان حذرًا؟ فقد كنَّا مع بعضنا البعض، ومصيرنا بيد غيرنا، وما الخطر الذي سيزيد لو قلت لهم اسمي قبل ذلك. ابتسمت لسذاجتي وهززت رأسي. لم يقل الشابَّان لي أنَّهم كانا يقاتلان مع جيش الإسلام، حتَّى وصلنا إلى الحدود التركيَّة، وهو نوعٌ من الحذر المحقِّ منهما، لأنَّنا سنمرُّ في مناطق داعش، التي تخوض معارك ضدَّ جيش الإسلام في العديد من المناطق في الغوطة الشرقيَّة.

عندما وصلت إلى مدينة إدلب، كان عليَّ انتظار عائلتي، لم أطلب منهم أن يسبقوني إلى هناك، لأنِّي لم أكن واثقًا من الوصول، وقبل أن أخرج من المخيَّم ناقشت خياراتي إذا تمكَّنت من الخروج من المخيَّم. فقد كنت

أرسلت ابنتي هبة مع خالتها إلى ألمانيا، وأستطيع أن أنتظر لمَّ الشمل، يمكن أن أجلب عائلتي إلى إدلب وأعبر إلى تركيا، وأشتغل هناك أيَّ عملٍ وأنتظر لمَّ الشمل الذي تقدَّمت به ابنتي. كان رأي أختي سمر ألَّا أنتظر لمَّ الشمل لسببين: السبب الأوَّل، الطريق باتت سهلةً ولا عقباتٍ للوصول إلى أوروبا التي ترحِّب باللاجئين السوريِّين، ما يجعل الطريق من تركيا إلى ألمانيا غير مكلفٍ كما كان سابقًا، ويكاد يكون مجَّانيًّا. والسبب الثاني، إذا ذهبنا إلى هناك عبر لمِّ الشمل، سنبقى طول عمرنا مدينين لابنتنا بهذا الوصول، الذي سيجعل البنت متعاليةً ليس فقط على أخواتها فحسب، بل عليَّ وعلى أمِّها أيضًا، وهذا ما شاهدته من خلال تعامل الكثير من الأطفال الذين جلبوا عائلاتهم عبر لمِّ الشمل الذي تمنحه ألمانيا للأطفال غير المصحوبين بذوِّيهم وقالت: «أنا بعرف إنَّك ما رح تتحمَّل هذا، بس حبيت أنبهك، وبالآخر القرار قرارك» فهمت ما قصدت، فقد شعرت بهذا من خلال لهجة ابنتي عندما أتصل بها للاطمئنان عليها. لم أفهم قبل أن تنبِّهني سمر، لماذا تغيَّرت لهجة هذه البنت، باتت الصورة واضحةً الآن. استأجرت غرفةً في مدينة إدلب بانتظار عائلتي، كانت حركة تهريب البشر جاريةً على قدمٍ وساقٍ، لم أجد صعوبةً في إيجاد مهرِّبٍ، جلب عائلتي سريعًا إلى إدلب.

كانت مشاعري مختلطةً وأنا أنتظر عائلتي التي في الطريق من دمشق إلى مدينة إدلب حيث وصلت، كنت بالقرب منهم وفي المدينة ذاتها وأنا محاصرٌ في المخيَّم، وهم يسكنون قادسيا، ولم أستطع رؤيتهم واحتضانهم، ولم أتكلَّم معهم سوى عبر شاشة الهاتف المحمول خلال السنوات الأربعة السابقة. أخيرًا، سأراهم عن قربٍ أحتضنهم وأشمُّ رائحتهم، وأرى كم كبروا في السنوات التي قضيتها بعيدًا عنهم، ولم أمنح أيَّ فرصةٍ لقياس نموِّهم على جدار المطبخ، حيث كنَّا نقيس نموَّهم شهرًا بعد شهر، ونضع خطًّا، نكتب على طرفه اسم الشخص وتاريخ القياس. لم أفكِّر بسهيلة وكأنِّي أبعدها عن رأسي وأحصر تفكيري بالأولاد، هبة التي في ألمانيا، وهيفاء ومهند الباقيان

مع أمِّهما في دمشق. عندما وصلوا، لم أصدِّق أنِّي أشاهدهم، شعرت السنوات الأربع المنصرمة تعادل أربعة قرونٍ، سنواتٌ ثقيلةٌ لاحقني فيها خطر الموت مئات المرَّات وبكلِّ الأشكال، وظننت مئات المرَّات أنِّي لن أراهم مرَّةً أخرى. عانقت مهند الذي تضاعف حجمه، كان في الرابعة من عمره، ويقف أمامي وهو في الثامنة. وهيفاء التي تركتها في السنة الحادية عشرة من عمرها، أصبحت في الخامسة عشرة، شابَّةٌ ناضجةٌ، طولها من طولي. بعد أن عانقت الأولاد، نظرت إلى سهيلة التي تقف خجولةً وهي تنظر إليَّ وإلى الأولاد، وكأنَّها مصدومةٌ من النحول الذي أنا عليه، فهي لم تشاهدني كاملًا خلال تلك السنوات، كان وجهي فقط يظهر على شاشة الهاتف المحمول، وهو ما لم يظهر نحافة جسدي الحقيقيَّة. عندما عانقتها، شعرت بغصَّةٍ في قلبي، شعرت أنَّها مكسورةٌ بسبب اعتقالها، الذي سبَّبته لها، ألحَّ الموضوع عليَّ رغم أنِّي لم أرغب بفتحه. رأيت سهيلة مكسورةً أكثر ممَّا تصوَّرت. عندما عانقتها سألتني بصوت منخفضٍ: «أنت مريضٌ؟» قلت ساخرًا: «أبدًا، هادا ريجيم الحرب»، وحاولت أن أضحك، جاءت الضحكة مرتبكةً وسخيفةً. تداركت وقلت: «بعرف إنكم تعبتوا، وأنا تعبتكم أكثر. هذا صار ورانا»، قالت بصوتٍ حزينٍ: «إن شاء الله»، لم أستطع الاعتذار عن الألم الذي سبَّبته لها ولهم، لم أستطع فتح موضوع الاعتقال، وخفتُ أن تفتحه هي، فأنا لا أملك إجاباتٍ على الأسئلة التي يمكن أن تطرحها إذا فُتِحَ الموضوع. مرَّ اللقاء متجاوزًا هذا الألم، وانشغلت بعد ذلك، في رحلة الهرب الكبيرة، التي كنت استعجلها، وكأنِّي ما زلت أحاول الخروج من المخيَّم. عبرت الحدود في يومٍ طقسه مقبولٌ في ذلك الشتاء، لم يكن الأتراك يوقفون أحدًا، صعدنا الجبل من ناحية إدلب، ونزلنا في الجهة التركيَّة من الجبل، لنجد سيَّارات التكسي في انتظارنا، لتنقلنا محطَّةٌ أولى إلى مدينة الريحانيَّة، ومن بعدها إلى مدينة أزمير حيث أعطاني أصدقائي في دمشق رقم محسن وهو صديقٌ قديمٌ من أيَّام المدرسة، عمل بلَّاطًا في دمشق، ووصل إلى تركيا منذ

عامين وهو يعمل بتهريب البشر إلى أوروبا. عندما وصلت إلى مدينة الريحانيَّة اتصلت به وعرفته بنفسي قال على الهاتف: «تعال إلى أزمير فورًا»، عندما وصلت إلى أزمير، انتظرنا في العنوان الذي أرسله لي برسالةٍ نصيَّةٍ على الهاتف. احتفل الرجل بنا، واستضافنا في بيته، فقد سبقته عائلته إلى هولندا، وبقي هو في مدينة أزمير يعمل مع المهرِّبين الذين ينقلون اللاجئين إلى الضفَّة اليونانيَّة من بحر إيجة وينتظر لمَّ الشمل الذي قدَّمته زوجته له في هولندا. فاجأني محسن بأنَّه يعرف الكثير عنِّي، ويعرف الكثير من التفاصيل التي وقعت خلال حصار المخيَّم، لذلك احتفل بي كبطلٍ، وكان يقدِّمني إلى الآخرين بوصفي كذلك، لدرجة كنت أخجل من مديح الرجل لي. أصرَّ على أن أرافقه إلى كلِّ مكانٍ ذهب إليه، شرح لي طبيعة عمله وسهولته، والمال الكثير الذي يجنيه من وراء هذا العمل. حاول تزيين الصورة لإقناعي بالبقاء للعمل معه في التهريب، فهو يعرف أنِّي خرجت مفلسًا من حصار المخيَّم، وقال إنِّي أستطيع تعويض ذلك بالعمل لبضعة أشهرٍ والحصول على مبلغٍ محترمٍ من المال. على أن أرسل عائلتي قبلي، أنتظر وأعمل معه ريثما تنتهي معاملة لمِّ الشمل الخاصَّة بي، كما يفعل هو. وإذا لم أرغب في الاستمرار، أستطيع في أيِّ وقتٍ التوقُّف عن العمل واللحاق بأسرتي. ضبطت نفسي وأنا أفكِّر في العمل معه في تهريب البشر. وبَّخت نفسي، وماذا أفعل بنفسي، إذا مات أحد الفارِّين وكنت مسؤولًا عن هذا الموت؟ قلت لنفسي: «يا حمار، إنت ما بنيت سمعتك بحصار المخيَّم، منشان تجي هون وتكب كل شي وتشتغل بالتهريب»، رفضت كلَّ الإغراءات التي قدَّمها لي، قلت له: «هذا مش شغلي، وأنا ما رح أترك المرة والولاد يروحوا لحالهم أنا ما صدقت اجتمعت فيهم مرَّة ثانية»، حزن محسن لرفضي العمل معه. لم يصرَّ على موقفه، قال: «كان بدي نظل مع بعض أطول فترة ممكنة، أنت ما بتعرف قديش بحبك»، قلت: «والله بعرف يا محسن. بس خلص أنا تعبت. بدي ارتاح وأشوف الأولاد بأمان»، قال:

«هذا حقك. بعرف اللي شفتُه ما كان سهل عليك»، سألته: «شو رح تكلِّفنا السفرة بالبلم؟» قال محتجًّا: «مو عيب عليك تقول لأخوك هيك حكي؟»، رتَّب لنا قطع البحر باتجاه اليونان بعد يومين، بكى وهو يودِّعني. لم يأخذ منِّي أيَّ مالٍ مقابل رحلة «البلم»، بل أكثر من ذلك، وضع في يدي مبلغًا من المال لا أعرف كم يبلغ، رفضت آخذه رغم إصراره الشديد.

الرحلة في القارب المطَّاطيِّ (البلم) مخيفةٌ، وهي تجربة خوفٍ مختلفةٌ عن تلك التجربة التي خبرتها في المخيَّم. إنَّه البحر، لا هو قذائف تحتمي منها في مكانٍ محصَّنٍ، ولا هو قنَّاصٌ تحاول المرور في الطرق التي لا يراها. إنَّه البحر خطرٌ تجلس عليه لا يأتيك من فوق، عندما تقف على أرض المخيَّم قد تحميك من القذائف والبراميل المتفجرة، لأنَّها قد تخطئك وتسقط على بعد أمتارٍ عدَّةٍ، أو في الحارة الأخرى، وأنت تنجو. تهديد الموت مؤقَّتٌ بين قذيفةٍ وأخرى، أمَّا على سطح البحر فالتهديد على مدار الساعة. كنت أنظر إلى أولادي وسهيلة في ضوء قمرٍ شتائيٍّ تحجبه السحب بين الحين والآخر، لأرى الخوف في عيونهم الذي ينتقل إليَّ، ما الذي سأفعله إذا انقلب القارب؟ من سأنقذ أوَّلًا؟ كنت أفكِّر بهذه الطريقة، مع أنَّنا جميعًا نرتدي سترة النجاة من الغرق. خفت أكثر عندما تعطَّل محرِّك القارب في منتصف الطريق، لكن من حسن حظِّنا أنَّه عاد للعمل من جديد. لم نبقَ في القارب طويلًا، ما إن وصلنا إلى الجزيرة اليونانيَّة الصغيرة حتَّى تنفَّست الصعداء. بقيَّة الرحلة كانت مدهشةً في سهولتها، كلَّما وصلنا إلى مكانٍ، وجدنا متطوِّعين يقدِّمون لنا الطعام والمساعدة، ويرشدونا إلى الأماكن التي علينا التوجُّه إليها من أجل إكمال مسيرتنا وُفقَ المكان الذي قرَّرنا الذهاب إليه. بعد أربعة أيَّامٍ وجدنا أنفسنا في ألمانيا في رحلةٍ تكاد تكون مجانيَّةً، لأنَّ أغلب وسائل النقل التي ركبناها كانت مجانيَّةً.

عندما وصلت إلى ألمانيا، جاء صالح واصطحبنا إلى بيته، وجدنا هناك أمِّي وأبي وأختي ميرفت وابنها، وأختي فاتن، وزوجها وأولادهم. شعرت أنِّي

عدت إلى بنايتنا في المخيَّم قبل الحرب المجنونة التي وزعتنا على بلدانٍ عدَّةٍ. غاب أخي عامر الذي قاده قدره إلى نيوزيلندا، وأخي عدنان الذي لم يحضر، حتَّى لا ينفجر الخلاف بيني وبينه أمام الجميع. لم أصدِّق أنِّي بين أهلي من جديد، عانقتهم جميعًا بقوَّةٍ وحبٍّ. قبل أسبوعين كنت محاصرًا في المخيَّم، وأصبحت بين أهلي من جديدٍ في قارَّةٍ أخرى، بعيدًا عن كلِّ ما تسبَّب لنا بالألم. بعد يومٍ من وصولي، أخذتني أمِّي جانبًا، وقالت لي: «لازم تصالح أخوك عدنان»، قلت غاضبًا: «لن أصالح هذا الحقير طول عمري»، قالت: «يا حبيبي طول بالك، لا تحكم على أخوك بهاي الطريقة»، قلت: «كيف بدي أحكم؟! بترك عيلتي وبمشي»، قالت: «ما تركهم ومشي. أنت غلطان، ما كان بقدر يأخذهم، بجي يوم وبتعرف شو صار»، قلت: «ما بدي أعرف شو صار. لأنُه ما في شي ببرِّر اللي عملوا»، قالت: «طول بالك، خلينا ما نحكي بالموضوع، هلأ الحمد لله على سلامتك»، قلت: «الله يسلمك» عدت وعانقتها من جديدٍ.

قضيت ثلاثة أيَّامٍ عند أختي سمر، وبعدها واصلت رحلتي إلى هامبورغ، وهناك سلَّمت نفسي إلى دائرة الهجرة التي أرسلتني إلى كامب للاجئين. وبعدها طلبت أن تنضمَّ ابنتي هبة لنا. حصلنا على الإقامة بعد أربعة أشهرٍ من وصولنا، وبعدها انتقلنا للسكن في بيتٍ في منطقة هاين هادين في ريف هامبورغ. وهو البيت الذي ما زلت أقيم فيه.

في الطريق من دمشق إلى هامبورغ، الذي كان أسرع ممَّا توقَّعت بكثيرٍ، لم أملك الوقت لأفكِّر في التجربة التي خضتها، ولا حتَّى التفكير في الطريق الذي سلكته، بقيت تحت تأثير حصار المخيَّم. عندما أتذكَّر الطريق وسلوكي خلاله، أتذكَّر نفسي أنصت لصوت القذائف، حتَّى بعد أن قطعنا الحدود السوريَّة ودخلنا الأراضي التركيَّة، وطوال الطريق وصولًا إلى ألمانيا، كثيرًا ما وجدت نفسي أقف بلا حراكٍ وأنصت. وتسألني سهيلة: «شو مالك؟» أنتبه إلى نفسي وأقول لها: «ولا شي»، أخجل من القول لها، أنِّي

أنصت لصوت القذائف. كنت أستيقظ في منتصف الليل فزعًا، أتحسَّس جسدي، مثلما كنت أفعل عندما يأتيني الكابوس في الحصار، وهو ما استمرَّ معي إلى يومنا هذا، وما تزال سهيلة تستيقظ خائفةً من صراخي. مازلت استيقظ على صوت معدتي الفارغة، مع أنَّها لم تعد كذلك منذ غادرت البلد. وكأنَّ معدتي تتذكَّر الجوع وتخاف منه، فتذكِّرني به وأنا نائم.

ظننت بوصولنا إلى ألمانيا ستكون حياتي سهلةً، لكنَّ الواقع لم يكن كذلك، وعرفت أنِّي لم أصل إلى الجنَّة، ومن المستحيل أن أجد عملًا، ومن الصعب عليَّ أن أبقى بلا عملٍ، وشعرت نفسي هربت من موتٍ إلى موتٍ، من موتٍ بالقذائف والبراميل المتفجِّرة ورصاص القناص، إلى موتٍ من القهر والعزلة والوحدة، وهذا الشعور الذي لم أختبره سابقًا وأنا وسط عائلتي. في ألمانيا شعرت بالوحدة التي شعرت بها وأنا محاصرٌ في المخيَّم، رغم أنَّ عائلتي حولي. لم أعد أعرف ماذا أفعل بحياتي؟! حاولت أن أعمل بالأسود، لم أنجح. وكان عليَّ أن أجد وسيلةً ما للحصول على عملٍ، وإلَّا متُّ فعلًا. ليس أمامي سوى أن أفعل ما فعله بعض اللاجئين العرب، من فتح محلَّاتٍ تبيع البضائع والمواد الغذائيَّة للعرب. لكنِّي لا أملك المال من أجل البدء بهذا العمل. لجأت إلى أبي من أجل الحصول على المال، كان جوابه أنَّه لا يملك مالًا، لأنَّ الحرب بدَّدت كلَّ المال الذي ادخره هو وأمِّي، عدت إليه بعد فترةٍ بالفكرة نفسها، وجدت الجواب ذاته. عندما قلت له أن يبيع أرض دير العصافير التي اشتريناها في بداية الأزمة، وأن يعطيني المال، ف أحد منَّا يحتاجها، كلُّنا أصبحنا خارج البلد، ولو على سبيل القرض حتَّى أفتتح فيه مشروعي. كان جوابه أن أقفل الهاتف في وجهي، ولم يتابع النقاش معي، وعدَّه منتهيًا بقفله خطَّ الهاتف.

ماذا أفعل بعد أن خسرت كلَّ شيءٍ، خسرت سنواتٍ من عمري، لمن ألجأ لغير أهلي، وإذا أهلي لم يساعدوني من الذي سيساعدني؟! أمامي سوى شتم هذه الحياة التي أعيشها. عندما أقول «كس أخت هيك عيشة، ما حدا

بفهمني، وما حدا بقدِّر اللي عملتُه» يلومني الكلُّ وكأنَّ هذا الكلام غير صحيحٍ. لم أقم بعملٍ، أيَّ عملٍ، إلَّا وكان اللوم نتيجته، حتَّى عندما يكون هذا العمل تضحيةً من أجل الآخرين. عندما بقيت في المخيَّم بعد أن هرب الجميع، لم أبقَ من أجل نفسي، بل بقيت من أجل أبي، وعندما خرج أبي من المخيَّم، بقيت لأحمي وأحافظ على أملاكنا هناك، ليست أملاكي وحدي، بل أملاكنا جميعًا، لم يقدِّر أحدٌ هذه التضحية، والبقاء لسنواتٍ في ظلِّ حصارٍ خانقٍ وقذائف لا تنتهي، كدت أفقد حياتي مرَّاتٍ عدَّةً، بسبب القصف، والقنص، والبراميل المتفجِّرة، والجوع، والاشتباكات الداخليَّة... كان هناك ألف سببٍ للموت في المخيَّم في أثناء الحصار. قرَّرت البقاء في المخيَّم، ولم أغادره، لأنَّه لا مكان أذهب إليه، فهذا المكان مكاني، وسأبقى حتَّى تنتهي الأزمة ويعود أهلي إلى أماكنهم وبيوتهم التي تركوها وهربوا. رغم أنَّ هذه النهاية لم تأتِ كما توقَّعت، فهذا لا يعني أنِّي يجب أن أعاقب على صمودي هناك. لقد خضت معركتهم، صحيحٌ أنِّي خسرتها، لكن لم أخسرها بسبب خطأٍ منِّي. كانت الحرب أقوى من الجميع، وليس أقوى منِّي فقط. على الجميع أن يقفوا معي ويساعدوني تضامنًا معي، وتعويضًا عن خسارتي الصافية التي خسرتها في المخيَّم، لكنَّ الأنانيَّة أعمت الجميع، ولا أحد يريد مساعدة أحدٍ، ولا أحد يريد مساعدتي، عندما سألت أختي ميرفت: «شو أعمل بحالي؟» قالت: «والله يا خيا، كل واحد صار لازم يقلع شوكُه بإيدُه» كلامها صحيح. لكن كيف أقلع شوكي بيدي في هذه البلد اللعين الذي لا أعرف فيه شيئًا؟!

الفصل الخامس:
الحبيب العائد إلى الموت
(بتول بنت ميرفت خليل أحمد خليل)

لن أسامح نفسي على ما فعلته بعاطف، طلبت منه ألَّا يعود إلى البلد، وكان عليه أن يسمع كلامي، وكان عليَّ أن أقطع علاقتي به حتَّى لا يعود. حتَّى لو سأل أهله معارفهم في الشرطة والمخابرات، وتبيَّن أنَّه ليس مطلوبًا لأيٍّ منهما، ما كان عليه العودة. صحيح أنَّه وحيد أهله وهو ليس مطلوبًا لخدمة العلم، لا يستطيع أن يعود إلى البلد، فليست خدمة العلم وحدها ما يساق الشباب من أجلها إلى المعتقلات. شيءٌ ما داخلي خاف من عودة عاطف إلى البلد، شيءٌ غامضٌ قال لي: «لا تخليه يرجع»، لا أعرف من أين جاء هذا الخوف ومن ماذا بالضبط؟ هل الخوف من أن تؤذيه قذيفةٌ طائشةٌ، بعد أن نجا بنفسه ووصل إلى هولندا؟ هل هو الخوف من أن يكون قد تغيَّر بعد حوالي عامين من الغياب؟ هل هو الخوف من نشاطه السابق في الثورة، من مشاركته في المظاهرات حتَّى تهريب الدواء إلى المناطق المحاصرة؟ رغم أنَّ شيئًا من هذا لم ينكشف وغادر دمشق عن طريق مطار دمشق إلى القاهرة مباشرةً، من دون أن يوقفه أحد. لم أخف عندما غادر، يبدو أنِّي كنت أكثر ثقةً وأكثر جرأةً، ولم تكن البلد بالسوء الذي

وصلته بعد أكثر من سنتين من غيابه. رجوته ألَّا يعود، وقلت له: «أنا مستعدة أهرب وأجي لعندك، كلام أبوي ما إلُه معنى، وما تحملُه على محمل الجد. إحنا بنقدر نعيش حياتنا، وطز فيه وبسخافاته»، لم يقبل عاطف هذا الكلام منِّي، وقال: «ما بقبلك صورة الهربانة من بيت أهلك. أنت ما بتعرفي قديش بحبك. اللي بقولو أبوكي فينا نعملوا، ليش ما نعملوا. لا تخافي عليّ. عمر الشقي بقي»، اتصلت فيه وقلت له: «أبوس أيدك لا تجي. أنا مو خايفة عليك. أنا مرعوبة»، قال: «إنت مزوديتها حبتين، أنا متأكد أنت بس تشوفيني بعد يومين، بروح خوفك»، لم أطمئن لكلامه، ولم أستسلم، ذهبت عند أمه، التي لم أنقطع عن زيارتها خلال غيابه، عرفتني أخته عبلة عليها منذ كنَّا أصدقاء في أثناء دراستنا للشهادة الثانويَّة، وقبل تعرُّفي على عاطف، وإعلان حبِّه لي. عفاف، أم عاطف امرأةٌ في غاية اللطف، تحبُّ ابنها وتثق به، كما تحبُّ بناتها الثلاثة، وترعاهم بكلِّ الحبِّ، وعندما غادر عاطف، قالت لي: «لا تتركينا، ظلك طلي علينا، أنا صار عندي بنت رابعة»، لم تكن تجاملني، في الأيَّام اللاحقة عرفت أنَّها قصدت كلَّ كلمةٍ قالتها، كانت تتصل بي كلَّ يومٍ تقريبًا لتطمئن عليَّ، وأحيانًا كنت أنا أتصل بها صباحًا، حتَّى أقول لها أنِّي مهتمَّةٌ لها أيضًا، وعندما لا أزورهم لأيَّامٍ عدَّةٍ، تتصل بي وتدعوني إلى الغداء، فأشعر بينهم أنِّي بين عائلتي الثانية. لم يكن حال والده مختلفًا، فهو رجلٌ طيِّبٌ، لم أقابله سوى مرَّاتٍ قليلةٍ قبل اعتقال عاطف، وخلال هذه اللقاءات كان لطيفًا وودودًا. لم يردَّ أهل عاطف له طلبًا، وكانوا راضين على اختياره لي شريكةً مستقبليَّةً لحياته، عاملوني كواحدةٍ منهم. وعندما لم يردَّ عاطف على رجائي بعدم القدوم إلى دمشق. ذهبت إلى أمِّه وقلت لها: «خالتو، بحياة الله، وبحياة كل شي غالي عليكي. قولي لعاطف ما يجي على الشام»، استغربت طلبي هذا، وسألتني: «ليش بتقولي هذا الحكي. أهلك غيروا رأيهم بالنسبة للموافقة على الزواج؟!»، قلت: «لا، أبدًا. أهلي ما غيروا شي. بس أنا ما بدي إياه يجي على الشام»،

قالت بدهشةٍ: «ليش؟ إنت ما عاد بدك إياه»، قلت: «لا، لا. يا الله. خالتي. عاطف روحي. بس ما بدي إياه يجي لهون»، قالت: «ليش؟»، قلت: «أنا خايفة عليه، في شي جواتي بقلي لا تخليه يجي. وأنا ما بدي يصرلُه شي بسببي، حتَّى لو كان الثمن أنُه يتركني»، وشرعت في البكاء، أخذتني في حضنها، وقالت: «طولي بالك حبيبتي. ما في داعي للخوف»، رغم كلماتها المطمئنة، شعرت أنَّ الخوف انتقل إليها. حاولت بكلِّ ما أستطيع أن أمنعه من القدوم لكنِّي فشلت، أصرَّ على الحضور ليثبت لي حبَّه، الذي لم يكن بحاجةٍ إلى إثباتٍ بالنسبة لي، لأنِّي لم أشكَّ فيه للحظةٍ منذ عرفته.

عندما اختفى في منطقة الجديدة عند النقطة الحدوديَّة السوريَّة-اللبنانيَّة، حصل ما كنت أخشاه. انهرت وعرفت أنِّي خسرته للأبد، لا أعرف من أين جاءني هذا اليقين، هل هو حدسي بأنِّي سأفقده، أم هو خوفي الزائد عليه جعلني أتوقَّع فقدانه في أيِّ لحظة؟ وليس أسوأ من الخراب الذي يعمُّ البلد من فرصةٍ لهذا الفقدان. عرف أهله في أثناء بحثهم عنه، أنَّ فرع أمن القوى الجويَّة هو الذي طلبه، وحُوِّلَ من الحدود إلى الفرع في مطار المزَّة العسكريِّ، ويعود اعتقاله إلى اعترافاتٍ عليه من أصدقاءٍ له اعتقلهم الفرع قبل عامٍ من عودته، أنَّه عمل في توصيل الأدوية إلى المشافي الميدانيَّة في الغوطة، مثل المعضمية وداريا وجوبر وغيرها من المناطق التي أقيمت فيها مشافٍ ميدانيَّة قبل مغادرته دمشق إلى مصر، وإيصال الأدوية بالنسبة للمخابرات أخطر من إيصال السلاح إلى الإرهابيِّين. قبل خروجه من البلد لم يعرف أهل عاطف شيئًا عن نشاطه في الثورة، وندمت لأنِّي لم أخبرهم، لعلَّ ذلك كان يدفعهم إلى إعادة النظر في الطلب منه الحضور إلى البلد، فطالما عرفوا أنَّ هناك أخطارٌ على ابنهم الوحيد، كانوا سيطلبون منه عدم العودة وتعريض نفسه للخطر. للأسف لم أفعل ذلك، لأنِّي وعدت عاطف ألَّا أقول شيئًا عن مشاركته في نشاطات الثورة لأيٍّ كان، لا سيَّما لأحد من أهله. كان عليَّ أن أخلف وعدي له من أجل حمايته، لكنِّي لم أفعل، وندمت لأنِّي لم

أفعل، رغم أنِّي لم أفكِّر للحظةٍ بخيانة وعدي لعاطف قبل اعتقاله. عندما اعتُقِلَ انهرت، لم أعد أعي نفسي، لم أتحمَّل فكرة غيابة، ولم أتحمَّل أنَّ مسألةً تخصُّني تسبَّبت بغيابه، وأين؟ في سجون أسوأ فرعٍ من فروع المخابرات في البلد، وفي أسوأ زمنٍ، رافقني الشعور بالذنب منذ اختفى على الحدود السوريَّة- اللبنانية إلى اليوم، وعددت نفسي مسؤولةً عن مقتله، لا أحبُّ هذه الكلمة، عن اعتقاله هذه كلمةٌ أفضل. انهارت أمُّه أيضًا، ولم تصدِّق ما يجري، لماذا تأخذ المخابرات ابنها الوديع الذي لا يؤذي نملة؟ كانت تسأل دائمًا وعلى نحوٍ هذيانيٍّ. عندما أزورها تنظر إليَّ طويلًا وبعيونٍ غائمةٍ وتقول: «يا ريتني سمعت كلامك، ومنعتُه من الجية»، لم يترك أهله بابًا لم يطرقوه من أجل معرفة مصيره، كانوا مستعدِّين لدفع أيِّ مبلغٍ لخروج ابنهم من السجن، الابن الذي نجا من البلد وعاد من أجل حبٍّ قتله في أقبية المخابرات. بعد ثلاثة أشهرٍ عندما بلَّغت المخابرات أهله أنَّه توفِّي لم تصدِّق أمَّه، أنَّ عاطف ممكن أن يموت قبلها. ولم تصدِّق أبدًا أنَّ ابنها مات. بقيت تنكر هذه الواقعة وتنتظر خروجه من السجن إلى اليوم.

تعرَّفت على عاطف، قبل انفجار الثورة في سورية بأشهرٍ عدَّةٍ، وأنا في السنة الأخيرة للمرحلة الثانويَّة، وانفجرت الثورة وأنا أُحضِّر من أجل الامتحانات النهائيَّة. تعرَّفت على أخته عبلة في معهد الخيام الذي درسنا فيه معًا، والذي حقَّق شهرةً جيِّدةً بسبب علامات الطلَّاب الذين يدرسون فيه، فعندما وصلت إلى الثالث الثانويِّ، كانت المدارس قد تحوَّلت إلى خرابٍ، ومن يريد لأولاده النجاح في الشهادة الثانويَّة عليه أن يرسلهم إلى المعاهد الخاصَّة. وهذا ما فعله أهلي، وأهل عبلة الذين كانوا يسكنون خارج المخيَّم، وبالقرب منه مباشرةً، في منطقة الزاهرة في أوَّل بناياتٍ مسبقة الصنع بعد دوار البطيخة الواقع في مدخل المخيَّم. وكان معهد الخيام الذي يقع بالقرب من مبنى البلديَّة عند سوق الخضار، يبعد عن بيتهم حوالي كيلومتر، ويبعد عن بيتنا تقريبًا المسافة ذاتها، لكنَّ بيتها

باتجاه خارج المخيَّم، وبيتنا باتجاه وسط المخيَّم. هم يسكون في نهاية الزاهرة خارج المخيَّم، لكن في البنايات المجاورة له تمامًا، ونحن نسكن في شارع الجاعونة، وسط المخيَّم تقريبًا. كنَّا أنا وعبلة نقضي بعض الوقت بعد الدوام، ونحن نتسكَّع في شارع لوبية، سوق الملابس الكبير في المخيَّم، نشاهد الموديلات الجديدة في المحلات، ونضع الخطط لشرائها إذا توفَّر لنا المال. وكنَّا أحيانًا نسهب في المشي بين بيتهم وبيتنا، أوصلها عند ساحة البطيحة بالقرب من بيتها، وتعود لتقترح توصيلي إلى الساحة بالقرب من السينما الوحيدة في المخيَّم بالقرب من بيتنا، أحاديث تولِّد أحاديث لذلك ننفق الوقت بالذهاب والإياب مرَّاتٍ عدَّةً، ما يجعلنا نتأخَّر عن بيوتنا، وهو ما يتسبَّب لي ببهدلةٍ من أمِّي في كلِّ مرَّةٍ نفعل ذلك. تعرَّفت على عاطف في إحدى زياراتي لبيتهم، شابٌّ لطيفٌ، مؤدَّبٌ، خجولٌ، لـمَّاحٌ، دمثٌ. ومن جانبٍ آخر هو طالبٌ في السنة الثانية في كليَّة الأدب الانكليزيِّ، مجتهدٌ في دراسته. يعطي الانطباع لكلِّ من يتعرَّف عليه أنَّه شخصٌ جدِّيٌّ، وتكوَّن عندي الانطباع ذاته منذ قابلته أوَّل مرَّةٍ، ولم أكن أعرف، أنَّه سيكون حبِّي العاصف. لم أحبَّه من أوَّل نظرةٍ، ولم يخطر ببالي أن أفكِّر فيه كحبيبٍ عندما تعرَّفت عليه. كلُّ شيءٍ تغيَّر مع اقتراب الامتحانات. اقترحت عبلة أن يدِّرسنا عاطف اللغة الانكليزيَّة بطريقةٍ مكثَّفةٍ، وقالت: «هو بدرِّسها للناس ببلاش، إحنا أولى بالتدريس من غيرنا»، ساعد عاطف بعض معارفه بتدريسهم مادة اللغة الانكليزيَّة فعلًا. عندما عرضت عبلة عليَّ الفكرة، وافقت فورًا. لم يوافق عاطف في البداية، قال: «إنتو مو جديات بدراستكم. رح يروح جهدي على الفاضي»، قلت له بتحدٍ: «جربنا»، كرَّرت عبلة: «جربنا شو خسران، إذا طلعنا زي ما بتقول لا تكمل»، قال: «حاضر، رح جرب ثلاث دروس، إذا فهمتوا ودرستوا بكمل. وإذا ما فهمتوا ما رح كمل»، قلت أنا وعبلة الكلمة ذاتها: «موافقين»، منذ الدرس الأوَّل شعرت أنَّ شيئًا ما داخلي تغيَّر تجاه عاطف، أذهلتني رنَّة صوته الصافية في قراءته للدروس

باللغة الانكليزيَّة، شعرت أنَّه يغنِّي، حتَّى عندما لا أفهم الكلمات، كانت الكلمات أقرب إلى الموسيقى على لسانه، لم أسمعه يتحدَّث بالإنكليزيَّة من قبل. عندما سمعته يتحدَّثها لم أشعر أنَّه الشخص ذاته الذي يتحدَّث بالعربيَّة. شيءٌ غريبٌ في صوته شدَّني إليه، انتبهت إليه في الانكليزيَّة أوَّلًا بعد ذلك انتبهت له وهو يتحدَّث العربيَّة، التي يحاول إخفاء نبرة الغناء في صوته عندما يتحدَّثها، لكنَّه لا يحاول إخفاءها عندما يتحدَّث الانكليزيَّة، شعرت أنَّه سيكون مذيعًا معروفًا، أو مغنِّيًا مشهورًا. فجأةً وفي قلب الدرس، وجدت نفسي أسأله: «عاطف ليش ما بتغني؟» ارتبك، بينما انفجرت عبلة بالضحك وهي تقول: «على فكرة بتول، عاطف صوتُه بجنن بس يغني» عندما قالت هذه الكلمات، نظرت إليه وكأنِّي أراه لأوَّل مرَّةٍ، وقتها شعرت قلبي يهوي. شاهدت وجهه يتحوَّل إلى الحمرة خجلًا، وكأنَّه شاهد في عيني أنَّ قلبي يهوي في صدري. لم يكن هو أحسن حالًا، سيقول لي ذلك فيما بعد، أنَّ قلبه هوى في اللحظة التي نظرت في عينيه مباشرةً وشعرت بقلبي يهوي. شيءٌ كالصاعقة المفاجئة مسَّ قلبينا، وأصبحنا نرى بعضنا بطريقةٍ مختلفةٍ، لم تكن موجودةً قبل لحظات، وليس قبل ساعاتٍ أو أيَّامٍ. منذ تلك اللحظة، أصبح كلُّ شيءٍ مختلفًا بالنسبة لي، ليس مشاعري تجاه عاطف فقط، بل مشاعري تجاه كلِّ شيءٍ في الحياة أيضًا، أهلي، إخوتي، أصدقائي، رأيي في الحياة، قدرتي على التسامح. فتح الحبُّ في قلبي بابًا واسعًا للأشياء الجميلة، إذ بتُّ أستطيع تحمُّل كلَّ شيءٍ والتسامح مع كلِّ شيءٍ. لم أكن بنتًا مجتهدةً، ولم يتوقَّع أهلي لي النجاح في الشهادة الثانويَّة، لكنَّهم سجَّلوني في المعهد للدراسة من أجل الشهادة الثانويَّة، ليُخلِّصُوا ذمَّتهم، بأنَّهم فعلوا كلَّ ما يستطيعون من أجلي. درست من أجل عاطف، ونجحت من أجله، لم أرد أن يشعر أنَّ جهده بتدريسنا كان عبثًا، كنت مستعدَّةً أن أفعل أيَّ شيءٍ من أجله، أرادني أن أنجح، فنجحت. لم يترك جهدًا لم يبذله من أجل نجاحي في الشهادة الثانويَّة. قال لي: «بدي إياكي معاي طول عمري. وبدي ياكي مثلي

مش أقل مني»، عندما عتبت عليه بأنَّه يضيِّع وقته من أجل امتحاناتي، في الوقت الذي يهمل امتحاناته، المتزامنة مع امتحاناتي. قال: «ما بهمل شي. حتَّى لو أهملت، أنا مصيري صار معروف، ما رح يتغيَّر بشوية تقصير»، كنت واثقة من نجاحي لأنَّه يقف إلى جانبي، ما قمت به كان نجاحه أكثر ممَّا هو نجاحي. عندما زرتهم بعد صدور نتائج الامتحانات، بنتيجة ناجحٍ أنا وعبلة، أفسحت عبلة لنا المجال لنبقى وحدنا، بحجَّة أنَّها ستصنع القهوة، تركتنا نتحدَّث بما لا نرغب في قوله أمامها من مشاعر حبٍّ كانت تعرفها. ما إن غادرت الغرفة، حتَّى عانقته، والتهمت شفته السفلى في قبلةٍ ساحرةٍ، لم يتوقَّعها ولم يعرف كيف يتعامل مع هذه المفاجأة التي جعلته عاجزًا عن فعل أيِّ شيءٍ، بدا مستسلمًا وغير قادر على انتزاع نفسه من القبلة الطويلة، التي كرَّرتها بالتتابع. عندما أبعدته عنِّي قليلًا لأنظر إلى عينيه، لم يكن قد استوعب ما جرى بعد. سألني وهو يرتجف من اختلاط الارتباك والخوف والمتعة: «شو هذا؟» قلت: «هاي، هدية شكر، للي عملتُه منشان دراستي» صمت قليلًا، ثمَّ سألت بدلع: «عجبتك الهدية ولا لأ؟»، قال متلعثمًا: «آه... لا... أي.. أكيد عجبتني»، غرقت في الضحك بسبب الجملة المتلعثمة التي قالها. عندما عادت عبلة بالقهوة، لم يكن عاطف قد خرج من ارتباكه، سألته عبلة: «شو في؟ شو مالك؟» قال لها: «ما في شي» التفتت إليَّ وسألتني: «أنت ليش بتضحكي. شو في؟»، قلت: «زي ما قال عاطف ما في شي. كلها بوسة شكر طويلة»، فتح عاطف عينيه على وسعها دهشةً من المفاجأة، لم يتوقَّع أن أقول هذا الكلام لعبلة التي انفجرت بالضحك.

قبل عاطف، لم أعرف ما الذي أفعله في حياتي، لم أملك حلمًا أو طموحًا محدَّدًا، لم يكن أبي وأمِّي مثالين ملهمين لأكوِّن طموحًا يشبههما. فهما لم يستطيعا إنجاز حياةٍ تستحقُّ أن تُقلَّد، فهي لم تكن حياةً ناجحةً بأيِّ مقياسٍ. شابَّان مجتهدان، استطاعا الدخول إلى كليَّة الهندسة، نجاحهما

تحوَّل إلى فشلٍ، لأنَّهما لم يستطيعا إكمال هذه الدراسة، أكيد لكلٍّ منهما أسبابه، لكنَّ الناس في النهاية تحكم على النتائج، والنتائج تحدِّد من نجح ومن فشل، بهذا المقياس، كانا عنوانًا للفشل. هذا ما جعلهما في حالة قلقٍ طوال الوقت، فهما لم يكملا دراستهما، وبالتالي لم يحوزا على المكانة التي يستحقَّانها بموجب هذه الدراسة، لكنَّهما كانا يتعاملان على أنَّهما أنجزا دراستهما. هذا الاختلال بين رؤية نفسيهما وواقع حالهما في الحياة، كان واحدًا من التناقضات التي حكمت حياتنا في العائلة. ففي الوقت الذي اشتغلا عاملان في أحد المعامل، كانا يتعاملان مع الأشياء كأنَّهما مهندسان مكرَّسان، وهذا ما جعلهما غير قادرين على إنجاز أيِّ شيءٍ. وإذا كانت أمِّي قد استسلمت مع الزمن إلى فشلها، وتحوَّلت إلى أمٍّ مثل كلِّ الأمهات التقليديَّات، فإنَّ أبي لم يتغيَّر على هذا الصعيد، وكلَّما تقدَّم في العمر، زاد اهتمامه بشكليَّات مكانةٍ اجتماعيَّة لم يستحقَّها، لكنَّه يطالب بها طوال الوقت بوصفها حقَّه الذي لا يتنازل عنه. أمِّي التي تحولت إلى امرأةٍ تقليديَّةٍ، لطالما سخرت من أبي الذي يصرُّ على ما تسمِّيه «المظاهر الكذَّابة» عندما تكون في حالة رضا، كانت تسخر منه بالقول «هو بضحك على مين، الناس كلها عارفة البير وغطاه، ما عاد في شي مخبا. بحب الكبرة ولو على خازوق» وتضحك. وعندما تكون غاضبةً، تلعن الساعة التي تعرَّفت فيها عليه وقبلت الزواج به، وتقول: «لولا قنزعته كان وضعنا غير»، لم أكن أفهم ماذا تقصد أمي «بوضعنا غير»؟ وما هي تكلفة «قنزعة» أبي، وأيُّ حالٍ آخر سيكون حالنا من دونها؟ بحثت أمِّي عن سببٍ تعلِّق عليه أوضاعنا الصعبة، طبعًا كلُّ الأسباب تصلح، ما عدا أن تكون هي السبب في الوصول إلى هذه الأوضاع. كانت حالتهما محزنةً، لم يستطيعا النجاح حتَّى يبنيا حياةً يرضيان عنها، لم يستطع أحدهما النجاح، حتَّى يرمِّم حياته وحياة الآخر ويجعل الحياة معقولةً، غرقا في اللوم، لوم بعضهما، لوم الظروف، لوم الحظ، وفي دوامة اللوم الطويلة التي عاشاها، نسيا أن يعيشا. لم أحبَّ استسلامهما، ولم

يستطيعا تعليمي كيف أستحقُّ الحياة، ولم يعلِّموا إخوتي. كنت معجبةً بجدِّي وجدَّتي اللذين صنعا حياتهما كما يريدان رغم الصعوبات التي واجهاها وهم أطفالٌ في بلدٍ جديدٍ. أعجبت بجدَّتي التي أحبَّت جدَّي، لأنَّه رجلٌ مميَّزٌ، لم تنظر إلى رجله المتعبة والمعتلَّة، نظرت إلى الرجل الذي كان عليه، لم يكن العيش معه سهلًا، كما تقول جدَّتي، كان رجلًا عنيدًا. وأقول لنفسي لو لم يكن رجلًا عنيدًا، لما تغلَّب على ظروفه وصنع حياته بيده. سمعت قصصًا كثيرةً عن جدِّي، تجعلني أعجب به. أمِّي لم تكن معجبةً به، فهي تعدُّه سبب دمار حياتها، لأنَّه أصرَّ أن يفرض عليهم مستقبلهم بالقوَّة، ولأنَّها استجابت لإرادته وما فرضه على حياتها، خسرت مستقبلها لأنَّها لم تستطع إكمال الطريق. أسمعها وأسكت، لا أريد أن أجرحها، بالقول إنَّها لم تقنعني. لا أقول إنَّ جدِّي لم يكن قاسيًا في محاولاته فرض حياةٍ ومستقبلٍ محدَّدٍ عليهم، لقد كان كذلك. لكن ماذا فعلت بعد أن تحرَّرت من هذه السطوة؟ لماذا لم تُعِد ترتيب حياتها؟ إذا كان جدِّي يتحمَّل مسؤوليَّة خراب مستقبلها عندما كانت تحت رحمته، لماذا لم تُعِد بناء هذا الخراب، عندما استقلَّت بحياتها، وأصبحت حياتها محكومةً بقراراتها؟ ببساطةٍ استكانت لشعور الضحيَّة المريح، بتحميل مسؤوليَّة كلِّ ما يجري إلى الآخرين، وتصوير كلِّ ما جرى جاء ضدَّ مصلحتها دائمًا. أوَّل قرارٍ اتخذته في حياتها كان خاطئًا، تحدَّت جدِّي باختيار أبي زوجًا لها في وقتٍ غير مناسبٍ، وعدَّت ذلك ردًّا على مصادرة جدِّي لحياتها. بعد هذا القرار الذي عدَّته القرار الأكثر حمقًا في حياتها، لم تجرؤ على اتخاذ أيِّ قرارٍ، حتَّى تصحِّح قرارها الأحمق بالزواج من أبي والانفصال عنه. لم تفعل ذلك، لأنَّها عَدَّت القرارات خطيرةً في المبدأ، وبذلك انسحبت من كلِّ شيءٍ، ورضيت بالكارثة التي تسبَّبت بها لنفسها، ولتزيد من قسوة الكارثة على نفسها، عَدَّت أنَّ القرارات ليست مسؤوليَّتها، فألقتها على أبي، الذي بدوره لم يعرف ماذا يفعل في حياته، وهذا ما جعل حياتهم وحياتنا تدوران في حلقةٍ مفرغةٍ.

لم أفهم ما يجري وأنا طفلة، لم أفهم لماذا أبي غاضبٌ وأمّي حزينةٌ طوال الوقت؟ عندما أسأل أمي تجيبني: «الدنيا هيك يا حبيبتي، يوم حلو ويوم مرّ» لكنّي لم أرَ حياتهم كذلك، كنت أراها كلّها مرارًا من دون مسوّغٍ. لم تكن حياتنا جيّدةً، لكنّها لم تكن سيّئةً، كنّا نعيش مثل كلّ الذين حولنا، بعضهم أوضاعهم أحسن قليلًا وبعضهم أسوأ قليلًا، لكنّهم لم يكونوا يعيشون الحالة المتوتّرة التي نعيشها في بيتنا. لم أفهم لماذا يعيش الناس الذين تشبه أوضاعهم أوضاعنا، نوعًا من الرضا، وأهلي غير قادرين على ذلك؟ لم أفهم السبب حينها، وعندما بدأت أفهم انفجر البلد، وزاد هذا الانفجار أوضاع بيتنا توتُّرًا. ببطءٍ أصبح عندي تفسيرٌ لما يجري في بيتنا، جيراننا الذين يشعرون بالرضا عن حياتهم، ويستطيعون صناعة السعادة من أبسط الأشياء في الحياة، هم الذين لم يتوقّعوا مستقبلًا أفضل من الذي يعيشونه بكثيرٍ، وهذا ما جعلهم راضين عن إنجازاتهم لحياةٍ متواضعةٍ. على العكس، أمي وأبي توقّعا أن يصنعا حياةً باهرةً في مستقبلهما، فوجدا نفسيهما على هذه الحالة المتواضعة، التي عَدّاها بائسةً وكارثيّةً لما كانا يتوقّعانه لمستقبلهما، الفرديّ أو المشترك. الخيبة من التوقُّعات المستقبليّة جعلتهما غير قادرين على التكيُّف مع حياةٍ متواضعةٍ لا تشبه ما رسماه لمستقبلهما. والدرس الذي تعلّمته من حياتنا هو، إذا لم ترضَ عن الحياة التي تعيشها، عليك أن تغيّرها، وإذا لم تستطع تغييرها، فعليك أن ترضى بها، لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يبقى متذمّرًا طوال الحياة. قد تكون تجربتي في العيش في بيتٍ متوتّرٍ، جعلتني أنضج قبل الأوان، والعيش في ظلّ بلدٍ يعيش ثورةً سرعان ما تحوّلت إلى دمارٍ، جعلني أهرم قبل الأوان.

قبل أن أفهم ما يجري في بيتنا جيّدًا، كان عليّ أن أفهم ما يجري في البلد أيضًا. فقد انفجرت البلد وأنا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمري، وهي السنة التي تعرّفت فيها على عاطف أيضًا، وتقدّمت فيها لامتحان الشهادة الثانوية، ونجوت من الرسوب. فشل أبي وأمي في الدراسة، جعلنا

نتراخى فيها، ولم يستطيعا دفعنا للدراسة رغم رغبتهما بذلك، لم يقنعاني أنَّهما يصلحان للعب هذا الدور، من لم يستطع إنجاز مهمَّةٍ لا يصلح لإقناع الآخرين بإنجازها بوصفها مهمَّةٌ سهلةٌ ولا تحتاج إلى الكثير من الجهد، إذا كانت كذلك لماذا لم يستطع الناصح إنجازها. هكذا فكَّرت في مراهقتي، لأنِّي عَدَدت أنَّ الشخص ابن ظروفه الخاصَّة، ولا ظروف خارجيَّةً تتدخَّل في قضايا أخرى لتخرِّبها، رغم أنَّهما لا صلة بينهما في المبدأ. أهملت دراستي بعد أن حصلت على الشهادة الإعداديَّة. صحيحٌ أنِّي لم أترك المدرسة، لكنَّ المدارس الثانوية، هي أماكن رديئةٌ، لا صفوف صالحةٌ للدراسة، ولا مدرِّسين يؤدُّون دورهم، حتَّى ينجح أيُّ طالبٍ عليه أن يسجِّل في معهدٍ تعليميٍّ أو مدرسةٍ خاصَّةٍ، إذا كان يريد الحصول على علاماتٍ تؤهِّله لدخول الجامعة. من دون ذلك سيضيِّع وقته في مدرسةٍ لا تُدرِّس شيئًا، ولا جدوى من الذهاب إليها، وإذا نجح الطالب، سيحصل على أدنى العلامات في الثانويَّة. لذلك عندما أصبحت في السنة الأخيرة للمرحلة الثانويَّة، سجَّلني أهلي في معهد الخيام التعليمي. وكان هذا من حظِّي، لأنَّ هذا التسجيل السبب الذي جعلني أتعرَّف على عاطف. ومعرفتي به، ثمَّ حبِّي له، الذي شكَّل دافعًا رئيسيًّا لي لأتجاوز الامتحانات، وأهَّلتني نتيجتي للدخول إلى المعهد التجاريِّ، فعلاماتي المنخفضة لم تمكِّني من دخول الجامعة. في أثناء الدراسة لامتحانات الثانوية، وفي الأيَّام التي درست فيها عند عبلة وبمساعدة عاطف، كنَّا نتطرَّق في الاستراحات إلى ما يجري في البلد. في بيتهم أوَّل مرَّةٍ سمعت أنَّ أهالي درعا تظاهروا لأنَّ المخابرات اعتقلت أطفالهم في الإعدادية وعذَّبتهم، لأنِّهم كتبوا على جدران مدينة درعا «جاك الدور يا دكتور»، وكانوا يقصدون أنَّ الثورات العربيَّة التي انطلقت في تونس ثمَّ مصر ولحقتها في ليبيا واليمن، قادمةٌ إلى سورية. قال عاطف كانت هناك دعوةٌ للتظاهر قبل أيَّامٍ من انفجار درعا، دعا لها بعض الشباب، وخرجوا من عند الجامع الأمويِّ في سوق الحميديَّة، لكنَّهم لم يستطيعوا الاستمرار،

لأنَّ رجال المخابرات حاصروهم، وأقاموا مظاهرة أخرى تأييدًا للرئيس. انفجرت درعا بعد إطلاق النار على المتظاهرين، وأخذت مناطق مثل دوما وحمص وبانياس تتضامن معها بالتظاهر. دُهِشتُ ممَّا أسمع، لم أهتمَّ يومًا بالأخبار أو بالسياسة، لا أعرف لماذا أصبحت تشدُّني، بعد ما أصبح عاطف يخبرني بها، شعرت نفسي أعيش في عالمٍ آخر، وليس في البلد الذي يشتعل. في أثناء تأديتي لامتحانات الشهادة الثانوية كان مركزي الامتحانيُّ في مدرسة عزَّت حصرية القريب من جامع الحسن، الذي خرجت منه أولى المظاهرات في دمشق، واستمرَّ مركزًا لانطلاقها. انتبهت إلى وجود عناصر المخابرات حول الجامع في الأيَّام العادية، رغم أنَّ المظاهرات تخرج من الجامع بعد صلاة الجمعة، حيث يتجمَّع المتظاهرون الذين يصلُّون والذين لا يصلُّون في الجامع، منتظرين انتهاء الصلاة حتَّى يخرجون مطالبين بالحريَّة للبلد رافعين شعار «حريَّة للأبد غصبن عنك يا أسد»، ينتظرهم رجال الأمن بالهراوات أمام الجامع، الذي ينجحون أحيانًا، في تفريق المتظاهرين بالهراوات أمام باب الجامع، وأحيانًا ينجح المتظاهرون في كسر طوق الأمن ويخرجون في مظاهرةٍ باتجاه مركز دمشق، سرعان ما يتجمَّع الأمن من جديد، وعندما لا تجدي الهراوات نفعًا في قمع المتظاهرين، كان إطلاق النار بانتظارهم. لم أكن أنتبه إلى بقع الدهان الجديدة المنتشرة على جدران المباني المحيطة بالجامع، أو أعمدة الإسمنت التي تحمل الجسر المتحلِّق الجنوبيَّ. قال لي عاطف، هذه البقع ناتجةٌ عن أنَّ المخابرات تمحي الشعارات التي يكتبها الثوَّار ضدَّ النظام وضدَّ الرئيس، تمسحها بالدهان وتكتب الشعار الحقير «الأسد أو نحرق البلد» هذا الشعار الذي أصبحت أشاهده في كلِّ مكانٍ، لا سيَّما على الجدران القريبة من الحواجز العسكريَّة التي أخذت تنمو كالفطر في البلد. خلال حوالي عشرين يومًا وهي مدَّة امتحانات الشهادة الثانوية، كانت منطقة الامتحانات هادئةً أحيانًا، وأحيانًا يشوبها توتُّرٌ وقلقٌ، وتسود حالةٌ من القلق في الأيَّام التي تلي مقتل

متظاهرين برصاص الأمن. يزداد الوجود الأمنيُّ في محيط الجامع، ويقيم رجال المخابرات حاجز تفتيشٍ تحت الجسر على الطريق المؤدِّي إلى وسط دمشق. لم أعرف أنَّ عاطف شارك في المظاهرات التي خرجت من جامع الحسن، وهو لم يقل لي ذلك، رغم أنَّه أخبرني بحبِّه لي قبل انطلاق المظاهرات. تحدَّث كثيرًا عن الثورة والظلم، وحقِّ الناس في الحريَّة، وعن احتكار طائفةٍ للسلطة في البلد وتركيعها وتحويلها إلى مزرعةٍ لهم، عن حقِّ الناس في العيش بكرامةٍ، عن حقِّها في ألَّا تهان من أصغر عنصر مخابراتٍ، عن حقِّ الناس في العدالة، عن حقِّ الجميع في الفرص ذاتها بلا تمييزٍ بسبب الطائفة، عن حقِّ الشباب والأطفال أن يكون لهم مستقبلٌ في البلد، بلدهم. عن السلطة بوصفها تدير مصالح الناس، لا تحتلُّ البلد ويغتني الطفيليُّون فيها. كان يشعُّ وهو يتحدَّث عن الثورة والتغيير، استمعت إليه بكلِّ إعجابٍ، كنت أخاف من مقاطعته، فيخفَّ إشعاعه. آمن بكلِّ كلمةٍ قالها. لم أعرف أنَّه يضع هذا الصدق موضع التطبيق بالتظاهر مع المتظاهرين الخارجين مطالبين بالحريَّة من جامع الحسن، مع أنَّه لا يصلِّي. كان يقول: «ما خلو للناس غير الجامع لحتى تتجمَّع وتقدر تطلع مظاهرات، وهم بيستنوهم قدام الباب بالعصي، إذا ما نفعت العصي، الرصاص جاهز. وبطلع على التلفزيون بقولوا إرهابيِّين!»، لم يستخدم لغة الـ«نحن» لأنَّه أراد إخفاء اشتراكه في المظاهرات عنِّي. وقد اضطر للاعتراف لي بذلك، بعد أن حاولت الاتفاق معه مرَّتين على لقاءٍ بتوقيت صلاة الجمعة، اعتذر بارتباكٍ. مرَّرت الموضوع أوَّل مرَّةٍ، عندما اتصلت في المرَّة الثانية، واعتذر، قلت له: «شو مخبِّي عليّ»، قال: «والله ما في شي»، قلت: «مشكلتك ببيِّن عليك فورًا، يا بتحكيلي، يا أمَّا ما بتكون تثق فيني»، قال مرتبكًا: «رح قلك كل شي لما أشوفك»، قلت: «ماشي.. رح أستنى لأشوفك» أصابني القلق، سألت نفسي، ما الذي يخفيه عنِّي؟ أخذتني الأفكار وأعادتني من دون أن أستطيع أن أصل لاستنتاجٍ ما الذي يشغله عنِّي. في لقائنا التالي، قلت:

«تفضَّل، شو مخبي؟» عاد إلى الارتباك، قال: «ماني مخبِّي شي. بس أنا ما كنت حابب أقلك، منشان ما تخافي عليّ»، استعجلته قائلةً: «قول وخلصني»، قال: «بصراحة، يوم الجمعة بروح على الجامع، منشان نتظاهر»، قلت باستنكار: «شو! وليش ما بتقلي؟ ومن إيمتى بتروح؟»، عندما خرجت كلماتي منِّي، شعرت كأنِّي أحقِّق معه. تداركت سريعًا وقلت: «أنا آسفة. مش قصدي أزعجك. بس أنا بحبك كثير وما لازم تخبي عني مثل هيك شي»، قال: «وأنا ما قصدي أخبي عليكي، أنا ما بعمل شي بخجل منُه. بس ما كان بدي إياكي أنت وأهلي تعرفوا، شو بعمل. لسببين: الأوَّل، حتَّى ما تخافوا علي، والسبب الثاني، حتَّى ما تحاولوا تمنعوني»، قلت: «بس أنا من حقِّي أعرف، ومن حقِّي أخاف عليك، بس مش حقِّي أمنعك تعمل اللي بدك إياه. أنا بعرف قديش مهم الواحد منَّا يقول لا للظلم. قديش مهم يصرخ من وجعُه. أنا حاسة فيك. بس كان لازم تقلي»، قال: «خلص يا ستي. وهاي قلتلك. بس أرجوكي ما تقولي شي قدام أهلي. ما بدي أخوِّفهم علي. وعديني ما تجيبي سيرة قدامهم»، قلت: «بوعدك»، عندما اعترف لي بمشاركته بالمظاهرات، عرفت من أين يأتي بريق عينيه عندما يتحدَّث عن الثورة، وعن الظلم وعن الحريَّة والحقوق. اعترافه لي جعلني أتعلَّق به وأحبَّه أكثر، وأصبحت قلقةً وخائفةً عليه أكثر أيضًا.

كنت بقلقٍ واحدٍ، صرت بقلقين. عاطف من جهةٍ، وأخي باسل من جهةٍ أخرى، الذي لم يترك مظاهرةً جابت شوارع المخيَّم ولم يشارك فيها، منذ ذهب مع من ذهبوا إلى الحدود مع إسرائيل في يوم النكبة واقتحموها، لم يتوقَّف عن المشاركة في المظاهرات، ولم تتوقَّف أمي عن الركض خلفه من مظاهرةٍ إلى أخرى، وإرجاعه إلى البيت محرجًا رغمًا عنه. حكى عن تجربته في اقتحام الحدود، كأنَّه مسحورٌ، لم يصدِّق أنَّه قطع مع من قطعوا حقل الألغام الذي أقامه الإسرائيليُّون في الجولان ووضع علم فلسطين بنفسه في يد تمثال سلطان باشا الأطرش في قرية مجدل شمس وصفَّق له الحاضرون

هناك. في المرَّة الثانية في ذكرى نكسة حزيران، لم يستطع الذهاب مع من ذهبوا، لأنَّ أمي أقفلت عليه باب غرفته، ومنعته من الالتحاق بالمجموعات التي ذهبت من جديدٍ إلى الجولان. حاول تحطيم الباب لكنَّه لم ينجح، فشل في الخروج، فلم يكن حاضرًا في المرَّة الثانية. وهذا ما جعله غاضبًا من أمِّي لمنعه من المشاركة، وما زاد من غضبه أنَّ صديقه سقط برصاص الإسرائيليِّين، وقد يكون ما فعلته أمِّي حماه من الموت، فلم يكن صديقه وحده الذي اتفق معه على الذهاب إلى هناك، بل من سقط برصاص الإسرائيليِّين، لقد قتل الإسرائيليُّون العشرات ممَّن حاولوا اقتحام الحدود ولم ينجحوا في المرَّة الثانية، مثلما نجحوا في المرَّة الأولى.

باسل الهادئ الشابُّ الوديع ذو الخمسة عشرة عامًا، وجد نفسه يصرخ في المظاهرات من أجل الحريَّة. عندما كان يحدِّثني عن المظاهرات والحماس الذي يشعر به، أشاهد الشبه الهائل في إشعاع عينيه بعيني عاطف عندما يتحدَّث عن الثورة. يقول باسل: «بتعرفي بتول، لما بصرخ في المظاهرات، مو بس ما بعود بخاف، كمان بحس حالي حر، بحس حالي طاير» كان يكتشف نفسه، يخرج من مراهقته لرجولته في ظرفٍ كان يبدو واعدًا. أصيبت أمِّي بالرعب من اللحظة التي عرفت أنَّه يشارك في المظاهرات. طبعًا، كنت أخاف عليه من الرصاص الذي يطلقه رجال المخابرات على المتظاهرين، لم أستطع القول له: «لا تذهب»، بالمقابل لم أشجعه. كنت معجبةً بشجاعته، وكيف يبني شخصيَّته في ظروفٍ صعبةٍ. أصبحت أمِّي تركض خلفه من مظاهرةٍ إلى أخرى، تجلبه من بين المتظاهرين، أحيانًا يهرب منها، وأحيانًا تقبض عليه بيدٍ من حديد، فيأتي إلى البيت مذعنًا. يشكو أمي ويقول: «بتبهدلني وبتحرجني. إيمتى بدها تعرف ما عدت ولد صغير» ويشرع بالبكاء. أقول له: «بتظل أم وبتخاف عليك»، قال: «بعرف.. ما هذا اللي بخليني آكل خرا» باسل المتعلِّق بأمِّي ويحبُّها بجنونٍ، غير القادر على رفض طلبٍ لها، لا يستطيع فعل شيءٍ عندما تقبض

عليه وتريد إعادته إلى البيت، يعود ذلك الطفل المستسلم لقبضة أمِّه. أتصوَّر لو كان أبي من يعيده من المظاهرات، لكان رفض، ولو وصلت الأمر لحدِّ تبادل اللكمات، مع أمِّي كان الوضع مختلفًا، إنَّه استسلام الطفل أمام جبروت محبَّة الأم.

لم أرَ أمِّي مرعوبةً مثلما رأيتها في ذلك اليوم، الذي شهد سقوط قذائف الهاون على حارتنا في المخيَّم. في شهر رمضان عند الغروب وقبل آذان المغرب بدقائق، ونحن نُحضِّر مائدة الإفطار، مع أنَّ من يصوم بيننا أمِّي وأختي، أنا وباسل وأبي لا نصوم، لكنَّا نجلس معهم على مائدة الإفطار الرمضانيِّ. كنت في المطبخ أجلي بعض الأواني المتسخة، لأنَّ أمِّي لا تحبُّ أن يبقى أيُّ أوانٍ في المجلى. دوى انفجارٌ رهيبٌ في الحارة، اهتزَّ كلُّ شيءٍ بفعل الانفجار، شعرت قلبي ينخلع من مكانه، خفت، تفقَّدت جسدي، نظرت حولي، كلُّ شيءٍ على حاله في المطبخ، سمعت الصراخ قادمٌ من الحارة. خرجت من المطبخ، وجدت أمِّي جالسةً على الكرسي في الصالة ووجهها شاحبٌ، وغير قادرةٍ على الحركة، جامدةٌ، تضع يدها على قلبها. ناديت عليها: «أمِّي... أمِّي» لم تكن تسمعني، احتضنت أمِّي وأخذت أبكي. ما هي إلَّا لحظاتٌ حتَّى دوت قذائف عدَّةٌ أخرى خلال ثوانٍ. سرعان ما أبعدتني عنها، وركضت باتجاه غرفة باسل. فتحتْ الباب لم تجده فيها. خرجت من البيت وركضت في الحارة تبحث عنه. ركضت وراءها، كان الغبار يملأ الحارة، والناس تصرخ، والكلُّ يبحث عن الكلِّ، وأمِّي اختفت في الغبار، تصرخ على باسل وتقلِّب الجرحى والقتلى بحثًا عنه. عندما وجدتهما معًا، كانت أمِّي تحتضن باسل وتبكي وقد غطَّاهما الغبار، مثلما غطَّى كلَّ شيءٍ في الحارة، وأصوات سيَّارات الإسعاف والسيَّارات العاديَّة تنقل الجرحى إلى مشافي فلسطين وحلاوة والباسل، وهي المشافي الموجودة في المخيَّم. وعندما عادت الأخبار من المشافي كان أكثر من عشرين من سكَّان الحارة قد استشهدوا، وأكثر من خمسين جريحٍ، منهم خمسة عشر جروحهم خطرةٌ. لم

يخرج أحدٌ من الحارة سليمًا من ذلك القصف، فالذي لم يُقتَل ولم يُصَب بجروح، خسر أحد أفراد عائلته، أصابه القصف على نحوٍ أو آخر، حتَّى العائلات التي لم تفقد أو يجرح منها أيٌّ شخصٍ، أصابها القصف بجروحٍ نفسيَّةٍ، نحن جميعًا لسنا أنفسنا الذين كنَّا قبل القصف. خيَّمت المجزرة على الحارة خلال الأشهر التالية، كلُّ شيءٍ في الحارة يُذكِّر بالشهداء حتَّى الدماء على الحيطان وبقايا الردم. بقي الحزن يسكن الحارة حتَّى يوم الرحيل من المخيَّم.

بعد حوالي عامٍ من الثورة السوريَّة، امتلأ المخيَّم باللاجئين من مناطق الجوار، وكما كان في السابق، وأخذ ينزلق أو يُدفَع حتَّى يتحوَّل إلى جزءٍ من الخراب في البلد. تمنَّى الكثير من أهالي المخيَّم أن ينجو المخيَّم من الخراب، لكنَّ الأماني شيءٌ والواقع شيءٌ آخر. ازدادت المظاهر المسلَّحة داخل المخيَّم، عندما جمعت جبهةٌ فلسطينيَّةٌ بعض الزعران والحشَّاشين، والذين كُلِّفوا بإقامة الحواجز داخل المخيَّم. كنت أعرف هذه الوجوه على الحواجز، شبَّانٌ كانوا يضايقوننا ويتحرَّشون بنا نحن الفتيات. لا أعرف أسماءهم، لكنِّي أعرف وجوههم الكريهة، وعندما باتوا يحملون السلاح أصبحوا أكثر وقاحةً، وزاد تحرُّشهم بنا. وأخذ هؤلاء يتحرَّشون بالنساء المهجَّرات القادمات من الأماكن المجاورة، وأخذوا يغلقون منافذ المخيَّم في وجه الهاربين من المناطق المجاورة، ما جعل فصائل المعارضة الموجودة في محيط المخيَّم، تقتحمه بسهولةٍ، وهرب الذين كانوا على الحواجز إلى خارج المخيَّم. سرعان ما قصف الطيران الحربيُّ المخيَّم، وبات المخيَّم خارج سيطرة السلطة. كان هذا وضعًا جديدًا على المخيَّم الذي تحوَّل إلى منطقةٍ محاصرةٍ، شعر سكَّان المخيَّم بعد القصف بالطائرات الحربيَّة أنَّ عليهم مغادرة المكان، فهموا القصف كإنذارٍ بالرحيل، ولم يكن رسالةً للمسلَّحين الذين اقتحموه، بقدر ما كان رسالةً لسكَّانه. لم تسقط صواريخ الطائرة الحربيَّة على المسلَّحين الذين اقتحموا المخيَّم، بل قصفت الطائرة بصاروخها الأوَّل أماكن تجمُّع اللاجئين،

وهو الصاروخ الذي سقط بين اللاجئين المتجمِّعين بالقرب من جامع عبد القادر الموجود في قلب المخيَّم ونثر لحمهم على الحيطان كما قال الذين ساعدوا في إسعاف الناس المصابة من المكان. تحوَّل جامع عبد القادر إلى مأوًى للاجئين قبل القصف الذي تعرَّض له بأكثر من ستَّة أشهرٍ. وقصفت الطائرة في صاروخها الثاني المدرسة المجاورة لبيت جدِّي، التي تحوَّلت إلى مأوى للاجئين قبل أشهرٍ أيضًا. سقط الصاروخ في الحديقة الخلفيَّة للمدرسة، فلم يُصَب أحدٌ، رغم الدمار الذي أحدثه الصاروخ في البيوت المجاورة للمدرسة التي انهار جزءٌ منها، كما تضرَّر بيت جدِّي على نحوٍ أقلَّ. تحدَّث الكلُّ عن رسالةٍ وصلت إلى أهالي المخيَّم، أنَّ السلطة ستمنح السكَّان فرصةً للخروج من المكان في اليوم التالي، وأنَّها بعد ذلك ستغلقه.

في اليوم التالي خرج القسم الأكبر من السكَّان. لم يتناقش أبي وأمِّي في أمر الخروج أمامنا، كأنَّهما اتفقا لأوَّل مرَّةٍ على أمرٍ مهمٍّ من دون صدامٍ، هناك ألف سببٍ وسببٍ يجعلهم يغادرون المخيَّم بعدما جرى، أوَّلها أنَّهما يخافان علينا، نحن أولادهما. وغير ذلك لم يكن لديهما أيُّ مخطَّطاتٍ لما سيفعلان بعد الخروج من المخيَّم أو إلى أين سنذهب. حاولت كسر الصمت واقترحت البقاء، قلت: «ليش لازم نطلع من بيتنا، ما دام ما في مكان نروح عليه، خلينا بالمخيَّم. سعرنا بسعر اللي رح يظلُّوا، مثل جدِّي وخالي أحمد»، لم يردَّا على كلامي، نظرا إليَّ معًا نظرةً أعرفها من قبل الثورة، هذه النظرة التي إذا ترجمتها لكلامٍ كانت تعني: «اخرسي»، ولا أعرف إذا يمكن ترجمة هذه النظرة في تلك اللحظات إلى كلماتٍ أسوأ. فعلت الصواريخ القليلة ما لم تفعله مئات القذائف التي سقطت على المخيَّم في ذلك اليوم وقبله. قصفت الصواريخ روح المخيَّم، وتسبَّبت للسكَّان بالرعب والعجز، سواءً من قرَّر البقاء أو من قرَّر المغادرة، في الحالتين كان الناس مكسورين ممَّا يجرى، ويدركون أنَّهم يخسرون حياتهم. كلُّ العمر الذي قضوه هناك كبارًا وصغارًا، ينكسر ويتحوَّل فجأةً إلى عمرٍ آخر يذهب إلى المجهول. لم يدرك السكَّان

معنى المكان بالنسبة لهم، سوى في لحظة الانكسار والمغادرة، وعرفوا أنَّ المكان ليس حجارةً ومباني، إنَّما هو روحهم التي تتحطَّم بمغادرتهم المكان. وشعر الباقون أنَّ المكان يتحطَّم بمغادرة أحبَّتهم الذين كانوا يُعطون معنًى للمكان. ولم تختلف مشاعري أنا أيضًا، لم أدرك معنى المخيَّم سوى في تلك اللحظة التي أخذنا نجمع الأغراض فيها للرحيل، بعد أن ساعدت أمِّي في حزم الأغراض التي سيأخذها خالي عدنان معه في الصباح، بدأت اختيار الأشياء التي سآخذها معي، بدأت أضع الأشياء وأعود لإخراجها بطريقةٍ غريبةٍ وكأنِّي أقتل الوقت، أريد الذهاب ولا أريد. اجتاحني المخيَّم، وشعرت روحي معلَّقةً بالمكان أكثر ممَّا كنت أتصوَّر، أو أنَّ الاقتلاع نفسه جعلني أشعر أنِّي متعلِّقةٌ بما اُقتلع منه. شعرت فجأةً أنِّي أريد البقاء في المخيَّم، حتَّى لو تعاركت مع أمِّي وأبي. إنَّه المكان مكاني، إذا أردت الخروج أخرج، أمَّا أن أُجبَرَ على الخروج، فهذا يعني هزيمتي. اخترق شعور الهزيمة الجميع، من سيبقى ومن سيرحل، انكسر المكان نفسه، وقد حُكِمَ عليه بالموت. ظنَّ من بقيَ أنَّه يحافظ على روح المكان إذا صمد رغم الحصار الذي يعرفون أنَّهم سيخضعون له. وفي الوقت الذي ظنَّ الذين غادروا، أنَّهم سيعودون في الوقت المناسب لإحياء المكان، لأنَّهم هم من أحياه، وأنَّ من أحياه أوَّل مرَّةٍ يستطيع أن يفعل ذلك مرَّةٍ أخرى، من دون أن يدرك الطرفان أنَّ الأماكن تموت مثل البشر، وعندما تموت لا يمكن العودة إليها مرَّةً ثانيةً، لأنَّها تصبح أماكن أخرى غير تلك التي تركناها. قد يعود السكَّان إلى العيش في الأماكن ذاتها من جديدٍ، لكنَّ الأماكن ستكون فقدت روحها ولم تعد تلك التي تركوها. كانت مشاعري تجاه المكان قويَّةٍ، فشعرت نفسي محمومةً وغير قادرةٍ على وصف حالتي. اشتعل شيءٌ ما داخلي، يقتلني شعور العجز والظلم مترافقًا مع انفجار مشاعر الحبِّ تجاه المكان. أرى المكان يموت، وأنا غير قادرةٍ على فعل أيِّ شيءٍ. سأغادره مستسلمةً، أذهب إلى حيث يقذفني تيَّار الموت الذي تدفَّق على البلد بقوَّةٍ.

في صباح ذلك اليوم الحزين، انتظرنا حتَّى حضر خالي عدنان، وضع أغراضنا مع أغراضه مع أغراض أخوالي في صندوق البيك اب الذي يجلس فيه أولاده، لم تجرِ أيُّ محادثةٍ بينه وزوجته وبين أمِّي وأبي غير كلمات السلام المتبادل، بعدها غادر. راقبتُ أمِّي التي تنظر إلى السيَّارة وهي تغادر المكان حتَّى انعطفت ولم تعد تشاهدها. وبعد خروجنا من البيت، تأمَّلتْ أمِّي البيت من الخارج وكأنَّها تنظر له لأخر مرَّةٍ، شاهدتُ الدموع تنزل من عينيها من دون أن تبكي، مسحتْ دموعها وسارتْ بعيدًا عن البيت، لم تكن تحمل الحقيبة فحسب، بل شاهدتها تحمل أثقال الدنيا على كتفيها وتمضي. على عكسها كان أبي مرتبكًا ولا يعرف إلى أين ينظر، نظراته القلقة صورةٌ لعجزه، ولأنَّه غير قادرٍ على فعل شيءٍ، كأنَّه بنظراته القلقة يبحث عن مكانٍ يختفي فيه من ثقل اللحظة التي نمرُّ بها. مشيتُ خلف أمِّي حتَّى لا أرى دموعها، كان الألم داخليٌّ أكبر من تحمُّل مشاهدة المزيد من دموع أمِّي التي لم تكن قادرة على كبحها.

عندما خرجنا من حارتنا باتجاه شارع لوبية، كان الجميع يسير باتجاهٍ واحدٍ، لا أحد يسير بالاتجاه المعاكس، كأنَّ البشر جداول ماءٍ محكومةٍ بمسارٍ هابطٍ باتجاه المدخل الشماليِّ للمخيَّم عند دوار البطيخة. منع السير باتجاه واحدٍ الوجوه من التقابل، وأعطى الجميع الفرصة لِيُخفُوا وجوههم عن الآخرين الذين يعرفونهم بالنظر إلى الجانب الآخر من الشارع. كأنَّ الناس تتجنَّب السلام على بعضها البعض، كلُّ واحدٍ أو واحدةٍ من الخارجين من المخيَّم، لا يريد أن يراه أحدٌ وهو يرتكب عار الخروج. بحثت في الوجوه على الجانب الآخر من الطريق، والتفتُّ خلفي أنظر إلى سيل البشر الجارف الخارج من المخيَّم، لم تلتقِ عيناي بعيونٍ أخرى، سوى عيون الأطفال غير العارفين ما يجري حولهم من مأساةٍ، وتتجنَّب عيون الكبار المكسورة بعضها. على عكس ما كان سابقًا حيث تبحث العيون عن المعارف والأصدقاء في الشارع لإلقاء التحية، إن التقيا مصادفةً في الطريق. في ذلك

اليوم أصيب الجميع بالعمى، لا أحد يريد رؤية العار الذي يشاركه مع الآخرين، ولا يريد أن يرى الآخرون عاره، لحظةٌ قاسيةٌ حاول أهالي المخيَّم تجنُّبها، فوجدوا أنفسهم في قلبها، يدارون دموعهم إذا استطاعوا، والكثير من النساء والرجال لم يكونوا قادرين على ذلك. رأيت الدموع في عيون الجميع، حتَّى الذين حبسوها انفجرت من عيونهم رغمًا عنهم. رجالٌ ونساءٌ لم يستطيعوا إكمال مسيرتهم، ينفجرون بالبكاء فيجلسون على طرف الطريق ويبكون من أعماقهم، يجلس إلى جانبهم أقاربهم يواسونهم ويحاولون البكاء بصمتٍ، يربِّت بعض المارَّة على كتف الباكي أو الباكية، ويتابعون طريقهم، وآخرون يتجنَّبون النظر إلى الباكين على طرف الطريق، حتَّى لا يصابوا بعدوى البكاء، كلُّ عدَّة أمتار هناك رجلٌ فقد أعصابه أو امرأةٌ فقدت أعصابها ودخل أو دخلت في موجة بكاءٍ وجلست أو جلس منهكًا على جانب الطريق. شعرت أنَّ الطريق للخروج من المخيَّم أطول من أن يتحمَّله أيُّ قلبٍ. يكفي الألم الذي حمله الخارجون من بيوتهم إلى المجهول لبكاء العالم كلِّه. كنَّا نحن الصغار وأهالينا نُهجَّر لأوَّل مرَّةٍ، عشنا تجربةً في غاية القسوة، لكن عندما أنظر إلى وجه رجلٍ أو امرأةٍ من عجائز المخيَّم أصحاب الوجوه المألوفة بالنسبة لي، كنت أرى ألمًا وحزنًا لا يمكن وصفه، هؤلاء الذين عرفوا التهجير وهم أطفالٌ، يعودون في نهاية حياتهم التي لم يتبقَ منها الكثير ليُقتَلَعوا من بيوتهم من جديدٍ. وإذا كان العدو هو من اقتلعهم في المرَّة الأولى وهو ما عزَّوا أنفسهم به خلال العقود الماضية، فإنَّ من يقتلعهم اليوم من بيوتهم هو الأخ والشقيق والجار. عجائز بلا أملٍ ولا مستقبل يسندون أنفسهم على عكَّازاتهم ذاهبين في رحلة تيهٍ جديدةٍ. لم أعد قادرةً على مسك دموعي، لم أعد قادرةً على كبحها، بكيت صامتةً على أمِّي وأبي وإخوتي وكلِّ الخارجين من المخيَّم، وبكيت من أجل نفسي، من ألمٍ يخنقني، حاولت دفعه بعيدًا بدموعي الصامتة.

وصلنا إلى خارج المخيَّم، ولم يكن أبي أو أمِّي يعرفان إلى أين سنذهب، كانا في أسوأ حالةٍ شاهدتهما عليها طوال حياتي، شعورٌ بالعجز والتيه شلَّهما عن فعل أيِّ شيءٍ. لولا المكالمة الإنقاذيَّة من عمِّي أحمد في اللحظة الأخيرة، لما عرف أمِّي وأبي إلى أين نذهب؟ عرض عمِّي أحمد على أبي أن نقيم في غرفةٍ من البيت الذي فتحه صديقه له في صحنايا، ولأنَّ عمِّي يعرف أوضاعنا البائسة وقدَّر ألَّا مكان لنا نلجأ إليه، اتصل وعرض أن نقيم في تلك الغرفة المؤقَّتة، التي سنقضي فيها أكثر من ثلاثة أعوامٍ. وعندما ذهبنا هناك وجدنا عائلة عمَّتي منال قد سبقتنا، ولحق بنا عمِّي حسين وعائلته.

كانت الغرفة فارغةً، جلبت أمي بعض الأغراض من عند الجيران حتَّى ننام تلك الليلة، كنَّا منهكين، لكن لا أظنُّ أيًّا منَّا نام في تلك الليلة الصامتة، التي لم نتبادل فيها سوى كلماتٍ قليلةٍ. خرج أبي من البيت حتَّى الساعة الرابعة فجرًا، أمِّي أعدَّت طعام العشاء، بالكاد أكلنا. لم نصدِّق ما جرى، لم نصدِّق أنَّنا تحوَّلنا إلى لاجئين، وأنَّنا لا نستطيع الاستمرار في الحياة في بيتنا الذي لا يبعد عن المكان الذي نعيش فيه سوى بضع كيلومتراتٍ.

في اليوم التالي أخذت أمِّي ترتِّب الغرفة لنستطيع العيش فيها خلال الفترة القادمة. لم يكن من السهل علينا العيش كلُّنا في غرفةٍ واحدةٍ، هذا هو الخيار المتاح خلال المدَّة المنظورة، لذلك شرعت أمِّي في ترتيب المكان. بعد يومين جلب خالي عدنان الأغراض التي حملها في سيَّارته عندما خرج، واشترت أمِّي بعض الأغراض الأخرى، إذ استغلَّت وجود سيَّارة عدنان من أجل نقلها، رافقها أخي باسل في هذه المهمَّات الذكوريَّة، التي تتعلَّق بالعتالة وحمل الأشياء الثقيلة. خيَّم الحزن الشديد على الغرفة التي سكنَّاها، لم تكن أمِّي قادرةً على الخروج من الحالة التي دخلتها في أثناء الخروج من المخيَّم، وباتت تترقَّب أخبار المخيَّم، لعلَّ معجزةً تحدث وتعود إلى الحياة التي كانت تعيشها قبل الاقتلاع القاسي، صحيحٌ أنَّها لم تكن راضيةً عن حياتها في المخيَّم، لكن أصبحت تلك الحياة بمنزلة حلمٍ بعد هذا

الرحيل القاسي عليها. ما كان مرفوضًا منها بات مطلبًا لها. بعد خروجنا من المخيَّم عادت لزيارته مرّاتٍ عدَّةً بحجَّتين: الأولى، الاطمئنان على جدِّي الذي رفض الخروج في البداية. والثانية، لإحضار بعض الأغراض وتفقُّد البيت. في كلِّ مرَّةٍ ذهبت إلى هناك، شعرت أنَّها عادت محطَّمةً أكثر من السابق، صرت أرجوها ألَّا تذهب لأنها تعود مريضةً، وتصبح غير قادرةٍ على الوقوف على قدميها لأيَّامٍ عدَّةٍ. لم تتوقَّف عن زيارة المخيَّم إلى اليوم الذي مُنِعَ فيه الدخول إليه نهائيًّا، ذهبت يومها إلى الحاجز هناك، رفضوا إدخالها مع الكثيرين. أخبرهم الحاجز أنَّ أوامر جديدةً جاءت بعدم السماح بالدخول والخروج من وإلى المخيَّم لأيٍّ كان. انتظرتْ هناك مع الآخرين الساعين لدخول المخيَّم لأسبابٍ مختلفةٍ، لعلَّ عناصر الحاجز تشفق عليهم وتدخلهم، كان انتظارها عبثًا. في ذلك اليوم عادت أمِّي من حاجز المخيَّم محطَّمةً أكثر.

بعد الخروج من المخيَّم، كان لقائي الأوَّل مع عاطف حزينًا. عندما اتصل على هاتفي المحمول وطلب منِّي أن أزوره في بيتهم، اعتذرت وقلت: «عاطف أنا ما بقدر هاي الأيَّام أَقرِّب من المخيَّم، وأنت بتعرف وين بيتكو»، قال: «حاسس فيكي. طيب خلِّيني أشوفك بالبلد»، اتفقنا على موعدٍ في مقهى الروضة بالقرب من البرلمان. عندما وصلت إلى هناك، لم يكن عاطف قد وصل بعد، كان المكان مليئًا بالروَّاد، الأراكيل منتشرةٌ في كلِّ مكانٍ، ضحكات الشباب والصبايا تأتي من وسط المقهى، وهو القسم الداخليُّ المخصَّص للشباب. في الوقت الذي يشغل الرجال من كلِّ الأعمار بقيَّة أقسام المقهى، في قسم الشباب الكثير من الفتيات، بينما لم يكن هناك أيُّ امرأةٍ في الأقسام الأخرى، وهناك رجلٌ وامرأةٌ يجلسان بالقرب من أماكن الشباب وكانا الاستثناء. هناك بعض الرجال الذين يظهر عليهم الهمُّ، يجلسون في الأماكن الأخرى، ومثل هؤلاء شاهدتم في واجهة المقهى المطلَّة على شارع العابد، وجوه رجالٍ في سنِّ التقاعد مهمومةٌ وسارحةٌ في عالمٍ

آخر. في المقابل فإنَّ الشباب والفتيات الموجودون في المقهى، لا يظهر على أيٍّ منهم الهمَّ، وكأنَّهم يعيشون في بلدٍ آخر، وليس في بلد تُرتكب فيه جرائم بحقِّ مدنٍ بأكملها يوميًّا. ما جرى في البلد ليس ذنبهم، ولكن لم أستطع تقبُّل أنَّ هؤلاء الشباب لا يستطيعون التعاطف مع الضحايا الذين تُرتكب بحقِّهم المئات من الجرائم كلَّ يومٍ، ليس مطلوبًا منهم الانضمام إلى الثورة، لكن عليهم التعبير عن احترام الضحايا ودمائهم وآلامهم. وزاد قرفي من المكان عندما شاهدت تغريد ابنة خالي عامر وسط مجموعةٍ من الشباب والصبايا تضحك بطريقةٍ صاخبةٍ، وكأنَّها لم تخرج مثلي من المخيَّم قبل أيَّامٍ، وكأنَّ المخيَّم الذي غادرته مع أهلها لم يكن مكانها، ولا يعنيها، أو كأنَّها تحرَّرت منه. كنت أعرف أنَّها أنانيَّةٌ، نحن مواليد العام ذاته، ترعرعنا في البيئة نفسها، أو هكذا ظننت، صحيحٌ أنَّها متعاليةٌ دائمًا، وتحاول أن تعطي لنفسها مكانةً لا تستحقُّها، وهذا ليس شيئًا غريبًا عن فتاةٍ تعتقد أنَّها الأكثر تفوَّقًا بين أقاربها من جهة أمِّها ومن جهة أبيها، لأنَّها استطاعت الدخول إلى كليَّة الهندسة في جامعةٍ خاصَّةٍ، وكان فصلها الأوَّل في الجامعة، مثلما كان فصلي الأوَّل في المعهد. التعالي الذي تعيشه تغريد مرضٌ شبابيٌّ معروفٌ في جيلنا، الكثيرون يدَّعون أهميَّةً للتفاهات التي يحملونها، أو لشكلٍ لا يد لهم فيه أو صنعوه عند طبيب التجميل، أو لملابس اشتروها، هذه الأشياء هي التي تعطيهم قيمةً. لم أفكِّر يومًا في منافستها، مع أنَّها تعتقد غير ذلك، لم يعنيني يومًا ما تدرس؟ وما تلبس؟ ومن هو أبوها أو جدُّها أو أمُّها... الخ. على العكس هي ترى نفسها فوق الجميع، تنتمي إلى مستوًى أعلى، أصابتها خيلاء مريضةٌ لم تشفَ منها. لم أتفق معها بشيءٍ منذ كنَّا أطفالًا، لم تكن علاقتي بها جيِّدةً. اقتصرت على اللعب معًا عندما نكون في زيارة بيت جدِّي، فهم يسكنون هناك، ونجتمع كلَّ أطفال العائلة في بيت جدِّي من أجل اللعب معًا. في المقهى عندما شاهدتها على هذه الحالة، لم أرغب في رؤيتها أو الحديث معها، لذلك تجنَّبت الجلوس في مكانٍ

يمكن أن تراني فيه. انتقلت إلى القسم الأبعد في المقهى بالقرب من الشارع وانتظرت عاطف هناك، الذي يقع على يمين المقهى بقرب الزجاج المطلِّ على الشارع، حتَّى أشاهد عاطف عندما يأتي، وحتَّى لا تحدث أيَّ مصادفةٍ تجعلني أتبادل الحديث معها. ومن مفارقة انتقالي إلى ذلك المكان، أن وجدت نفسي أنتظر عاطف بين العجائز المهمومين، وفي تلك اللحظة شعرت أنِّي أنتمي إليهم وأنِّي بتُّ عجوزًا بروحي المتعبة. عندما حضر عاطف، لوَّحت له بيدي من وراء الزجاج لينتبه إلى مكاني، شاهدني فحضر مسرعًا، تعانقنا في تلك الزاوية من المقهى، قال وهو يبعدني لينظر إليَّ: «خفت عليكي، واشتقتلك كثير»، قلت: «وأنا كمان» نظر حوله وتفقَّد المكان حولنا، سألني: «ليش قاعدة هون؟»، قلت: «ما في شي. ما حبيت المكان، وفيه ناس ما حابه أشوفهم»، قال: «خلص، خلينا نطلع»، قلت: «ماشي» خرجنا من المكان، ومشينا في سوق الصالحية الممتلئ بالناس، وراودني الشعور ذاته الذي راودني في المقهى، إنَّ كلَّ هؤلاء البشر لا يشعرون بما يجري في بلدهم. سألت نفسي وسألت عاطف: «معقول هدلون ما حاسين شو عمبصير بالبلد؟»، قال: «في كثير ناس ما حاسة، وفي كثير ناس واقفة مع السلطة وبتعبد جلَّادها. بس ما فيكي تحكمي على موقف الناس من منظرهم»، سألت: «ليش في ناس مع الجلَّاد؟ مش هم بشر مثلنا؟»، قال: «بشر مثلنا، بس عندهم مصالح، أو إنهم خايفين، بعتقدوا أن النظام أحسن من غيروا، على طريقة اللي بتعرفوا أحسن من اللي بتتعرف عليه»، في تلك اللحظات وأنا بين الناس المشغولة بأمورها الصغيرة، شعرت بجرحي النازف، ظننت أنَّ على الجميع أن يحسُّوا بي وبألمي، وأن يربِّتوا على كتفي ليواسوني بمصابي، وهذه مهمَّة الجميع، وليس عاطف وحده. شعرت كلَّ هؤلاء الناس الذين أقابلهم في الشارع بلا أحساسٍ، ليس من أجل نكبتي الشخصيَّة، أو نكبتنا كعائلةٍ ومكانٍ، بل من أجل ما جرى ويجري في البلد كلِّه. ظننت أنَّ المطلوب من الناس أن تحمل لافتةً تُعبِّر فيها عن مشاعرها ومواقفها. كنت

أعرف أنَّ هذا لا يصلح في البلد، وأنَّ الناس لا تعبِّر عن مشاعرها وتضامنها أو لا تظهرها، لأنَّها يمكن أن تدفع ثمن هذا التضامن حياتها، لكنِّي في تلك اللحظة، رغبت أن يعبِّر الجميع عن مشاعرهم علنًا، لأعرف أنَّهم يدركون ما يجري في البلد من جرائم، أو لأعرف أنَّهم يقفون مع الجلَّاد ولا يرون دماء الضحايا التي تسيل في كلِّ مكان. كنت مجروحةً ومقهورةً وشعرت أنَّ العالم ينكر عليَّ جرحي بتجاهله ويستمرُّ كأنَّ شيئًا لا يحدث. مشينا أنا وعاطف حتَّى ساحة عرنوس في نهاية الصالحية، وهناك اقترح عاطف أن نجلس في كافتيريا «يا مرحبا» المطلَّة على الساحة. عندما جلسنا. نظر عاطف إليَّ وقال: «متغيرة كثير»، ابتسمت ابتسامةً ساخرةً وقلت: «شو بتفكر؟ كان سهل اللي مر عليّ بآخر كم يوم؟»، قال: «ما قصدت، قصدت أنُه ما حدث مأثِّر كثير عليكي. بعرف أنُه صعب، بس الحزن ما رح يحل المشكلة»، قلت: «وشو بتظن بحل المشكلة؟»، قال: «إنُه يرحل النظام، وترجعوا على بيتكو، ويقرّر هذا البلد مستقبلو بحرية»، سألت: «ومن هون لحتى يرحل النظام، شو بنعمل بتشردنا؟»، قال: «أنا ما بقصد أزعجك أبدًا، وبعرف إنك مجروحة. أنا بحبك كثير وما قادر أشوفك على هالحالة»، قلت: «مو إنت السبب بحالتي. أنا ما بلومك. لكن الوضع ببيتنا أصعب مما بتتصور!»، عاد ليقول: «في شي فيكي تغيَّر، واضح على وجهك»، قلت ساخرةً: «بس شي واحد تغيَّر؟ كل شي فيني اتغيَّر، اللي صار كان صدمة إلي»، قال محاولًا أن يخرجني من حالتي: «لا تظلي ساكتة، احكي شو اللي صار، احكي بترتاحي»، قلت: «شو بدي أحكي. اللي شفتُه ما بنحكى. شيء أصعب من أنُه ينحكى. وجعنا ووجع الناس اللي شفتُه ما في كلام بقدر يحكيه. أنا ما عدت بتول اللي بتعرفها، فيني شي مات من اليوم اللي طلعت فيه من المخيَّم، مش لأنُه طلعنا، لأنُه طلعنا بأكثر طريقة مذلة»، قال: «حاسس فيكي. بس بدك تطولي بالك شوية»، ابتسمت ساخرةً وقلت: «بسيطة، إذا بس شوية؟!» سخطي جعلني أدير حوارًا غاضبًا مع عاطف، لم يعرف كيف يجعلني أهدأ وأنا أعبِّر

عن مشاعري، لعلَّ ذلك يجعلني أرى الوضع بطريقةٍ مختلفةٍ. كنت عدوانيَّةً تجاهه، وهو احتملني حتَّى نهاية اللقاء.

بعد أيَّامٍ من هذا اللقاء الجافِّ، اتصل عاطف من رقم هاتفٍ آخر، استغربت أن يتصل بي رقمٌ غريبٌ. عندما فتحت خطَّ الهاتف جاء صوت عاطف يقول: «مرحبا، لازم أشوفك ضروري. وما عندي وقت كثير»، قلت: «شو في احكي؟» قال: «ما بقدر أحكي على التلفون، لازم أشوفك»، كان القلق باديًا في صوته، سرعان ما أصبت بعدوى القلق، من الواضح أنَّ شيئًا كبيرًا حدث معه. قلت: «وين رح شوفك؟»، قال: «رح أعطيكي عنوان مدرسة بجرمانا، وبس توصلي بتلاقيني هناك» لم أتردَّد في الذهاب إليه، كان عليَّ الاطمئنان عليه، فهو الشيء الوحيد الهامُّ في حياتي، وطوال الوقت أخاف أن أخسره لسببٍ أو آخر. استأذنت أمِّي بالخروج، لأنِّي لم أخرج من البيت منذ مقابلتي الأخيرة مع عاطف، لم يكن لديَّ أيُّ رغبةٍ في مقابلة أحدٍ، حاولت أمِّي إقناعي بالخروج من حالتي والذهاب للدوام في المعهد، لم أرغب في الذهاب إلى أيِّ مكانٍ. عندما سمعتني أستأذنها بالخروج رحبَّت فورًا قائلةً: «أي حبيبتي. روحي»، طوال الطريق أتأرجح بين الأفكار السيئة التي غيَّرها لي في البلد. بعد أن تجاوزت عشرات الحواجز التي قطعت أوصال البلد، وثلاث ميكروباصاتٍ حتَّى أصل من صحنايا إلى جرمانا، وهو الطريق الذي كان يحتاج إلى أقلَّ من الساعة للوصول قبل إقامة الحواجز العسكريَّة في المدينة، أصبح يحتاج إلى أربع ساعاتٍ على الأقل للوصول إلى المكان. تحوَّل التنقُّل في البلد إلى جحيمٍ، الركَّاب مستعجلون ومتوتِّرون من طول الزمن على الطريق ومن الجنود المتعبين والمستفزِّين على الحواجز. الجنود المصابون بالملل من روتين عملهم بالتدقيق بالهويات وبالوجوه لعلَّهم يقرؤون جرائم الركَّاب في وجوههم ويقودونهم مباشرةً إلى المعتقل، لذلك كثيرًا ما كانوا يتسلَّون بالناس. كانت الرحلة بين صحنايا وجرمانا تعذيبًا حقيقيًّا. عندما وصلت إلى المدرسة المحدَّدة في جرمانا اتصلت

بعاطف، وقلت له: «مرحبا عاطف. وصلت»، قال: «اسألي عن ساحة السيوف وروحي لهناك»، قلت: «عاطف شو في؟» قال: «طولي بالك. شوي وبشوفك»، قلت بنفاذ صبرٍ: «حاضر»، سألت المارَّة عن ساحة السيوف، دلُّوني على المكان الذي أريد الوصول إليه والذي يبعد حوالي خمسمئة مترٍ. سرت باتجاه الساحة، كانت حركة الناس والسيارات عاديَّةً في الشوارع. بعد حوالي خمس دقائق من المشي وصلت إلى الساحة، تلفتُّ حولي في الساحة لم أرَ عاطف. جاءني شابٌّ وقال: «مرحبا، أنا سعد، صديق عاطف. ممكن تجي معي؟»، قلت: «أهلين. وين عاطف؟» قال: «رايحين لعندو»، استغربت وظهر قلقي على وجهي. قال: «لا تخافي، دقائق بنكون عندُه» فعلًا بعد أن دخلنا في حاراتٍ عدَّةٍ بعيدًا عن الشارع، وجدت نفسي أدخل أنا والشاب على بنايةٍ تقع على زاوية حارتين. صعدنا إلى الطابق الأوَّل، دقَّ سعد على الباب، فتح عاطف، أمسك يدي وأدخلني وعانقني بقوَّةٍ وهو يقول: «أنا آسف، عملت هيك لأنِّي خايف عليكي»، أبعدته عنِّي وقلت له: «عاطف، شو في؟»، قال: «اقعدي. رح أحكيلك كل شيء»، قلت: «جننتني. احكي وخلصني»، قال: «اعتقلوا مازن، وما بعرف إذا اعترف علي»، قلت: «حرقت دمي. مين مازن؟ وعلى شو بدو يعترف؟»، قال: «طيب. اقعدي ورح أحكيلك»، جلست على الصوفا في الصالة وقلت: «وهاي قعدت. تفضل»، قال: «باختصار، إحنا مجموعة أصدقاء، شكَّلنا مجموعة إغاثة، بندعم المناطق المحاصرة في الغوطة بإمداد الدوا، خاصَّة اللي ما بصلها الدوا. قسَّمنا المجموعة، قسمين: الأوَّل، بجمع الدوا من المتبرعين، صيادلة أو أطباء. والقسم الثاني بوصل الدوا إلى المحلات المحاصرة والمحتاجة إلُه، والمناطق هي بتحدد شو الدوا اللي بدها اياه، وبنتواصل معها عن طريق شباب التنسيقيات في المناطق المحاصرة. وأنا واحد من المجموعة المسؤولة عن توصيل الدوا لهاي المناطق. وصلنا دواء إلى المعضمية وداريا وجوبر. قبل أربعة أيام اعتقلت المخابرات صديقي مازن وهو واحد من المجموعة،

مع واحد من شباب التنسيقيات في جوبر. ونحن ما بنعرف شو اعترف وشو ما اعترف. ومن أوَّل ما عرفت إنُه اِعتقل، فورًا تركت البيت. خبَّرت أهلي إنِّي لازم أترك البلد، وما خبرتهم عن السبب الحقيقي حتى ما يقلقوا علي، قلت أنا خايف وما بدي ظل في البلد، وطلبت من أبي يتأكَّد من معارفه، إذا كنت مطلوب لأي جهة أمنية وتحديدًا لأمن القوى الجوية في المطار. وأنا هلأ، ما بعرف شو بدي أعمل، عبنتظر خبر من أبوي، حتى أغادر لمصر عن طريق المطار، خلينا بس نشوف إذا مطلوب بالمطار ولا لأ. وأنا رح أنتظر يومين لأشوف شو رح يصير مع أبي. وإذا راحت المخابرات على بيت أهلي، مضطر أهرب للمناطق اللي طلع منها النظام. هاي كل القصة. باختصار. منشان هيك قلت أشوفك، ولأنُه مازن بعرف كل شي عني، حتى عن علاقتي فيكي. أخذنا هاي الاحتياطات، خفت تكوني مراقبة. أنا غامرت وشفتك، وهاي آخر مرة رح شوفك فيها، حتى ما أعرضك لأي خطر. وما رح أتصل فيكي حتى أكون بأمان»، كنت أسمع كلماته وأهوي، لم أكن قادرةً على تحمُّل خسارةٍ أخرى لي إلَّا هو، لم أعرف ما أقول، أصابني الرعب من فكرة خسارته، فقلت: «عاطف، اطلع من البلد. ما رح أقدر أتحمَّل يصرلك شي. أنت كل شي إلي بهاي الدنيا»، قال: «وأنت كل شي إلي بالدنيا»، تأمَّلته طويلًا، أخذت رأسه بين بيديَّ، نظرت طويلًا في عينيه المرتبكتين، كأنَّه ارتكب ذنبًا بحقِّي، لم ألمه على ما فعل، كنت خائفةً، كما لم أكن خائفةً من قبل. أسندت رأسه على صدري، وبدأت بالبكاء. رفع رأسه، مسح دموعي بأصابعه عن خدي، وقال: «ما تبكي، دموعك غالية عليّ» شعرت بخوفه، دمَّرتني فكرة أن يُعتَقَل عاطف بعد الأخبار التي تسرَّبت من المعتقلات عن الوحشيَّة التي تمارس على المعتقلين، إذ استشهد المئات وبعضهم يقول الآلاف تحت التعذيب. لم يكن خائفًا على نفسه، بل على عائلته، وعليَّ طبعًا. عندما خرجت من ذلك اللقاء وأنا أرفض فكرة أنَّها آخر مرَّةٍ سوف أراه فيها، قلت لنفسي: «رح ينفد، ورح نجتمع عن قريب»، وعَددتُ هذه

نبوءةً وتعاملت معها على أساس أنَّها ستتحقَّق، لكن هذا لم يمنع تسرُّب الخوف إليَّ، وفي كوابيسي كنت أرى عاطف في المعتقل يصرخ تحت التعذيب، أعود وأكذِّب نفسي وأكرِّر نبوءتي: «رح ينفد، ورح نجتمع عن قريب» بعد أسبوعٍ رنَّ هاتفي المحمول برقمٍ غريبٍ ومن خارج البلد، وأنا لا أعرف أحدًا خارج البلد، ولم أعرف من أيِّ بلدٍ جاء الاتصال، لأنِّي لا أعرف إلى أيِّ بلدٍ يعود الرمز الدوليُّ للرقم. تركت الهاتف ينهي رنينه ولم أجب، لأنِّي ظننت أنَّ المتصل قد أخطأ بالرقم. عندما عاد الرقم ذاته للاتصال من جديدٍ، تأكَّدت أنَّ الاتصال لي، وليس هناك أيُّ خطإٍ، فتحت الخط وقلت: «ألو» عندما قال المتصل: «ألو» عرفت صوت عاطف، وعرفت أنَّه أصبح خارج البلد، قبل أن يتفوَّه بأيِّ كلمةٍ أخرى، طرت من الفرح وهو يقول: «أنا وصلت على القاهرة من شوي» كان خبرًا سعيدًا، فرحت لنجاته، وأنا التي لم أعرف الفرح منذ بدأت الاحتجاجات في البلد، بسبب الآلام التي لا تنتهي التي سبَّبها القمع للناس في كلِّ مكانٍ في البلد. حتَّى بعد أن فرَّ خارج البلد لم يختفِ اعتقال عاطف من كوابيسي. توقَّعت أن يداهم الأمن منزلهم، ولكن خلال الأشهر اللاحقة لم يحدث شيءٌ من هذا.

أرهقتني مشاعري المتناقضة تجاه سفر عاطف، كنت سعيدةً بمغادرته البلد وهناك خطرٌ عليه، وفي الوقت ذاته ترك سفره فراغًا لا يملأه أحدٌ، خسارتي هائلةٌ بسفره، وما زالت أوضاع البلد في تردٍّ، هذا ما جعل عودته إلى البلد تبتعد أكثر. كان الوضع في مصر جيِّدًا، مع الكثير من السوريِّين الذين فرُّوا إلى هناك. وجد عاطف عملًا كبائعٍ في محلِّ ألبسةٍ لماركاتٍ أجنبيَّة في سوقٍ كبيرٍ في مصر بالقرب من سكنه في مدينة ستة أكتوبر، اسمه «مول العرب» وهو ما خفَّف العبء المالي عن أهله الذين يرسلون له المال إلى هناك. كما وجد عاطف بيئةً للتحرُّك من أجل الثورة السوريَّة في المكان الذي أطاح فيه الشعب المصريُّ برئيسه بعد ثورة 25 يناير، وما زال يخوض مسارًا عسيرًا، كان جوُّ الحريَّة هناك مناسبًا لعاطف. حتَّى لا يشكِّل خطرًا

على أهله، أخذ يتحرّك تحت اسمٍ مستعارٍ، وهو: علي درويش وهو اسمٌ حقيقيٌّ لصديق عاطف الذي استشهد في بداية الثورة في حرستا.

بعد جلوسي من دون أيِّ عملٍ أو دراسةٍ لمدَّة شهرٍ في المنزل، وجدت نفسي أغرق كلَّ يومٍ أكثر في أحزاني، وأنَّ جلوسي في البيت أتأمَّل الجدران لن يحلَّ أيَّ مشكلةٍ. تحت إلحاح أمِّي القريبة منِّي، وعاطف البعيد عنِّي، عدت إلى دوامي في المعهد. حاولت إيجاد عملٍ إلى جانب دراستي، أو حتَّى بديلًا عنها حتَّى أستطيع مساعدة أهلي، كان بحثي بلا جدوى، فلا أعمال للرجال في البلد، فكيف حال النساء؟! لم يبقِ لي سوى المعهد أنتهي من دراسته، لعل شهادتي تُحسِّن من فرصتي في ايجاد عملٍ. ساعدتني اتصالات عاطف من القاهرة في تحمُّل ما أنا عليه، تحدَّثنا طويلًا عن كلِّ شيءٍ، وهي ميزةٌ وفَّرتها وسائل اتصال الانترنت، شعرت أنَّه يقف إلى جانبي رغم بعده عنِّي، وعندما أشتاق إليه أزور أهله، صحيحٌ أنا وأخته عبلة افترقنا في الدراسة بعد الشهادة الثانويَّة، فهي اختارت أن تدرس في معهد التحليل المخبريِّ، لكنَّنا بقينا صديقتين، وهي الوحيدة التي كنت أستطيع التحدُّث معها بكلِّ ما يجول في خاطري. أبكي بين ذراعيها لأخفِّف من احتقاني الداخليِّ، وأعود من جديدٍ لقسوة العالم الذي أعيشه. هناك سببٌ آخر لزيارة أهل عاطف، لأنِّي أرغب في عناق أمِّه لأشمَّ رائحته. لا أعرف لماذا كلَّما عانقت أمَّه، أشمُّ رائحته، ليس هناك تشابه بين رائحة أمِّه ورائحته، لكن كلَّما احتضنتها، تحضرني رائحته، وهو ما يخفِّف من توتُّري، رائحة عاطف والحديث مع عبلة للتخلُّص من أعبائي، كانا دوائي الذي أحتاجه، مرَّةً كلَّ أسبوعٍ أو أسبوعين على الأقل. لم أشرح لعاطف أيَّ ظروفٍ صعبةٍ نعيشها، حتَّى لا أزيد عليه في غربته، ولم أرغب في أن أقضي مكالماتي معه بالشكوى. وهو لم يحاول إزعاجي بمتاعبه في القاهرة، حتَّى لا يزيد عليَّ أوجاعي في دمشق. في شقَّتنا البائسة، التي نسكنها مع أعمامي وعمَّتي، ازدادت الأوضاع سوءًا، أمِّي وعمَّتي على وفاقٍ، لكنَّهما ليستا على وفاقٍ مع

زوجات أعمامي، فعل الضيق فعله في الجميع، فالعائلات الأربعة التي تعيش في هذه الشقَّة الصغيرة، أوضاعها متشابهةٌ ببؤسها، عائلاتٌ مشرَّدةٌ تركت منازلها في المخيَّم بعد ما جرى هناك، أوضاعهم المعيشيَّة متقاربةٌ، ليس بينهم من يستطيع الخروج من هذا الفخِّ الذي يشعر نفسه عالقًا به، لا يملكون قدراتٍ ماليَّةً تمكِّنهم من الاستقلال ببيوتٍ مستأجرةٍ، باتت أجرة البيوت مرتفعةً جدًّا، وكلُّ عائلةٍ تعتمد على أحدٍ يساعدها، لكنَّ هذه المساعدة مع مساعدات الأونروا، لا تُمكِّن أيًّا من هذه العائلات من الاستقلال، أو حتَّى أن تستقلَّ عائلتان لتخفيف الضغط الذي يشعرون به في المكان. ما جعل الأمر في غاية السوء، أنَّ مجموعةً مسلَّحةً في المخيَّم خطفت عمِّي أحمد، عندما كان في زيارةٍ للمخيَّم المحاصر بوصفه عضوًا في لجنةٍ تعمل على المصالحة هناك، لعلَّهم ينجحون في إعادة الناس إلى المخيَّم، فرغم كلِّ الظروف القاهرة كان عمِّي أحمد متفائلًا، وتفاؤله نابعٌ من طيبته، وهو يصدِّق الناس بسرعةٍ، وهذا ما جعله يقع بسهولةٍ بيد هذه المجموعة. آمن أنَّه والآخرين يمكنهم أن يعيدوا الناس إلى بيوتهم في المخيَّم إذا خَلُصَت النوايا، لا أعرف إذا كان أحدٌ غيره في اللجنة مخلصًا في نواياه. لم يعرف أحدٌ لمن تتبع المجموعة التي اختطفته، وبعد اختفائه لثلاثة أيَّامٍ، تبيَّن أنَّه اختُطف من أجل المال ليس إلَّا. وكانت أوضاع الجميع في غاية الرداءة، من أين يمكن تأمين عشرة آلاف دولار لهذه المجموعة؟ وهو مطلبها لإطلاق سراح عمِّي أحمد، أو أنَّ مصيره سيكون القتل لأنَّه «مخبر للنظام» كان المطلب صادمًا للعائلة، لأنَّ العائلات الأربع التي تعيش في بيت اللجوء في صحنايا لا تملك هذا المبلغ، حتَّى لو باعت كلَّ ما تملك. كان الموقف صعبًا، وحار أعمامي الآخرين الذين يعيشون معنا، كيف يتدبَّرون المبلغ الذي تطلبه المجموعة المسلَّحة. أعمامي الآخرون الذين لا يسكنون معنا هم الوحيدون القادرون على دفع المبلغ، لكنَّهم ليسوا مستعدِّين لذلك، وبعد التضييق عليهم والرجاءات، دفعوا جزءًا صغيرًا من المبلغ،

وتكفَّل أصدقاء عمِّي بالباقي، وفهمت أنَّ هناك مبلغًا قد أسهم به أبي تدبَّرته أمِّي، لكن لم أعرف قيمته بالضبط. كنَّا خائفين على عمِّي، لأنَّ هناك من خطفته المجموعات المسلَّحة، وطلبت فديةً، لكن بعد دفع الفدية، وُجِدَ المخطوف مقتولًا في مكانٍ ما، وقد بدأت عمليَّات الخطف من أجل المال قبل الخروج من المخيَّم، وخُطِفَ العديد من الأشخاص في أماكن مختلفةٍ، لكن غالبًا ما استهدفت هذه العمليَّات أناسًا أغنياء يملكون هم أو أولادهم المال. لم يُعرَف عن عمي أنَّه رجلٌ غنيٌّ ومن الغريب اختطافه من أجل المال. تبرَّع أحد أصدقاء عمي في لجنة المصالحة، أن يسلِّم المبلغ إلى الخاطفين ويُخرِجَ عمي من المخيَّم، وقد تمكَّن من ذلك، عاد عمِّي إلينا سالـمًا. الغريب أنَّه لم يكفَّ عن تفاؤله، وتعهَّد أن يعيد المال لكلِّ من أسهم في المبلغ الذي اشترى فيه حريَّته.

أعرف أنَّ أمِّي وعمَّتي، فكَّرتا عشرات المرَّات، وحسبتا إمكانيَّاتهما الماديَّة من أجل أن تستقلَّا عن الجحيم الذي تعيشان فيه، وفي كلِّ مرَّةٍ فعلتا ذلك خذلتهما إمكانيَّاتهما، والحلُّ هو أن تبقيا عالقتين مع الأخريات في الشقَّة ذاتها التي تعدَّانها سجنهما. أبي الذي خسر عمله مع انطلاق الاحتجاجات، لأنَّ المعمل الذي يعمل فيه أغلق أبوابه ببساطةٍ وانتقل صاحبه إلى بلدٍ آخر. وهذا ما جعل وضعنا في غاية الصعوبة، فعندما كان عندنا بيتًا وأبي يعمل، وتأتينا بعض المساعدات من هنا وهناك، كنَّا نعيش الكفاف، لم يملك أهلي وفرًا ماليًّا، لذلك عندما توقَّف أبي عن العمل، أصبحنا مفلسين مباشرةً. وجاء الرحيل من المخيَّم ليزيد الطين بلَّةً، ويجعل الوضع كارثيًّا، صحيحٌ أنَّ خالتي سمر زادت مساعدتها قليلًا، لكنَّ الاحتياجات بعد الرحيل أصبحت أكبر من أن تغطِّيها مساعدات خالتي سمر، لأمِّي وخالتي وأخوالي. لم يكن أمام أبي سوى الهرب من هذا الوضع، بالبقاء خارج المنزل أغلب الأوقات، حتَّى لا يشعر بالعجز تجاهنا وهو مجسَّدٌ أمامه فينا. شعرت بالألم الذي يحسُّ به، لامته أمِّي بنظراتها، ومن دون كلامٍ، كانت

وحدها كافيةً لهربه من لسعها. لم يكن أمام أمِّي أحدٌ تلومه غير أبي، ولأنَّ أبي كفَّ عن الصدام معها بعد الحالة التي أصبحنا عليها، أصبح يفضِّل الهرب، وهو ما أراح أمِّي أيضًا. زاد تدخينه كثيرًا عن السابق، كاد لا يلقي السيجارة من يده، حتَّى أنَّ أمِّي استغربت من أين يحصل على ثمن الدخَّان وهو المفلس، وهذا السرُّ لم نعرفه، ولم تتجرَّأ أمِّي على سؤاله حتَّى لا ينفجر فيها، وتبدو أنَّها تلاحقه على الشيء الوحيد الذي يساعده على الهرب من واقع، يحتاج إلى حشيش للهرب منه وليس إلى دخانٍ فقط. وما ساعد أبي على هذا الهرب، الحال المماثل لزوج عمَّتي منال. فهو أيضًا وجد نفسه بلا عملٍ مع بداية الأحداث، كما وجد نفسه معنا في البيت ذاته، ولشعوره بالعجز مثل أبي وجد به رفيقًا في الهرب من الواقع الذي يعيشونه. ويبدو أنَّ علاقتهما أصبحت أقوى من الأوَّل بحكم البقاء معًا طوال الوقت. أحيانا يختفيان ليومين أو أكثر، يتركان خبر أنَّهم سيغيبان لبعض الوقت، ولم تكن أمِّي أو عمَّتي منال تحتجُّ على ذلك، بل على العكس غيابهما يترك اتساعًا أفضل في البيت. ويبدو أنَّ اختفاءهما له علاقةٌ بعملٍ ما يقومان به من دون أن يصرِّحا به، لأنَّهما بعد هذا الاختفاء تتحسَّن حالتهما النفسيَّة قليلًا ويقدِّمان بعض المال للبيت، من دون أن يفصحا من أين حصلا على هذا المال، وعندما تُضيِّق أمِّي وعمَّتي منال عليهما، يقولان إنَّهما استداناه من أصدقاء. طبعًا لا تصدِّقان ما يقولان، ولكنَّهما يتجنَّبنَ صدامًا معهما. حاولت أمِّي وعمَّتي على انفراد معرفة من أين يأتيان بالمال، وماذا يعملان عندما يختفيان، لم تنجحا في معرفة شيءٍ عن هذا الموضوع، وبقي ما يقومان به سرًا علينا.

سارت الأيَّام بطيئةً والكوارث تأتي من كلِّ حدبٍ وصوبٍ وتزداد من حولنا، وكلُّ يومٍ يزداد الوضع في البلد صعوبةً وخطورةً، ولا أحد يعرف ما يفعل في اليوم التالي، وبات سؤال ما العمل؟ ملحًّا لتجاوز هذه الأوضاع، والبعض الذي كان يملك الأمل في هدوء الوضع، والعودة إلى الزمن السابق

على الثورة بات يتلاشى، وظهر الصراع بلا نهايةٍ حاسمةٍ، صراعٌ دمويٌّ إلى الأبد. وبعد أن غادر سكَّان المناطق المنكوبة في رحلات لجوءٍ إلى دول الجوار أو إلى مصر، ازدادت أعداد المغادرين وبات الجميع يريد مغادرة البلد، والذهاب أبعد من الدول المجاورة. غادر خالي عامر مع عائلته إلى ماليزيا لعلَّه يجد طريقًا من هناك إلى مكانٍ آخر، وغادر عددٌ من أفراد عائلة أمِّي وعائلة أبي ما بين مصر وتركيا ودول الخليج. في أثناء اتصالٍ اعتياديٍّ مع عاطف، قال لي: «أنا تعبت من الشغل، طالبين منَّا شغل إضافي، بشغلونا مثل العبيد. حتَّى صرت مش قادر أرد على التلفون»، قلت: «طول بالك الوضع صعب. بس بالآخر رح ينتهي إن شاء الله»، قال: «إن شاء الله، حبيبتي إذا ما رديت على تلفونك، لا تقلقي بكون مشغول. وبس يصحلي برجع بدقلك»، قلت: «لا يهمك. أنا ما بدي كون ثقيلة عليك. رد براحتك»، حاول أن يكون طبيعيًّا في المكالمة، كانت لهجته غريبةً ما أثار ريبتي، قلت: «حبيبي عاطف، في شي مخبي علي، وما بدك تقولو؟»، قال: «أبدًا، فقط ضغط الشغل، إحساس الوحدة الصعب»، قلت: «خير. إن شاء الله خير. دير بالك على حالك. أنا بخاف عليك كثير. وما بتخيل الدنيا من دونك»، قال ورنة البكاء في صوته: «وأنا بحبك كثير.. كثير.. أكثر ما بتتصوري»، وتحشرج صوته. سألته: «عاطف إنت عبتبكي؟»، قال بصوتٍ مرتبكٍ: «لا.. لا.. ليش بدي أبكي؟!» لم يكن طبيعيًّا في المكالمة، لم أرغب في الضغط عليه من أجل أن يقول ما لا يرغب في قوله، فأنهيت المكالمة لأنِّي شعرت أنَّه ليس قادرًا على إكمالها. لم اتصل به خلال الأيَّام الثلاثة التالية حتَّى لا أزعجه، وتوقَّعت أن يتصل هو ليطمئن عليَّ. لكنَّ هذا لم يحدث، استعدت المكالمة الأخيرة بيننا، شعرت أنَّه كان يعرف أنَّ هناك شيءٌ قادمٌ لم يرد أن يخبرني إيَّاه، والآن لا يتصل بعد ثلاثة أيَّامٍ وهذا لم يحدث منذ سافر إلى القاهرة قبل عامٍ، كان يتصل يوميًّا، وأحيانًا ثلاثة وأربع مرَّاتٍ. في اليوم الثالث كنت أحتاج كلَّ قوَّة الدنيا حتَّى أمنع نفسي من الاتصال به، عندما رنَّ هاتفي المحمول وكانت

أخته عليا على الطرف الثاني، بعد السؤال عن الأحوال، سألت: «عاطف عبيتصل فيكي؟»، قلت «لأ. صرلوا ثلاث أيام ما اتصل. خير في شي؟»، قالت: «أنا ما كنت حابة خبرك، صرلنا ثلاثة أيام بنتصل فيه، موبايلُه مغلق أو خارج التغطية. وأمي وأبوي قلقانين عليه، سألنا أصدقائه ما حدا بعرف عنُه شي»، قلت: «سكري.. سكري» قطعت المكالمة مع عليا واتصلت به فورًا، أتاني الردُّ الآلي، بأنَّ الموبايل مغلق أو خارج نطاق التغطيَّة. أعدت الاتصال عشرات المرَّات، وكلَّ مرَّةٍ ترتفع حرارتي وقلقي أكثر. طوال الأيَّام التالي، لم يكن لي عملٌ سوى الاتصال بهاتفه، لعلِّي اسمع صوته على الطرف الثاني، وكلُّ يومٍ يزداد خوفي عليه. بدأت الأسئلة تأكلني، لا يعقل أنَّه لا يردُّ على هاتفه لأنَّه مشغولٌ؟ ما الذي جرى معه، هل اعتقل في مصر ولا أحد يعرف عنه شيئًا؟ هل اختفى بسبب جريمةٍ ارتكبت بحقِّه؟ وفي النهاية أصبح السؤال هل هو حيٌّ؟ أسبوعٌ وأنا أسمع الصوت الآلي ذاته على الهاتف، أريد أن أعرف ما جرى معه، أيُّ خبرٍ عن مصيره، هذا الاختفاء مرعبٌ أكثر من الحرب ذاتها، أين اختفى؟ ومن أخفاه؟ لم يكن قلق أمِّه وأبيه أقلَّ من قلقي، حاروا كما احترت في تفسير ما يجري، وأصبحت أقضي جلَّ وقتي عندهم لعلَّ خبرًا ما يُطمئنني ويطمئنهم على مصيره. أكلني القلق، اختفى عاطف من دون أن يترك أثرًا، لا أحد يعرف ما الذي جرى معه، كنت آخر من تحدَّث معه، لم تعجبني لهجته، لم أجرؤ على سؤال نفسي، هل انتحر؟ لم أظنَّ أنَّ شخصًا مثل عاطف يمكن أن ينتحر، لغزٌ غير قابلٍ للحلِّ، ماذا سنفعل؟ فكَّر أبوه بالذهاب إلى القاهرة للبحث عنه، لكنَّ الانقلاب الذي حصل بعد الثورة وأطاح بالرئيس محمد مرسي وجلب عبد الفتاح السيسي إلى الحكم، منع السوريِّين من الدخول إلى مصر، بعد أن سمح لهم بالدخول السهل إلى مصر بعد ثورة 25 يناير. كلُّ محاولات أبي عاطف للدخول إلى مصر باءت بالفشل. وكلُّ معارفه في مصر الذين طلب منهم أن يسألوا عن عاطف، لم يأتوا بأيِّ معلومةٍ مفيدةٍ، اختفى عاطف بلا أثرٍ. بعد أسبوعين

بدأت أفقد الأمل بظهور عاطف من جديدٍ، وبدأت أخفِّف من زيارتي لأهله، لأنِّي شعرت أنِّي أثقل عليهم، ووجودي يذكِّرهم بعاطف طوال الوقت، وعندما تتصل عليا، وتقول إنَّ أبوها وأمَّها يسألان عنِّي، أعتذر منها، أقول إنِّي مشغولةٌ مع أمِّي المريضة، وهي لم تكن كذلك، أو أيَّ حجَّةٍ أخرى. أصابني اليأس، وصورة عاطف لا تغيب عن مخيَّلتي، وأسأل نفسي هل هرب من مصيره هنا، ليلاقي ذات المصير هناك، هرب من المعتقل الذي كان يمكن أن يقضي فيه، إلى بلدٍ أخر حتَّى يقضي هناك، ولا نعرف ما الذي جرى، ولا نرى جثمانه حتَّى نتأكَّد أنَّه هو. ازدادت الأفكار السيِّئة، ولم أكن قادرةً على استحضار مصيرٍ إيجابيٍّ لعاطف يجعلني أتفاءل. عندما رنَّ هاتفي المحمول، ورفعته لأنظر إلى اسم المتصل تجمدت في مكاني، اسم عاطف على الشاشة، أنظر إلى الشاشة وأنا متجمِّدةٌ كتمثال، أنظر من دون أن أردَّ على المكالمة. أصبت بالرعب خفت من المكالمة، كنت أشاهد اسم عاطف، خفت أن أردَّ وألَّا يكون هو. انتهت الرنَّة، وتحوَّلت شاشة الهاتف إلى السواد من جديدٍ، وأنا على حالي كتمثالٍ لا حياة فيه. عندما رنَّ هاتفي مرَّةً أخرى بعد دقيقتين، سرعان ما فتحت الخط، وقلت: «ألو» جاء صوت عاطف متعبًا من الجهة الأخرى: «بتول، اسمعني، أنا بخير. هلأ وصلت إيطاليا. ضعنا بالبحر، صرلنا أسبوعين. صرلي ساعة بحاول أتصل فيكي أو بأهلي. اتصلي بأهلي وطمنيهم عنِّي»، لم افهم ما يقول، ولم أصدِّق، وشككت بأن يكون هذا الصوت المتعب صوت عاطف. قلت: «ما فهمت، شو قلت؟»، قال: «منشان الله بتول ما في وقت أشرحلك، بشرحلك بعدين»، قلت بغضب: «شو اللي أخذك على إيطاليا، بدي أعرف شو أقول لأهلك؟»، قال: «أجيت برحلة تهريب من الإسكندريَّة»، فقدت أعصابي وبدأت أصرخ: «يلعن دينك، بدك تموتني، ليش ما بتحكي، صرلنا أسبوعين ما بنعرف شو صار معك. أنت مجنون حتَّى تعمل هيك وما تخبر حدا. لك شو أنت ما بتفهم، وما بتقدر شو رح يصير فيني وبأهلك...»، قال مقاطعاً: «ما كنت

متوقِّع يصير هيك.. أنا...»، أغلقت الخطَّ بوجهه وأنا أتمزَّق غضبًا للسلوك الأحمق الذي أقدم عليه، ولم أعد أردُّ على الهاتف عندما يتصل. لكن سرعان ما سيطرت على غضبي لأطمئن أهل عاطف. اتصلت بعليا وأخبرتها، أنَّ عاطف ذهب في رحلة تهريبٍ من مصر ووصل إلى إيطاليا مع الذين يحاولون العبور إلى الضفَّة الأخرى من المتوسط، وطلبت منها أن تخبر أهلها، ليطمئنوا عليه. قالت عليا «شو هالجنان؟» أغلقت الهاتف وذهبت هي لتخبر أباها وأمَّها. وعدت أنا إلى غضبي، لأنتبه إلى أمِّي أمامي وتسألني: «على مين بتصرخي؟» قلت: «ما حدا» قالت: «مو اللي بالبيت سمعك بس، كل الحارة سمعتك، وبتقوليلي ما في شي» قلت: «أمي اتركيني بحالي»، وخرجت من البيت أمام دهشتها.

لم أستطيع أن أسامحه على ما فعله بي في هذه الأيَّام الطويلة التي اختفى خلالها، لم يكن غضب أهله أقلَّ. ليس من المنطقي، أن يُقدِمَ الشخص على حماقةٍ كبرى مثل هذه من دون أن يخبر أحبَّته، ولا تصلح ذريعة أن يقول: «أنا ما كان بدي تخافوا عليّ، منشان هيك ما قلت لحدا»، ونحن في هذه الأيَّام المرعبة، خفنا أكثر ألف مرَّةٍ من لو كان أخبرنا بالحماقة التي سيرتكبها، سنقلق بالتأكيد، وسنحاول أنا أو أمُّه أو أبوه ثنية عن الذهاب في هذه الرحلة الخطرة، لا شيء يسوِّغ الحماقة التي ارتكبها، وجعلني لا أترك مصيرًا أسود له إلَّا وفكَّرت فيه وجاءني في كوابيسي التي تزايدت بسبب اختفائه. فلو أخبرني لعرفت في أيِّ أرضٍ سيكون، ولو أخبرنا وحاولنا ثنية أنا أو أهله، وأصرَّ وجازف برحلة الخطر هذه، لكنَّا على الأقل عرفنا ما يفعل، وكنت بالتأكيد خفت عليه، وأصبحت أتتبَّع الخبر عن مصائر قوارب التهريب بين الإسكندرية وإيطاليا، لا أن تخطر لي احتمالاتٌ لا نهاية لها، جريمةٌ، اعتقالٌ، انتحارٌ، قتلٌ... لم أقبل حجَّته بأنَّه أخفى عنِّي الأمر، لأنَّه لم يُرِد إزعاجي. لم أرغب في التحدُّث إليه، رغم الاتصالات المتكرِّرة، وعندما أجبت على اتصاله سألته: «بعملتك هاي جنبتني الإزعاج،

أنت مو جنبتني الإزعاج، إنت دخلتني على الرعب. مش قادرة أسامحك. أنت بتحبني ولا بتعاقبني؟ مش عارفة إنت شو دين ربك؟»، قال: «أنا آسف، لم أتوقَّع أن نضيع بالبحر»، قلت: «يا بني آدم. حتى لو ما ضعتوا. الرحلة مدتها أسبوع، يعني اختفاءك أسبوع رح يكون سهل، من دون ما أعرف عنك شي، أنت ميِّت ولا طيِّب؟»، قال: «طيِّب خلص. من شان الله خلص، هيك صار ومش عارف ليش هيك عملت. وأنا ما بتحمَّل تكونوا كلكم زعلانين منِّي. أنت وأمِّي وأبوي وعليا. يعني شو أعمل هلأ؟»، قلت: «والله ما بعرف، لما تعذِّب اللي بحبوك بطريقة قاسية، لا تتوقَّع إنهم يطبطبوا على كتفك، لأنَّك أرعبتهم. الطبيعي إنهم ياخذوا موقف قاسي منك، منشان اللي سويتو فيهم»، قال: «طيِّب. غلطت ومنك السماح»، قلت: «بهاي البساطة، شو عبتضحك عليّ؟!»، كنت غاضبةً لم أقبل اعتذاراته المتكرِّرة، وكلَّما فتح الموضوع من جديدٍ، أشعر نفسي أغلي من الموقف المرعب الذي وضعني فيه. مع الوقت بدأت أهدأ، تجاوزت الموقف، رغم أنِّي لم أقتنع بالمسوِّغات التي ساقها. وعندما فكَّرت في الموضوع من زاويةٍ أخرى، وجدت أنَّه محقٌّ فيما فعل، ليس لأنَّه لم يخبرني، لكن لأنَّه اختار أن يقطع البحر إلى الجهة الأخرى من المتوسِّط، البلد التي دخلت في دوَّامة من الصراع لا تنتهي، بات مستقبلها مظلمًا، والخيار بالذهاب للبحث عن حياةٍ أخرى في بلدٍ آخر، هو خيارٌ صحيحٌ لوقف التداعي في حياة عاطف، ليس هناك ما يفعله في مصر، وليس له مستقبلٌ، وليس له مستقبلٌ هنا، فخيار البحث عن مستقبلٍ في مكانٍ جديدٍ هو الحلُّ الأفضل. أهل عاطف سامحوه أسرع منِّي، فهو ابنهم الوحيد الطيِّب، الذي يرتكب الحماقات، وليس أمامهم سوى مسامحته والاستمرار في الحياة، وكانوا سعداء لنجاة ابنهم وعبوره إلى أوروبا، لن يشجعوه على ذلك لو عرفوا أنَّه سيفعل ذلك، لكن بما أنَّه فعلها فهذا خبرٌ سعيدٌ بالنسبة لهم، رغم الخوف الذي سبَّبه لهم، فهو سبَّبه لهم عندما كان في البلد، وأيَّد الثورة وانخرط فيها، لدرجة

التهديد بالاعتقال الذي نجا منه بالهرب إلى مصر، نجا عاطف النجاة الكبرى بوصوله إلى هناك. أُحبط عاطف حينما وصل إلى هولندا وقدَّم طلب اللجوء، بعد تعب الرحلة والصحو من القرار الذي اتخذه ونفَّذه سريعًا، لم يعِ نفسه إلَّا وهو في البحر، ولم يفكِّر بالقرار، بقدر ما فكَّر في الخلاص من رحلة التيه التي وجد نفسه فيها، وعندما وصل إلى ايطاليا، حار أن يذهب إلى ألمانيا أو إلى هولندا، وكان خياره أن يذهب إلى هولندا قرار اللحظة الأخيرة، قال لنفسه إنَّه سيذهب إلى هولندا، إذا أُخِذَت بصماته في ألمانيا سيبقى فيها، إذا وصل هولندا من دون أن يبصم في أيِّ بلدٍ آخر، سيقدِّم لجوأه هناك. ولكن عندما وصل أحسَّ بالندم، سأل نفسه: «ما الذي أفعله هنا؟» لم يكن يملك إجابةً عندما ألحَّ عليه السؤال، ولم يهدأ، سوى عندما طرح على نفسه السؤال المعاكس، «ما الذي كان يمكن أن أفعله هناك؟» أصبحت حالته أفضل وأكثر توازنًا، عندما حصل على الإقامة، وبدأ ترتيب أوضاعه هناك، من دراسة اللغة والبحث عن عملٍ سرعان ما وجده بعد عامٍ من رحلته الخطرة.

ذهب كلُّ شيءٍ بالاتجاه الأصعب، لم يكن عاطف الوحيد الذي ابتعد أكثر، بل حتَّى أمِّي التي أعيش معها في الغرفة نفسها، أصبحت أبعد، أخي يكبر بلا مستقبلٍ. تلاشت حماسته للثورة بعد الخروج من المخيَّم، أختي حزينةٌ طوال الوقت، دخل أبي حالة اكتئابٍ لا يخرج منها، مثل كثيرٍ من الرجال الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن فعل شيءٍ لعائلاتهم ولأنفسهم. عمَّتي وزوجها، أعمامي وزوجاتهم وأولادهم، الكلُّ في دوامةٍ لا نهاية لها. لا أحد يعرف ماذا يفعل؟ الكل ينتظر معجزةً للخروج من الوضع، لكنَّها ترفض أن تأتي. رغم ذلك مرَّ الوقت بسرعةٍ، عبرت الأيَّام فوق آلامنا بسرعةٍ رهيبةٍ، خسرنا فيها أعمارنا. وجدت نفسي أنتهي من دراسة المعهد وأدخل في دوامة البحث عن عملٍ بلا جدوى، وأصبح أخي في نهاية المرحلة الثانويَّة من دون أن ننتبه، وأختي تجاوزت امتحان الشهادة الثانويَّة، من دون أن

تحصل على فرصة الدخول إلى الجامعة أو إلى معهدٍ من المعاهد، وفجأةً وضعتْ الحجاب على رأسها من دون سابق إنذارٍ، لا أعرف من أين جاءتها الأفكار الدينيَّة فجأةً، يبدو بتأثير صديقتها المحجَّبة. لم يكن أبي محافظًا، ولم يطلب منَّا يومًا وضع الحجاب، صحيحٌ أنَّ أمِّي أصبحت تضع ما يشبه الحجاب على رأسها، لم يكن حجابًا جدِّيًّا، وكثيرًا ما كانت تتنقل من دونه، ولم يعكس تديُّنًا عندها، فلم تكن تصلِّي باستمرارٍ، وأحيانًا لا تصوم. أمَّا عند أختي كان تديُّنًا حقيقيًّا، والتزمت بكلِّ الفروض الدينيَّة، ناقشتها كثيرًا، وفهمت أنَّها تهرب من واقعنا إلى التديُّن لأنَّها ترى فيه مخرجًا من واقع الحال، فتفسيرها أنَّ الله يمتحننا في هذه الظروف الصعبة التي نمرُّ بها. بالتأكيد لم تكن الكلمات كلماتها، كانت كلماتٍ منقولةً عن أحدٍ آخر تثق به. كلامٌ يريحها ومنطقه سهلٌ عليها، فهو يقول ليس لنا مسؤوليَّةً فيما يجري، إنَّها إرادة الله المفروضة علينا، التي علينا القبول بها، وعلينا شكر الله على كلِّ ما يقدِّمه لنا، لو كان ذلك مؤلـمًا، فهو في نهاية المطاف يعرف مصلحتنا أكثر منَّا. بعد تديُّنها أصبحت أكثر هدوءًا، وباتت متقبِّلةً لكلِّ شيءٍ باستسلامٍ غريبٍ، راضيةً عن كلِّ شيءٍ، حسدتها على هذا الرضا الذي لم أعرف له طريقًا.

أخيرًا، جاءني الفرج الشخصيُّ، قرَّرنا أنا وعاطف الزواج والعيش معًا، فقد أصبح وضعه في هولندا جيِّدًا، فهو بعد حصوله على الإقامة، والدراسة المكثَّفة للغة الهولنديَّة، استطاع أن يجد عملًا في مدرسة، ولا شيء يمنع اجتماعنا معًا تحت سقفٍ واحدٍ بعد فراقٍ طويلٍ، سوى الإجراءات الشكليَّة من طلب يدي وغيرها من الإجراءات التافهة. أخبرت أمِّي التي بدورها أخبرت أبي، بأنَّ شابًّا يريد التقدُّم لخطبتي. لم يمانع أبي لكنَّه قال إنَّه يريد مقابلة الشاب، وعدَّ ذلك حفاظًا على كرامته في هذه الظروف الصعبة، أو حاول أن يقنع نفسه أنَّ ذلك يحفظ كرامته، في بلدٍ كرامة الجميع مهدورةٌ فيه، وأنَّه بهذا الطلب سيحفظ كرامتي أيضًا، وأنَّه بذلك لا يكون قد رمى

ابنته سريعًا ومجّانًا إلى أوّل عريسٍ تقدَّم لها. وعندما جاء اقتراح أن يأتي عاطف إلى بيروت ونقابله هناك، تذكَّر أبي أنَّ هذا لا ينفع لأنَّه لا يستطيع مغادرة البلد، رغم ذلك لم يتراجع عن فكرته، وطلب بعنادٍ أن يأتي عاطف إلى دمشق. رجوت عاطف ألَّا يأتي إلى دمشق. لكنَّه، أراد حفظ كرامتي أمام أهلي أيضًا، وجرى ما جرى من اعتقاله وموته في المعتقل بسبب هذه الزيارة التي تحوَّلت من فرحٍ إلى كارثةٍ.

حتَّى اليوم لم أصدِّق ما جرى، لماذا لم أكن أكثر حزمًا مع عاطف؟ لماذا لم أقل له، لم أعد أرغب بك فلا تأتِ؟ كان عليَّ أن أقول له أنَّ حبَّه في قلبي قد مات حتَّى أمنعه من القدوم، وأن أقول إنِّي ارتبطت بشابٍّ آخر وأنَّه أصبح من الماضي، كان عليَّ حمايته بأيِّ ثمنٍ، حتَّى لو خسرته، لو فعلت ذلك، لكان حبيبي ما زال حيًّا. كلُّ هذا لم ينفع، لقد رحل الشخص الذي أعطى لحياتي معنًى، وبغيابه ليس لها معنًى.

لم أفهم ما جرى، ولم أفهم كيف اعتقل عاطف ولا من أجل ماذا؟! اطمأن عاطف للعودة إلى دمشق بعد معرفته أنَّ صديقه مازن، الذي ظنَّ أنَّ الأمن اعتقله ويمكن أن يعترف عليه، لم يُعتَقل، إنَّما أطلق رجال المخابرات عليه النار عندما حاول الفرار، وقُتِلَ على الفور، والأمن أخذه جثَّةً هامدةً. هذا ما عرفه عاطف وهو في مصر، ما تسبَّب له في حالة اكتئابٍ حادَّةٍ، فقد كان مازن الصديق الأقرب له، أظنُّ أنَّه في المعتقل، وقد نظَّم العديد من المذكِّرات إلى منظَّمات حقوق الإنسان بقوائم للمعتقلين من أجل العمل على إطلاقهم وهو في مصر، وكان العمل على إطلاق سراح مازن والمعتقلين من فروع المخابرات الشغل الشاغل لعاطف في مصر، لم يكن يعرف أنَّ مازن قُتِلَ قبل اعتقاله. بموت مازن ظنَّ أنَّ صلة مازن بنشاطه في أثناء الثورة قد انقطع، وبالتالي لا مخاطرة بالعودة إلى دمشق في زيارةٍ عابرةٍ، لا سيَّما أن سجلَّه الأمنيُّ يقول إنَّه غير مطلوبٍ لأيِّ جهةٍ أمنيَّةٍ، بعد أن سأل والده عن وضعه الأمنيِّ، الشخص ذاته الذي أخبره في المرَّة

الأولى إنَّه ليس مطلوبًا لأيِّ جهةٍ عندما غادر إلى مصر. ولأنَّ الجهة كانت صادقة في أثناء خروج عاطف من البلد، لا شكَّ بأنَّها صادقةٌ هذه المرَّة أيضًا. لم تأتِ الأمور كما تمنيناها أنا وعاطف. الذي عرفه أهل عاطف من بعض المتنفِّذين فيما بعد، أنَّ أحد أصدقاء مازن الذي اعتُقِلَ بعد مغادرة عاطف إلى مصر بأكثر من عامٍ، وكان مازن قد أسرَّ له بكلِّ شيءٍ، قد اعترف تحت التعذيب بكلِّ ما عرفه مباشرةً أو ما عرفه بواسطة الآخرين، وهكذا عرفت المخابرات نشاط عاطف قبل مغادرته البلد.

لم أحتمل غياب عاطف، ما زلت أرفض فكرة موته، حمَّلت أبي مسؤوليَّة مقتله، وحمَّلت نفسي مسؤوليَّةً أكبر. لم يكن أبي بحاجةٍ إلى تفاهات المكانة الاجتماعيَّة في بلدٍ منهارٍ، لا قيمة فيه لأحدٍ ولا لأيِّ شيءٍ، بلدٌ مدمَّرٌ وأبي يبحث عن أشياء غريبةٍ، أيُّ مكانةٍ في مجتمعٍ ممزَّقٍ. لُمتُ أبي لبعض الوقت، وما زلت ألومه على تفاهة مطلبه، لكنِّي شعرت أنِّي مخطئةٌ عندما ألومه على مقتل عاطف. وأنا توقَّفت عن لوم نفسي على مقتله أيضًا مع أنِّي ما زلت أظنُّ أنِّي كنت أستطيع فعل أكثر ممَّا فعلت لمنعه من العودة إلى البلد. ما انتبهت إليه وأنا في ذروة لومي لنفسي ولأبي، أنَّ رجال المخابرات هم من قتل عاطف ولسنا نحن. نعم خسارتي فادحةٌ وتسبَّبتُ بها كما تسبَّب أبي بعودة عاطف إلى البلد، لكنَّ عاطف لم يفعل شيئًا يستحقُّ عليه العقاب، وليس القتل. وسألت نفسي لماذا نلوم أنفسنا ونترك المجرم الحقيقيَّ، وكأنَّ من حقِّه أن يقتلنا ونحن نستسلم ونعتاد هذا القتل من سلطةٍ مجرمةٍ. لم يمنع هذا الانتباه العودة إلى لوم نفسي، لقد كانت خسارتي أكبر من أن أتحمَّلها، كلَّما فكرت فيما جرى أجد نفسي أغرق في البكاء، ويغلي صدري لدرجةٍ أشعر فيها أن قلبي يكويني.

أصبحت الدنيا بلا عاطف أكثر سوادًا، وفقدت حياتي المعنى، ظننت أنَّ الحياة التي أعيشها وبوجود عاطف كانت أسوأ حياةٍ ممكنةٍ، لكنِّي عرفت أنَّ هناك أسوأ ممَّا نتوقَّع، وحفرة القهر لا نهاية لها. بتُّ أعدُّ أيَّامي بلا

معنى، وكأنِّي عجوزٌ دمَّرتها الأيَّام مع أنِّي لم أتجاوز الحادية والعشرين من عمري بعد. عرفت أنَّ الهرم ليس بعدد الأيَّام التي يعيشها الإنسان، إنَّما بجبال القهر التي يعيشها، ليس غريبًا أن يكون عمري مئة عامٍ بسبب القهر الذي عشته في السنوات الأخيرة والذي يبدو بلا نهايةٍ. تعبت من كلِّ شيءٍ، تعبت من نفسي، تعبت من المحيطين بي، تعبت من حياتي، تعبت من الحاجة، تعبت من الألم، تعبت من الحزن. بات كلُّ شيءٍ بلا طعمٍ، الفرحة والضحكة التي كنت أسرقها من بين الدمار والموت، لم أعد قادرةً على سرقتها، هناك شيءٌ داخلي مات بموت عاطف، وبقي الجسد يتحرَّك بقوة البيولوجيا وليس بقوَّة الروح.

لم تنجح محاولاتي للخروج من الغرفة التي سكنَّاها على مدار ثلاث سنواتٍ بعد الخروج من المخيَّم، وكانت الأوضاع تزداد سوءًا، وأمِّي المرهقة من الأوضاع المأساوية التي لا تنتهي، أصيبت بالكآبة والحزن الذي حوَّلها إلى مريضة سكَّري. بدأ الجميع بالفرار من البلد، خالي عدنان وعائلته، ذهب تهريبًا إلى تركيا ومنها إلى ألمانيا عبر اليونان. جدِّي الذي رفض الخروج من المخيَّم، عاد وخرج من المخيَّم، ليسكن مع خالتي فاتن، وعاش في حالةٍ من الكآبة الشديدة على الدمار الذي حصل في حياته، لا يرغب في الكلام، وهو أصلًا قليل الكلام. لم يلبث أن وافق على ما رفضه سابقًا ولحق بجدَّتي عند خالتي سمر في سويسرا. تقدَّمت خالتي سمر بطلب زيارةٍ إلى خالتي فاتن وعائلتها، وجاء مع القبول، وأيضًا عندما انتهت الزيارة قدَّمت طلب اللجوء هي وعائلتها. حالف الحظُّ خالتي فاتن ولم يحالفنا، لأنَّ خالتي سمر تقدَّمت بطلب زيارة لنا وجاء بالرفض، مع أنَّها تقدَّمت بالطلب الذي يخصُّنا قبل أن تتقدَّم بالطلب لعائلة خالتي فاتن، لا تفسير للرفض والقبول في حالتنا سوى سوء الحظِّ الذي يحالفنا طيلة الوقت. ولم يبقَ أمام أمِّي سوى خيار التهريب، وكان عليها أن تسلك الطريق الذي سلكه قبلها خالي عدنان وآلاف اللاجئين الآخرين. عندما عرضت خالتي سمر على أمِّي

المساعدة في هذا الموضوع، لم يكن أمامنا أيُّ خيارٍ آخر، وافقت أمي وبدأت نقاشات رحلة اللجوء. لم نكن قادرين على الذهاب جميعًا في هذه الرحلة، قرَّرت خالتي أنَّها تستطيع تحمُّل تكلفة اثنين من العائلة، ولأنَّنا جميعًا بتنا فوق السنِّ القانونيِّ، الذي عند بلوغه لا يسمح للاجئ بجلب أولاده الذين بلغوا هذه السن إلى الدولة التي لجأ إليها عبر ما يعرف بلمِّ الشمل. طبعًا كان القرار من دون أن يتكلَّم أحدٌ أنَّ باسل هو الذي سيرافق أمِّي في هذه الرحلة، لكنَّ هذا لم يمنع أمِّي من أن تقترح عليَّ الذهاب، كنت أعرف أنَّ العرض معنويٌّ، لأنَّ القرار محسومٌ ولو تظاهر أبي وأمِّي أنَّه ليس كذلك، فالأولاد الذكور لهم دائمًا الأوليَّة، ولا يكفي أنَّهم في خطرٍ أكبر من البنات حتَّى يحصلوا على هذه الميزة، أو لأنَّه ذكرٌ قادرٌ على مساعدة أمِّي في رحلتها، وكأنَّنا عاجزاتٌ على فعل أيِّ شيءٍ، وأنَّ الرجال يتحمَّلون مسؤوليَّة المهام الصعبة، مع أنَّهم يجلبون الكوارث. لم أعترض على مرافقة باسل لأمِّي في هذه الرحلة، وأنا نفسي مقتنعةٌ، هو من يجب أن يذهب معها، ليس للأسباب التي ذكروها، بل لأنِّي أحبُّه، ولأنَّه شابٌّ خجولٌ، أصابه الاكتئاب مثلما أصابنا كلَّنا، في الغرفة الحقيرة التي سكنَّاها في صحنايا.

عندما حان موعد سفرهم، شعرت بالفراغ الذي ستتركه أمِّي في حياتي بمغادرتها، ونحن لا ننتبه إلى مكانة الآخرين في حياتنا سوى عندما يغادرون حياتنا بالابتعاد أو بالموت. عندما عانقتني وبكت، شعرت أنَّ الغطاء الذي يغطِّيني من آلام الحرب الإضافية يُنزَعُ عنِّي. أصبحت الحرب أقسى بغياب أمِّي. بقيت أيَّامًا بعد مغادرتهما قلقةً على مصيرهما، أتأمَّل الفراغ الذي تركته في حياتي. موقفي من مغادرة باسل مختلفٌ. كنت قلقةً عليه، لكنِّي سعيدةٌ بمغادرته البلد، التي لا مستقبل له فيها، هذا الشاب الذي لم يبدأ حياته بعد، مهما كان مستقبله الذي سيحصل عليه في البلد الجديد، سيكون أفضل من البقاء في هذا البلد الذي لم تُدمَّر مبانيه وحسب، بل ومستقبل شبابه وأطفاله أيضًا. أعرف أنِّي أتحدَّث كعجوزٍ لأنَّ الحرب

جعلتني كذلك فعلًا، صحيح أنَّ شعري لم يشيب بعد، لكنَّ قلبي شاب حتَّى الشعرة الأخيرة.

لم تكن رحلتهم سهلةً، وصلوا بالسلامة إلى بيت خالتي سمر، التي انتقلت حديثًا من سويسرا إلى ألمانيا. بعد مغادرة أمِّي أصبح عبء البيت/ الغرفة عليَّ وعلى أختي رولا، وأصبحنا نحن من نحتكُّ بالأخريات في المنزل الذي نعيش فيه مع أعمامي وعمَّتي وعائلاتهم. في المطبخ الصغير عرفت كيف يتصارع البؤساء على الفتات، ليس لأنَّهم يرغبون في الصراع، بقدر ما يكون هذا الصراع متنفَّسًا لغضبهم الداخليِّ الذي يحملونه بسبب القهر الذي يتعرَّضون له. ازدادت الأوضاع سوءًا وأصبح كلُّ شيءٍ أغلى وأغلى، وأصبحت الحياة أكثر صعوبةً، التشرُّد والبؤس في كلِّ مكانٍ في البلد. راقبت انهيار العملة المحليَّة، لعلاقتي المباشرة مع الموضوع. عند سفر أمِّي، أعطتني بطاقة جدِّي المصرفيَّة، التي يقبض بها راتبه التقاعديَّ، وهي البطاقة التي أعطاها جدِّي لأمي عندما سافر، وأعطاها الإذن بالتصرُّف براتبه التقاعديِّ لأنَّه يعرف أنَّنا بلا دخلٍ، وكان وضعنا الأسوأ بين جميع أخوالي وخالاتي. ساعدنا هذا الراتب كثيرًا بعد مغادرة جدِّي، قيمة الراتب تناقصت يومًا بعد يومٍ. خجلت أمِّي من إعطاء البطاقة إلى أبي عند سفرها، وعندما طلبتُ منه أن يحتفظ بها، رفض ذلك وطلب منِّي أن أبقيها معي، وإذا احتاج شيئًا سوف يخبرني. عندما غادر جدِّي شكَّل راتبه جزءًا أساسيًّا من دخلنا، ضمن حزمة مساعداتٍ، فيغطِّي مع التقنين المستخدم منَّا حوالي نص احتياجاتنا، لكن مع تسارع انهيار العملة المحليَّة، لم يكفِ الربع مع أنَّ احتياجاتنا انخفضت بسبب سفر أمِّي وأخي باسل، وأصبحنا ثلاثةً، وأنا وأبي وأختي رولا. لم أتوقَّف عن البحث عن عملٍ، رغم يأسي من الحصول عليه. في إحدى زياراتي لأهل عاطف التي أصبحت متباعدةً، سألني أبو عاطف: «شو بتعملي هالأيَّام؟»، قلت: «ولاشي، من لما تخرجت وأنا بدوِّر على شغل من دون أمل»، قال: «ما في مشكلة، خذي هذا الكرت. واتصلي بالمحل، أو

روحي زيارة، وقولي عمِّي أبو عاطف بعثني»، أعطاني كرت باسم محمد ياسين، مدير عام معمل قضبان الألمنيوم بمنطقة الكسوة جنوب دمشق على طريق درعا، وكان من المعامل القليلة التي بقيت تعمل في البلد. لم أبنِ أملًا كبيرًا، لكنِّي لم أترك هذا الطريق من دون تجريبٍ. اتصلت بالرقم رحَّب الرجل بي وطلب منِّي زيارتهم بعد يومين. ذهبت إلى المعمل، وانتظرت الرجل في غرفة الانتظار حتَّى فرغ من عمله واستقبلني. سألني عن دراستي قلت: «درست في المعهد التجاري»، قال: «ممتاز. إحنا عنَّا نقص في قسم المحاسبة، وبدنا إياكي معنا»، شعرت بالسعادة تغمرني لأوَّل مرَّةٍ منذ زمنٍ بعيدٍ. قام من وراء مكتبه، وقال: «تعالي معي» وقفت وتبعته سألني: «كيفُه أبو عاطف؟» قلت: «عمي أبو عاطف بخير، والحمد لله» قال: «بس مو قادر يطلع من الحزن على عاطف» عندما ذكر موت عاطف، ضربت جسدي لسعة كهرباء، لم أستطع التماسك، وشرعت بالبكاء من دون مقدِّماتٍ. ارتبك الرجل وقال: «أنا آسف، ما قصدت إزعاجك. وأنا بعرف مين بكون عاطف بالنسبة إلك، ولأبوه وأمُّه. كانت خسارةً كبيرةً، حتَّى إلي أنا اللي تربى عاطف مع أولادي»، جفَّفت دموعي بصعوبةٍ وقلت: «أنا آسفة، جرح عاطف صعب عليّ»، غيَّر الموضوع: «رح ترتاحي بالشغل مع شباب المحاسبة، هم موظَّفين محترمين. رئيس القسم ومساعدين، وأنت رح تكوني الثالثة، ورح تصيروا بنتين وشبِّين»، قلت: «أنا سعيدةٌ أنُه أشتغل معكم يا أستاذ»، في غرفة المحاسبة عرَّفني على الموظَّفين هناك وغادر بعد أن قال للشباب هناك: «ديروا بالكو على بتول. علموها الشغل عنَّا، بدي شوفها تعلمت الشغل خلال أسبوع»، التفت إليَّ وسألني: «امتى بتقدري تبلشي شغل؟» قلت بحماس «من هلأ» قال: «مش لهدرجة. اعتبري حالك موظَّفة من اليوم، باشري عملك الأسبوع القادم» نظر إلى المحاسب، وقال: «أبو المجد. خبرها التفاصيل»، عاد ونظر إليَّ وقال: «أهلًا وسهلًا بك معنا»، غادر الغرفة وهو يقول: «سلام يا شباب» والموظَّفون يردُّون عليه: «مع

السلامة يا أستاذ»، المحاسب أبو المجد رجلٌ لطيفٌ، أخبرني عن أوقات الدوام في المعمل، وبما أنّي ساكنة في صحنايا، أستطيع انتظار الباص الذي ينقل العمَّال من وسط دمشق إلى المعمل عبر خطٍّ يمرُّ بمدخل صحنايا، حيث يمكنني الركوب من هناك ويعيدني إلى المكان ذاته بعد انتهاء الدوام، وهذا جيِّدٌ لأنَّه يوفِّر عليَّ أجرة الطريق التي باتت تستهلك نصف رواتب الموظَّفين.

عندما بدأت العمل، وبدأت الألفة بيني وبين سحر زميلتي في العمل، سألتها إذا كان المدير يتعامل مع كلِّ الموظفين الذين يعملون في المعمل مثلما تعامل معي. جاءت إجابتها بالنفي، منذ قابلته شعرت أنَّه يعرف عنّي أكثر ممَّا أتوقَّع، وعندما يسألني لم يكن ينتظر جوابي، لأنَّه يعرف الجواب سلفًا. كان من الواضح أنَّ المعمل لا يحتاج عملي، فمن يعملون في المحاسبة يكفون لأعمال المعمل المحاسبيَّة في ظلِّ الأسواق المتراجعة في البلد، لكن يمكن عَدِّي أعمل طالما أتقاسم العمل مع الآخرين، مع أنَّ العمل لا يحتاجني فعليًّا، لكن لم أكن جالسةً في عملي وأنظر إلى ما يفعله الآخرون، بل أعطوني عملًا جديًّا. قدَّرت أنَّ الرجل شغلني إرضاءً للرجل الذي يكنُّ له الاحترام، وليس لحاجة العمل لي. وعرفت من أمِّ عاطف، أنَّه صديق طفولة أبي عاطف، وأنَّهما لم يفترقا منذ ذلك الوقت، وأنَّ المنصب الذي يشغله محمد ياسين مدين به لأبي عاطف، فهو الذي قدَّمه لأصحاب المعمل، الذي سرعان ما تدرَّج حتَّى أصبح مديره، وهو يتوق إلى خدمة أبي عاطف أيَّ خدمةٍ يحتاجها، فقد كانا معًا في السرَّاء والضرَّاء، في الطفولة، وفريق كرة القدم، وخدمة الجيش، حتَّى في أوقات الإفلاس في شبابهم. حتَّى أنَّهم عائلةٌ واحدةٌ، وعمليًّا تربَّى أولادهم مع بعضهم. لم يطلب أبو عاطف من الرجل أيَّ خدمةٍ طوال حياته، لأنَّه ببساطةٍ لم يحتاجها، إلَّا عندما اعتُقِلَ عاطف، وهي الحالة التي لم يترك فيها أحدًا لم يسأله المساعدة من أجل فكِّ اعتقال ابنه أو زيارته حتَّى معرفة مصيره. لم يستطع أحد

مساعدته في هذا الموضوع الذي كسر قلبه وقلبي. كنت أعرف أنَّ أبا عاطف يصبح أكثر سعادةً عندما أزورهم بعد مقتل عاطف، لأنَّه عدَّني الدليل على بقاء عاطف حيًّا، وبات يحرص على الوجود معي وإدارة أحاديث مختلفةٍ ومحاولة نصحي. لم أقدِّر أنَّه مشغولٌ بوضعي إلى هذا الحدِّ الذي يجعله يبحث لي عن وظيفةٍ، ويطلب من صديق عمره أن يخترعها لي. وهذا ما لم يقله الرجل ولا زوجته، لكنَّه بات واضحًا وضوح الشمس. بعدها صرت أقرب إلى الرجل، وعرفت من أين أتى عاطف بهذه الطيبة، فمن يملك هكذا أبٍ لا يمكن إلَّا أن يشبهه إذا لم يكن قد ورث صفاته، تمنَّيت أن يكون أبي، لو كان أبي لكنت المرأة التي أتمنَّى.

منحني العمل ثقةً بنفسي لم أعرفها من قبل، هذا لا يعني أنِّي كنت شخصًا مهزوزًا. إنَّما هناك إحساسٌ غريبٌ يوفِّره العمل، إذ يمنحنا مكانةً في الحياة، أي أنَّنا ننجز شيئًا ما ولو كان صغيرًا مطلوبًا من الآخرين وننال مقابله أجرًا، أي ما ننجزه مهما كان تافهًا، هو شيءٌ مهمٌّ في الحياة، وإلَّا لما أعطانا الآخرون أجرًا مقابله. وأن أحصل على عملٍ في ظلِّ الظروف الصعبة في البلد، هذا ما عدَّه الآخرون أقرب لربح الجائزة الكبرى. أهمُّ متغيِّرٍ جاء به العمل، أصبحت أخرج من البيت إلى مكان عملي، يعني هدفٌ محدَّدٌ، ومكان محدَّدٌ، وزمانٌ محدَّدٌ، وهو شيءٌ جديدٌ بدلًا من الخروج العشوائيِّ من الغرفة الحقيرة ومطمطة الوقت لأقصى حدٍّ حتَّى أقضي أكثر وقتٍ ممكن خارجها. أدور في الشوارع بلا هدفٍ، مجرَّد هربٍ من مكانٍ لا أرغب العودة إليه. لم يجعلني الوضع الجديد أحبُّ الغرفة، لكنَّ قضاء وقتٍ أقل فيها، جعلها أكثر احتمالًا بالنسبة لي. أن يصبح لي مصدر دخلٍ، هذا عامل ثقةٍ بالنفس رهيبٌ في الزمن الصعب، لم أستفد عمليًّا من الراتب الذي ابتلعه غلاء البضائع والمتطلَّبات المتزايدة للحياة في زمن الحرب، لكنَّه جعلني مصدر دخلٍ، لا عبء استهلاكٍ، وهذا تحوَّل في المكانة التي أتعبتني في السنوات الأخيرة، من قبل تخرُّجي من المعهد. إيجادي عملٍ سبَّب لأبي

الفرح والحزن معًا، الفرح لأنَّه عدَّه مخفِّفًا لحالة الحزن التي أعيشها منذ مقتل عاطف، الذي شعرت أنَّه يُحمِّل نفسه مسؤوليَّة مقتله، لم يعترف بذلك لكن تصرُّفاته تقول ذلك، من دون مناقشة المسألة علنًا. وفرح لأنَّ أوضاعنا الماليَّة باتت أفضل من السابق، وهذا يعني أنَّه سيدخِّن بعقدة ذنبٍ أقلَّ من الفترة التي كان تدخينه يستنزف جزءًا أساسيًّا من دخلنا القليل. كما أصبح يفخر بابنته التي وجدت عملًا في زمن عزَّ العمل على الرجال الأقوياء. والحزن من أجل نفسه، من عجزه في الزمن الصعب، لأنَّ ابنته وجدت عملًا وهو بقي عاطلًا عن العمل، رغم أنَّه لم يترك بابًا ولم يطرقه.

لا يصنع حدثٌ سعيدٌ الفرحَ بين كمٍّ هائلٍ من الألم المحيط سوى لوقتٍ قصيرٍ، لأنَّ الواقع يقول لنا، أنا هنا بكلِّ قسوتي وأفراحكم الصغيرة لن تغيِّرني. جاء مقتل نبيل زوج عمَّتي منال كصاعقةٍ ضربتنا جميعًا، لا سيَّما منال وأبي. صحيحٌ أنَّ عمَّتي منال كانت تتشاجر مع نبيل طوال الوقت، وتتهمه بالفشل وتنعته «بالفاشل»، كان هذا «فشة خلق» بسبب الأوضاع القاسية التي نمرُّ بها جميعًا، لكنَّها تعرف أنَّ نبيل ليس كذلك، وهو رجلٌ كريمٌ عاكسه الحظُّ مثل كثيرين، والأهمُّ من هذا أنَّنا جميعًا كنَّا نعرف كم يحبُّها، لذلك لا يردُّ عليها إطلاقًا عندما تغضب، يبتسم فقط، ما يزيد من غضبها، فتعدُّ ابتسامته استخفافًا بها، ونعرف كم تحبُّه، رغم ما مرَّ بهما من تجارب قاسيةً، التي لم تمحُ قصَّة حبِّهما. تأكَّد بمقتله ما نعرفه كلُّنا من حبِّها له، الذي كنت أشكُّ به عندما تعامله بقسوةٍ. لم تصدِّق الخبر، ولم تعلِّق طوال الوقت إلَّا بجملةٍ واحدةٍ: «مش وقتك يا نبيل»، كانت تلومه على موته، لم ترغب أن يتركها، لذلك تلومه وكأنَّه طلَّقها ولم يمت. عندما عانقتها وغَرِقَتْ وغَرِقْتُ معها في دموعنا، عرفت أنَّ عمَّتي ليست معنا في هذا العالم، هي تعيش في عالم السواد الذي يخلقه فقد الحبيب، والذي أعرفه جيِّدًا وعشته بكلِّ تفاصيله مع مقتل عاطف، الذي ما زالت آثاره تأكل

روحي. لم يرتكب خطأً تسبَّب بمقتله، كلُّ ما في الأمر، أنَّه ذهب إلى القصر العدلي في دمشق، من أجل استخراج صورةٍ عن عقد الزواج لأخيه الذي هرب مثل الذين هربوا برحلة لجوءٍ قاسيةٍ إلى ألمانيا، وفي الطريق فقد أوراقه التي استخرجها قبل ذهابه إلى ألمانيا والتي وصلها بلا أوراقٍ، طلب من نبيل أن يحصل على نسخةٍ جديدةٍ ويصدِّقها له. لذلك كان في القصر العدلي في تلك اللحظة، حظُّه العاثر قاده ليكون في المكان والزمان الخطأ، كان خارجًا من باب القصر العدليِّ عندما اندفع رجلٌ باللباس العسكريِّ راكضًا باتجاه الباب وفجَّر نفسه، كما قالت الأخبار. فجرَّ الرجل نفسه بجوار نبيل، ما شوَّه جسده، لذلك منعوا عمَّتي منال من رؤية جثَّته المشوَّهة، وهو ما زاد من ألمها، أنَّهم منعوها من وداعه، صحيحٌ أنَّ هذا كان قاسيًّا بحقِّها، لكنَّ الأقسى أن تودِّع أشلاء نبيل وترتبط ذكرى حبيبها وزوجها بكتلةٍ من اللحم، لأنَّ مجنونًا فجرَّ نفسه بين أناس مساكين لا ذنب لهم سوى وجودهم في المكان.

كان مقتل نبيل قاسيًا على أبي أيضًا، فهما أصبحا توأمين، يقضيان الوقت معًا، لظروفهما المتشابهة، وأصبحا يعرفان بعضهما أكثر ممَّا تعرفهما زوجاتهما. ويبدو أنَّ صداقة سنوات الألم والبؤس والخطر، هي صداقاتٌ عميقةٌ وقويَّةٌ أكثر من غيرها. أبي كعمَّتي منال لم يصدِّق أنَّ نبيل قُتِلَ في تفجير القصر العدلي، فلم يرغب في خسارته، ويبدو أنَّه كان متنفَّسه الوحيد، الذي يستطيع أن يسرَّ له بكلِّ شيءٍ، ما يخفِّف ألم الحالة التي يعيشها، وأبي شكَّل لنبيل الحالة ذاتها. كانت ردَّة فعل أبي غريبةً تجاه مقتل نبيل، شعر بالفقد، وكان يقول لي: «نبيل ارتاح، يا ريت كنت معُه»، قضى أبي ونبيل معظم وقتهما معًا في صحنايا، وكان يمكن أن يكون معه لحظة الانفجار، ما منعه من الذهاب مرضه الشديد في ذلك اليوم، فذهب نبيل وحده إلى القصر العدلي، لأنَّهما عندما كان أحدهما يحتاج الذهاب إلى وسط دمشق، يذهبان معًا، إذ يجدانها فرصةً للتسكُّع في البلد. أعرف أنَّ

خسارة أبي كبيرةٌ، لكن لم أفهم ما قصده بـ«ارتاح» وعندما سألته: «بابا، شو قصدك ارتاح؟»، قال: «اللي مثلي ومثل نبيل الموت الهم رحمة. لما الواحد ما يعود لحياتُه معنى، ولا إلُه دور في الحياة، وصار عبء على الآخرين، بيصير ميِّت بالحياة. وهيك بصير الموت راحة»، شعرت بحجم الألم الذي تحمله كلمات أبي، من دون أن أجد كلماتٍ مناسبةً أواسيه فيها، فصمتُّ حتَّى لا أرتكب حماقةً في لحظةٍ صعبةٍ على أبي. تأثَّرت بموت نبيل جدًّا، وشاهدت الألم الذي يسبِّبه فقد الشخص لمحبِّيه، حزنت على الرجل الطيِّب. وعرفت أنَّ موت الذين نعرفهم يقع في أنفسنا وقعًا مختلفًا عن موت الناس الذين لا نعرفهم. نحن نعرفه، تحدَّثنا معه، سمعنا ضحكته، عرفنا أحلامه، شاهدنا غضبه... أي أنَّه بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، وليس مجرَّد رقمٍ لا نعرف شيئًا عن حياته. يؤلمنا موت من لا نعرفهم، لكنَّ موت معارفنا وأحبَّتنا يؤلمنا أضعاف ذلك. لا يريد هذا الموت التوقُّف، لا يريد هذا الألم أخذ استراحةٍ، تعبنا ولا نملك القدرة على الاستراحة، علينا إكمال الطريق الذي لا نتوقَّع خلاله سوى الألم، لا نعرف شكل هذا الألم الذي ينتظرنا، وفي أيِّ زاويةٍ، وبأيِّ عزيزٍ سيصيبنا. منذ اختفى عاطف وأنا أحاول أن أعوِّد نفسي على الألم، من دون أن أنجح في ذلك، وأحيانًا أسأل ربِّي: «لماذا أنا يا ربي» أعرف أنَّ الكثيرين يتألَّمون في البلد، وأعرف أنَّ هناك من يتألَّم أكثر منِّي، لكنَّ خسائري أكبر من كلِّ الذين أعرفهم، هل من المعقول أن أخسر حياتي قبل أن تبدأ؟! «يا رب شو عملتلك، لتعاقبني بأغلى ما عندي؟! تعبت.. تعبت» كنت أسبُّ وألعن كلَّ شيءٍ، لم يكن هذا يجدي نفعًا، لكنَّه كان يخفِّف من غضبي لبعض الوقت.

عندما عرضت خالتي سمر المساعدة مرَّةً أخرى لشخصٍ منَّا للهرب مع مجموعةٍ من أقارب زوجها. اقترحت أمِّي عليَّ الذهاب في رحلة التهريب الجديدة، وكان هذا رأي أبي حتَّى أختي رولا. قلت: «الأحسن تروح رولا، على الأقل أنا بشتغل»، حاولوا إقناعي، لكنِّي صمَّمت أن تذهب رولا في

هذه الرحلة. كان فقدانها خسارةً كبيرةً، فهي الأقرب لي طوال عمري، لطالما اختلفنا على كلِّ شيءٍ في الطبيعة وفي الأفكار، كان قلبها الطيِّب يسامح أسرع من أيِّ شخصٍ آخر عرفته. صحيح أنَّها أختي التي تصغرني بسنةٍ، لكنَّها هي من علَّمتني التسامح. كان رضاها عن كلِّ شيءٍ وفي كلِّ الظروف يرعبني أحيانًا، وأراه خلاصًا روحيًّا أتمنَّى أن أستطيعه في أحيانٍ أخرى. غيابها ترك فراغًا رهيبًا، عائلتي تختفي من حياتي، أمِّي وأخي، بعدهم رولا، وبعد قليلٍ أبي.

بعد مغادرة رولا، حدث ما هو متوقَّعٌ منذ زمنٍ طويلٍ، إنَّ صاحب البيت الذي نسكنه وصديق عمِّي أحمد، بات محتاجًا للبيت ليبيعه، لأسبابٍ تتعلَّق بعملٍ جراحيٍّ لزوجته. وهذا المكان الذي ذهبنا إليه بعد الخروج من المخيَّم، لنقضي فيه بضعة أيَّامٍ، بقينا فيه أكثر من أربعة أعوام. كان الرجل ميسورًا عندما قدَّم لنا البيت ولم يأخذ أجرةً خلال هذه المدَّة الطويلة، تراجعت أوضاعه خلال هذه السنوات حتَّى أصبح معوزًا. عندما أخبرنا عمِّي أحمد بحاجة الرجل للبيت، صُعِقتُ ليس من الطلب المتوقَّع منذ زمنٍ طويلٍ، صُعِقتُ لأنِّي انتبهت إلى الوقت الذي قضيناه في المكان. صحيحٌ أنِّي تعبت في كلِّ يومٍ في هذا البيت، لكن لم أنتبه كيف سُرِقَت أربع سنواتٍ من عمري، مرُّوا بسرعة البرق، رغم العذابات، يضيع العمر أسرع ممَّا نتصوَّر، وبألمٍ لا ينتهي. صحيحٌ أنَّ هذا الطلب كان متوقَّعًا، لكن لم نفعل شيئًا في لحظة قدومه، ليس لأنَّنا لا نريد ذلك، بل لأنَّنا غير قادرين، والكثير من الأشياء التي قمنا بها، قمنا بها ارتجالًا، لأنَّنا لا نملك أيَّ خططٍ، ووضع القلق والإفلاس المستمرَّين لم يتركا لنا الفرصة للتفكير في الخطط. ما لم نستطع القيام به بإرادتنا، قمنا به رغمًا عنَّا في نهاية الأمر. لم ينجح عمِّي في إيجاد بيتٍ يتَّسع لنا جميعًا بمبلغ قادرين على دفعه، بات علينا أن نفترق بالخروج من المنزل. وكان خيارنا وبإصرارٍ من أمِّي أن نبقى معًا، نحن وعائلة عمَّتي منال. وهذا كان قراري بصرف النظر عن إصرار أمِّي. كانت

العقبة عمِّي أحمد الذي أصرَّ أن يأخذها معه، ولم يكن أحد يستطيع أن يقول لهذا الرجل الطيِّب: «لا». أريد عمَّتي معنا، سيذهب أبي بعد حين، وبقاء عمَّتي معي أفضل من أن أبقى وحدي، بعد مغادرة كلِّ عائلتي الصغيرة. كان الحلُّ البسيط، هو أن تتدخَّل أمِّي مع عمِّي أحمد، وتقول له: «أنا بقدِّر موقفك، وبعرف إنَّك أحرصنا على منال، أنا ما بدِّي أقلك شي. أنت فضلك على راسنا، وأنت بتعرف مكانتك عندي. بتمنَّى عليك، بهذا الموضوع، تترك منال تقرِّر بنفسها تروح معكو، ولا تروح مع وليد وبتول» قال لها: «أنت بتعرفي، أنا ما بدي تروح معي غصب عنها. رح أسألها، وهي تختار»، لم تخجل عمَّتي هذه المرَّة، واختارت البقاء معنا. احترم عمِّي أحمد خيارها ولم يزعل منها أو منَّا، وبقيت علاقتنا معه على حالها، ونحن بطبيعة الحال لم نغادر المنطقة، بقينا نحن وهم في صحنايا، ونبعد عنهم حوالي كيلومتر فقط. تحسَّنت أوضاعنا قليلًا مع تحسُّن وضع أمِّي بالحصول على الإقامة، ما جعلها وأخي قادران على مساعدتنا أكثر من السابق. وحمَّل أخو نبيل زوج عمَّتي منال نفسه مسؤوليَّة مقتل أخيه، لأنَّه قُتِلَ عندما كان يحضر له صورةً عن عقد زواجه الذي فقده في طريق الهجرة. وهذا ما جعله يأخذ على عاتقه مساعدتهم بمبلغٍ ثابتٍ، ساعد كثيرًا في تحسين الوضع. وبقي عملي مستمرًّا، رغم خوفي الدائم من طردي، كلَّما قلَّصوا عدد الموظَّفين.

بدأ الصراع المسلَّح في البلد بالتراجع، وأخذت المصالحات تخلي محيط دمشق من القوى المسلَّحة المعارضة للنظام، وتفاءل الناس المتعبين منذ أكثر من ستِّ سنواتٍ من الصراع الدامي، أن يعودوا إلى منازلهم في ظلِّ قسوة الظروف الاقتصادية التي يعيشونها، فهناك أكثر من عشرة ملايين شخصٍ تهجَّروا من بيوتهم في سنوات الصراع الدامية، كما أمل الناس أن تتحسَّن الأوضاع الاقتصاديَّة. ما لم يكن في حسبان الناس أنَّ هناك أوضاعًا كانت تخفيها الصدامات المسلَّحة، وعندما تراجعت هذه الصدامات، تكشَّف أنَّ

هناك عشرات المشكلات العالقة في حياة الناس، التي تجعل حياتهم بلا صداماتٍ مسلَّحةٍ أصعب منها بعد توقُّف هذه الصدامات وإخراج المقاتلين باتجاه الشمال السوريّ. لم يُسمح للناس بالعودة إلى منازلهم بعد خروج ما تطلق عليه السلطة «المجموعات الإرهابيَّة المسلحة»، بقيت هذه المناطق مغلقةً، انتظر الناس فتحها، لكنَّ هذا القرار لم يأت. وبتراجع الاشتباكات تقدَّم غول الحاجة والأوضاع الصعبة، العملة المحليَّة تنهار، وكلُّ يومٍ تنخفض رواتبنا بفعل فقدان العملة المستمرِّ لقيمتها، ومن كان يستطيع التحايل على الحياة، لن يبقى قادرًا على فعل ذلك، بسبب ارتفاع أجور المنازل يوميًّا، يريد أصحاب البيوت أجر عامٍ كاملٍ سلفًا، اتقاءً لانخفاض العملة السريع، ولا أحد يملك المال في البلد سوى تجَّار الحرب والسماسرة واللصوص. كلَّما تراجعت الحرب أصبحت أوضاع الناس أسوأ، ومن تجاوز الحرب بخسائر متواضعةٍ، تأتي مرحلة ما بعد القذائف لتدمِّر في حياته ما لم تدمِّره القذائف. تزداد الأوضاع قسوةً، وخيارات الناس معدومةٌ، البؤس على كلِّ الوجوه، الجوع في كلِّ مكانٍ، إنَّه رعبٌ حقيقيٌّ نعيشه.

سعدت أنَّ أبي غادر البلد قبل المزيد من الانهيار، فهو على مدى سنوات الحرب الشخص نفسه الذي كان عليه قبل الحرب. غادر أبي البلد شخصًا محطَّمًا، صحيحٌ أنَّه حاول أن يبقي صورة المتماسك أمامنا خلال الصراع، وأمامي بعد أن غادر أخي وأمِّي ولحقتهما أختي. نظرةٌ واحدةٌ إليه تجعل أيَّ عابر سبيلٍ يعرف كم هو بائسٌ، والتماسك الذي يتصنَّعه لا يقنع أحدًا غيره، وأنا أحترم الصورة التي أرادها لنفسه، لكنَّها صورةٌ مضحكةٌ للأسف. لذلك أصبح خروجه من البلد ملحًّا، لعلَّه يستطيع أن يستعيد توازنه هناك، وهذا ما استبعده. عندما غادر شعرت بمزيدٍ من الوحدة، رغم أنَّني أعيش مع عمَّتي وأولادها. الشعور بالوحدة غريبٌ، أحيانًا أشعر بالوحدة والآخرين قربي، وأحيانًا أحسُّ أنِّي لست وحيدةً رغم عدم وجود أحدٍ حوالي. لم أرغب في المغادرة رغم المرَّات العديدة التي اقترحوا فيها عليَّ

الالتحاق بأمِّي وإخوتي في ألمانيا، تذرَّعت بحججٍ غير مقنعةٍ، طلبت تقديم الآخرين عليَّ في الذهاب إلى ألمانيا، لأنِّي أريد البقاء في البلد. الآن غادر الجميع ولم يبقَ من أهلي سواي. أشتاق إلى أهلي كثيرًا، لا سيَّما أمِّي، أفتقدها كثيرًا عندما أبكي احتاج إلى صدرها، أحتاج أن تغضب منِّي، أن أشعر بحبِّها عندما تعانقني وعندما تلومني. لم أستطع مغادرة البلد، ولم أستطع الحديث عن أسبابي لعدم المغادرة، لأنِّي إذا قلت ما أفكر به سيقولون إنِّي أصبت بالجنون. رغم ما أصابني من انهيارٍ بمقتل عاطف، هناك شيءٌ داخليٌّ يقول هناك خطأٌ ما، قد يكون الذي قُتل ليس عاطف، أحدٌ آخر واختلطت الأوراق مع بعضها، وبُلِّغَ أهل عاطف عن موته، وأنَّ الذي مات هو شخصٌ آخر. ولأنَّ المعتقلين هم مجرَّد أرقامٍ في السجون، قد يكون الموظَّف سها أو أخطأ، وسجَّل أو قرأ رقمًا بدلًا عن آخر، أو نقله خطأً، فأصبح اسم الميِّت مختلفًا لأنَّ الرقم اختلف. بلَّغت المخابرات أهل عاطف أنَّه مات بالجلطة، ولم تسلِّمهم الجثَّة، وقالوا لهم أنَّهم دفنوا جثَّته في مكانٍ خاصٍّ. وهناك معتقلين خرجوا من السجن بعد أن بُلِّغَ أهلهم أنَّهم ماتوا. وهذا حصل في الاعتقالات قبل الثورة السوريَّة بزمنٍ طويلٍ، فعددٌ من معتقلي الإخوان في الثمانينيَّات، بُلِّغَ أهلوهم أنَّهم ماتوا في السجن. وبعد عشرين عامًا خرجوا من المعتقل أحياء. وهذا حصل مع معتقلين اعتقلوا في أثناء الصراع الدائر في البلد، حتَّى أنَّ معتقلًا لبنانيًّا قضى في السجون السوريَّة أكثر من ثلاثين عامًا، وكانت السلطة تنكر وجوده عندها، أُخرِجَ بالخطأ في عفوٍ أصدره الرئيس. كلُّ هذا عرفته وأنا أبحث حتَّى أفهم ما يجري، وأعرف كيف قضى عاطف؟ هذا أعطاني الأمل بوجود احتمال أن يكون عاطف ما زال على قيد الحياة، رغم تبليغ أهله أنَّه قُتِلَ. عندما سُرِّبَت خمسٌ وخمسون ألف صورةٍ توثِّق مقتل إحدى عشر ألف معتقلٍ في السجون السوريَّة والمعروفة بـ«صور قيصر» شاهدت الصور كلَّها على بشاعتها، صورةً... صورةً، وحزنت كثيرًا على القتلى الذين ماتوا بطرقٍ

مختلفةٍ من التعذيب البشع. كنت أعذِّب نفسي، تسرَّبت الصور إلى أحلامي وحوَّلتها إلى كوابيس. من واجبي أن أشاهدها وفاءً لعاطف، بحثًا عن علامةٍ ما على أجساد الضحايا تشير إلى أنَّه أحدهم، لكنِّي لم أجد صورةً يمكن أن تكون له. وهو ما أعطاني أملًا أكبر، رغم أنَّ القتلى في السجون السوريَّة لا يقتصرون على هذه الأعداد.

لم أصدِّق موت عاطف، رغم الوقت الذي انقضى على معرفتي بذلك الخبر المدمِّر، ولكن عدم عثوري على تأكيدٍ لمقتله، خلق عندي أملًا بأنَّه قد يكون على قيد الحياة. أنتظر أن أسمع هذا الخبر الصاعق، ما زال عاطف حيًّا يرزق. أنتظر هذا الخبر الذي لم يأتِ بعد، وأتمنَّى أن يأتي يومًا، هو الذي جعلني أبقى في البلد المدمَّر والمدمِّر.

الفصل السادس:
العودة من حافَّة العالم إلى الحرب
(تغريد بنت عامر خليل أحمد خليل)

منذ البداية، كان عليَّ رفض الذهاب في رحلة الذل إلى نهاية العالم، لكنِّي جَبُنتُ فهدرت الوقت عبثًا. لو فعلت ذلك، لجنَّبتُ نفسي سنتين من الذل والهرب من مكانٍ إلى آخر مثل الجرذان. جُبنِي دفعني لمجاملة أمي وأبي في شيءٍ ما كان عليَّ المجاملة فيه. إنَّها حياتي، وكونهم أمي وأبي هذا لا يعطيهم الحقَّ في مصادرة حياتي والتصرُّف والتقرير فيها كما يشاؤون. كان عليَّ وضع حدٍ للمهزلة قبل أن تبدأ، وأن أختار ما أريد ومن أريد، كنت قادرةً على فعل ذلك، لكنِّي جَبُنتُ، وعلى هذا الجبن ألوم نفسي.

لم تكن هذه أوَّل مرَّةٍ ألوم نفسي، فمنذ وقتٍ مبكرٍ من حياتي، شعرت أنِّي غريبةٌ عن هذه العائلة التي أنتمي إليها، وكأنَّ خطأً ما جعلني أولد في العائلة الخطأ. لم أشعر يومًا أنَّها عائلتي، ليس بالمعنى البيولوجيِّ للكلمة، فأنا لا أشكِّك بأمي وشرفها وسلوكها الأخلاقيِّ، أمي فيها الكثير من العيوب، وهذه ليست من عيوبها. الخطأ الذي أقصده، بمعنى الانتماء، كأن خطأً في ترتيب الكون جعلني ابنةً لهذه العائلة. حاولت كثيرًا أن أكون جزءًا منها، فشلت المرَّة بعد الأخرى، لطالما حسدت أختي وأخي الأصغر منِّي اللذين

يشعران بالرضا، كونهم أبناء هذه العائلة، أمَّا أنا كنت طيلة حياتي على قناعةٍ أنِّي أستحقُّ عائلةً أفضل من هذه التي وُلِدتُ فيها. عائلةٌ لها من المكانة والقوَّة ما يجعلها حلم الآخرين، عائلةٌ تملك كلَّ الميِّزات التي تجعلها مركزًا والآخرون يدورون حولها. لا أن أكون ابنةً لعائلةٍ متواضعةٍ هامشيَّةٍ لا تعني أحدًا، ولا تثير فضول أحدٍ، تسكن في مخيَّم بائسٍ يشبهها، بالكاد يشعر بها جيرانها، وليس عندها ما يحسدها الآخرون عليه أو ما يعطيها قيمةً بينهم. عائلةٌ مثل آلاف العائلات في البلد الذي حَلُمَ الناس فيه أن تكفي نفسها بالفتات أو أكثر قليلًا ما يجعلها راضيةً عن حياتها البائسة، والمملَّة، والمتكرِّرة، والفارغة. ما عشته في هذه العائلة ليست حياةً، الحياة في مكانٍ آخر، ليس في المكان الذي وُلِدتُ وكبرت فيه، الناس يُجمِّلون حياتهم التي لا تحتمل، ويخلقون لها أهميَّةً كاذبةً من أجل أن تساعدهم هذه الأكاذيب على الاستمرار في الحياة سعداء، يغطُّون على بؤسهم ويستمرُّون في إيقاع حياتهم المقيت، ويصوِّرون لأنفسهم أنَّهم خاضوا معركتهم مع مصاعب الحياة، وانتصروا عليها، بأن عاشوا حياة الكفاف. هذه الحياة التي أعيشها لا تشبه الحياة الحقيقيَّة بأيِّ شيءٍ، هي صورةٌ ممسوخةٌ عن حياة البشر الذين يستمتعون بحياتهم في كلِّ الشروط. يخترع الناس القصص ليجعلوا لحياتهم أهميَّةً ويُخفون تفاهتها، يحوِّلون التفاهات إلى أمجادٍ وقصص نجاحٍ عظيمةٍ، لا أعرف إن صدَّقوا أنفسهم، أم أنَّهم يروون هذه القصص حتَّى يقنعوا الآخرين بأنَّ لحياتهم أهميَّةً، في الوقت الذي هم أنفسهم غير مقتنعين بما يقولون.

منذ بدأت أدرك هذا العالم، لم أعد أصدِّق ما أرى أو أسمع، لم أعد أصدِّق غير نفسي، لأنِّي ببساطةٍ أظنُّ أنَّ في العالم تلالٌ من الزيف والكذب، وعليَّ التعايش مع هذا الواقع الكاذب والزائف، ولا أهرب منه أو أُخفي رأسي في الرمل كالنعامة ولا أرى شيئًا. وُلِدتُ في مكانٍ بائسٍ لأبٍ مسكينٍ وأمٍّ فقدت الطموح، ولم أعرف ما الذي حاول الاثنان تعويضه من خلالي،

هل حاول أبي التعويض من خلالي عن فشله في إكمال دراسته في كليَّة الهندسة الميكانيكيَّة، وهو الذي يطلقون عليه لقب المهندس، لكنَّه في الواقع يعمل كهربائيًّا؟ هل هو إقرارٌ غير مباشرٍ بفشله، وهو الذي ينفي فشله ويدَّعي أنَّه من اختار الحياة التي عاشها؟ أم بسبب التربية القاسية التي تعرَّض لها من جدِّي، منحني حريَّتي حتَّى أقصاها؟ وهل ظنَّ فعلًا أنَّ هناك ما أستطيع فعله بشهادةٍ جامعيَّة في البلد، مع آلاف خرِّيجي الجامعة المرميِّين على الرصيف بلا عملٍ؟ لم أعرف إذا كان أبي ساذجًا أم زاهدًا؟ فهو دائمًا يعطي إشاراتٍ متناقضةً، أقصى الرضا وأقصى التذمُّر. ولا أعرف حقيقته، هل هو الرفض العميق لواقع لم يقبل به، أم الاستسلام لفشلٍ صنعه بيده؟ أبي لغزٌ بالنسبة لي، جمع كلَّ تناقضات العالم في شخصه.

أمي حكايةٌ أخرى، درست الجامعة من دون أن تعمل، ظنَّتْ أنَّها لا تحتاج إلى العمل مع أبٍ غنيٍّ، فالدراسة برستيج وليست حاجةً لممارسة دورٍ في المجتمع، لا يعجبها شيءٌ، تترفَّع عن كلِّ شيءٍ، معتقدةً أنَّها بذلك تعزِّز مكانتها الأرفع من مكانة الناس المحيطين بها، من دون أن يكون لهذا الترفُّع ما يسنده، سوى مالٍ جمعه جدِّي، وهي تفخر بإنجاز أبيها وكأنَّه إنجازها، فهذا الإنجاز كما تعبِّر وتلمِّح أنَّه عفاها من الحاجة إلى العمل، معتقدةً أنَّ الناس تعمل من أجل المال فقط، وأنَّها يمكن أن تحقِّق مكانةً اجتماعيَّةً من دون عمل، وليس العمل هو من يحقِّق المكانة الاجتماعيَّة التي تتمنَّاها. عندما كنت أسمعها تتحدَّث عن العمل، أشعر أنَّ العمل عارٌ ليس على المرء أن يقترب منه. عاشت في عالمٍ آخر تنسجه في خيَّالها، وتحاول إقناع الناس بأنَّ خيالها واقعٌ حقيقيٌّ، لطالما حاولت إقناعي أنَّنا أفضل من البشر الآخرين، لم أفهم لماذا نحن أفضل من البشر الآخرين؟ لا نملك أيَّ ميزةٍ تجعلنا أفضل منهم. تتغنَّى بأمجاد جدِّي، لكنَّ جدِّي الغني وليس نحن، صحيح أنَّه ساعدنا، ولكنَّ المال ماله وليس مالنا، بصرف النظر عن الطريقة التي حصل بها على هذا المال. ولم تغيِّر المساعدات التي تأتي

من جدِّي حياتنا وتنقلنا إلى مكانٍ آخر، خفَّفت من وطأة ما نعيشه فقط، لكنَّها لا تستحقُّ الفخر والاعتزاز التي تصوِّرهما أمي. العالم الضيِّق الذي حصرت نفسها به هو ما جعل أوهامها أكبر من هذا العالم، وهو الذي رسمت فيه لنفسها مكانةً لا أحد ينازعها عليها ولا أحد يعترف لها بها، في الوقت الذي تعتقد أنَّها الأهمُّ بين محيطها، ولكنَّ الأهم، لماذا وبماذا؟ لم يخطر هذا السؤال على بالها. نحن من الناس الأعلى مكانةً، هذه حقيقةٌ بالنسبة لها، لا تحتاج إلى إثباتٍ، كما ظنَّت، لذلك لم تكن تسوِّغ لماذا هي أهمُّ من الآخرين؟! تمارس الاستعلاء عليهم من دون سببٍ، حتَّى على أبي، الذي كان يبتسم، ويهزُّ رأسه، وينسى ما تقول، لأنَّ أيَّ جدلٍ معها، سيكون بلا فائدةٍ، كما ظنَّ طوال حياتهما الزوجيَّة، وأنَّ النقاش معها نوعٌ من الجنون الذي يجب تجنُّبه. شخصان لا جامع بينهما يؤسِّسان عائلةً وينجبون الأطفال، وتستمرُّ الحياة التافهة التي تبدو سعيدةً من الخارج، الفارغة من المعنى من الداخل. لم أعرف كيف ينظران إلى حياتهما؟ ولم أسألهما، وعندما كان أحدهما يحدِّثني عن الدروس التي تعلَّمها في حياته لم أكن أصدِّقه، هناك دائمًا شيءٌ محذوفٌ فيما يروونه، لا أعرف لماذا لا أصدِّقهما، مع أنَّ لا شيء في حياتهما يوحي بالكذب، وإن كان كلام أبي مشوبًا بتواضعٍ كاذبٍ، وكلام أمي مشوبٌ بتعالٍ مكشوفٍ. وعندما أنظر إلى عائلتي أبي وأمي، تصيبني الدهشة، جدِّي والد أبي، كان رجلًا معتدًّا بنفسه، تجاوز إعاقته وتفوَّق على ظروفه، واستطاع أن يصنع عالمه، خلق هذا التفوُّق عنده نوعًا من الخيلاء، بكونه الأفضل، والقادر على تعليم الآخرين ما عليهم فعله، هذا ما فعله بأولاده، وقد ردُّوا له الصاع صاعين بأن خيَّبوا جميعهم أمله. لم يستطع أيٌّ من أولاده أن يحقِّق حلمه بأن يكون عبقريًّا في المجال الذي اختاره له، رغم القسوة التي استعملها معهم، لكنَّها لم تخيفهم، كلُّ ذلك فعله بصرف النظر عن رأيهم هم في حياتهم. كانت تنقصه قسوة الإحراج التي توفَّرت لجدِّي والد أمي، التي جعل من خلالها

أولاده أداةً طيِّعةً في يده، خوفًا من الفضائح. وقد بنى جدِّي لأمي حياته بنفسه أيضًا، من دون مساعدة أحدٍ، حياته التي يفخر بها، والتي أسَّس فيها العمل لكلِّ عائلته، وليس لأبنائه فحسب، بل لأخوته أيضًا. جمع المال من تجارة السيَّارات المستعملة، مالٌ كثيرٌ، كيف جمعه؟ هناك إشارات استفهامٍ كبيرةٌ على الطريقة التي جمع فيها ماله، لا أحد سواه يملك الإجابة عليها، وهو يتكلَّم كثيرًا على المال، ولكن لا يتكلَّم من أين أتى هذا المال، الذي يستخدمه في تعزيز سلطته على من حوله مدعومًا بلسانٍ حادٍّ وقذرٍ، وهذا اللسان القذر هو الذي صنع رهبته عند أولاده أكثر من المال. لا يستطع أحد أن يرفض له طلبًا، لأنَّه ببساطةٍ سيلاحقه بأقذر الشتائم بين الناس، ما يجعله في غاية الحرج، حتَّى لا يضع أحدهم نفسه في هذا الموقف، كانت طلباته أوامر، تجنُّبًا لردود أفعاله المخيفة لهم. جدَّتي لأبي امرأةٌ ذكيَّةٌ فهي قادرةٌ على امتصاص ردَّات فعل جدِّي الغاضبة وغير المتوقَّعة، كانت تخافه، لأنَّها لم تكن قادرةً على توقُّع ردَّات فعله، لكنَّها تعاملت معه بذكاءٍ، هو خيارها، ويقال إنَّ علاقة حبٍّ ربطت بينهما أوصلتهما للزواج، أي إنَّهما عرفا بعضهما قبل الزواج. جدَّتي لأمي، كانت امرأةً طيِّبةً وساذجةً، عاشت عمرها خائفةً من لسان زوجها، امرأةٌ رقيقةٌ طيِّبةٌ، لم تعرف الحياة سوى في المطبخ، تزوَّجت من جدِّي المتوحِّش وهي في الخامسة عشرة من عمرها، أشعر أنَّها منذ ذلك اليوم لم تكبر، بقيت تلك الطفلة التي تزوَّجت، وبقيت ردَّات فعلها طفوليَّةً على كلِّ الأشياء طيلة حياتها.

كانت طفولتي سعيدةً، فأنا الابنة البكر للابن البكر وأوَّل الأحفاد في عائلة أبي. وأنا الابنة البكر لأصغر فتاةٍ في عائلة أمي. وهو ما جعلني مدلَّلة الجميع، هنا وهناك. ولأنَّ أبي لا يريد تكرار تجربته في التربية، منحني حيِّزًا كبيرًا من الحريَّة. قد يكون فعل ذلك هربًا من المسؤوليَّة التي لا يريد تحملها، حتَّى لا يأتي يومٌ نقول له فيه، ما نحن عليه هو بسبب ما فرضته علينا، كما ييسوِّغ فشله بإعادته إلى مصادرة جدِّي لحياتهم. احتفل الجميع

بي، لا سيَّما في بناية بيت جدي حيث كنَّا نسكن، لسنواتٍ كنت الطفلة الوحيدة في البناية، ما يعني أنَّ الجميع يريد إرضائي. صحيحٌ أنَّ عمَّتي ميرفت تزوَّجت قبل أبي، لكنَّها تأخَّرت في الإنجاب، وهذا ما جعل ابنتها بتول بمثل عمري. لم يسكنوا في البناية التي نسكنها في بناية جدِّي، هذا ما جعلني الأميرة المدلَّلة من الجميع، أعمامي وجدِّي وجدِّتي لسنواتٍ. لا أعرف هل كان تأثير هذا الدلال سلبيًّا أم إيجابيًّا؟ ولا أعرف هل هو ما علَّمني الجرأة؟ لأنَّ الجميع كان يقف معي، حتَّى عندما أرتكب الأخطاء، كانت جدَّتي تقول لأبي «اتركها، بعدها طفلة» وأعمامي يدافعون عنِّي بالطريقة نفسها. تزوَّج أعمامي بعد سنواتٍ من ولادتي، ما عنى أنِّي أخذت الكثير من الدلال قبل ولادة أولادهم، واستمرَّت علاقتي الحسنة بهم بعد ذلك. لذا كانوا يلبُّون كلَّ ما أطلب، فأنا البنت الإضافيَّة لكلٍّ منهما، عمِّي عدنان، وعمِّي أحمد، والمدلَّلة المطلقة لعمَّتي الصغرى سمر حتَّى زواجها إلى ألمانيا، وسفرها ترك عندي فراغًا كبيرًا في ذلك الوقت. لا أعرف إذا كان هذا الدلال أفسدني أم جعلني متطلِّبةً أكثر من غيري؟ معاملتي كأميرةٍ خلق عندي إحساسًا بأنِّي الشخص المحوريُّ في المكان، الجميع مشغولون به، والجميع في خدمته، ويمكن أن يأخذ أكثر من غيره، بالتالي هو أهمُّ من غيره. لم أشعر يومًا، أنِّي مثل أيٍّ من أولاد أعمامي أو عمَّاتي أو أخوالي وخالاتي. شعرت نفسي شخصًا متميِّزًا عن كلِّ هؤلاء. لم أتعامل معهم بتعالٍ، هم كانوا يشعرون أنفسهم أقلَّ منِّي، ولم أحاول تغيير هذه الصورة. وقد عملت أمي على تعزيز هذا الشعور عندي، بأنَّني لست كالأخريات ومن حقِّي أن أفخر بنفسي، طفلةٌ جميلةٌ، وذكيَّةٌ ومتفوِّقةٌ، يحبُّها الجميع. وهذا ما أعطاني الشعور بالتميُّز، ليس فقط في المنزل، وفي المدرسة فيما بعد. لم أرَ الأخريات في صفِّي مثلي، هناك شيءٌ جعلني أشعر أنِّي متميِّزةٌ، لم أكن الأكثر اجتهادًا في صفِّي، لكنِّي شعرت نفسي الأكثر تميُّزًا بينهنَّ، حتَّى عندما تكون الأخريات أكثر تفوقًا منِّي. كنت أسخر من لباس البنات، لم يكن يملكن

الذوق الذي أملكه، ويشتري أهاليهن ملابسهن من «البالة» وأنا لم أكن أقبل أن ألبس أيَّ ألبسةٍ استعملتها أخرياتٌ قبلي، حتَّى وأنا طفلةٌ، لم تكن أمي تقبل أن تشتري لي ملابس من البالة وكانت تقول: «إحنا ما بنلبس، أواعي الفقرا. وما بنلبس شي حدا لبسوا، لا أنا ولا ولادي»، عندما كبرت قليلًا، لم أرَ ما يسوِّغ هذه النظرة من أمي للآخرين، فهي لم تكن ابنة عائلةٍ راقيةٍ بالمعنى الاجتماعيِّ، صحيحٌ أنَّ جدِّي غنيٌّ، لكنَّ هذا الغنى كان معجونًا بالكثير من السوقيَّة واللسان القذر، إضافةً إلى أنَّ بيت جدِّي الكبير، ليس فيه أيَّ لمسةٍ جماليَّةٍ، لا سيَّما مع إصراره على انتقاء المفروشات بنفسه، وفرض ما يجب شراءه ورفض ما لا يحب شراءه. كان هناك الكثير من الأشياء الغالية في المنزل، لكن لا ذوق في جمعها مع بعضها، ما يشير على نحوٍ فجٍّ إلى أنَّ سكَّان البيت محدثي النعمة والمال. على الجهة الأخرى، كان جدِّي لأبي الذي بنى حياته بيده، بناها من خلال الدراسة، وصنعها بجهوده الخاصَّة، وصولًا إلى تخرُّجه من الجامعة. وذهب إلى السعودية من أجل تحسين وضعه ووضع عائلته. وكان له ذلك، بحدود الكفاف الماليِّ، لم يكن رجلًا ثريًّا، كان رجلًا أنيقًا في لباسه، حتَّى أنَّه يكوي ملابسه بيده أفضل من أيِّ مصبغةٍ في المخيَّم، لم أَرَهُ يومًا خارج المنزل من دون بدلته الأنيقة وبربطة عنقٍ مناسبةٍ، سوى بعد سنواتٍ من تقاعده، وكبره في السن، قبل ذلك كان حضوره جميلًا، وهو الرجل اللبق والمحبوب من طلَّابه الذين درَّسهم على مدار سنواتٍ طويلةٍ. لم تصنع كلُّ هذه السمعة الجيِّدة له ثروةً، وكان يعيش مثل الآخرين، سمعةٌ محترمةٌ، لكن بلا مردودٍ ماليٍّ جيِّدٍ، مرَّاتٌ عدَّةٌ سمعت جدِّي الآخر يسخر منه ويقول: «شو عملتله شهادته، ما طعمتو خبز، نحت على الفاضي»، وكان يشير ضمنًا إلى أنَّه هو الذي لم يتعلَّم، ولم يصل حتَّى إلى الإعداديَّة، أنجز ما لم يستطع جدِّي الجامعيُّ إنجازه، وحمل كلامه جانبًا من الحسد في التقليل ممَّا أنجزه جدِّي الآخر، ورفع من قيمة ما أنجزه هو، بذلك لا يتساوى معه، بل يتفوَّق عليه. كان

كلامه يزعجني، ليس لأنَّه كلامٌ غير محقٍّ أو لأنَّه يدين جدِّي الآخر فحسب، بل لعدم عدالة الحياة أيضًا، ولأنَّها تقدِّم أكثر للذي بذل جهدًا أقلَّ، وتجعل الذي بذل جهدًا أكبر في بناء نفسه، يعمل أكثر ويحصل على أقلَّ. وتأتي عدم العدالة من القبول الاجتماعيِّ لوسائل الكسب غير المشروعة التي كانت في السابق غير مقبولةٍ. لم يكن جدِّي لأبي ليقبل أن تأتي الأموال بالطريقة التي حصل فيها جدِّي لأمِّي على ثروته من السيَّارات المستعملة، إذ لا يمكن أن تأتي هذه الثروة بطرقٍ مشروعةٍ، وهو ما لم يكن جدِّي لأبي ليقبله، حتَّى ولو لم يتعلَّم. الرجلان على طرفي نقيضٍ في كلِّ شيءٍ، رجلٌ من الزمن القديم العصاميُّ المتمسِّك بقيمٍ أخلاقيَّةٍ لا يمكن التنازل عنها مهما كان الثمن، ورجلٌ ينتمي إلى الزمن الحديث زمن الشطارة والتذاكي وتغيُّر مسمَّيات الأشياء حتَّى تُقبَل، حتَّى لو كانت على حساب حقوق الآخرين، وأحيانًا على حساب حياتهم، كانا من العمر ذاته تقريبًا لكن من عالمين مختلفين. رغم انحيازي لجدِّي لأبي، إلَّا أنِّي لم أُدِن جدِّي لأمي، لاعتقادي أنَّ المرء في نهاية المطاف ابن ظرفه وزمنه، ولا يمكنه التمسُّك بالقيم في زمنٍ لا قِيَمَ فيه. ولا يمكنه التمسُّك بالنظافة في عالمٍ فاسدٍ ومرتشٍ وقذرٍ. ولا يمكن أن يحافظ جدِّي الأنيق على أناقته في المستنقع الذي نعيش فيه. كنت أحسده على مقاومته وصموده الأسطوريِّ في عالمٍ عالمه، لكنِّي عدَدتُ هذا الصمود مجانيًّا، ولا معنى له في زمن الخراب الذي نعيشه، والذي يسعى كلُّ واحدٍ فيه لأن ينجو بنفسه، حتَّى لو داس على الآخرين. جدِّي الآخر كان ابن المرحلة، الرجل الذي لم يسافر، ولم يتغرَّب، ولم يذهب إلى أيِّ مكانٍ آخر، ذهب إلى المكان الذي يمكن أن يراكم فيه ثروةً، حقَّق ثروته المشبوهة، التي لا يقول من أين حصل عليها، ولا أحد يسأله من أين؟ وكلُّ ما يقوله: «شطارة... مو بقولوا التجارة شطارة، وأنا تعلَّمت الشطارة» هذه الشطارة التي بنى كثيرون ثرواتهم من خلالها، لا مواهب ولا كفاءاتٍ ولا قدراتٍ، شطارةٌ، وشطارةٌ فقط. وهي الاسم الرمزيُّ للغشِّ والسرقة والتلاعب

والنصب، والعلاقات المشبوهة، كلُّ هذه الأشياء وغيرها أصبح اسمها شطارةٌ في قاموس البلد. ومن يريد العيش في البلد عليه تعلُّم هذه الشطارة وإلَّا طحنته جموع الشاطرين. من يقرِّر العيش مع القيم في البلد، هذا يعني أنَّه قرَّر العيش في الفقر طيلة حياته. ومن يريد أن يعيش حياةً محترمةً، عليه أن يتعلَّم الشطارة، وهذه نفسها لا تضمن له العيش المريح، ما لم يملك الذكاء، لأنَّ الكثير من الشاطرين في البلد، بقيت أوضاعهم على حالها، لأنَّهم لا يتمتَّعون بالذكاء، ولا يعرفون أين يستثمرون إمكانيَّاتهم، وأحيانًا انتظروا فرصةً لم تأتِ، بينما الأذكياء لا ينتظرون الفرص، إنَّما يخلقونها، وعندما تنتهي واحدةٌ يخلقون أخرى. هناك معادلةٌ واضحةٌ في البلد، ويأتي وضوحها من عدم الحديث عنها علنًا، لكنَّها معادلةٌ معروفةٌ للجميع، هناك أشياء تستطيع الاقتراب منها والعمل فيها واستغلالها والغشَّ فيها، وهذا كلُّه يمكن التسامح معه، وإيجاد مخارج له، مع أنَّ الأفضل ألَّا تُكشَفَ، وأن تتستَّر على هذا بالكثير من التضليل والكذب، أي أنَّك تستطيع أن ترتكب جريمةً وتنجو. من جهةٍ أخرى عليك عدم الاقتراب من السلطة، أو تحدِّيها، هنا تدفع الثمن الأغلى، وهذا لا يمكن التستُّر أو التضليل عليه. ابتعد عن السياسة وافعل ما شئت في البلد، تجد من يحميك ويشاركك من السلطة نفسها، هذه المعادلة فعَّالةٌ في البلد من قبل ولادتي، ولا تحتاج إلى ذكاءٍ خارقٍ حتَّى تُكتَشَفَ.

لا أعرف إذا ما كانت طفولتي هي ما جعلني أرى أنَّ رغباتي يجب أن تتحقَّق بصرف النظر عن الثمن، لأنَّ كلَّ الأشياء وصلت إليَّ بسهولةٍ في ذلك الوقت. لم أنتبه إلى ذلك قبل مراهقتي، هناك شيءٌ داخليٌّ قال لي، أنت لا تستطيعين العيش كالأخريات. ولَّد هذا عندي ثقةً بالنفس لم أعرفها عند الأخريات، ولم أعد أراهنَّ مثلي، وهنَّ ن يعاملنني كواحدةٍ منهنَّ، كانت بتول وأختها تقارباني في العمر، كنَّا أطفالًا، نلعب معًا، عندما تكونا عند بيت جدِّي مع أمِّهما. لم أشعر بأنِّي أختلف عنهما، طفلاتٌ يلعبن معًا بكلِّ

البراءة التي يحملنها، أخذ هذا يختلف مع الوقت، بدأت أسعى للتحكُّم بالألعاب، من يلعب ومن لا يلعب؟ حتَّى عندما لا تكون ألعابي. وعندما لا أفرض أحكامي، أصرخ وأبكي وأخرِّب اللعبة. ومع الوقت أصبحتا تتجنَّبان اللعب معي، وعندما تلعبان بدفعٍ من أمِّي وأمِّهم، تلعبان بحذرٍ، ما يجعلهما تتركان اللعبة فورًا، عندما تشاهدان أيَّ تعبير احتجاجٍ صادرٍ منِّي.

عندما صرت في سنِّ المدرسة، رفضت أمِّي تسجيلي في مدارس الأونروا في المخيَّم، وعدَّت ذلك ليس من مستوانا، مع أنَّ لمدارس الأونروا سمعةً جيِّدةً في التعليم، جعلت الكثير من المسؤولين في البلد يتوسَّطون عند المسؤولين في الاونروا لتسجيل أولادهم في مدارسها. كانت أمي على قناعةٍ أنَّ هذه المدارس ستشدُّني إلى الخلف. لذلك كان عليها إيجاد المدرسة التي تعتقد أنَّها راقيةٌ ويجب أن أنتمي إليها. اختارت لي مدرسة «دوحة الحريَّة» في وسط دمشق، وعندما اعترض أبي، ألَّا داعي لمثل هكذا سلوك، لأنَّ مدارس المخيَّم أفضل تعليمًا من هذه المدرسة التي اختارتها «منشان برستيج فاضي» مدارس المخيَّم خرَّجت أفضل الطلَّاب الذين التحقوا بأفضل الكليَّات. وقال: «صحيح المدارس الحكوميَّة صارت زبالة في البلد، والناس من حقِّها تدور على الأفضل لولادها وتسجلهم في مدارس خاصَّة منشان مستقبلهم. بس مدارس الأونروا بعدها أفضل من المدارس الخاصَّة في البلد.» لم تقبل أمي حجج أبي، وأصرَّت على ذلك، عادَّةً أبي لا يريد تسجيلي في هذه المدرسة من أجل المال، وهو فعلًا عدَّ ذلك مضيعةً للمال بلا فائدةٍ. حتَّى تنهي المشكلة، قالت إنَّها ستتكفَّل في مصاريف مدرستي، وأنَّ أبي لا علاقة له بهذا الموضوع. حاول إقناعها أنَّ المسألة ليست مسألة مالٍ على أهميَّتها. وقال: «إنت بتحطي بنتك بمكان مو مكانها، وبين عالم مو عالمها، وبتصعبي عليها تصل على المدرسة. بدل ما تصل بخمس دقائق على المدرسة اللي بلصق البيت بدها ساعتين لتروح وساعتين لترجع»، قالت: «بعرف، أنا أصلًا ما بدي إيَّاها تكون في هذا المكان، ولا بدي إيَّاها تكون

بنت هذا العالم»، دار جدلٌ طويلٌ بينهما، تمسَّكت أمي بخيارها، ولم يكن أمام أبي سوى الاستسلام أمام عناد أمي، وهذا الجدل هو ما أخبرتني به أمي بعد سنواتٍ من وقوعه. كان أبي محقًّا، لم تكن تجربةً سهلةً عليَّ، ولم أستطع أن أصالح ما بين نمط الحياة في المدرسة وبين حياتي في المخيَّم، ولم يكفِ أن أسجَّل في هذه المدرسة، التي يسجِّل فيها نخبة البلد أولادهم حتَّى أُصبِحَ واحدةً منهم. عندما كانت صديقاتي في الصف تسألنني، أين أسكن؟ وأجيب في مخيَّم اليرموك. يُدهَشنَ من الجواب الغامض ويسكتن، أو يسألن الكثير من الأسئلة التي لا أعرف إجابةً عليها، يعدن في اليوم التالي، وقد حصلنَّ على أجوبةٍ على أسئلتهنَّ من أهلهنَّ، تزيد من دهشتهنَّ، لأنَّ أهلهنَّ شرحوا لهنَّ، أنِّي قادمةٌ من أفقر المناطق في المدينة وأخطرها، وهي صورةٌ المخيَّم التي لا يعرف الكثيرون في مدينة دمشق عنه غير هذه الصورة. وعندها تقيِّم زميلاتي في الصفِّ علاقتهنَّ معي على أساس الشفقة التي أكره أن يتعامل أحدٌ معي على أساسها. وهذا ما علَّمني الدرس مبكِّرًا، لست مضطرَّةً لأن أقول الحقيقة كاملةً للآخرين، فليس من حقِّهم أن يطلعوا على ما يخصُّ حياتي، سوى الجزء الذي أريدهم أن يطلعوا عليه، ومن حقِّي إخفاء المعلومات التي لا أريد أن يعرفها الآخرون، وأن أنكر الحقائق التي لا تناسبني، إنَّها حياتي الشخصيَّة، أصرِّح بما أريد وأتكتَّم على ما أريد. من حقِّي أن أخفي مكان سكني عندما أرى ذلك أفضل لي، وحقِّي أن أنكر فلسطينيَّتي عندما توقعني في المشاكل. لست الوحيدة في المدرسة التي فعلت ذلك، رغم أنَّنا أطفال حملنا أكاذيب أهالينا إلى المدرسة ونقلناها بوصفها حقائق، واقتنعنا بها كأنَّها كذلك، ولم ندرك أنَّها أكاذيب يريدون تعميمها من أجل صورتهم الاجتماعيَّة أمام الآخرين ونحن أدواتهم الدعائيَّة التي تحمل هذه الصورة. مع الوقت اختلطت الأكاذيب بالحقائق، و من الممكن الفصل أو التمييز بينهما، و الصدق قيمةً اجتماعيَّةً، وأصبح الشكُّ بكلِّ الأقوال هو السائد، أو المعادلة المتناقضة، التي تعني الموافقة

على كلِّ شيءٍ بصرف النظر عن كونه حقائق أم أكاذيب، لأنَّ الأكاذيب باتت جزءًا من الحقائق، وأصبحت هي المنتج للوقائع أكثر من الحقائق ذاتها. أكثر من ذلك، باتت الأكاذيب مطلبًا ملحًّا حتَّى يستطيع البشر الاستمرار في حياتهم. أصبح الشاب يكذب على الفتاة من أجل إقامة علاقةٍ معها، وتزداد الأكاذيب إذا أراد الزواج بها، لا سيَّما عندما يكون أهلها أغنياء قادرين على إخراجه من وضعه. في المقابل تكذب الفتاة على الشاب وترسم صورة العفَّة لنفسها وصورة الملاك لأهلها، والمكانة الاجتماعيَّة العالية لتاريخ عائلتها الوضيع. ويكذب الرجل على زوجته، ويدَّعي الوفاء والإخلاص واحترام القيم ويذهب إلى الجامع، ويذهب إلى الحجِّ حتَّى يغسل ذنوبه، وهو لصٌّ يسرق الجميع أو مرتشٍ، ولا يبخل على الملاهي الليليَّة المنتشرة في دمشق ومحيطها بزياراته المتكرِّرة. كلُّ هذا لا يمنعه من ادعاء العفَّة والصدق والأمانة. وتدَّعي زوجته أنَّها تصدِّقه، رغم أنَّها تعرف كلَّ القذارات التي يمارسها، كي تحافظ على صورتها، تكرِّر أكاذيبه، وتضيف أكاذيبها، بادعاء الإخلاص الكاذب، مع أنَّها تقيم علاقاتها السريَّة، ردًّا على علاقته العلنيَّة، ويتشاركان القذارة في الوقت الذي يدَّعيان فيه الفضيلة. يكذب المواطن على الموظَّف حتَّى لا يبتزَّه الموظَّف برشوةٍ كبيرةٍ، ويكذب الموظَّف على المواطن لابتزازه وتحصيل أكبر قدرٍ من مال الرشوة، لأنَّه بدوره يريد أن يرشو مديره الذي يكذب بدوره عليه وعلى عائلته. تكذب الحكومة على الشعب، ويكذب الرئيس على الجميع أكبر الأكاذيب عن البلد العظيم والإنجازات العظيمة والمعارك الكبرى، ويدَّعي الجميع أنَّهم يصدِّقون الأكاذيب التي يقولها، ولأنَّهم يُظهِرون له قناعتهم بصدقه، فيعود هو إلى تصديق أكاذيبه. البلد كلُّه، حلقةٌ مرعبةٌ من الأكاذيب والزيف والتملُّق، الواحد فيها يملك ألف قناعٍ وقناعٍ، يلبس القناع الذي يعتقد أنَّه يُقنِع الجالس قبالته، وتستمرُّ لعبة تمثيل الجميع على الجميع بوصفهم ملائكةً.

منذ كنت في المرحلة الإعداديَّة، لم أعد أصدِّق أيَّ شيءٍ، وفي الوقت نفسه لم أعد أكذِّب أحدًا. أحتجُّ على كثيرٍ من الأشياء، على طريقة حياتنا التي لا تتناسب معي. ظننت أنَّ أبي يملك الإمكانيات التي تجعلنا نعيش على نحوٍ أفضل وأكثر راحةً ممَّا نحن عليه. لكن هو لا يريد استثمار إمكانيَّاته، لم أفهم لماذا لم يكمل دراسته؟ وأنا لم أقتنع بأنَّه لم يكن قادرًا على إكمالها لأنَّه شعر أنَّها أصعب من أن يجتازها. أعرف أنَّ هذا غير حقيقيٍّ، وأبي ليس رجلًا غبيًّا. لم يرغب في إكمال دراسته، وتذرَّع بأنَّه غير قادرٍ على ذلك. هو اختار حياته، وحاول أن يضعها في سياقٍ ما هو مجبرٌ عليه. أظنُّ السبب الأساسيَّ هو سرعة استسلامه، هو يريد شيئًا، وأمام أوَّل المصاعب يتخلَّى عنه، لا يملك حسَّ المثابرة. تخلَّى عن دراسته لأنَّها لم تكن خياره، قد يكون هذا السبب الذي جعله يشعر أنَّها صعبةٌ، لو كانت خياره لكان اجتيازها أسهل عليه. لم يُرِدها منذ البداية، لذلك لم يكن قادرًا على إكمالها، وهذا ما جعله لا يريد أن يفعل شيئًا في حياته، سوى أن يحصل على الحدِّ الأدنى للعيش، وهو راضٍ بذلك، عندما اشتغل ككهربائيٍّ، لم يسعَ لتطوير عمله وتوسيعه، وهو يستطيع ذلك، فهو أنجز سمعةً ممتازةً من زاوية المصداقيَّة والمواعيد في بلدٍ لا يعرف كليهما. لكن بدل أن يحسِّن ويوسِّع عمله، ذهب ليعمل موظَّفًا عند الآخرين. وعندما سألته مرَّةً: «ليش ما اشتغلت بالتعهُّدات، مثل كثيرين عملوا ثروة من هالأعمال؟»، كان جوابه: «ما بقدر اشتغل هيك شغل. حتَّى أقدر لازم أعمل مثلهم، أكذب وأغش، وأنا ما بقدر أعمل هيك»، قلت: «كنت على الأقل بتخفِّف من الكذب والغش؟» قال: «ما في غش أكثر وغش أقل، ولا كذب أكثر وكذب أقل. هاي أعمال بتلوِّث صحابها، لما يتلوَّثوا ما بعودوا يقدروا يتراجعوا عن هاي الطريق القذرة. من البداية فضَّلت ما أمشي فيه، وما رح يجي يوم أغيِّر رأيي»، قناعاته هذه التي ورثها عن جدِّي، رغم كلِّ الصراع الذي خاضه معه، إلَّا أنَّ الكثير من التشابه يجمع بينهما. لم يكونا متشابهين من ناحية

الشكل، فلم يكن أبي يشبه جدِّي، ولا متشابهين بالسلوك وطريقة الحياة، لأنَّ جدِّي كان رجلًا جلودًا، وأبي لم يكن كذلك. تشابها بالقيم التي يحملانها، فأبي لم يرث من جدِّي سوى هذه القيم، التي عدَّها أهمَّ شيءٍ في حياته، وهي وحدها التي جعلته يشعر بالتوازن رغم قذارة العالم المحيط. بقي كذلك حتَّى عندما خضع لضغط أمِّي وذهب ليعمل مع جدِّي وأخوالي في بيع السيَّارات المستعملة، شعر نفسه غريبًا في ذلك العالم الذي لا يعترف بأيِّ قيم، لم يستطع أن يعيش مع الكمِّ الهائل من الغشِّ والأكاذيب الغارق بهما سوق السيَّارات المستعملة. بقي يعمل في السوق من دون أن يكون جزءًا منه، وحاول مرَّاتٍ عدَّةً ترك العمل، كان جدِّي كعادته يحرجه، فيستمرُّ بالعمل. عندما توفِّي جدِّي، أوَّل أقدم عليه أبي هو ترك العمل مع أخوالي في مكاتب السيَّارات. بعدها شعر بالراحة، وكأنَّ هذا العمل يطبق على صدره، لم يصدِّق أنَّه تخلَّص منه.

كبرت في جوٍّ من التناقضات التي لا تنتهي، تناقضاتٍ خلقتها أمِّي أكثر ممَّا خلقها الواقع. يعيش الناس في المخيَّم منسجمين مع المكان، فهو مكانٌ يملك حياته الخاصَّة، التي اخترعها سكَّانه من الحاجة إلى هذه الخصوصيَّة، إنَّهم يعيشون في المكان، من دون أن ينتموا إليه، ينغمسون به من دون أن يكونوا من مواطنيه. لم يشعرهم هذا بالغربة، على العكس أشعرهم بالتميُّز، وبذلك اخترعوا حياتهم كمتميِّزين، وهو ما أعطاهم اعتزازًا بالنفس مبالغًا به، لم يفهم أحدٌ من أين يأتي هذا الاعتزاز لهؤلاء الذين يعيشون في مكانٍ بائسٍ. كان سكَّان المخيَّم راضين عن حياتهم عندما كان المكان في غاية البؤس. مع الزمن هامشيًّا، بل بات مركزًا من مراكز المدينة. وعندما تدفَّق السوريُّون على المخيَّم ليسكنوا فيه، وباتوا أغلبيَّةً فيه، لم يرَ سكَّان المخيَّم ذلك بوصفه تهديدًا، بل على العكس عدُّوه فرصةً، لذلك عندما تحوَّل المخيَّم إلى سوقٍ كبيرٍ، يجلب المتسوِّقين من كلِّ أنحاء دمشق، لأنَّه السوق الأرخص، ما حوَّل المخيَّم إلى سوقٍ من أهمِّ الأسواق في دمشق، فيه يستطيع

أيُّ شخصٍ الحصول على ذات البضاعة التي يحصل عليها من الأسواق الأخرى بفارق سعرٍ جيِّدٍ، يصل إلى النصف أحيانًا. وهذا ما جعل بعض السوريِّين يطلق على الفلسطينيِّين تعبير «اليهود الجدد» مقابل هذا الاعتداد بالنفس لبعض سكَّان المخيَّم، كان بعضهم يخجل من الانتماء إلى المكان، ما جعلهم يسعون للخروج منه، وتمثيل حياة المدينة في المناطق الجديدة التي نمت بسرعةٍ، مثل مشروع دمر، وصحنايا، وجرمانا... وغيرها. ذهب هؤلاء ليقلِّدوا حياةً أخرى ليست حياتهم، أو ليمثِّلوها متنكِّرين لتاريخهم، حتَّى محاولين إخفاء لهجتهم الفلسطينيَّة التي اكتسبوها في المخيَّم. وكره بعضهم الانتماء للمخيَّم وهو يعيش فيه، وعدَّ نفسه أرقى من سكَّانه رغم أنَّه منهم، وحاول زرع هذه الكراهية في أولاده، وجعلهم ينظرون إلى أنفسهم، بوصفهم بشرًا أرقى وأعلى قيمةً من سكَّان المخيَّم، وهذا ما فعلته أمِّي بي. ولهذا السبب دفعت بي إلى مدرسةٍ خارج المخيَّم بوصف أنَّ هذا سيجعلني فتاةً أخرى، أرقى من فتيات المخيَّم الوقحات. فرض دخولي مدرسةً خاصَّةً، سلسلة تنقُّلاتٍ في المدارس الخاصَّة، وصولاً إلى الجامعة. في طفولتي لم أشعر أنَّ المدارس التي دفع أهلي الأموال حتَّى أدرس فيها تستحقُّ ذلك، لم يكن فيها شيءٌ أفضل من مدرسة الأونروا الملاصقة لبيتنا، التي تذهب إليها فتيات الحيِّ والعائلة. كانت تعطيني تمييزًا كاذبًا، لا سيَّما عندما يريد الأطفال الآخرين معرفة المدرسة التي أدرس فيها بدافع الفضول. وهذا ما أعطاني الفرصة لأن أقول ما أشاء حتَّى أبهرهم بمدرستي، ولا يستطيعون التأكُّد ممَّا أقول من أحدٍ آخر. في الوقت الذي كنت أتبجَّح بجماليَّة مدرستي، كنت أتذمَّر لأنَّ عليَّ أن أصحو قبل الآخرين بساعةٍ حتَّى أصل إلى مدرستي، وعليَّ العودة بعدهم بساعةٍ، وهذا ما أزعجني، طلبت من أمِّي مرَّاتٍ عدَّةً نقلي إلى المدرسة المجاورة، لكنَّها رفضت، بحجَّة أنِّي لا أعرف مصلحتي. هذه الازدواجيَّة جعلتني غريبةً عن محيطي في المخيَّم، وغريبةً عن محيطي في المدرسة، فلم أستطع أن أحصل

على أصدقاء هنا، ولم أستطع أن أحصل على أصدقاء هناك. لأنَّ الصداقة تبدأ من المدرسة، حتَّى تنمو هذه الصداقة من الأفضل للأصدقاء أن يعيشوا في المكان نفسه. كانت علاقتي مع زميلاتي في الصف تنتهي عند انتهاء دوام المدرسة، وليس من المحتمل أن التقي إحداهن حتَّى دوام اليوم التالي، لأنَّه لم يكن أحدٌ من المخيَّم يدرس في مدرستي، وبذلك لم يكن لي أصدقاء من المدرسة أزورهم ويزورونني. والأطفال في سنِّي من العائلة والمحيط، كانوا يَعُدوني متعاليةً عليهم، وتأتي اهتماماتهم المشتركة من ذهابهم إلى المدرسة ذاتها، وهذا ما جعل بينهم موضوعاتٍ مشتركةً دائمًا. أرادت أمِّي أن تشعرني بالتمييز، فدفعتني إلى العزلة، التي أخذت أتكيَّف معها، وأتقبَّل وحدتي بوصفها تميُّزًا عن الأخريات.

بقيت بلا أصدقاء فعليًّا حتَّى دخلت الجامعة، أصرَّت أمِّي أن أدخل جامعةً خاصَّةً، لأنَّ علاماتي في امتحانات الثانويَّة العامَّة، لم تكن تؤهِّلني لدخول الجامعات الحكوميَّة، والجامعات الخاصَّة تطلب مجموع علاماتٍ أقلَّ بكثيرٍ للطلَّاب المنتسبين لها. ومجموع علاماتي سمح لي بالانتساب إلى كليَّة الهندسة IT في الجامعة الدوليَّة. وهو لا يتوافر لغيري لعدم قدرتهم على دفع تكاليف الجامعة، وليس لأنَّ مجموع علاماتهم أقلُّ من مجموع علاماتي. أشعرني الذهاب إلى الجامعة في فرعٍ يحتاج إلى علاماتٍ أكثر ممَّا أنجزت الإحساس بالتمييز، وما يسري على غيري لا يسري عليَّ، أستطيع تجاوز ذلك على نحوٍ أو آخر. لطالما أرهقت تكاليف دراستي أبي، صحيحٌ أنَّ أمِّي تعهَّدت بتمويل هذه الدراسة، ولكنَّها موَّلتها ممَّا يأتي من أهلها بحدود الأقساط المدرسيَّة وبعد ذلك الجامعيَّة، أمَّا المصاريف الأخرى بقيت على والدي، لأنَّ أمِّي استمرَّت تترفَّع على العمل لأنَّ العمل ليس لواحدةٍ بمستواها، ولم تجد أنَّ العمل يناسب مقامها. تذمَّر أبي مرَّاتٍ عدَّةً من هذا المصروف الزائد، الذي لا معنى له سوى فذلكة أمِّي. وأمِّي أصرَّت على ذلك بوصفي مشروع عمرها وإنجازها الأهمُّ.

اختلفت حياتي في الجامعة اختلافًا جذريًّا، بعد أن كنت بلا أصدقاء وجدت نفسي محاطةً بهم، المكان يحكم علاقاتي كما كانت الحال في تجربتي المدرسيَّة، التي حكمت أن أعيش في مكانٍ وأدرس في آخر، الآن في الجامعة كلُّ الطلَّاب تعيش في أماكن مختلفةٍ تجتمع في الجامعة، وتذهب إلى ذات الأماكن في دمشق. وهناك أماكن مفضَّلةٌ لطلَّاب الجامعة وشللها. بينما كانت المقاصف داخل الجامعات المكان المفضَّل لاجتماع الأصدقاء في الجامعات الحكوميَّة، كان لطلَّاب الجامعات الخاصَّة، أماكن عدَّةٌ في دمشق القديمة، مثل مطاعم اليسار ونينار وبيت جبري، ومقاهٍ مثل مقهى النوفرة وعلى البال والتوليدو ومطعم السلام في المهاجرين. والأكثر شعبيَّةً بين الطلاب كان مقهى الروضة الذي يقع في وسط البلد بالقرب من مبنى البرلمان، وفيه قسمٌ مخصَّصٌ للشباب مزدحمٌ دائمًا، وهو مكاني المفضَّل وأكثر مكانٍ أجتمع فيه وأصدقائي في الجامعة. ولم يكن تفضيلي له، لأنَّه الأفضل بين الأماكن الأخرى، بل لأنَّه الأرخص، كنت دائمًا أفضِّل المقاهي، فهي رخيصةٌ وتتناسب مع مصروفي الذي لم يكن كبيرًا، ولم يكن يتناسب مع مصرفات أصدقائي الذين يأخذون مصروفًا شهريًّا أكثر من راتب والدي. كنت أعتذر عن اللقاءات المكلفة في المطاعم الغالية في أغلب الأحيان، ولم أكن قادرةً على تلبيتها دائمًا، لأنِّي لا أملك مصاريفها، ولم أقبل الدعوات من أصدقائي أو صديقاتي على حسابهم، طالما كلُّ واحدٍ يدفع عن نفسه، وهو ما يسمَّى في البلد «على الطريقة الأميركيَّة» ولم أشكُ من قلَّة المال، حتَّى لا أشعر نفسي أقلَّ منهم، لذلك كنت حذرةً، ولم أعد أخفي ما كنت أخفيه من قبل، لا سيَّما سكني في المخيَّم، وقد حوَّلته إلى ميزةٍ بين أصدقائي وصديقاتي في الجامعة، كلُّهم آتون من عائلاتٍ مترفةٍ، وأنا القادمة من مكانٍ غامضٍ بالنسبة لهم، ومن عائلةٍ عاديَّةٍ، ومن وضع فيه الكثير من الخيال بالنسبة لهم. أصبحت محور الشلَّة، لأنَّهم يريدون استكشاف حياةٍ لا تشبه حياتهم الرتيبة، وظنُّوا أنِّي قادمةٌ من عالمٍ فيه الكثير من المغامرة والدهشة. هذا

العالم الذي كان عاديًّا ومملًّا بالنسبة لي، كان يدهشهم ويسحرهم وأرادوا التعرُّف عليه، في الوقت الذي لم أفهم على ماذا يريدون أن يتعرَّفوا بالضبط؟!

عندما تعرَّفت على غسَّان في الجامعة، لم أكن أعرف من هو، مجرَّد طالبٍ لطيفٍ من طلاب الجامعة أعجبني اهتمامه بي، وشعرت بمشاعر جارفةٍ تجاهه، وهو حمل لي المشاعر ذاتها. لم يكن يدرس معي في الفرع ذاته، إنَّما في فرع إدارة الأعمال. عرَّفتني عليه زميلتي في المرَّات الأولى التي ذهبنا فيها إلى مقهى الروضة. كان تعارفًا عابرًا أو هكذا ظننت، وعندما تكرَّرت زيارته لمقصف فرعنا في الجامعة، عرفت أنَّ ذلك ليس مصادفةً، بل أنا المقصودة بهذه الزيارات. وجدت نفسي في كلِّ اللقاءات التي يكون فيها، وانتظرت أن يُقدِمَ على الخطوة التي أنتظرها. بعد لقاءين منفردين، قال لي ما كنت أنتظره وأعرفه، وما شجَّعته على قوله، الكلمة التي انتظرتها «بحبك»، قبل أن يقول كلمته انشغلت به، وبتُّ أفكِّر فيه طوال الوقت، وفي دوامي في الجامعة، أصبحت أتلفَّت طوال الوقت باتجاه الباب الخارجيِّ للفرع لعلَّه يأتي. وعندما أذهب إلى لقاءات طلَّاب الجامعة في أحد المطاعم أو المقاهي، ولا يكون معنا أنتظر أن يأتي، وعندما يأتي نقضي الوقت إلى جانب بعضنا. انتبه الجميع إلى هذا التقارب الذي لم نكن نخفيه. غسان شابٌّ لطيفٌ، حنطيُّ البشرة، عيناه واسعتان، له غمَّازةٌ في ذقنه، شعره أسود فيه تموُّجٌ عريضٌ، يماثلني بالطول، يتكلَّم بلهجةٍ شاميَّةٍ متعجِّلةٍ وقلقةٍ، ملابسه أنيقةٌ، ودائمًا ما تكون من ماركاتٍ معروفةٍ واضحةٍ عليها. تطوَّرت العلاقة بيننا بسرعةٍ خلال الأشهر الأولى من دخولي إلى الجامعة، في الوقت الذي كان هو في السنة الثانية من دراسته الجامعيَّة. شعرت أنَّ شيئًا داخلي قد تحرَّك منذ تعرَّفت عليه، وكلَّما التقينا يكبر هذا الشيء. وعندما اعترف لي بحبِّه، شعرت أنِّي ملكت الدنيا. لم أصدِّق أنِّي سأدخل الجامعة، وفي الأشهر الأولى من دوامي فيها، سأجد فتى أحلامي

الذي طالما انتظرته. رجلٌ يريد أن يمنحني كلَّ شيءٍ مقابل حبِّي له. خفت من معرفته من أنا ومن أيِّ عالمٍ قادمةٌ، لم يتغيَّر تعامله معي عندما عرف أنِّي فلسطينيَّةٌ ومن سكَّان المخيَّم.

طوال العلاقة بيننا كنت أظنُّ أنَّ غسان ابن عائلةٍ شاميَّةٍ غنيَّةٍ، كلُّ شيءٍ في سلوكه، لهجته، علاقاته تقول ذلك. كان تقديري خاطئًا، لم أعرف ذلك إلَّا عندما بدأت أحتاج لإنجاز بعض المعاملات الرسميَّة. عندما أغلقت البلديَّة ورشة أعمامي في البناية التي نسكن فيها. وكان هذا يعني أنَّهما سيصبحان بلا عملٍ في حال استمرَّ هذا الإغلاق، قلت على نحوٍ عرضيٍّ أمام غسان، أنَّ هناك مشكلةً يواجهها أعمامي مع موظَّفي البلديَّة في المخيَّم. قال: «أعطني أسماء أعمامك، وشو هي المشكلة؟» قلت: «البلدية سكَّرت الورشة من دون سبب، قال بدهم ترخيص، وكل المخيَّم ما فيه تراخيص. بدهم يبتزُّوهم منشان المصاري»، قال: «ولا يهمك. بكرة الورشة بتكون فاتحة»، قلت: «كيف؟» قال: «شو بهمك. اليوم قولي لعمِّك الورشة بكرة رح تفتح. أعطيني أسماء عمامك»، أعطيته أسماءهم مجاملةً، ولم أصدِّق أنَّه يمكن أن يفعل شيئًا في هذا الشأن. لكنِّي في المساء، قلت لعمِّي أحمد: «أنُه الورشة رح تفتح بكرة. حكيت مع زميلة إلي بالجامعة وقالتلي أنُه بتقدر تساعد، بس أنا ما صدَّقت. بس أعطيتها الأسماء، وقالت بكرة بتنحل. إن شاء الله تكون صادقة»، قال عمي: «إن شاء الله. ما عاد للبلدية شغل غيرنا، لا عبنحلبوا ولا عبنجلبوا»، قلت: «إن شاء الله، بكرة يطلع بإيد رفيقتي، وبتفتح الورشة»، لم أرغب أن أقول لعمِّي أنَّ زميلي هو من وعدني بحلِّ المشكلة، لا أعرف لماذا فعلت ذلك، مع أنَّه يمكنني قول ذلك من دون حرجٍ من عمِّي. قد يعود ذلك لأنِّي لم أكن واثقةً من أنَّ غسان يمكن أن يفعل شيئًا في الموضوع، أو أنَّ من يعرفه قد لا يهتمُّ لمثل هكذا أمرٍ، ولا أعرف من الشخص المتنفِّذ الذي يعرفه غسان. غادرت المنزل في اليوم التالي إلى الجامعة، وأنا في المحاضرة الثانية، أخذ هاتفي المحمول الموضوع على

الوضع رجاج يهتزُّ. نظرت في شاشة الهاتف، عمِّي أحمد يتصل. لم أتمكَّن من الردِّ حتَّى انتهت المحاضرة. عندما انتهت المحاضرة، عدت للاتصال بعمِّي سألته: «خير عمِّي، في شي؟» قال: «خير عمي. بدي تشكري صديقتك، لأنُه المشكلة انحلت، حتَّى موظفين البلدية اعتذروا منَّا»، قلت وأنا في غاية الدهشة: «الحمد لله. رح أشكرها، هي بتستاهل على كل حال»، أصبت بالدهشة من سرعة حلِّ المشكلة مع اعتذارٍ، عندما قابلت غسان بعد حوالي الساعة سألت وأنا مصعوقةٌ: «شو عملت حتَّى انحلت المشكلة؟!»، أخذ يضحك: «ما عملت شي. المشكلة انحلت لحالها»، قلت: «لا تفنِّص علي، بحياة الله شو عملت؟»، قال: «ما عملت شي، شغلة سخيفة ما بتستاهل الحكي»، فشلت كلُّ محاولاتي في معرفة كيف استطاع حلَّ المشكلة وعن طريق من؟ لم أستطع زحزحته عن إصراره على عدم قول شيءٍ. قلت له: «على كلِّ حالٍ شكرًا»، قال: «ما في شيء يستحقُّ الشكر، وبتقدري تعتمدي علي، لما بتحتاجي شي»، في المرَّة الثانية استدعى فرع فلسطين -وهو فرع من فروع المخابرات- عمِّي عدنان للمراجعة، خاف عمِّي لأنَّ هذا الفرع معروفٌ بقسوته بين فروع المخابرات المتعدِّدة بالبلد. فكَّر عمِّي بألَّا يذهب خوفًا من اعتقاله. عندما قلت لغسان أنَّ عمِّي خائفٌ من مراجعة فرع فلسطين. ضحك وقال: «ولا يهمك. شو اسم عمك؟» قلت: «عدنان خليل خليل»، قال: «بكرة بعرف لك كل شي»، في اليوم التالي، قال: «مشكلة عمِّك محلولة. خليه يروح على الفرع، وما حدا بسمعُه كلمة مش منيحة. في تقرير مكتوب فيه إنُه اشترى كلاشنكوف من شخص آخر. اشترى ولا ما اشترى، يقول ما بعرف شي عن الموضوع، لأنُه الملف لازم يتسكر»، عندما أخبرت عمِّي عدنان بالموضوع دُهِشَ وقال: «من وين جبتي هذا الحكي؟»، قلت: «زميلتي أخبرتني عن الموضوع»، قال: «ما رح روح، إذا عرفوا قصة الكلاشنكوف، معناه، رح يحبسوني»، قلت: «يا عمِّي هذا برجع الك، لأنُه زميلتي قالت المشكلة محلولة، بتحب تروح روح،

ما بتحب تروح أنت بتعرف إنهم بيجيبوك»، أيضًا هذه المرَّة لم أكن واثقةً أنَّ الموضوع سوف يُحلُّ. فهذا لا يشبه موضوع إغلاق ورشة، إنَّها مسألة سلاحٍ. كنت خائفةً أن أتسبَّب باعتقال عمِّي، عدت وقلت لنفسي ما ذنبي أنا، هو الذي اشترى السلاح ولست أنا. وعندما عدت وقلت لغسان: «عمِّي خائفٌ من الذهاب إلى الفرع»، قال: «قولي له ما يخاف، ساعة زمان وبرجع على البيت»، سألته: «من وين جايب هاي الثقة؟»، قال: «مش مهم، هو يروح ويراجع الفرع، وإذا ما صار اللي بقولُه، ابصقي بوجهي»، قلت: «أنا ما عبفهم عليك، أنت مع مين حكيت؟»، قال: «مش مهم. المهم المشكلة تنحل»، وفعلًا هذا ما كان، ذهب عمِّي إلى الفرع، عاملوه باحترامٍ، وأحسنوا ضيافته بالشاي الذي يحبُّه، وأغلقوا الملفَّ وعاد إلى البيت في اليوم ذاته. لم أعرف ماذا يعمل والد غسان؟ ولم يقل لي شيئًا عنه، وكلَّما تحدَّثنا عن عائلته، تحدَّث عن أمِّه وأخواته البنات، وأنَّه وحيدٌ على ثلاث بناتٍ، وعندما يأتي الحديث عن والده، لا يقدِّم أيَّ تفاصيل، يتحدَّث عن علاقته الجيِّدة مع أبيه، وهو المدلَّل عنده بحكم كونه وحيده. تحدَّث عن صفات أبيه من طيبةٍ وكرمٍ ونبلٍ والرغبة في مساعدة الآخرين، لكنَّه لم يقل لي ولا مرَّةً ما هو عمل أبيه؟ عندما تحدَّثت مع صديقتي مها عمَّا فعله غسان من أجل عمِّي، قالت: «هذا عادي»، قلت: «كيف يعني عادي؟»، قالت: «غسان بحب يخدم الآخرين، ومنصب أبوه بخليه قادر يعمل هيك»، قلت: «ليش مين أبوه؟»، قالت: «ما قلك مين أبوه؟»، قلت: «قلي بس ما قلي شو بشتغل بالضبط»، قالت: «هو ما بحب يقول، ما بحب الناس تعاملوا على أساس موقع أبوه، منشان هيك بخبي مين أبوه»، قلت: «ليش يخبي علي أنا؟»، قالت: «بدك تسأليه»، قلت: «ليش مين أبوه؟» قالت: «رح قلك، بس ما تقولي له إنِّي أنا اللي قلتلك»، قلت: «قولي بلا غلاظة» قالت: «أنت ما بتعرفي أنُه أبوه لغسان رئيس فرع مخابرات، رئيس فرع فلسطين؟!»، ضربت بيدي على جبهتي يدهشةٍ وقلت: «مش معقول؟» قالت: «معقول

ونص»، بقيت في مكاني جامدةً من الصدمة، بعد خمس أشهرٍ من العلاقة، لا أعرف من يكون والد حبيبي، أيُّ حمقاء أنا؟

غضبت من غبائي، ومن إخفاء غسان لعمل والده عنّي، صحيحٌ أنّي عددت أنَّ المهمَّ في هذه العلاقة غسان نفسه، بصرف النظر من يكون والده أو والدته. هذا صحيحٌ في المبدأ. بعد أن قالت صديقتي من يكون والد غسان، عرفت أنَّه من الممكن أن تؤثِّر على حياة المرء روابط ليس له يدٌ فيها. لم يكن من المهمِّ أن يعمل والد غسان تاجرًا أو معلِّمًا أو مهندسًا أو مدير بنك... الخ من الأعمال الأخرى، لكن أن يكون ضابطًا رفيعًا في أجهزة المخابرات ويدير أحد أقوى وأقسى أجهزتها، فهذا لا يترك أيَّ أحدٍ في العائلة خارج تأثيره. عندما التقيت غسان بعد أن عرفت ما يخفيه عنّي. قلت له: «ليش خبيت علي؟»، قال: «شو خبِّيت؟»، قلت: «أنت بتعرف. وإذا خبيت علي هاي المرَّة، رح تخبي علي كل مرة»، قال: «ما قصدت خبِّي عليكي، كنت بعرف أن هذا الشي ما رح يظل مخبا على طول، قلت بخبرها في الوقت المناسب»، قلت: «ليش خبيت علي؟»، قال: «أنا ما بحب يعاملني الناس على أساس مين هو أبوي، وأنا بعرف سمعة ضباط المخابرات بالبلد، ما كان بدي تخافي منّي، وتقطعي العلاقة منشان شغل أبي»، قلت: «بس إنت ما كان لازم تخبي علي. وهلأ كيف بدي أثق بأنَّك ما بتكذب علي؟»، قال: «أنا ما كذبت، خبيت الموضوع وقلت لحالي بنحكي فيه في الوقت المناسب. بس أنا ما كذبت، وادعيت أن أبي بشتغل شغل ثاني. أنا ما قلتلك شو بشتغل. بس ما كذبت. وهلأ عرفتي. وأنت فيكي تقرِّري هاي العلاقة، ومن دون خوف منّي ولا من أبي. بوعدك، إنُه ما أتصرَّف معك أيَّ تصرُّف سيِّئ إذا قرَّرت قطع العلاقة. أنا بحبك، وما بدي أجبرك على أيَّ شي»، قلت: «أنا غضبانة، وحاسة حالي حمارة، كيف ما بنتبه»، قال: «بسيطة، حقك علي، أنا الغلطان. أنا آسف»، من غيظي، أخذت أضربه على صدره، وهو يضحك. سكت بعد لحظاتٍ وقال: «أنا أسف جدًّا، ما قصدت أضايقك

أبدًا»، قلت ببعض الدلع: «لا تعيدها، وإذا عدتها ما بتعرف شو بصير؟»، قال: «حاضر، ما رح عيدها».

لم أعرف من قبل ما يعنيه أن يكون والد المرء ضابطًا كبيرًا في المخابرات. وبعد أن عرفت من يكون والد غسان فهمت المعنى الحقيقي لما يفعله الشخص عندما يشغل موقعًا رئيسيًّا في جهاز مخابراتٍ، ليس هناك أبوابٌ في الدوائر الحكوميَّة يمكن أن تُغلَقَ في وجه أيِّ اتصالٍ من هذه الجهة. تُستَقبَل طلبات هؤلاء المسؤولين بوصفها أوامر لا يمكن ردُّها من أيِّ موظَّفٍ مدنيٍّ. عندما أردت شهادة قيادة سيَّارة، لم يكن الأمر يحتاج سوى إلى استخراج الأوراق، أعطيتها لغسان، ليعود لي بشهادة القيادة بعد يومين، من دون أن أراجع أيَّ دائرةٍ أو أخضع لأيِّ اختبارٍ يتعلَّق بمعرفتي بإشارات المرور أو معرفتي قيادة السيارة ذاتها، كذلك الحال بشأن أيِّ معاملةٍ أو رخصةٌ عالقةٌ في دائرةٍ من دوائر الدولة. حلُّ مثل هكذا مشكلاتٍ عالقةٍ يجلب ثروةً. وعندما كان سائقٌ من العاملين مع والد غسان يُوصِلُنا أنا وغسان إلى حفلٍ في منطقة الديماس شمال دمشق، لم يكن السائق يقف على الإشارات الحمراء، كانت الشرطة تسجِّل رقم السيارة، من دون ردَّة فعلٍ من السائق. وعندما سألته: «ما بتخالفك الشرطة؟»، ضحك الرجل وقال بلهجةٍ علويَّةٍ واضحةٍ: «كيف لكان، بتخالفني، والشرطي بيكتب المخالفة، وبتروح على المرور، والمرور بشلحها بالزبالة»، قلت: «ليش بعملوا هيك؟»، قال: «سلامة فهمك يا آنسة. المرور بعرفوا من رقم السيارة أنها للمخابرات»، نظرت إلى غسان الذي يجلس إلى جانبي في المقعد الخلفي. هزَّ برأسه موافقًا على ما قاله السائق. عدم الخضوع للقانون يمنح القوَّة، ويمنح الشعور بالتفوُّق على الآخرين، فالمرء يستطيع في هذه الحالة القيام بأشياء، الآخرون غير قادرين على القيام بها، أو يحصل على أشياء بطريقةٍ أسهل ممَّا يحصل الآخرون عليها. وهذه عندما تُوَظَّفُ في تسهيل معاملات الآخرين وأوضاعهم، يمكن تحويلها إلى ثروةٍ ماليَّةٍ، بتقديم خدماتٍ من

أشخاص، لا تقع هذه الخدمات في إطار مهمَّاتهم، لكنَّهم يستطيعون فرض قرارٍ بشأنها على من تقع هذه المهمَّات في إطار مسؤوليَّته بحكم سلطتهم، ليس على هذه الجهة فحسب، بل وعلى البلد بالكامل. في البداية ظننت أنَّ غسان يتعفَّف ويخجل من عمل والده، بسبب السمعة السيِّئة لضبَّاط المخابرات في البلد، كان تقديري خاطئًا، لأنِّي لا أعرف كيف يدير هؤلاء الناس حياتهم، وعرفت مع الوقت أنَّها لا تشبه حياتنا. أحبُّ غسان أن يظهر بمظهر المتواضع، الذي شأنه شأن الطلاب الآخرين، طالبٌ جامعيٌّ لطيفٌ مع الآخرين، يخفي هوية أبيه، لأنَّه لا يريد أن يستند إليها بفرض سلطة على الآخرين، وكان يسخر من أولاد الضبَّاط الآخرين الذين يستعرضون مكانة آبائهم بوصفهم امتدادًا لهذه المكانة، يستطيعون استثمارها بخدماتٍ استعراضيَّةٍ، للتدليل على قوَّتهم ومكانتهم أمام زملائهم المبهورين من أبناء السلطة، الذين يسعون إلى إقامة علاقات صداقةٍ معهم، حتَّى عندما يحتاجون إلى خدمةٍ في هذا المكان أو ذاك من مؤسَّسات الدولة، يكون هناك من يستندون عليه. لم يرغب غسان فعلًا أن يعرف الآخرون عمل أبيه في البلد، والقليلون الذين عرفوا عمل أبيه طلب منهم ألَّا يتحدَّثوا عن الموضوع، هذا ما منحه صورة المتواضع بين أصدقاءه الذين يعرفون. كانت الصورة خادعةً، كان أذكى من الطلَّاب الاستعراضيِّين، يأخذ مسافةً عن أبيه، ويقيم علاقاتٍ يعتقد أنَّها أكثر مصداقيَّةً من العلاقات التي يقيمها أولاد الضبَّاط الآخرين. ولكن هذا لم يكن يعني أنَّه لا يستخدم سلطة والده في تنفيذ ما يشاء، لكنَّه لم يكن يستخدمها سوى في المواقف التي كان يعتقد أنَّها أكثر جدوى. فلم يكن هناك أيُّ معنى لأن يقول لسائق تكسي، أنَّ والده رئيس فرع مخابراتٍ، فهذا لن يغيِّر شيئًا ذا أهميَّةٍ، حتَّى لو تخلَّى السائق عن أجرة التاكسي فهذا لا معنى له. وبدل أن يختار الآخرون المشاكل التي يريدونه التدخُّل فيها، يختار هو هذه المشاكل، التي يكون مردودها الماليُّ كبيرًا. خلال علاقتنا فهمت أنَّه حلَّ عن طريق والده

الكثير من المشكلات لأصدقاء ومعارف كلَّفت ثرواتٍ، لم أعرف تمامًا من الذي قبض مبالغها، ولم أعرف هل كان هذا بالاتفاق مع والده، أم أنَّ والده يقدِّم هذه الخدمات من أجل ولده المدلَّل، أم من أجل نفسه. كان هناك الكثير من المال، ومن الواضح أنَّ غسان يستفيد منه. أصبحت أعرف الكثير من الأشياء على نحوٍ غير مباشرٍ، كنت أقدِّرها من دون أن أسأله عنها مباشرةً، وتجنَّبت خلال علاقتنا التحدُّث معه في هذا الموضوع، كما تجنَّبت قبول أيِّ مالٍ منه، كنت أعرف أنَّ قبول المال منه، سيجعلني أسقط من عينه، وأخسر الصورة التي جعلته يحبُّني. لم يكن ملاكًا، ولا أحد يمكن أن يكون ملاكًا في هذه البلد، حتَّى عندما تكون ملاكًا عليك أن تستخدم أساليب الشياطين حتَّى تستطيع العيش. ما كنت أعرفه جيِّدًا أنَّ غسان يحبُّني فعلًا، لم أعرف إلى متى سيستمرُّ هذا الحب؟ وإلى أين سيصل؟ وهل نستطيع الزواج؟ كلُّ ذلك لم أكن أعرفه، لكنِّي كنت متأكِّدةً من أنَّه يحبُّني، ويحبُّني جدًّا، وأنا أحبُّه بجنونٍ. وهذا ما جعلني أرى ما يقوم به، من خلال نظرةٍ متسامحةٍ، تبريريَّةٍ، أنَّه وجد نفسه ابن هذا الرجل، وهذا ما لا يستطيع تغييره، وعليه التعايش معه، ولأنَّ البلد تسير باتجاهٍ محدَّدٍ، عليه مراعاة هذا الاتجاه، فهو لم يخلقه، جاء إلى الدنيا فوجد البلد تسير بهذه الطريقة، ووالده يعمل هذا العمل، فلا بأس أن يتكيَّف معه، ويحاول مساعدة الآخرين، حتَّى لو كان ذلك عن طريق المال، فإن وجد من يحتاج المساعدة، يساعده حتَّى عن طريق المال، أفضل من تبقى المشكلة عالقةً من دون حلٍّ. كنت أعرف أنِّي أغالط نفسي، وكنت أعرف أنَّ غسان يستفيد من واقع قائمٍ ويسهم في صناعته، ما كان ليستفيد لو كانت الناس قادرةً على حلِّ مشكلاتها بذات الطريقة وبالسويَّة نفسها، وكان للجميع المكانة ذاتها أمام السلطات. وأكثر من ذلك، إذا كان غسان -ولا أعرف إذا كان هذا ينطبق على والده أيضًا- يحلُّ مشكلاتٍ ليست من صنعه. فهناك الكثير ممَّن يشغلون مناصب رفيعةٍ يخلقون المشكلة من أجل حلِّها، بعد أن

يقبضوا ثروةً من أجل حلِّ المشكلة التي خلقوها بأنفسهم. انتابتني مشاعر متناقضةٌ خلال العلاقة مع غسان، الخوف من المنصب الذي يشغله والده، والذي يمكن من خلاله أن يؤذيني أو يؤذي أحدًا من عائلتي، في حال اختلفنا وقرَّر الانتقام منِّي. ومرتاحةٌ لأنِّي أحبُّ شخصًا أستطيع أنَّ أحلَّ الكثير من المشكلات التي قد أواجهها أو يواجهها أهلي عن طريق منصبٍ والده. خائفةٌ من أن يكون حبُّ غسان نزوةً يمكن أن تزول بعد مدَّةٍ، ومرتاحةٌ لأنِّي أخوض تجربة حبٍّ. خائفةٌ لأنِّي أعيش حالة عدم اليقين في هذه العلاقة، فأنا لا أعرف مصيرها، وسعيدةٌ لأنَّ غسان يحبُّني، وأنَّ منصب والده خارج معادلة الحبِّ الذي يجمعنا. الكثير من التناقضات غلَّفت هذه العلاقة، وكلَّما فكَّرت فيها، شعرت رأسي يكاد ينفجر، لذلك قرَّرت عدم التفكير وترك العلاقة تسير لوحدها إلى المصير الذي يناسبها.

أصبتُ بالصدمة عندما تظاهر الناس في البلد، ما الذي يريدونه؟ ولماذا يتظاهرون؟ وما الذي ستؤدِّي إليه المظاهرات غير الدم؟ لم أفهم كيف يذهب الناس إلى تخريب بلدهم الآمن؟ صحيح أنَّ البلد فيه الكثير من المشكلات، وعليه الكثير من الملاحظات، وفيه ظلمٌ هنا وهناك، لكن هذه الأشياء لا يمكن حلُّها من خلال تخريب الممتلكات العامَّة. أراد البعض تقليد الثورات في الدول الأخرى، لكنَّ هذا البلد ليس كالدول الأخرى التي ثارت فيها الناس على أنظمتها، التي لا تشبه النظام في هذا البلد، وهذا التقليد جعل الناس تحتضن المتآمرين على البلد، من الإرهابيِّين والعصابات المسلَّحة. هناك الكثير من المطالب المحقَّة التي طالب بها الناس، وهذا ما قاله الرئيس نفسه، لم تكن المشكلة في مطالب الناس المحقَّة، لكنَّها في العصابات الإرهابيَّة التي دخلت البلد وركبت موجة المظاهرات المحقَّة. لقد قابل الرئيس الوفود من كلِّ المحافظات والمناطق ووعدهم بالإصلاح والاستجابة للمطالب المحقَّة، على أن يهدَّأ الوضع وأن تعود الناس إلى أعمالها. لكن ما الذي حصل؟ كان الرد على النوايا الحسنة للرئيس،

بالتصعيد واللجوء إلى السلاح أكثر فأكثر. وظهرت المؤامرة الكاملة على البلد بتحالف الجميع في المنطقة وخارجها ومحاصرة البلد، كلُّ ذلك من أجل إسقاط النظام، الذي يشكِّل آخر قلاع المقاومة للمخطَّطات المعادية. لا أحد يستطيع رفض مطالب الناس المحقَّة، ولا أحد ضدَّ العدالة، وأن تأخذ الناس حقوقها، لكن هناك فرقٌ بين المطالبة بالحقوق وتخريب البلد. لقد ضخَّت بلدان الخليج وتركيا والولايات المتحدة، مليارات الدولارات لتهريب السلاح والرجال وتجنيدهم في الداخل من أجل إضعاف البلد وتبديد إنجازاتها الوطنيَّة. وقال لي غسان إنَّ الأجهزة الأمنيَّة، كانت مذهولةً من حجم تهريب السلاح والرجال إلى داخل البلد. لقد اعتُقِلَ المئات من الإرهابيِّين القادمين من الدولة الأخرى، الذين هرَّبوا الكثير من المال، ليشتروا ضعاف النفوس في البلد، ووجدوا بيئةً مناسبةً في بعض المناطق، حيث سيطر الإرهابيُّون على مناطق ومدنٍ في البلد، ما جعل المعركة كبيرةً، معتقدين بذلك يتحقَّق أملهم في تدمير الدولة بسرعةٍ. ويبدو أنَّ صمود البلد وإدارته للمعركة بطريقةٍ ذكيَّة وسريعةٍ والضرب بيدٍ من حديد لمواقع الإرهابيِّين، أفشل المخطَّط المعادي في إسقاط السلطة في البلد ودفعها للاستسلام وتنحِّي الرئيس. لم أفهم كيف يخرِّب البشر بلدهم؟! سواءً بنيَّةٍ حسنةٍ أو بنيَّةٍ سيِّئةٍ، فهذه البلد للجميع وليست للقابعين في المناصب، وعندما يُخرِّب المرء البلد، يخرِّب بذلك بلده وليس بلد المسؤولين فقط. لم أستطع تأييد المظاهرات التي عمَّت البلد، وتحولت إلى صراعٍ مسلَّحٍ أسال الكثير من الدماء في البلد، دماءٌ مجانيَّةٌ لم يستفد منها سوى أعداء البلد. لم أعبِّر عن آرائي السياسيَّة، فأنا لست مهتمَّةً بالسياسة، ولكن لم تترك الحالة المظلمة التي دخلتها البلد أحدًا خارج السياسة. بات الذهاب إلى الجامعة سياسةً، والحصول على جواز سفرٍ سياسةً، والكلام عن الغلاء سياسةً، والحديث عن بلادٍ أخرى سياسةً. انقسم الناس في البلد على نحوٍ حادٍّ، بين مؤيِّدٍ للإرهابيِّين ومؤيِّد للنظام، و هذا خلاف يمكن أن يُحَلَّ بالنقاش، بل بات صراعًا يعتمد

على السلاح من أجل حسمه. وهو ما جعل العائلات نفسها تنقسم بحدَّةٍ حول تأييد الدولة أو تأييد الارهابيِّين، لدرجة أصبح بعض الأخوة على طرفي الخنادق التي تطلق النار على بعضها.

منذ بدأت المظاهرات في البلد أصبحت أكثر خوفًا، سرعان ما ظهرت الحواجز العسكريَّة المدعومة بالدبَّابات التي انتشرت على طول طريقي إلى الجامعة التي تقع على طريق دمشق-درعا. كانت الأمور هادئةً أحيانًا، وفي أوقاتٍ أخرى تطلق الدبَّابات القذائف باتجاه المناطق المجاورة. وأحيانًا تكون مدعومةً بالطائرات المروحيَّة التي تطلق النار على مناطق في المحيط، لا أعرف أين تقع بالضبط قد تكون داريا وقد تكون المعضمية، أو الحجر الأسود أو غيرها. ازداد الوضع سوءًا في المخيَّم، سكَّان المناطق المحيطة التي يحتلُّها الإرهابيُّون في مناطق الحجر الأسود وحي التضامن، لجأوا إلى المخيَّم هربًا منهم، ومن القذائف التي تسقط عليهم ولا تميِّز الإرهابيَّ من المواطن المسالم، ولأنَّ عليهم أن ينجوا بأطفالهم، هربوا ولجأوا إلى أقرب منطقةٍ آمنةٍ وهي المخيَّم. فتحت المدارس والجوامع أبوابها لاستقبال هؤلاء الهاربين. ولأنَّ بيتنا يطلُّ على ثلاثة مدارس، كنت أنظر إلى اللاجئين من شبَّاك مطبخنا الذي يطلُّ عليهم، لأرى نساءً وأطفالًا وعجائزَ في حالةٍ من الحزن والانتظار، بؤساء لا يعرفون مصيرهم ومصير منازلهم، هل ما زالت قائمةً؟ هل أحبَّتهم الذين رفضوا المغادرة ما زالوا أحياء بعد آخر قصفٍ؟ تُقطَع الاتصالات الهاتفيَّة عن المناطق التي تجري فيها اشتباكات، فينتظر اللاجئون الذين يقطنون تلك المناطق، مغادرة أحدًا من أهلهم المكان للاطمئنان عليهم، أو انتظار عودة شبكة الاتصال، وهذا يمكن أن يحتاج إلى يومين، من دون أن يعرف هؤلاء مصير أحبَّتهم. بات الجميع في البلد أسير القلق من المخاطر التي لا تعدُّ ولا تحصى بعد انفجار الصراع الدمويِّ على أوسع نطاق. وكانت ألوان الملابس المنشورة في الحدائق الخلفيَّة للمدارس، التي عُلِّقَت على مناشر غسيل رُتِّبَت كيفما اتفق، هي عنوان سكَّان البلد الذين باتت

حياتهم منشورةً ومختلطةً على حبل غسيلٍ يمتد على طول البلد وعرضها. أحدٌ يعرف إلى أين تسير البلد؟ وبالتالي لا أحد يعرف إلى أين تسير حياته؟ بات المجهول العنوان الذي يوحِّد الجميع، مصيرٌ شخصيٌّ وعائليٌّ مجهول في بلد مصيره مجهول كمصير ساكنيه. قلقت على مصير المخيَّم، قلقت على مصيري ومصير عائلتي وجدِّي وأعمامي وأخوالي الذين كانوا غادروا بيوتهم مبكرًا، لأنَّها واقعةٌ على خطوط الاشتباكات منذ بدأت. كلُّ يومٍ أقول لنفسي، أنَّ الأمور ستنتهي خلال أيَّامٍ، لأكتشف أنَّ وضع البلد أصبح أسوأ من السابق، وباتت معادلة الأسوأ هو القادم هي المعادلة السائدة.

لم ينجُ أحدٌ ممَّا جرى في البلد، انهارت أوضاع عائلتي، لم تكن تعجبني أوضاعنا السابقة على انفجار الصراع، مع حالة الانهيار التي عشناها، بات وضعنا السابق حلمٌ يصعب الوصول إليه. ولم يصيبنا هذا الانهيار وحدنا، بل أصاب أعمامي وأخوالي أيضًا. توقَّفت ورشة أعمامي عن العمل، صحيحٌ في البداية تحسن العمل تحسُّنًا كبيرًا، لأنَّ هناك الكثير من مخالفات البناء التي استغلَّ أصحابها حالة الفلتان وعدم تنفيذ القانون مع تردِّي الأوضاع الأمنيَّة، لكنَّ الذين أقاموا هذه المخالفات، ظنُّوا أنَّ الأزمة ستكون لأسابيع محدودةٍ وعليهم استغلال الوضع، لأنَّهم مهما كانت النتائج، يكونون قد حصلوا على أبنيتهم التي باتت أمرًا واقعًا، رغم أنَّها لم تحصل على التراخيص اللازمة. طال الصراع وأخذ طابعًا مسلَّحًا بعد أشهرٍ من المظاهرات، ما جعل الكثير من المناطق تتعرَّض للقصف، وانهارت المباني وهرب السكَّان إلى أماكن أخرى. وبعد موجةٍ هائلةٍ من البناء المخالف، توقَّف البناء نهائيًّا، وبات أعمامي بلا عملٍ، مع ديونٍ كثيرةٍ على الآخرين غير قادرين على تحصيلها، لأنَّ الآخرين مثلهم باتوا غير قادرين على تحصيل أجورهم من الآخرين. لقد دخل الجميع تقريبًا في مرحلة إفلاسٍ، وازدادت الحياة صعوبةً يومًا بعد يومٍ. لم يكن وضع أخوالي أحسن حالًا، فقد توقَّفت تجارة السيَّارات عمليًّا منذ بداية الصراع، مع بداية الصدامات في محيط المخيَّم،

كانت منطقة سوق السيَّارات الواقعة بين المخيَّم والحجر الأسود من خطوط الاشتباك المسلَّح الأولى في المنطقة، ما دفع أصحاب المكاتب إلى إغلاقها لتتحوَّل المنطقة إلى مكانٍ خطرٍ وشبه مهجورٍ. خسر أبي عمله في فترةٍ مبكرةٍ من الأزمة، لأنَّ صاحب المعمل الذي عمل فيه قرَّر إغلاق المعمل ومغادرة البلد، بعد احتراق جزءٍ منه بسبب اشتباك مسلَّحٍ وصل إليه، ولأنَّ الخسائر باتت أكبر من الأرباح، إضافةً لمخاطر الصراع على أصحاب المال، من اختطافهم من أجل الفدية، وقد جرى اختطاف الكثيرين من أجل المال. بعد أن خسر أبي عمله و عندنا دخل، وخسرت أمِّي الراتب الشهريَّ الذي كانت تتقاضاه من أرباح مكاتب السيَّارات بعد وفاة جدِّي بوصف هذا الراتب حصَّتها في تركة جدِّي من أجرة المكاتب، التي باتوا كلَّهم شركاء فيها بعد وفاته. رتَّبت أمي حياتنا على أساس أنَّ هذا الدخل سيبقى مستمرًّا إلى الأبد، واعتمادًا على هذا الدخل كانت تتحدَّى أبي كما جرى بشأن دراستي الجامعيَّة. وبعد خسارة كلِّ شيءٍ، والغلاء المستمرِّ في البلد، أصبح من الصعب أن استمرَّ في دراستي الجامعيَّة، لأنَّ أهلي ببساطةٍ لم يعودوا قادرين على دفع أقساطها. كنت أعرف أنَّ مدَّخراتنا العائليَّة ليست كبيرةً، وأعرف أنَّها ستتبخَّر بسرعةٍ مع هذا الوضع، لم يقل أبي شيئًا عن الوضع الماليِّ، ولم تجرؤ أمِّي على الشكوى. وكنت أقضي الكثير من الوقت عند خالتي سميرة في صحنايا، بحجَّة الحواجز على الطريق، وأنَّ الوصول إلى جامعتي من عندها أسهل بكثيرٍ، لأنَّ الكثير من الحواجز الأكثر قسوةً موجودةٌ بين صحنايا ووسط دمشق. كما أنِّي كنت بحاجةٍ للهرب من واقع المخيَّم المتردِّي، صحيحٌ أنَّ الوضع يتردَّى في كلِّ مكانٍ، لكن في المخيَّم التردِّي أسرع من أيِّ مكانٍ آخر، لا أعرف ما السبب، هل هو وجوده على خطوط التماس في مناطق الاشتباكات؟ هل هو موقعه؟ هل هو بسبب طبيعة سكَّانه؟ لم أفهم لماذا المخيَّم؟ بعد ذلك لم أعد أسأل هذه الأسئلة، إنَّه في النهاية مكانٌ في هذا البلد الذي يحترق، وبات من الواضح ليس

هناك حصانةٌ لأيِّ مكانٍ في ظل الجنون الذي يخترق البلد من أقصاها إلى أقصاها.

في اليوم المشؤوم الذي سقط فيه المخيَّم بيد الإرهابيين كنت هناك، فقد توقَّف الدوام في الجامعة تحضيراً للامتحانات، و عندي حجَّةٌ للبقاء عند خالتي في صحنايا. وأنا في البيت، وفي كلِّ مرَّةٍ أنظر فيها من شبَّاك المطبخ إلى اللاجئين الذين تتزايد أعدادهم يومًا بعد يومٍ، أشعر بالحزن على مصير هؤلاء البؤساء، لا سيَّما الأطفال الذين لا ذنب لهم، اللاجئون بؤساء، زادت أوضاعهم بؤسًا بعد انفجار الأحداث. منذ وقتٍ مبكر، وقع الخلاف بين أبي وأمي بشأن البقاء في المخيَّم بعد انفجار الأحداث، وقبلها وقع الخلاف على استمرار السكن في المخيَّم بعد زواجهما. أرادت أمِّي السكن خارج المخيَّم، لأن المخيَّم لا يصلح للعيش برأيها. أصرَّ أبي على البقاء، ورفض رفضًا قاطعًا الخروج منه، لا قبل الأزمة ولا بعد انفجارها، كان يقول: «كل معارفي وأصدقائي وأهلي في المخيَّم، شو بخلِّيني أروح أسكن بمكان ثاني، ما بعرف حدا فيه، وهو مش أحسن من المخيَّم أصلًا»، وأحيانًا يضيف: «منشان سخافات الست فرح» ملمِّحًا إلى قناعات أمِّي بشأن مكانة المخيَّم التي لا تليق بها.

في ذلك اليوم لم يُطرح الخروج من المخيَّم للنقاش، إنَّما أصبح تحصيل حاصل للكثير من المتمسِّكين بالبقاء في المخيَّم. دخول الإرهابيِّين إلى المخيَّم، وقصفه بالطائرات الحربيَّة، أعلنت واقعًا جديدًا للمخيَّم، لم يكن لسكَّانه القدرة على احتماله. بعد قصف الطائرة الحربيَّة، اتخذ أغلب سكَّان المخيَّم القرار بالخروج والذهاب إلى مكانٍ آخر. خلال ساعاتٍ المخيَّم ذلك المكان الذي كان سابقًا، اقتنع السكَّان، أنَّ مكانهم الآمن أصبح خطرًا عليهم وعلى أولادهم، ولحماية أنفسهم قرَّروا الرحيل.

في حياة المرء أيَّامٌ في غاية الثقل، تحتلُّ مكانها في الذاكرة، وترفض الدخول في النسيان مهما حصل بعدها، لأنَّها أيَّامٌ مفصليَّةٌ في حياة من

عاشوها، وذلك اليوم كان مفصليًّا في حياتي وحياة كلِّ الذين كانوا في المخيَّم، وثقيلٌ ثقل جبلٍ. تمنَّيت لو كنت عند خالتي في صحنايا لسببٍ أو آخر، ولم أعش تلك التجربة وأشاهد تلك المناظر التي حفرت تفاصيلها عميقًا في ذاكرتي، وكأنَّها وشمٌ كوى ذاكرتي وحياتي وحياة كلِّ من خاض التجربة.

كنت جالسةً في غرفتنا على سريري، أختي لبنة على سريرها مقابلي. لم نكن نعرف أنَّ الإرهابيِّين دخلوا المخيَّم من دون قتالٍ وبات تحت سيطرتهم، وأنَّ المؤيِّدين للدولة فرُّوا إلى خارج المخيَّم. دوى انفجارٌ قويٌّ لم نسمع مثله من قبل في المخيَّم، ارتجفت أنا، وأختي صرخت بصوتٍ أرعبني أكثر من صوت الصاروخ، سألتني لبنة وهي تبكي وترتجف: «شو هذا؟»، قلت وكلُّ جسدي يرتعش: «ما بعرف»، قالت: «تغريد، أنا خايفة»، قلت: «وأنا كمان خايفة»، قالت: «شو رح نعمل؟»، قلت: «ولا شيء بنستنى لنشوف، ننتظر»، قالت: «رح أشوف أمي»، نزلت عن سريرها وسارت باتجاه باب الغرفة نصف المفتوح، لم تصل منتصف الغرفة، حتَّى دوى انفجارٌ هائلٌ رماني من على سريري وطرح لبنة أرضًا، وصفق الباب بالجدار، والغبار جاء كعاصفةٍ من باب الغرفة المفتوح. لم أفهم ما جرى، وجدت نفسي أحتضن لبنة، وأتفقَّد جسدها، ثمَّ أتفقد جسدي، شاهدتها تبكي لكنِّي لم أسمع صوت بكائها، وأنا كنت أبكي من دون أن أسمع صوتي. وقفت وساعدتها على الوقوف، خرجنا إلى الصالة كان أبي يجلس وسط الصالة ويحتضن أخي مهدي الذي يبكي، وأشاهد دموعه من دون سماعه. ركضت أنا وأختي ورمينا أنفسنا على أبي، احتضننا أبي الخائف مثلنا. كان يتكلَّم معي من دون أن اسمعه، وعندما سمعت جزءًا من حديثه بصعوبةٍ، فهمت أنه يسألني عن أمِّي. قلت: «ما بعرف» تركنا وذهب إلى غرفة نومهم، تبعته أنا وإخوتي. شاهدنا أمِّي ممدَّدةً على الأرض والحطام يحيط بها. رمى أبي الشرشف الذي يغطي السرير وما عليه من حطام وأوساخ جانباً، ورفع أمِّي عليه. نظر إليَّ، وقال كلامًا، فهمت من إشارة يده أنَّه

يطلب كأسًا من الماء. ذهبت إلى المطبخ وأحضرته. أخذ أبي كأس الماء منِّي، وبدأ يرشُّ وجه أمِّي التي بدأت تصحو، عند ذلك تراجع خوفنا أنا وإخوتي، ظننت أنَّ مكروهًا أصابها، وعندما صحت من إغمائها عرفت أنَّها سليمةٌ. كانت تسأل وهي تتحسَّس جسدها: «أنا ميتة؟»، قال أبي: «إنت بخير... أنت بخير»، انفجر الصاروخ خلف البناية التي نسكن فيها، وسقط في الفناء الخلفيِّ للمدرسة التي نطلُّ عليها. حطَّم الانفجار النوافذ وعددًا من الأبواب في بيتنا وملأه بالغبار، ولأنَّ النوافذ تحطَّمت، تحول بيتنا إلى مكانٍ باردٍ بسبب الريح الباردة لكانون الثاني. قال أبي: «روحوا على غرفة البنات هي المكان الأدفا بالبيت»، ذهبنا جميعًا إلى غرفتنا. جلست أمِّي على سريري تغطِّي نفسها بحرامٍ من الصوف وترتجف، وجلست لبنة إلى جوارها. أمَّا مهدي فرفع غطاء سرير لبنة ونزل تحته. وجلست أنا إلى جواره. قال أبي: «سأطلُّ على أبي أطمن عليه وأرجع»، عندما نزل أبي إلى بيت جدِّي. قلت لأمي المرتجفة: «أعملك شاي منشان تدفي»، قالت: «يا ريت يا تغريد»، لم أكن أقلَّ خوفًا منهم، خروجي من الغرفة إلى المطبخ كان أفضل لي، لأنَّ خوفي بات أقلَّ. عندما كنت في الغرفة، عداني خوفهم، أي أنِّي أضيف خوفهم إلى خوفي. عندما عدت بالشاي أصبح الوضع أفضل. لم تغادر أمِّي خوفها، وهذا ما أشعرها بالبرد أكثر، ولم تشعر بالدفء حتَّى بعد أن شربت الشاي الساخن.

دخول الإرهابيِّين إلى المخيَّم وقصف الطائرة الحربيَّة أصاب الجميع بالصدمة، كبارًا وصغارًا، و أحدٌ قادرًا على التفكير. لم يرد أحد في المخيَّم رؤية هذا المصير للمخيَّم ولنفسه ولعائلته، لكنَّه وقع وأصبحوا مجبرين على التعامل معه. بدأنا أنا وإخوتي محاولة تنظيف البيت وإعادة الأشياء التي سقطت إلى أماكنها. عندما عاد أبي، قال: «بكرة الصبح لازم نطلع من المخيَّم، ما عاد الوضع آمن. ما تشغلوا حالكو بالتنظيف»، نظرت أمِّي إلى أبي ولم تعلِّق بشيءٍ. قال أبي: «شوفوا شو الأشياء المهمة اللي لازم تأخدوها

معكم، وجمعوها مع بعض، والصبح رح نطلع»، اتفق أبي مع خالي إبراهيم على أن نخرج معًا من المخيَّم، بعد أن يجهِّز خالي وعائلته أنفسهم، يمرُّ علينا ويصطحبنا معه. اتصلت أمِّي بخالتي سميرة في صحنايا، وسألتها إذا كان من الممكن أن نلجأ عندها. قالت خالتي باسمها وباسم زوجها: «البيت بيتكم»، في المساء ذهب أبي مرَّةً ثانية عند جدِّي. قال: «نازل أحكي معه»، كانت فكرة أن يبقى جدِّي في المخيَّم الموعود بالحصار تعذِّب أبي. تجاوز جدِّي السبعين من عمره، وعنده أمراض ضعف العضلة القلبيَّة والضغط والسكري وغيرها، ولم تعد قدمه المصابة تستطيع حمله. لذلك حاول أبي كما أعمامي وعمَّاتي إقناعه بالخروج معنا. ذهب وعاد بعد حوالي الساعة، سألت أبي: «جدي بدو يجي معنا؟»، قال: «لأ، جدك مقرِّر ما يطلع، عمِّك أحمد بدو يظل معوا»، حزنت لأنَّ جدِّي لا يريد الخروج، وضع البلد من دون حصار كان يقتله، وهو يرى حياته تنهار. كان في وضعٍ صعبٍ في تلك الليلة، كلُّ محاولات إقناعه جاءت من دون جدوى، فهو معروفٌ بعناده. عندما ذهبت إليه وودَّعته في الصباح، عرفت أنَّ جدِّي حاضرٌ بجسده، لكنَّه فعليًّا موجودٌ في عالمٍ آخر، عيناه غائمتان، وهو متعبٌ، لا يسمع تمامًا ما يُقال له، ويردُّ بتمتمةٍ من الصعب على الواقف أمامه سماعها أو فهمها. احتضنته وأنا أقول: «جدي دير بالك على حالك»، هزَّ رأسه بالإيجاب من دون أن يضيف أيَّ كلمةٍ.

في صباح اليوم التالي حضر خالي لاصطحابنا، كان قد خصَّص المقاعد الأخيرة في الميكروباص للأغراض، والمقاعد الأماميَّة لنا. كنَّا عشرة أشخاص لأنَّ الأغراض أخذت المقعدين الخلفيَّين، كان علينا نحن السبعة أن نجلس في مقعدين. جلس أبي وابن خالي إلى جانب خالي الذي يقود الميكروباص. وجلست أمِّي وزوجة خالي وابنة خالي في كرسي الميكروباص الخلفي، وانحشرنا أنا وإخوتي وابن خالي في المقعد الأخير إلى جانب الأغراض. قاد خالي الميكروباص باتجاه شارع اليرموك. منذ بدأنا نضع أغراضنا في

الميكروباص، كانت العائلات والأفراد يمرُّون من أمام منزلنا باتجاه شارع اليرموك بأعدادٍ كبيرةٍ. وعندما وصلنا إلى شارع اليرموك، لم أتوقَّع هذا الحشد من البشر الذين يسيرون خارجين من المخيَّم، لطالما شاهدت شارع اليرموك مزدحمًا في أواخر أيَّام رمضان التي تسبق العيد، حيث البشر يسيرون في كلِّ الاتجاهات. في ذلك اليوم سار الناس باتجاهٍ واحدٍ إلى خارج المخيَّم. لم يكن هذا حشد العيد، إنَّما حشد القيامة، منظر البشر مرعبٌ، كأنَّهم يُقادون إلى الجحيم، ارتسم التيه ومعالم الضياع القاسية على الوجوه. لم يفهم الأطفال ما الذي يجري؟ ولماذا أُيقظوا من نومهم من أجل الخروج المبكر من المخيَّم، ينظرون مذهولين إلى دموع آباءهم وإلى حشد الناس الكبير المحيط بهم، لا يعرفون لماذا هذا الازدحام؟ وفي ذهولهم يسهى الآباء والأمهات عن أولادهم، الذين سرعان ما يضيعون عن أهلهم لارتباكهم ولاختلاط الأمر عليهم باعتقادهم بأنَّ آخرين هم آباءهم أو أمهاتهم. تبكي الأمَّهات ويلطمن وجهوهن، يبكي الآباء محاولين إخفاء دموعهم. يخاف الأطفال من حالة الهلع والبكاء المحيطة بهم، فيبكون بدورهم. يبكي العجائز الذين يشعرون أنفسهم حملًا ثقيلًا على أحبَّتهم. شعرت أنَّ الكلَّ يبكي، أنظر إلى البؤساء الذاهبين إلى المجهول مثلنا، أشيح بوجهي إلى الطرف الآخر، لأرى بؤساء آخرين يشبهون الذين يسيرون على الجانب الآخر، أحدِّق بالناس داخل السيَّارات، المشهد نفسه، الجميع ذاهبون إلى الجحيم، يسيرون صامتين، تقول وجوههم ما يعجز الكلام عن التعبير عنه. خيَّم الخوف على المكان، الجميع خائفٌ، والخوف يعدي الجميع، الجميع يشعرون أنَّهم قد خسروا كلَّ شيءٍ، بيوتهم وأعمالهم، وأغراضهم الحميمة وحياتهم. يذهبون إلى أماكن لا يعرفونها، ولا يعرفون ما الذي سيفعلونه فيها. كان المخيَّم حياتهم، هناك من لم يغادره لسنواتٍ طويلةٍ من قبل، ولم يكن يحتاج هذه المغادرة، فكلُّ ما يحتاجه موجودٌ هنا، وأقاربه وأصدقائه هنا، ما الذي سيفعله خارج المخيَّم. اليوم يُجبَرُ بعد سنواتٍ من سجن نفسه الاختياريِّ في

المخيَّم على الخروج منه، ولا يعرف متى سيعود؟ هذا إذا كان هناك عودةٌ يومًا ما. من ورائهم جميعًا تأمَّلت أمِّي وأبي وخالي وزوجته. ساد الصمت منذ بدأ الميكروباص بالتحرُّك، لم يكن أحدٌ منَّا قادرًا على التعليق. شاهدت دموع أمِّي التي تبكي بصمتٍ وتحاول إخفاء دموعها عن زوجة خالي التي تجلس إلى جوارها، تمسح أنفها بين الحين والآخر بمنديلٍ ورقيٍّ تحمله بيدها، تشيح بوجهها إلى الطرف الآخر، حتى لا ترى زوجة خالي دموعها. ترى زوجة خالي الدموع ولا تسأل أمِّي، لأنَّ حالها من حال أمي، وكأنَّها تخاف إذا ما سألتها عن دموعها أن تنفجرا بالبكاء الذي سيصيبنا جميعًا بالعدوى لا محالة. كذلك ترى أمِّي دموع زوجة خالي، ولا تسألها عنها للسبب ذاته. لم يكن أبي وخالي أحسن حالًا، لم أرَ وجوههم تمامًا، لكنِّي أعرف بما يشعرون، ولأنِّي أرى طرف وجه أبي، فكنت أرى دموعه التي تسقط رغمًا عنه. عندما وصلنا إلى منتصف شارع اليرموك، أغمض عينيه وكأنَّه لا يريد أن يرى ما حوله. وكنت أعرف أنَّ أبي وخالي لا يديرون وجوههم باتجاهنا حتَّى لا نرى دموعهما. كان الطريق إلى خارج المخيَّم، أطول وأقسى طريق نقطعه، إنَّه الطريق الصعب الذي خجلنا أن ننظر فيه إلى بعضنا ونحن نخرج من المخيَّم، لأنَّ الجميع شعر أنَّه الخروج الأكثر قسوةً والذي لا أحد يعرف مصيره بعد هذا الخروج.

عندما وصلنا إلى صحنايا، شعرت أنَّ أبي وأمي أصبحا شخصين مختلفين عن أولئك الذين عاشا في المخيَّم، لم أعرف ما الذي تغيَّر بالضبط، لكنَّهم لم يكونا كما كانا قبل المغادرة، ولم يتصرَّفا كما كانا في السابق. أمِّي التي طوال علاقتها مع أبي تريد الخروج من المخيَّم، لم تكن سعيدةً بهذا الخروج، صحيحٌ أنَّها أرادت هذا الخروج بقوَّةٍ سابقًا، لكنَّها بالتأكيد لم تُرِدهُ بهذه الطريقة. أرادته من أجل تغيير حياتنا إلى الأفضل، لم تكن تريد نكبةً حتَّى نخرج من المخيَّم، حطَّمت هذه النكبة حلمها وأوقفت ادعاءاتها بالمكانة الرفيعة لها ولعائلتها، أصبح الكلُّ متساويين بوصفهم منكوبين باللجوء.

تحوَّلت إلى شخصٍ مكسورٍ يملك حتَّى القدرة على الادعاء. تأثَّر أبي مبكرًا في الصراع بخسارة عمله، رغم ذلك كان المخيَّم ملاذًا معقولًا لرجلٍ لم يعتد الجلوس في البيت، فعندما خسر عمله، وجد الكثير من الأصدقاء والمعارف والأقارب الذين يقضي الوقت معهم، حتَّى لا يبقى في البيت ويسبِّب الضجر لنا ولنفسه. وكانت هذه العلاقات متنفَّسًا للشكوى وللنقاش حول أوضاع البلد والى أين يسير الصراع فيها؟ لم يتوقَّع أبي أن ينحدر الوضع لدرجة الخروج من المخيَّم، لم يتوقَّع ذهاب البلد إلى هذا المستوى من الصراع الحادِّ الذي يراكم الضحايا يومًا بعد يوم، ولا أحد يرى أفقًا لهذا الصراع الذي يزداد دمويَّةً. كلُّ يومٍ توقَّع فيه أبي أن تهدأ الأوضاع ويعود الوضع إلى سابق عهده، وكان الوضع يزداد سوءًا على عكس توقُّعاته. تمنَّى سقوط النظام، لم أتفق معه في رأيه هذا، لأنَّ النظام رغم كلِّ عيوبه، أفضل من المعارضة الإرهابيَّة المتطرِّفة التي تريد إسقاطه وتفرض إسلامها المتشدِّد على البلد. لم أرغب في النقاش السياسيِّ مع أبي، لا حول هذا الموضوع ولا غيره. لأنَّ معارضة الأهل حتَّى في رأيٍ سياسيٍّ يُعدُّ نوعًا من قلَّة الأدب في هذه البلاد. ظنَّ أبي أنَّ البلد سيسوء وضعها إلى درجةٍ يتحمَّلها، ويتجاوزها خلال مدَّةٍ قريبةٍ، لكنَّ الوضع أصبح أسوأ من كوابيسه، فبات كالضائع في صحنايا، فهو لم يكن يرغب في التضييق علينا عند خالتي، لذلك يغادر البيت صباحًا ولا يأتي إلَّا آخر الليل، وكنَّا نعرف أنَّه يملك العلاقات التي كان يملكها في المخيَّم. يذهب إلى زوج عمَّتي ميرفت، إذا وجده يقضيا الوقت معًا، إذا لم يجده سيقضي الوقت وحيدًا هنا أو هناك. هرم أبي بعد أيَّامٍ معدودةٍ من وصولنا إلى صحنايا. لم يكن حال خالي إبراهيم وزوجته أفضل حالًا، ويبدو أنَّ الخروج من المخيَّم كان مرضًا معديًا، مرض الإحساس بالكارثة الذي أصاب الجميع بصرف النظر عن المكان الذي خرجوا إليه، سواءً كان في صحنايا أم جرمانا أم قادسيا، أم خارج البلد إلى لبنان ومصر وغيرها، هذا شيءٌ مشتركٌ شعر به الجميع في فقدانهم للمخيَّم بمعنى المكان

الذي احتضن حياتهم، لم يكن هذا شيئًا محسوسًا، ولم يكن أحدٌ قادرًا على شرح عمق الخسارة التي يشعر بها الجميع، إحساس النكبة الجديدة هو الجامع بين سكَّان المخيَّم الذين غادروه سواءً كانوا فلسطينيِّين أو سوريِّين، الذي ربطهم بذكرى ستبقى معهم حتَّى مماتهم.

أنا مثل الجميع، شكل الخروج بالنسبة لي الانتقال من العيش في انتظار حلٍّ إلى البحث عن حلٍّ. في المخيَّم انتظرنا الحلَّ ونحن في صحنايا، صرنا نبحث عن حلٍّ للمكان الذي سنقيم فيه. لم أعد أذهب إلى الجامعة، كما في السابق لأنِّي بتُّ متأكِّدةً أنَّ أهلي لن يستطيعوا دفع رسم التسجيل الجامعيِّ للعام القادم، لم يعودوا يملكون المال. كنت أذهب إلى الجامعة، كي أقضي الوقت وليس من أجل الدراسة. لم أذهب إلى الجامعة من أجل الدراسة، بل من أجل غسان، الدراسة أصبح مستقبلها معروفًا بعد ما جرى في المخيَّم. ولم أعد قادرةً على مقابلة غسان في الجامعة، فهو يأتي إلى هناك، ومنذ أن أصبح الوضع الأمنيُّ سيِّئًا في دمشق، قرَّر والد غسان إرساله إلى طرطوس، فهناك المدينة أكثر أمانًا لأبناء الطائفة العلويَّة. ف والد غسان يثق بأنَّ الحراسات قادرةٌ على حماية ابنه في ظلِّ الأوضاع الجديدة. منذ بداية الأزمة فرض والده عليه هذه الحراسات، التي كانت لافتةً، والذي لم يكن يعرف من هو غسان؟ بات يعرفه بسبب الحراسات الواضحة التي تحيط بأبناء المسؤولين في الجامعة، والتي انكشف أنَّ غسان واحدٌ منهم، بعد نجاحه في إخفاء شخصيَّته على الكثيرين قبل فرض المرافقة عليه. بعد التفجيرات الكبيرة التي شهدتها دمشق، أيقن والده أنَّ أيَّ حراسةٍ لن تحميه من تفجير من هذا النوع، سواءً كان يستهدفه أو كان موجودًا في منطقة التفجير بالمصادفة، لذلك اتخذ قراره بذهاب ابنه الوحيد إلى طرطوس، فهو لن يحتمل فكرة خسارته في ظلِّ الجنون الذي يعيشه البلد. بعودة غسان إلى طرطوس، افتقدته، ولم تكن مكالمات الهاتف كافيةً لتخفف شوقي إليه. زرته مرَّةً واحدةً في طرطوس قبل أن أغادر البلد، كانوا

يومين، خليطٌ من الفرح والحزن، الفرح بلقاء حبيبي، والحزن لأنِّي مضطرةٌ إلى تركه والعودة إلى دمشق بعد يومين، ولا أعرف إذا كنت سأراه مرَّةً أخرى، أم أنَّها ستكون المرَّة الأخيرة. حينها لم أصدِّق أنِّي أراه، ولم أصدِّق أنِّي سأتركه وأغادر البلد. لكن ما لا أصدِّقه عليَّ فعله. في هذا اللقاء لم نكن قادرين على وضع خطَّةٍ مستقبليَّةٍ، فلا أحد يستطيع وضع الخطط، في بلد لا أحد يعرف إلى أين ذاهب؟ ولا أحد يعرف ما هو مصير ضبَّاط الأجهزة الأمنيَّة؟ في هذه الزيارة فهمت أنَّ غسان ليس قلقًا على والده ممَّا يجري في البلد فحسب، بل قلقٌ على كلِّ العائلة وعلى كلِّ الطائفة أيضًا، وهو على قناعةٍ بأنَّه في حال سقوط النظام، فإنَّ هذا سيؤدِّي إلى مذابح جماعيَّة ضدَّ طائفته، لذلك ليس على العلويِّين سوى القتال حتَّى النهاية، فلا خيار أمامهم سوى الانتصار في هذه الحرب التي فُرِضَت عليهم. في البداية دُهِشتُ من القناعة التي يحملها غسان، بشأن ما سيحدث للطائفة في حال هزيمة النظام، لكن عندما فكَّرت جيِّدًا، شعرت أنَّه محقٌّ، إنَّ التهديد الذي تتعرَّض له الطائفة هو تهديدٌ حقيقيٌّ. فهناك أحقادٌ في البلد نمت على مدى عقودٍ من الحكم الذي يصفه الآخرون بـ«العلويِّ»، لا يمكن غضّ النظر عنها. والصراع ليس وليد العام المنصرم فحسب، بل هو نتاج العقود الأربعة التي حكم فيها الرئيس ووالده قبله. في زيارتي القصيرة التي قضيتها في طرطوس، شاهدت الخوف والترقُّب في عيون سكَّان المدينة، رغم أنَّها مدينةٌ آمنةٌ، لكنَّ الخوف يأتي من الصراع الدائر في مدنٍ أخرى. يأتي من المدن المشتعلة، مثل حمص ودرعا ودمشق وحماة ودير الزور وغيرها من المدن في البلد، يأتي من جثث الشباب الذين يعودون إلى أهلهم من جبهات القتال بالتوابيت. عند مغادرتي طرطوس خفت على غسان، وشعرت أنِّي لن أراه مرَّةً أخرى، وما أخافني ليس الانفصال عن غسان بسبب ما يجري في البلد. ما أخافني أنِّي رأيت غسان قتيلًا طوال الوقت، وهذه الصورة بقيت تعذِّبني، ليس لأيَّام بل لأشهرٍ طويلةٍ.

أبي قادرًا على البقاء في البلد، بعد الخروج من المخيَّم أدرك أنَّ ما يجري ليس له حلٌّ قريبٌ، وألَّا حلَّ لوضعه الشخصيِّ، فليس من المرجَّح أن يجد عملًا، وإن وجد عملًا لن يكون دخله قادرًا على حلِّ مشاكل العائلة بعدما خسر بيته في المخيَّم، وكان دخله من عمله من دون أن يدفع أجرة بيتٍ يحتاج إلى مساعداتٍ من دخل أمي حتَّى نعيش بوضعٍ مقبولٍ وليس جيِّدًا. البلد في غلاءٍ مستمرٍّ، والدخول في انخفاضٍ، وتلاشت الأعمال، والعمل الذي كان أبي يهرب إليه موجودًا. الموظَّفون اللاجئون الذي استمرُّوا بقبض راتبهم، أصبحوا يدفعون هذا الراتب أجرةً للبيت الذي يسكنونه. ضاقت الدنيا على أبي. عندما قرَّر السفر سأل أمي عن رأيها، فقالت: «زي ما بدك» لم تكن قادرةً على التفكير، ولم تعرف ما الذي سنفعله ولا على أيِّ مخاطرةٍ نحن مقدمون؟ وعندما قلت لها: «أبي يقول أنكو أخذتو قرار السفر، صحيح أنت موافقة؟» قالت: «قلتلو زي ما بدك. شو بدي أعمل»، لم أرتح لقرار السفر، ولم يكن القرار واضحًا، لكنِّي لم أقل شيئًا لأبي لا سلبًا ولا إيجابًا، وعندما سألني أجبت كما أجابت أمي: «زي ما بدك» وقلت لنفسي، إذا استجدَّ شيءٌ، أعود لنقاشه، لم أعرف ما الذي يمكن أن يستجد. عندما قلت لغسان إنَّ أبي قرَّر سفرنا، أصيب بالصدمة: «قال ليش بدك تسافري، الكل صار بدو يترك البلد، البلد لمين بدها تظل؟ للمجرمين!»، قلت: «ليش بتقول لي هذا الكلام؟ مو أنا سبب اللي بصير بالبلد»، قال: «مو قصدي، بس ماني متصور البلد من دونك، بدك تتركي البلد وتتركيني؟»، قلت: «شو أعمل، إذا أهلي بدهم يتركوا البلد، أنا شو بظل أعمل لحالي بالبلد»، قال: «احنا اتفقنا نظل مع بعض. صحيح ولا لأ؟»، قلت: «صحيح وأنا بتمنى أبقى معك لأموت. بس إحنا قلنا هذا وما كان هذا الوضع في البلد. بعدين إحنا ما عدنا مع بعض، إنت ببلد وأنا بلد»، قال بصوتٍ حزينٍ: «إذا إنت بدك هيك، اعملي اللي بدك إياه»، قلت: «أنا ما بدي هيك. قلي أنت شو فيني أعمل؟ الحكي سهل. وأنت بتعرف الوضع صعب بالبلد، وإحنا ساكنين عند

الناس، وأبي ما عاد قادر يتحمَّل هذا الوضع لا بيت ولا شغل لا أمان. شو نعمل؟» سكت غسان و عنده ما يقوله. ظننت أنَّه سيقول شيئًا، ظننت أنَّه سيملك الجرأة في هذا الزمن الصعب، ويقول: «تعالي نتزوج وانسي السفر، ما بحتمل بعدك عني»، لكنَّه لم يفعل ذلك. ولم أكن متأكِّدةً هل رغبت فعلًا في أن يقول ذلك، أم أنَّها كانت مجرَّد أمنيةٍ، ولم تكن لتغيِّر شيئًا في مرافقتي لأهلي في هذه التجربة المرَّة. رغبت في أن يتمسَّك بي، حتَّى لو سافرت ولم أبقَ في البلد، رغبت بقوَّةٍ أن يتمسَّك بي، لا سيَّما ونحن في ذروة الأزمة، في هذه اللحظات كان التمسُّك بي يعني كلَّ شيءٍ بالنسبة لي. لو فعل ذلك وسافرت لشعرت بالندم على أنِّي لم أبقَ معه ونواجه المخاطر معًا. بامتناعه عن قول ما يدلُّ على تمسُّكه بي، سَهَّلَ عليّ القرار بمرافقة أهلي في هذه الرحلة الصعبة. لم أرغب في خسارته، أحببته وشعرت أنِّي غير قادرةٍ على الاستغناء عنه، لكنِّي شعرت بالخذلان، هذا الشعور منحني الثقة بأنَّ ما أقوم به هو الصحيح، لا شيء يجعلني أبقى في هذا البلد الذي يدمِّره أبناءه، بصرف النظر من المحقُّ ومن المخطئ؟ أصبح الجميع يبحث عن نجاته الشخصيَّة ونجاة أولاده، بصرف النظر عن الجهة التي يؤيِّدها. بات الجميع مهدَّدًا، فقدت البلد الأمان الذي تمتَّعت به لسنواتٍ طويلةٍ، لا أحد واثقٌ من الغد، ولا أحد يريد العيش في عدم اليقين المرهق الذي تعيشه البلد. شاهدت تأثير الحرب على عائلتي يومًا بعد يومٍ، وشاهدت كيف تحوَّلنا من عائلةٍ تكفي نفسها إلى عائلةٍ محتاجةٍ، وشاهدت كيف تحوَّل أقاربي من أخوالٍ وأعمامٍ، من أناسٍ يكفون أنفسهم إلى فقراء بكلِّ معنى الكلمة. الهرب هو الهرب، سواءً كان هربًا داخل البلد أم خارجها. الهرب الداخليُّ يبقيك في دائرة الخطر والإحساس بعدم الأمان، أمَّا الهرب الخارجي، فهو يمنحك الإحساس بالأمان على الأقل. هكذا فكَّرت عندما أخبرت أبي، أنِّي على استعدادٍ لمغادرة البلد، لأنِّي شعرت أنَّ هذه البلد لا شيءَ لي فيه.

لا أعرف لماذا بقيت أذهب إلى الجامعة، حتَّى أيَّامٍ قليلةٍ قبل السفر، كأنِّي لم أكن مصدِّقةً أنَّ الخروج من البلد سيكون حقيقةً. ولم أقل لأحدٍ من أصدقائي في الجامعة أنَّنا ننوي مغادرة البلد. وفي يوم السفر انتبهت أنَّ السفر حقيقيٌّ، وأنَّنا نجمع أغراضنا الضروريَّة من أجل هذه الرحلة، التي لم يكن حتَّى أبي يعرف أين ستحطُّ رحالنا في ختامها. كانت الخطَّة الرئيسيَّة لأبي، أن نذهب إلى ماليزيا ومن هناك سنجد طريقنا عبر رحلات الترانزيت عبر المطارات الأوروبيَّة، حيث نركب إحدى الطائرات التي تقلع من كوالالمبور باتجاه أيِّ بلدٍ بعيدٍ مثل بلدان أميركا اللاتينيَّة، وتكون هناك محطَّة ترانزيت في إحدى الدول الأوروبيَّة الرئيسيَّة، وعندما تهبط الطائرة في المطار الألمانيِّ أو السويديِّ أو الهولنديِّ، نبقى هناك ولا نتابع رحلتنا مع الطائرة، ونقدِّم طلب اللجوء إلى تلك الدولة، كما فعل بعض معارف أبي. ما خطَّط أبي له شيءٌ وما حصلنا عليه بعد وصولنا إلى كوالالمبور كان شيئًا آخر، لم تكن الرحلة بالسهولة التي توقَّعها أبي قبل وصولنا إلى ماليزيا، ولم تكن وثائق السفر الفلسطينيَّة السوريَّة خاصَّتنا تصلح لأن نقوم بالرحلة، وكان الحصول على وثائق أوروبيَّةٍ مزوَّرةٍ صعبًا جدًّا، أوَّلًا: لأنَّه من الصعب جدًّا تدبُّر جوازات سفرٍ مزوَّرةٍ لعائلةٍ مؤلَّفةٍ من خمسة أشخاصٍ. وثانيًا: كانت هذه الجوازات تحتاج إلى مبالغ كبيرةٍ من المال، لا نملكها. كما كان صيَّادو اللاجئين في انتظارنا وسرقوا مالنا، و مالنا كافٍ للبقاء في كوالالمبور، وهي مدينةٌ غاليةٌ جدًّا، ما فرض علينا تغيير الخطط. كان أبي على استعدادٍ أن يقبل أيَّ خطَّةٍ بديلةٍ، سوى العودة إلى دمشق، مستعدًّا للموت، وليس مستعدًّا للعودة إلى دمشق. صحيحٌ أنَّ الخطَّة التي اعتمد عليها فشلت، لكنَّ هذا لا يعني العودة إلى دمشق مهما كان الثمن. بعد مشاوراتٍ واستشاراتٍ للأصدقاء، قرَّر أبي أنَّنا يجب أن نذهب إلى تايلند وهناك يمكن أن نسجِّل أنفسنا في المفوَّضيَّة العامة للاجئين من أجل إعادة توطيننا في بلدٍ آخر. وعندما سألت أبي: «ليش ما بنروح على مصر، وبنسجل حالنا

بالمفوَّضيَّة هناك، وبننتظر إعادة توطين. بعرف ناس عملت هيك، أحسن ما نظل ببلد ما بنعرف لغتُه» ابتسم أبي ابتسامةً صفراء، شعرت أنَّه يسخر منِّي. تنهَّد وقال: «يا ريت هذا ممكن»، قلت: «ليش هذا مش ممكن؟ أنا بعرف ناس عملت هيك»، قال: «صحيح، بس اللي عملوا هيك سوريِّين مش فلسطينية»، قلت: «ليش شو بتفرق؟»، قال: «المفوَّضيَّة ما بتقبل تسجل الفلسطيني لإعادة التوطين في البلاد العربية، لأنُه إلنا الأونروا، وما بصير نكون مسجلين في منظَّمتين من النوع نفسه، منشان هيك ما بمشي الحال نروح على مصر ونسجل بالمفوَّضيَّة»، شككت في معلومات أبي، وعددته يقول هذا الكلام لأنَّه لا يريد الرجوع إلى الدول العربيَّة. رغم هذا الشكِّ، ذهبت إلى شبكة الإنترنت وبحثت عن المعلومات المتعلِّقة بما قاله أبي. الكثير من احتجاجاتٍ وشكاوى يكتبها فلسطينيُّون في مصر ولبنان على وسائل التواصل الاجتماعيِّ، لأنَّ مكتب المفوَّضيَّة العامَّة للاجئين في القاهرة وبيروت، يسجِّل طلبات السوريِّين لإعادة التوطين، ويرفض تسجيل طلبات الفلسطينيِّين السوريِّين، بحجَّة أنَّ عليهم التوجُّه إلى الأونروا، وعندما يحتجُّ هؤلاء على أن ليس من مهام الأونروا إعادة توطين اللاجئين. يقولون لهم، ليس لنا علاقةٌ بالموضوع، أنتم مسؤوليَّة الأونروا. آلاف الاحتجاجات الموجَّهة للأمم المتحدة ومؤسساتها، لم تغيِّر شيئًا في الموضوع. كان أبي على حقٍّ بما قاله في هذا الشأن، خجلت من شكِّي بأنَّه يكذب من أجل عدم العودة إلى المنطقة، ولأنِّي كنت خجلةً أصبحت أوافق على ما يقول من دون نقاشٍ. فكان علينا أن نتَّبع قراره بالرحيل إلى بانكوك بوصفه قرارًا جماعيًّا.

وصلنا كوالالمبور ونحن قلقون وغادرناها أكثر قلقًا، لذلك لم نرَ من المدينة الجميلة شيئًا يذكر بسبب الظروف التي نمرُّ بها. قضينا حوالي أسبوعٍ هناك، في حالة استنفارٍ لأنَّنا سوف نغادر في أيِّ لحظةٍ بانتظار الوسطاء الذين سيرتِّبون لنا الطريق عبر المطار. كلُّ توتُّرنا ذهب هباءً، لم يحدث شيءٌ من الذي كنَّا نريده. وبات علينا المغادرة إلى بانكوك لننتظر

هناك. وهناك أيضًا كنَّا نعتقد أنَّنا سننتظر فترةً قصيرةً ما بين ثلاثةٍ إلى ستة أشهرٍ ليس أكثر، صحيحٌ أنَّها فترة انتظارٍ طويلةٌ نسبيًّا، رغم ذلك لم نكن متوتِّرين، مثلما كنَّا في كوالالمبور، ننتظر المهرِّب ليأمرنا بالرحيل في أيِّ لحظةٍ. في بانكوك أصبحنا ننتظر قرار الدولة التي ستستضيفنا، ومفوَّضيَّة اللاجئين هي من سيخبرنا بالقرار وأيَّ بلدٍ قبل بنا، إنَّها مؤسَّسةٌ دوليَّةٌ لذلك سنخرج من المطار بطريقةٍ شرعيَّةٍ من دون خوفٍ، لكنَّ الخوف كان لأسبابٍ أخرى في بانكوك.

إذا أردت أن ترى مدينة بانكوك وجماليَّاتها، عليك ألَّا تأتيها لاجئًا، فالمدينة فيها من السحر ما يكفي، لذلك استحقَّت أن تكون مزارًا لملايين السيَّاح. فالمدينة التي عدد سكَّانها حولي ثمانية ملايين نسمةٍ، يزورها أكثر من عشرين مليون سائحٍ سنويًّا. ترى الأجانب في كلِّ مكانٍ على مدار العام، في الشتاء أكثر من الصيف، يهرب الأوربيُّون من برد الشتاء إلى أجواء تايلند المداريَّة الدافئة في شتائها الدافئ الذي تصل فيه درجة الحرارة إلى حوالي الثلاثين درجةً مئويَّةً. يأتي أغلب السياح في فصل الشتاء، ويتجنَّبون القدوم إليها صيفًا، ليس بسبب درجة الحرارة، ولكن بسبب الأمطار الصيفيَّة الكثيفة، التي لا تتوقَّف عن الهطول أحيانًا، تنحسر هذه الأمطار في الشتاء، ما يجعل هذا الوقت نموذجيًّا لزيارة البلد والتجوُّل فيه. ولأنَّنا عرفنا بعد ثلاثة أشهرٍ من وجودنا في بانكوك، أنَّ تقديراتنا للانتظار في المدينة ليست صحيحةً، كان عليَّ محاولة التعرُّف على البلد، ورؤية مناطقه بقدر استطاعتي، نحن هاربون من الحرب ومفلسون، ولا نستطيع أن ننفق مثلما ينفق السيَّاح الذين يستمتعون في البلد. ولم نكن نعيش في الأماكن التي يعيشون فيها، فنحن غير قادرين على ذلك. استأجرنا بيتًا في منطقةٍ فقيرةٍ من ضواحي بانكوك التي فيها أقصى الغنى وأقصى الفقر. «بان بات» هو اسم المنطقة الفقيرة التي سكناها، على الرغم من فقرها، إلَّا أنَّ لها ميزةً

مهمَّةً، فهي تقع بالقرب من المحطَّة المركزية لمترو الأنفاق في بانكوك، أي أنَّها وسط بانكوك.

بدل أن ننتظر ثلاثة أو ستة أشهرٍ كحدٍّ أقصى في بانكوك، انتظرنا هناك حوالي العامين، عامان من الخوف والقلق على مصيرنا المجهول. كان يمكن أن يكونا عامين في غاية الجمال لو أتينا في سياقٍ آخر، ولم نكن هاربين من حربٍ ولا نعرف طريقنا التي أوصلتنا إلى بانكوك إلى أين ستقودنا بعدها. لم نتوقَّع أن ننتظر كلَّ هذا الوقت في هذه المدينة. ننتظر ولا نفعل شيئًا سوى الانتظار، حاولت وحاول أبي أن نجد عملًا مهما كان، لم نستطع العثور على أيِّ عملٍ. لم نكن بحاجةٍ إلى العمل من أجل المال فقط، بل كنَّا بحاجةٍ إلى العمل لقتل الوقت الطويل الذي نشعره يستطيل إلى ما لانهاية، نستمع به إلى أخبار القتل في البلد الذي تركناه، وننتظر خبرًا سعيدًا من مفوَّضيَّة اللاجئين يرفض أن يأتي.

في بعض الأوقات القليلة السعيدة، شاهدت بانكوك كما يجب أن تُشاهد، شاهدتها بعين السائح، أجَّلت إحساسي كلاجئةٍ لساعاتٍ عدَّةٍ في المرَّات التي زرت فيها أماكن لا تنسى في بانكوك المزدحمة بالقادمين إليها من كلِّ مكانٍ في العالم. تعيش مدينة بانكوك أقصى التوتُّر بين حداثةٍ عاليةٍ تنتمي إلى الزمن الراهن، وغرقٍ في التاريخ المحلِّي يعطيها مسحةً تقليديَّةً، ويظهر التوتُّر العالي بين العالم المتقدِّم الذي تطمح أن تكون جزءًا منه وتنتمي إليه، وبين التخلُّف والفقر والتاريخ المحلِّي الذي يجرُّها إلى الخلف، الهوَّة الرهيبة بين غنى المدينة والفقر الهائل في محيطها، عالمان لا ينتميان إلى ذات المكان، ويعيش فيهما الناس أنفسهم الذين ينتمون إلى البلد. إنَّها مدينة التناقضات التي لا تشبه سوى نفسها. قوَّة الحياة في المدينة المستعجلة التي يزورها ملايين السيَّاح المتمهِّلين، هي مكانٌ لتلاقي العوالم الآتية من كلِّ دول العالم، لكنَّ هؤلاء لا يرون من المدينة سوى وجهها الجميل، ولا يفكِّرون أن يلقوا نظرةً على البؤس في ضواحي المدينة الفقيرة.

مدينة بانكوك بوَّابة تايلند تستقبل الملايين وتوزِّعهم على المناطق المتنوِّعة التي يفضِّلونها في تايلند. زيارة القصر الكبير في تايلند أصابتني بالدهشة من الحجم الهائل للقصر المبنيّ على الطريقة التقليديَّة الفاخرة، يمتد القصر على مساحاتٍ واسعةٍ، تضفي عليه قببه الذهبيَّة المدبَّبة سحرًا خاصًا، قببٌ ذهبيَّةٌ بأحجامٍ وارتفاعاتٍ مختلفةٍ وفق المباني التي وُضِعَت فوقها هذه القبب، كلُّها مندمجةٌ في مشهدٍ هائلٍ للقصر ذو اللون الأبيض الذي تعتليه هذه القبب. وفي معبد بوذا المضجع والقريب من القصر الكبير. هناك بعض التشابه مع العمارة في القصر الكبير، القبب متشابهةٌ، في القصر الكبير جميع القبب ذهبيَّةٌ، وفي المعبد هناك قببٌ فضيَّةٌ، جدران المعبد منقوشةٌ يغلب عليها اللون الأزرق. وهناك تمثالان ضخمان كأنَّهما يحرسان ضريح بوذا، تزيِّن التمثالين نقوشٌ دقيقةٌ بالأخضر والأزرق والأحمر، تمثالان ضخمان متماثلان يستندان على سيفيهما المغمدين. نقوش المعبد الزرقاء تحدُّها خطوط الأعمدة الذهبيَّةٌ. قببٌ في كلِّ مكانٍ، قببٌ ساحرةٌ، قببٌ فوق الأبنية، قببٌ فوق الشبابيك، قببٌ منفردةٌ في كلِّ مكانٍ، قببٌ ذهبيَّةٌ، قببٌ فضيَّةٌ، كأنَّه احتفالٌ بالقبب. أمَّا تمثال بوذا المضجع الذهبيُّ فهو لوحةٌ فنيَّةٌ، إنَّ باطن القدمين للتمثال وحدها مطعَّمةٌ بعددٍ لا يحصى من الأحجار الكريمة، فهو عملٌ فنيٌّ ليس من السهل وصفه. إنَّ الجمال المعماريَّ للمكان، يعطيه سحرًا خاصًّا، وعندما تضاف إليه قداسته عند التايلنديين نصبح أمام السحر بعينه.

وتجربة السوق العائمة لا يمكن نسيانها في بانكوك، إنَّه سوق دامنوين سادواك لبيع الخضار والفاكهة، الذي يُقام على نهر تشاو فرايا الذي يخترق العاصمة، يقام السوق في منطقةٍ خارج بانكوك تبعد حوالي مئة كليو مترٍ. إنَّه سوقٌ من المراكب الصغيرة التي لا تعدُّ ولا تحصى في المكان، أغلبها لنساءٍ تايلنديَّاتٍ يرتدين قبَّعات القشِّ التقليديَّة، فيها جميع أنواع الخضار والفاكهة الطازجة، التي تجعل النهر لوحةً فنيَّةً رائعةً من تعدُّد الألوان

بتعدُّد ألوان الخضار والفاكهة المعروضة للبيع في السوق الهائل. وهناك من المراكب من يقدِّم الطعام، حيث يمكن مشاهدة أدوات الطبخ والأطباق، حتَّى بخار الطعام من بعض المراكب. إنَّه مشهدٌ ملوَّنٌ لازدحامٍ منظَّمٍ ومحبَّبٍ للنظر. كانت هذه الأوقات الجميلة مسروقةً من سنتي القلق وأيَّامها الطويلة التي عشناها في بانكوك، طبعًا لم نكن سيَّاحًا، والفقراء عليهم أن ينضموا إلى غيرهم من الفقراء، فسكنا في المناطق الفقيرة. لا أحد يريد أن يرى المناطق الفقيرة في بانكوك، لا أهل المدينة الأغنياء ولا السائحين، الذين يأتون لما يبهرهم، والفقر لا يبهر أحدًا، لا سائحين ولا سكَّان محليِّين.

بعد انتهاء الفيزا السياحية التي مُنحت لنا في مطار بانكوك، أصبحنا نخاف من ملاحقة الشرطة، التي تلاحق المخالفين من اللاجئين من أجل ترحيلهم إلى بلدانهم. بعد وصولنا بحوالي ستة أشهرٍ، اندلعت المظاهرات في بانكوك احتجاجًا على الحكومة، وكانت الأحياء الفقيرة الوقود لهذه التظاهرات. رغم خوفنا من هذه المظاهرات، إلَّا أنَّ الشرطة كفت عن ملاحقتنا، لأنَّها انشغلت بالتصدِّي للمظاهرات. وبات الوضع الأمنيُّ في البلد صعبًا. اقترحت على أبي العودة إلى دمشق، فشعر بالفزع وقال: «شو رح نعمل بالشام؟!»، سألته: «وشو عمنعمل هون يابا؟!»، قال: «على الأقل، هون عبننتظر حل، هناك شو رح نعمل؟»، قلت: «صرنا عمبننتظر كثير، وما بنعرف قديش رح ننتظر؟»، قال: «الرجعة على الشام، رح ترجعنا للصفر. بجوز أكون هون بانتظار وهم، بس هناك حتى وهم ما عاد في».

كنت أرغب بشدَّةٍ العودة إلى دمشق، فلم أجد معنًى لهذه الرحلة التي لا تنتهي، وأمام فزع أبي من العودة إلى دمشق، أقنعت نفسي أنَّ من الأفضل الانتظار، فلا شيء نفعله هناك في دمشق فعلًا، كما يقول أبي. وبات الانتظار أصعب، وازدادت المخاوف من الترحيل، وخاف أبي من أن يضطر للبدء من مكانٍ جديدٍ، بعد هذا الانتظار الطويل. كنَّا خائفين من

المظاهرات التي حمتنا من الشرطة مؤقَّتًا، لكن بعد أشهرٍ من المظاهرات، جاء الانقلاب العسكريُّ ليعيد الهدوء إلى البلد، وبعد عودة الهدوء عادت الشرطة لملاحقة اللاجئين بإصرارٍ أكبر من السابق، وهذا ما جعلنا نهرب مرَّاتٍ عدَّةٍ من ملاحقتهم بتركنا البيت عندما تحضر الشرطة، وكان الجيران يساعدوننا في ذلك. كانت فترة الانتظار في ظلِّ المظاهرات صعبةً، ولكن الفترة التي تلتها من التشديد الأمنيِّ كانت أصعب، وأصبحنا أكثر تعبًا ويأسًا، واقتنعت بأنَّ المفوَّضيَّة تكذب علينا، وأنَّنا لن نغادر بانكوك يومًا وسننتظر هناك إلى الأبد. بعد أن أصابنا اليأس، وشعرت حتَّى أبي قادرًا على إقناع نفسه بجدوى الانتظار، وبدأ يذهب إلى مبنى المفوَّضيَّة، وهو يعرف الجواب سلفًا من كثرة ما سمعه من قبل، وبدأ يفكِّر جديًّا بالعودة، منعه من ذلك اعتقاده بأنَّ الظرف الذي سيعود للعيش فيه في دمشق أسوأ من الانتظار الوهميِّ في بانكوك. على الأقل ما زالت عمَّتي سمر وزوجها ملتزمين بوعودهما بشأن الانتظار، رغم أنَّه طال أكثر بكثيرٍ ممَّا توقَّعوا. في حال العودة إلى دمشق ستنتهي هذه الالتزامات، وإن استمرَّت لن تستمرَّ بالطريقة السابقة. والأهمُّ أنَّ العودة إلى دمشق تعني إقرار أبي بالفشل، وهذه المرَّة لم يرغب في هذا الإقرار، لأنَّه لن يكون فشلًا جزئيًّا يمكن تجاوزه، بل سيكون فشلًا مطلقًا ونهائيًّا، لذلك امتلك القدرة الهائلة على الصمود في بانكوك. عندما أخبرته المفوَّضيَّة أنَّ نيوزيلندا وافقت على استقبالنا، رجع من المفوَّضيَّة كالغريق العائد من بحر الظلمات. لم يكن مصدِّقًا ما سمع، إنَّها نهاية الكابوس بالنسبة له، كابوسٌ طال أكثر من قدرة البشر على الاحتمال. كانت نيوزيلندا التي تقع على حافَّة العالم، هي الحلُّ البديل من البلد ذات الحرب المشتعلة، التي لا يُعرَف لها نهاية، وفي بلدٍ يكاد لا يُرى على خريطة العالم، ولا أحد مهتمٌّ بإنهاء مأساته. منحنا القرار الراحة، صحيحٌ أنِّي تمنَّيت أن تستقبلنا دولةٌ أوروبيَّةٌ مثل ألمانيا، لكن ما حصلنا عليه، أفضل من البقاء في انتظار لا ينتهي، وأفضل من العودة إلى

بلدٍ العيش فيه ممكنًا. في كلِّ الأحوال كانت نيوزيلندا الحلَّ السيِّئ، لكنَّها أفضل من الكارثة التي كنَّا نعيشها في دمشق، والتي باتت أسوأ خلال سنتين من غيابنا.

ظننت أنَّ الوصول إلى نيوزيلندا سيكون بدايةً جديدةً، تنهي العذابات التي عشناها بعد الخروج من المخيَّم، لم أتخذ موقفًا مسبقًا منها، لا سلبيًّا ولا إيجابيًّا، كنت مرتاحةً للخلاص من تايلاند، وهذا إنجازٌ بالنسبة لي. أخذ أبي يجمع المعلومات عن البلد الجديد الذي سننتقل إليه، وكان سعيدًا على الأقل لأنَّ البلد الذي سنذهب إليه يتحدَّث الانكليزيَّة، أي لم نكن بحاجةٍ إلى تعلُّم لغةٍ جديدةٍ، كلُّ ما نحتاجه هو تطوير لغتنا الانكليزيَّة. وهذا ما عدَّه خطوةً مهمَّةً، لا سيَّما أنَّنا -أنا وإخوتي- لغتنا الانكليزيَّة جيِّدةٌ، وأمِّي درست أصلًا أدب انكليزي في جامعة دمشق، أبي كان الأسوأ بيننا في اللغة.

لم نعرف في أيِّ مكانٍ سنسكن في البلد الجديد؟ ظنَّ أبي أنَّنا سنسكن في مدينةٍ كبيرةٍ، لأنَّ المفوَّضيَّة أخبرتنا أنَّنا سنذهب إلى مدينة أوكلاند، وهي من المدن الكبيرة هناك. لكنَّها لم تكن المكان الذي سنسكن فيه، بل سنسكن في قرية مانغويل التي تبعد عنها حوالي مئةً وخمسين كيلومتر، ولا يتجاوز عدد سكَّانها الألف شخصٍ. مكانٌ يشبه الجنَّة التي تحدَّثت عنها الكتب المقدَّسة، ليس أقلَّ من ذلك، والبحر القريب من القرية يضفي على الجنَّة سحرًا إضافيًّا. كان هذا بشأن الطبيعة، وماذا بعد ذلك، وماذا بعد الوصول؟ والحصول على مكان سكنٍ والشعور بالأمان؟ ماذا عن الانتظار من جديدٍ؟ صحيحٌ أنَّ انتظار بانكوك كان مشوبًا بالخوف، لكنَّه كان انتظارًا لحدثٍ يخلق نقلةً في حياتنا، لكنَّ الانتظار هنا كان رتيبًا ومفتوحًا على الأبد. هل تكفي الطبيعة الجميلة حتَّى يبدِّد المرء فيها حياته في انتظار شيءٍ لن يحدث أبدًا؟ هذا السؤال الذي أقلقني منذ الوصول إلى نيوزيلندا. مبكرًا شعرت أنَّ البشريَّ يموت في داخلي، وأنَّ كلَّ الأماكن التي أذهب إليها ليست مكاني. صحيحٌ أنِّي لست ابنة دمشق، وأنِّي لاجئةٌ بالولادة، كما كان أبي

من قبلي، في نيوزيلاندا شعرت بالانتماء إلى المكان، شعرت أنِّي ابنة مدينة دمشق، إنَّها مكاني رغم كلِّ شيءٍ. هناك أعرف الفوارق بيني وبين الآخرين، إنَّها المكان الذي أعرف التحرُّك فيه، والبشر الذين أتعامل معهم، إنَّه عالمي. طوال الطريق الذي استهلك عامين من عمري، لم أكن مقتنعةً بالطريق الذي نسير فيه، لم تكن الحرب أخطر من الرحلة التي قطعناها للوصول إلى الموت الهادئ في هذا المكان القصيِّ، إنَّها الحياة المعادلة للموت. لا يمكن النظر إلى الحياة في ذلك المكان سوى بوصفها معادلًا للموت. حاولت إقناع نفسي أنِّي فتاةٌ قويَّةٌ، أستطيع أن أبدأ حياتي من جديدٍ، ولا شيء يقف في وجه ثقتي بنفسي، كان هذا وهمًا، وكنت أضعف من أن أبدأ حياتي من الصفر، بعد أن بدَّدت سنتين منها وخسرت دراستي. حاولت مجاملة أمِّي وأبي في هذا الخيار الرديء والقاسي، لكنِّي لا أجاملهما بيومٍ أو يومين من عمري، إنِّي أجاملهما بعمري كلِّه، سأضيِّع عمري في هذا المكان الذي لا يعني شيئًا بالنسبة لي، سوى أنَّه مقبرتي. كان أبي راضيًا عمَّا أنجزه بإيصالنا إلى ما ظنَّ أنَّه برُّ الأمان، ولكن أيَّ أمانٍ الذي يُسرَق منَّا حياتنا ويجعلها فارغةً من كلِّ شيءٍ. أصبح عالمي كلُّه ينحصر في شاشة موبايلي، علاقاتي في كلِّ مكانٍ في العالم، عدا المكان الذي أنا فيه. ذهب إخوتي إلى المدرسة في المدينة القريبة من القرية التي نسكن فيها، وهذا خفَّف عنهم وحشة المكان المنعزل، وأخذوا يبنون علاقاتٍ جديدةً مع زملائهم في المدرسة، ما جعلهم أكثر سعادةً بكونهم يقومون بشيءٍ ما، وكانوا يغيبون أطول وقتٍ ممكنٍ في المدينة التي يدرسون فيها، بعد المشاكل التي باتت تنشب بيني وبين أمِّي وأبي. صحيحٌ أنَّ الفيسبوك والماسنجر والواتس أب وغيرهم من وسائل التواصل الاجتماعيِّ على الموبايل تخفِّف وحشة المكان، لكنَّها لا تصنع حياة، ولا يمكن لي أن أقضي حياتي وراء شاشةٍ غبيَّة في يدي. تقدَّمت بطلباتٍ من أجل قبولٍ جامعيٍّ، لكن كلُّها جاءت بالاعتذار، وبحثت عن عملٍ، واجهت المصير نفسه، فليس هناك سوقٌ جدِّيٌ للعمل في المكان الذي

نعيش فيه وحوله. أُغلِقَت كلُّ الطرق في وجهي، لم أستطع أن أجد سببًا يُبقِيني في المكان، ولم تكن صلتي بغسان قد انقطعت منذ غادرت البلد، لم أكن قادرةً على قطعها على نحوٍ نهائيٍّ، باتت متقطِّعةً بحكم الواقع، عندما يكون الوضع سيِّئ في دمشق تفتر علاقتنا، لأنَّ غسان ينشغل بالخوف من المصير السيِّئ في حال وقع الحدث الذي يخاف منه، بسقوط النظام، وأحيانًا يكون وضعي مأساويًّا لا سيَّما في فترة بانكوك، أشعر نفسي لا تطيق نفسي، فتفتر العلاقة، وأسأل نفسي، ما معنى الاحتفاظ بعلاقةٍ عبر آلاف الأميال، من دون أملٍ في اللقاء؟ كان هناك شيءٌ عبثيٌّ في استمرار العلاقة بهذه الطريقة. وفي المقابل لم يكن هناك حياةٌ في المكان الذي أعيش فيه تغريني بالبقاء وترك حياتي السابقة والسير إلى الأمام.

لأنَّه لا مستقبلَ، أصبحت أسيرة الماضي، استمرَّت حياتي في دمشق عبر الموبايل، كنت أقطع المسافات ابتعادًا عنها، لكنِّي استمرُّ بالعيش فيها رغم المسافات، لا علاقات جديدةً لي، علاقاتي هي ذاتها التي أقمتها في دمشق، سواءً بقي أصدقائي وصديقاتي في دمشق أو غادروها، فهي في النهاية علاقاتي الدمشقيَّة. ولم يكن غسان خارج هذه المعادلة، لم يكن هناك علاقةٌ جديَّةٌ أخرى يمكن أن أقيمها لتجاوز هذه العلاقة، التي وجدت نفسي أسيرتها أيضًا، ليس بسبب المشاعر فقط، بل ولغياب البديل المقنع والجدِّي أيضًا. مع التدخُّل الروسيِّ في الحرب المجنونة، بدأ الوضع يتحسَّن لمصلحة الدولة، وبدأت أشعر أنَّ غسان أصبح أكثر ثقةً وأقلَّ خوفًا على مصيره ومصير عائلته، لقد باتت السلطة أقوى بهذا التدخُّل، ما أبعد إمكانيَّة سقوطها، وبالتالي تعرُّض الطائفة إلى مذابح يتوقَّعونها. وأصبحت اتصالاتنا أكثر استقرارًا. وخلال هذه الفترة أنهى غسان دراسته في الجامعة، وافتتح شركةً للخدمات الماليَّة والتجاريَّة في دمشق، وقال إنَّه مشروعٌ ناجحٌ، لأنَّه استطاع خلال مدَّةٍ وجيزةٍ الوصول إلى كثيرٍ من الزبائن، وهو يقدِّم تسهيلاتٍ لمشاريعهم التجارية ويسوي مشكلاتهم الماليَّة، وهو يعمل في التحويلات

الماليَّة من الداخل إلى الخارج ومن الخارج إلى الداخل أيضًا. وقال إنَّ الشركة تدرُّ عليه دخلًا كبيرًا رغم الأوضاع الاقتصاديَّة الصعبة في البلد. لم يكن ما يقوله بحاجةٍ إلى ذكاء لمعرفة أنَّ الشركة التي يتحدَّث عنها، هي شركةٌ محميَّةٌ من والده ومركزه، ليس مسموحًا للكثيرين التعامل مع التحويلات الماليَّة، ولا يمكن التعامل مع العملة الأجنبيَّة لأيٍّ كان في البلد، لقد باتت حيازة مبلغٍ قليلٍ من الدولارات تهمةً، وأيُّ تمويلٍ يأتي من الخارج يمكن أن يتحوَّل إلى تمويلٍ للإرهاب وعلى مبالغ صغيرةٍ. لقد فهمت ما لم يقله غسان، ولم أكن بحاجةٍ ليقوله لأعرف أنَّ عمله هذا لمصلحة والده وبتغطيته.

عندما اقترح عليَّ العودة إلى دمشق من أجل أن نتزوَّج، عددت هذا مزحةً سخيفةً منه، حتَّى عندما أكَّد أنَّها ليست مزحةً، لم أصدِّقه. لم أحبَّ هذا النوع من المزاح، أشعر أنَّه يؤذيني ويتلاعب بي. وعندما حاول مرَّةً أخرى أن يعيد الكلام نفسه، لم أسمح له، وقلت له: «غسان إذا بظلك تحكي معي هيك، رح بطل رد عليك نهائي»، قال: «مالك، ما عدت أعرف أحكي معك»، قلت: «ما عندي مشكلة تحكي معي، بس أنت بتعرف ما بحب هيك مزح»، قال: «أحلف لك بشو أنُه اللي بقولوا مو مزح؟»، قلت: «ما في داعي تحلف، بس ما تحكي معي هيك»، قال: «طيب اسمعيني، وبعدين أحكمي زي ما بدك»، قلت: «اتفضل»، قال: «رح كون صريح معك. أنا بصراحة ما قادر أعيش من دونك. وأنا لما بقول بنتجوز، بقصد ما أقول. بعرف أنو صرلنا سنين ما شفنا بعض، والتلفون ما بكفي. ولا بدي أكذب عليكي وأقلك ما عرفت حدا غيرك بعد ما سافرتي. وهناك سببين لأعرض عليك الزواج: الأول، أنِّي فعلًا بحبك وما بقدر أعيش من دونك. والثاني، كل اللي عرفتن، كانلن مصلحة، وهي التي رمتهن عليّ، مش الحب، وأنا ما بقدر أبني عائلة على المصلحة. أنت الوحيدة اللي مرت بحياتي، كانت بتحبني بلا مصلحة»، قلت: «كثير منيح، شو بتقصد بنتزوج وكيف؟»، قال: «نتجوز مثل

ما كل الناس بتتجوز، حفلة وعرس»، قلت: «بموافقة أهلك، وعلى راسهم أبوك؟»، قال: «طبعاً، أنت وافقي وما بصير غير اللي بدك إياه»، قلت: «ما بعرف شو بدي أقلك، مع كل اللي قلتُه ماني مصدقتك»، قال: «أنت وافقي، وشوفي كيف ما بكذب عليكي. شو قلتي؟»، قلت: «ما بعرف» كنت أعرف، وددت أن أقول له موافقةٌ فورًا، جواب «ما بعرف» أعطيت به مسافةً لنفسي للتفكير. لم أرد قول دعني أفكِّر، لأنَّ مثل هكذا جواب يمكن أن يحمل معنًى سلبيًّا، حمل جوابي معنى الحيرة، وهذا طبيعيٌّ في ظروفٍ صعبةٍ وقاسيةٍ ومحيِّرةٍ مثل التي مررنا بها جميعًا. كان جواب «ما بعرف» جواب الفرصة المفتوحة، الذي يمكن ألَّا أجيب عليه، وأبقى أردِّد الجواب ذاته. كنت محتارةً فعلًا، العيش في المكان الذي وصلنا إليه ليس ممكنًا بالنسبة لي، والعودة إلى دمشق ليست ممكنةً، إنَّهما خياران أردأ من بعضهما. حتَّى أخرج من المأزق الذي أعيشه، كان عليَّ تغيير طريقة التفكير. ليس عليَّ أن أعرف الجيِّد من السيِّئ فهذه مسألةٌ بديهيَّةٌ يمكن للأطفال الصغار معرفتها، لكنَّ الحياة تقدِّم نفسها لي بخياراتٍ سيِّئةٍ فقط، ولذلك عليَّ أن أرى أيَّ الخيارات السيِّئة يناسبني أكثر. عندما فكَّرت في مستقبل حياتي في نيوزيلندا، كان الشريط القادم شريطًا كئيبًا، مملًّا، رتيبًا، غربةٌ لا نهائيَّةٌ في مكانٍ لا يعني لي شيئًا. العودة إلى دمشق يعني العيش في ظلِّ الأخطار، لكنَّها حياةٌ قد تكون أقلَّ مللًا، حياةٌ بين أناس أعرفهم، وفي مكانٍ أعرفه، وأعرف كيف أتصرَّف داخله. المسألة المؤرِّقة الأهمُّ هي غسان، لم تكن المشكلة في انتمائه الطائفي، فهذه مفهومةٌ، لا أحد منَّا يختار طائفته، وصحيح أنَّه لا يختار والديه، لكنَّ غسان لا يملك أيَّ أبٍ، إنَّه ضابطٌ مخابراتٍ كبيرٌ. وفي ظلِّ الحرب، على يد الرجل الكثير من دماء الآخرين. صحيحٌ أنِّي لا أؤيِّد الإرهابيِّين، والسلطة أفضل ألف مرَّةٍ من هؤلاء، لكنَّ مشكلة والد غسان ليس في موقفه المؤيِّد للنظام ولا عمله داخل النظام، بل المشكلة ماذا يعمل بالضبط؟ لا سيَّما وأنَّه من مسؤولين قلائل فُرِضَت

عليهم عقوباتٌ دوليَّةٌ بسبب تورُّطهم في جرائم حربٍ. لم أكن قادرةً على اتخاذ قرارٍ، حتَّى عندما فكَّرت بمصلحتي، كان الموضوع صعبًا. لسنا مسؤولين أنا وغسان عن الأوضاع التي وجدنا أنفسنا فيها، ولم نختر هذه الأوضاع، المسألة بسيطةٌ، نحن نحبُّ بعضنا ومن حقِّنا أن نقيم حياةً مشتركةً. لم أكن بحاجةٍ إلى أحدٍ آخر، ليقول لي أنَّ غسان، ليس ابن أبيه بالمصادفة، فهو منخرطٌ في أفعال أبيه، ولولا مكانة أبيه، لا عمل لغسان، وما استطعنا الزواج، لأنَّ أوضاع الشباب تسوء يوميًّا، ولا أحد منهم قادرٌ على الزواج، سوى المستفيدين من السلطة. وأسئلةٌ أخرى حول الزواج نفسه، هل ينجح هذا الزواج؟ هل يقبلني أهله؟ ماذا سأفعل إذا فشل هذا الزواج؟ وإذا فشل، هل سيتركني أمضي من دون انتقام؟ ماذا أفعل إذا لم يناسبني هذا الزواج؟ ماذا سأفعل هناك غير الزواج؟ ماذا سأعمل؟ ما موقف الآخرين من الزواج؟ أنا متأكِّدةٌ أنَّ أهلي سيعلنون الحرب عليَّ، ولكن ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن أصدقائي المتعاطفين مع المناطق المنكوبة والمدمَّرة؟ دارت دوَّامة الأسئلة والأفكار بي وشعرت نفسي منهارةً، سألت نفسي، لماذا عليَّ أن أعيش هذه الحياة وأسأل نفسي هذه الأسئلة؟ ألا أستحقُّ حياةً أقلَّ تعقيدًا؟ المزيد من الأسئلة، لم يعنِ أنِّي سأجد أجوبةً عليها، لكنَّها تتناسل على نحوٍ مخيفٍ في أوضاع لا أحد يعرف إلى أين يسير؟ قلت لنفسي سأوقف التفكير، فأنا لن أصل إلى قرارٍ بهذه الطريقة.

«لم أتسبَّب بالحرب، لذلك لا أتحمَّل مسؤوليَّتها ولا تبعاتها، لماذا أشغل نفسي بأسئلة لا معنى لها»، كان طرد الأسئلة من رأسي مدخلًا لاتخاذ قراري بالعودة إلى دمشق، لم أحاول تبريره، اتخذته على قاعدة لأرتكب خطأً جديدًا. لن أبقى في هذا المكان المقبرة. أبلغت غسان أنِّي موافقةٌ على الزواج وأنَّني سأعود إلى دمشق. كان هذا الجزء السهل من القرار، والصعب كيف أخبر أبي. حاولت التمهيد بالمطالبة من جديدٍ بالعودة إلى دمشق. سألني: «شو رح تعملي بالشام؟»، قلت: «وشو عبعمل هون؟!» لم أستطع إخباره

بأنِّي سأعود لأتزوَّج، ولم أستطيع أخباره بمن سأتزوَّج وماذا يعمل والده؟ كنت أعرف، أنَّه سيعرف عاجلًا أم آجلًا، لكن لم أرغب في أن يعرف منِّي، ولم أرغب في خوض صراعٍ معه حول هذا الموضوع، كان يكفينا الصراع من أجل العودة إلى دمشق. لأنِّي عندما أخبرته بأنِّي سأعود إلى دمشق، شعر بالخذلان وأنِّي أنكر عليه التضحية التي أقدم عليها من أجلنا. أصبحنا نتشاجر كلَّ يومٍ، مرَّةً مع أمِّي ومرَّةً مع أبي. حاول أن يقنعني بكلِّ الوسائل، لكنِّي لم أقتنع بالبقاء، حاول بالتهديد وعرف أنَّ هذا لن يجدي. استسلم أخيرًا، وقال: «ما بقدر أجبرك تظلي. وما بقدر ظل اتخانق معك. خلص اعملي اللي بدك إياه»، أمِّي لم تستسلم حتَّى آخر لحظةٍ حتَّى أنَّها أخذت تدعو عليَّ: «إذا رجعت بغضب عليكي..»، «يا بنتي، يا حبيبتي شو بدك تروحي تعملي هنيك...»، «إحنا ما صدقنا وصرنا هون»، لم أعد أسمع أيَّ شيءٍ، رغبتي بالعودة إلى دمشق جعلتني لا أرى ولا أسمع. حوَّل غسان لي بعض المال، الذي حجزت بجزءٍ منه بطاقة الطائرة إلى بيروت. لم آخذ شيئًا معي، فقط حقيبة ظهري، وعندما رغبت في وداع أبي، رفض، ورفض معانقتي. كنت أرغب في عناقه، لأنَّها يمكن أن تكون المرَّة الأخيرة التي أراه فيها، رفض بكلِّ عنادٍ. شعر أنَّ عودتي إلى دمشق خيانةٌ له. حزنت لأنِّي لم أستطع وداعه. قالت أمي: «أبوك طيِّب وبكرة بروق»، قلت: «إن شاء الله»، قالت: «إقامتك معك، بالله عليك فكري ترجعي. الشام ما عاد ينعاش فيها»، عانقت أمِّي وإخوتي وغادرت.

في الطائرة التي أقلعت باتجاه بيروت، كانت كلمات أمي: «... الشام ما عاد ينعاش فيها» تتردَّد في رأسي. هذا صحيح، ليس الشام وحدها لم تعد تصلح للعيش، أصبح العالم كلُّه مكانٌ غير صالحٍ للعيش بالنسبة لي. لذلك أركب رحلتي في الطائرة التي تعيدني إلى دمشق، المكان السيِّئ الذي يناسبني.

أمَّا الموت جوعًا فهو موتٌ بطيءٌ قاسي، لا شيء خارجيٌّ يدمِّر أجزاءً من الجسد، الجسد يضعُف، يخبو، يهبط، يسقط، ينهار، ويتوقَّف عن القدرة على حمل ذاته، فلا شيء يمدُّه بالقوَّة، يأكل نفسه، إنَّه أبشع أنواع الموت. في جنازة الأخرس، كنا جائعين نشيِّع جائعاً قتله الجوع، ننظر إليه وكأنَّه مصيرنا بعد أيَّام إذا لم نجد ما نأكله. بعد أن نقلنا جثَّة الأخرس ودفنَّاه في المقبرة الجديدة، بقيت أهجس بصورته التي لم تفارقني، أصبحت أتفقَّد جسدي بين الحين والآخر، أنظر إلى نفسي بالمرآة في البيت كلَّ ساعة تقريبًا، لا لأرى نفسي، بل لأعرف كيف شكل جسدي الهزيل وهل يشبه جثَّة الأخرس التي لا تريد مغادرة رأسي؟



كاتب وروائي فلسطيني، رواياته: "قبر بلا جثة"، "دفتر الرئيس"، "في غبار الماضي". من دراساته: "النظام العربي ـ ماضيه، حاضره، مستقبله"، "تحولات التجربة الفلسطينية"، "واقع الفلسطينيين في سورية".





LAMASSU
دار لاماسو للنشر والتوزيع